معالم تاريخ المغرب والأندلس

الدكتور حسين مؤنس



الناشـــــر : دار الرشـــاد
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٧٨٩٤ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى : 5 - 50 - 5324 - 977
الطبـــــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : أوس الكمبيوتر
العنـــــوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف مجلس الأمة
تليفـــــون : ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الثانية : ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م (الطبعة الأولى للدار)
الطبعة الثالثة : ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م (الطبعة الثانية للدار)
الطبعة الرابعة : ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م (الطبعة الثالثة للدار)
الطبعة الخامسة : ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م (الطبعة الرابعة للدار)
مراجعـــــة : عادل أبو المعاطى ، محمد دياب
غـــــلاف : عربية للطباعة والنشر
خطـــــوط : لمعى فهيم

تقـديـم للطبعة الجديدة

عندمـا كتبت هذا الكتـاب كان هدفى الأسـاسى خدمـة الطالب الجامعى العربى ، لأن تـاريخ المغرب والأنـدلس مقرر على طلبـة كليات الآداب فى كل بلادنا العربية والإسلامية ، وعندما كتبته وقفت فى تاريخ المغرب عند نهاية الدولة الموحدية ، ولكنى كتبت تاريخ الأندلس كله موجزاً طبعاً ، وقمت بعد ذلك بكتابة تاريخ المغرب الإسلامى كـاملاً كله فى ثلاثة مجلدات ، نشرت فى السعودية سنة ١٩٨٨ ، ولهذا لم يعد الأمـر يستدعى أن أكمل تاريخ المغرب فى هذه الطبعـة ، لأن تاريخ المغـرب الكبير يسد هـذا الفراغ ، ثم إن الطـالب العربى لا يحتاج فى دراستـه إلى أكثر مما فى هذا الكتاب ، وأنـا أرى أنه كتاب طيب ومفيد ، وقـد أفاد الكتاب كثيراً منذ نشره ، وكان ينبغـى أن أعيد طبعه من زمن طـويل ، فظللت أنتظر النـاشر حتى جاء الأخ الكـريم عصام رشـاد وتفضل بـالقيـام بهذه الطبعة الجديـدة ، وأنـا أشكره على ذلـك وأرجو لـه التوفيق .

وسلام على القارىء وأحسن التمنيات له ....

د. حسين مؤنس

١٩٩٢/١١/١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد :

هذا الكتاب مقدمة فى تاريخ المغرب والأندلس ـ والمغرب ، وهو يشمل الشمال الإفريقى كلـه غربى مصر ـ وتدخـل فيه الصحراء الإفريقيـة الكبرى ، والأندلس وهو شبه جزيرة أيبريا ، أى ما يعرف اليوم بأسبانيا والبرتغال ، وهما معاً يمثلان ربع عالم الإسلام .

ولا زال المغرب الإسلامى قويًّا مباركاً متقدماً إلى يومنـا هذا ، عمره ـ بما فى ذلك فترة الفتح ـ قرابة الأربعة عشر قرناً هجرياً ، وأما الأندلس فقد بدىء فى فتحه سنة ٩٢ للهجرة / ٧١١ ميلادية ، وكان خروجـه من عالم الإسلام سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، أى أنه عمَّر فوق الثمانية قرون هجرية .

ومن هنـا كانت صعـوبة دراستهما معـاً فى مادة واحدة مـن مواد الـدراسة الجامعية لأن عـدد الدروس المخصصـة له على النظـام العادى يبلـغ ٤٤ درساً ، وعلى نظام المقررات ٣٦ درساً ،وخلال هذه السـاعات المعدودات تصعب الإحاطة بتاريخ القطرين معًا ، خاصة وأن دراسة التاريخ اليوم تُعنَى بالحضارة والتطور الاجتماعى والفكرى والاقتصادى فى المكان الأول .

فمهما بذل الموكَّل بتـدريس هذه المادة من جهـد فما هو ببـالغ شيئاً يـذكر ، وغايـة مـا يتمكن من إعطـائه هو التعريـف بالبدايـات أو بتواريخ بعـض الدول والرجال .

وهذا هو الذى حدانى إلى وضع هذا الكتاب .

فإننى رأيت أن كلا المعلم والمتعلم فى حاجة إلى كتـاب أساسى يكون بين يديه مغطيـاً تـاريخ القطرين فى إجمال رشيـد ، يمـر بـا لمعالم الرئيســيةِ والمراحل

المتبـــاينة ، ولا يترك شيئـاً مما تهم دراسته فى الناحيتين السياسيــة والحضارية دون دراسة متأنية .

فأما بالنسبة للأستاذ فهذا الكتاب بداية .

وأما بالنسبة للمتعلم أو القارىء العادى فهو الغاية والنهاية .

ومن هنا ينطبق عليه المعنى الذى قصــد إليه ابن رشد عندما سمى مختصره فى الفقه المالكى « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

وهذه هى الفكرة وراء تسـمية « كتــاب الأســـاس » التى أطلقـــناها على هذا الكتــاب ، وما قــد يستجد بعــده فى مــواد أخرى ، إذا قبل النــاس الفكرة وشــاءوا توسيع مداها .

ذلك أن الكتاب ، سواء أكــان عاماً أم جامعياً أم دراسيــاً ، يعتبر اليوم مشكلة من مشاكل الثقافة العريضــة المعاصرة ، وفيما يتصل بالكتاب العلمى أى الكتاب الذى يـؤلف فى مادة معينة نــلاحظ اضطراباً واسع المدى فهنــاك كتب كثيرة جداً تخلو من المنهج والطــريقة والمادة السليمــة المستقصية ، وإنما هو كــلام مرسل ومقسم إلى فصول متواليــة ، دون تفريق بين مهم وغير مهم ، ودون عنايــة بذكر مراجع رجع إليها المؤلف حقاً ، وفى معظم الحـالات يخلــو الكتاب من كشاف أعلام ونادراً ما يكون هذا الكشاف دقيقاً .

وكتاب الأساس Test Book محاولة لإصلاح ذلك كله .

فهو كتاب يغطى مــادته ، ويشرح فصولها شرحاً منطقيــاً مترابطاً معتمداً على الأصول وأوثق المراجع ، وهــو يبدأ بمــدخل وصفى فى الأصول ، فيعــرف بأهمها والرئيسى منهــا ، ويدل القــارىء على تكوينهــا حتى يتنبه إلى مــزاياهــا وعيوبها ويحسن الإفادة منها .

ثم تلى ذلك الفصول مقدرة من ناحيــة الطول والمحتوى تقديراً محكماً سليماً قائما على معرفة تامة بالمادة فى مجموعها .

وإذا كان الكتاب كتاب تاريخ مثل حالتنــا هذه ، كان الاتجاه الرئيسى موجهاً

إلى التعرف على مراحل التطور الحضارى ومغازى التجارب السياسية ، وكل معلومة فى الكتاب مستخلصة من قراءات طويلة وصادرة عن فهم ومعاناة للمادة سنوات طوال ، ثم ينتهى الكتاب بثبت واف بالأصول والمراجع ، ثم كشاف دقيق لأسماء الأعلام ومصطلحات الحضارة بالإضافة إلى فهرس مواد الكتاب .

وقد قسمنا كتابنا هذا قسمين ، جعلنا الأول منهما للمغرب ، وقد قدرنا أن نقف به عند نهاية الدولة الموحدية ، لأن ما وراء ذلك من تاريخ دول بنى مرين ومن عاصرهم من الزناتيين والحفصيين ثم العصر التركى ، كل ذلك أدخل فى التاريخ الحديث ، ثم إن عرضه على شرط الإيجاز الشامل لا يتيسر .

وأما الأندلس فهو تجربة تاريخية حضارية إسلامية كاملة لها بداية ونهاية ، والأندلس الإسلامى هو الوحيد من دول الإسلام الذى نملك له شهادة ميلاد وشهادة وفاة ، ولهذا فقد رأينا أن نستوفى تاريخه كله على سبيل الاختصار ، خاصة وأن القارىء العادى مشوق دائماً إلى معرفة ما جرى للأندلس وكيف ضاع ، ومن غريب المصادفات أن الأندلس أنشأ مجموعة من أجمل روائع الفن الإسلامى فى فترة الضياع .

وكأن الذين كتب لهم الحظ السىء أن ينتهى أمر الأندلس على أيديهم وجدوا أن خير ما يكفرون به عن أخطائهم هو هذا الأثر الجميل ـ الحمراء ـ فبنوه وتركوه كأنه إمضاء وقعه صانع ماهر فى نهاية عمل فنى عظيم صنعته يداه .

وكما قدمنا للمغرب بمقدمة جغرافية تضع مسرح الحوادث أمام المطالع ليعرف كيف يتتبع الحوادث ، ثم مقدمة بيبلوغرافية مفصلة فكذلك فعلنا مع الأندلس ، فله مدخله الجغرافى ومقدمته البيبلوغرافية .

والمراجع العامة آخر الكتاب تشمل المغرب والأندلس جميعاً ، لأن مراجعهما على الجملة واحدة .

وبعد ، فهذا هو كتاب الأساس فى مادة المغرب والأندلس .إنه نقطة بداية ودليل لتوجيه التدريس بالنسبة لمن يتولى مهمة التدريس ، وهو القدر المعقول

فأمامه ثبت المراجع يفتح أمامه الباب ليمضى إلى حيث يريد من العلم بالمغرب والأندلس.

وهو بالنسبة للقارىء العادى مرجع يستطيع الاعتماد على مادته إذا اجتاحته الرغبة فى الاطلاع إلى معرفة شىء عن المغرب والأندلس من مرجع يمكنه الاعتماد عليه.

والطالب الجامعى مرجو أن يقرأ هذا الكتاب كله ، فإن الإحاطة بالموضوع فى جملته تعين على إدراك تفاصيله.

ويسترشد الطالب بعد ذلك بما يوجهه إليه أستاذه من الفصول ، فهو شيخه ورائده ولا تستقيم الدراسة بغير شيخ أو أستاذ بتعبيرنا الحديث.

وقد زودت الكتاب بثلاث خرائط : واحدة للمغرب ، والثانية للأندلس ، والثالثة لصقلية.

وقبل أن أختم هذه الكلمة أوجه الشكر الخالص إلى أخى الدكتور رؤوف سلامه موسى صاحب دار المستقبل للنشر لتبنية فكرة كتاب الأساس وتفضله برعايته.

وأشكر الأخ الأستاذ مصطفى الشهابى على تجشمه مشاق مراجعة الأصل وتصحيح تجارب الطبع وعمل كشاف الكتاب.

والله سبحانه أسأل التوفيق فى البداية والنهاية ، إنه على كل فضل مستعان.

د. حسين مؤنس

الأستاذ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

صفر ١٤٠٠ هـ/ يناير ١٩٨٠

القسم الأول

المغــــرب

من قبيل الفتح الإسلامى إلى نهاية عصر الموحدين

مــدخل بيبلوغرافى

أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامى

المــــوارد :

هى المادة التاريخية التى يعتمـد عليها المؤرخ فى التعرف على تاريخ أى عصر أو إقليم أو شخص أو حادث تاريخى يريد الكتابة فيه .

وتنقسم هذه الموارد عادة إلى ثلاثة أقسام : أصول ، ومصادر ، ومراجع .

١ـ فأما الأصول : فهى الموارد الاولية التى يعتمد عليها أساسا فى بحثه . ويراد بها الكتابات والوثائق التى ترجع إلى عصر الموضوع أو إلى أقرب الأزمان إليه ، وهى إما مكتوبة مثل المذكرات وتراجم المعاصرين وكتابات أهل العصر ، والوثائق الرسمية والخطابات الشخصية والخرائط وصحافة العصر والنقوش على المبانى، سواء أكانت كتابات أو رسوماً أو أشكالاً ذات مغزى تاريخى ، وكذلك قطع العملة وما عليها من كتابة ، أو غير مكتوبة مثل الكهوف والآثار والمبانى والمنشآت والتماثيل والقبور وما إليها سواء كانت مكتوبة أم تحمل كتابات ونقوشاً أو صامتة ، قيمتها التاريخية فى عمارتها وأشكالها وصنعتها والمادة الخامة التى صنعت منها ، ويتصل بذلك الكهوف . ما يعثر عليه فيها من مخلفات وما يوجد على جدرانها من نقوش .

٢ـ وأما المصادر : فهى الكتابات التى اعتمدت على الأصول وكتبت فى العصور الماضية ، كالمؤلفات التاريخية القديمة وكتب الحوليات وكتب التراجم وكتب المختارات التاريخية والأدبية ، وكتب الجغرافية القديمة والحسبة والكتب المؤلفة عن العملة وأدلتها والمسكوكات ذات القيمة التاريخية التى تسمى Medals - Me-dailles وأدلتها وأدلة المتاحف وما جرى مجرى ذلك كله .

٣ـ **وأما المراجع** : فيراد بها المؤلفات الحديثة ، أى التى ألفت فى العصر الحديث عن الأحداث الماضية من أبحاث ودراسات منشورة وغير منشورة ورسائل وكتب جامعية وتراجم ومقالات وأبحاث نشرت فى مجلات علمية ، سواء أكانت بالعربية أو بأية لغة أخرى ، وتدخل فى هذه الإحصائيات والمطبوعات الحكومية الرسمية ومنشورات الهيئات العامة والأعمال الأدبية التى تتناول العصر موضوع البحث أو تشير إليه سواء أكانت منشورة أم مخطوطة . ونقتصر فى هذه المقدمة على موارد تاريخ المغرب أى الشمال الإفريقى فيما عدا مصر ، أما موارد تاريخ الأندلس فسنخصص لها مدخلاً خاصًا بها .

والموارد التى بين أيدينا كثيرة عن المغرب الإسلامى ، أى بلاد برقة وطرابلس وأفريقية والمغربين الأوسط والأقصى والأندلس وصقلية والحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط وما فيهما من جزر ، وكذلك أفريقية المدارية والاستوائية الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وبعضها مؤلفات متأخرة كتبت فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين أو بعدهما) ، ولكنها حفظت لنا قطعاً كبيرة من مؤلفات قديمة لم نعثر عليها بعد ، وهنا تكمن أهمية تلك الكتب التى كتبت فى العصور المتأخرة ، ثم إن مؤلفيها من أمثال المقّرى وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون من أهل الثقة والتحقق والأمانة ، ومن هنا فإن تأخر زمان هذه الكتب لا يمنع من القول أن الكثير منها موضع ثقة كبيرة ، أى أننا نستطيع أن نطمئن إلى أن مؤلفيها اعتمدوا على أصول وروايات قديمة كما قلنا ، كما أنها تضم الكثير من أصول التاريخ المغربى والأندلسى التى تعتبر إلى الآن فى حكم المفقودة . ولكن أولئك الجماعين المتأخرين زمناً احتفظوا لنا بأجزاء كبيرة منها ، بل إن بعض هذه الكتب المتأخرة احتفظت لنا بنصوص كاملة لكتب أساسية لم نعثر على أصولها . وجدير بالذكر أن جانباً كبيراً من أصول التاريخ المغربى والأندلسى لا زال مخطوطاً ينتظر التحقيق والنشر العلميين .

الأصــــول :

وترجع أصول تاريخ المغرب التى بين أيدينا إلى أربع روايات :

(أ) **رواية أندلسية** : ترجع إلى أحمد بن محمد الرازى عميد مؤرخى الأندلس المتوفى (٣٤٤ هـ/ ٩٥٥م) وأكملها من بعده ابنه عيسى بن أحمد الرازى (٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ م) . وتضم الكتب التى بين أيدينا فقرات طويلة أو قصيرة من تاريخ الرازى الذى فقد الجانب الأكبر منه ولم نعثر إلا على قطعة واحدة طويلة من هذا التاريخ مترجمة إلى اللغة البرتغالية نشرها العالم البرتغالى لويس ليندلى ثنترا Luis Lindley Cintra ضمن تاريخ إسبانيا العام الذى كتب سنة ١٣٤٤م باللغة البرتغالية ، وترجمها إلى الإسبانية رجل برتغالى بالاشتراك مع مترجم أندلسى برتغالى يسمى الأستاذ أو المعلم محمد Maese Mohammed وقد نشر تلك الترجمة الإسبانية الركيكة بسكوال دى جايانجوس Pascual de Gayangos بعد أن بذل جهداً شاقاً فى تصحيحها ، ولكنها بقيت بعد ذلك قلقة الأسلوب عسيرة على الفهم بسبب تعذر حل رموزها ، ولكنها أصبحت اليوم مفهومة بعد أن نشر أصلها البرتغالى نشراً صحيحاً كما قلنا ، وقد ترجمها إلى الفرنسية من البرتغالية ليفى بروفنسال ونشرها مع تعليقات ضافية فى « مجلة الأندلس » ، وهذه القطعة تتناول المقدمة الجغرافية التى كتبها الرازى فى وصف الأندلس ، وهى مقدمة جيدة حافلة بالمادة العلمية ، وهى بالإضافة إلى ما تضمه من معلومات عن الأندلس تعطينا فكرة واضحة عن التقسيم الإدارى الأندلسى .

ونجد قطعاً من تاريخ الرازى فى كتاب « المقتبس فى تاريخ الأندلس » لأبى مروان حيان بن خلف أعظم مؤرخى الأندلس بعد الرازى وابنه ، وقد توفى سنة (٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م) ونجد قطعاً أخرى فيما رواه النويرى فى الجزء الثانى والعشرين من مخطوطة كتاب « نهاية الأرب » المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، وابن الأثير فى كتابيه « الكامل فى التاريخ » و « أسد الغابة » وذلك فيما رواه من أخبار فتح المغرب والأندلس ورجال ذلك الفتح من الصحابة ، ونجد بعض تفاصيل الرواية الأندلسية كذلك فيما رواه أبو عمريوسف بن عبد البر النمرى فى ترجمة عمرو بن العاص وعقبة بن نافع فى كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» ونجد كذلك قطعاً كبيرة من تاريخ أحمد بن محمد الرازى وابنه عيسى بن أحمد فى كتاب « نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب » لأبى العباس

أحمد المقرى وهو مـؤلف مغربى أصله من تلمسان ثم هـاجر إلى الشرق ، وهناك أخذ يتحدث ويؤلف عن الأندلس ، وهـو مؤلف جماع صنف كتابه هذا على أساس الجمع والاقتباس من المؤلفـات السابقـة ، ومن فضـائله أنـه ينسب مرويـاته إلى أصحابها فى معظم الأحيان ممـا يدعو إلى الثقة فيما يورد ، ثم ألف بعـد ذلك كتاباً شبيهـاً بنفح الطيب هو كتـاب « أزهـار الريــاض فى أخبار عيـاض » على نفس الطريقة والأسلوب ، والكتابان يضمان كثيراً من المادة القيمة فى تاريخ المغرب .

(**ب**) **رواية مغربية** : ترجع إلى محمـد بن يوسف الـوراق ، وهو قيروانى النشأة هاجـر إلى قرطبة واستقـر فيها وخدم الخليفـة الحكم المستنصر وألف له كتاباً فى تاريخ الأندلس وتـوفى سنة (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣م) ، ولم نعثر بعد على هذا الكتاب ، ولكننا نجد قطعاً منه عند أبى عبيد البكرى فيما كتب فى جغرافية أفريقية والأندلس، وعند ابن عذارى المراكشى صـاحب كتاب « البيان المغرب » وعند ابن الخطيب فى كتـابـه: « أعـلام الأعلام » وعنـد ابن خلـدون فى تـاريخه ، وفى بعض المراجع الأخرى . وترجع هذه الرواية المغربية كذلك إلى إبراهيم الرقيق المتوفى بعد سنة (٤١٧ هـ/ ١٠٢٦م) وهـو أديب وشاعر قيروانى ظهـر فى أيام الفاطميين وبنى زيـرى بن مناد الصنهـاجيين الذين خلفـوهم . وكان إلى جـانب شاعـريته ومعرفته الواسعـة بالأدب مؤرخاً صدوقاً يوفق فيما يكتب . وقـد عثرنا على قطعة من تاريخه تتناول جزءاً من تـاريخ فتح المغرب والأندلس وتمتد إلى أوائل العصر الأغلبى قـام بتحقيقها الأستاذ المنجى الكعبـى ونشرها فى تونـس سنة ١٩٦٨م . ويشك الدكتور محمد الطالبى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة تونس فى أصالة هذه القطعة ، ولكننا رغم ذلك نستطيع الاستفادة من مادتها الأصيلة .

ونجد قطعاً من تاريخ الرقيق القيروانى عند ابن عذارى وابن الأثير والنويرى وابن خلدون .

وهناك روايـة مغربيـة ثانيـة سنتحدث عنهـا فى كلامنـا على كتاب « البيـان المغرب » لابن عذارى المراكشى .

(**جـ**) **رواية مصرية** : أثبتها عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة (٢٥٧ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٧١ م) فى كتـابه المسمى « فتوح مصر والمغرب والأنـدلس » الذى

يعتبر من أوثق مـا لدينـا من الأصول عن تـاريخ المغرب والأنـدلس من الفتح إلى نهاية عصر الولاة. وكانت مصـــر هـــى المركز الذى صـــدر مـــنه الفاتحون إلى المغرب والأندلس ،وإليهـا عاد من عاد منهم ليحدثـوا بأخبار ما رأوه ، فأصبحت مصر لهذا مصدراً رئيسيـاً لأخبار الجناح الغـربى لملكة الإسـلام، وكـــان ابن عبـد الحكم محدثاً فقيهـاً وعـالما واسع الاطلاع صـدوقـاً فيما يقول . وقـد عنى بتدوين ما اتصل بـه من أخبار فتح مصر والمغرب والأندلس وتـاريخها إلى نهاية عصر الولاة ، وقد اعتمد ابن عبـد الحكم على رواة موثوق فيهم ، واجتهد فى تحقيق ما وصل إليه من الأخبـار على طريقة أهل الحديث ،ولا غرابة فى ذلك فقـد كان هو محدثاً كبيراً وإلى حين قـريب كانت روايته هـى الرواية الـوحيدة الكاملـة لأخبار فتوح مصر وأفريقية والمغرب والأندلس .

(د) **الرواية الـرابعة :** وتسمى بـالرواية المشرقيـة وإن كانـت فى أصلها مصرية مغربية ، وقـد وجدناها فى قسم من كتاب « الإمامـة والسياسة » المنسوب إلى ابن قتيبـة الدينـورى ، وقد اجتمع رأى نقـاد التاريخ من زمن طـويل على أنها ليست جـزءاً من صلب الكتـاب وإنما هى تفـــاصيل عن فتح المغـرب والأنـدلس وأعمال موسى بن نصير خـاصة ، بعضهـا أسطورى الطـابع أضيفت إلى الكتاب وقـــد أثبت راينهـــارت دوزى Reinhardt Peter-Ann Dozy وبسكـــوال دى جايانجوس Pascual De Gayangos ولافونتى الكانتارا Lafunte Alcantara أنها قصص شعبيـة أدرجها بعض المدونين فى كتـابـاتهم على أنها تاريخ ، ثم جـاء د. محمود على مكى فاثبت أن هذا التدوين يرجع إلى رجل من أحفاد موسـى بن نصـير يسمى معاركاً النصيرى ، استقر فى مصر ، واندرج فى زمرة أهل العلم فيها ، وقال إنه يغلب أن معاركـاً كتب كتابا عن جده وأعماله فى أفـريقية ، ثم أضيفت فصول من هذا الكتـــاب إلى « كتاب الإمامة والسياسة » فحسبت قطعة منه .

ويدخل فى جملة ما نسميه الرواية المشرقية نص أورده محمد بن عبد الوهاب الغسانى ، الـذى أرسله سلطـان المغرب إلى ملك إسبـانيا سنـة ١٥٣٦ م ليفتدى أسرى المغـرب فى إسبـانيـا فى وصف رحلتـه المسماة « رحلة الـوزيـر فى افتكـاك الأسير» وقد جرى هذا السفير فى وصف رحلته على طريقة لجأ إليها الكثيرون من

الرحالة ، وهى تضمين الوصف لمحات من التاريخ تناسب السياق ، فأورد نصًا كاملاً عن افتتاح الأندلس اقتبسه عن مؤلف لم يذكر اسمه ، ولكن أسلوبه قريب الشبه من أسلوب القطعة الواردة فى كتاب « الإمامة والسياسة » وقد نشرها جيانجوس مترجمة إلى الإنجليزية فى كتابه المسمى History of the Mohammedan Dynasties in Spain.

وهذا الكتاب ترجمة إنجليزية للجزءين الأولين من كتاب « نفح الطيب » لأبى العباس أحمد المقرى . وقد أضاف جيانجوس إلى الترجمة تعليقات ضافية ذات قيمة علمية ، ومنها ترجمة للرواية التى أوردها محمد بن عبد الوهاب الغسانى فى كتابه ثم عنى بها خوليان ريبيرا Julian Ribera وترجمها إلى الإسبانية وجعل الأصل والترجمة ذيلاً على كتاب « افتتاح الأندلس » لأبى بكر محمد بن عمر بن القوطية الذى سنتحدث عنه عند كلامنا عن بيبلوغرافية الأندلس . وفى سنة ١٩٤٠ م نشر ألفريد البستانى فى مدينة العرايش فى المغرب النص الكامل «لرحلة الوزير لافتكاك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى ، وفيه ترد القطعة التى نحن بصددها الآن .

ويدخل ضمن هذه الرواية الرابعة ما كتبه عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة (٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م) فى كتاب له مشهور عن تاريخ الأندلس ، وعبد الملك بن حبيب كان عالماً من أعظم ما أنجبت الأندلس من شيوخ الفقه المالكى ، وكان له إلى جانب ذلك ميل إلى التاريخ فاحتقب أثناء دراسته فى مصر أخباراً كثيرة قصصية الطابع دونها فيما بعد وتداولها الناس على أنها كتاب فى أخبار الأندلس . وقد عثرنا على قطع من هذا الكتاب أوردها أبو العباس أحمد المقرى فى كتاب « نفح الطيب » ، ووردت أطراف أخرى منه فى مصادر كثيرة ، وقد بقيت لنا من هذا التاريخ قطعة نشرها الدكتور محمود على مكى فى مقاله الآنف الذكر عن « مصر وتاريخ التأريخ فى المغرب والأندلس » الذى نشره فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

كتاب « البيان المغرب فى تاريخ ملوك أفريقية والمغرب » وأصوله :

قبل الحرب العالمية الأولى ظهر مخطوط جديد لكتاب « البيان المغرب » ، لابن

عذارى المراكشى ، وهـذا المؤرخ لا زال مجهولاً لنـا رغم عظيم ديننا لـه واشتهار كتـابه هـذا وقيمته العظيمـة ، فكل ما نعـرفه عنـه هو اسمـه على هذه الصـورة المنقوصة : ابن عـذارى المراكشى ولا صـحة لما يذكـره البعض مـن أن اسمه أبو العباس أحمد ، فإننا لم نجد إلى الآن ما يـؤيد ذلك . وقد عاش فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وقد ألف هـذا الرجل تاريخاً عامـاً للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخـر أيام الموحـدين ، عثرنـا على نصه كلـه تقـريباً ، ونشر الكتـاب بتحقيق عدد من جلـة العلماء هم : راينهارت دوزى ، جورج كولان ، أمبروزيـو أويتى ومحمد بن تاويت التطوانى ، وكان أول من نبه على أهمية كتاب ابن عذارى هو المستشرق الهولندى راينهارت بيتر آن دوزى ، فنشر فى منتصف القـرن الماضى الجزء الأول ويتناول تـاريخ المغـرب إلى نهاية الفـاطميين فى المغـرب ، والجزء الثانى ويتنـاول تـاريخ الأندلس إلى نهاية أيام المنصور محمد بن أبى عامر .

وقد وضع دوزى بهذا العمل أسـاسـاً مكيناً لتاريخ المغـرب الإسلامى ، ومن ذلك الحين أصبح من أهم ما نعتمـد عليه فى التاريخ للمغرب والأنـدلس ، وقد كان أهم ما اعتمد عليـه دوزى فى كتاب « تاريخ مسلمى إسبانيا » الـذى سنذكره فيما بعد ، وكتاب دوزى هو أول تاريخ علمى يكتب للأندلس فى العصور الحديثة .

والميزة الرئيسية لـ « البيان الـمُغرب » أن صاحبه ألفه من قطع جمعها من الأصول التـى ذكرناهـا ، وربط بينها ربطـاً زمنياً وأوردهـا كما هى دون تعليق كثير، ولكنه قام بعمله فى صدق وأمانة ولهذا فنحن ندرج كتابه بين الأصول .

وقد أعاد نشر أربعـة أجزاء من تاريخ ابن عذارى الدكتـور إحسان عباس فى بيروت ، وهـذه الأجـزاء هى الأول والثانى والثـالث وقطعـة عن تـاريخ المرابطين سماها بالجزء الرابع ، ولكنه لم يعد لجمع الجزء الكبير الخاص بتاريخ الموحدين، ولا زلنا نعتمد فى ذلك على تحقيق امبروزيو أويتى ومحمد بن تاويت التطوانى .

وعندما ظهر هذان الجزآن فى تلك الصورة الكـاملة تبينا أن ابن عذارى اعتمد على رواية مغربية أصيلة أخرى تختلف عن الرواية الأولى التى سبق أن ذكرناها ،

وتنسب هذه الرواية إلى رجل من معاصرى ابن عذارى أى من أهل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى يذكره ابن عذارى باسم الشيخ الصالح . ثم نشر ليفى بروفنسال سنة ١٩٥٣، نصًا عظيم القيمة عن فتح العرب لأفريقية وجده ضمن الأوراق التى تؤلف مجموعاً من نصوص شتى متعلقة بتاريخ المغرب كان يملكها هذا المستشرق . ومن تلك النصوص الصفحات العظيمة القيمة التى نشرها نفس المستشرق باسم « مفاخر البربر » فى الرباط سنة ١٩٣٤ وهى قطعة حافلة بالفوائد عن تاريخ البربر المستعربة من أهل المغرب وما لهم من أمجاد ومفاخر ، ومن ظهر منهم من عظماء رجال أمة العروبة والإسلام .

وقد كشفت لنا هذه الرواية الجديدة عن فتح العرب للمغرب عن حقيقة الشيخ الصالح الذى ذكرته رواية ابن عذارى الذى ذكرناه ، فاسمه الكامل أبو على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس من قبيلة إيلانه أو هيلانه ، من أعاظم قبائل المصامدة الذين أقاموا دولة الموحدين .

وقد تبين من دراسة ذلك النص الخاص بفتح العرب للمغرب أن مؤلفه أبا على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم يورد رواية مغربية أصيلة مأخوذة عن مأثورات شعبية كان أهل جبال الأطلس يتداولونها من قديم الزمان عن الفتح العربى ورجاله وخاصة عقبة بن نافع ، وهو أبعد الفاتحين العرب صيتاً وأعمقهم أثراً فى نفوس جماهير أهل المغرب . وقد درسنا هذه الرواية دراسة شاملة فتبينا أنها من أكمل وأصح ما لدينا عن فتح المغرب ، وأنها تقدم لنا معلومات فى غاية الدقة والأصالة والأهمية ، ولا تستطرد مع الأساطير وأحاديث الخرافة . كما نجد فى رواية عبد الملك بن حبيب مثلاً ، وهى تقدم لنا قصة الفتح منذ البداية إلى نهاية ولاية موسى بن نصير .

وقد حفزنا هذا على أن نعيد قراءة نص ابن عذارى ، وخاصة ما رواه عن الشيخ الصالح أبى على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم بعناية أكثر ، فتبينا بالفعل أننا أمام رواية مغربية أصيلة تمتاز بالبساطة والصدق والأصالة والشمول ، فهى تقص قصة الفتح الكاملة وترويها بروح إسلامى خالص وبالإضافة إلى ذلك فهى واقعية متوازنة وهى تربط الحوادث بعضها ببعض ربطاً

معقولاً متسلسلاً وتجتهد بين الحين والحين فى ربط حوادث المغرب بما كان يجرى فى مركز الدولة فى دمشق . أى أن صاحبها كان عالماً مطلعاً عرف كيف يضع القصة الشعبية فى إطار علمى سليم دون أن يفقدها قيمتها . وقد تأكدت لنا أصالة هذه القطعة عندما وجدنا أنها أخذت عن الأصل الذى اعتمده أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى فيما كتبه عن عقبة بن نافع فى كتابه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » .

ولا يعيب هذه القطعة إلا أنها تقف عند نهاية الفتح ، ولكن ربما كانت بقيتها قد اندرجت فى نص كتاب « روض القرطاس فى تاريخ المغرب وملوك فاس » المنسوب إلى ابن أبى زرع ، الذى يقال أيضاً إن مؤلفه يسمى ابن عبد الحليم . وهذا يسمح لنا بالقول بأن كتاب « روض القرطاس » هو اختصار لتاريخ طويل للمغرب كتبه الشيخ الصالح أبو على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس الذى ذكرناه .

هذا عن أصول تاريخ المغرب أى الروايات الأولى التى اعتمد عليها أولئك الذين كتبوا فى تاريخ المغرب من القدماء مؤلفات نعتبرها مصادر جديرة بالثقة فى ذلك التاريخ .

أما المراجع ما بين عربية وغير عربية فقد أوردنا ثبتاً بأهمها فى نهاية هذا الكتاب ، لأن موارد تاريخ المغرب والأندلس واحدة تقريباً .

***

الغرب الإسلامى والمغرب الإسلامى

يشتمل الغرب الإسلامى على البلاد التى دخلها الإسلام وبقى فيها أو لم يبق فى الجناح الغربى لعالم الإسلام ، وهذه البلاد تنقسم إلى خمس مناطق رئيسية :

١ ـ **المغرب** : ويشتمل على بلاد الشمال الأفريقى المختلفة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسى .

٢ ـ **الحوضان الأوسط والغربى للبحر المتوسط** : ويدخل فى ذلك كل جزائر البحر المتوسط الواقعة فى هذين الحوضين مثل : صقلية وقوصرة وقرسقة والأراضى الأوروبية القريبة منها مثل : جنوب إيطاليا وما قرب منهما من الجزائر مثل : مالطة وسردينيا .

٣ ـ **الأندلس** : ويراد به الأراضى التى سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية وتتبعها الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار .

٤ ـ **الصحراء الأفريقية** : التى تقع جنوبى المغرب والتى تعد أحياناً جزءاً من المغرب ولكنها فى الحقبة الأخيرة قسمت سياسياً إلى جمهوريات مختلفة وظهرت بها بلاد إسلامية لها شأنها مثل : تشاد والنيجر وفولتا وما إليها وكلها تدخل ضمن ما نسميه بالغرب الإسلامى .

٥ ـ **غرب أفريقية الإسلامى** : ويدخل فى نطاق الغرب الإسلامى البلاد الإسلامية فى أفريقية الغربية المدارية والاستوائية ، وتسمى أيضاً بلاد السودان الغربى وهى بلاد لها تاريخ سياسى وحضارى طويل فى ظلال الإسلام .

كل هذه النواحى كان ينبغى أن تدرس إذا أردنا أن نتعرف على تاريخ الجناح الغربى للعالم الإسلامى ،ولكننا نقتصر فى حدود ما يسمح به حيز هذا الكتاب على المغرب والأندلس وجزيرة صقلية مع إشارات يسيرة بين الحين والحين إلى تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط .

ولا بـد على هـذا مـن التفـريق بين مصطلحى الغـرب الإســلامى والمغـرب الإسلامى وقد كان القدمـاء يطلقون لفظ المغرب على ذلك كله ، ولكننا الآن نقصر اسم المغـرب على بلاد المغـرب المعروفـة ، ونطلق اسم الغـرب الإسلامى على مـا ذكرنـا ، وهو مصطلح جديـد ابتكره أهل الغرب من الفـرنسيين خاصة فقـالوا : L'Occident Musulman .

بـــلاد المغرب

يطلق مصطلح المغرب كما قلنـا على كل البلاد الإســلامية الممتـدة من جدود مصر الغربية حتى سـاحل المحيط الأطلسـى . ويختلف المؤرخون العرب فى وضـع مصر بين شرق العالم الإسلامى وغربه ، فبعضـهم يضعها فى بلاد الشرق ، وهناك عـدد قليل منهم يعتبر مصر من بلاد المغـرب ، وهناك خـلاف حول حـدود مصر الغربية ففى عصور التاريخ الإسلامى خلال العصور الوسطى كان إقليم برقة ، وهو المعـروف اليوم باسم بنغـازى داخلاً فى حدود مصر ، وكـذلك كان الحال فى العصور القديمة وخاصـة فى العصر البيزنطى الذى سبق العصر الإسلامى ، وفى أحيان كثيرة نجد أن إقليم برقة يختفى ذكره أحقاباً متطاولة بعد الفتح الإسـلامى لأن أحداً لم يؤرخ له فى حين أن تاريخ إقليم طـرابلس معروف فى جملته لأنه دخل ضمن إقليم أفريقية الذى سنتحدث عنه .

ولكن بلاد المغـرب كلها تعتبر من نـاحية الطبيعـة الجغرافيـة والمناخ إقليماً واحـداً لـه خصـائص ومميـزات واحـدة تجعل من العسير تقسيمـه إلى وحـدات سياسية متميز بعضـهـا عن بعض ، وقبل الفتح الإسلامى أى فى عصور الإغريق والرومان والبيـزنطيين كان المغرب بالمفهـوم الذى ذكرناه يعتبر وحـدة سياسية واحدة ، وينقسم إلى ولايـات . وقبيل الفتح الإسلامــى بقليل ، أى فى أواخر العصر البيزنطى .كان المغرب مقتصراً فى الواقع على ما يعرف اليوم بتونس . وكان يسمى فى التقسيم الإدارى للدولة البيزنطية باسم ولاية أفريقية Provincia Africa أمـــا ما يلى تونس غرباً فلم يكن فيه أثر واضح للسلطة السياسية البيزنطية ، وإن كان

بعض المؤرخين الغربيين يحاولون أن يثبتوا أن الشريط الساحلى على الأقل من بلاد المغرب كان تابعاً ولو بالاسم للدولة البيزنطية ، وهذا الشريط الساحلى يمتد من الحدود الغربية لإقليم تونس الحالى إلى المحيط الأطلسى ، وهو يتسع أحياناً ويضيق أحياناً أخرى ، ولكنه فى كل حالة ينحصر بين البحر المتوسط والصحراء الأفريقية الكبرى أو بحر الرمال الأعظم كما يسمى أحياناً . وهو الذى يفصل بين بلاد المغرب والبلاد الأفريقية المدارية .

وبلاد المغرب إقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمرانى كبير ، وهى تتميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً ، هى جبال الأطلس ، وهى سلسلة جبال تمتد من جنوبى المملكة المغربية الحالية وتسير بمحاذاة الساحل (ساحل الأطلسى) شمالاً بشرق ، وإن كانت بعيدة عنه حتى قرب ساحل البحر المتوسط جنوبى منطقة الريف ثم تتجه شرقاً لتتلاشى غرب تونس . هذه الجبال تقسم المغرب إلى منطقتين مستعرضتين واضحتين ، تختلف كل منهما عن الأخرى كل الاختلاف . وهذه الجبال تتسع فى المغرب الأقصى ويزيد عرضها فى جنوبه وتنقسم إلى سلسلتين من جبال الأطلس ، الأولى غربية وتسمى الأطلس العليا والأخرى شرقية وتسمى أطلس الصحراء ، وتحصران بينهما سهل السوس الخصيب كما قلنا . وهذه الجبال تضم هضاباً عالية ، وهى كلها جبال وهضاب وافرة المياه ولهذا فهى خضراء ومسكونة ، ويسميها ابن خلدون جبال درن وهى تعتبر مركز الحياة ومصدر العنصر البشرى القوى الذى كان طول العصور الوسطى مورد القوة البشرية الحقيقية فى تاريخ المغرب الأقصى .

أما فى الشمال فإن جبال الأطلس تسير محاذية لساحل البحر المتوسط وبينها وبين الشاطىء شريط ساحلى سهل يضيق أحياناً ويتسع أحياناً أخرى وتتبعه السفوح الشمالية لجبال الأطلس ، ويعتبران معاً منطقة واحدة .

ومناخ هذه المنطقة الشمالية مناخ البحر المتوسط ، وهى تسمى بشريطيها ـ السهل الساحلى والسفوح الشمالية لجبال الأطلس ـ بمنطقة التلول ، ويسمى ابن خلدون مناخها بمزاج التلول ، أى مناخ البحر المتوسط ، أما المنطقة الثانية

الجنوبيـة التى تضم السفوح الجنوبيـة لجبال الأطلس ونطاق الجريـد ثم نطاق العـروق ، أى الرمـال السـائلة فيسميهـا ابن خلـدون ببلاد الصحـراء ويسمى مناخها بمزاج الصحراء ، وهى منطقة أقل ثروة وسكاناً من المنطقة الشمالية .

وبلاد المغـرب فى مجموعها بـلاد غنية إلى حد مـا ، فيها موارد وافـرة للثروة والحياة ، ولكنها تحتاج إلى أمن واستقرار طـويلين لتؤتى ثمارها ،لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكـاء ، ولهذا فمن الممكن استغـلالها استغـلالاً جيـداً ، ومواردهـا تمكن من قيام دول كبرى وحضـارات زاهرة فيها ، وسنـلاحظ أنه فى العصور التى هدأت فيهـا الأحوال قامت فى المغرب دول عظيمة وقـوية لها تاريخ مجيد ودور كبير فى تاريخ العالم الإسلامى جملة .

وفى العصور الإسلامية تعود المؤرخون أن يقسموا المغرب إلى الأقاليم التالية التى سنذكرها من الشرق إلى الغرب .

إقليم برقة ثم إقليم طرابلس ومن هـذين الإقليمين مضافاً إليهما إقليم فزان ، تتكون الجمهورية الليبية حالياً .

وقد كان هذان الإقليمان منفصل أحدهما عن الآخـر سياسياً خلال العصور الإسلامية ، فكـانت برقة إما تـابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السيـاسية . أما طرابلس فكانت تدخل فى نطاق ما كان يعرف باسم بلاد أفريقية ، وليس فى ذلـك ما يمس وحـدة القطر الليبى وأصـالته التـاريخية ، فإن الكثير من أوطـان العرب الراهنـة تتألف من أجزاء كـان لكل منها تـاريخ أو اتجاه مستقل فى الماضى ، أى قبل تحقيق وحدة ذلك الوطن فى العصر الحديث .

وتلى ذلك غـرباً بـلاد أفـريقيـة ، وكانت فى العصـور الـوسطى تشمل إقليم طـرابلس من تاورغـا قرب صرت على سـاحل البحر المتـوسط إلى صبرة ثم إقليم أفريقيـة وهو يقـابل تونس الحاليـة ثم تمتد أفريقيـة فتشمل الجزء الشرقى من الجمهورية الجزائرية حـالياً حتى نهر صغير يسمى شلف وهو يجرى هناك من الجنوب إلى الشمال حتى جنوبـى مدينة الجزائر ، ثم يسير غرباً بحـذاء الساحل ويصب فى البحـر المتوسط قـرب وهـران ، وهذا الجزء الشرقى من بـلاد الجزائر الحالية كان يسمى إقليم الزاب وكان يعتبر جزءاً من ولاية أفريقية .

بعد ذلك هناك المغـرب الأوسط ويمتد من مجرى نهر شلف حتى مجرى نهر يجرى حاليـاً فى شرق المملكة المغـربية من الجنـوب الغربى إلى الشمال الشرقى، يسمى نهر مولويــة . والمغرب الأوسط يشمل اليوم معظم الجمهـورية الجزائرية وهو إقليم هضــاب وجبال وسهـول ساحليـة والأراضى الزراعيـة فيه كثيرة لأن الكثير من جباله وهضابه خضراء أو منقوشـة كما يقول العرب ثم إنه قطر معتدل المناخ لارتفـاعه ، كثير الغابات والمراعى ، وإلى هـذا يرجع ما يتصف بـه أهله من صحة وعافية واحتمال للمصاعب وحب للحرية .

وينقسم هـذا المغـــرب الأوسط تـاريخيــاً إلى قسمين : شرقى ويسمى إقليم تاهرت ويتميز بالجبال والغـابات ، وغربى يسمى إقليم تلمسان ويتميز بالمراعى والسهول . ويشتهر المغرب الأوسط بمناطقه العمرانية ذات الشخصية التاريخية المتميزة مثل إقليم القبـائل شرقى مدينـة الجزائر الحالية وسهل المتيجـة جنوبى مدينـة الجزائر وإقليم السيق السهلى الســاحلى جنوبى وهـران وأقاليم البـابور والبيبان والجرجرة والونشريس وكلها أقـاليم جبلية وعرة ، وإقليم الحضنة وهو إقليم جريـد أى غابـات نخيل يتوسطـه شط الجريد وإقليم الهقـار أو الهجار فى الجنوب وهو إقليم صحراوى .

أما إقليم تلمســان فيتميز بجبـاله وسهـوله ومـراعيه الـواسعة ، وقد كـانت تلمسان دائماً مـركزاً حضاريـاً وقاعدة علمية ، وقـد قامت تلمسان العـربية على أصل حصن رومانى قديم يسمى بوماريا .

ويلى ذلك غرباً المغرب الأقصى الذى يعرف اليوم بالمملكة المغربية ، ويشمل جبـال الأطلس المتهيلة التى تحدثنـا عنهـا ، ويضم كـذلك سلسلة من السهـول الســاحلية بين الجبـال وســاحل المحيط الأطلسى ، وقـد ذكـرناهـا وتشق هـذه السهـول أنهار أو وديـان تنحـدر من جبـال الأطلس غـربـاً إلى المحيط وهى من الشمال إلى الجنوب وادى لوكس ويصب عند مدينة العرائش ووادى سبو بفروعه الكثيرة وقواعـده الشهيرة مثل فاس ومكناس ثم وادى أبـو الرقراق أو بـورجرج وهو نهر مزدوج يصب فى البحر بمصب واحـد ، وعلى ضفته الشرقية عند المصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مـدينة رباط الفتح ، وهما مدينتان توأم ، ثم وادى

أم الـربيع ، وقرب مصبـه تقع مدينـة آزمـور ثم وادى تانسيفت وتقع على أحـد فروعـه مدينـة مراكش ، ثم وادى السـوس الذى يجرى فى إقليم السـوس الغنى ، وهـو إقليم ذو هيئة مثلثـة ينحصر بين فرعى جبـال الأطلس والمحيط الأطلسى ، ومن أهم مدنه تارودانت وأغادير ثم وادى درعه فى أقصى الجنوب . وما وراء ذلك تمتد صحارى المغرب .

وبلاد المغرب فى مجموعها بلاد مشرقة زاهرة ذات جمال فريد يتجلى فى أجمل صورة فى منـاطق الجبال التـى تتغطى بالثلوج فى الشتـاء ، ومن هنا فقـد قيل إن بلاد المغرب هى سويسرا العرب .

سكان المغرب :

سكان المغرب يعرفون من أقدم العصور بالبربر ، ولفظ بربر لا علاقة له هنا بلون البشرة ، وإنما هـو لفظ إغريقى كان اليـونان يطلقـونه على كل من لا يتكلم الإغريقية ، فقد كانوا يسمونـهم بـارباروى . أما العرب فعلى عادتهم يحاولون أن يجدوا أصلاً عربيـاً لكل لفظ أو علم جغرافى ، فيقولون إن البربـر من أولاد مهاجر عربى من حمير يسمى بر بن قيس ، ويقال إن هذا الـرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجـة هؤلاء النـاس فسماها بـربرة وسمى النـاس الذين يتكلمـون بها بـالبربر ، أمـا الحقيقة فهى أن البربـر شعب أفريقى سكن هـذه البلاد من أقـدم العصور . واليونـان هم الذين سموه بالبربر ، وعنهم أخذ الـلاتين ثم العرب هذه التسمية ، أما البربر أنفسـهم فلا يطلقـون على أنفسـهم هذه التسمية ، بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم .

وينقسـم البربـر إلى قسمين كبيريـن بحسب أسلـوب الحيـاة والطـابع الحضارى :

١ ـ البربر البدو ، ويسمون بالبتر .

٢ ـ والبربر الحضر ويسمون بالبرانس .

فأمـا البربر الحضر أى البرانـس فأصلهم من سكان البحـر المتـوسط وهم يسكنون بصفة عـامة الشريط الساحلى والسفوح الشماليـة لجبال الأطلس وهم

يشبهون فى ملامحهم سكان الأندلس وسكان جزائر البحر المتوسط وتنتشر بينهم شقرة الشعور وبياض اللون وزرقة العيون وخاصة بين أهالى الجبال .

هذا الفرع الكبير من البربر هو أصل البربر وهم الأقوام الذين سكنوا هذه البلاد منذ أقدم العصور ،أما فريق البربر الآخر ، وهم البتر فهم جدد نسبياً أقبلوا من الجنوب وفى الغالب من الجنوب الغربى من قلب القارة الأفريقية عن طريق وادى النيل وقد نزلوا أولاً إقليم برقة ثم انتشروا غرباً وهم جنس أفريقى أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين ، ومن اختلاطهما نشأ الجنس البربرى الذى استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح من أمم العروبة ، وهو يجمع فى تكوينه خصائص الأصول الثلاثة التى تكون منها .

عاش البربر فى بلادهم هذه قروناً متطاولة قبل الفتح الإسلامى ولهم تاريخ وحروب مع الإغريق والرومان خاصة ، ودارت حروب طويلة بين بعض جماعاتهم والرومان ، وظهر من بينهم أبطال قوميون مثل جويا وماسينيسا الذى يسميه العرب ماكسن ، ولكن كل علاقة الرومان وبعدهم الروم أو البيزنطيون كانت مع بربر الساحل والسفوح الشمالية للأطلس ، ونادراً ما توغل الرومان إلى دواخل البلاد ، فيما عدا إقليم أفريقية (تونس) وهو سهل فسيح كما نعلم ، يرويه نهر كبير نسبياً هو نهر مجردة فهنا أوغل الرومان ثم الروم فى الداخل كما سنذكر .

وأول من دخل فى بلاد المغرب وَجَرُؤَ على اقتحام جبال الأطلس وما يليها جنوباً هم العرب ، ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة ، وعندما دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون قبائل قريبة الشبه من قبائلهم العربية فى تنظيمها وأحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلى ، وإن كانت تختلف عنها فى المستوى الحضارى . كان البربر عندما لقيهم العرب يعيشون قبائل بدوية على الفطرة وإن كانت متماسكة ولها نظام اجتماعى قويم .

وهذه القبائل البربرية كما قلنا تنقسم إلى قبائل بترية بدوية أو نصف بدوية ، وقبائل برنسية حضرية أو نصف حضرية ، وأكبر قبائل البدو وأشهرها زناتة ،

ولهذا غلب عليهـا هذا الاسم العـام رغم تفرعهـا إلى أجـــذام وبطون كثيرة ، أمـا الـــبرانس فلا تغلب عليهم تسمية واحـدة لأنهم شعوب ضخمة لكل منها مواطنه وبطونــه وتاريخه ، وأشهـر جماعاتهم كتـامة فى شمال شرقى المغـرب الأوسط ، وعلى أكتـافهم ستقوم الـدولة الفـاطميـة ، ثم صنهاجـة المغرب الأوسط الـذين سيشاركون فى إقامة الدولة الفاطمية ، وسيقيمون أولى الدول المغربية الإسلامية المستعـربـة وهما دولتـا بنى زيرى بـن مناد ، ثـم صنهاجـة الصحـراء الـذين سيقيمون دولة المرابطين ، ثم مصمـودة أهل المغرب الأقصى وهـم شعب مغربى جليل أقام دولـة الموحدين ودولاً أخـرى عظيمة الشأن ولهم فـروع كبيرة أخرى سنتحدث عنها فى مواضعها فى هذا التاريخ .

وقد تعلـم نسابة البربـر من العرب علم النسـب ونظموا قبائلهـم فى شجرات أنســاب شبيهـة بشجـرات الأنســاب العـربيـة . ونحن لا نثق كثيراً فى شجـرات الأنساب هذه كما هو موقفنا من شجرات الأنساب العربية ، ولكننا ندرسها ونفيد منها فى فهم تاريخ المغرب وتصاريف أحواله .

***

المغرب قبيل الفتح الإسلامى

معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الإسلامى تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التى تقابل ما يعرف اليوم بتونس ، وشىء قليل عن بقية سواحل المغرب إلى المحيط الأطلسى .

فيما يتصل ببرقة نجد أنها كانت قبيل الفتح الإسلامى داخلة فى زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية ، وهو الذى قام به الإمبراطور موريسيوس (موريق) ، وقد ضمت فيه برقة إلى مصر . وكان اسم برقة قبل الفتح الإسلامى سيرينايكا نسبة إلى مدينة يونانية أنشأها اليونان تسمى سيرينى ويكتبها العرب قيرين وأحياناً قوريناء ، وهى بلدة قريبة من مدينة برقة الحالية .

ويسمى إقليم برقة أحياناً أنطابلس وهو تحريف للفظ يونانى هو بنتابوليس Penta-polis أى المدائن الخمس ، وهى مدن صغيرة أنشأها الإغريق فى هذا الإقليم ومنها قيرين التى ذكرناها .

ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الإقليم البعيد عنها إلى الغرب لم تكن واضحة فى ذلك العصر ، وهو النصف الأول من القرن الميلادى السابع ، فلا ندرى إن كان بها عامل للروم أو ممثل لإدارة مصر البيزنطية . وعندما وصل العرب إلى هذه النواحى وجدوا السلطة بيد قبيلتين بربريتين زناتيتين هما لواتة وهوارة ، وهما من قبائل البربر البتر وسيكون لهما شأن كبير فى العصور الإسلامية . ويذهب بعض مؤرخى المغرب ومنهم ابن خلدون إلى أن هوارة من البرانس أى البربر الحضر المستقرين ، وهذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً ،لأن تصرف هوارة كان دائماً مع الزناتيين .

فإذا انتقلنا غرباً إلى إقليم طرابلس ، وأصل هذا اللفظ إغريقى أيضاً معناه المدن الثلاث (ترى بوليس) وجدنا أن الإقليم لم يكن واضح التبعية ،فقد كان فى الأصل تابعاً للرومان ثم للروم ، وبعد ذلك لا نعرف إلى أى ناحية سياسية كان

يتبع حينذاك ، وعندما يصل العرب إلى هذه النواحى سيلقون فيه قبيلة بربرية كبيرة هى نفوسة وكان مركزها منطقة جبلية إلى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة . وفى تلك الأيام ، أى فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، كانت تلك الجبال جبالاً خضراء عامرة بالقرى والمراعى والناس ، وكانت قبيلة نفوسة لهذا من أقوى وأهم قبائل طرابلس ، وعندما يصل العرب إلى هناك سيكون تعاملهم مع هذه القبيلة . أما فيما يتعلق بإقليم أفريقية فإننا نجده تابعاً للدولة البيزنطية ، فهناك حكم بيزنطى واضح يقوم به عامل للروم يلقب بالبطريق Patricius ومعه قوة عسكرية ، والبلاد مقسمة إلى ولايتين كبيرتين : شمالية أى إلى الشمال من موقع القيروان الحالية تقريباً وتمتد إلى البحر ، وتسمى تلك الولاية زويجتانيا ، وهناك كانت العاصمة قرطاجنة ذات التاريخ الطويل . وهناك أيضاً كانت الجالية الرومية متركزة فى مدن الساحل من أمثال قرطاجنة وسوسة والمنستير والحمامات . ومع تلك الجالية الرومية التى كانت تتكون من الروم ومن المهاجرين من شواطىء أوربا الجنوبية ، كانت تعيش طائفة من سكان المغرب تسمى بالأفارقة ومفردها أفريقى ، ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والأجناس التى حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب . وهم جنس يختلف عن البربر بعض الشىء ، فهم حضر مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة فى النادر . وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطىء المتوسط ، وكانت المسيحية منتشرة بينهم ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية والإغريقية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم ، وسيتعامل العرب مع هؤلاء ، وسيكسبونهم إلى الإسلام ، ويختلطون بهم وبالبربر . ومن هذا كله سيتكون سكان أفريقية الإسلامية الذين سنتحدث عنهم .

أما الولاية الجنوبية فتسمى بيزاسينا ، وتقع جنوبى خط مدينة القيروان الحالية ، وهى ولاية مراع ومزارع ، وفى جنوبها تقع بلاد الجريد أى بلاد النخيل ، وهى واحات وافرة المياه معظم سكانها من البربر ، ولكن كانت الروم هناك حصون متناثرة ، ومن هنا سمى بعض نواحيها باسم قصطيلية من اللفظ اللاتينى Castella (ومعناه الحصون) ، ومدنه الرئيسية قابس على

البحر ، وهى باب أفـريقية من الشرق ، وقفصة وتوزر ونفطـة وهى عواصم بلاد الجريد التى يتوسطهـا شط الجريد . وجنوبى بلاد الجريـد ، تقع بلاد الساحل ، والمراد بها هنا ساحل الصحـراء ، لأن العرب كانوا يـرون أن الصحراء هى بحر الرمال ، وكـانوا يسمون الواحات بالجزائر ، ولفظ الـواحات أو الواح لا يطلق فى الجغرافيـة العربية إلا على واحــــات مصر لأن اللفظ مصرى قـديم : واح ومعناه الماء.

جريجوريوس أو جرجير :

قبيل الفتح العربى كـان يحكم أفريقيـة بطريق يسمى جريجوريـوس الذى يسميه العرب جـرجير ، وكان هذا الرجل قد اختلف مع الـروم وحاول الاستقلال عنهم ، ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كـان العرب قد أتموا فتح مصر فعلاً . ولم يكن يخطر على باله أن قوة من الجيـوش العربية الإسلامية كان يمكن أن تأتى من نـاحية الشرق ، ولهذا كـان ظنـه أنه سينشىء دولـة لنفسه فى هـذه النـاحيـة ، ولهذا ولكى يحتمى من الـروم انسحب إلى الـداخل تـاركاً العـاصمـة قـرطـاجنة وتحصــن فى بليدة داخليـة كـان لها حصن منيع تسمى سبيطلـة إلى جنوبى القيروان الحالية .

وفى سبيطلة اطمأن ذلك الرجل ، ولكن اطمئنانـه لم يدم ، لأنه فوجىء بطلائع العرب تدخل إقليم برقة . أما بقيـة المغرب فلا نعرف عنها إلا القليل فى ذلك الحين وهذا القليل يتعلق بـالسواحل حيث كانت مراكـز الجاليات الرومية أو الـلاتينية وسنتحدث عنها فى مناسباتها .

من الناحية الحضارية كانت أفريقية مركز عمران رومى أى بيزنطى ، وكانت إقليماً عامراً أى فيه مدن كثيرة وأرض مزروعة وموان على الساحل والبلاد عامرة بالحركـة . وكانت المسيحية منتشرة بين الأفارقـة والجاليات الرومية طبعـاً ، أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة ، فكـانوا على الوثنية ، ولا توجد عـلاقات ظـاهـرة أو عميقة بين الـروم والبربر . ولهذا سنجـد أن العـرب عندمـا يصلون إلى أفـريقية سيكون تعـاملهم مع الروم أولاً ، فلما تغلبـوا على مقاومتهم وخلصوا البلاد منهم دخلوا فى علاقات مع البربر .

فتح برقة وطرابلس :

أتم العرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية فى ١٦ شوال ٢١ هـ/ ١٧ سبتمبر ٦٤٢م واستقر عمــرو بن العاص فى عــاصمته الجديــدة الفسطاط ، وهنــاك نجد عمرو بن العاص ذلك الفــاتح العظيم ينهض للاستيلاء على برقــة فى أواخر سنة ٢٢هـ / أوائل ٦٤٣ م . فسار بنفسه إليها ، ووقع بينه وبين اللواتيين والهواريين قتــال قصير ، ثم استسلموا للعــرب وعقدوا مــع عمرو بن العــاص اتفاقــاً على أن يؤدوا له مبلغاً قدره ثلاثة عشر ألف دينار فى السنة بصفة جزية ثم عاد إلى مصر . ونفهم من هذا أن برقــة كما قلنا كانت جزءًا من أرض أو ولايــة مصر فكان فتحها استكمالا لفتح مصر ، وأن هـــذه الجزية أو الأتــاوة كــانت جزءاً من خــراج مصر العام .

وبعد ذلك بقليل نجد أن عمراً يقــود حملة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م فيفتح إقليم طــرابلس ويستولى على قــاعدتــه التى تحمل نفس الاسم بعــد قتال عنيف ولكنــه قصير مع الروم والبربــر أيضاً ، وكــان كل اهتمامه مــوجهاً إلى التفاهــم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك ، ثم عاد إلى مصر سنــة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م وكانت هذه هى آخر فتوح ذلك الرجــل العظيم عمرو بن العاص ، لأنه عزل بعــد ذلك عن ولاية مصر ، نعم إنــه عــاد مرة أخــرى إلى ولايــة مصر سنــة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م عقب قيــــام خلافـــة معاويـــة بن أبى سفيان ولكن سنــه (عمره) فى ولايته الثانية كانت قد علت فلم يقم بفتوح ، وعلى أى حال فإن مــا قام به هذا الــرجل من فتوح فى تاريخ الإســلام يضعــه فى الصف الأول من بناة الــدولــة الإســلامية ، فهــو الــذى فتح فلسطين ومصر ، وهذا الجزء من المغرب ، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحت جيــوشها إلى ذلك الحين ، وفى التــاريخ الإســـــلامى لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول أبطال هذا التاريخ .

موقعة سبيطلة وفتح أفريقية :

كانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك بأربع سنوات ، وتمت على يد

والى مصر بعد عمـرو بن العاص ، وهو عبـد الله بن سعد بن أبى سرح والى عثمان ابن عفـان على مصر بعد عـزلـه عمراً ، والفكـرة عن هـذا الرجل فى كتب التـاريخ الإسلامى سيئـة بسبب ما كـان منه فى شبـابه الباكـر من تصرف غير سليم مع الرسـول ﷺ ، وتصرفه هذا يـرجع إلى صغر سنه فى ذلك الحين . وبعـد فتح مكة سعى له أخوه فى الرضاع عثمان بن عفان فعفـا عنه الرسول ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلـك ، وعندما أتيحـت له الفرصـة فى خلافـة أخيه عثمان أثبت أنـه من خيرة رجال الأجيال الأولى من المسلمين ، وإن كان معاصروه مـن العرب لم يغفـروا له ما كان منه فى شبابه الباكر .

سارع عبـد الله بن سعد بن أبى سرح بعـد استقراره فى الفسطاط بـاستئذان عثمان فى المسير لمواصلة فتـح المغرب ، وبعد تـردد أذن له عثمان فى ذلـك ، فسار بقوة عسكرية من نحو عشرين ألف رجل معظمهم من الفرسان فى اتجاه أفريقية .

وفى هـذا الجيش اشترك نفـر كبير من أبنـاء الصحـابـة ، والكثيرون منهم يسمون عبـد الله ، ولهذا يسمى ذلك الجيش جيش العبادلة ، ومن أشـهر من سـار فيه عبد الله بن عمرو بن العـاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ، وكان فى الجيش أيضاً عبد الملك بن مـروان ، وكانوا جميعاً شباباً فى السن الباكرة ، وكان آباؤهم يشركونهم فى الفتوح ، لأنها كانت ميدان التدريب والتكوين لشباب الجيل الثانى من أمة الإسلام ، ففى ميادين القتـال كانوا يقتبسون ثقافة العصر وهى الجهاد والفتـوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكـام من الأصول وهى القرآن والسنة .

كان ذلـك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ففيهـا وصلت طلائع الجيش العـربى إلى أفريقية . وفوجىء بها جرجير فاستعـد للقاء ، ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أن كثيرين من البربر وخاصة من لواتة وهـوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا للتقـارب الاجتماعى بين الحيين . ونستنتج من هذا أن الكثيرين من أولئك البربـر دخلوا فى الإسـلام فى ذلك الوقت المبكـر ، ومن المعروف أن البربـر ، مثلهم فى ذلك مثل الفرس وأهل الشـام ، كانوا من أوائل الشعوب إسلاماً .

ويقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة ألف أو ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وهذا بعيد نظراً للظروف التى ذكرناها ، ولكن لا شك فى أن الجيش الرومى كان أضعاف الجيش العربى ، وإن كان معظم العرب فرساناً ، وهذه حقيقة لها أهميتها .

كان اللقاء عند سبيطلة ، وعلى عاداتهم انتصر العرب على عدوهم ، وقتل جرجير وأسر وقتل الكثير من رجاله ، وفر الباقون إلى السواحل ، وبدلاً من أن يعقد عبد الله بن سعد اتفاقاً أو يضم هذه الناحية إلى دولة الإسلام فيقيم فيها والياً ويترك حامية كما كانت عادة العرب ، نجد أن عبد الله بن سعد يتفق مع أهل البلاد على جزية قدرها ٢٠,٠٠٠ دينار ثم يعود إلى مصر .

وربما كان هذا الرقم خطأ إذ أنه قليل جداً وغير واضح كذلك ، لأننا لم نسمع قبل ذلك أن أخذ العرب أتاوة من قوم ثم انصرفوا عنهم ، إنما كانت عادتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون فى دخول الإسلام من أهل البلاد المفتوحة . على أى حال أخذ عبد الله بن سعد هذه الجزية وعاد إلى مصر فى أوائل ٢٩ هـ / ٦٤٩ م ولا نعلل هذه العودة السريعة إلا بما نعرف من أن خلافاً حاداً نشب بين عبد الله بن سعد بن أبى سرح وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وخاصة عبد الله بن الزبير ، الذى تزعم الروايات أنه البطل الحقيقى لمعركة سبيطلة وهو أمر غير صحيح كما رأينا ، فوجد عبد الله بن سعد أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعاً إلى مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأى عمل سياسى أو عسكرى أو ينشىء أو يثبت شيئاً من السلطان للعرب على هذه الناحية .

ولكننا نلاحظ على أى حال أن هذه الهزيمة التى أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد ما ، فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك ، لأن ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جداً إذ ذاك نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل . ونتيجة حاجة الدولة البيزنطية إلى رجال أقوياء فى قلب الدولة ليعيدوا النظام ويثبتوا فى وجه الزحف العربى الذى كان يجتاح بلادهم فى كل ناحية .

ولم يقم العرب بشىء فى أفريقية حتى أيام معاوية بن أبى سفيان ، ولكننا نلاحظ أن نوعاً من الحلف قام بين البربر والعرب ، فمن ناحية اطمأن البربر إلى أن

لهم فى العرب حليفـــاً قوياً يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكـر هؤلاء فى العودة إلى البلاد ، وعلى أى حال فقد أفاد البربـر من ذلك الغزو العربى فائدة كبيرة ، فقد استقلوا عن الروم ، ولم يعودوا يؤدون إليهم جزية ، وكانوا يشعرون أن الروم إذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون ، وكل ذلك فى صـالحهم .

حملة معاوية بن حديج السكونى والقضاء على آمال الروم فى استعادة أفريقية سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م :

شغل العرب عن أفريقية والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان ، ثم الحرب الأهلية بين على ومعاويـة . ولم يتجدد نشـاط الفتوح مرة أخـرى إلا بعد استقـرار الأمر لمعـاوية سنـة ٤١ هـ / ٦٦١م ، التى تسمـى عام الجماعـة . ولو أراد الـروم أن يستعيـدوا أفـريقية خـلال تلك الفترة لتمكنـوا من ذلك بسبب انشغـال العـرب ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة ، فقد أرسـل الروم بطريقاً جديداً يسمى جناديوس حاول أن يفرض سلطاناً رومياً على أفريقية فعجز عن ذلك ، ثم اختلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك إلى العرب وذهب إلى الفسطاط أو إلى دمشق فيما يقال ، واستحث معاوية على إتمام فتح أفـريقية . وتلك فى الغالب أسطورة . والمهم لـدينا أن معـاويـة أرسل سنة ٤٥ هـــ / ٦٦٥ م جيشـاً يقـوده واحد من كبـار العثمانية وهو معاوية بن حديج السكـونى . فلما وصل إلى أفريقية وجد أن الروم قد نـزلوا البلاد فى مينـاء سوسة يقـودهم قائد يسمى نقفـور ، فلما سمع الروم بمجىء العرب أسرعوا إلى سفنهم ، واستولى ابن حـديج على بعض المراكز الرومية القـوية ، ولكن العـرب هذه المرة أيضـاً لم يتركوا عـاملاً بل انسحبـوا إلى مصر . وتعتبر حملة معاويـة بن حديج غزوة من الغزوات التمهيديـة التى قام بها العرب فى المغرب قبل أن يتخذوا قراراً نهائيا بفتح هذه البلاد فتحاً دائما ثابتاً .

فقد تنبهت الخلافـة الأموية بعـد هذه المقـدمات إلى أهمية أفـريقية وضرورة مواصلـة الفتوح فيها . إذ أنها كـانت ميداناً مفتـوحاً لا يعترض تقدم العـرب فيه مانع كبير . ثم إن كثيراً من البربـر كانوا قد أسلمـوا فى ذلك الحين . ولا يستبعد أن يكون الكثيرون من العـرب قد تخلفـوا فى أفريقية لتعليم البربـر قواعـد الإسلام ، وسنرى مصداقاً لذلك فى كلامنا عن عقبة بن نافع الفهرى .

وإذا كان معاوية بن حديج قد عاد إلى الفسطاط بعد حملته على أفريقية فلم يكن السبب فى ذلك أنه أحس أنه انتهى من واجبه فى تلك الجبهة الغربية ، ولكن معناه أن هذا الرجل - وكان واليا على مصر - لم يكن يستطيع الابتعاد عن مركز ولايته زمنا طويلاً ، فهو يغزو ويعود إلى قاعدته فى الفسطاط . ولو استمر الحال على ذلك لما تم فتح المغرب أبداً ، لأن الضربات السريعة لا تعتبر فتوحاً ، ولا تنشأ عنها فتوح .

ولكى يبدأ الفتح الجدى المستمر لأفريقية كان لابد لها من وال خاص بها يتولى قيادة الفتوح فيها ، ويقوم بوضع أسس الحكم الإسلامى فيها بعد أن يجعلها ولاية من ولايات دولة الإسلام ، وهذا هو ما سيفعله عقبة بن نافع .

ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية

٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥م :

كان فى الجيش الأول الذى قاده عمرو بن العاص فى فتح برقة وطرابلس قائد يسمى نافع بن عبد القيس الفهرى ، وكان زوج أخت عمرو بن العاص ، فعهد إليه عمرو بعد أن فتح طرابلس فى أن يسير بقوة من الجند نحو الجنوب للاستيلاء على إقليم فزان الواقع جنوبى طرابلس على بعد ٨٠٠ كم فى الصحراء ففعل ، وكان معه فى هذه الحملة ابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس ، وكان صبياً فى العاشرة . وترك العرب فى فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن عبد القيس وابنه عقبة ، وخلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند فى هذه النواحى يتنقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويلة من مراكز الصحراء ،وفى هذا الجو نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال ، وتحول إلى شخصية عربية أفريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ، ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر فى نفس الوقت ؛ ولهذا فبعد عودة معاوية بن حديج من المغرب بخمس سنوات أى سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م نجد معاوية بن أبى سفيان يولى قيادة الفتوح فى المغرب عقبة بن نافع ويرسل له قوة عسكرية للقيام بذلك العمل ، وهنا يبدأ الفتح الحقيقى لأفريقية والمغرب ، لأن عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بأفريقية وشئونها فى ذلك الوقت لطول خبرته بشئونها ، وعندما قام بحملته الأولى على

أفريقية كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغى عمله لفتحه فتحاً ثابتاً .

وسنلاحظ أثر ذلك فى أعمال عقبة ، فهو أول فاتح عربى يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفى ذهنه فكرة واضحة عما ينبغى عمله لتحويل أعمال الفتوح فى أفريقيا من غزوات تروح وتعود بغنائم فحسب إلى فتوح منظمة ترمى إلى إنشاء ولاية أفريقية ومد حدود الإسلام غرباً وإدخال البربر فى الإسلام .

حملة عقبة بن نافع الأولى وتاسيس القيروان ٥٠ ـ ٥٥ هـ / ٦٧٠ ـ ٦٧٥ م :

سبق أن ذكرنا أن عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى كان بين جنود أفريقية الأول ، وقد اشترك وهو صبى فى محاولات فتح أفريقية الأولى مع أبيه ثم أصبح قائداً شاباً من قادة الجيوش الإسلامية العاملة فى الفتوحات فى الجناح الغربى ، وذكرنا أنه تحول مع الزمن إلى شخصية مجاهدة متصوفة نذرت نفسها للفتوح . وعندما وصله الأمر بولاية أفريقية وكان فى نواحى زويلة قرب فزان ، نهض إلى أفريقية من هناك عام ٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م ، فخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط ، وهناك لقى القوة العسكرية التى أرسلها الخليفة معاوية ابن أبى سفيان للعمل تحت إمرته فوصل غدامس ، ومن هناك دخل أفريقية واتجه رأساً إلى قرب موقع سبيطلة ، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكرى للمسلمين فى أفريقية فاختار موقعاً يقع إلى الشمال قليلاً من سبيطلة التى وقعت عندها المعركة المشهورة ، وبدأ فى اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين .

وكانت القاعدة فى إنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى التى تسمى الأمصار هى البدء ببناء المسجد الجامع ، وفى مواجهة المسجد كانوا ينشئون دار الإمارة (أى مركز ومقر الحاكم) وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع ،ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسى بالعاصمة ويسمى بالسماط أو المحجة ، وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة سمى هذا الشارع بالسماط الأعظم ، وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المبنيين خلاء واسعاً مستديراً ، ثم بعد ذلك كانوا ينشئون

الدور حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار . وسميت هذه المدينة القيروان ، وهو لفظ فارسى معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح . ويقال إن موضع القيروان كان غابة وشعارى(١) ، فقام عقبة وأصحابه بتمهيد الأرض وقطع تلك الأشجار ، وتحكى أسطورة أن عقبة بن نافع قام بكرامات أثناء إنشاء تلك المدينة فأمر الوحوش والهوام التى كانت فى الشعارى بأن تخرج منها لأن المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ ، فخرجت الوحوش والهوام من تلقاء نفسها ، وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهو مدينة القيروان مدينة جليلة ومباركة ، وبالفعل قدر لذلك المصر الصغير أن يصبح من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله ، فقد تحولت القيروان بسرعة إلى قاعدة سياسية ودينية وفكرية للإسلام فى أفريقية ، وقد تحرى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب فى ذلك العصر ، وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهى سلاحهم الأكبر فى عمليات الفتوح ، فكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز التى ينشئونها وسط أقاليم مراع لتسرح فيها الخيول والجمال فى غير أوقات الحروب ليستجم الظهر كما كانوا يقولون ، ولابد أن نذكر أنه كانت فى أفريقية فى ذلك الحين عاصمة أخرى وهى قرطاجنة وكانت ميناء ، وهى عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسية والعسكرية ، ولكن قرطاجنة وبقية مدن السواحل من أمثال قابس وسوسة ظلت عامرة بالروم والأفارقة وغيرهم من سكان الشريط الساحلى .

المهم لدينا أننا لا نلاحظ أى وجود فعلى للروم أثناء عملية إنشاء القيروان التى دامت خمس سنوات من ٥٠ ـ ٥٥ هـ / ٦٧٠ ـ ٦٧٥ م . وبعد فراغ عقبة من إنشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح ، إذ أنه اطمأن إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التى يفتحها وتصدر منها الغزوات . ومعنى ذلك أن عقبة بعمله هذا قد جعل أفريقية ولاية إسلامية جديدة ، لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ،ولا يجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخلوا عن هذه الناحية ، وبالفعل

---

(١) الشَّعارى : هو المكان به الشجر الكثيف الملتف .

كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى برقة أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل ، أما الآن فلابد لهم أن يثبتوا فى هذه الناحية ، وإن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية .

ومن هذا يتبين لنا أهمية العمل الذى قام به عقبة بن نافع الذى يعتبر بحق من أعظم فاتحى المغرب وواحد من أكبر بناة الدولة الإسلامية . ولا يقارن عقبة فى هذا المجال إلا بـ « قتيبة بن مسلم الباهلى » الذى تولى مهمة مماثلة فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام . وإليه يرجع الفضل فى التغلب على مقاومة الترك الوثنيين وفتح بلادهم للإسلام والوصول به إلى كاشغر فى إقليم سنكيانج فى غرب الصين الحالية . وكان عقبة وقتيبة متعاصرين : واحد منهما وصل بحدود دولة الإسلام إلى أقصاها غرباً والثانى وصل بها إلى أقصاها شرقاً .

ولاية أبى المهاجر دينار :

وكنا نتوقع أنه بعد أن قام عقبة بهذا العمل المجيد أن تكافئه الدولة بأن تتركه فى ولايته ليتم ما بدأه ،إلا أنه بدلا من ذلك يتلقى أمراً بالعزل من ولاية أفريقية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥م . وكان الذى عزله معاوية بن أبى سفيان بناء على طلب والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى وكان من كبار العثمانية وأنصار البيت الأموى الذين أعانوا معاوية على الوصول إلى الخلافة ، فكافأه معاوية بولاية مصر ، وعندما رأى مسلمة أن أفريقية أصبحت ولاية وميداناً جديداً واسعاً للفتوحات طمحت نفسه إلى أن يحوزها ، فسعى فى عزل عقبة وتولية رجل من أتباع مسلمة ابن مخلد يسمى دينار أبا المهاجر ، ويظن أنه كان ممن أسلم من أهل مصر ، ولم يكتف مسلمة بعزل عقبة بل نجد أن ديناراً أبا المهاجر يسىء معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك القيروان وينزل بقرية صغيرة قريبة منها تسمى تكيروان رغبة منه فى التقليل من أهمية العاصمة الجديدة ، لأن مسلمة كان يرى أن الغرب الإسلامى كله تبع له ، ومن ثم فلا تكون له إلا قاعدة واحدة هى الفسطاط ، وذهب عقبة إلى دمشق وشكا إلى الخليفة فطيب خاطره ولكنه لم يرده إلى ولايته .

وأما دينار أبو المهاجر فقد تبين أنه من خيرة الولاة رغم تصرفه مع عقبة .

وواضح أنه غير مسئول عن ذلك وإنما المسئول هو مسلمة بن مخلد ، وإن كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عن سوء صنيع دينار أبى المهاجر معه .

انتهج أبو المهاجر سياسة جديدة فى الفتح ، فقد كان عقبة رجلاً متشدداً بعيداً عن السياسة وفهم تصاريفها ، أما أبو المهاجر دينار فنجده فى أعماله العسكرية يتجه إلى كسب مودة أهل البلاد من البربر ، وهو لم ينتهج نهجاً معيناً أو محدداً فى أعماله العسكرية ، لأنه كان رجلاً نشيطاً يرسل الغزوات فى كل وجه ، وقد وصلت غزواته إلى مسافة بعيدة فى الغرب حتى وصل إلى تلمسان وهى أكبر قواعد القسم الشرقى من المغرب الأوسط ، أى تلك المنطقة الواقعة حالياً إلى الشرق من نهر الملوية الذى قلنا : إن الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى يمر شرقه بقليل . وفى هذه الناحية ـ تلمسان ـ كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس فى ذلك العصر وهى أوربة ، وهى قبيلة برنسية أى من قبائل الحضر وكانت تسيطر على المغرب الأوسط كله يتزعمها زعيم بربرى يسمى كسيلة بن لَمْزَم ، وقد دخل هذا الرجل الإسلام ومعه قبيلته الكبيرة على يد أبى المهاجر دينار . ودخول أوربة وزعيمها كسيلة فى الإسلام يعد حدثاً هاماً لابد من ملاحظته . حقيقة كان الإسلام ينتشر فى المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين، وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشىء القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التفانى فى سبيل الإسلام ، فدخلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة ، ولكن إسلام أوربة يعتبر حدثا تاريخياً هاماً فى تاريخ إسلام المغرب ، فهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة فى الإسلام ، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البتر أى البدو من قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وغيرها ، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه دينار أبى المهاجر إلى القيروان .

ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية وحملته الكبرى على المغرب ٦٢ ـ ٦٤ هـ/ ٦٨١ ـ ٦٨٣ م :

استمرت ولاية دينار أبى المهاجر سبع سنوات ، ولم تنته إلا بوفاة معاوية ابن أبى سفيان سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م ، وبوفاة معاوية فقد مسلمة بن مخلد

نصيره فلم تعد له تلك المكانة التى كانت له أيام معاوية ، وانتهز عقبة هذه الفرصة وتحدث إلى يزيد بن معاوية فى إعادته إلى أفريقية ، فأجابه إلى مطلبه ، وأسرع عقبة إلى المغرب ومعه قوة تقدر بحوالى ٤٠٠٠٠ فارس وقد صمم هذه المرة على أن يشرع فى الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد .

وعندما وصل عقبة إلى أفريقية قبض على دينار أبى المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وتلك كانت من أخطائه الجسيمة ، لأن كسيلة كان رجلاً مسلماً وليس ذنبه أنه كان صاحباً لأبى المهاجر ، ومن ثم فلم يكن عقبة على حق فى سوء معاملته . على أى حال نجد عقبة رغم ما اتصف به من إيثار وإيمان وشجاعة وبُعْد عن شئون هذه الدنيا لم يعرف كيف يغفر لأبى المهاجر ما صنعه به ، ورغم ما تميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وإدخاله فى الإسلام ، نجده قصير النظر فى شئون السياسة ومعاملة الناس ، فأخذ كسيلة معه — مصفداً بالحديد كما يقال — وأساء معاملته رغم أن ديناراً أبا المهاجر كان ينصحه بإحسان معاملة ذلك الرجل ، تأسياً بما كان يفعله الرسول ﷺ فى استئلاف حديثى العهد بالإسلام فقد كان إيمانهم قريباً أو قريب عهد ولابد من تحبيبهم فى الإيمان وهم المؤلفة قلوبهم ، ولكن عقبة فى حماسه الشديد للفتح وتفانيه فيه لم يلتفت إلى النصح وسار فى جموعه نحو المغرب الأوسط .

وبدلا من أن يتخذ فى سيره الطريق الأسهل ، فيسير على الشريط الساحلى نجده يخترق الجبال ويغزو البربر فى عقر دارهم فيدخل جبال الأوراس وهى الطرف الشرقى لجبال الأطلس وهى جبال عالية وعرة كثيرة المضايق والأخاديد فى هذه الناحية ، وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربوا إلى داخل البلاد واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معا على المسلمين ، ولكن عقبة لم يكترث لهم ، ومضى يقتحم جبال الأوراس موغلاً فى بلاد هى الغاية فى وعورة الأرض وصعوبة المسالك .

دخل عقبة جبال الأوراس وبدأ بمحاصرة حصن يسمى باغاية وكان فيه عدد من الروم إلى جانب البربر ، وعندما وجد عقبة صعوبة فى الاستيلاء على باغاية تركها واندفع ناحية الغرب ، فعبر نهر شلف ، وهو يحارب القبائل فى طريقه

ويفض جموعها ويلقى الرعب فى قلوب أهلها ، وفى نفس الوقت يجتذب الكثيرين من أفرادها للإسلام بفضل ماكان يبدو عليه من التقوى والتفانى فى سبيل الإسلام ، واستمر فى طريقه غير عابىء بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل إلى قرب طنجة ، أى أن ذلك الرجل قطع فى شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر ، وظهر أمام طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط .

هنا يلقى عقبة عند طنجة شخصية غريبة تسمى يليان — والقراءة مشكوك فيها - ولا نعرف عن ذلك الرجل أى شىء يعول عليه ، فهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للسلطان الرومى - البيزنطى فى ذلك الطرف الأقصى من البحر المتوسط - وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة أيبيريا فى ذلك الحين وهذا أقرب الأحوال إلى القبول ، وهناك رأى ثالث يقول إنه بربرى تزعَّم قبيلة غمارة الكبيرة التى ستدخل فى الإسلام وسيكون لها فى تاريخ المغرب شأن كبير . وربما كان اسم يليان تسمية عامة تطلق عند العرب على حاكم إقليم طنجة أيا كان. فبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ ، وفى ولاية موسى بن نصير فى أثناء أعمال فتح الأندلس سنلقى يليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى وطارق ، وكذلك سيكون له دور فى فتح الأندلس . على أى حال نجد أن عقبة يتفاهم مع ذلك الرجل ويقول له يليان : لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن إلا البربر فعليك الآن أن تنحدر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين .

ولم يكذبه عقبة ، فاتجه إلى الجنوب ، وبنفس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصامدة من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه مخترقاً جبال الأطلس التى تسمى هنا جبال درن وفى طريقه يهزم القبائل وينشىء المساجد ويقبل عليه الناس رغباً أو رهباً ليعلنوا إسلامهم . وعندما يصل ذلك الرجل إلى قلب بلاد المصامدة فى جبال درن نجده يدور دورة واسعة وسط الجبال ثم يتجه غرباً ، وينحدر نحو المحيط إلى جنوب المدينة الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادى السوس ، وهناك وعند قرية صغيرة على

البحر تسمى « أيغيران يطوف » نرى المشهد التاريخى الشهير وهو مشهد عقبة يدخل بحصانه فى مياه المحيط الأطلسى ويشهد الله على أنه وصل براية الإسلام إلى آخر المعمورة ، وأنه لو وجد طريقاً لسار إلى البلاد التى وصل إليها ـ فى زعم القصاصين ـ ذو القرنين عند مغرب الشمس .

وبعد أن وصل عقبة إلى هذه النتيجة التى لا تصدق نجده يعود أدراجه مخترقاً بلاد البربر مرة أخرى ، وعندما يصل إلى نهر تانسيفت وهو النهر الذى تقع على أحد نهيراته مدينة مراكش الحالية ، وعند بليدة تسمى نفيس ينشىء مسجداً وهو الذى عرف فيما بعد باسم مسجد « أغمات أوريكة » ولا زال ذلك المسجد باقياً إلى اليوم ويقال إن منبره يرجع إلى تلك الأيام . وعندما وصل عقبة إلى وادى أبى الرقراق الذى تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشىء رباطاً أى معسكراً للمرابطين ، أى الذين يرابطون على ثغور ديار الإسلام ليحرسوها ويذودوا الأعداء عنها حسبة لله سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا الرباط برباط شاكر، وهو أحد قواده ، وهناك ترك عقبة شاكراً هذا ليعلم الناس مبادىء الإسلام ، ثم يواصل مسيرته عائداً إلى القيروان ، فنجد أن الكثيرين من جنوده يستأذنونه فى الإسراع إلى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى فى عدد قليل من رجاله .

وبينما كان عقبة منصرفا إلى مغامرته العسكرية الدينية الكبيرة تلك كان خصومه يكيدون له ، وكان معه فى الجيش كما قلنا دينار أبو المهاجر وصاحبه كسيلة بن لمزم الأورَبِىّ فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أُورْبة هرب كسيلة وعاد إلى قومه ، وجمعهم وتتبع عقبة ليوقع به عندما تسنح له الفرصة ، وعندما وصل الجيش الإسلامى الصغير إلى سهل تهوده جنوبى واحة بسكرة الحالية إلى جنوب مدينة الجزائر وجد عقبة نفسه محاصراً بجماعات غفيرة من البربر والروم ، وقد تجمعوا وتعاونوا بفضل كسيلة للانتقام من ذلك الرجل المجاهد عقبة ، وهناك قرب نهير صغير يسمى وادى الأبيوض وجد عقبة أنه لا مفر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم ، وذلك دليل على توطين النفس على القتال إلى الموت وطلب إليه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكى يموت فى سبيل الإسلام ، وخاضت هذه

الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة ، فقتلوا عن آخرهم ، وتلك كانت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م . وهى نهاية جديرة بحياة رجل مثل عقبة بن نافع ، وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية إلا أنها فى واقع الأمر كانت بعيدة الأثر فى إسلام أفريقية والمغرب ، فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البسالة فى ذلك الاستشهاد أوقع أثراً فى نفوس البربر ، وهم قوم ذوو بأس وإعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات فى الإسلام ، وتلك هى نهاية أسطورة عقبة أو سيدى عقبة بطل الإسلام الأكبر فى تاريخ الفتوح فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى .

زهير بن قيس والقضاء على كسيلة :

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمور أفريقية إثر مقتل عقبة بن نافع واحتلال كسيلة للقيروان إلا بعد وقت طويل ، لأن ظروف الدولة لم تسمح بذلك . لقد توفى يزيد بن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثانى ، ثم انتهى الأمر إلى مروان بن الحكم ، وثار عليه عبد الله بن الزبير وبعد انتصار مروان على أنصار عبد الله بن الزبير بقليل ، توفى مروان وخلفه ابنه عبد الملك وشغل باستعادة العراق من الزبيريين ، وهدأت الأحوال شيئاً فشيئاً ابتداء من ٦٨ هـ / ٦٨٧م ، وثبتت أركان خلافة عبد الملك واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل فى أفريقية ، وكان زهير بن قيس الذى خلف عقبة منتظراً فى برقة أن تأتيه الإمدادات لكى ينهض إلى أفريقية من جديد.

وأرسل عبد الملك إلى زهير جيشاً قويًا ، وبعث إليه بالأموال من مصر ، فنهض سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م متجها إلى أفريقية ، وعندما دخلها عسكر فى ناحية تسمى قمودة ، وهى شبه جزيرة بارزة فى البحر من الساحل الشرقى لتونس الحالية ، وكان من عادة العرب فى تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم فى مثل ذلك الموقع أو فى ثنية من النهر وذلك لقلة أعدادهم . وكان كسيلة قد جمع قوى ضخمة من البربر والروم وسار بهم لحرب زهير . وفكر زهير فى الانسحاب ، ولكن قادة الجيش الآخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على المسير للقاء كسيلة . وفعلاً تم اللقاء بين الجانبين ، وجرت معركة من أشد ما مر بالعرب فى أفريقية إلى ذلك الحين ، فقد فنى فيها الألوف من الجانبين ، وخرج المسلمون كعادتهم فى ذلك

العصر منتصرين ، وقتل كسيلة ونفر كبير من كبار الروم والبربر ، وطارد المسلمون فلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة .

بعد ذلك عاد زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها وبعد أن تم له من ذلك ما أراد نجده يعلن أنه عائد إلى الشرق ولا ندرى ما السبب فى ذلك القرار ، لأن زهيرا كان يستطيع - بل كان لابد له - أن يقيم فى أفريقية والياً عربياً لها . ولكن يبدو أنه لم يكن مستريحاً للمقام فى تلك البلاد ولم تكن الدولة الإسلامية قد حددت بعد سياستها فيما يتعلق بأفريقية .

ولابد أن نذكر أن بلاد أفريقية فى ذلك العصر كانت بلاداً بعيدة جداً عن نظر العرب ، خاصة وهى ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى ، لهذا أزمع زهير العودة وشرع فيها فعلاً ، وعندما خرج زهير سمع أن الروم عادوا إلى طرابلس وأنزلوا قوة فيها . وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعاً صغيرة منسحبا إلى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقى فى سبعين رجلاً فقط من خيرة رجاله ، ورأى الروم يعودون إلى مراكبهم ومعهم أسرى المسلمين وما نهبوه من الأموال ، وأراد زهيرأن ينتظر حتى يتكامل الجيش ليهاجم الروم ، ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعيَّروه بالجبن عن اللقاء فما كان منه إلا أن انقض بمن معه على الروم ، وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه ، وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية فى فتوح أفريقية، وانسحب الباقون من رجال زهير إلى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة إلى أفريقية .

حملة حسان بن النعمان الغسانى والقضاء على آخر مظاهر المقاومة الفعلية للفتح العربى ، وثبوت أقدام المسلمين نهائيا فى أفريقية ٧١ - ٨٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٠٤ م :

بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك بن مروان بصورة نهائية تجدد عزمه على مواصلة الفتوح فى ذلك الجناح الغربى لدولة الإسلام ، ونلاحظ أنه فى عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين فى

الفتـوح فى الشرق وعلى رأسهم الحجـاج بن يوسف الثقفـى والعاملين فى المغـرب وعلى رأسـهم عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة وولى عهده وواليه على مصر. كـان كل من الجانبين يحاول أن يتفـوق على الآخـر بما يفتح من البـلاد ، وهـو تنافـس محمود يرجـع الفضل إليه فيما وفقت إليـه دولة الإسـلام فى عصر عبد الملك وابنـه الوليـد ، وقد كـانت نتيجة هـذا التنافس فتح بـلاد زادت من ناحيـة الأهمية والاتساع على كل ما فتحه المسلمون فى العصر الراشدى بعد فتوح إيران ، فقد وصل المسلمون إلى غربى الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدى الفاتحين الكبار مثل قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم .

أما فى الجنـاح الغربى ، وهو مـوضـوع حديثنـا الآن فقد بدأ عصر جـديد من الفتوح بفضل ما قام بعد عقبة بن نـافع ومن جاء بعده من كبار الفاتحين ، وأول أولئك الفـاتحين الجدد حسان بـن النعمان الذى سيتـولى القضـاء على المقاومـة الفعلية للروم والبربر فى أفريقية .

كان حسـان من كبار رجال عبد الملك ، وكان رجلاً شريفاً ينتسب إلى آل غسان ولهذا كان لقبه الغســانى ، ومع علو سنه إلا أن شخصيته وخبرته وأمـانته مكّنته من القيام بهذه المهمـة التى وكلتها إليـه الخلافة ، فسـار فيمن معه نحـو كسيلة والتقى الجانبان فى معـركة حاسمة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وانهزم كسيلة وقتل ، وبعد التخلص من كسيلة بدأ حسـان فى تنظيم أمـور أفريقية ووجه همه إلى الروم وكانت حاميتهم لا تزال قوية فى قرطاجنة فوجد حسان أنه لابد من الاستيلاء على ذلك البلد وتم لـه ذلك فعلاً ، ثم هـدم منشآت الميناء حتى لا تعود إليـه أساطيل الـروم وعـاد حسان بعـد ذلك إلى القيروان ، وبعـد أن استراح فترة قصيرة كـان يحسب أن كل مقاومة فعلية قد انتهت وأن أوان التنظيم قد حان ولكنه فوجىء بما لم يكن فى حسبان أحد .

الكــاهنـة :

ذلك أن زعيمة بربرية ظهرت فى الميدان تتحدى العرب يسميها العرب الكاهنة ولا نعرف نحن اسمها على وجه الدقـة فإن بعض المؤرخين يسمونها داهيـا بنت

واهيـا ، ولكن هذه تسميـة مأخـوذة من القصص الشعبى ولا شك . ظهرت هـذه المرأة فى جبال الأوراس على رأس قبيلـة من أكبر قبائل البتر الزناتيـة تسمى قبيلة جـراوة وتحدت العـرب وأعلنت أنها لن تستريح حتـى تخرجهم نهائيـاً من بـلاد أفـريقيـة ، ويبدو أن هـذه المرأة عنـدمـا رأت أن العرب كسروا شـوكـة البرانس بالقضـاء على كسيلة ، قـدرت أن دورها قـد جاء فـرأت أن تبادر العـرب قبل أن يبادروها .

يصـور المؤرخـون العـرب هذه المرأة فى صـورة هى أقـرب إلى شـخصيـات الأساطير ، فالكاهنـة هذه ساحرة شديدة السمـرة فى حوالى الخمسين من عمرها وهى امرأة ذات شخصية خـلابة ولها قدرة على الإتيان بأعمال السحـر والكهانة والتنبؤ بما سيحدث . وبطبيعة الحال كـان ذلك الخبر مفاجأة لحسـان ، ولكنه بما عرف عنه من البسـالة وبعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن أن تسبب للعرب متـاعب كبيرة ، لأنها كـانت متحصنة فى جبـال الأوراس ، وهى الطـرف الشرقى لجبال الأطلس بجمهورية الجزائر فى إقليم قسطنطينـة وما يليها شمالاً وجنوباً ، وكان من الممكن لهذا أن تسبب متـاعب جديدة للعـرب ، ولهذا نجد حسانـاً يتجه نحوها والتقى معهـا فى معركة حامية ينهزم فيهـا حسان ويضطر إلى الارتداد إلى برقة ،لأن تلك المرأة طاردته حتى أخرجته مـن أفريقية وطرابلس ، وهناك فى برقة تحصن حسـان وبنى بيوتاً تسمى قصور حسـان وأرسل للخليفة يطلب المدد .

أمـا الكاهنـة فقد اطمأنت إلى أن العـرب قـد ابتعدوا عن بـلادها فعـادت إلى مواطنها . وظنت أن العـرب لا يطلبون من هذه البلاد إلا المغـانم ، فقررت تخريب الطريق الـذى يسلكه العرب حتى لا يبقـى لهم مطمع فى أفريقية فأمـرت رجالها بقطع الأشجار وتهديم القرى وإحـراق الزروع فكان لعملها هـذا أسوأ الأثر على حركتهـا ، لأن أصحاب الأشجـار والزروع والقـرى كانـوا من البربر الحضر أى البرانس فنفـروا منها نفـوراً شديداً وأرسلـوا إلى حسان يستغيثـون به . وكـانت الكاهنـة قد أسرت نفـراً من رجال المسلمين من بينهم رجل يدعى خـالد بن يـزيد فتبنته واتخذته مشيراً لها .

وعنـدمـا وصلت إلى حسـان الإمدادات سنـة ٧٩ هــ / ٦٩٨ م نهض للقـاء

الكاهنــة ولإنقاذ المسلمين فى أفريقيــة ، وكذلك لإغاثــة البربر الذين استنجــدوا به فزادت الكـاهنة فى عمليات التخـريب حتى جعلت البلاد التى تعـرف بتونس الآن خراباً ويسمى المؤرخــون ذلك بخراب أفريقية الأول ، وسيكون هنــاك خراب ثان لأفريقية على يد العرب الهلالية فى القــرن الخامس الهجرى كما يقولون ، ويذهب المؤرخون الفرنسيون إلى القول بأن ذلك التخريب الأول لم يتم على أيدى الكاهنة وإنما قام بــه العرب أنفسهم ونسبوه إلى الكاهنــة معتمدين فى ذلك على بعض آراء خاطئة لابن خلدون يقول فيها : « إن العرب إذا دخلوا قطراً عامراً خربـــوه » ومن أقواله أيضـــا : « إذا عـربت خربت » ، وذلك فى إطار تفكيره عن الصراع بين البدو والحضر وقوله هذا داخل فيما يسمى بدورة العمران .

هذه كلها آراء غير سليمة فى جملتها ، وخـاصة فيما يتصل بكلامه عن موقف العـرب من الحضـارة وزعمه أنهم لا يتغلبـون إلا على البســائط (جمع بسيط) وذلك كله ينبغى أن يكـون اليوم موضع دراسة جادة منــا نحن العرب(١) . المهم لدينا أن الكاهنة أنزلت خراباً واسعاً بأفريقية .

ويذكـر المؤرخون العرب وخاصــة عبد الرحمن بن عبد الحكم « أن أفـريقية كانت ظلا واحداً من برقة إلى طنجة فخربـت ذلك كله الكاهنة » ، هذه أيضاً مبالغة وعدم فهم من ابــن عبد الحكم ـ فأولاً : لم تكن أفـريقية بهذا العمـران عند الفتح العـربى . وثانيــاً : ليس من المعقـول أن تخرب امرأة واحـدة ذلك العمران كلــه، ونستطيع اليوم تفسير هذه الظـاهرة أن نقول : إن الكاهنــة بالفعل قامت ببعض أعمال التخريب للأسباب التى ذكرناهــا ، واستمر التخريب بعد ذلك لسوء الحكم وسياســات الولاة وما سنـرى من الصراع السياسى الشديـد بين العرب فيما بين بعضهم وبعض من ناحية ، وبين العرب والبربر من ناحية أخرى .

ثم كان اللقـــاء الحاسم بين حســـان والكاهنــة وسط جبال الأوراس وكان خالد بن يزيد يراسل حساناً ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها وأحسَّتْ هى بأنها لن تستطيع الصمـود أمــام العـرب مـرة أخـرى وتنبأت أنها

---

(١) أى لا بد لنا من إعادة النظر فى آراء ابن خلدون هذه .

مقتولة ، فنادت خالد بن يزيد وطلبت إليه أن يستأمن لولديها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك، أما هى فصممت وقالت إنها لابد أن تحارب حتى الموت لأن الملوك لا يستسلمون، وفى سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م ، أى بعد عودة حسان إلى أفريقية بنحو عام ، دارت المعركة الحاسمة فى موضع من جبال الأوراس لا نعرفه على وجه التحديد ، ولكن المؤرخين يقولون إن المعركة كانت عند نهر نينى ولا نعرف نهراً فى أفريقية أو المغرب بهذا الاسم . على أى حال قضى العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر فى ذلك الجناح الغربى من الدولة الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن مقتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر ، لأنه بقيت أمامنا فصول طويلة من الصراع فى المغرب ثم فى الأندلس حتى تستقر سيادة العرب والإسلام على كل الجناح الغربى لدولة الإسلام كما سنرى .

وعاد حسان بعد ذلك النصر إلى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية للروم فى أفريقية فاستولى على بلدة قرطاجنة وخربها تماماً وفرت بقايا الروم إلى صقلية وجزر البحر ولم يبق لهم بعد ذلك فى المغرب إلا بقايا قليلة اندرجت فى السكان ، ولا نسمع بعد ذلك عن حركة ذات شأن لهم .

تنظيم الإدارة الإسلامية فى المغرب وبداية التحول الفعلى لأهل البلاد إلى الإسلام :

هكذا أتم حسان بن النعمان فتح أفريقية والمغرب الأوسط ، ورأى أن عليه قبل أن يسترسل فى الأعمال العسكرية أن ينظم هذه البلاد الواسعة التى دانت للإسلام بعد ما يقرب من ٦٠ سنة من الصراع الدموى ، فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م وها نحن مع حسان بن النعمان عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

وبعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين التى سكنتها ، نظر حسان فى موضوع التنظيم الإدارى والمالى .

وهنا واجه حسان مشكلة لم يـواجهها غيره من حكام المسلمين فى الغرب إلى الآن . ذلك أن الذين فتحـوا مصر مثلا دخلـوا بلداً منظما بالفعـــل من النـاحية الإداريـــة مقسماً إلى ما يمكن أن نسميه مديريات أو محافظات ، وكانت تسمى فى ذلك الحين بالكور جمع كورة ، فما كان عليهم إلا أن يـدخلوا ما تمس إليه الحاجة من التعديلات على هذا النظام وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر ، هكذا فعل الـذين فتحـوا العـراق أو فارس أو مصر وغيرهـا من البـلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة ، أمـا فى المغرب فقد وجد العرب أنفسهم فى بلاد لم يسبق تنظيمها لا إدارياً ولا مالياً ، كـذلك لم يسبق لها أو لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيما من أى نـوع ، لأن أساس أى تنظيم من هـذا النـوع هى الوحـدات الإدارية القديمة وعواصمها ومـا جرت به العادة قبل الفتح العربى فى تسيير أمور الناس والدولة، أما فى أفريقية وطرابلس والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم إلا على السـاحل ، أما العـرب فقد أوغلـوا فى البلاد وفتحـوا مواطن البربـر فى دواخل البـلاد وهم قبـائل ، والقبـائل لا تعـرف العـواصم ولا الضرائب ، لأن القبـائل بطبيعتهـا لا يمكن ضبطهـا كما يضبط أهـل الأراضـى المزروعـة . هنـا نجـد أن حساناً يلجأ إلى ما لجأ إليه المسلمون فى تنظيم الجزيرة العربية ، فهذه أيضاً بلاد كانت قبـائل ، وإذا كانت الـوحدة الإداريـة والمالية فى بـلاد الحضر هى الكور أو المديريـات وعواصمها وما يتبع كل عـاصمة من زمام أو حوز ، فإن الـوحدة فى بلاد البدو والقبائل هى القبيلة ونطـاقها ومجالها الحيوى ، لأن القبائل كما سبق أن ذكرنـا تعيش فى صحاريها ولكل منهـا مجالها ، والمجال يتحدد بمـوارد المياه ومواضع الكـلأ التى توجـد فى المجال ، والقبيلـة تتحرك طـوال العام فى مجالاتها حسب نظام معروف فى الحياة البدوية ، وهى ليسـت حياة فوضى وبدائية مطلقة وإنما هى حياة منظمة وفـق النظام المعروف فى كل مناطق البـدو فى الدنيا ، ومن الخطأ أن نتصور أن هناك قبيلـة كانت تنتقل فى شبه الجزيرة بـاستمرار وبدون توقف ، لأن ذلك منطقياً غير ممكن ، واجتماعياً مستحيل . ولم نسمع قط أن قبيلة عربية خرجت من حضرموت واستمـرت فى التنقل حتى الشام . وإنما كانت هناك لكل قبيلـة منطقتها الخاصـة بها المعترف بها من جـاراتها ، وعيون الماء فى هـذه المنطقـة ملك للقبيلـة وهى تنتقل فى مجالها هـذا بقطعانها وخيـامهـا وكلما أكلت

القطعان الحشائش فى موقع انتقلت القبيلة إلى غيره فى مجالها . وكانت العادة أن يكون لكل قبيلة فى مجالها مشتى ومصيف فالمشتى فى القيعان والوديان حيث يتجمع ماء المطر وتنبت الحشائش ، والصيف فى أعالى التلال والجبال وسطوحها حيث الجو مقبول محتمل فى الصيف والحشائش التى نبتت على أمطار الشتاء جافة تصلح للرعى .

لهذا نجد أن الفاتح العربى للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسى القديم الذى كان لا يشمل إلا جزءاً صغيراً من الساحل ، فأقر تنظيمه على ماجرى الأمر عليه مع تعديل طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل نقل العاصمة من قرطاجنة إلى القيروان .

وبعد ذلك قسم العرب الدواخل على أساس منازل القبائل ، أى اعتبار مجال كل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والاتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بحماية القضاة والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسئوليات وظائفهم .

وبطبيعة الحال فى بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للسواحل تقريباً ، وقد ذكرناها فيما سبق ، كان لابد من اتخاذ بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة فى هذه النطاقات أساساً من أسس التنظيم ، أى اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضى ، وعلى هذا فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب إدارياً كما يلى :

١ ــ فيما يتصل **بإقليم برقة** وهو الذى قلنا إنه يعرف فى القديم باسم سيرينايكا (يسمى حالياً باسم إقليم بنغازى) هذا الجزء اعتبر تابعاً لمصر من الناحية الإدارية والمالية ، ولكننا لا نلاحظ أثراً لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر الولاة ، بمعنى أن برقة أصبحت إقليماً فى الظل ، يختفى فى معظم الأحيان ولا يظهر إلا فى مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداء من الغزوة الهلالية ، وما كان لبعض بطون الهلاليين وحلفائهم من شأن فيها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نسمع ببرقة إلا قليلاً ، ومع ذلك فمن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها ، والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجى وإن لم يكن

لدينا تاريخ لها فى تلك العصور الأولى ، وكانت تمتد من ساحل البحر إلى زويلة فى المداخل الشرقية لإقليم فزان ، وكانت قاعدته السياسية مدينة برقة ، ولكن كتب الرحالين تحدثنا عن انتظام الحياة القبلية فى الإقليم وازدهار مدنه التى كانت فى نفس الوقت محطات قوافل تمتد فى حدود عمل صرت إلى السلوم ، وهى المدخل إلى مصر . هنا عاشت دائما قبائل لواتة وهوارة ومن نزل بلادها من مهاجرة العرب . وقد هاجرت مع الفتح جماعات من لواتة وهوارة غرباً .

٢ ـ ويلى ذلك غربا **إقليم طرابلس** ويشمل المساحة الممتدة من بلدة صرت إلى صبرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذى يسمى طرابلس وينقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية ويسمى كل منها عملاً والجمع أعمال وهى :

(أ) عمل صرت .　　　**(ب) عمل طرابلس .**

(جـ) عمل صبرة .　　　**(د) جبل نفوسة .**

وقد سبق أن ذكرنا أن جبل نفوسة كان فى ذلك العصر جبلاً مسكوناً كثير الزروع والمراعى ، وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهى أكبر القبائل البربرية فى ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير فى تاريخ المغرب الإسلامى وخاصة فى تاريخ دولة بنى رستم الخارجية الإباضية ،لأن النفوسيين دخلوا ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل .

٣ ـ **إقليم فزان :** وهو فى الداخل على بعد نحو ٨٠٠ كم من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوى آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار ، وهو إقليم واحات يصل المغرب بأفريقية المدارية عند إقليم تشاد الحالى .

وكانت فزان دائما إقليما عامراً بالواحات والمدن والقرى والمياه وسيهتم به العرب اهتماماً خاصًا وسينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ مجيد فى العصور الإسلامية .

٤ ـ **إقليم أفريقية** ـ وعاصمته القيروان ـ : ويبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً

حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسطنطينة الحالية .

ولكن مصطلح أفريقية يطلق فى التقسيم الإدارى العربى على ثلاثة أقسام :

أولها عمل طرابلس الذى ذكرناه بحدوده ، ثـم عمل أفريقية الذى يقابل بلاد تونس الحالية ، ويلى ذلك شرقاً عمل الزاب أو إقليم الزاب ، وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية ، وحده الغربى مجرى نهر شلف وهو نهر صغير ينبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب فى البحر المتوسط قرب وهران الحالية . والمجرى الأعلى لنهر شلف الذى يسير من الجنوب إلى الشمال هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم أفريقية بأقسامه الثلاثة (طرابلس وأفريقية والزاب) والمغرب الأوسط .

٥ ـ **المغرب الأوسط** : ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر المولوية ، وهو نهر ينبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب فى البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية . وهو الحد الفاصل الطبيعى بين المغربين الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرقى هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوريرت ، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرقى بحرى نهر المولوية .

٦ ـ ما يلى ذلك إلى الغرب وحتى المحيط أطلق عليه اسم **المغرب الأقصى** ، واعتبر حسان القبائل فى هذا الإقليم وحدات إدارية ، أى أنه قدر الأموال عليها على أساس القبائل النازلة فيها ، فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه ، وكان يدفع فى الغالب عيناً ، وجرت العادة فى ذلك العصر على أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوة العسكرية العربية العاملة فى المغرب ، ويعتبر تقديم أولئك المقاتلين جزءاً من المال المقرر على القبيلة ،ونتيجة لذلك كثر انضمام البربر إلى الجيوش العربية على نحو لا نجد له مثالاً فيما فتحه العرب من البلاد إلى ذلك الحين إلا فى إيران وبلاد الترك ، والنتيجة أن الجيش العربى أو الجيش الإسلامى العامل فى المغرب تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية . ومن البديهى أن البربرى الذى يدخل فى الجيش الإسلامى يعتنق الإسلام ، ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل فى إسلام أهل

المغرب . ونقطة البداية الواضحة هنا هى القوة التى انضمت إلى حسان ، مع ولدى الكاهنة ، وعددها اثنا عشر ألف رجل ، تولى قيادتهم ابنا الكاهنة ، وقد سميت الجماعة البربرية التى انضمت إلى جيوش المسلمين بالرهائن ، ولم يكونوا فى الحقيقة رهائن ، وإنما هم ضمان لطاعة بقية أهلهم فى مواطنهم .

بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح أفريقية ، فقرر إزالة مدينة قرطاجنة تماماً حتى يتلاشى أمر الروم فى أفريقية والمغرب ، وبالفعل خرب حسان ما بقى من قرطاجنة ذات التاريخ القديم الباهر ، فلم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر ، غير أن الفرنسيين عندما احتلوا إقليم تونس أحيوها من جديد فى صورة ضاحية لمدينة تونس ، عرفت باسمها الفرنسى وهو قرطاج ، وقد أصبحت جزءاً من مدينة تونس .

ورأى حسان أن المغرب أو أفريقية لا تستغنى عن ميناء كبير ، لأن أفريقية إقليم بحرى ، وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أنها فى جملتها عبارة عن شبه جزيرة داخل البحر ، وسواحله الشرقية والشمالية مليئة بالموانى الطبيعية الصغيرة والكبيرة ، ولهذا كان لا بد لحسان من أن ينشىء لأفريقية ميناء يحل محل قرطاجنة .

إنشاء ميناء تونس :

اختار حسان لإنشاء الميناء الإسلامى الجديد موضعاً يقع إلى الجنوب الغربى من قرطاجنة ، ونظراً إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوى تقريباً ، أى إنهم كانوا يشترطون فى المدينة التى ينشئونها أن تكون وسط إقليم مراع لحاجة الخيل والجمال ، فإن حساناً وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقليد العربى عندما أراد إنشاء الميناء الجديد . كانت هذه أول مرة ينشىء فيها العرب ميناء ، وجمعا بين ما يتطلبه إنشاء ميناء من ضرورة وجودها على الساحل وبعدها عنه فى نفس الوقت اختار حسان موضع سبخة تقع على الساحل ، والسبخة هى منطقة رملية ، ولكن رمالها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة .

وكانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة فى الداخل . فرأى

حسان أن موقعها يصلح لإنشاء مينائه ، واختار موضع إنشاء الميناء عند نهاية السبخة من داخل الأرض ، وشق فى رمال السبخة قناة واسعة عميقة تخترقها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة ، وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها ، وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجوم من ناحية البحر ، لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التى تشقها القناة ، وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة أى مصنع بناء السفن ومساكن العمال والبحريين ، حول السبخة ، واستعان فى إنشاء دار الصناعة بعدد من أقباط مصر أرسلهم إليه والى مصر وسميت الميناء الجديدة « تونس » لأنه كانت توجد قرب موضعها قرية قديمة تسمى تينس . وكانت السبخة تقع على جزء من خليج واسع يسمى خليج راديس وقد عمر البناء بسرعة وتحول إلى مدينة من أعمر مدن أفريقية وميناء من أكبر موانى الإسلام فى البحر المتوسط .

بإنشاء ذلك الميناء والقضاء على قوة الروم وموانئهم ، دخل تاريخ أفريقية الإسلامية فى دور جديد ، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان الغسانى من أكابر بناة الدولة الإسلامية ، فهذا التنظيم الإدارى والمالى ، الذى وضعه لأفريقية ، حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها العرب إلى ما يليها غرباً ، ثم إن ميناء تونس فتح أبواب أفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم فى البحر المتوسط .

وبينما كان العمل فى إنشاء تونس يسير فى طريقه ، كان حسان يواصل عمله فى هدوء ، فأعاد تنظيم القيروان وأصلح مسجدها ووسعه ، ثم فوجىء بقرار عزله وقد تم إنشاء تونس عام ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م .

جاء قرار العزل بعد أربع سنوات من قضائه على الكاهنة ، وبعد سنة واحدة من إنشاء تونس ، ولم يكن عزله عن قلة كفاية ، وإنما كان السبب أن والى مصر وهو عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده ، عندما رأى ازدهار أفريقية وتحولها إلى قطر غنى فيه إمكانات واسعة للفتوح والمكاسب والمغانم طمع فيها لنفسه ، وكان عبد الملك بن مروان ـ الخليفة الأموى ـ يدارى أخاه ، لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، لذلك فعندما

عزل عبد العزيز بن مـروان حسـان بن النعمان لم يتوقف الخليفة فى الأمر ، وتلقى حسـان قرار العزل بنفس طيبة وإن كـان ذلك قد أغضبه ، وعاد إلى مصر ، وهناك حاول عبد العـزيز بن مروان أن يسترضيه فرفض ذلك . وعـرض عليه عبد الملك أن يرده إلى ولايته فأبى وأقسم ألا يلى لبنى أمية عملاً بعد ذلك ، وعلى أى حال فقد كان حسـان إذ ذاك شيخا عالى السن ، ولم يكـن يعنيه كثيراً أن يدخل فى مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بنى أمية ، وهكذا عـاد إلى قومه فى الشام ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك رغم العمل الكبير الـذى قام به كما رأينا ، وبصفة عـامة نلاحظ أن الـدولة العـربية فى ذلك العصر كـانت شـديدة الإهمال والتهـاون فى شأن عظماء الرجال الذين ساهموا بأنصبة كبيرة فى إقامة دولة الإسلام .

ولاية موسى بن نصير :

وكان الـرجل الذى اختاره عبـد العزيز بن مروان لـولاية أفريقيـة شخصية فريدة فى بابها من كل ناحية وهو موسى بن نصـير .

ومـوسى هو أحـد أولاد نصير الذى كـان من أسرى بلـدة صغيرة فى باديـة الشام شرقى العـراق تسمى عين التمر ، أسره خـالد بن الـوليد فأسلم على يـديه وأصبح من رجالـه ، ونشأ ابنه مـوسى فى جو عـربى إسلامى فنجـده يستعرب ويأخذ كل أخلاق العرب حتى حسبه المؤرخـون فى جملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم ، وهو نفسه نسب نفسه إلى الأنصـار ، إلا أن أصلـه غير العربى يتلاشـى أمام شخصيته العربيـة التى ظهر بها فى التاريخ ، فإننا نجد أنفسنا أمـام شاب عربى يتـدخل فى السياسـة والحرب ويعمل فى خـدمة بنى أميـة ويشترك فى السياسـة والإدارة فنسمع عنه أنه تـولى رياسة حرس معاوية بن أبى سفيـان ثم نجده بعد ذلك فى خدمة عبد الملك بن مروان ، فيرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذى ولوه البصرة . وكان بشر شابا صغيراً تولى البصرة على رغم احتجاج الحجاج ولهذا كان الحجـاج يكره موسى بن نصير ويتهمـه بأنه يمد يـده إلى الأموال ، وفى يوم من الأيام طـالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الـدولة فهرب ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان والى مصر فأدى عنه جزءاً كبيراً من ذلك المال واصطنعه ثم ولاه أفريقية .

وقد أنكر عبد الملك هذا الاختيار ولكن عبد العزيز أكد لأخيه أن مرشحه يفوق حساناً ومن سبقه فى النشاط والقدرة المالية ، ومن ناحية أخرى نجد أن موسى تعهد لعبد الملك بغنائم وفتوح تفوق كل من سبقه ، وهذا الوعد من ناحيته كان ضرراً عليه فى النهاية ، لأنه اضطره إلى أن يقوم بنشاط واسع فى الناحية العسكرية فى أفريقية دون أن تكون هناك ضرورة ، فإن الناس فى المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول فى الإسلام دون حرب ، ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على الغنائم .

لهذا فإن أعمال موسى بن نصير العسكرية فى جملتها كانت كثيرة جداً فى أفريقية ، ولكن الهدف الأساسى منها كان تقوية مركزه الشخصى فى الدولة بالعمل المتوالى وإرسال مقادير ضخمة من الأموال والأسلاب والمغانم ، ومن بعض النواحى نجد أن ذلك المسلك أضر بموسى فى النهاية . ويزيد من مسئولية موسى أنه كان له أولاد كثيرون كلهم طامعون مثل أبيهم ، فكثرت الضربات التى وجهوها إلى القبائل دون حاجة ، ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح المغربين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك فى أضرار كثيرة للدولة الإسلامية فى عصر الولاة ، فقد رأى البربر أن العرب قوم قساة أصحاب مطامع مالية ومادية ، وما كانوا فى الحقيقة كذلك ولكن تلك كانت عاقبة سلوك موسى .

وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التى ستقوم قرب نهاية العصر الأموى فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان .

أعمال موسى بن نصير فى أفريقية والمغرب :

٨٥ ـ ٩٥ هـ / ٧٠٤ ـ ٧١٤ م :

بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن فى منطقة حصينة إلى الغرب من مدينة تونس الحالية ، تسمى بجبل زغوان ، وهناك أنزل مذبحة بالناس ، وأسر ألوفاً من الرؤوس كما تقول النصوص . ولا نعرف إن كان المراد هنا أسرى من البشر أو أن الإشارة إلى مواش نهبت . على

أى حال أرسل موسى بن نصير غنائم وافرة إلى عبد العزيز بن مروان فاستعظمها ولم يصدق كتاب موسى عندما ورد إليه ، وهذه الضربة العنيفة أقنعت عبد الملك بأن هذا الوالى الجديد كفء وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان .

تشجع موسى بذلك فأخذ يرسل أولاده فى قطع من الجند تنزل بالناس ضربات كهذه تعود بالغنائم الوفيرة . وكل هذا نفّر الناس من المسلمين وإن كان قد عاد على موسى ومولاه بأموال كثيرة ، وقد أضر موسى بنفسه ضرراً بليغاً بذلك لأنه مادام قد بدأ تلك البداية فكان لابد له من أن يستمر فيها ، وذلك أمر عسير . ثم سار موسى فى اتجاه الغرب ووصل إلى بلدة صغيرة تسمى سجوما على مقربة من تطوان الحالية ، وكانت هذه البلد هى مفتاح الطريق ، وبعد الاستيلاء على سجوما ونهبها ، انفتح الطريق إلى طنجة وسبتة فدخل المسلمون هاتين الميناءين اللتين تعتبران مفتاحى البحر المتوسط ، وهذه هى المرة الثانية التى يصل فيها المسلمون إلى شاطىء الأطلسى .

هنا التقى المسلمون مرة أخرى بيليان ، وكما قلنا سابقاً فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أيا كان .

على أى حال تفاهم المسلمون مع يليان فهادنهم أو حالفهم ، وعاونهم بأمداد عسكرية قليلة . هنا فى بلاد المغرب أنشأ موسى بن نصير ولايتين إسلاميتين جديدتين :

الأولى : فى المغرب الأوسط وتبتدىء من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط قاعدتها تلمسان ، وأقيم عليها وال ، ومعه حامية عسكرية من العرب والبربر .

والثانية : تمتد من نهر المولوية إلى ساحل المحيط الأطلسى وتمتد جنوباً على وادى أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى أو ولاية طنجة ، وقاعدتها طنجة ، ويقيم فيها وال ومعه قوة عسكرية عربية بربرية .

وعلى هذا تكون ولايات المغرب العربى قد أصبحت كما يلى :

١ ـ **برقة** :وكانت تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية .

٢ ـ **أفريقية** : وتشمل طرابلس ـ وتبدأ عند قرية صغيرة إلى الغرب من صرت تسمى تاورغا وتنتهى عند قابس ، ثم أفريقية وتشمل ما يقابل بلاد تونس الحالية تقريباً ، وإقليم الزاب وهو شرقى الجمهورية الجزائرية الحالية إلى مجرى نهر شلف ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى معا أفريقية .

٣ ـ **المغرب الأوسط** : ويمتد من مجرى شلف إلى مجرى الملوية .

٤ ـ **المغرب الأقصى** : ويشمل مايلى ذلك من البلاد المغربية إلى ساحل الأطلسى غرباً وإلى وادى أم الربيع جنوباً .

وأقام موسى على طنجة ابنه مروان ، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى وادى أم الربيع ، ووصلت بسلطان المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب ، وهنا أنشئت ولاية جديدة تسمى سجلماسة . وسجلماسة هى الواحة الكبرى التى تتكون منها مجموعة من الواحات يطلق عليها فى مجموعها اسم تافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصيب وافر المياه على أبواب الصحراء الكبرى . وبعدها مباشرة ـ أى بعد سجلماسة ـ تبدأ الصحراء التى لا تنتهى إلا عند حوض السنغال ، وهناك كانت تقوم مدينة تسمى أودغشت وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء . وكانت الصحراء الكبرى فى هذه الناحية الساحلية مأهولة إذ ذاك بقبائل هى خليط من البربر وسكان أفريقية المدارية ، وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية . وهنا فى ذلك الإقليم الصحراوى ستنشأ حركة المرابطين فى القرن الهجرى الخامس . ومعنى ذلك أن قوة الدفع الإسلامى وصلت إلى ذلك البعد السحيق فى ذلك التاريخ المبكر .

وهنا أى فى منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الرابعة التى تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر الملوية . وقد ولى موسى على هذه الولاية الجديدة مولاه طارق بن زياد الورفجومى ، وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس .

وعلى هذا يكون لدينا فى المغرب الإسلامى الولايات التالية :

١ ـ **برقة.**

٢ ـ **أفريقية** : وتشمل أعمال طرابلس وأفريقية ثم إقليم الزاب وتصل إلى نهر شلف وعاصمتها القيروان .

٣ ـ **ولاية المغرب الأوسط** : بين نهر شلف ونهر الملوية وعاصمتها تلمسان .

٤ ـ **ولاية المغرب الأقصى**: وعاصمتها طنجة .

٥ ـ **ولاية السوس أو سجلماسة** : وعاصمتها سجلماسة .

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن وضع الأساس الإدارى للمغرب الإسلامى وتنظيمه ، ففى عاصمة كل ولاية من هذه أقيمت قاعدة عربية إسلامية على رأسها وال ، واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل الناحية قواعد الإسلام ، وفى نفس الوقت أخذت العربية فى الانتشار بين الناس ، وذلك لأنه على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التى قام بها موسى بن نصير وأولاده وقواده ، إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام فأقبلوا عليه ووجدوا فى دولته مكاناً واسعاً للعمل ، وبعد أن كانوا قبائل تعيش على هامش التاريخ دخلت ميدانه الواسع ، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء فى الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقى لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه ، الذى استلزم كما سنرى وقتاً طويلاً ، ولابد من الإشارة إلى جاذبية الإسلام وقوة أسره التى تمكنت من إدخال هؤلاء الناس فى نطاق العروبة والإسلام .

فى ذلك الحين كانت سن موسى تقارب السبعين من العمر ، ولكنه كان قوياً نشيطاً فأعاد بناء ميناء تونس ، واهتم بدار صناعتها (وهى الميناء ومكان بناء السفن) وهى ما نسميه نحن اليوم ترسانة، وهى لفظة إيطالية محرفة من المصطلح العربى دار الصناعة (ترسانة) ، ومن هذا الميناء الكبير بدأ المسلمون غاراتهم الأولى على صقلية وجزيرة سردينية . كانت غارات سريعة تعود على من يقومون بها بمغانم وفيرة ، ولكنها تبدأ نشاط المسلمين الواسع فى الحوض

الغربى للبحر المتوسط الذى كان يتحول إلى بحيرة إسلامية شيئاً فشيئاً وخاصة بعد فتح الأندلس الذى سنتحدث عنه بعد قليل ثم فتح صقلية الذى بدأ فى أوائل القرن الهجرى الثالث .

وبعد قليل نسمع أن **مروان بن موسى بن نصير** سئم المقام فى طنجة فنقله أبوه وولى مكانه طارق بن زياد ، فاستقر هناك على رأس حامية إسلامية غالبيتها من البربر ، وهكذا نرى كيف نجح الإسلام فى تأمين جناحه الغربى بقوة من قوم لم يكونوا مسلمين ولا عرب قبل حين قصير ، **وطارق بن زياد** يمثل لنا الجيل الثالث من البربر المسلمين المستعربة ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله وبقية الأسماء فى نسبه بربرية ، ويقال مثل ذلك عن قائد آخر يعمل مع موسى وطارق يسمى طريف بن زرعة بن أبى مدرك . وبعد ذلك وابتداء من سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م فتح طارق وموسى الأندلس على النحو الذى سنفصله فى القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وبينما كان موسى يتم فتح شبه جزيرة « أيبيريا » وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد ، وبلغ الأمر إلى الخليفة الوليد فاستدعاهما معا . وعاد موسى ، ذلك الشيخ الفريد فى بابه من أقصى جليقية (جاليسيا) وهى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة أيبيريا إلى الشرق . ومن الغريب أنه فى عودته كان يظهر للناس فى هيئة سيد عربى عظيم ، وكلما نزل بلداً ضرب فسطاطه (خيمته) خارجه واستقبل الناس استقبال سيد عظيم . وكذا فعل فى أشبيلية وتلمسان والقيروان والفسطاط ، ثم وصل إلى غزة ومعه طارق ، وهناك جاءه رسول من قبل ولى العهد **سليمان بن عبد الملك** يطلب إليه التريث قبل السير إلى دمشق ، لأن الخليفة الوليد كان مريضاً مرض الموت ، وكان خليفته وولى عهده أخوه سليمان يريد أن يتسلم الهدايا والمغانم الوافرة التى كان موسى يحملها معه ، ولكن موسى ، ذلك المغامر الشيخ قامر بحظه السعيد مرة أخيرة وأسرع المسير إلى دمشق وكانت المنية قد سبقته إلى **الوليد بن عبد الملك** وخانه الحظ هذه المرة ، وعندما وصل إلى دمشق وجد أن الخليفة هو سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) فاستقبله شر استقبال ، وأخذ منه كل ما وجد معه وأغرمه مالاً

وفيراً ، فمضى ذلك الرجل ، الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربين الأوسط والأقصى ثم كل شبه جزيرة أيبيريا ، يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية ، وكان فى حوالى السابعة والسبعين من عمره وكان رجلاً بديناً ، يقام فى الشمس دون رحمة أو هوادة حتى أدى ما يسره الله له ، ثم سامحه سليمان بالباقى واتخذه نديماً ، ولكن موسى كان قد كره الدنيا والناس ولم يسعد مع سليمان ، وبعد ذلك لم نعد نسمع عنه ، ومات فى ظلال النسيان ، أما طارق العظيم فقد اختفى هو الآخر من الوجود فى صمت ، ولكنه بقى فى التاريخ ، مثله فى ذلك مثل غيره من منشئى دولة الإسلام الذين قضى عليهم سليمان بن عبد الملك من أمثال **قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم الثقفى** ، هؤلاء الذين وصلوا برايات الإسلام إلى داخل غرب الصين وإلى بلاد السند وهى شمال غربى الهند فيما يعرف ببلاد الباكستان ، كل هؤلاء قضى عليهم خليفة حقود ، ضئيل الهيئة زرى الشكل ، وهو سليمان بن عبد الملك .

وفى نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهى فترة الفتح فى تاريخ المغرب الإسلامى وهى فترة طويلة تصل إلى فوق السبعين سنة ، فنحن الآن فى سنة ٩٨ هـ/ ٧١٦م وفتح المغرب بدأ سنة ٢١ هـ / ٦٤٢م ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصراً قائما بذاته من عصور تاريخ المغرب ، فى حين أن فتح مصر استغرق سنتين ، وفتح الشام استغرق حوالى أربع سنوات ، وفتح العراق وإيران لم يستغرق أكثر من ثمانى أو تسع سنوات ، تنتهى بمعركة نهاوند التى تسمى بفتح الفتوح .

***

عصـــر الــولاة

يطلق مصطلح عصر الولاة فى التاريخ الإسلامى ، على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإســلامى للبلد ، وقيــام أول دولة مســـتقلة فيــه ، أيا كــانت صورة هــذا الاستقلال ، فحتى فى الحالات التى يكون ذلك الاستقــلال فيها اسمياً أى داخلاً فى إطار التبعيــة العامــة لدولــة الخلافة ، فإن هــذا الوضـع الجديـد يستتبع تغيرات أخرى فى نظام البلاد الداخلى وعلاقتــه بالخلافة ، بل إنه فى الحالات التى عاد البلد فيها إلى التبعية للخــلافة ، فإن هذه التبعية لا تكون تامــة قط كما كانت قبلاً ، وفى العادة إذا تغيرت الأوضاع السياسية فى بلد فلن تعود إلى ما كانت عليه قبلا قط .

ففيما يتعلق بمصر مثلاً ، ينتهى عصر الولاة بقيام الـدولة الطولونية فى مصر سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م ، ومع أن ابن طولــون لم يستقل استقلالا تاماً ، فإن مصر لم تعد ولايــة عباسية تــامة الخضوع للدولــة كما كانت قبلاً ، حتى عنـدما زالت دولة بنى طولــون وعاد الحكم العباسى المباشر على يد القــائد العباسى محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م .

وفيما يتعلق بالمغرب لا ينتهى عصر الولاة فى تاريخ واحد بـالنسبة لأقطاره المختلفــة ، فقــد انتهى عصر الولاة فى المغـرب الأوسط بقيــام الـدولة الـرستميــة الخارجية الإبــاضية سنة ١٦٤ هــ/ ٧٨١ م ، وفى المغرب الأقصى بقيام الـدولة الإدريسية سنــة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م ،وفى أفــريقية بقيــام دولــة بنى الأغلــب سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م .

ولقد طــال فتح العرب للمغرب كما رأينـا ، وفى أثناء مـراحل هذا الفتح دخلت على البلاد تغيرات بعيـدة المدى ، فأسلم الكثيرون من أهلها وانضمــوا إلى جيوش الإســلام وأصبحت لهم بذلك كل حقــوق العرب المجــاهدين فى سبيل الإســلام ، وانتقلت إلى المغـرب جماعات من العــرب واستقرت فى نــواحيها واختلطت بأهلهــا وصاهرتها وبدأ يظهر جيل بربرى مسلم مستعرب ، تطلع إلى أن يكون له نصيب

فى إدارة بلاده . ثم إن العرب أنشأوا لأفريقية قاعدة إسلامية تحولت بعد قليل إلى مركز إشعاع إسلامى .

وقامت فى مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية ، وبدأ الجو الثقافى العام فى البلاد يتغير بتأثير الإسلام والعربية . ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً مغربياً إسلامياً ، ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد ، كان نقطة بداية لتغير عام فى أوضاع المدن فى أفريقية والمغرب كله . فهذه البلاد لم تعرف قبل العرب إلا المدن الإغريقية التى تلاشى طابعها الإغريقى وخربت وتحولت إلى قرى ، والقواعد العسكرية الرومانية التى كانت تنشأ إلى جوارها مدن رومانية صغيرة ثم القصور ، وهى القرى البربرية التى تتكدس فيها المبانى ويحيط بها السور . فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وأهلها ، فأخذ الكثير من قرى المغرب وقصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد ومكاتب لتدريس العربية ونشر قواعد الإسلام .

كل هذه كانت تطورات تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح ، لأن المغرب الذى عرفه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذى عرفه موسى ابن نصير . ولم يتسع المجال أثناء دراسة الفتوح لدراسة هذه التطورات ، ولهذا فلابد من الإلمام بها ونحن ندرس المغرب فى عصر الولاة .

ولا يمكن النظر إلى فتوح العرب للمغرب منعزلة عن غيرها من فتوح الإسلام التى عاصرتها ، فهذه كانت عملية واحدة لها أصداء بعيدة وتأثيرات متبادلة ومشتركة بين كل البلاد التى فتحها المسلمون ، ولابد أن نأخذ فى الاعتبار أيضاً طبيعة الفتوح الإسلامية ، فهى لم تكن مجرد غزوات ولا غارات ، وإنما كانت فتوحاً بالمعنى اللفظى لهذا المصطلح ، أى فتح أبواب البلاد للإسلام وإدخال أهلها فى الإسلام وتحويلها إلى بلاد إسلامية ، عقيدة وحضارة وعربية إذا تيسر .

وقد كانت هذه الفتوح بطبيعتها من أكبر أسباب متاعب العرب ،لأن الشعب من الشعوب إذا دخل فى دولة الإسلام وأصبح شعباً مسلماً أو فى ذمة الإسلام ، طالب الدولة بما يفرضه الإسلام نفسه من العدالة وحكم الشرع الإسلامى . ففى

حالة دخـول ناس من هذه الشعوب فى الإسلام نجـد أنهم يصبحون مواطنين فى دولة الإســلام ، لهم كل حقوق العرب وعليهم كل واجبـاتهم ، وبطبيعة الحال لم يكن العـرب مســتعدين لـلاستجابة لهــذه المطالب ، لا لأنهـــم كانوا طامعين أو مسلمين غير صالحين ، بل لأن هذه هى طبيعة البشر ، فالعربى الذى فتح مصر مثلاً لم يكن مستعداً بعد تمام الفتح للتنازل عن شخصيته كفاتح ، وسيد له ، كما كان يتصـور ، حق السيادة على الشعب الـذى فتحه ولم يكن كـذلك مستعداً لمنح أولئك المسلمين الجدد كل حقـوقهم ومســاواتهم بنفســه ، فهـذه دولتـه والـدين الإسلامى هو الذى حملـه وقاتل فى سبيله ، ثم إنه عربى يتكلم لغـة القرآن وقومه قوم الـرسول ﷺ ، فكيف نطالبـه بالتنـازل سريعاً عن امتيازاتـه ؟ ولهذا قلنا إن المشكلـة الكبرى التى واجهت العـرب فى عصر الفتوح هى الإســلام نفســه ، ومن الغريب أننا نلاحظ فى أكثر من منـاسبة أن المسـلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويتهمون العـرب بالانحـراف عن سبيله ، ويطـالبونهم بتطبيـق قواعـد الإسلام ويحتجون عليهم بنص القرآن ، لا لأن العـرب كانوا لا يذكـرون نصوص القرآن ، بل لأن ما كـان القرآن يطلبه منهم ، كـان يحتاج إلى وقت لكى يهضمــوه ويتمثلوه ويطبقوه . فهم أولاً وقبل كل شىء بشر ، وقـد كانوا فى حاجـة إلى وقت لكى تدخل قلـوبهم بشاشـة الإسلام ورحمتـه وإنسانيتـه ، وكان الكثيرون جـداً من أولئك العرب الفـاتحين قد أسلمـوا على عجل ، لم تتح لهم فرصـة التفكير والتأمل حتى يصبح كيانهم إسلامياً أو مسلماً حقاً ، ولهذا فقد انحـرفوا عن جادة الإســلام ، لا عن كفـر أو سوء نيـة بل عن سـوء فهم وقلـة علم ، فظلت الجاهليـة قائمـة فى نفوسهم زمنا طويلاً .

وعنـدما ننظـر إلى المشــاكل التى واجهت المسلمين فى مهـاجرهم الجديـدة ، وننظر إلى الخلفية التى تكون فيها رجال ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفى أو زياد ابن أبيه أو عبيد الله بن زياد ومن إليهم من كبار ولاة الـدولة الأموية ، نجد أن نوع التكوين الذى حصلـوا عليه ليس فيه ما يعين على مواجهـة مشاكل الحكم . فمثلاً إذا كان هناك وال على العراق مثل الحجاج الذى يوصف بأنه ظالم وجبار فنلاحظ أن ذلك الرجل مـوظف عام ، أى أنـه يتصرف فى الحكم بحسب ما يصـدر إليه من تعليمات الخليفة ، أو كما نقول اليوم الحكومة المركزيـة ، وهذه الحكومة المركزية

تطالبه بمبالغ معينة من الأموال ، وهى تطالبه أيضا بمحاربة الخوارج من ناحية وبمواصلة الفتوح من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ كيف أن ذلك الرجل كان أمام مسئوليات لا يستطيع النهوض بها كلها على الوجه المثالى ، فإن الجبايات التى تتحصل له لا يمكنه إنقاص مقاديرها ، ثم إنه لابد أن يدفع منها رواتب لجنده ، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يرسل فائضاً من المال للدولة المركزية ، فى حين أن من يحكمهم فى العراق لا يستطيعون أداء الأموال المطلوبة منهم ، أو كانوا يرون الإسلام وهو دين العدالة لن يتشدد رجاله معهم فى شئون الجبايات ، ومن ثم فقد كانوا يرون ألا يجبى منهم مال الجزية ، ثم لأن مطالب الحياة كانت ترتفع ، لأن تكاليف حياة الناس تزداد كلما ارتفع مستواهم العام ، ولهذا فقد كانوا يطالبون بالتخفيف إلى أقصى حد ، فى حين أن مطالب الدولة المالية كثيرة ومتزايدة حتى لا تستطيع التخفيف ، فكيف يوفق الرجل بين هذه المتناقضات كلها ؟ .

وفى المغرب نلاحظ أننا أمام شعب يختلف عن كل ما واجه المسلمون (العرب) فى غيره من البلاد التى فتحوها ، فهنا شعب يشبه العرب من حيث التكوين الاجتماعى و الذهنى ، فهنا قبائل ورجال وشيوخ قبائل كما هو الحال فى جزيرة العرب .

والتفاهم هنا بين الحاكم والمحكوم يختلف فى طبيعته عن التفاهم مثلا بين الحاكم والمحكوم فى مصر ، حيث العلاقة هى علاقة حاكم بفلاحين ، أى أصحاب أرض تخرج غلة معينة محددة إلى حد ما ، أما فى المغرب فقد كان ولابد أن يتغير معنى الرئاسة ، ولابد أن تختلف علاقة الحكم بالمحكوم فى نوعها فهنا علاقة زمالة فى السلاح كما نقول ، ولا يستطيع العربى أن يخاطب البربرى الذى أسلم وحارب فى صفوف المسلمين كما يخاطب مزارعا يقدم له غلة أرض ، ومن هنا فقد كان لابد من أن توضع سياسة خاصة بالمغرب ، ولكن من الذى يضع هذه السياسة ؟ هنا لا نجد مجالس أو لجاناً للدراسة ، وإنما نجد أمامنا حكاما مطلوب منهم أن يجدوا حلولاً ، وحلولاً ناجحة لمشاكل عسيرة على الحل أو على الأقل يتطلب حلها وقتاً ، ولكن حاجات الناس لا تنتظر ، وخصوصاً إذا كانت

حاجـات معيشة ، فنحن لا نستطيع أن نقــول للبربـر وهم شعب كبير : انتظروا حتى تدرس الدولــة مطالبكم ، ومن ناحية أخرى نجد أن الصراع فى مــركز الدولة على الحكم كان له أثـر بعيد جداً على الأوضـاع فى الأقاليم ، فـا لمنهزمون فى الصراع على السياسة يفرون إلى الأقاليم حيث يكونـون بعيدين عن متناول الدولة ثم إن البلاد المفتـوحة فيها مجالات واسعــة للعيش ، ومن تلك الجماعات المنهزمــة مثلا الأنصـار فى المدينـة ، فهؤلاء بدأت هجرتهم الجماعيـة إلى الولايات المفتـوحة عقب انهزامهم فى مناقشـــة المنافســـة على الخلافة فى سقيفــة بنى ساعـدة عقب انتقال الرسـول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم تـوالت عليهم بعد ذلك الضربات من قبل خلفاء بنى أمية ، وخاصة ما أصاب المدينة أيام عبد الملك بن مروان ،فنتج من ذلك هجرة جماعية من المدينـة إلى الأقاليم المفتـوحة ، كـذلك العلويـون ثم الخوارج ، هؤلاء جميعــاً كانـوا عندمـا يستقـرون فى ولايات مفتـوحـة ، يستقرون أعـداء للدولــة المركزيـة، ويجتهـــدون فى إثـارة المشاكل ضدها وتشـويه سمعتها . وكـان أكثر العـاملين فى ذلك هم الخوارج لأنهم مـوتورون مـن الدولـة ولـديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم ، هـؤلاء كانوا لا يكفون عن تحريض الناس على الحكومـة الأموية واطـلاعهم على أحكـام القـرآن كما يفسرونها هــم . وتفسيرهم ينـاسب آراء أهل الولايات ويـرضى مطامحهم ، وفى حالة ما إذا كـان الخارجى يتحدث إلى مقاتلين يتحول الغضـــب وعدم الـرضـا إلى تمرد عسكرى ، وهــذا هو الـوضـع الـذى نجد أنفسنا فى مواجهته بعد تمام فتح المغرب والأندلس .

الفتنة المغربية الكبرى :

عندمــا تم فتح المغرب والأنـدلس كانــت المشاكل قـد توالت وتكاثـرت ، فإن الدولة الأموية فى سنة ١٠٠ هــ/ ٧١٨م ، كانت تعانى تغييراً حاسماً فى أوضاعها فى الداخـــل ، وفى علاقتهـا برعاياهـــا فى مركز الدولة والأقــاليم ، فــإن عمر بن عبد العزيز الذى حكم نيفــاً وسنتين من سنة ٩٩ هــ/ ٧١٧ م إلى سنة ١٠١ هــ/ ٧١٩ م ، غيَّـر الـوضـع المالى فى الدولة تغييراً تامــاً ، عندما أنزل أو خفف مقـادير الجبـايـات وألغى الأمـوال التى كان الموالى يشكـون منهـا ، والنتيجـة أن الإدارة الأموية بعـــد عمـر بن عبد العزيـز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة

الوضع الجديد ، ولكن الخلفاء الذين تولوا كانوا أبعد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق ، وبطبيعة الحال عندما يعجز الحاكم عن حل المشاكل بالمنطق أو بالعمل الإدارى الخالص ، يلجأ إلى القوة والقوة تزيد المشاكل سوءا ونادراً ما تحل مشكلة ، وفيما يتعلق بالمغرب نجد أنه بعد تمام الفتح وبداية عصر الولاة يختار الخليفة سليمان بن عبد الملك رجلاً عربياً من مدرسة الحجاج ، يسمى يزيد بن أبى مسلم ، فأراد هذا أن يسير فى أهل المغرب بسيرة الحجاج مع أهل العراق ، ناسياً أنه فى المغرب يتعامل مع مقاتلين مسلمين ورفقاء سلاح ، فكانت النتيجة أن قتلوه ، وواجهت الدولة طلائع ثورة فى إقليم من أقاليمها الكبرى ، فلجأت إلى معالجتها باللين ، فوافقت على التنازل عن الطلب بأخذ ثأر الوالى المقتول ، وتركت أهل أفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤقتاً ثم اختارت والياً على درجة كبيرة من الحكمة فاستقرت الأمور بعض الشىء ولكننا نواجه فى المغرب مشكلة غريبة نعرفها فى نواح أخرى من نواحى الدولة ، ولكنها هنا فى المغرب والأندلس تأخذ شكلاً خطيراً ، لأن هذه المشكلة كانت تستعصى على الحل المقبول أمام الظروف الخاصة للمغرب والأندلس ، تلك هى مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليمنيين أو قيس وكلب (**القيسية والكلبية**) .

هذه المشكلة ، مشكلة القيسية والكلبية لم يعرفها العرب قبل الإسلام ،ولكنها نشأت عن طبيعة الظروف التى سادت أيام بنى أمية ، فإن بنى أمية أقاموا دولتهم على العرب ، وكان كل رجالهم ومقاتليهم من العرب ، وهؤلاء العرب هم عرب الشام ومن انضم إليهم . وعرب الشام كانوا ينقسمون إلى مجموعات قبلية بعضها قيسية وبعضها كلبية ، فكان بنو أمية لكى يضمنوا الاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيحابون القيسية على اليمنية مرة ، ويحابون اليمنية على القيسية مرة أخرى ، فأثاروا بذلك مشكلة عويصة جداً لأنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على نطاق الدولة الواسع ، ففى العصر الجاهلى كانت العصبيات عداوات قبائل ، أى أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال ، ولكن بعد الإسلام لم تعد القبائل مجرد قبائل ، بل أصبحت أحلافاً واسعة من القبائل ، ثم إن موضوع النزاع فى العصر الجاهلى كان صغيراً

يمكن تلافيه ، ولكن بعد الإسلام أصبح موضوع النزاع ضخما جداً ، وهو السيادة على الأقاليم أو على الدولة كلها ، وبهذه النسبة تزداد حدة الصراع ويصبح عسيراً على الإرضاء ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك مشاكل العرب البلديين (عرب الأمصار) والعرب الشاميين(أى عرب الأقاليم) وعرب الدولة (أى جندها الرسمى العربى) .

ولا ننسى هنا أثر الخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على الدولة العاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتهم على الحكومة ، وفى النهاية ينبغى ألا ننسى أن هذه المشاكل عندما ثارت ، كان العصر الذهبى للدولة الأموية قد ولى، وأصبحنا أمام خلفاء لا يتميزون بأى قدرة ، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين ، هشام بن عبد الملك وقد بذل مايستطيع لإصلاح الناحية المالية ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد الأوان فلم يستطع أن يعمل شيئاً .

تلك هى الخلفيات التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال الحاسم من بنى أمية إلى بنى العباس .

وفى المغرب نجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنفاً ، وأهم هذه العوامل هم الخوارج .

فالخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة ، وقتل منهم الألوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة من الأزد (يمنية) اضطروا إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تدركهم فيها يد الدولة وخاصة فى عمان واليمن والمغرب .

هؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى ، فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة ، دولة غاصبة هى وكل من أيدها ، فالمزارع أو التاجر الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر خارجاً عن الإسلام مثل الخليفة ، وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، الذين أعلنوا الحرب على الدولة الإسلامية وجماعة المسلمين جملة ، ودعوة هؤلاء تلقى قبولا من ناس مثل البربر .

وخاصة بربر المغرب الأقصى الذين كانوا يعيشون خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية .

ولكن هذه الدعوة المتطرفة لا يمكن أن تلقى قبولاً من جبهة واسعة . لأنها دعوة لكل إنسان للخروج بالسلاح فى وجه النظام القائم ، لهذا انحصر مداها ، وظهرت فرقة أخرى هى الصفرية لقيت قبولاً أكثر ، لأن أصحابها كانوا يقولون إن العدو الوحيد هو الدولة ، أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للإسلام وإنما هم متساهلون فى أحكام الإسلام وحسابهم على الله ، فهم كفار نعمة لا كفار إيمان ، فى حين أن رجال الدولة كفار إيمان ، فالخوارج الصفرية يتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم ، فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

هذا المذهب لقى قبولاً أكثر ، ولكن مذهباً خارجياً آخر وهو مذهب الإباضية (**لعبد الله بن إباض**) لقى قبولاً أكثر لأنه لا يدعو إلى القيام على الدولة وإنما يدعو الناس الذين يؤمنون بآراء أصحابه ، إلى إقامة نظام سياسى لهم فى النواحى التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها ، وهم يأذنون لأتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى .

هذا المذهب (الإباضى) لقى قبولاً بين الناس ، وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا ، والإباضية قريبون جداً فى فهمهم للشريعة من أهل السنة ، ولهذا يحسبون عادة ضمن أهل السنة ، وسنرى بعد قليل أنه على أساس المذهب الخارجى الإباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب هى دولة **عبد الرحمن بن رستم** أو الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم الجمهورية الجزائرية .

تفاصيل الفتنة المغربية الكبرى :

ندخل الآن إلى بعض تفاصيل الثورة أو الفتنة الكبرى التى اجتاحت المغرب فى نهاية العصر الأموى ، وخاصة فى أيام هشام بن عبد الملك . وفى هذه البلاد نجد كل هذه العوامل التى ذكرناها عاملة نشيطة . فبعد مقتل يزيد بن أبى مسلم بفترة قصيرة ، أقامت الدولة على المغرب وكذلك على الأندلس ولاة من أهل الحكمة

والمعرفة بتدبير الأمور ، ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير جدًا على رجل واحد ، أيا كان أن يتلافاها . ففى أيام هشام بن عبد الملك أقيم على المغرب وال ينتسب إلى اليمنية يسمى **عبيد الله بن الحبحاب** . هذا الرجل ولى سنة ١١٩هـ/ ٧٣٧ م على كل غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر إلى جبال ألبرت المعروفة خطأ بالبرانس بين إسبانيا وفرنسا ، وهذه مسئولية فى غاية الضخامة ، فمهما كانت خبرة ذلك الرجل ، فهو لن يستطيع معالجة الموقف ، خاصة إذا ذكرنا أن وراءه فى دمشق خلافة ضعيفة ، ولهذا نجد أنه فى أثناء ولاية ابن الحبحاب تحول الغضب العام على الحكم العربى إلى إرادة ، والإرادة تحولت إلى ثورة ، لأنه وجد من يقود الناس .

بدأت الثورة فى إقليم الريف الذى يسمى بإقليم طنجة ، سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠م ، وانتشرت فى قبائل بربرية كثيرة ضخمة ، كأنها الشعوب مثل **برغواطة وغمارة** ، وتولى زعامتها رجل يسمى **ميسرة الفقير** وبطبيعة الحال لفظ (الفقير) هنا ينبغى أن يفسر على أنه لقب أطلقه هو على نفسه ، لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المجاهد الذى لا يطمع فى شىء من متاع الدنيا ، وهو فقير إلى الله سبحانه وتعالى . ولكن المؤرخين وهم يمثلون فى العادة وجهة نظر الدولة يحرفون اللقب إلى **ميسرة الحقير** ويتهمونه بالخروج عن الإسلام وأنه ابتكر قرآناً وكفر بالله ، إلى آخر هذه الدعاوى التى ينبغى أن نأخذها بكل حذر ، لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن مثل ذلك الرجل الذى تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة ، وأصبح إماماً ، كان عليه أن يحل على أساس دينى مشاكل لم يكن له علم بطبيعتها أو بالحلول الممكنة لها ، فكان لابد أن يبتكر قدر المستطاع حتى لا يفقد الزعامة ، ومن بين مبتكراته من الممكن أن تكون آراء خارجة على الإسلام .

وعلى أى حال نلاحظ أن ذلك الرجل جمع جموعه وسار للقاء العرب ، لا على أنهم عرب وإنما على أنهم حكام ظالمون ، ففى صفوف ميسرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الأموية يريدون تغيير النظام ، ومعظم أولئك العرب من الخوارج ، وسارت الجيوش الثائرة على النظام القائم ، لا على العرب ، فهى ليست

فتنـة بربـرية ضـد عرب ، وإنما هى ثـورة داخليـة فى داخل الدولـة الإسلاميـة ومقاصـدها وأهـدافها إسـلامية ، وليس مـن الضرورى أن تكون مظهـراً لثورة إقليميـة بربـرية . ولم يجد عبيـد الله بن الحبحاب جنـداً كافيـاً ليرسله لمواجهـة الثـائرين ، فجمع من استطاع مـن الجند وأرسلهم بقيـادة رجل يسمى **خالد بن حبيب** لملاقاة الثوار .

وكان هـؤلاء قد تقدمـوا حتى بلغوا مجرى نهر شلف بزعـامة ميسرة الفقير ، وتردد ميسرة فى اللقاء فقتلـه أتباعه ، لأنهم كانـوا يرون التردد عاراً مثلهم فى ذلك مثل بقيـة الخوارج ، وولـوا على أنفسهم رجـلا يسمى **خالد بن يزيـد الزناتى** ، فتراجع إلى طنجة وعلى مقربة منها التقى بالجيش العربى فى معركة حامية تسمى معـركة الأشراف بسبب كثـرة من قتل فيها من أشراف العـرب ، وقد انهزم فيهـا العرب .

عقب هذا تمرد عـرب القيروان على عبيد الله بن الحبحـاب فاستدعـاه الخليفة هشام ، وأرسل إلى أفـريقية جيشـاً عدتـه ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، عليهم قـائد من غلاة القيسيين الشاميين ، يسمى **كلثوم بن عياض القشيرى** ومعه ابن أخيـه بلج بن بشر القشيرى ، وسارت معهم جموع من قوات العرب البلديين الأفريقيين يقودهم **حبيب بن أبى عبيدة بن عقبـة بن نافع** ، وكان النزاع بين الشـاميين والبلديين شديداً ، مما أضعف القوة العربية . لهذا لا غرابة فى أن ينهزم هذا الجيش الضخم ويقتل كلثوم بن عيـاض وحبـيب بن أبى عبيـدة ويفر بلج بن بشر مع آلاف من الشاميين إلى سبتـة ، حيث يعتصمون بأسوارها بضعـة شهور ، حتى يأذن لهم والى الأندلس **عبد الملك بن قطن الفهرى** ، فى العبور إليه لكى يعـاونوه فى القضاء على ثورة قام بها البربر على العرب ، وكانت ثورة الأندلس هذه امتداداً لثورة برابر المغـرب ، لأن بربـر الأندلس كـذلك كانـوا ساخطين على الحكم الأمـوى وعلى من معهم من العرب فى الأندلس ، لأن عرب الأندلس إذ ذاك كانوا أشد تعصبا للعروبة من عرب المغرب ، وكانت الخصـومة بين الشاميين منهم والبلديين أعنف وأعمق ، وسنتحدث عن امتـداد هذه الثورة البربـرية فى المغرب إلى الأنـدلس فى مكانها من تاريخ الأندلس .

وبعـد ذلك بقليل تمكـن الخليفـة هشـام من أن يـرسـل جيشـاً ضخماً من الفرسان ، يقوده شامى متعصب يسمى **حنظلة بن صفوان الكلبى** ، ووصل هذا الجيش إلى القيروان ووجـدهـا مهـددة بـاستيـلاء الخوارج عليهـا . كـان أولئك الخوارج قـد اختلف أمـرهم وانقسموا قسمين : واحـد يقـوده **عكاشـة بن أيوب الفزارى** والثانى يقـوده **عبد الواحد بن يزيد الهوارى** ، وتجمع عرب القيروان ومن فيهـا من العلماء والصلحاء وخـرجـوا للقـاء الخوارج ، مدافعين عن مـذهب السنة وقاعدتـه أفريقية ، وفرق حنظلة السلاح عليهم وخرجـوا معه ، فلقوا قوات الخوارج يقودها عبد الواحـد بن يزيد الهوارى فى موضع يسمى « **الأصنام** » على بعد ٤٠ كم ، غـربى القيروان وهزموه هزيمـة منكرة بعد قتـال عنيف . ثم ساروا نحو القوة الخارجية الأخرى ، التى يقودها عكاشة بن أيوب الفزارى (من فزارة) وهزموه فى أوائل سـنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م ، وقـد أنقـــذت هاتان المعركتان مصير السنة فى أفريقية والمغرب ، فثبتت أقدامهـا فى أفريقية بعد ذلك ، وتمكنت فيما بعد من إعادة سلطانها على المغرب كلـه ، وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط وانحـازت المبادىء الخارجيـة من إبـاضية وصفـريـة مع أصحابها إلى منـاطق صغيرة محدودة فى جبال الريف أو فى المغرب الأوسـط أو فى جبال نفوسة فى إقليم طرابلس وجزيرة جربة .

وهكذا انتهى ذلك الصراع الـدموى بانتصـار السنة فى ولاية أفـريقية ، وهى تتكون ، كما قلنا مـراراً ، من إقليم طرابلس الحالى وتونس وجـزء من الجمهورية الجزائرية يعـادل محافظة قسطنطينة ، ولكن مـا يهمنا مـلاحظته هو أن مـراكز العمران الرئيسية فى أفريقية وكانت تضم طـرابلس (عدا جبل نفوسة) وأفريقية والـزاب ثم السهل الشمالى للمغرب الأقصـى فى حوض نهر « سبـو » ، ثبتت على مذهب السنـة ، ولكنها أصبحت جميعاً تحت سلطان العـرب البلديين . لأن العصر الذهبى لبنى أمية وجند الشام انتهى بوفـاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول من خلفـاء بنى أمية ١٢٥هــ/ ٧٤٣م . ولم يبق من عمـر الـدولة كلهـا إلا سبع سنوات كلها فتن وتفكك ومصاعب .

فى هذا الظرف خلا المغرب الإسلامى للعـرب البلديين والبربر ، وقد تقاسموه فيما بينهم ، فأما البلـديون فقد سيطروا على أفـريقية ، وأما البربر فقـد سيطروا على ماعدا ذلك ، وكان معظم هؤلاء البربـر من الخوارج الزناتية ، أما البرانس أهل الاستقرار وهـم معظم السكان فى المغرب ، فلم يمتد إليهم لهب الفتنة ، بنفس المدى

الذى امتد به فى الزنـاتية ، وسيدخل أولئك البرانس مسرح الحوادث بعد ذلك شيئاً فشيئاً منشئين دول المغـرب الكبرى : الأدارسة فالفاطميين ودولـة بنى زيرى ثم دولة المرابطين ، أمـا الموحدون الذين سيكـونون بعـد المرابطين فقد أنشأ دولتهم المصامدة ، وهم بربر جبال الأطلـس الكبرى وهو برانس حضر أيضاً ، وقد سـبق أن قلنا إنهـم لا ينتمون إلى صنهاجة وزناتة إنما هم من البرانس .

المحاولة الأولى للعرب البلديين للسيادة على أفريقية

إمارة عبد الرحمن بن حبيب وآله :

انتصرت الحكومـة المركزيـة على يد **حنظلة بن صفـوان الكلبى** فى أفريقيـة وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين ، ولكنها لم تصل إلى هذا النصر إلا بمعاونة العرب البلـديين فإن هـؤلاء بـرغم التحـاسـد الكبير بينهم وبين الشـاميين ، أى الجنـد الـرسمى للدولـة العربيـة ،قامـوا بنصيب كبير من القتال فى سبيل استخـلاص أفريقية من الثائرين على الخلافة ، ولـولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذى ذكرناه .

وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها فى النصف الأول مـن القرن الهجرى الثانى أى النصف الأول من القـرن الثـامن الميـلادى ، كانـت العناصر المتنـافسـة على السلطان فى أفريقية والمغربين الأوسط والأقصى كما يلى :

١ ـ **العـرب البلديـون** : وهم العـرب المحليون وكـانوا يعيشـون جماعات متماسكة فى المدن وحـولها بصورة خاصة ، وكـانت تؤيدهم جماعـات من البربر الزناتية فى الغالب ممن أسلموا واستعربـوا فأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها كل حســـاب وكانـت مراكزهم القيروان وتـونس والمسيلة وطبنـة (فى إقليم الزاب) .

٢ ـ **العرب الشاميون** : وهم رجال الحكومـة المركزية ومن انضم إليهم من أهل المغرب ، فى العاصمة القيروان وفى معسكـرات الجند المنتشرة فى نواحى إقليم أفريقيـة وخاصــة تونس وطرابلس وإقليم الـزاب ، وكـانت أقـوى عناصرهم فى القيروان وتونس .

٣ ـ البربر : وكانت قواتهم تتكون من مجموعات قبلية بترية فى الغالب ، يتزعمها عرب دخلوا فى البربر وأصبحوا منهم ، أو بربر استعربوا وأصبحوا يحملون أسماء وألقاباً عربية ، ومن العسير أن نتبين حقيقة أمرهم ، وقد أنشأوا إمارات أو وحدات سياسية فى المغربين الأوسط والأقصى ، ويمثلهم لنا فى ذلك العصر رجل يسمى **أبو قرة اليفرنى الزناتى** ، وهذا الرجل أقام لنفسه دولة خارجية فى إقليم تلمسان ونادى بأنه إمام بل اتخذ لقب الخلافة وصار يُدْعَى بأمير المؤمنين ٤٠ سنة ، ومثل هذا الرجل كثيرون من الزعماء المحليين الذين انتشروا كما قلنا فى المغربين الأوسط والاقصى . وجدير بالذكر أن المذهب الخارجى لهؤلاء الناس لا يبدو فى صورة واضحة ، فلسنا واثقين مما يقال من إباضيتهم أو صفريتهم ، والمهم لدينا أن خارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية . ودليلنا على ذلك ولع رجالها بالوصول إلى السلطان السياسى فى هذه البلاد الواسعة ،لأن الدول الخارجية الواضحة الشخصية والمذاهب التى ستظهر فيما بعد ، وسنتحدث عنها حديثاً مفصلاً ، تظهر مذاهبها الخارجية بغاية الدقة .

ولكن الذين انتصروا فى حقيقة الأمر فى هذا الدور من الصراع على السلطان السياسى فى المغرب ، كانوا العرب البلديين ، لأن الشاميين كانوا يعتمدون أساساً على الدولة ، وكانت دولة بنى أمية إذ ذاك فى أواخر سنوات حياتها ، ولهذا فإننا نلاحظ أن الشاميين سيجتمعون فى جماعات صغيرة فى معسكراتهم ، وعندما تقوم الدولة العباسية سينتقلون إلى ولائها فى الظاهر على الأقل .

وكان يمثل العرب البلديين **عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع** ، فقد كان يمثل بيتاً عربياً عريقاً طالت اقامته فى البلاد حتى صار من أهلها ، وجدير بالذكر أن نفراً من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم ، خلفوا وراءهم فى المغرب بيوتاً عديدة الأفراد كثيرة الأتباع ، كان لها دور كبير فى تاريخ المغرب فيما بعد . وأشهر هذه البيوت بيت عقبة بن نافع ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وإخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر دينار ، وهذه البيوت سيتجه كل منها اتجاها خاصاً به : بيت عقبة بن نافع سيتجهون إلى السياسة ، أما بيت

أبي المهاجر دينار فسيتجهون إلى العلم ، أما أبناء موسى بن نصير فكان اهتمامهم بشئون المال والتجارة .

كان عبد الرحمن بن حبيب زعيماً سياسياً واسع النشاط ، يعتمد على سمعة جده عقبة بن نافع ولكنه كان على خلاف جده ، إذ أنه كان ذا طموح سياسى وكان رجلاً أنانياً وصولياً اتجه إلى الاستقلال بالبلاد ، ومن أسف أنه لم يكن يتمتع بملكات سياسية أو أخلاقية ، تمكن له من الثبات وتنظيم أمور دولة يمكن أن يكتب لها العمر ، فقد كانت الفرصة مواتية أمامه فسلطان الدولة تلاشى والناس فى حاجة إلى قائد يخلصهم من الفوضى ، وكان عبد الرحمن بن حبيب يستطيع فعلاً أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن فى الأندلس ، ولكنه هجم على الإمارة دون استعداد ودون تفكير سياسى ودون سند أخلاقى ، ولم يحاول أن يكتسب الشرعية عن طريق الدخول فى طاعة الدولة الجديدة وهى الدولة العباسية ، وكذلك لم يحاول الاتحاد مع العناصر العربية الموجودة فى البلاد ، بل لم يفكر فى الاستعانة بالبربر ، ثم إنه كان بطبعه رجلاً قليل التدبير ، سريعاً إلى الحركة مما أضعف مركزه من أول الأمر ، وبعد أن أعلن نفسه أميراً على القيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، بعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور فبعث هذا يطالبه بالمال ، وقد أخطأ أبو جعفر فى ذلك فلم يكن هناك فى أفريقية مال فى ذلك الحين ، فالبلد فى فوضى والجباية معطلة ، ولم يكن من عبد الرحمن ابن حبيب إلا أن أرسل إلى أبى جعفر يسبه ويخرج عن طاعته . ومن الواضح أن الخروج على طاعة الدولة الإسلامية العامة فى ذلك الوقت لم يكن بأمر ذى بال من الناحية الفعلية ، ولكنه كان هاماً من الناحية القانونية ، لأن هيبة الدولة الإسلامية العامة وهى العباسية إذ ذاك ، كانت لا تزال قائمة فى النفوس ، ولم تكن جماهير المسلمين تقبل هذه الفكرة ، ولو أنه حصل على تأييد ولو إسمى من الخلافة القائمة لتعزز مركزه . ولكنه عندما انفصل عن الدولة لم يستند إلى أى سند شرعى (نلاحظ أن عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولته فى قرطبة ، ظل يخطب للعباسيين رغم ما نعرف من عدائهم لبيته ، ولكنه استمر على الولاء الاسمى لهم حتى ثبت سلطانه واكتسب الشرعية ثم انفصل عن الدولة) .

أما عبد الرحمن بن حبيب فخرج على الدولة من أول الأمر ، وحاول أن يخضع أهل البلاد بالقوة ونحن نعرف أن قوته لم تكن شيئاً يذكر ، وقد اعتمد أساساً على أخيه إلياس وكان قائداً عسكرياً قادراً ، ومن المؤكد أن إلياس كان أصلح من أخيه عبد الرحمن ، وهذا هو الذى جعل عبد الرحمن يخاف منه ، لأن إلياس كان يجمع حوله طائفة من الفرسان والمقاتلين ، وكان قد كسب ولاءهم واستطاع أن يقودهم قيادة حسنة .

وكانت الصعوبة الكبرى التى واجهها عبد الرحمن بن حبيب ، هى مشكلة الخوارج ، الذين كانت قواتهم قد تجمعت فى جبل نفوسة فى طرابلس ، وكان يتولى رياستهم زعيم خارجى ممن تلقوا تعاليم الخارجية الإباضية فى البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب ، وهو **أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى** (نسبة إلى قبيلة من غرب اليمن تسمى المعافر) . هذا الرجل كان عالماً حقا فى المذهب الإباضى وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن ابن رستم .

نعود إلى تتبع أخبار عبد الرحمن بن حبيب لنقول : إن هذا الرجل كان يستطيع أن يعمل شيئاً لنفسه ولأفريقية ، لو أنه كان على شىء من الرزانة والحكمة والكفاية فى الأعمال الإدارية التى تصدى لها ، لكنه تجلى عن رجل غير ثابت ، سريع إلى الحركة ، غير واضح السياسة ، فنفر منه الناس سواء العرب أو البربر وتصدى له نفر من أنداده من العرب ، ووقعت الحروب بينهم . وكان يتولى قيادة جيش أخيه إلياس القائد الكبير ، وكان ولى عهده ، وهنا نرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع يغدر بأخيه إلياس فيعزله عن ولاية العهد ، ويقيم ابنه حبيباً مكانه فغضب إلياس ووقعت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بمقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية أخيه إلياس .

وهنا نجد أن حبيب بن عبد الرحمن يسير مع جماعات من البربر لحرب عمه ويقتله ويتولى مكانه، ولم تدم ولايته طويلاً إذ تغلب عليه عمه عبد الوارث ، ففر حبيب إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربة تسمى « ورفجومة » وهى قبيلة طارق ابن زياد وكان يتزعمها **عاصم بن جميل** ، وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية ، واقتحم القيروان وقضى على بنى حبيب وأقام حكماً خارجياً صفرياً فى البلد . ولكى يؤكد احتقاره لمذهب السنة دخل

رجالــه بخيلهم المسجد الجامع وربطـوا خيلهم فيه . بـذلك نجد أن أفـريقية التى كلفت العرب إلى الآن جهوداً ضـخمــة فى فتحها وإقرار أمورهــا ، انتهت بعد العناء إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية .

هــذا الموقف دفع الخوارج الإباضيــة المسيطريـن على جبل نفوســة وناحيــة طرابلس ، إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها ، بزعــامة **أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى** . وتم لهم ذلك وانتقلت أفريقية من سلطان الصفرية إلى الإباضية . كل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور وكان قد اتجه إلى جعل الـدولة العباسية دولــة السنة والجماعة ، فأمـر واليه على مصر وهو **محمد بن الأشعث** بالمسير إلى أفريقية وإخـراج الخوارج منها وتم له ذلك ، وعادت أفـريقية إلى مـذهب السنة . وفى الصراع بين الخوارج ورجـال السنة وهم رجال الدولة العباسية ، قتل أبو الخطـاب زعيم الخوارج الإباضية ، ففر الباقون بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، خـارج الحدود العباسية لدولة بنى العباس ، وانحاز نفر منهم إلى جبل نفوسة وسنسمع عنهم بعد قليل .

* * *

محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بافريقية

المهالبـــــــــة

لم يكتف أبو جعفر المنصور بـذلك ،لأن الخوارج لا زالوا على قوتهم ، فسارع بإعـداد جيش جديـد أرسله إلى أفريقيـة بقيادة محمـد بن الأشعث ، فـاستقر فى القيروان واجتهـد فى إقرار الأمن فى أفـريقيـة وبذل بـالفعل جهـودا كبيرة فى ذلك السبيل ، وعندما انتهت ولايته فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، عهد هذا فى ولاية أفريقيـة إلى زعيم من زعماء العرب البلديين فى مصر ، وهو **الأغلب بن سالم بن عقال التميمى** ، وكـان فارسـاً شهماً ، فى المسير إلى المغرب ، فســار إلى أفريقيـة مع أهله ومن بينهم ابنه إبـراهيم . ودخل أفريقية وجعل ينظم أمـورها ، ولكن الخوارج عادوا مرة أخـرى يهاجمون أفريقية بزعامـة رجل جديـد يسمى أبا حاتم وتمكن أبـو حاتم من قتل الأغلب بن سالم بن عقال ، فنجـا ابنه إبراهيم بمن معه إلى طبنة فى إقليم الزاب وهنا استقر وأخذ يمهد الأمر لنفسه .

أصبحت أفريقية مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية ، فهى بلد بعيد عن مركز الخلافـة ، تعيش فيـه جماعـات متحـاربـة متعـادية ، بعضـهم من أهل السنـة وبعضـهم من الخوارج بشتى مـذاهبهم ، وبعضـهم عرب وبعضـهم بـربر . وكـان لابد من إيجاد حل تستقر به أحوال ذلـك البلد ، فانتهى رأى أبى جعفر إلى أن يولى هذه النـاحية واحـداً من كبار رجـاله ذوى الكفـاية ، ويطلق يـده فى الأمور حتى يستطيع أن يخلص بأفـريقيـة من الفـوضى والقلق . ووقـــع الاختـــيار على رجـــل من بنى **المهلب بن أبى صفـرة** ، ذلك القـائد الإدارى الكبير الذى عـاش وعمل فى العصر الأموى . وكان المهالبـة من الأزد ، وهم من عمان ، ولذلك يعرفون بأزد عمان . وهذا الـرجل هو **أبو حفص عمـر بن قبيصة المهلبى** . ووصل ذلك الرجل إلى أفـريقية سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨م ، وبـدأ بذلك عصر قصير مدتـه خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبى فى أفريقية هو عصر المهالبة ، لأن هذا الرجل

لم يـذهب وحده ، بل أخـذ معه نفـراً من أهل بيته من آل المهلب ، وقـوة عسكريـة كبيرة . وكان المهالبة فى جملتهم أهـل استقرار وخبرة بشئون الإدارة ، وسنرى أن عصرهم القصير سيكون عصراً حاسماً بالنسبة لتاريخ أفـريقية كولاية إسلامية ومركز من مـراكز السنة والجماعة ، وكذلـك بصفتها مركزاً من مراكـز العروبة . وكـان على أبى حفص عمـر المهلبى أن يواجـه الخوارج الإبـاضية ، الـذين كـان يتزعمهم أبـو حاتم وتمكن أبو حفص عمـر من الانتصار عليه أول الأمـر ، ولكنه انهزم وقتل سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١ م ــ وحل محله واحد من كبار المهـالبة ، بل من كبار العـرب فى عصر أبى جعفر المنصور ، وهـو يزيد بن حاتـــم المهلبى ابن عم أبى حفص . وكـان يزيد يتـولى أمر مصر فأمـره أبو جعفـر بالمسير إلى أفـريقية فانتقل إليها واستقر فيها سنة ١٥٥هـــ/ ٧٧٢م وبدأ فى تاريخ أفريقية عصراً من الاستقرار والازدهار وهو عصر المهالبة .

كان يـزيد بن حاتم سيـداً عربياً يتميز بكل مـايتميز به سـادة العرب فى تلك العصور من رياسة وشهـامة وكرم ، وكان الشعراء يمتدحونـه ، إذ أنه كان بعيد الصوت فى دولة بنى العباس . وتمكن هذا الرجـل من إقرار الأمور مستعيناً بقومه من الأزد ، ولم يكن يطمئن كثيراً إلى الجنـد الخراسـانى ، الذى كـان فى ذلك الحين عماد القوة العبـاسية . ولابد أن نلاحظ أن مـانسميه بالجنـد الخراسانى لم يكن كله ولا جلـه من الموالى ، بل إن لقب خراسانى كان يطلق فى المقـام الأول على عرب خراسـان ، أى العـرب الذين ولدوا فى خراسان ونسبوا إليهـا . والجند الخراسانى الذى سار مع **أبى مسلم الخراسانى** للقضاء على بنى أمية ، كان فى غالبيته جنداً عربياً ، لأن الحركة العباسية لم تكن ثورة فرس على العرب كما يقال ، وإنما كانت ثورة عرب على عرب ، هدفها تغيير الأوضاع داخل نطاق الدولة الإسلامية العربية وكلامنا هـذا عن طبيعة الجند الخراسانى الـذى اعتمدت عليه الدولـة العباسية ، يجعلنا نفهم كيف أن الدولة العباسية على ضخـامة جيوشها وسعة ثروتها وعظم جاهها ، لم تكن دولـة فاتحة ولم تشتهر بالقـــوة العسكريـة ، ولهـــذا لم يفتح بنو العباس شيئـاً زيادة على ما فتح بنو أميـة ، وكان قصارى جهدهـم المحافظة على الموجود .

ولكن على الرغم من سوء المادة العسكرية التى اعتمد عليها يزيد بن حاتم ، فإنه استطاع بكفايته الشخصية ، أن يقر الأمور فى أفريقية ، ويقيم حكماً عادلاً زاهراً مدة خمسة عشر عاماً من الهدوء ، أى من سنة ١٥٥ ـ ١٧١ هـ/ ٧٧٢ ـ ٧٨٧ م .

جهود يزيد بن حاتم فى أفريقية :

حكم يزيد بن حاتم أفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات القليلة من أصعب فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً على أفريقية وفائدة لها ، فقد كان الرجل ذكياً نشيطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة ، وكذلك كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغار ، وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة والجماعة .

دخول المذهب المالكى إلى المغرب وتحول أفريقية إلى حصن السنة والجماعة فى المغرب :

والمذهب المالكى هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية فى الفقه الإسلامى ، وهو أولها ظهورا ، فقد توفى **مالك بن أنس** منشىء هذا المذهب ، ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م ، وهو إمام دار الهجرة ، لأنه عاش ودرس فى مدينة الرسول ﷺ ، وقد بدأ حياته محدثاً أى جامعاً للحديث حافظاً له ، ولذلك يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث . ومن الحديث انتقل مالك إلى التشريع أى إلى استخراج الأحكام من الأصول ، والأصول عند مالك هى : القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة ، أى أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن إذا وجد فيه نصاً صريحاً ، فإذا لم يوجد استعان بالحديث الشريف ، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيده فى هذه القضية ، قاس الأمور على نظائرها واستعان فى ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة ، مما أقره رسول الله ﷺ ومن اتبعه من الصحابة . ومن ذلك كله استخرج مالك رأيه ومذهبه ، ولهذا يسمى المذهب المالكى بمذهب الرأى ، وهو عندهم رأى مالك . ويمتاز المذهب بالوضوح والحسم والمنطقية ، فهو لا يترك الانسان محيراً بين آراء شتى ، كما نجد فى المذهب الحنفى الذى أنشأه **أبو حنيفة النعمان بن ثابت** . ويمتاز المذهب المالكى بنصه نصا واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدة

المسلمين ، والمحافظة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ، ولهذا السبب لقى هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الناس . وارتفع شأن مالك وأصبح نموذجاً لرجل العلم فى تاريخ الإسلام ، خاصة وقد كان الرجل عزوفاً عن المناصب ، صارفاً جهده كله إلى العلم ، وأعانه على ذلك أنه كان ميسور الحال عالى الهمة ، لا يتدنى إلى طلب وظائف أو يسعى إلى قربة من سلطان . وكان رجلاً حسن السمت عظيم الهيبة ، يلبس أحسن الثياب ، ويجلس لطلابه فى هيئة جليلة ، ويسود مجلسه وقار وهيبة تزيد على هيبة السلاطين ، وكان يعلل ذلك بقوله «إنما أرفع جاه العلم » . ومن هنا أعلى مالك مرتبة العلماء وبهر الشبان ، فأقبلوا عليه يدرسون مذهبه وأسلوبه فى الحياة ، أو ما يسمى بشمائل مالك ، ومن هنا أصبح مالك بن أنس شخصية حضارية لا مجرد عالم متقن للعلم .

ولهذا نجد أن دخول المالكية فى المغرب والأندلس ، لا يعتبر مجرد دخول مذهب فقهى ، وإنما هو دخول أسلوب حضارى ، فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم وأهله إلى مستوى اجتماعى بل سياسى ، جعل العلم رمزا من رموز القوة والسلطان . وإذا كان تاريخ المسلمين قد انحرف فى العصر العباسى الثانى ، حتى أصبح السلطان فى يد الأجانب عن البلد فى كل مكان تقريباً ، وأصبحت القوة العسكرية قوة أجنبية مرتزقة فى معظم بلاد المسلمين ، وحرم أهل البلاد فى كل بلاد الإسلام من حقهم الشرعى فى تولى أمور بلادهم ، فقد اتجهت همة الناس إلى بلوغ القوة والجاه عن طريق العلم والدراسة . وضرب لهم مالك المثل فى ذلك ، بما ذكرناه من خصاله وأسلوبه فى الحياة والعمل ، وبلغ بذلك مكانة اجتماعية كبرى وقوة سياسية كان بنو العباس يحسبون لها كل حساب ، فاجتهد الطامحون من شباب أهل العلم فى محاكاة مالك بالسير فى طريقه والتأسى به فى أعمالهم ودراستهم وتصرفاتهم . وبلغ الكثيرون منهم بذلك مراكز عالية ومناصب ذات خطر فى بعض البلاد ، وأصبح رجال العلم أى الشيوخ ، هم رؤساء الناس فى كل جماعة إسلامية أخذ شيوخها بمذهب مالك ، وهذه الظاهرة الحضارية السياسية مرجعها إلى ذلك العمل الجليل الذى قام به مالك بن أنس وتلاميذه .

دخل مذهب مالك بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه ، ممن تفقهوا بعلمه

واقتفوا أسلوبه فى التدريس وفى الحياة ، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً كالمذهب المالكى ، يجمع الناس على رأى واحد فى القضية الواحدة ، دون أن يفرق أذهان الناس حول قضايا الفقه ، كما كان الخوارج يفعلون ، ومن ناحية أخرى فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء ، فيعطيهم مالهم ويأخذ حقه منهم ، فعندما أقبل هارون الرشيد إلى المدينة ، طلب أن يأتيه مالك فاعتذر مالك وعندما لقى الخليفة وهو هارون الرشيد ، قال له : « لا أحب أن يرانى الناس ساعياً إلى السلطان حاملاً حديث ابن عمك رسول الله ﷺ » ، فأعجب رده الخليفة وزاد من قدر مالك فى نظره .

وعندما تحدث معه وجد فيه رجلاً مكتمل الشخصية واسع العقل والعلم حسن التصرف ، جميل السمت ، فزاد فى كرامته فى حين أن أبا جعفر المنصور أهانه واعتدى عليه عقاباً له على قوله الحق .

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم فى المساجد ، ومنهم نفر من أجل مؤسسى الفقه الإسلامى ، كالإمام الأوزاعى ، الذى انتشر مذهبه فى الشام كله ووصل إلى الأندلس . ولكن مالكاً كان أستاذاً بمعنى الكلمة — نظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه ، واتخذ فى داره مجلساً للتدريس وأقام لتلاميذه عريفاً ومقرئاً ، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع الطلاب وحفظ النظام أثناء الدرس .

وكان مالك لا يجلس للإقراء إلا فى أحسن ثيابه ، وكان حريصاً على النظافة وكان يطلب إلى تلاميذه الصمت التام أثناءإلقاء الدرس ، فإذا شاء طالب أن يسأل شيئاً فيكون ذلك فى آخر الدرس . ومع ذلك فقد كان مالك إذا آنَس من تلميذ استعدادا حسناً ، خصه بدرس له وحده ، كما فعل مع المغربى القيروانى **البهلول ابن راشد** . ولم يكن مالك يتكسب بالعلم ، فما أخذ يوماً من طالب درهما ولا هو كان يقبل الهدية ، وكان عند إلقاء درسه فياضاً مسترسلاً ، ينتقل من نقطة إلى نقطة بنظام وهدوء ، وكل هذا فتن تلاميذه به وجعلهم يدرسون شخصه وأسلوبه فى الحياة والعمل ، كما كانوا يدرسون علمه . وبالفعل كان هناك طلاب يفرغون من سماع الحديث والفقه على مالك ، ثم يمضون بعد ذلك يدرسون ما يسمى عند

مؤرخى المذهب ، بشمائل مالك ، وأهمها إلى جانب العلم الغزير ، احترام النفس والترفع عن الصغائر وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام . وكان مالك يقول إنه بذلك يرفع جاه العلم ، ولا عجب والحالة هذه أن يطلق الناس عليه لقب « **أمير المؤمنين فى الحديث** » ، ولا غرابة كذلك فى أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالكاً فى بلده ، رجلاً غزير العلم ، منصرفاً إلى الدرس ، مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه . هذه الناحية تهمنا بصفة خاصة ، لأن أولئك الفقهاء الذين التزموا هذا المسلك ووفقوا فيه ، أصبحوا رؤساء الناس فى بلادهم . حقا كان هناك أمراء وحكام وأصحاب سلطان سياسى ، إما مستقلين ببلادهم أو تابعين لدولة الخلافة فى بغداد ، ولكن الناس اختصوا الفقهاء بثقتهم واعتبروهم قادتهم وأصحاب الرأى فيهم ، فى كل مكان انتشر فيه المذهب المالكى ، فى المغرب والأندلس خاصة .

أدخل مذهب مالك فى المغرب نفر من أجلاء الشيوخ من أمثال **عبد الله بن فروخ الفارسى وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات** ، وكانوا جميعاً من كبار العلماء حقاً ، وقد اكتسبوا الكثير من خصال مالك وتمكنوا من مذهبه ، وسمع بعضهم كذلك على أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، فقيه العراق وصاحب المذهب الحنفى المعروف . ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمالك دون غيره ، وتمكنوا بفضل إخلاصهم وعلمهم وزهدهم ، من أن يجعلوا المذهب المالكى هو المذهب المقرر المعترف به رسمياً فى أفريقية ثم فى بقية المغرب بعد ذلك . وعلى أيديهم بدأت المالكية فى المغرب تاريخها الطويل ، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهى بل كانت عنصراً حضارياً له أثره فى كل نواحى الحياة فى المغرب الإسلامى ، ويكفى أن نشير هنا إلى ما ذكرناه من أن الفقهاء المالكيين أصبحوا رؤساء الناس وقادتهم ، فى حين توالت أخطاء رجال السياسة وشيوخ القبائل ، ما بين صنهاجيين وزناتيين ، مما أيأس الناس منهم ومن الحكومات القائمة جملة . وقد عرف أولئك الفقهاء كيف يحافظون على أمة الإسلام فى أفريقية ملتفة حول مذهب السنة والجماعة ، وقد رأينا كيف تمكن حنظلة بن صفوان الكلبى (١٢٤ ـ ١٢٧ هـ/ ٧٤٢ ـ ٧٤٥م) من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج ، ما بين صفرية وإباضية والاحتفاظ بها جزيرة سنية ، تعتصم بها السنة والجماعة ، وكان هذا

فى حقيقــة الأمــر إنقاذاً للإسلام فى المغـرب كله ، ولذلك يعتبر حنظلة بن صفوان الكلبى هذا ، من بناة تاريخ المغرب الإسلامى .

نعم إن الأخطار لم تتـلاش ، وعاد الخوارج يحاولـون انتزاع أفريقيـة نتيجة لسوء سياسة **عبد الرحمن بن حبيـب الفهرى وآله** ، ولكن أهل أفريقيـة نجحوا فى التمسك بوحدة قطـرهم المذهبية والفكرية ، فثبتت أفـريقية بفضلهم لمحاولات الزعيم الخارجى **أبى الخطـاب عبد الأعلى بن السمح المعـافرى** ، الـذى دخل القيروان مع أتباعه من الخوارج الإباضية ، قـادمين من طرابلس ، بحجة إنقاذها من الخوارج الصفرية ، وانتهى الأمر بانتصـار محمد بن مقاتل العكى العباسى ، وبانتصاره هذا مكن للسنة والجماعة ، وقتل أبى الخطاب فى صفر ١٤٤هـ/ مايو ٧٦١ م، وانتصار حنظلـة بن صفوان ثم محمـد بن الأشعث ، الذى عبـد الطريق أمام العبـاسيين ليرسلوا إلى أفـريقية **عمـر بن حفص بن قبيصـة بن المهلب** فى صفر ١٥٦ هــ/ ينايـر ٧٧٣ م ، وهو أول المهـالبة ومنهم يـزيد بن حـاتم الذى نتحدث عنـه الآن ، والمهالبة هم الذين ثبتـوا مذهب السنة والجماعة فى أفـريقية ، وعلى أيديهم تـلاشى كل خطر خـارجى على أفريقيـة . واتجه الخوارج إلى المغرب الأوسط خارج سلطان الـدولة العباسية حيث أنشأوا إمامـة الخوارج الإباضية ، على يد عبد الرحمن بن رستم خليفة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، وتلك هى الدولة الرستمية الخارجية الإبـاضية التى اتخذت من تاهرت قاعدة لها ابتداء من سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م وسنتحدث عنها فى حينها .

وهكذا أصبحت القيروان بفضل أولئك الفقهـاء ، وما بذله يزيـد بن حاتم من جهـود مركـزاً للعلم الإســلامى ، لا يقل عن البصرة والكـوفة والفسطـاط ، وهى حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضـارى فى المغرب .

المهم لدينا أن نجاح يزيد بن حاتم جعل الـدولة العباسية تترك أمر أفريقية فى أيدى أهل بيته ، الذين عرفوا بالإخـلاص للدولة ، فتوالى المهالبة على حكم أفريقية وأهمهم بعد يزيـد بن حاتم أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عنه كفـاية وقدرة ، وقد حكم ثلاث سنوات انتهت سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م .

وكان آخر المهالبة وهو الفضل بن روح بن حـــاتم الذى تولى سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣ م ، ولم يحكم إلا سنة ونصفاً تقـريباً فإن جند أفريقية والمغـرب لم يرضوا عن استبداده ، هو وآلـه ، بكل الوظائف والولايات الكبرى فى البـلاد ، وثاروا عليه بقيادة **عبد الله بن عبدويه بن الجارود** قائد جند تونس ، وتمكن هذا القائد ونفر آخـر من القواد من عـزله ثم قتلـه سنة ١٧٨ هـــ/ ٧٩٤ م وتقاسمـوا الإدارات والنواحى فيما بينهم .

وهكذا انتهت ريـاسة المهالبـة فى أفريقية بعـد حـــوالى ربع قـرن من أواخر أيـــام أبى جعفـر المنصـور العباسى ، إلى أوائل أيـام هـارون الرشيـد . وفترة المهالبـة على قصرها تعتبر من أهم فترات تاريخ المغـرب الإسلامى ـ ففى أثنـائها استقر الأمر للمـذهب السنى بصورة نهائية فى أفريقيـة ، وسادت المالكية وانتهى أمر الاجيـال الأولى من العـرب البلديين ، بعـد أن فشلوا فى السيطـرة على البلاد ، وحلمـوا كما رأينـا فيما روينـــا من أخبـار محاولـة عبـــد الـرحمن بن حبيب ، بالاستقلال بأفريقية ، فأوقعوا البـلاد فى الفوضى والاضطراب . وبعد ذلك اندرج معظم العرب البلديين فى أفريقية فى غمار الناس ، وأصبحوا من جملة أهل المغرب ، وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد فى تعريب البربر ونشر الإسلام السنى بينهم .

وهؤلاء العـرب الذين أصبحوا مغـاربة هم الـذين يسمون « **عـرب الفتح** » وستظل جماعـــة منهم تطلـب الحكم ، ولكن غـــالبيتهم العظمى انصرفـت عن السياسة ودخلت فى الناس وكان لهم أثر بعيد فى تعريب المغرب .

* * *

نهـاية عصـر الـولاة
وبداية عصر الدول المحلية
فـى أفـريقية والمغـرب

بعد نهاية المهالبة عاشت أفريقية سنوات من الفوضى ، إذ اشتد تنافس زعماء العرب فى البلاد فى الوصول إلى السلطان فى القيروان أو فى الانفراد بالسلطة السياسية فى نواحيهم ، وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية أفريقية ، وتضم ـ كما قلنا ـ ولايات طرابلس وأفريقية (تونس) والزاب ، وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية (ويقابل اليوم محافظة قسطنطينة) وبذلت الدولة العباسية ـ كما رأينا ـ جهودا ضخمة للمحافظة على هذه الولاية تابعة لها داخل إطار السنة والجماعة ، وقد رأينا ما بذلته من جهود فى ذلك السبيل ، وقد توجت هذه الجهود بانتصار **حنظلة بن صفوان** فى موقعتى القرن والأصنام بجهود المهالبة ، التى ثبتت ـ كما رأينا ـ قواعد النظام والسنة والجماعة فى أفريقية ، وجعلت منها جزيرة أمان واستقرار نسبى وسط المغرب ، الذى اجتاحته الفتن وحركات الخوارج من كل ناحية .

ولكن الدولة العباسية لم تستطع رغم جهودها أن تمد سلطانها إلى أبعد من إقليم الزاب غرباً ، وقد قرر الجغرافى **اليعقوبى** ، الذى زار أفريقية فى عصر الأغالبة ، أن منتهى سلطة العباسيين غرباً ، كانت مدينة أربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف ، ومعنى ذلك أن ما يلى نهر شلف غرباً ، كان خارجاً عن سلطان الدولة العباسية ، وكان منطقة فراغ سياسى حقيقى .

هنا ، فى ذلك الفراغ السياسى الذى امتد من مجرى شلف إلى ساحل المحيط ، قامت أول الأمر وبعد الفتنة المغربية الكبرى ، إمارات محلية كثيرة ، معظمها خارجى زعماؤها عرب معادون لدولة الخلافة أو بربر مستعربة . وأشهر هذه الدول وأطولها عمراً إمارة **أبى قرة المغيلى** الخارجى الصفرى ، الذى نادى بنفسه إماماً وخوطب بأمير المؤمنين مدة أربعين سنة فى **إقليم تلمسان** .

ومن أشهر هذه الإمارات المحلية كانت إمارة نكور التى أنشأها حوالى سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م زعيم عربى يسمى **صالح بن منصور الحميرى** ، فى قطعة من ساحل المغرب الأقصى ، تمتد من مليلة إلى الحسيمة ، وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها بربر زناتيون . ولكن هذه الدولة كانت سنية ، وقد شدت أزر نفسها بالدخول فى ولاء بنى أمية الأندلسيين (قامت دولتهم سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م) وكانوا سنية متشددين ، وقد بذلوا جهوداً كبيرة فى نصرة السنة فى المغرب الأقصى . وقد عمرت دولة نكور طويلاً ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف فى أثناء الصراع الطويل بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى . ولم تنته إلا على أيدى المرابطين فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى) .

أفريقية من المهالبة إلى بنى الأغلب :

ونعود إلى أفريقية وهى موضع دراستنا الآن فنقول إن الإدارة العباسية أقامت عليها أيام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد فى بابه ، **هو هرثمة ابن أعين** ، وكان من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط الرشيد ، وكان شيخاً مجرباً فى الحروب والولايات ، فكان اختيار هارون الرشيد إياه لولاية أفريقية اختياراً موفقاً ، لأن المشكلة الرئيسية التى كانت تقلق بال الدولة من ناحية أفريقية فى ذلك العصر ، كانت مشكلة عرب أفريقية الذين كانوا يتجمعون فى المعسكرات فى سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة وغيرها من مدن ولاية أفريقية وتنافسهم وحربهم بعضهم مع بعض ، ومعاداتهم لكل وال ترسله الدولة . وقد رأينا ما صنعه **عبد الله بن عبدويه بن الجارود** مع **الفضل بن روح ابن حاتم** . أقبل هرثمة بن أعين إلى أفريقية وهو عربى صريح ، وفى نيته أن يضع حداً لفتنة أولئك الأعاريب كما كان الناس يسمونهم فى ولاية أفريقية .

حكم هرثمة بن أعين أفريقية سنتين (١٨٠ ــ ١٨١هـ/ ٧٩٦ ــ ٧٩٧م) هابه أثناءها رؤساء العرب وركنوا إلى الهدوء . وأتيحت له بذلك الفرصة ليعمل على تجديد ما تخرب من المدن والموانى والمنشآت وليعيد ثقة الناس فى الدولة .

وقد اهتم هرثمة بن أعين بالإنشاءات ، فجدد إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق فى القيروان واهتم ببناء قصور العباد .

والقصور جمع قصر ، ويراد به فى أفريقية شىء يشبه الدير عند النصارى ، أى بناء كبير ينشأ على ساحل البحر وربما على حدود الصحراء لكى يقيم فيه أولئك الزهاد الرباط على حدود دار الاسلام وثغوره والاشتراك فى محاربة أى عدو يهاجم بلاد الإسلام ، لهذا كان العباد والزهاد من أهل القصور يسمون أيضاً مرابطين ومثاغرين يقضون أعمارهم فى العبادة وحماية أرض الإسلام .

وكان أولئك العباد والزهاد يعيشون فى قصورهم ورباطاتهم حياة مشتركة : يأكلون معا ويصلون معا ، ولكل منهم خلوة صغيرة يتعبد فيها وحده ويقرأ القرآن ساعات معينة من الليل والنهار ، وكان القصر يضم مسجداً للصلاة .

وفى العادة يبنى القصر على هيأة حصن عالى الأسوار . ويكون من طابقين : الطابق الأول عام ، فيه المسجد وقاعات الدروس وقراءة القرآن والطعام ، ويخصص الدور الثانى للخلوات . فبعد صلاة العشاء الآخرة يأوى كل عابد إلى خلوته ليتعبد ويصلى ، ويقوم ما شاء الله له أن يقومه من الليل ، ثم ينام ليصحو مع الفجر ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، فيقوم نفر منهم فى أبراج الحراسة بالتناوب بالليل والنهار ، وللقصر أو الرباط شيخ من أهله هو رئيسه ومنظمه والمسئول عنه ، ويكون فى العادة من أجلاء الشيوخ ، الذين يرفعهم الناس إلى مراتب الأولياء فيكتسبون بذلك جاها وهيبة فى القلوب ، تمكن لهم من إدارة مثل هذه المنشآت التى كانت تضم فى بعض الأحيان مئات من العباد والزهاد . وكان يحيط بالقصر فى العادة أرض تعتبر ملكه ، ويقوم الزهاد بزراعتها للتقوت بمحصولها ، لأن المفروض أنهم يعيشون من عمل أيديهم ولا يأكلون إلا مالاً حلالاً .

وقد أبدع أهل المغرب خاصة ، فى إنشاء هذا الطراز من القصور ، وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الأغالبة بالرباطات ، فأنفقوا عليها بسخاء . وقد بقيت لنا بعض هذه القصور إلى اليوم ، مثل قصر المنستير على الساحل الشرقى لتونس ، وهو بناء جميل ، رممته

الحكومة التونسية وأصبح من روائع العمارة الإسلامية فى المغرب ، وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب فى سوسة ورباط تونس ورباط بونة التى تسمى اليوم عنابة إلى جانب رباط المنستير .

وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور ، أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة . وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء فى صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة . ومن هنا فقد كانوا فى الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة ، خاصة وقد امتازوا بصدق وإخلاص وإيمان عميق بالمذهب السنى ، وكانت ثقة الناس فيهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملاً إيجابياً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة فى أفريقية .

وبعد سنتين من الحكم ، رأى هرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته فى أفريقية وأقر الأمن فى البلاد ، ولكن الحقيقة أنه قد تعب وتاقت نفسه للعودة إلى بغداد .

أصل الأغالبة : إبراهيم بن الأغلب :

وكان من بين كبار عرب أفريقية رجل يسمى **الأغلب بن سالم بن عقال التميمى** . كان أصله من عرب مصر ، وكان من كبار رجال الجيش ، وعندما أرسلت الخلافة الوالى **محمد بن مقاتل العكى** إلى أفريقية كلفت الأغلب بن سالم ابن عقال بالمسير معه فى نفر من جند مصر ، فدخل أفريقية واستقر والياً على الزاب ، وكان هنا تميميون كثيرون ، ثم قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى حرب الخوارج ، فأقام هرثمة ابنه **إبراهيم بن الأغلب** والياً على الزاب ، وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً ، كان ينوى أن يتجه لدراسة العلم فى مصر ، ودرس على الليث بن سعد ، ولكنه عندما دخل أفريقية اتجه إلى السياسة وجمع التميميين حوله ، وصار من أكبر الشخصيات العربية فى المغرب ، وأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقرَّبه وأعلى مكانته .

وعندما أراد هرثمة أن يعود إلى بغداد ، اقترح على هارون الرشيد أن يقيم إبراهيم بن الأغلب عاملاً على أفريقية ، فاشترط إبراهيم على دولة الخلافة أن

تقيمه على أفريقية بصورة دائمة ، فهـو شديد الإخلاص والولاء للبيت العباسى ، ثم إنه رأس التميميين وهم أكثـر عرب أفريقية ، وهـو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئـون السيـاســة والحرب . وقـد اقترح إبـراهيم بن الأغلب على هــارون الرشيـد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينــار ، ويستغنى عن مائة ألف دينار ، كانت تـرسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفـريقية . وتعهد بأن يتصرف كعامل عباسى تابع لدولة الخلافة ، وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته لكى يستطيع مواجهة نفر من زعماء العرب المشاغبين من أمثال **الحسن بن حرب الكندى**، وكــان زعيم جند العــرب فى تونس . فأجـابته الخلافــة لما طلب ووافقت كذلك على أن تكون الولاية فى بنى الأغلب مــاداموا على الطاعة والولاء ، ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخلافة الحق فى تعيين قــاضى القيروان ، وأن يكون للخليفة الحق فى عزل الــوالى الأغلبى إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم بـدله أغلبيـاً آخر . وتم الاتفاق على ذلك كله ، وتولى إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية سنة ١٨٤ هــ/ ٨٠٠ م وبـدأت بذلك تجربــة سياسيــة جديـدة فى تاريخ أفـريقية : تجربــة حكم أفريقية بواسطة أسرة عربية محليـــة تابعة للدولة العباسية .

***

دولــة الأغالبــــة فـى أفـريقـية
(١٨٤-٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٩ م)

كان قيام دولة الأغالبة فى أفريقيــة ، التى كانت تتكون من طرابلس وأفريقية وجزء من المغرب الأوسط هو إقليم الزاب ، تجربة جديدة فى نظم الحكم الإسلامية فللمرة الأولى تعهـد الخلافة إلى رجل من المغـرب فى الانفراد بولايــة من ولاياتها ، ليحكمها حكماً شبه مستقل فى نظير مبلغ قليل من المال ، إلى جانب التعهد بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية . وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفاً على أهل بيت ذلك الرجل ، يتوارثـونها فيما بينهم ، ماداموا على الولاء الكامل للبيت العباسى ، والشرط الوحيد الذى اشترطتـه الخلافة العباسية هو البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها ، وكذلك حمايــة حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية ، التى وقفت بصورة رسمية عند المجرى الأعلى لنهر شلف ، الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية .

نقول هذا وإن كنا لا نملك نصاً ، ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكلامنا هنا قائم على ما ورد فى مراجعنا عن هذا الاتفاق وهــو قليل . ذلك أن تاريخنا الإسلامى يخلو من الوثـائق الرسمية فى معظم عصور تاريخه ، وكل ما تقوله المراجع هو ما ذكرناه من أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب فى أن يقيمه عـاملاً شبه مستقر على المغرب على الشروط التى ذكرناها . ويبدو أن هـرثمة بن أعين كان له دور فى ذلك ، وقد أعجب بإبراهيم بن الأغلب ووثق فيه وفى إخلاصــه لبيت بنى العباس ، وكان إبراهيم بن الأغلب من أهل الولاء لبيت الخلافــة ، وكذلك كان أبوه الأغلب بن ســالم بن عقال وهو من تميم ، القبيلة العـربية الكبيرة . وكان كما قلنا من كبار جنـد مصر وندبه الخليفة مع محمد بن مقاتل العكى الذى أرسله إلى أفريقية ليحارب الخوارج .

وقـد قتل الأغلب بن سالم بن عقــال فى الصراع بين رجـال الدولـة العباسيـة

والخوارج ، وكان ابنــه إبراهيم مقيماً فى إقليم الزاب مع قــومه من تميم ، فلما قتل أبوه أصبح هو والياً على الزاب ، وكان شابــاً نشيطاً ذكياً أعجب به هرثمة بن أعين لنشاطه وذكائه وفصاحته . ويبدو أن هرثمــة هو الذى توسط بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيلة فى شأن أفريقية ، وتمكنت بعد جهــود مضنية من المحافظــة عليها فى إطار السنة والجماعــة وإبعاد الخوارج عنها . وكان إبــراهيم بن الأغلب شاباً طمــوحاً يرى نفسه أهــلاً للولاية ، وطمحت نفسه إلى الانفراد بشئــون أفريقية مع بقائه على الــولاء للبيت العباسى . واتفق طموحه مع ما كانت الدولة العبــاسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية فى يد أمينة وتستريح من تكــاليف نفقاتها عليها ، وهى جد ثقيلــة كما رأينا . على هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد .

حكم إبراهيم بن الأغلب :

حكم إبــراهيم بن الأغلب من ١٨٤ ـ ١٩٦ هــ / ٨٠٠ ـ ٨١٢ م ، وقــد حكم أفــريقيــة فى ظروف عسيرة ، فلــم يكن له من سنــد عسكــرى إلا قــوة يسيرة من التميميين والجند الخراسانيين ، وكان خصومه كثيرين من العرب البلديين ، الذين لم يوافق أحد منهم على الإقرار له بتلك الرياسة ، وأعلنوا عليه حرباً عنيفة طويلة ، ظلت مستمرة طــوال العصر الأغلبى الذى دام أكثر من مــائة سنة ،إذ ينتهى حكم بنى الأغلب سنة ٢٩٦ هــ/ ٩٠٩م على يد الفــاطميين . ومن أكبر أولئك الخصوم **الحسن بن حرب الكنــدى وعمران بن مجالــد الربعى** ، وقد تمكن إبــراهيم بن الأغلب من القضاء على نفــر كبير من رؤسائهم بعد جهد شــديد ، ولكنه لم يقض على روح التمــرد والعصيــان عليه وعلى آل بيتــه ، التى انتشرت فى رؤســاء جنــد أفريقية العربى ومن انضم إليهم من العرب الــذين تحولوا إلى عرب بلديين ، وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية . وكان الاتفاق بين الخليفة هارون الــرشيد وإبــراهيم بن الأغلب يقضى بأن يــؤدى إبــراهيم ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف دينار فى السنة ، ويستغنى عن ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف دينــار كانت ترسل من مصر معونة لوالى أفريقية ، فكان كل خراج أفــريقية الذى كان يعود إلى الدولة العباسية ١٤٠,٠٠٠ مــائة وأربعين ألف دينار ، وهــو مبلغ زهيــد جداً ، ولكن إبــراهيم بن

الأغلب اجتهد فى استخراج مال كثير من أفريقيـة ، حتى بلغ إيراده فيما يقال نحو المليونين من الدنانير فى السنة ، وهذا المال كان عماد قوة إبراهيم بن الأغلب . وهذا الفارق الجسيم بين مـا كان الولاة يرسلونـه إلى الخلافة من خراج أفـريقية ، وما كان يتحصل منها فعـلاً ، يعطينا فكرة عن « أمانة » الـولاة فى تلك العصور أو قلة أمانتهم بتعبير أصح .

وقـد اتجه نظر إبـراهيم بن الأغلب مـن أول الأمر إلى إقـامـة قـوة عسكريـة يستطيع الاعتماد عليها ، إذ أنه لم يكن يستطيـع الاعتماد على الجند الخراسانى ، وكان التميميون قليلين ، رغم أنه وفدت منهم ألوف كثيرة إلى أفريقية أيام الأغالبة ولكن خصومه كـانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قبليـة لا تقل عن قواته ، فكان همه الأول هو إنشاء قـوة عسكرية خاصة به بـا لمال . وقد تكونت تلك القوة العســكرية من عنصرين :

(أ) **البربر المستعربة** : الذين عملوا جنداً مرتزقة فى الجيش الأغلبى .

(ب) **ثم الصقالبة** : وهم جند من أصل أوربى كـانوا يشترون صغاراً من تجار الـرقيق الذين يجلبـونهم من أوربـا ويربـون تـربية عـربيـة إسلاميـة ، ويتخذون بعـد ذلك جنـداً وخدمـاً للدولـة فى القصور والـوظائف . وقـد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضـاف إليهم بعد ذلك قوة من السود . ولم يطمئن على حكمـه إلا بعد أن تم لـه إنشاء هـذه القوة ، خلال السنـوات الأولى من حكمه فى أفريقية .

إنشاء القصر القديم :

فى نفس الوقت عمل إبـراهيم بن الأغلب على إنشاء قـاعدة عسكريـة له ولأهل بيته على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين ، الذين كانوا يعيشون فى الغالب منفصلين عن رعـاياهم ، معتمديـن على جندهم المرتـزق ، وقد اختار إبـراهيم بن الأغلب موقعـاً إلى الجنوب الغربى من القيروان ، أنشأ فيه مـدينة صغيرة ، هى فى الـواقع حصن لبيت الحكم ، وسميت المدينة الجديـدة أولاً **بالعباسية** ثم سميت **بالقصر القديم** ، وعندما تمت ، انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده ، وأصبح القصر القديـم قاعدة الحكم فى البـلاد . وعندمـا تم ذلك لإبراهيم أمـن على نفسه

ومصيره ، وسار فى حكمه على طريقة الحكام فى تلك العصور ، أى أنه أصبح معتمدا على جنده المأجور ، ولم تعد له بالبلاد صلة حقيقية إلا الضرائب التى كان رجال الدولة يجبونها من أهل البلاد .

وكان القصر القديم مدينة كاملة ، فيه قصور الأمير وآل بيته ومساكن حواشيه وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش . وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة التى كانت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء . وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس .

أما الجند العربى المعادى لإبراهيم بن الأغلب فقد تركز فى معسكرات فى المدن الكبرى وخاصة فى تونس ، التى تحولت إلى مركز المعارضة السياسية للبيت الحاكم . وطوال العصر الأغلبى نلاحظ أن الحرب كانت مستمرة بين الأغالبة والجند العربى ، وخاصة فى أيام زيادة الله بن الأغلب الذى ارتكب معهم فظائع رهيبة . وعندما انكسرت شوكة العرب كانت قوة البيت الأغلبى أيضاً قد وهنت وقربت نهايته ، وهذا مثال مما حدث كثيراً فى تاريخنا العربى من إهلاك العرب بعضهم لبعض . ومن ظواهر تاريخنا الإسلامى أن العرب لم ينهزموا أمام غير العرب إلا فى النادر ، ولكن الذى أهلك العربى فى كل مكان هو عربى آخر .

ساد البلاد بصورة عامة خلال العصر الأغلبى أمن ورخاء ، وعمرت المدن وأمنت السابلة ورخيت الأحوال وبدأت شخصية أفريقية فى الظهور ، وكثر أهل العلم ، وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

وقد حكم أفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً ، حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت فى بعض الأحيان إلى أقل من العام ، فلم تتسع الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر ، ثم إن أصحاب المذاهب التى تذكر منهم كانوا اثنين : إبراهيم ابن الأغلب الذى تحدثنا عنه ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت ، وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد بن أبى عقال تاسع أمراء البيت الأغلبى . وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً ، إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ، ولكن عصره كان مضطربًا ، اختلت الأحوال أثناءه اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته .

وينقسم تاريخ العصر الأغلبى فى جملتـه إلى ثلاث فترات : فترة التأسيس من ١٨٤ ـ ٢٢٣ هـــ / ٨٠٠ ـ ٨٣٨ م ، وتشمل إمارات إبراهــيم بن الأغلب وابنـيه أبى العباس وزيادة الله عصر الازدهار والاستقرار النسبى من ٢٢٦ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٤٠ ـ ٩٠٢م ، وتمتـد من نهاية حكم زيـادة الله بن إبراهيم بن الأغلـب المعروف بالأول من سنـة ٢٠١ هـ/ ٨١٦ م إلى نهايـة حكم أبى عبد الله محمـد (الثانى) ثامن أمـراء البيت الأغلبى ، الملقب بأبى الغرانيق لـولعه بصيدهـا ، وذلك فى سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م . وقــد تضمنت هـذه الفترة حـكم عــدد مـن أواســط أمراء البيت الأغـلبى مـن حـيث الملكات ، ولكـن الأمـور كـانت قـد اسـتقرت وهـدأت أحـوال أفـريقية بصورة عامة .

ويـرجع معظم السبب فى ذلك إلى فتح صقليـة الذى فتـح مجالاً واسعاً أمـام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على المغانم ، تاركين أمراء بنى الأغلب فى سلام ثم جاء حكم إبـراهيم بن أحمد ، معلناً بدايـة التدهور ، ثم تلى ذلك فترة التـدهور وتستمر مـن ٢٨٩ ـ ٢٩٦ هـ/ ٩٠٢ ـــ ٩٠٩م . ولكن فترة الاستقـرار الحقيقية التى يمكن أن تسمى فترة ازدهـار للأسرة لم تـزد على ثـلاثين سنة على الأكثـر . ولكن هـذه الأسرة ، على الـرغم من قصر مـدة الاستقرار فى أيـامهـا ، فإنها تعتبر صاحبة الفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية وظهور شخصيتها بما تميزت به من خصائص ، لأن شعب أفريقية الإسلاميـة الذى أوجزنا الحديث عن جهاده فى سبيل الحفاظ على مـذهب السنة والجماعـة والبقاء فى نطـاق الأمة الإســلامية العامـة ، كان فى حاجة إلى فترة استقـرار طويلة بعض الشىء ، كى تثبت القـواعد الاجتماعية والحضارية التى تمكن من تكوينهـا والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة وما وقع فيهـا من الانقلابات وتغير الأحوال . وقد أتـاح له بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار ، وأقاموا فى بـلاده حكومة محلية ذات طابع أفريقى ، ثم إن بنى الأغلب كـانت فيهم عــروبـة صـادقـة واهتمام بشئـون العلم والحضـارة والمنشآت ، فكـان العصر فى جملته ، رغم كثـرة حروبـه واضطرابـاته ، خيراً على أفريقية ، وخطــوة واســعة إلى الأمام فى بقاء المغرب الإسلامى .

وقد تكلمنـا عن إبراهيم بن الأغلب ، وسنتكلم الآن عن اثنين مـن أمراء البيت

الأغلبى هما زيادة الله بن الأغلب وإبراهيم بن أحمد ، إذ لا يتسع المجال للتحدث عن بقية أمراء هذا البيت .

زيادة الله بن الأغلب ٢٠١ - ٢٢٣هـ/ ٨١٦ - ٨٣٨ م :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه **أبو العباس** ، ولم تدم له الإمارة طويلاً فجاء بعده أخوه **زيادة الله** . وزيادة الله كان أميراً قادراً ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذى استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة . وتكلف ذلك الجند المال الطائل ، يضاف إلى ذلك أن جند البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا على الحاجة وثقلت نفقاتهم وبدأوا يشغبون على الدولة ، فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند ، لا عمل لهم فى الحقيقة ورواتبهم فى زيادة ونوعهم فى تدهور فكان لابد له من أن يفكر فى مخرج من تلك الأزمة ، بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود . وتلك هى المقدمة الأولى لفتح صقلية على أيامه .

فتح صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م :

ذكرنا مقدمات ذلك الفتح وقلنا إن الجند تكاثروا عند زيادة الله إلى درجة كان لابد له معها من أن يجد لهم مخرجاً . والحقيقة أن فتح صقلية تأخر ، فهذه جزيرة كبيرة على أبواب أفريقية ، وقريبة من سواحل بلاد الإسلام . وإنه لمن الغريب أن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان. ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية سارت فى الكثير جداً من الأحيان دون خطة مرسومة ، لأنه كان ينبغى أن يجىء بعد تمام فتح أفريقية دور صقلية؛ خاصة وأن بينها وبين شواطىء أفريقية جزراً تعتبر معابر إلى سواحلها مثل بنتلاريا (جزائر قوصرة عند العرب) وتتبع إيطاليا ، وكذلك جزر مالطة ، وكلها دخلت فى حوزة الإسلام مع فتح صقلية . وكان تفكير زيادة الله فى فتح صقلية قديماً يرجع إلى بداية ولايته ، فقد تكاثر جنده وأصبحوا يسببون له المتاعب ، ثم إنه ورث عن أبيه ملكاً مستقراً وثروة طائلة ، فتاقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامى ، وكانت أحوال صقلية الداخلية سيئة تشجع على التدخل فيها ، ومازال يفكر فى الأمر ويعد له حتى إذا كانت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، رأى زيادة الله ونصحاؤه الشروع فى تنفيذ غزو جزيرة صقلية .

وكانت صقلية فى ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية ، يحكمها بطريق ، أى قائد عسكرى يسمى بيلاتوس، ويعربه العرب « **بلاطة** »، يعتمد على قـوة عسكرية قليلـة . وكان يرهق السكان بمطـالبه المالية ، فكـانوا فى حالة تـذمر عليه وضيق بالحكم البيزنطى كله . أى أن الجزيـرة فى الحقيقة كانت منطقة فراغ سياسى .

ولو أن العرب كانـوا فى ذلك الحين على قوتهم المعهودة فيهم ، لما استلزم فتح صقلية أكثـر من عامين أو ثلاثة ، كما حـدث بالنسبة للشـام ومصر . ولكن نوع الجند العـربى كان قـد تغير ، ولذلك فإن جزيـرة صغيرة نسبياً كهـذه ، استلزم فتحهـا نحو السبعين سنـة ، ومع ذلك فلم يتم سلطـان المسلمين عليها بصـورة كاملة إلا فى أواخـر أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وهو تـاسع أمراء ذلك البيت الأغلبى وسنتحدث عنه .

والسبب المباشر الذى جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن قائداً رومياً يسمى يوفيميوس Euphemius (فيمى) ثار على الحكـم البيزنطى واستقل بشرق الجزيـرة وتحصن فى سرقـوسـة وأرسل يستنجـد بـزيـادة الله ، فـاستجاب لصريخه وعجل بتسيير الجنـد . وقـد دعا زيـادة الله بن الأغلب لفتح صقلية جنده الكثيرين فتـوافدوا عليه جماعات ، وتجمعوا فى مينـاء تونس وميناء سـوسة واختـار لقيادة الجيـوش الفاتحة فقيهـاً هو أسـد بن الفرات وذلك أمـر مستغرب ، لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ، ولكن يبدو أن زيادة الله لم يكن واثقـاً من قواده فندب هـذا الشيخ أسد بن الفرات . وكـان أسد فقيهاً جليلاً ولد سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩م فى العراق ثم قدم به أبوه ـ وكان من رجال الحرب ـ مع القائد محمد بن الأشعث واستقر فى القيروان وهناك نشأ أسد واتخذ طـريق العلم فدرس على شـيوخ بلده ، ثم رحل إلى المشرق فى طلب العلم سنـة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م فـدرس فى العراق على أصحـاب أبى حنيفـة النعمان ، ثم على أصحاب مـالك فى المدينة ، ودرس الموطأ لمالك ، ثم درس على محمـد بن القاسم فى مصر ، وعـاد إلى القيروان فقيها حسن التكـوين ، فدون مـا سمعه من الموطـأ فى كتـاب سـماه « الأسديـة » انتشر بين الناس ، وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره فى أفريقية . وتولى قضاء القيروان .

وعندما أعلن زيادة الله عن حملة صقلية ، تقدم أسد يطلب التطوع والجهاد جنديا عادياً ، فعرض عليه زيادة الله قيادة الحملة فوافق .

على أى حال كان أسد فى السبعين من عمره عندما جاءته هذه القيادة ، فخرج بالكتلة الكبيرة من القوة الإسلامية من تونس ونزل فى ميناء « مازر » على الساحل الجنوبى لصقلية ، وفى نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت فى ميناء فى أقصى الساحل الجنوبى إلى الشرق يسمى رجوسة ، وذلك لنجدة القائد البيزنطى ، الذى خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد با لمسلمين كما ذكرنا . ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا فى موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة .

كان ينبغى على أسد بن الفرات ، بعد أن تمكن من موقع مازر Mazra أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولى عليها ،وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامى للبلاد ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى أجرجنت Agregenta واستولى عليها . ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى على قصريانة(١) ، ثم اتجه شرقا قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين (فيمى) وحاصر سرقوسة ، وفى أثناء الحصار نزل وباء أصاب الجيش وقضى على ألوف من المسلمين ، من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة فمات فى الوباء . وكانت قد أصابته فى القتال جراحات كثيرة ، وكانت وفاته فى ربيع الثانى ٢١٢/ يوليو ٨٢٨ . والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت واضطرب أمر القوات الفاتحة وخرج الحاكم البيزنطى بيلاتوس وهاجم قصريانة ، فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطرهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا فى حصن قريب منها يسمى مناو ، وأصبح مركزهم حرجاً .

وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح وذلك بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذى لم يتبع الخطة المثلى التى جرى عليها

---

(١) Castrogiovanni وتسمى الآن Enna وهى فى وسط الجزيرة وفى الطريق من مازر إلى سرقوسة على الساحل الشرقى للجزيرة Siracusa .

المسلمون إلى ذلك الحين فى فتوحهم ، وهى الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة ، وبذلك تنتهى المقاومة ويتم الفتح . ومن القواعد المعروفة فى العسكرية أن كل حملة لا تصل فى الدفعة الأولى إلى غايتها ، تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتفقد قوتها تبعاً لذلك .

تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف بفرغوش :

بذلك تحرج مركز المسلمين خاصة وأن خيرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة ، هلك معظمهم فى وباء سرقوسة ، ولم يبق فى الجيش إلا الجند الخراسانى ومتطوعة البربر ، ولم يجد المسلمون فى تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها ، فظلوا متحصنين فى بلدة مناو فى انتظار المدد الذى طلبوه من زيادة الله بن الأغلب ، وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين فى صقلية حرجاً .

فى هذه الظروف نفاجأ بدخول نفر من الأندلسيين جزيرة صقلية ، يقودهم قائد كبير يسمى أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش . ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة ، أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة بين الإسلام والنصرانية فى الجزيرة فأسرعوا لعون إخوانهم . على أى حال نجد أن أصبغ أسرع وهاجم الصقليين والروم المحاصرين لمناو ، وفك حصار المسلمين ، وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامية . واتجه المسلمون ، رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغالبة ، إلى قصريانة وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبغ نحو بلرم وحاصرها واستولى عليها ، وهنا وللمرة الثانية نجد أن الوباء ينزل الجزيرة ويصيب معسكر المسلمين ، وبعد أن تمكن أصبغ بن وكيل من دخول بلرم يصيبه الوباء ويموت شهيداً بعد ذلك بأيام ، وبذلك أتيحت الفرصة أمام البيزنطيين ليستعيدوا قصريانة ويتحرج مركز المسلمين مرة ثانية ، ولكن زيادة الله بن الأغلب تمكن من إرسال قائد جديد .

هذا القائد هو أبو فهر الأغلبى ، وقد قاد المسلمين بنجاح ودخل بلرم وطرد بقية القوة البيزنطية فى الجزيرة ثم توفى ، وتولى بعده أخوه أبو غالب فأتم

الاستيلاء على العاصمة ، وفى تلك الأثناء مات زيادة الله بن الأغلب ، ووصل الخبر إلى صقلية فكادت الحملة تفشل مرة ثالثة . ولكن أبا غالب تمكن من السيطرة على الموقف ، واستقر الأمر للمسلمين فى النصف الغربى من الجزيرة ، وبقى عليهم أن يفتحوا شمالها ونصفها الشرقـى . وقد استغرق ذلك وقتاً طـويلاً ، وفقد حماس المسلمين فلم يتمكنوا من السيطـرة على شبه الجزيرة إلا فى أيـام إبراهيم بن أحمد الأغلبى كما سنرى .

وبينما تعـاقب القـادة والولاة على الجزيـرة تمكن المسلمـون من التقـدم فى الشمال والشرق ببطء شـديـد ، وكانـت جماعات المسلمين تهاجـر إلى الجزيـرة وتستقر فيما فتحه المسلمـون فيها ، فنشأت فى كل مدن الوسط والغـرب جاليات إسلاميـة كبيرة ، وأخذ الإسـلام ينتشر بين الصقليين وبعض من بقى فى الجزيرة من الروم ، أى أن عملية دخول صقلية فى دعوة الإسلام سارت فى طريقها رغم كل شىء .

وكانـت العاصمـة الرسميـة لصقلية الإسـلامية مـدينة بلـرم ، نظراً لجودة مينائهـا وحصانـة أسوارهـا . ولكن مركـز النشاط والعمل كـان فى مدن الشرق والوسط وخاصـة مازر وجرجنت وقصريانة فى وسط شبـه الجزيرة ، وقد انتشر المسلمون فى نواحيهـا وعمروهـا ، وعمروا كذلك معظم مـدنها مثل مازر وجرجنت ورجوسة وسرقـوسة وبعض مدن الساحل الغربى مثل بتشينـة وقطانية وميقش وطبرمين ومسينـا التى تسـمى جبل النار نسبـة إلى بركـان أتنا الـذى يقع إلى جوارها .

وعلى الرغم من أن الأمر فى صقلية لم يستقـر للمسلمين تماماً إلا خلال فتـرة قصيرة ، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئـاً فشيئاً إلى بلد إسـلامى تسوده الحضـارة الإسـلاميـة رغم قلـة أعداد المسلمين فيهـا ، الـذين دخلـوهـا . ولكن الصقليين دخل الكثيرون منهم فى الإسلام واستعربـوا وأنشأوا حضارة إسلامية فى صقلية ، وما زالت آثارهم فيهـا باقية إلى اليوم ، فى هيئة قصور وبقـايا مساجد وحصون ولكن الأثر الأكبر لصقلية الإسلامية هو العمل الحضارى . فقد تحولت بلرم كما قلنا إلى مركـز علم عربى . وفيها عاش وعمل ـ بعـد سقوط صقلية فى يد

النورمان ــ الجغرافى المشهور « **الشريف الإدريسى** » الذى كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر فى مقدمة كتابه « **نزهة المشتاق** » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليابس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أى أنه حَوَّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافى الإنجليزى مركاتور فى القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التى ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التى كان الإدريسى أول من تنبه إليها وطبَّقها . ثم وصف الإدريسى كرة الأرض وخريطتها التى رسمها فى كتابه المشهور « **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسى بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافى مفصل للكرة الأرضية .

وفى أثناء حكم **أبى العباس محمد بن أبى عقال الأغلبى** سنة ٢٢٦ ـ ٢٤٢ هـ / ٨٤١ ـ ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى الذى سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطىء الشرقى للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافى **اليعقوبى** « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » فى العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة فى القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التى هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أى قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفى فى ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٣ يونية ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى فى أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته فى مشاكل وأزمات

وأخطـاء كثيرة . وقـد تمكن من التغلب على معظمهـم ولكن بقيت منهم جماعـات قوية خطرة فى تـونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفـريقية ، كانت من أسبـاب ضعف البيت الأغلبى كلـه فى النهـايـة . وكـان زيـادة الله مشجعـاً للعلم والعلماء . ولا يؤخذ عليـه إلا العنف فى معاملة خصومـه من جند العرب وغيرهم ، مما شـاب حكمه وملأه بالحروب . وقـد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحـانه وتعالى فى يـوم الميعاد وفى صحيفتـه أربعة أشياء : بنـاء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبنـاء قنطرة أم الـربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضـاء . والغـريب فى الأمر أنه لم يـذكر فى حسناتـه التى سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر فى قرارة نفســه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغالبة جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢م :

هو تاسـع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكـان رجلاً غريب الأطوار ، مر فى حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلى والنفســى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبـادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهـداً فى سبيل الله وهو محاصر مدينة كشنته ، فى شبـه جزيرة كلابربا فى جنوبى إيطاليا ، وهو فى الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنـوات الست الأولى من حكمه سنـوات رزانة وعقل وحكم صـالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصـة أنه قد صرف جهداً كبيراً فى المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصـور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصـور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجـاهديـن المتطوعين الـذين يسمـون أيضاً بـالمرابطين . ولـذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفـرد رباط واللفظ قرآنى من الآية التى تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعـداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصـور أو الأربطة فى كـل مدن السواحل فى أفريقيـة وصقلية حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامـع الزيتونة فى تونس الذى بدأه أبـوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهـو من أعظم مسـاجـد الإسلام وبنى جنـوبى القيروان مدينة **رقادة**، وهى مدينـة ملوكية تضم القصـور والحدائق وصهاريج

الماء . ومن هـذه الصهاريج واحـد سمى البحر ، طـوله خمسمائة ذراع وعـرضه أربعمائة ، وإليه ينسب الماجل العظيم كما يسمى ، والجمع مـواجل ، والماجل هو حوض ماء يبنى بالحجر ليتجمع فيه مـاء المطر ، وما زلنا نرى فى خارج القيروان إلى يومنـا هذا مـواجل الأغالبة . وهى من أجمل آثـار البلاد ، وقـد اكتملت فى أيام إبراهيم بن أحمد سلسلة المحارس على الشواطىء . وكانوا ينشئون فى كل محرس برجاً للنـار لإرسال الإشارات ، فكان الخبر يصل إلى أقصى البـلاد من بجاية على الساحل الشمالى لجمهـورية الجزائر الحاليـة حتى طرابلس فى أقل مَن ليلـة . أما بالنهـار فكانت الإشارات ترسل بـالدخان ، فكانـوا يوقدون فى النواطير أخشـاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يُرَى من بُعْد .

بعد ذلك نجد أن هذا الرجل يصاب بمـرض عصبى تختل معه أعماله ونظرته إلى الأمور . والمؤرخون يقولون إن « دماغه جفت » وهو تعبير غير مفهوم ، والمهم أن ذلك الرجل امتنع عليـه النوم وزادت مخاوفه ، فأقبل يقتل النـاس لأقل ريبة ، وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنـوات حتى خافه الناس وقـرروا خلعه ، وبعثوا إلى الخليفة يشكـون من أعماله ويطلبون عـزله ، ولكنـه تنبه لنفسه شيئـاً فشيئاً قرب نهاية حكمه . ويبدو أن الذى نبهـه هو الخطر الفاطمى ، ففى ذلك الحين كان أبو عبـد الله الشيعى داعى الفـاطميين قد ثبت أقـدامـه فى منازل قبيلـة كتامـة التونسية ، وبـدأ يغير على بلاد الأغالبة فخاف إبـراهيم بن أحمد وعاد إلى رشده ، وأصلح من أمر نفسه واجتهد فى لم شعث إمارته .

ولكن الخليفة العباسى أرسل إليه أمراً بالنـــزول عن الحكم وتوليـــة ابنه أبى العباس عبد الله مكانه .

حضارة أفريقية والمغرب أيام الأغالبة :

قلنا : إن بنى الأغلب كانـوا تجربة جديدة فى حكم ولايات الدولـة العباسية ، وإن كانت استمراراً لتجربة آل أبى حفص عمر بن قبيصة المهلبى ، وإلى حد ما تعتبر التجربة ناجحة ، فخلال القرن من الزمان تقريباً الذى دامته دولة الأغالبة ، تقدمت البـلاد تقدماً كبيراً محسـوساً ، وازدهرت المدن وأخـذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية ، فازدانت بالمساجد والمنشآت

العامة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار الناس وما إلى ذلك .

وإذا كان العصر الأغلبي قد بدأ سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠ م والبلاد فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب البلديين ، فقد انتهى والبلاد موحدة تحت لواء السنية ، فلا نجد الخوارج إلا فى أقصى الطرف الغربى لبلاد الأغالبة بل فى إقليم تاهرت فى المغرب الأوسط ، ولم يكن داخلاً فى دولتهم ، وكذلك كانت هناك جماعات إباضية صغيرة فى بعض نواحى طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ، ولكنها لم تعد تشكل متاعب أو مصاعب للحكام .

وقبل الأغالبة لم تكن هناك شخصية واضحة لأفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما فى ذلك القيروان ، والمدينة الوحيدة التى كان لها طابع مدينة هناك كانت تونس التى احتلت بسرعة مكان قرطاجنة فقد كانت فيها مبان ودار صناعة وأسواق . وكان أهلها من الجند العرب يشعرون بامتيازهم دائماً ويرفضون الخضوع للقيروان .

وقد كان لبعض المهالبة اهتمام بالأبنية والمنشآت . وكان ليزيد بن حاتم دور كبير فى تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها ، وكذلك اهتم هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ، ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية والمغرب الأوسط .

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجدى القيروان وتونس الجامعين ، وهما مسجد عقبة ومسجد الزيتونة ، وإعطاؤهما صورتهما الباقية إلى اليوم . وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناه عقبة بن نافع بناء بدائياً ، ثم جدده حسان بن النعمان وأكمله حنظلة بن صفوان ، ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية ، كان زيادة الله بن الأغلب ، فقد أنفق فى ذلك مالاً جزيلاً طوال سنوات كثيرة . وكان يقول : « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى حصن مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء أفريقية » . وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة فى جامع

تونس الذى كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بنــاه سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢م ، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلبى ، فهو الذى أعطاه صورته البديعة التى يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزيَّنه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، وهذا الرجل هو الذى أمر ببناء القبة الكبيرة فى جامع القيروان ، وهى من أجمل القباب فى تاريخ المساجد .

وكان الذى بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية فى أفريقية . أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط فى أفريقية ، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها ، ويذكر لهم التاريخ دارين عظيمين للصناعة : إحداهما فى تونس والأخرى فى سوسة ، وقد كتب كل من الدارين صفحات مجيدة فى تاريخ النشاط البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط .

ومن نماذج المنشآت العسكرية فى عصر الأغالبة الرباطات ، وهى شبيهة بالقصور التى ذكرناها ، ولكنها كانت تخصص للمجاهدين والمرابطين ، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد ، وحاميات رسمية ، ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات .

ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقى لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة ، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب . وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر ، وطول ضلع سوره ٤٠ متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات ، مرفوعة على عمد ، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدى بعضها إلى بعض ، وهى تستعمل للنوم والأكل ، ويليها صحن الرباط ، وهو مساحة واسعة مسورة

تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهى تفتح أو تطل على صحن الرباط وفى ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط .

وشبيه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة ، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة ، والرباط طابقان يخصص الثانى للحراسة والعبادة ، وفى العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذى يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

وفيما يتعلق بالعمارة المدنية أشرنا إلى مدينة القصر القديم التى بناها إبراهيم ابن الأغلب على نحو ٦ كيلو مترات جنوبى القيروان ، لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ، وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة . ولم يبق من آثار هذه المدينة شىء ، وكانت قد سميت بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً لها عن القصر الجديد ، وهو مدينة رقادة التى بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ/ ٨٧٨م وقد ذكرناها .

وكانت لبنى الأغلب عناية ببناء صهاريج المياه وجبابها ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا فى باطن الأرض ، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متراً وعمقها نحو العشرين، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المطلى بالبلاط الذى لا تؤثر فيه المياه ، وقد بطن بالرخام ، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك ، فإذا اكتمل جعلوا له سلالم تؤدى من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء فى الغرفة أو القبو السفلى عند الماء ، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء ، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما عدا المداخل وفتحات السلالم . وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات فى السقف تشبه الآبار ، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء جمع دلو ، أو يهبطون بأنفسهم بالسلالم .

وأكثر الأغالبةُ كذلك من بناء المواجل وهى أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات ، ويتجمع فيها ماء المطر ، وهى دائماً مكشوفة وقد يقام فى وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة ، ومواجل القيروان وتونس وسوسة تعتبر من

الآثار الجميلة التى تستحق المشاهدة . ويطيل المؤرخون الحديث عن القصور والمنشآت التى بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبى فى مدينته المسماة « رقادة » ويقولون: إن قصراً منها كان يسمى بغداد وآخر يسمى المختار . وفى هذه المدينة الملوكية أنشأ زيادة الله بن أبى العباس عبد الله ، وهو المعروف بزيادة الله الثالث ، وهو آخر الأغالبة ، بركة أو ماجلًا ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة . وأجرى إليه الماء بالسواقى ، وسُمِّى هذا الماجل الفسيح بالبحر ، وأنشأ على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه « العروس » وأنفق فى إنشائه ٢٣٢,٠٠٠ دينار ، وما كاد القصر يتم وينتقل إليه ، حتى رحل عنه هارباً إلى مصر ، فقد كان أبو عبد الله الشيعى ، داعى الفاطميين ، قد استولى على معظم بلاد الأغالبة ، وعندما استولى على الأربس على بعد أميال قليلة من القيروان ، ترك هذا الأمير بلاده وملكه ومضى ، ولم يكن يستحق الإمارة على أى حال ، فقد تولى العرش بمؤامرة دبرها ضد أبيه وقتله ليرث ملكه .

الحياة الاجتماعية والفكرية فى عصر الأغالبة :

لا بد أن نلاحظ أن ما تحدثنا به المراجع من الثورات والحروب الداخلية التى امتلأ بها تاريخ الأغالبة ، لم تكن تمس الحياة العامة للبلاد إلا فى حالات قليلة ، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون ، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية فى طريقها ، دون أن تعطى اهتماماً كبيراً للمنازعات والمنافسات ، بين أهل الحكم أو أهل الحرب ، إلا فى حالة ما إذا دار القتال فى المدن أو فى المزارع ، ونستطيع أن نقول : إن حياة الناس فى المدن والأرياف سارت فى طريقها ، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التى سادت طوال العصور الوسطى ، ولكنها سارت بصورة ما ، فأخذت حياة الناس فى ذلك المجتمع الافريقى طريقها وصورها التى ثبتت عليها بتوالى الأجيال .

ومن خلال تفاصيل كثيرة ، وردت إلينا فى تراجم العُبَّاد والزهاد والفقهاء وأهل الفكر وتراجم الشعراء وأهل الأدب ، ثم حوليات التاريخ نرى كيف انتظم المجتمع الأفريقى فى القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وغيرها ، على نحو يشبه

ما نعرف فى المجتمعات الإسلامية فى تلك العصور ، وتحمل فى نفس الوقت الطابع المميز للبيئة الأفريقية .

هنا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيروانى محلى ، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من المياسير وأهل الصناعة ، ونرى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب ، وقامت فيها حلقات الدرس فى المساجد ، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفى هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير فى العالم الإسلامى كله من أمثال **أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبى عثمان سعيد بن الحداد** وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً .

وهؤلاء الشيوخ كانوا فى نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بنى الأغلب رغم حياتهم الطويلة فى أفريقية ، لم يصلوا أبداً إلى الاندراج فى حياة البلاد ، وظلوا منعزلين فى عواصمهم الملوكية مثل القصر القديم والقصر الجديد المسمى أيضاً « رقادة » ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وهؤلاء بدورهم ما كانوا ليتصلوا بالحكام إلا فى حالة الضرورة القصوى ، لأنهم بصفة عامة كانوا يرون أن أهل الحكم ظالمون فى جملتهم وأموالهم حرام ، ولا ينبغى للرجل التقى أن يصيب من هذا المال . ولهذا كثر اعتذار الفقهاء عن تولى القضاء ، وفى أكثر من حالة نجد رجال الشرطة يقودون الفقيه إلى المسجد ويرغمونه على القيام بالقضاء .

وهنا تبرز شخصية **سحنون** واسمه الكامل أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخى ، فقد كان رجلاً لبقاً ذكياً ينتسب إلى بيت عريق وتصدَّر للإفتاء والتدريس فى جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وكان ذا مكانة عالية عند الحكام ، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأول وتوفى سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٨ م وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبابرة ، وتعرَّض

للأذى على يد زيادة الله الأول الذى اشتدت محنة خلق القرآن فى أيامه، وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان القضاة ، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن ، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب ، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم ، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة ، وقد تولى سحنون ـ الذى ولى القضاء بعد المحنة ـ الانتقام من عبد الله بن أبى الجواد القاضى الأسبق الذى امتحن القضاة وآذى بعضهم ، فجلده حتى مات . وقد ندم سحنون على ذلك ندماً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبى الجواد إلى آخر أيامه .

وإلى سحنون ينسب أحسن تدوين عُرِفَ للسماع عن مالك بن أنس وهو المعروف « بالمدونة » ، وهى كتاب فقه على المذهب المالكى ، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً فى نفس الوقت . وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامى .

وكان طلاب العلم كثيرين ، والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الضياع ، وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهد ، ومع أننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فاخرة كما نجده فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر ، إلا أن الرخاء كان سائداً والخير وافراً ، فلا نسمع عن مجاعات أو فقر شديد إلا فى النادر ، وذلك يرجع إلى وفرة الأرض الزراعية فى أفريقية وقلة السكان .

وكان الناس يزرعون كثيراً من الزيتون والقمح والفول والشعير ، وكانت المزارع متسعة وآمنة ، ونسمع كثيراً عن المحاصيل وأسعارها فى القيروان وتونس. وقد اشتهرت أفريقية فى ذلك العصر ، وكل عصر ، بالزيتون والفواكه ، ونخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رَخيَّة ، ولدينا كذلك ما يدل على أن مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة فى مدن أفريقية كلها ، وأن أفريقية كانت تسير رغم كل شىء فى طريق تقدم فكرى ومادى محسوس ، فكان هناك أطباء ذوو مكانة كبيرة ومستشفيات تسمى « بالدمنات » ، وكان الناس يتبرعون لها بالمال الكثير وكذلك كانت عناية الدولة بها كبيرة .

وتدل الإنشاءات الكثيرة التى ذكرناها على أن الهندسة والعمارة كانتا فى مستوى رفيع ، وفى نهاية العصر الأغلبى ، وخلال حكم إبراهيم بن أحمد بالذات أصبحت القيروان من عواصم الفكر والحضارة فى العالم الإسلامى .

ولا نعلم شيئاً عن الأحوال الاجتماعية فى الناحيتين الأخريين اللتين تكونت منهما دولة بنى الأغلب وهما طرابلس وبلاد الزاب ، فالأخبار قليلة أثناء ذلك العصر عنها ، ولكن صورتها ستتضح فيما بعد ، أى خلال القرن الخامس ومابعده بفضل كتابات رحالة كثيرين أولهم **اليعقوبى** ثم ابن **حوقل النصيبى** .

والخلاصة أن العصر الأغلبى على قصره يمثل فترة انتقال حاسمة فى تاريخ أفريقية ، فقد انتقلت أفريقية من قطر مضطرب غير واضح المعالم ولا محدد التكوين البشرى والفكرى ، إلى بلد واضح المعالم والسمات ، له مدنه الزاهرة ومدائنه العامرة تزينها المنشآت الكثيرة ، وله ريفه الفسيح الذى ينتج غلات وفيرة ، وسكانه الأفريقيون الذين نتجوا عن اختلاط العرب والبربر ، وممن كان يفد باستمرار من الخراسانيين والأندلسيين ، وظهروا من أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) شعباً إسلامياً عربياً مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامى فى عصره الذهبى .

دولة الرستميين فى تاهرت :

الطريف فى تاريخ المغرب الإسلامي أنه يقدم لنا سلسلة من التجارب فى ميدان الحكم والتنظيم ، لا نجدها فى غير المغرب من بلاد الإسلام . وقد رأينا كيف أن كلاً من دولة المهالبة وبنى عبد الرحمن بن حبيب والأغالبة كانت تجربة سياسية تختلف كل منها عن الأخرى أكبر اختلاف ، كذلك سنرى أن تجربة الرستميين فى تاهرت ، لم تكن شيئاً جديداً فعلاً فى تاريخ المغرب فقط ، بل فى تاريخ الإسلام العام ، فللمرة الأولى نجد أنفسنا أمام تجربة إقامة إمامة إباضية خارجية ، فقد كان الخوارج ينادون دائماً بالدولة المثالية ، وكانوا يسمونها إمامة لا خلافة ، لأن الخلافة فى نظرهم غير شرعية ، لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه . وإنما تحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها ، إماماً يقودها فى طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية . وكانوا ينتقدون

غيرهم من المسلمين لأنهم ينشئون دولاً تخالف - من حيث التكوين والروح - ما يقضى بـه الإسلام . ثم جـاءت فرصتهم عنـدما أتيحت لـواحد منهم وهـو **عبد الـرحمن بن رستم** الفـرصة لينشـىء دولـة مستقلـة على المبـادىء الإباضيـة . وسنرى كيف سار فى بناء هذه الدولة وبأى نتيجة خرج .

تنسب الخارجية الإبـاضية إلى **عبد الله بن إبـاض التميمى** ، وكان ينـادى بمذهب الأباضية الذى يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة .

لم يستطع عبـد الله بن إبـاض أن يحقق حلمه فى إنشـاء دولـة أو إمامـة على المذهب الأباضـى فى المشرق ، ولكن أحد تلاميذه ، وهو **سلمة بن سعيد** ، ذهب إلى المغرب وتبين أن هنـاك إمكانيـة لإنشاء نظـام إباضـى فيـه ، لأن سلطان الـدولة العباسيـة ومن يمثلونها فى المغرب لم يكن يتعدى غـرباً مجرى نهر شلف ، وفيما يلى ذلك إلى المحيط ، كانت بلاداً لا يحكمها فى الحقيقة حاكم ، وإنما استبد بأجزاء منها حكام من رؤساء البربر المستعربة أو العرب البلديين . الذين وصلوا إلى هناك واستقروا واندرجـوا فى أهل البلاد . ومعنى ذلك أنه كان هنـاك فى الجناح الغربى لدولة الإسلام فراغ سياسى يتيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من المتحمسين لإنشاء دولـة بعيـدة عن متنـاول خلفـاء بنى العباس ، كـذلك لم يكـن لخلفاء بنى العبـاس أو ولاتهم سلطـان على جبل نفوسـة ، وهـو منطقـة جبلية واسعـة جنوبـى طرابلس . وكـان جبل نفوسـة جبلاً واسعـاً حصيناً وعر المسـالك كثير الزروع ، تشبثت بـه جماعات من الخوارج الإباضيـة ، وقد أشرنا إلى مـا كان من صراع بينهم وبين المهالبـة أولاً ثـم الأغـالبة ، وذكرنـا كذلك كيف أن زعيمهم **أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى** تمكن ، فى سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م ، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاثوا فيها فساداً ، عندمـا دخلتها قبيلـة ورفجومـة الصفريـة فنهض أبو الخطاب وتمكـن من طرد الصفرية من القيروان وأقام عليها عبد الـرحمن بن رستم عاملاً ، ثم عاد إلى بلاده فى جبل نفوسة .

ولكن الدولـة العباسيـة أرسلت فيما بعد قوة عسكـرية ، يقـودها **محمد بن الأشعث** ، استطاعت أن تهزم الخوارج الإبـاضية قرب تـاورغا قـريباً من صرت ،

سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١م واستطاعت أن تخرجهم من القيروان وتقتل أبا الخطاب . فَفَرَّ عبد الرحمن بن رستم ومن معه غرباً ، وعبروا نهر شلف ووصلوا إلى منطقة جبلية تقع إلى الجنوب من الجزائر الحالية ، وهناك ثبتوا عند بلدة حصينة وسط الجبال ، تسمى تاهرت . ووجدوا أنه لا يوجد هناك حكام أو نظام حكومى يقف عقبة فى سبيلهم ، إنما كانت هناك القبائل البربرية تعيش عيشتها الحرة البسيطة التى عاشتها من آلاف السنين رغم إسلامها . وكانت هذه القبائل حسنة الإسلام ، ولكنها كانت فى حاجة إلى من يوحد بينها ويقيم بمعاونتها نظاماً سياسياً مستقلاً عن طاعة الدول الكبرى ، فرأى عبد الرحمن بن رستم أن ينشىء هناك الإمامة الخارجية الإباضية التى طالما حلم بها ، وعمل رجاله على نشر المذهب الإباضى فى هذه النواحى ، فتكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة ، وبالفعل ، أخذ عبد الرحمن بن رستم ينشىء دولته على المبادىء الإباضية .

وعبد الرحمن بن رستم من أصل فارسى كما تقول المراجع . فقد كان أبوه بهرام من موالى عثمان بن عفان ، ونشأ هو نشأة عربية إسلامية ، فدرس فى البصرة ، وهناك أخذ المبادىء الإباضية وانضم إلى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، وانتهى به الأمر إلى المغرب حيث أصبح الذراع الأيمن لأبى الخطاب . وبعد موت هذا أصبح هو الإمام المعترف به للإباضيين فى المغرب .

كان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختياراً سليماً ، لأن هذه البلدة كانت تقع وسط الجبال ، فلا يمكن الوصول إليها من ناحية الغرب أو الشرق بسهولة ، فكانت حصينة من هاتين الناحيتين وآمنة من أى غزو من هذه النواحى ، ثم إن المدخل إليها من الجنوب كان سهلاً ، أى أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحاً يُمكِّن أهلها من الاتصال بالإباضية فى جبل نفوسة ، والاعتزاز بالقبائل الصحراوية الكثيرة التى كانت تتخذ هذه الجبال مصيفاً ونواحى الصحراء مشتى لها . ومن المعروف أن القبائل البادية تقضى الشتاء فى الوديان ، حيث الجو دافىء والأعشاب والمياه متوافرة ، فإذا جاء الصيف صعدت بقطعانها إلى الأعالى هرباً من الحر الشديد ، والتماساً لأراض يكون فيها ماء وعشب . ولم يقتصر الأمر فى ذلك على قبائل البربر ، بل إن قبائل العرب أيضاً كانت لها مصايفها ومشاتيها فى حدود مجالاتها .

ولكن تـاهرت كـانت صغيرة وكـان عبد الـرحمن فى حاجـة إلى حصن كبير ، فصعد الجبل فـوق تاهـرت القديمة حتى وجـد منفسحاً من الأرض وافـر المياه ، وأخذ ينشـىء مـدينة جديـدة هى تاهرت الجديدة ، وبنـاها على ضفة نهير غـزير المياه ، وحصّنها بأسـوار ، وأنشأ فيها مسجداً جامعاً ، وأقام إمـامة إباضية ، أى جماعة إسلامية تحكم بناء على مبادىء الإبـاضية من الأخوة والمساواة التامة بين أفراد الجماعة والتقى ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

كان الذين انتخبـوا عبد الرحمن بن رستم شيوخ الإباضيـة ورؤساء القبائل التى دخلت مفهوم هذا المذهب ، ويقول الشماخى وهو مؤرخ الإباضية فى المغرب: إن الناخبين راعوا أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهى :

١ ـ **الفضل** : ويراد بـه العدالـة ، وهى عنـد الإباضيـة جماع صفات الكمال الأخلاقى ، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس .

٢ ـ **العلم** : إذ أن العلم الكامل بـالإسلام وعلومـه ، شرط أساسى من شروط الإمامة عند الإبـاضية ، ويعرفونه بأنه العلم الـذى يوصل إلى مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة .

٣ ـ **الـوصية** :ويـراد بها إيصاء الإمـام القائم بمن يخلفـه ، ولا تكون هـذه الوصية فرضاً ملزماً للاتباع ، وإنما هى توجيه ، وقد قلدوا فى ذلك ما فعله أبو بكر قبل موته عندما أوصى لعمر رضى الله عنهما ، وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبـوا من بينهم خليفة ، وبالفعل كان إمام الإباضيين يختـار ستة من كبار أصحابـه يسمون أهل الشورى . وكـان عليه أن يستشيرهم فى كل ما أهم الإمامة من الشئـون ، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد .

٤ ـ **ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده** : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية فى فرض سلطانـه على الناس ، وكان انتخاب الإمـام على هذه الأسس لابد أن يتم على أساس الشـورى ، أى حرية الرأى والاختيـار . فإذا توفى الإمام أو شغـر منصبه لسبب من الأسبـاب اجتمع شيـوخ الجماعـة الإبـاضيـة ورشحـوا نفـراً منهم ، ويستحسن أن يكـونوا ستـة ثم يجتمع الستـة ويختارون واحـداً منهم إمامـاً ،

والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق ، ولا هى ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق .

هكذا قامت تجربة سياسية جديدة فى تاريخ المغرب والإسلام ، وهى تجربة إقامة دولة على نظام يمكن أن نسميه جمهورياً ، نعم ، لقد حاول الإباضية قبل ذلك إقامة إمامة فى عُمَان ، ولكن الأمر هناك لم يَجْرِ على تلك الدقة المذهبية التى جرى عليها **عبد الرحمن بن رستم** وأصحابه . وبالفعل انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً على هذه الأسس ، وسار فى الناس بالعدل ، واهتم كثيراً بشئون الدين كما ينبغى أن يكون ، لأن عبد الرحمن بن رستم كان رجلاً صادق التقى والورع واسع العلم ، وقام بحماية جماعته وإشاعة العدالة فيها ، فتوافد الناس على تاهرت من كل ناحية ، فكبرت وعظم أمرها ، ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين إليها ، وكان لكل جالية حى من أحياء البلد ، فهناك الكوفيون والبصريون والمصريون والقرويون أى القيروانيون والأندلسيون وما إلى ذلك ، وكلهم كانوا يعيشون فى أمان ويعملون بنشاط فى ظل عبد الرحمن ، الذى كان فى الحق إماماً وقائداً صالحاً يتميز بسعة العلم والحلم وعمق الإيمان . فنجحت تجربته . ولكن عمره فى الإمامة لم يطل ، إذ توفى بعد ثمانى سنوات من الحكم سنة ١٦٨ هـ/ ٧٨٤م وكان قد أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عيَّنهم بأسمائهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب . وبعد مناقشات طويلة بين أفراد تلك الهيئة ، انحصر الاختيار بين **عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسى** ، ثم انسحب مسعود وبقى عبد الوهاب فتولى الإمامة .

هكذا وبصورة طبيعية إلى حد كبير ، غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى ، وربما كان عبد الوهاب أصلح الباقين ، ولكن كونه ابناً للإمام السابق هو الذى رجح كفته . ويقال كذلك أنهم هددوا مسعوداً الأندلسى ليرغموه على الانسحاب . ومعنى ذلك أنه على الرغم من تحمس الإباضيين لمبدئهم وإنكارهم على غيرهم الأخذ بمبدأ الوراثة فى ولاية أمور المسلمين ، رغم ذلك أخذوا بمبدأ الوراثة ، وفى الواقع كانت تلك طبيعة العصر وأخلاق أهله ، لأن اختيار الإمام على مبدأ الشورى أى الانتخاب كان يتطلب نضجاً سياسياً بعيداً عن روح العصر ،

ومن ناحية أخرى كان مبدأ الوراثة متأصلاً ، من أحقاب متطاولة ، فى نفوس الناس واتباعه أيسر عليهم .

وكان من الطبيعى أن ينشق فريق على الإمام الجديد ، منكراً عليه الوصول إلى الإمامة عن طريق الوراثة ، فنشأت فرقة تسمى « النكارية » أى المنكرين لإمامة **عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم** ، وفرقة تسمى « الوهبية » أى أنصار عبد الوهاب ، وقام الصراع التقليدى على الحكم ووقعت الحرب ، وانتهت بمقتل قائد النكارية على يد **أفلح بن عبد الوهاب** ، وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء المثاليين على مسألة وراثة الحكم . ولم ينته أمر النكارية تماماً بهزيمتها ، بل بقيت منهم جماعات متفرقة فى القبائل ، ومن بين هؤلاء سيظهر **أبو يزيد مخلد ابن كيداد** الثائر الإباضى النكارى على خلافة الفاطميين فى المغرب .

وسارت الأمور فى دولة الإباضية فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من إباضية جبل نفوسة ، سيراً وسطاً بين الالتزام بمبادىء المذهب والانحراف عنه ، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم . وأصيبت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة ، الذين أقاموا على أنفسهم إماماً من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية ، وطبّق إباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضاً ، وقد لقى منهم أفلح بن عبد الرحمن بن رستم عنتاً شديداً ، ولكن جماعتيهم فى تاهرت وجبل نفوسة استمرتا تغالبان المتاعب والازمات دهراً طويلاً ، وانفصلت منهما جماعات إباضية أخرى ، مراكزها فى جزيرة جربة وغدامس ووارﻛﻼ . وفى كل موضع من هذه قامت إمامة إباضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها ، وتحولت مع الزمن إلى وحدات اجتماعية واقتصادية ذات علاقات خاصة بين أفراد بعضها وبعض ، وما زالت بقايا الإباضية إلى يومنا هذا فى إقليم الزاب جنوبى الجزائر .

وكان آخر الأئمة هو **أبو اليقظان محمد بن أفلح** الذى توفى سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٣ م وحكم ٤٠ سنة انتهت سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٤ ــ ٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ، ولكن الدولة تناقصت قوتها فى أيامه ، ومعنى ذلك أن التجربة الإباضية لم توفق إلى تحقيق المثل الأعلى للحكم الذى كانت تتصوره ،

وإن كان ينبغى أن نقـول : إن حكمهم فى إقليم تاهـرت ، كان حكماً عـادلاً نسبياً وأن أحوال النـاس فى جماعتهم ، كانت أسعد بكثير مـن أحوالهم فى ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم .

وقد دامت دولتهم قرناً ونصفاً على وجه التقريب ، وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك ، لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكريـة ضخمة ومـالية كبيرة إلى أمد طـويل . وقد انتهت دولتهم على يـد رجال الدعوة الفـاطمية التى اجتثت كل دول المغرب القائمة فى عصرهـا سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م . وكان الذى قضى على دولـة تاهرت **أبو عبد الله الشيعى** ، الذى مـر فى طـريق عودتـه من سجلماسة بتـاهـرت ، وخرَّبها وقضى على آخـر بنى رستم ، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لأفريقية .

وكـان لـلإبـاضية دور كبير فى إنعـاش التجـارة فى المغـرب الأوسط وبـلاد الصحراء ، فقد ضمت جماعة الإباضية كثيراً من التجار الذين وجدوا الأمن فى ظل الأئمـة . ولهذا تحولت تـاهرت إلى مـركـز تجارى نشيط خـلال القرن الهجـرى الثالث/ التاسع الميـلادى ، فكانت قوافل التجار تدخل من تاهـرت وتتجه جنوباً حتى تصل إلى واحـة الأغواط فى جنوب الجزائر الحاليـة . ومن ثم يتجـه بعضها شرقـاً إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفـوسـة وطرابلس ، ويتجـه بعضـها الآخـــر إلى «واركلا » أو « ورجلا » وكانت مـركزاً تجارياً كبيراً على أبواب الصحراء الكبرى . ومن هذا نفهم كيف تحولت واركلا الى مركز كبير من مراكز الإباضية ، ومن هناك كانت القـوافل تتجه إلى إقليم تافيـلالت وعاصمته سجلماســة ، وهى واحة كبيرة جنوبى منابع نهر المولوية . وفى واحة تافيلالت التى كانت بداية الطريق التجارى الكبير الذى يعبر الصحراء إلى أفـريقية المدارية قامت جماعة خـارجية أخرى . فى هذه الواحات ـ واحات تافيلالت ـ قامت دولة أو إمامة خارجية صفرية متشددة ، أقامهـا قبيل من البربـر المستعربـة وأهل السودان ، يعـرفون **ببنى اليســع بن مدرار**. وعلى الرغم من أن خوارج سجلماسة كانوا صفرية ، أى خوارج متشددين، إلا أنهم كانوا يتعـاملون فى حرية مع تجار الإباضيين ، الذين كـانوا يفدون عليهم من تاهـرت . ومن المعروف أن جماعات التجـار متسامحة فى موضـوع المبادىء

المذهبية لأن الذى يهمهم هى متاجرهم ، ولهذا فقد قام تعاون وثيق بين إباضية تاهرت وإباضية تافيلالت حتى لقد تصاهر بنو رستم وبنو مدرار . أما العلاقات التجارية فكانت وثيقة جداً بين الجماعتين وغيرهم من جماعات الخوارج فى الصحراء . ومن هنا فإننا نجد أنه كان للخوارج فى أفريقية الشمالية أثر كبير فى انتشار الإسلام لأن التاجر السودانى ، الذى كان يريد أن يدخل فى معاملات تجارية مع الإباضية ، كان يجد أن الأفضل له أن يدخل الإسلام على مذهب زملائه التجار . ولهذا قلنا : إن جماعات الخوارج تحولت فى المغرب الإسلامى إلى تحالفات تجار واتفاقات مصالح وروابط اجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن جماعات الصوفية .

ومن الملاحظ أن جماعات المنضمين إلى مذاهب صغيرة قليلة الأتباع ، تتحول إلى جماعات مصالح تجارية ومالية ، وتصبح هذه الجماعات أقليات ووحدات اقتصادية مقفلة على أصحابها ، فهم يتاجر بعضهم مع بعض ويأتمن بعضهم بعضاً ، لأن رئيسهم وهو الإمام ، يحرص على أن تقوم العلاقات بين أفراد جماعته على أساس الأمانة والصدق فى المعاملة . ولا غرابة إذن أن نجد أن قوافل التجار الصادرة من مراكز الإباضية ، التى أشرنا إليها ، أنشأت فى الصحراء الأفريقية كلها شبكة من المراكز التجارية النشيطة ، ومعظمها خارجية إباضية فى الغالب . وفى كل واحة من واحات الصحراء كان الإباضية يقيمون زاوية ، والزاوية كانت مسجداً فى أساسها ولكنها كانت تستعمل مركزاً لتلاقى التجار ، وتستخدم كذلك خانات أو فنادق للمسافرين هناك ، وفى صحن الزاوية كان التجار يقضون الليل ويقومون بمعاملاتهم التجارية . وكان لكل زاوية شيخ هو فى نفس الوقت رئيس الجماعة الإباضية والمكلف بتنفيذ أحكام الشريعة ، وفى العادة كانت تنشىء الجماعة زوايا أخرى فى قرى أو واحات جديدة ، وهكذا شيئاً فشيئاً نشأت شبكة الزوايا الخارجية ، التى كان لها أكبر الأثر فى نشر الإسلام فى الصحراء الأفريقية المدارية ، أى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا ، وكذلك فى السودان النيلى فى مناطق كردفان وواداى ثم فى منطقة بحيرة تشاد نفسها ، التى قامت فيها دول إسلامية أهمها البورنو والكانم .

تلك كانت الخدمة الحضارية الكبرى التى قامت بها الجماعات الإباضية ،

التى نشأت أساساً فى جبل نفوسة وتاهرت والأغواط ووراركلا وسجلماسة ، ثم شملت كل نواحى الصحراء . وعندما غزا العرب الهلالية أفريقية والمغرب فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، زال المذهب الإباضى وحَلَّتْ محله السنة ، فأصبحت مراكز التجارة والزوايا إسلامية سنية ، ولم تبق من الإباضية إلا آثار قليلة فى نواحى « مصاب » أو « مزاب » فى جنوبى الجزائر الحالية ، حيث ما زالت تقوم جماعات إباضية متميزة بطابعها الدينى ، وكذلك فى واحات واركلا والأغواط ثم فى جبل نفوسة ، جنوبى طرابلس الحالية وفى جزيرة جربة فى تونس ، حيث نجد إلى يومنا هذا جماعات إباضية زاهرة .

***

الأدارســـة

من الأخطاء الشائعة القول بأن دولـة الأدارسة دولة شيعية ، لأن مؤسسيها وأمـراءها كـانوا من آل البيت . والحقيقـة أن الأدارسة رغم عَـلَويتهم لم يكونـوا شيعيين ، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأدارسة أو أتباعهم شـيعياً ، فقد كانوا سـنيين ، لا يعرفون الآراء الشيعية التى شاعت على أيام الفاطميين ، ولم يعرفوا فى بلادهم غير الفقه السنى المالكى . ومن البـديهى أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة لأحد ، أما الشيعة فهم أنصـارهم . والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنها كانت دولة علـوية هاشمية ، وهى أول تجربة نجح فيها أهل البيت فى إقـامة دولة لأنفسهم ، وهى من هذه الناحية تهمنا كتجربة سياسية فى سلسلة تجارب الحكم فى تاريخ المغرب ، وسلسلة تجارب أيضاً فى تاريخ الإسـلام العـام ، وهو حافل بهذه التجارب من كل نوع .

ودولة الأدارســة من الدول الطويلـة العمر . فقد قـامت فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجـرى ، ولكنهـا لم تنته تماماً إلا فى أواخر القـرن الرابـع الهجرى (١٠١٠ م) . وقـد عمرت فوق القـرنين ونصف ، أى ضعف ما عمـرته دولتا الأغـالبة والرستميين ، وثبتت لمحنـة الفاطميـة وجيوشـها ، وخـاضت طوال تاريخها حرب بقـاء أو موت مع الدولة الأموية الأندلسية حينـاً وإلى جانبها حيناً آخر ، ولكنهـا مع ذلك العمر الطويل والحيـوية المتجددة ، كـانت دائماً من صغار الدول سواء فى سعـة مملكتها أو قوة أئمتها ، ولكنها كانت من أهمهـا من الناحية الحضارية ، فقد كان لها فى تاريخ المغرب أثـر حاسم فى صياغة مذهب السنة من ناحيـة ، وتعريـب البلاد من نـاحية أخـرى . وقد مـرت بفترات احتضار طـويلة وانتعشت مرات كثيرة .

وكما قـامت دولة الخوارج الإبـاضية فى تـاهرت نتيجـة للطموح السيـاسى لرجال الإباضية ، ورغبة قبائل المغرب الأوسط فى إقامة كيان سياسى لها ، فكذلك قامت دولة الأدارسة على أسـاسين :

الأول: طموح العلويين إلى إنشـاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية .

والثانى : رغبة قبائل المغرب الأقصى فى إنشاء كيان سياسى خاص لهم .

وهذان هما العاملان الرئيسيان فى قيام هذه الدولة ، ولكننا فى كل ما يتصل بالمغرب ودوله ، ينبغى أن نبحث عن العوامل المحلية المتعلقة بالتركيب القبلى للشعب البربرى . وكذلك المتعلقة بطبيعة الأقاليم التى نريد التأريخ لها فى المغرب .

وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى ينقسم من حيث المناطق ذات الوحدة الجغرافية ، التى يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ، إلى ثلاثة أقاليم : **إقليم الساحل الشمالى** المعروف تاريخياً بإقليم طنجة ، ويشمل الشريط الساحلى الشمالى ، ثم منطقة الريف الجبلية ، وهى ليست فرعاً من جبال الأطلس ، وإنما هى فرع من الجبال الأيبيرية ، ويتبعها السهل الواقع جنوبى جبال الريف ويعرف بإقليم الهبط أو إقليم أزغان . **والمنطقة الثانية** حوض نهر سبو ويشمل الجزء الشمالى من ساحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسى ، وهو سهل فسيح يمتد جنوباً حتى يصل إلى حوض وادى بورجرج أو أبو الرقراق ، ويشمل جزءاً كبيراً من السفوح الغربية لجبال الأطلس . هنا نجد المهد الحقيقى لتاريخ المغرب العربى الإسلامى وتلك هى المنطقة الثانية . **والمنطقة الثالثة** هى المنطقة التى تقع جنوب نهر سبو وتشمل حوض نهرى وادى أم الربيع ووادى تانسيفت وهذه المنطقة أوسع وأغنى من المنطقة الشمالية ولأن الجبال تنسحب هنا كثيراً إلى الداخل تاركة سهلاً ساحلياً فسيحاً يسمى ساحله بريف تامسنا شمالاً وريف دكالة جنوباً . وتنقسم إلى الأطلس العليا والأطلس الداخلية أى الانتى أطلس ، وهنا نجد المجال الذى ستنفسح فيه القبائل البربرية الصنهاجية الكبرى، التى أنشأت دولة المرابطين ، والمصمودية التى أقامت دولة الموحدين بعد ذلك . ويدخل فى هذه المنطقة الثالثة إقليم السوس الذى يقع على الساحل بين فرعى جبال الأطلس .

ويحدّ المغرب الأقصى وادى نهر مولوية الذى يصب فى البحر المتوسط ، وإلى الشرق منه قليلاً نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الأوسط .

وتقوم جبال الأطلس حاجزاً بين المغربين الأوسط والأقصى ، ولكنْ هناك ممر

واسع بين الجزء الشمالى من جبال الأطلس وجـزئها الجنوبى ، وهذا الممـر يعرف بممر تازا ، وهو من المواضـع الحاسمة بالنسبة لتاريخ القطرين ، ومن سيطر على ممر تازا سيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الأقصى .

وقد قـامت الحياة السيـاسية فى المغـرب الأقصى أولاً فى الشمال ، فى منطقة طنجة حيث نجد مـركز الوالى العربى الذى كان يحكم هـذه الناحية ، ويحاول أن ينشر سلطانـه عليهـــا ، ولكن قبائل برغـواطة وغمارة ، التى كـانت تسكن هذه المنطقـة الجبلية ، ظلت متمسكـة بمـذاهب دينية منحـرفـة عن الإسلام ، عـرفت بزنـدقة بـرغواطة ، وكـانت هذه الأخيرة ومن تبعهـا ، تهدد كل القبائل المغـربية الأخـرى ، مما حـدا بهذه كلها إلى البحـث عن زعيم يجمع شتاتها ، ويعينهـا على تكوين دولة تقوم بمحـاربة برغواطة ومذاهبها ، وتساعـد هذه القبائل على إنشاء كيان سياسى لها يُؤمِّن مصـالحها ، ويُمكِّن لها من الوصول إلى الرياسة .

كانت الظروف إذن ممهدة لزعامة سياسية فى شمال المغرب الأقصى ، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطة أولاً ، ثم تمكن لها الأخـرى من إنشـاء دولـة وكيان سيـاسى ، أى دخـول ميـدان التـاريخ بحسب تعبيرنا اليوم .

هذا الـزعيم أرادت المقاديـر أن يكون **إدريس بن عبـــد الله بـن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب** ، وهو أحد القلائل الذين نجوا من القتل فى مأساة موضع يسمى باسم « فخ » ، أوقع العباسيون فيه بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن على ، كانوا يدعـون لأنفسهم ويطمحون إلى أن يقيموا لأنفسهم دولة ، وكانت المأساة فى سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٦م فى خلافة الهادى العباسى .

وقد فَـرَّ الناجون من هـذه الواقعة إلى أطـراف البلاد ، وكان من الـذين فروا **يحيى بن عبـــد الله** الـذى هـرب إلى بلاد الـديلم جنـوبى بحـر قـزوين وسبَّب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ، ولكن أسعدهم حظاً ، كان أخاه إدريس بن عبد الله ، هذا الـذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب ، ثم لحق به أخـوه سليمان الذى أنشـــأ لنفسه بمعـاونة أخيه إدريس كيـاناً سيـاسياً فى نواحى تلمسان .

ولا ندرى إن كان إدريس يعلم شيئاً عن المغرب عندما فر إليه ، لكن مولاه راشداً الذى فر معه إلى المغرب كان يقال إنه بربرى الأصل . ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول ، فإنه حتى لو صدق ، لا يمكن أن يكون عاملاً رئيسياً فى قيام دولة ، ولكنه على أى حال وَجَّه إدريس نحو المغرب ، وقد يكون راشد يعرف اللسان البربرى الذى يتكلم به الناس فى هذه النواحى من المغرب الأقصى ، ولكن الأهم من ذلك هو أن راشداً كان رجلاً ذكياً حسن التصرف بعيد النظر ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية دون شك .

تقص النصوص علينا حكاية روائية عن هروب راشد وإدريس إلى المغرب الأقصى ، نجتزىء منها بالقول بأن راشداً وإدريس خرجا إلى المغرب فى زى التجار مع القوافل ، فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفى شخصيته . وبعد رحلة سنتين أى خلال سنة ١٧١ هـ / ٧٨٨ م ، ظهر الاثنان فى طنجة ، وأخذ راشد يدعو لأمير علوى يحمل راية الإسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وكانت دعوة راشد لرجل من أهل البيت كافية لتكسب الأنصار ، ولكن يبدو أن التوفيق لم يكن كبيراً فى طنجة ، وكانت عاصمة المغرب فى ذلك الحين ، وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقى يكمن فى وسط قبائل أوربة ، وكان مركز الجناح الغربى لهذه القبائل فى مدينة وليلى عند قاعدة جبل يسمى « زرهون » ، وتقع فى منتصف المسافة بين فاس ومكناس الحاليتين .

وكانت وليلى مركزاً تجارياً ممتازاً وسوقاً عظيمة للقبائل ، وعرفت فى أيام الرومان باسم Cululis ، وهى من هذه الناحية أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، وأما أوربة فكانت تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الأطلس الأوسط إلى وادى سبو ، وقد عرفنا هذه القبيلة أيام كسيلة ، ورأينا صراعها مع عقبة بن نافع ثم زهير بن قيس . وتدخل فى هذه القبائل مجموعة غمارة وهى أيضاً قبائل برنسية تمتد فى حوض سبو وإقليم الهبط ، الذى يسمى لهذا أحياناً هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الأطلسى .

نزل إدريس مدينة وليلى فى ربيع الأول ١٧٢هـ/ أغسطس ٧٨٨م وبدأ

يدعو لنفسه ، ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصاراً ، فإن شيوخ أوربة كانوا مستعدين لتأييد زعيم يقودهم فى ثورة للخروج من سلطان برغواطة وينشىء لهم دولة تضاهى دولة بنى رستم فى تاهرت ، وكانت قرابته من الرسول ﷺ كافية لاجتذاب القلوب إليه ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك خبر مأساة « فخ » وما وقع للعلويين فيها من القتل والتشريد ، وهم سلالة النبى الأكرم . لهذا التف الناس حول إدريس فى حماس ، وقام إلى جانبه راشد ، يدبر له الأمر ويجمع له القلوب ، وبعد قليل أصبح إدريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربة ، وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل الساكنة فى هذه النواحى وكانت ناقمة على برغواطة ، وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعاً قبلياً ضخماً مفككاً يحمل عبء برغواطة واستبدادها ، ومع غمارة انضمت إلى إدريس قطع من زواوة وسدراتة ونفزة ومكناسة .

وبقوات هؤلاء استطاع إدريس أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى ، وسار بقواته متنقلاً فى هذه النواحى يُخضِع القبائل أو يتلقى طاعتها ، حتى امتد سلطانه فى أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ، ومن طنجة إلى وادى أم الربيع وهى رقعة فسيحة غنية ، ومهد لدولة يحسب لها حساب .

هنا تنبه **هارون الرشيد** إلى ما يمكن أن ينجم من الخطر من هذه الدولة ، وكان أكثر ما أخافه أن أميرها علوى من أهل البيت ، ولأهل البيت مكان عظيم من حب الناس ، وخاصة بعد الذى جرى لهم على أيدى الأمويين أولاً ، ثم العباسيين بعد ذلك ، وربما كانت هناك مبالغة كبيرة فى تصوير مخاوف الرشيد ، ولكن قيام إمارة علوية فى أى مكان من بلاد الإسلام ، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون .

وتذهب الحكايات إلى أن الرشيد تدارس أمر إدريس مع جعفر البرمكى ، فتبيّنا استحالة إرسال عساكر إلى المغرب ، للقضاء على إمارة إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ولم يجدا أمامهما إلا الاحتيال فى اغتياله بالسم ، فوقع اختيارهما على رجل جرىء يسمى **سليمان بن جرير**

ويدعى **بالشماخ** فحمل السم ومضى إلى المغرب ودخل فى خدمة إدريس وكسب ثقته، ثم تحيل فَدسَّ له السم فى هيئة طيب دخل فى خيشومه كما تقول القصة الشعبية التى نقلها المؤرخون على أنها تاريخ، وانتهى إلى دماغه فغشى عليه وسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه، ثم توفى فى ربيع الأول ١٧٥هـ/ يوليو ٧٩١م. والحكاية لا يمكن قبولها، ولكنها تصوير لاستنكار الناس موت هذا الرجل بعد ثلاث سنوات من قيام دولته، فإن موت الرجال فى عنفوان قوتهم يروع النفوس، وخاصة إذا جاء فجأة ونتيجة لمرض باطنى مجهول.

وهنا تبدو لنا مهارة راشد الذى كان المدبر الحقيقى لهذه الدولة ومحور العمل فيها. ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفى ترك إحدى جواريه، وتسمى «كنزة» حاملاً فاتفق راشد مع رؤساء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد «كنزة»، فإذا ولدت غلاما كان أميرهم. وتسير القصة فيكون المولود ولداً، فيسمونه إدريس على اسم أبيه وبايعوه وهو بعد فى المهد، ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا شيوخ القبائل. وكان عزيزاً عليهم أن يضيع السلطان الذى وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النبوى. ولهذا انتظروا حتى بلغ الغلام عشر سنوات فبايعوه مرة أخرى سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م، واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة.

ثم مات راشد عقب ذلك، فقيل: إن إبراهيم بن الأغلب تحيل فى سمه، وهكذا بقى الغلام إدريس دون راع حقيقى، فقام بهذه المهمة شيخ من شيوخ البربر يسمى **أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى**، فجدد البيعة لإدريس سنة ١٨٧ هـ/ ٨٠٣م، واستمر ولاء القبائل له، وفى سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م — وكانت سن إدريس ١٧ سنة - يختفى أبو خالد من الميدان بتهمة التواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب، المهم لدينا أن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن أو إدريس الثانى، بدأ يحكم مستقلاً بنفسه ابتداء من سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م.

عقب ذلك مباشرة نجد كثيرين من مهاجرة العرب، يفدون على إدريس من القيروان خاصة، ويدخلون فى خدمته. ويتجه نظره إلى الخروج من وليلى، ربما

لأنه كان يريد التحلل من سلطان قبيلة أوربة ، فَدلَّه الناس على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سبو بين جبلين ، يسمى وادى فاس فانشا فيه بلدة صغيرة ، سميت « عدوة ربض القرويين » ، ثم وفدت جماعة من مهاجرة قرطبة وأنشاوا قرية مجاورة ، عرفت باسم عدوة الأندلسيين ، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى إدريس لنفسه داراً فى عدوة القرويين وشرع فى إنشاء مسجد فاس الجامع، وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م ، ودخلت دولة الأدارسة فى الدور الحاسم من تاريخها .

وابتداء من ١٩٧ هـ/ ٨١٢ ـ ٨١٣ م بدأ إدريس سلسلة حملات ، ثبتت سلطان الدولة ، من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسى ، ونشط لحرب الخوارج فى جبال الأطلس . ودارت حرب طويلة بينه وبين البرغواطيين . وفى هذا الدور من تاريخ الأدارسة حمل العبء رجال قبيلتى أوربة وغمارة بشكل خاص ، كما حملت كتامة عبء الدولة الفاطمية فى أول قيامها .

ومات إدريس الثانى فى ربيع الأول سنة ٢٠٢/ سبتمبر ٨١٨ ، بعد أن ثبَّت دعائم الدولة ، بعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسيه من بنى الأغلب خاصة .

بعد وفاة إدريس الثانى نجد ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفاً غريباً وغير معقول ، فيقوم ، بناء على نصيحة جدته كنزة ، بتقسيم الدولة بين أخواته الكثيرين ، وكان المعقول أن يقيمهم عمالاً أو ممثلين للدولة ، ولكنه أعطاهم نواحى الدولة إقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها ، فكان هذا سبباً فى ضعف الدولة وهى بعد لم يكتمل عمرها . ومع أن محمد بن إدريس احتفظ لنفسه بالرياسة واعتبر إخوته أتباعاً له ، إلا أن بعض الإخوة اتجه إلى الاستقلال بناحيته ناسياً أن قوة الدولة الإدريسية تكمن فى ترابط رؤسائها من أفراد البيت الإدريسى العلوى ، الذى كان يتمتع فى قلوب الناس بمكانة جليلة .

وكان التقسيم كما يلى :

القاسم : سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكلتاهما جنوبى تطوان .

وكانت تطوان فى إقطاعه كذلك .

عمر : بلاد الهبط أو هبط غمارة .

داوود : بـلاد هوارة وتسـول وتـازا وما بينهما ، بما فى ذلـك مواطن قبـائل مكناسة وغياثة .

عبد الله : أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ، فى أقصى جنوب المغرب الأقصى .

يحيى : أصيلا والعرائش وبلاد زواغة .

عيسى : مشالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة .

أحمد : مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد فازاز .

حمزة : وليلى وأعمالها .

ابن عمه سليمان : تلمسان .

واكتفى هو بفاس حاضرته وأقـام فيها ، ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلاًّ من أولئك الإخوة الكثيرين ، بلـداً أو أكثر وإقليماً تسكنه قبيلة أو قبـائل ، وكان له الحق فى الاستيلاء على معظم المال الذى يجمع من الناحية .

وكان من الطبيعى أن ينقلب بعـض الإخوة عليه ، وأن يتحـاربوا فيما بينهم ، وقد استعان محمد بأخيه عمر على الثائرين من إخوته وأعطاه أعمالهم ، فاتسعت ولاية عمـر حتى بلغت عند مـوته نصف الدولـة الشمالى والغربى كلـه ، ثم خلفه عليها ابنه على بن عمر بن إدريس .

وعندمـا مات محمـد بن إدريس الثانى سنـة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م ، تـرك دولة مُـفرَّقة مُـقسَّمة وضعيفة .

وقد خلفه ابنه على الأول بن محمد ويسميـه ابن خلدون « حيدرة » ، وحيدرة لقب كان يطلـق على على بن أبى طالب ومعناه الأسـد ، وكان غـلاماً فى التـاسعة ، فحكم تحت وصايـة أقاربـه ورجال الدولـة حتى توفى سنـة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ، وعهد بالأمر إلى أخيه **يحيى الأول بن محمد** .

فى عهد يحيى هـذا بلغت فاس أَوْجَهَـا أيام الأدارسـة ، فقامت فيهـا المنشآت

الكثيرة وامتدت على سفوح الجبال ، وأنشىء جامع القرويين على يد السيدة **فاطمة بنت محمد الفهرى** ، وجامع فاس من مساجد الإسلام المشهورة ، وقد أصبح مركزاً للعلم والدراسة من أول نشأته ، وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ، مثله فى ذلك مثل الجامع الأزهر . ولكن جامعة القرويين أقدم من جامعة الأزهر . وهى عميدة الجامعات الإسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

وبعد يحيى الأول حكم ابنه **يحيى الثانى** وكان شاباً طائشاً غير أهل للحكم ، فثار عليه الناس وطردوه فاختفى ومات فى مخبئه ، واختاروا ابن عمه **على الثانى ابن عمر بن إدريس الثانى** ، الذى كان يحكم جزءاً من الدولة أعطاه إياه أخوه محمد بن إدريس كما قدمنا ، فانتقل الملك إلى فرع عمر بن إدريس ، ولكن على الثانى هذا ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر إلى قبيلة أوربة ، وتولى بعده **يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى** ، الذى صرف وقته فى قتال الخوارج الصفرية من ٢٩٢ ــ ٣١٠ هــ / ٩٠٤ ـ ٩٢٢م حتى قتله الربيع بن سليمان فانتقل الملك إلى **يحيى الرابع بن إدريس بن على بن عمر بن إدريس** ، ويقول ابن خلدون عنه : إنه كان أوسع أمراء الأدارسة سلطاناً وأثبتهم ملكاً ، وفى ذلك مبالغة دون شك .

وفى سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ ــ ٩١٨ م وفى إمارة يحيى هذا أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه **مصالة بن حبوس الكتامى** قائد عبيد الله المهدى الفاطمى وهدفه إزالة دولة الأدارسة ، وانتصر مصالة ، ثم ولَّى على المغرب الأقصى شيخاً من شيوخ البربر وهو **موسى بن أبى العافية** شيخ مكناسة ، وجعله عاملاً على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يُقِمْه أميراً على فاس ، وكان من الطبيعى أن يطمع موسى بن أبى العافية فى أن يحل هو محل الأدارسة فى دولتهم ، وبالفعل تم له ذلك سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ ـ ٩٢٦ م فقام بالقضاء على أمراء الأدارسةالقائمين بالأمر فى بعض نواحى المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة فى جبال الريف تسمى حجر النسر .

إلى هنا ينتهى الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، لأن الباقين منهم سيستجمعون أمرهم فى قلعة حجر النسر ، وتكون لهم نهضة ودولة جديدة على

يد زعيم جديد من أحفادهم الذين اختلطوا بـالبربر اختلاطاً شديداً وأصبحوا من أهل البلاد ، وهو **الحسن بن قنون أو جنون أو كنون** ومعناه « الجميل » .

وهنا نقف بتـاريخ الأدارسة ، لأن الدور الثـانى من تاريخ الأدارســة وهو دور بنى قنــون شديـد التعقيـد ، وهــو شديـد الصلـة بالصراع بين الفـاطميين والأمويين الأندلسيين على مصير المغرب الأقصى .

وفى سلسلـة التجـارب السيـاسية التى مـر بها تـاريخ المغـرب منـذ الفتح الإسلامى ـ وقـد ذكرنا أهمها إلى الآن ـ تعتبر الدولـة الإدريسية الخطوة الأولى فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم ، فللمرة الأولى منذ الفتح تقوم هنا دولة إسلامية ظاهـرة العروبة ، فقد كان أمراء الدولة والكثير من رجال دولتهم عرباً ، ولكن الدولة نفسـها قامت على أكتاف البربر المستعربين ، وخاصــة قبائل أوربــة وغمارة ومكناسة وهــوارة ولواتــة ، فكانت الغلبـة فى هذه الدولة لأولئك البربر ، مما أسرع تعريبهم ، وعجل بقيام المغرب العربى .

وقـد نجحت الدولـة الإدريسية فى القضـاء على الجانب الأكبر من انحرافـات بـرغـواطـة ومــن لَفَّ لفَّهَـا من القبـائل ، وكـان لابـد مــن ذلك لأن العروبــة الصــحيحة لا تستقيم إلا مع الإسلام الصحيح ، ومــن النادر أن تأتلف العروبة مع مذهب آخر غير المذهب السنى البسيط الواضح .

وكان دليل قيـام ذلك المغرب الأقصى العـربى المسلم هو قيـام مدينـة فاس وجـامعها العظيم ، وكما كـان قيام القيروان هــو الخطوة الأولى فى قيـام أفريقيـة الإسلاميــة ، فكذلـك كان قيام فـاس الخطوة الحاسمــة فى قيام المغـرب الأقصى العربى المسلم . فقـد أصبحت فاس مركـزاً رئيسياً للثقافـة العربية الإســلامية ، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى .

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بـدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلاميــة ، وبدأ يتكـون المجتمع العربى المغــربى المسلم ، وهذه نتيجـة ليست بــالهيِّنـة ، إذ إنها تعتبر الخطـوة الحاسمــة فى التغير الكبير الــذى جعل المغـرب الأقصى بلاداً عربية كاملة العروبة والثقافة .

الدولــة الفــاطمية فى المغــرب
٢٩٦ ـ ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ ـ ٩٧٣ م

رأينا أن تــاريخ المغرب فى ظــلال الإسلام ، سلسلــة من التجارب المتنــوعة فى الحكم والإدارة ، وأن أهل المغرب الأصلاء ـ وهم البربـر ـ والعرب الذين استقروا فى البلاد ، أثناء الفتح أو بعده ، وتحولوا إلى عرب أفــارقة أو عرب بلديين ، خاضوا غمار تجارب وصراعـات عنيفة متــواليــة تهدف إلى إقامــة حكم إســلامى فى ذلك القطـر الفسيح ، الــذى استيقظ مع الإســلام من سبات القــرون ، ودخل ميـدان التاريخ يجرب حظــه أو يبحث عن مصيره . ومن ناحيــة أخرى جهدت الحكــومة المركزية ، ســواء فى دمشق أو فى بغداد ، فى السيطرة على هــذه البلاد وتحويلها إلى ولاية إســلامية خاضعــة طائعة ، تــؤدى للدولة مــا يقرر عليها من مــال ، وتدين بالطاعة للوالى الذى ترسله الدولة .

ولم تفلح الدولة الأمــوية أو العباسية فى ذلك ، لأن شعب المغــرب من برقة إلى طنجة وبــلاد السوس ، كــان شعباً بكــراً عفياً ، وجــد نفسه فى الإســلام وتفتحت مواهبــه على عقيدته وشريعتــه ، فأسلمت من جماعات هــذا الشعب أعداد غفيرة ، انضمت إلى جيوش الإســلام الفاتحة ، وأكملت معها فتح المغرب إلى الســوس أيام موسى بن نصير خاصــة ، وأسهمت بنصيب الأسد فى فتح الأنــدلس ، فأصبحت بذلــك أعضاء أصيلــة فى جماعة الإسلام الكبرى ، وطــالبت بنصيبهــا الحق الذى يعطيها الإسلام إياه ، واندست فى صفــوف بعضها جماعات الخوارج تؤلبهم على الدولة الأمــوية ، وتبين لهم حقوقهم التى يمنحهم إياها الإســلام ، فكانت مذاهب الخارجيــة وثورة أفــريقيــة وصراع العرب والبربــر ، وقــامت فى نــواحى أفريقيــة والمغرب الكيانات السياسية المتنوعة ، مابين سنية ، كما نجد فى إقليم أفريقية كله، أو خــــارجية إباضيــة ، كما رأينا فى تجربــة بنى رستم فى تــاهرت ، أو إبــاضية صفرية كما رأينا فى دولة آل مدرار فى سجلماسة ، أو خارجية دون تحديد مذهب ، كما كان الأمـــر مع دولة أبى قرة المغيلى الخارجى فى نواحى تلمســان ، أو سنية

قامت تحت راية نفر من آل البيت ، أو دويلات قبلية ذات مذاهب بعيدة عن الإسلام كما رأينا فى زندقة برغواطة .

وكل هذه كانت تجارب مغربية ، إما خالصة ، أو مغربية عربية اشترك فيها العرب والبربر كما رأينا فى محاولة عبد الرحمن بن حبيب وآله ، وتجربة المهالبة ودولة الأغالبة . كل هذه التجارب ، ما نجح منها وما لم ينجح ، وما طال عمره أم لم يَطُلْ ، وما كان عربياً أو بربرياً ، كانت تجارب ذات صلة بأوضاع المغرب ، أى أنها كانت فى نهاية الأمر تجارب مغربية ، وتجاربها حلقات من الطريق الطويل الذى خاضه المغرب لكى يكتشف ذاته فى النهاية ويتم إسلامه واستعرابه ، ويصبح جزءاً من ذلك العالم العربى الشاسع ، تقوم فيه الدول المغربية العربية التى تحمل جانبها من المسئولية عن الإسلام ، ومصيره فى بلادها وخارجها ، حملاً كاملاً كما سنرى فى دول المرابطين والموحدين والمرينيين ومن عاصرهم وجاء بعدهم إلى يومنا هذا .

ولكن التجربة التى سنوجز الكلام عنها فى الصفحات التالية ، وهى تجربة الدولة الفاطمية وقيامها فى المغرب ، كانت تجربة غريبة عن المسار العام للتاريخ المغربى ، أو قل هى شجرة غريبة زرعت فى أرض المغرب ونمت وارتفعت فروعها فى الهواء حيناً ، ولكنها لم تضرب جذوراً ، ولا أضافت إلى طوائف التجارب السياسية فى المغرب شيئاً نابعاً من تربة تلك البلاد ، إنما هى كانت بذرة عقيمة مشرقية غريبة عن بلاد المغرب ، حملتها أعاصير السياسة والزمان إلى أرض المغرب ، فكان لها فيه شأن ، ثم مضت مخلفة وراءها قلقاً شديداً ودماراً بعيد المدى ، ولكن ورثتها وهم صنهاجة المغرب الأوسط من آل **زيرى بن مناد** عرفوا كيف ينشئون على القليل الذى ورثوه عن الفاطميين ، بناء مغربياً عربياً أصيلاً ، يتمثل فى دولتى بنى زيرى الصنهاجيين الذين سَنُلِمُّ بتاريخهم فى الفصل التالى . والقليل من العلم بشئون السياسة والدول الذى ورثه آل زيرى عن الفاطميين كان غير قويم أو كاف عن إنشاء الدولة وكيف يكون ، ولكن الفاطميين خلفوا لهم أساساً عربياً سليماً كان بعيد الأثر فى تعريب المغرب ، لأن بنى عبيد الله أياً كان الرأى فى نسبهم كانوا عرباً أقاموا فى أفريقية بناء سياسياً ، وكانت فيهم رغم كل

شىء فحولة عربية أصيلة ، وتلك ــ فحسب ـ هى أكبر ما ورث المغرب الإسلامى من تجربة الفاطميين . ثم إنهم ــ أى الفاطميين ـ عندمــا أرادوا إرغام بنى زيرى على العودة إلى الطـاعة قـذفوا على المغـرب بـآل هلال وآل سليم بن منصـور ، فأثاروا فى المغرب أعـاصـير مدمرة . ولكن الأعاصـير عندما هدأت ، كـانت قد نثرت فى المغرب كله بذوراً عربية أصيلة ، كان لها أثر حاسم فى تكوين المغرب الإسلامى العربى .

وقد كان قيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية الكبرى وصراع السلطـان فى المشرق ، لأن بنى العبـاس ، الــذين دخلـوا التـاريخ دخـولاً ضخماً ذا دوى بعيد ، معلنين مجىء دولـة العـروبة والإســلام التى تقيم دولة العدالة والسنــة إلى آخر الزمان ، لم تلبث على حال من القــوة إلا قرناً واحداً من الـزمان ، ثم انتـابتها العلل والفتن والأزمـات ، لأنها انحرفت بأصــول الحكم الإســلامى ، التى تقـوم على الشـورى والعـدالـة والحريـة وكـرامـة الانسـان ، وارتـــدت إلى قواعـد الحكم الساسـانى ، واستلهمـوا عهد أردشير بن بـابك فى أصول الحكم وغايته . وانتهى الأمر إلى وضـع السلطـان فى يد الثالوث المدمر الذى قضى على آل ســاسان : ثـالوث السلطـان أو كسرى فى ثوب الخليفـة ، والوزيـر المدبر لكل شىء باسم السلطـان ، ثم القوة العسكرية المأجـورة بالمال . وفى أثناء صراع الأمين والمأمون تخلى آل العباس عـن قاعدة العروبة إلا بـالاسم ، فصاروا خلفاء عربـاً يسوسهم أجلاف عجم . وعندمــا اكتشف العجم أنهم صولجان الملك وقوتـه ، نحُّوا الخليفة جـانباً . وحكموا بـاسمه واضطـرب الأمر فى عالم الـدولة العباسيــة كله ، وأصبحت وظيفة الإدارة العبـاسية هى جمع المال لإعطـاء الجند التركى فى الغـــالب . وشـــيئاً فشيئـاً ، وخاصــة بعد خـلافة المنتصر بالله بن المتوكل على الله (شــوال ٢٤٧ ــ ربيع الآخـر ٢٤٨ / ٨٦١ ــ ٨٦٢م) ، صــار الوزيـر جابياً للمال أو ملتـزماً بالجبـاية لقائد الجنـد المرتزق ، وتحول العمال ، حكام الولايات ، إلى ملتزمين يجمعون الأموال ويختصون أنفسهم وسادتهم منها بنصيب وافر ، ويبعثون بالبقية إلى الـوزير . وتحول الخليفة العباسى إلى موظف فى خدمة رئيس الجند وإن حمل لقب الخلافة ، فهـو يتقاضـى راتباً يُعيِّنه له الجند الاتراك ويأتمر بأمرهم .

وفى أثناء ذلك ضاعت الرعية ، فلم يَعُدْ أحد يُعْنى بأمرها ، وأهملت المرافق واستولى الخراب على كبار المدن ، وأصبحت بغداد نفسها بلداً مخوفاً يعيش الناس فيه على وجل ، ولا أمل لهم فى صلاح ، أو خير من جانب خلفاء بنى العباس ورجالهم.

واتجه الناس بآمالهم يبحثون عن الحاكم الصالح العادل ، لأن الإسلام دين صلاح وعدل وإنسانية ، ولا ييأس المؤمن قط من عدل الله سبحانه ، مهما ساء أمر الحاكم ، وتجسدت الآمال فى العدالة فى صورة العلويين أى سلالة على بن أبى طالب الذين لقوا من القتل والتشريد على أيدى بنى العباس مثلما لقوا على أيدى الأمويين . وكان العلويون منذ أيام إمامهم العظيم جعفر الصادق بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وهو خامس أئمتهم ، إذا أضفنا إلى أولاد على بن الحسين ، ابنه الحسن ، وهو الإمام الثانى فى سلسلة أئمة آل البيت ، ومنه انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين فعلى زين العابدين فجعفر الصادق ، نقول : إن تفكيرهم اتجه من أيام جعفر الصادق هذا إلى أن يباعدوا السياسة ولا يطلبوا الحكم بسبب ما لقى رجالهم من الأذى فى سبيله .

ولقد ظل جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ملتزماً سمت العلم والعلماء ما عاش ، بل إنه رفض الخلافة عندما عرضها عليه **أبو سلمة الخلال وزير آل محمد** وواحد من أكابر مؤسسى الدولة العباسية ، ولكن شيعة على وآله ظلوا يعلقون آمالهم على آل البيت ، وإذا كان جعفر الصادق قد رفض أن يكون خليفة ، إلا أنه ظل يرى نفسه إماماً فى العلم والفضل ، ووارثاً لعلم جده على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكان أنصار آل البيت يرون أن إمامة آل البيت لا تقتصر على العلم بل تشمل السياسة ، فهم أئمة المسلمين وأولى الناس بالحكم ، وإذا كان جعفر الصادق قد ترك السياسة فقد كان ذلك فى رأيهم تقية أى تقى وورعاً أو اتقاء لأذى العباسيين ، وقالوا إن جعفراً قرر أن التقية مذهبه ومذهب الأئمة أجمعين .

وفى حياة جعفر الصادق حدث ماجعله ينقل الإمامة من بعده من ولده **إسماعيل** إلى ولده **موسى الكاظم** ، ولم يوافق نفر غفير من شيعة آل البيت على

هـذا النقل ، لأنهم قـالوا إن الإمـامـة سر أودعـه الله فى آل البيت ، وهى تنتقل من الإمام إلى ابنـه الأكبر وراثة حتميـة . فظلوا متعلقين بإمـامة إسماعيل بـن جعفر الصادق ، وقالـوا إن إسماعيل هو الإمام المستقر ، وأن موسى الكـاظم أخاه إمام مستودع ، أى أن أباه استودعه الإمـامة إلى أن تعود فتستقر فى إسماعيل وأولاده ، أما مـوسى الكاظم وأبنـاؤه فهم ا لأئمة السبعة ، لأن مـوسى الكاظم عنـدهم هو الإمام السادس ، ثم جاء بعده ابنه الذى استتر ، ولا زالوا فى انتظاره إلى اليوم .

وأما أتباع **إسماعيل بن جعفر** ، فقد جعلوا فيه الإمامـة . ونقلوها من بعده إلى ابنه محمد البـاقر ، ثم إلى أبناء هذا ، إلى الإمام الثانى عشر الـذى استتر خوفاً على نفسه من الأذى ، وسيعـود إلى الدنيا عنـدما يشاء الله ليملـؤها عدلاً عنـدما يصل الفساد مداه ويشاء الله سبحانه إنقاذ الخلق ، وهو عندهم المهدى المنتظر .

وقـد لقيت حكـاية استتـار الإمـام إقبـالاً من نفر غفير من أبنـاء الأمـة ، لأن الإنسـان إذا يئس من الواقـع لجأ إلى الأمل ، وكان العلـويون أملاً ضـخماً تعلقت به قلوب الملايين نتيجة لعجز الدولة العباسيـة عن إقامة الحكم الصـالح الذى بـشر به الإسلام .

وفى خدمة الإمام المستتر قام الدعاة يبثـون الدعوة فى الناس منتهزين فرصة اليأس الشامل الذى ثقل على القلوب . والدعـاة جماعة من أهل الإيمان بإمامة على وأبنائه أو من أهل الطمـوح السياسى والمالى الـذين وجدوا فى عطش الجماهير إلى العدالة والأمن فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الأنصار ، ودخلت فيهم جماعات من الفـرس وغيرهم من أصحاب الآراء الغـريبة عن الإسـلام ، فنشأت فرق الشيعـة الكثيرة التى فصل أمرها النوبختى ، والذى يعنينا الآن هم الشيعة الإسـماعيلية أو الاثنى عشرية ، والفاطميون منهم .

وقد نظم الدعاة أنفسهم على نحو يدعو إلى الغرابة ، فقالوا إن الإمام مستتر فى مكان لا يعرفه إلا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصى ، وهذا الوصى أو وصى الإمام هـو مدبر الدعـوة ومنظمها ، وتحـت يده داعى الدعاة ثم الـدعاة ، وهم مراتب . وأخذ الموضوع صـورة مؤامرة سرية كبرى هـدفها نقـل الخلافـة من بنى العباس إلى آل على .

وقالوا : إن الإمـام كان أول الأمر مستتراً فى فارس ، ثم انتقـل إلى سَلَمْيَةَ قرب حماة ، وهى عنـدهم مركـز الدعـوة . والإمام فيها حصين آمـن له حـرس وعيون وأرصـاد فى قصر الخليفـة وبيوت رجال الدولـة ، وهم يجمعون باسمـه مالاً كثيراً من الناس ، لأن الواحـد من الناس إذا آمن بدعوتهم ، أصبح لزامـاً عليه أن يؤدى الزكـاة للإمـام ، ومهما قل مبلغها ، فقـد كان يتحصل منـه فى أيدى الـدعاة ، من صغيرهم إلى الوصى ، مـال جسيم ليصل بعضه إلى الإمـام المستتر ، فيستعين به على تأمين نفســه من غدر الـدولة العبـاسيـة ، ولقد قيل إن الإمـام المهدى الـذى سيكون أول الخلفاء فى المغرب ، كان يملك أموالاً جساماً ، جعلها فى سراديب تحت الأرض .

المسألة إذن فى أمر الدعوة والدعاة كانت مسألة فيها مخاطرة ولا شك ، ولكن كـان فيها كسب ومـال كثير ، ثم إن قلـوب النـاس كانت مع آل على ، ولهذا كـان النـاس يتسترون على الـدعـاة والشيعـة ، ومن لم يـردعـه تقـاه عن إفشـاء سر العلويين، يردعه المال وكان وفيراً فى أيدى الدعـاة . وكلما زاد أمر الدولة العباسية سـوءاً ، ازدادت دعوة آل البيت قـوة ، حتى أصبح عـالم الإسلام خـلال النصف الثانى من القرن الثـالث الهجرى شبكة سرية واسعـة ، نشأ عنها ما سماه بعض المؤرخين بأكبر مؤامرة فى التاريخ .

ففى بدايـات القرن الرابع / العـاشر الميلادى كانت بـلاد الدولة العبـاسية تموج بالدعـاة موجاً ، وكان أولئك الرجال يجتهـدون فى إشاعة الخوف والقلق فى النفـوس حتى تتعلق الآمال بهم وبما يـدعون ،ولكنهم كـانوا تنظيما سريـا فقط واسع النطـاق دون أن يملك قـوة عسكريـة تستطيع أن تحول التنظيم إلى كيـان سياسى . وكـانت الدولة العباسيـة رغم ضعفها تملك قوة عسكـرية تستطيع أن تحطم أى حركة مسلحة فى أى ولاية محددة مـن ولايات الدولة مثل مصر والشام والعراق وخراسان ، ولهذا اتجهت أنظار رياسة التنظيم الشيعى إلى البحث عن بلد بعيـد عن متناول الـدولـة وعن المسالـك والمداخل ، تستطيع أن تنمو فى داخلـه ، وكـانت أبصارهم تتجـه إلى اليمن . ولكن بـلاد اليمن لم تكن تضم إلا شرطين من الشروط اللازمة لإحداث ذلك التحول وهما وعـورة الأرض وصعوبة المسالك ، مع

البعد الشاسع عن قلب الدولة ، أما الرجال فقد كانت بلاد اليمن حافلة بهم ، ولكنهم كانوا مفرقين شيعاً وأحزاباً وعصائب متعادية ، وقلما اجتمعت قواعد اليمن الكبرى وهي صعدة وصنعاء وتعز وزبيد وجند على رأى واحد ، لا فى السياسة ولا فى غيرها .

ولكن رجال الدعوة وجدوا فى اليمن على أى حال مهداً آمناً يمكن أن يرتكز عليه التنظيم فى البحث عن الرجال الذين يؤلفون القوة العسكرية .

وفى أوائل القرن الرابع صارت الوصاية إلى رجل ذكى يسمى **شهر بن حوشب** استعان بأموال رجل فارسى كاره للعرب يسمى **دندان** ، فاستقر شهر ابن حوشب فى اليمن . واتخذ بلدة تسمى عدن « لاعة » لتكون مركزاً لأعماله ، وهداه تفكيره إلى أن القوة التى يبحث عنها من الرجال يمكن أن توجد فى المغرب مما يلى أملاك الدولة العباسية غربى نهر شلف ، فهناك وحتى المحيط لا سلطان للدولة العباسية ، وهناك شعوب من البربر تمكنت بفضل قادة من العرب من إقامة دول مثل الدولة الإدريسية والدولة الرستمية فاختار داعيين ذكيين يسميان **سفيان والحلوانى** وبعث بهما إلى هناك ،فاستقرا فى المنطقة التى كان يسكنها حلف القبائل البرنسية المسمى بكتامة ، وهو حلف قوى يسكن المناطق الجبلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب ، فلا يفصل منازله عن بلاد بنى الأغلب إلا مجرى نهر شلف .

هذان الرجلان حرثا الأرض بمصطلح الدعوة ، أى أعدا النفوس لقبول فكرة الدخول فى الحركة الشيعية وإقامة دولة لرجل يرتضيه الناس من أهل البيت . وكان الكتاميون قبيلاً ضخماً من البربر البرانس يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة القبائل غربى مدينة الجزائر ويمتدون جنوباً فى جبال الأوراس ، وكانوا قوماً فيهم عدد وقوة وإيمان وتطلع إلى السلطان ، وكأنما حفزهم على ذلك ما تمكن من إنشائه جيرانهم فى المغرب الأوسط من دولة بنى رستم ، وما استطاع إنشاءه فى المغرب الأقصى آل إدريس من دولة قوية غزت بها أوربا وسادت المغرب الأقصى .

ولم يتيسر الأمر لسفيان والحلوانى لأكثر من الحرث ، واحتاج الأمر إلى

صاحب بذر - بمصطلح الدعوة - أى رجل ينشر البذور فى الأرض المحروثة ويرعاها حتى تطلع ، أى رجل قادر على تكوين القوة العسكرية المرجوة .

أبو عبد الله الشيعى :

ووقع اختيار **شهر بن حوشب** على الرجل المطلوب ، وكان بالفعل رجل الموقف والساعة ، ويسمى أبا عبد الله الداعى ، وليس هذا باسمه ، وإنما هو كنية أو تكنية أو اسم حركى كما يقال ، فما معنى أن يقال إن اسمه أبو عبد الله فحسب، أما بقية الاسم وهو الشيعى أو الداعى فصفة ، ولكن الرجل كان له أخ يسمى **أبا العباس المخطوم** ، وهذا أيضا ليس باسم .

على أى حال كان أبو عبد الله الشيعى رجلاً موهوباً فى أكثر من مجال ، فكان ذكياً بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحيلة ضليعاً فى الفقه الشيعى وغير الشيعى ، وعندما عهد إليه فى المهمة ترك له أمر التصرف فى تنفيذها كما تقول المراجع ، ولكننا نشك فى الرواية التقليدية التى تقص عن لقائه لرجال كتامة واحتياله عليهم فى موسم الحج ، والأرجح أن ذلك اللقاء كان على تدبير ، ولكننا لا نملك براهين تؤيد الشك ، ليس أمامنا إلا أن نتبع الدرب المطروق حتى تتكشف لنا الحقائق .

والقصة التقليدية ، التى يرويها القاضى الشيعى **أبو حنيفة النعمان بن محمد** داعى الدعاة فى كتابه الممتع المسمى « ابتداء الدعوة » ، تقول إن هذا الرجل اتجه إلى الحجاز فى موسم الحج ، وهناك أخذ يتقرى ويستقصى حتى وقع على وفد حجاج كتامة ، فجلس إلى جوارهم وأذنه صاغية إلى ما يجرى بينهم من حديث ، وهذا أول ما يشكك فى القصة ، لأن هؤلاء القوم إذا كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك إلا بلغتهم ولهجتهم . والمفروض أن أبا عبد الله الشيعى لا يفهم منها شيئاً ، ولكن القاضى النعمان يريدنا أن نصدق روايته التى يرويها فى أسلوب أخاذ ولغة عربية سليمة ، يمكن أن تكون من أجمل أساليب النثر فى العصور الوسطى ، فيقول : إن أبا عبد الله الشيعى لم يزل ملازماً جوار القوم حتى فهم ما يجرى بينهم من حديث ، ثم تدخل فيه وأخذ يحدثهم عن آل البيت وأمور الفقه حديثاً يدل على علم وتضلع ، وصار يلقاهم فى

كل يوم فيلقى فيهم علمه حتى بهرهم واجتذب قلوبهم ، وكان يظهر مع ذلك عفافاً وورعاً وقناعة وديناً وتعاوناً ، مما زاد الناس فيه محبة .

وعندما توثقت الأسباب بينه وبينهم واقترب موعد الرحيل ، قال لهم إن وجهته مصر ليبحث فيها عن وظيفة معلم ، فهذه فيما زعم صناعته ، ففرحوا بذلك لأنه يتيح لهم فرصة ملازمته والاقتباس من علمه ، فأخذوه فى ركابهم .

وعلى الطريق جرى الحديث هوناً بين أبى عبد الله وأولئك الناس ، وكانوا من خيرة شيوخ قبائل كتامة الكثيرة ، فعرف الكثير عن أمورهم ، وهم لا يعرفون إلا أنه مؤدب فقير يلتمس العيش ، وكان يلقى عليهم السؤال تلو السؤال فى ذكاء وبراعة فيلقون إليه بما فى نفوسهم فى توسع وسذاجة .

وعندما أدركوا مصر ، ودخلوا الفسطاط مضى فى زعمه يبحث عن عمل فلم يجد ، فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم فهم فى حاجة إلى معلم ، فقبل ومضى معهم إلى بلادهم وهم جد فرحون .

وكان أبو عبد الله قد عرف أين سينزل وكيف سيعمل ، وذلك لكثرة ما حصله من العلم بشئون أولئك الناس . وعندما اقتربوا من موطنهم وصاروا على بلد صغير يسمى « ايكجان » فى وعر من الجبل ، عرف أن هذه منازل « سكتاتة » من بطون كتامة ، وعندما مر بفج قريب من ايكجان قال هذا هو فج الأخيار ، وأوهمهم أنهم هم الأخيار ، والفج ممر طويل فى الجبل ، وكان اسم هذا الفج بالبربرية قريباً من لفظ « فج الأخيار » ، فدهش الناس من معرفة أبى عبد الله بذلك ، ثم قال لهم إن اسمهم كتامة ، وهو مشتق من الكتمان ، والكتمان أول شروط الدخول فى الدعوة ، فأعجبهم ذلك مع أن اسم كتامة قديم وجدناه فى سجلات الرومان .

واستقر أبو عبد الله الشيعى فى بلدة ايكجان فى منازل قبيلة سكتاتة من قبائل كتامة ، ونهج فى حياته نهج المعلم الصالح ، فسلك مسلك الطهر والعفاف والديانة ، وأخذ يعلم الناس حقاً حتى اشتهر أمره بالصلاح والعدالة ، فإذا استوثق من مكانته على هذه الصورة أخذ يتحول مرشداً لهؤلاء القوم على طريقة المعلمين الدينيين الذين يتحولون إلى قادة سياسيين ، وهو أمر تكرر حدوثه فى

المغرب، فما كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى غير شيخ صالح من شيوخ الإباضية ، ثم صار إلى الرياسة السياسية ، وكذلك سيفعل عبد الله بن ياسين فى قبائل صنهاجة الصحراء ومحمد بن تومرت فى قبائل مصمودة . هنا أيضاً نجد أبا عبد الله الشيعى يمهد بالسلوك الحسن والقيام بمطالب التوجيه الدينى ، وشيئاً فشيئاً نجد هذا الرجل يتحول إلى شيخ قبيلة سكتاتة ، ويصلح أمر القبيلة على يده وينشط رجالها فى مغاورة حدود الأغالبة ، وشكا عمال بلاد الزاب الشرقى من عدوان السكتاتيين عليهم ، وسعى رجال الأغالبة فى نصح بقية الكتاميين بإخراج هذا الرجل الداعية الشيعى من بلادهم ، ورفض السكتاتيون إخراجه ولكنه خاف على نفسه ، لأن سكتاتة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية قبائل كتامة من أمثال لهيصة ومسالتة . وكان قد أنشأ لنفسه دائرة من الأصحاب والأنصار ، ورفع لنفسه جاهاً بالتقى والصلاح والعدالة وسعة العلم ، وقد نجح فى إقناع أنصاره بفساد الحكم الأغلبى ومنَّاهم بأن يورثهم الله بلاد الأغالبة إذا هم صدقوا فى تأييده ، وكان هذا أيضاً مما أثار حفيظة بعض القبائل الكتامية ، لأن هذا الأمر إذا تم فلماذا تنفرد به سكتاتة .

الهجرة إلى تازروت وتحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية :

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعى أمره وانتقل إلى قاعدة وسط جبال الأوراس وعند مداخلها من الشمال تسمى « تازروت » . ولم يكد يستقر بها حتى تلاحق به الأنصار ، فسارع إلى تحصين بلده ، وفرض على أتباعه جباية قليلة هى أشبه بالتبرع للحركة ، وبلغ من ذكائه أنه جعل هذا المال بأيدى شيوخ من كتامة فلا يتصرف هو فى شىء منه إلا بإذنهم . وبإيمان الناس به ، وبما كان يمنيهم به من إقامة دولة صالحة عادلة يكونون هم سادتها ، استولى على بلاد الأغالبة . وبهذا المال أيضاً بدأ سلسلة من الحملات على ما قرب من منازل كتامة من بلاد الزاب ، ووفق فى حملاته الأولى وغنيت أيدى الكتاميين بالغنائم فاشتد حماسهم ، وكان هذا فى أواسط أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى .

وهنا تحول أبو عبد الله الشيعى إلى قائد سياسى عسكرى ، وكشف عن

وجهه فصارح الناس بأنه يدعو للرضا من آل البيت ، وأنه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الأمر من آل رسول الله ﷺ وهو الإمام المستتر صاحب الزمان ، وأظهر هذا الرجل من الكفاية والحزامة والجرأة ما مكن له فعلاً من جمع قياد أولئك القبائليين العفاة ، واستطاع فى زمن وجيز أن يستولى على بلاد الزاب كلها ، ثم دخلت قواته بلاد أفريقية ، وهنا تزعزع بنيان بنى الأغلب ، وكان الناس قد سئموا حكمهم بعد الذى كان فى حكم إبراهيم بن أحمد الأغلبى ثم ابنه أبى العباس ثم أبى مضر زيادة الله الثالث قاتل أبيه ، وهو آخر الأغالبة ، وكان قد ارتكب أخطاء جسيمة فى حق أهل أفريقية فمال الناس إلى دعوة الشيعى . وفى أوائل جمادى الأولى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م سقطت الأربس فى يد أبى عبد الله الشيعى ، والأربس هى مفتاح القيروان ، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ، ودخل أبو عبد الله الشيعى القيروان ، وأعلن قيام الدولة الفاطمية وبعث يستدعى الإمام المستتر فى سَلَمْيَةَ وهو عبيد الله المهدى .

وقد سار أبو عبد الله الشيعى فى أهل القيروان وبقية أهل أفريقية سيرة طيبة ، وحرص على ألا يصارح الناس بالدعوة الشيعية ، وأراد أن يتم ذلك عن طريق الإقناع ، ودارت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكى وخاصة أبى عثمان سعيد بن الحداد وأبى عبد الله الشيعى ودعاة المذهب ، وفى أثناء المناقشات تبين أبو عبد الله أن قناة أولئك المالكيين لن تلين وأن الناس لهم تَبَعٌ ، فعوَّل على الانصراف عن الدعوة النشيطة حتى يستتب الأمر للدولة الجديدة . وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبى العباس المخطوم ، وكان عامل القيروان ، عندما لجأ إلى العنف مع بعض مناوئى الدعوة . وقد نجح أبو عبد الله الشيعى فى زمن قصير فى تثبيت أقدام الدولة وتنظيم أمورها ، وفى هذا الدور كان اعتماده على كبار أنصار الدعوة من الكتاميين وخاصة غزوية بن يوسف وأخيه .

قدوم عبيد الله المهدى :

وعندما وصلت الدعوة إلى هذه الدرجة من النجاح أرسل أبو عبد الله الشيعى يستدعى عبيد الله المهدى صاحب الزمان ، وتلك كانت خطيئة حياته ، فقد كان مستطيعاً أن يمضى فى رياسة الدعوة تحت اسم الوصاية حيناً ثم يحوزها

لنفسه ، ولكن الحذر يؤتى من مأمنه ، ومـا كاد الخبر يصل إلى عبيد الله المهدى فى سَلَمْيَةَ حتى أعـد العدة للرحيل ، وكـان يعيش فى تلك القريـة فى سعة من العيش ، وكان يعتز إلى حد ما بالقرامطة ، وهم فريق من دعاة الشيعة تزعمهم رجل يسمى **أبو سعيد الجنابى** ، يزعم بعض أعداء الدولة أنـه والد عبيد الله المهدى ، ثم تولى رياسة هذا الجناح من الدعاة والشيعة رجل نشيط ولكنه جاهل بشئون السياسة يسمى **حمدان قرمط** ، حسب أنــه يستطيع التحصن فى إقليم الحســا فى شرقى الجزيرة العربيـة ، وانضم إليه عدد غفير من البدو واللصوص ، فصــارت له قوة عسكريـة مرهـوبة أغـار بها على البصرة وجنوب الحجـاز أكثر مـن مرة ، وروع جنوبى الشام والحجـاز ، وبلغ من جرأته أن رجاله اختطفـوا الحجر الأسود من الكعبـة ، واحتجزوه فى بـلادهم حتى ردوه بتـوسط العزيـز بـالله ثالث الخلفـاء الفاطميين . وفى هـذا الدور من الحركـة العلويـة كان القرامطـة ودعاة الفـاطمية أحـــلافاً يتآزرون على الدولة العباسية .

ووصل عبيد الله المهدى إلى مصر فى ركب من أتباعـه وأحمال من أمواله ، وقد عرف كيف يستخـدم هذه الأموال فى تيسير سفره ، وبعد خـروجه من مصر اتجه إلى المغرب بمعـاونة عامل مصر فيما يقـال ، ولكنه بعد أن وصل بـرقة ، أحس أن رجال بنى العباس علموا بأمره ، فاستعمل الحيلـة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مالاً للمشرفين على الركب فحولوا اتجاهه إلى سجلماسة ، فنجا من أيدى العباسيين ، ولكن صاحب سجلماسة من بنى اليسع بن مدرار ، تخوف من أمره بعد استقراره فى بلده ، فسجنه .

وهنا تواجهنا علامة استفهام كبيرة ، إذ ما الـذى يدعو رجلاً خارجياً صفرياً هـو صاحب سجلماسـة إلى سجن رجل من أعـداء العباسيين وهـو منهم ؟ ثم إن سجن عبيـد الله وولده أبى القـاسم محمد الملقب بـالقائم لم يكن ، فيما يحدثنـا الــقاضى أبو حنيفة النعمان داعى الدعاة ، لم يكن سجناً على الحقيقة . إنما كان تحفظاً أو تحوطاً .

وبلغ الخبر أبا عبد الله الشيعى فجمع جيشاً ضخماً وخرج به من القيروان فى سنـة ٢٩٧هـ/ ٩١٠ م ووجهتـه سجلماســـة ، ووصلـــها وتمكن من تخليص

عبيد الله المهدى والقضاء على صاحب سجلماسة ، ويبدو حقًا أن أبا عبد الله الشيعى ، وكان داعياً للدعاة وصاحب الفضل فى إقامة الدولة لم يكن يعرف عبيد الله المهدى معرفة شخصية ، ولا هو رآه من قبل ، حتى لقد أخطأ فى شخصه وتقدم بطاعته إلى رجل آخر ، ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبيد الله ثم ابنه ، وهنا لابد أن نلاحظ أن الكثيرين من مؤرخى الدعوة الفاطمية يقولون إن الخليفة الفاطمى الحقيقى كان أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدى ، وأن هذا الأخير ، كان ممهداً له وراعياً لأمره ، وربما لم يكن أباه أصلاً ، ولكن هذه كلها أقوال . وكل ما يتصل بنسب الفاطميين موضع شك كبير ، فأهل السنة ينكرونه إنكاراً تاماً ، والمسرفون فى الحملة عليهم يقولون إن عبيد الله المهدى ابن لرجل يسمى « القداح » يصفونه بأنه يهودى ، وهناك من يقولون : إنه من ولد أبى سعيد الجنابى، ولكننا فى الحدود التى نكتب فى نطاقها لابد أن نسلم بصحة نسب الفاطميين إذ لم يقم لدينا دليل على خلاف ذلك.

وبويع عبيد الله المهدى بيعة عامة فى سجلماسة ، وسلم إليه أبو عبد الله الشيعى الأمر وسار بين يديه يحترمه ، وفى طريق العودة من الجيش بتاهرت وأزال إمامة الرستميين ، وكان ذلك سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م وجعل المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءاً من الدولة الفاطمية ، التى قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، ولا ندرى كيف نشأت تسمية هذه الدولة بالفاطمية ، فإنهم هم أنفسهم كانوا يرون أنفسهم أبناء على وفاطمة من ولد الحسين .

خلافة عبيد الله المهدى : ربيع الآخر ٢٩٧ ــ ربيع الأول ٣٢٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩٣٤ م :

بويع عبيد الله المهدى بيعة عامة فى القيروان فى ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ ، وبذلك انتهت ولاية أبى عبد الله الشيعى بعد أن دامت عشر سنوات من ٢٨٨ إلى ٢٩٧ ، فقد أصبح وزيراً وخادماً لهذا السيد الذى استقدمه من سَلَمْيَة ، ولأول ولاية عبيد الله المهدى فعل فعلة شككت الكتاميين فى أصالته ومستوى تفكيره ، فقد استولى على الأموال التى جمعوها وحرسوها فى ايكجان ،وأخذها دون أن يستشير أو يكترث لرأى أحد ، فبدأت نفوس كبار الكتاميين تتغير ويساورها الشك ، خاصة وأن أبا عبد الله الشيعى شاركهم فى ذلك ولم يخف استياءه . وإذا

كان أبو عبد الله الداعى قد تمكن من ضبط مشاعره ولسانه ، فإن أخاه أبا العباس المخطوم لم يستطع . ولم يلبث الجو أن أظلم بين عبيد الله وأبى عبد الله وأخيه ، فلجأ عبيد الله إلى الغدر ، واستعان برجل من كبار الكتاميين هو **غزوية بن يوسف** فى قتل أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس ، وتلك كانت سلسلة من الاغتيالات والغدرات درج عليها خلفاء الفاطميين فى المغرب خاصة ، وهى سياسة لم تعد على البيت الفاطمى بشىء .

بناء المهدية :

وأحس عبيد الله المهدى أن الناس فى أفريقية ليس لديهم استعداد لقبول فكرة خلافة تقوم على مبادىء الشيعة الإسماعيلية كما صاغها دعاتهم ومفكروهم أثناء فترة الاستتار ، ودخلت فيها آراء غريبة كل الغرابة عن صفاء مذهب السنة والجماعة ، ويتجلى ذلك فى تفاصيل المذهب الإسماعيلى كما شرحه الدعاة من أمثال القاضى النعمان بن محمد ، وكما طبقه الخلفاء الفاطميون عندما أحاطوا أسماءهم بهالات من التقديس والتعظيم ، لم يعرفها أهل أفريقية إلى ذلك الحين ، حتى كانوا يتحدثون إليهم وكأنهم من طينة غير طينة البشر ، فعندهم أسرار الغيب وعلم ما سيكون ، ولديهم كتب يقولون إن فيها كل ما حدث ويحدث ، مسطور برموز لا يفهمها غيرهم ، ثم إن سياسة عبيد الله المهدى المالية كانت سياسة جشع بغير حدود ، فهو يجمع المال من الجبايات ورجاله يتاجرون له ولأفراد بيته ، وكلهم يجمعون الأموال بالحق والباطل .

وكانت فى أهل أفريقية كما عرفناهم إلى الآن صراحة وجرأة ، فجابهوا عبيد الله ورجاله بما يرون ، فأحس الرجل أنه ليس بين رعية وإنما تجاه خصوم ، وأنه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس قط . ولم يكن كذلك يستطيع الثقة المطلقة بالكتاميين بعد الذى فعل بأموالهم وبأبى عبد الله الشيعى الذى كانوا ميالين إليه. ثم إنه لم يلبث أن دبر مقتل غزوية بن يوسف ، وتطلع إلى الاستعانة بغيرهم . فرأى أن يشيد لنفسه وأسرته قلعة يعتصم فيها هو وآله وجنده وحشمه وأمواله ، فأشبه فى ذلك ما فعله إبراهيم بن الأغلب عندما بنى القصر القديم . وأمثال هذه القلاع الملوكية تؤمن رجال البيوت المالكة ولكنها تعزلهم عن الناس وتحول بين

بيوتهم وبين أن تضرب جذوراً فى البـلاد ، وتعجـل بزوالهم من البـلاد ، وهذا هو الذى كان بالنســبة للفاطميين فى المغرب . وكـان بناء المهــدية سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م ، وما زالت آثارها باقيـة إلى اليوم . وهى حصن منيع يقوم على رأس بارز فى السـاحل الشرقى لتـونس شمال سوسة ، « كأنه الكف » كما يقـول المؤرخون ، ولا يوصل إليـه من البر إلا عن طريق مدخل ضيق . وهو محاط بســور منيع عالى الذرى مستـدير الزوايـا ، وبين السور والبحر قطعـة من الأرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية ، وهذه أيضــاً محصنة لا يوصل إليها بسهولة . وقـد جعـل عبيـد الله العمال والسوقـة يعيشـون خـارج البلد ، فى مـوضـع يسمى زويلة ، فلا يكونـون فى البلد إلا نهاراً ، فإذا هبط الليل مضوا إلى مدينتهم وأغلقت الأسوار . وقـد بلغ من حرص عبيد الله على تأمين مدينتـه تلك ، أن رسم لجنده أن يقبضوا على أهل أولئك العمال فى قـريتهم إذا هم أحدثوا فى المدينة شغبـاً ، فكانوا بذلك مضطـرين إلى السكون والطاعة . وعنـدما فـرغ عـبيد الله مـن بنــاء تلك القلعـــة واستقر فيهـا بأمـواله وآلـه وجنـده وحشــــمه قـال : « الآن أمنت على الفـاطميات » ، أى أنــه أمن على نفسه ومــاله وأمـواله . ومضـى يـدير البـلاد من معتصمه هذا .

وكانت ثقة عبيد الله المهدى كلها فى جنده المرتزق الذى استكثر منه واعتز به . واستكثر لـذلك من الصقالبة والخصيـان للخدمة فى القصر . وقد خلف لنـا اثنان من صقـالبة الفـاطميين فى المغرب ، وهما منصور العزيـزى والأستاذ جوذر، مذكـرات هى الغايـة فى القيمة التاريخيـة ، فهى ترينـا حياة الفـاطميين الخاصة خلال الفترة المغربية ، ولم تكن بحياة سعيدة ولا نافعة للناس ، وإنما كان كل هم خلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال البلاد التى صارت إليهم على أسوأ صورة . ومن هنا فقد كـانت صورة المهدى عند عامة أهل أفـريقية بغيضة بشعة تصورها رواية شعبية ذكرها ابن عذارى ، وهى تصور عذاب عبيد الله المهدى فى أخريات أيامه ، ثم عذابه فى الآخرة .

وبعد مقتل أبى عــبد الله الشيعى وأخيه غدر المهدى بغزوية بن يوسف كما قدمنا ، وتخوف من الكتاميين جملـة ورمى ببصره إلى قبائل أخرى مجاورة كانت

تحسد الكتاميين ، وأهم هــذه صنهاجة المغرب الأوسط وكان يتزعمهم **مصالة ابن حبوس** ، فأغراه بالمال وسلطه على المغرب وبعثه فى جيش كبير يغزو المغربين الأوسط والأقصى ، فأما فى المغرب الأوسط فقد ملك الرعب جماعات الزناتية التى كانت تسكن بعض نواحيه ، وعلى رأسهم **على بن حمدون الزناتى** ، الذى فزع إلى الأمويين فى الأندلس واستجار بهم ، **وبنو خزر المغراويين** الذين اندفعوا نحو الأمويين أيضاً . ووصلت جيوش مصالة بن حبوس إلى المغرب الأقصى ودخلت فاس أيام **يحيى بن يحيى بن عمر بن ابن إدريس الثانى** . وقد ولى مصالة على منطقة فاس رجلاً من أقاربه يسمى **موسى بن أبى العافية** ، ولكنه أذن للأدارسة بالبقاء فى فاس تحت الطاعة الفاطمية ، فلم يزل موسى بن أبى العافية يتحيل حتى أضافوا إليه فاساً ، فنفى من كان فيها من بقايا الأدارسة إلى قلعة «حجر النسر» شمال المغرب فى جبال الريف قرب مدينة تسمى بصرة المغرب ، فتجمع بقايا الأدارسة هناك ، وارتبطوا بالناس وداخلوهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية ، وتلك هى بداية الدور الثانى من تاريخ الأدارسة .

حكم عبيد الله المهدى خمساً وعشرين سنة هجرية (٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٣٤ م) ثبَّت أثناءها قواعد بيته فى أفريقية والمغرب الأوسط بالقوة العسكرية وجمع مالاً وافراً ، وكان فى حكمه بعيداً جداً عما كان الناس يتصورونه عن المهدى الذى يعيد العدل إلى الأرض ، وقد أبغضه وأنكر أساليبه فقهاء المالكية وهم رؤساء الناس فى أفريقية ، وأحس هو بكراهتهم له ، فرسم أن يخففوا من نشاط الدعوى للمبادىء الشيعية ، ولكن ذلك لم يُفِدْ كثيراً ، فلم تكسب الدعوة الفاطمية فى المغرب إلا نفراً من شواذ الناس وضعفة الفقهاء ، وذلك كله حفز المهدى على التفكير فى غزو بلد آخر والاستيلاء عليه والانتقال إليه بأهله وماله وجنده ، وهذا هو السبب الذى جعله يحاول الاستيلاء على مصر . فأرسل إليها حملة بقيادة ابنه **القائم** ، استولت على الإسكندرية وخربت بعض نواحيها ، وناوشت بعض نواحى الصعيد الأدنى عند الجيزة ولم تعد بنتيجة .

وقد خلف المهدى بعد موته ، ثلاثة من خلفاء الفاطميين هم :

القائم ، أبو القاسم محمد (١٤ ربيع الأول ٣٢٢ ــ ١٣ شوال ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٦ م) .

المنصور ، أبو الطاهر إسماعيل (١٣ شوال ٣٣٤ ـ ٢٩ شوال ٣٤١ هـ/ ٩٤٦ـ٩٥٣م) .

المعز ، أبو تميم معد وقد حكم فى المغرب من مستهل ذى القعدة ٣٤١هـ/ ٩٥٣م حتى انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢م وتوفى فيها فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م .

فأما القائم فكان أقرب إلى العدل وحسن السياسة من أبيه . وقد ازداد شعوره بالعزلة والغربة فى المغرب وأراد التقرب من الناس دون جدوى ، فركز جهوده على مغازاة المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت لفتاه « **ميسور** » وقائع طويلة مع جند الأمويين والأدارسة فى المغرب الأقصى ، مما اضطر **عبد الرحمن الناصر** إلى احتلال سبتة ومليلة لتأمين بلاده من أنصار الفاطميين ، من أمثال **بلكين بن زيرى بن مناد** ، وهو زعيم صنهاجى استماله الفاطميون فأخلص فى خدمتهم . أما بقية أهل المغرب الأقصى من رجال دويلة **نكور وبنى خزر الزناتيين وبنى خزرون** الزناتيين أيضاً ، فقد استجاشوا بالأمويين الأندلسيين الذين لم يدخروا جهداً ولا مالاً فى مناجزة الفاطميين وإبعادهم عن المغرب ، فاتجهت أنظار الفاطميين إلى مصر ، إذ تصوروا أن الإخشيديين ضعاف لا يستطيعون مقاومة الضغط الفاطمى طويلاً ، وكان يتولى أمور مصر كافور الإخشيدى وكان رجلاً صبوراً مطاولاً ، يصانع الفاطميين حيناً ويناجزهم حيناً آخر ، لأنه كان يرى أن الدولة العباسية ـ وهو تابعها ـ أعجز من أن تمده بعون . وقد أرسل القائم حملة إلى مصر لم توفق إلى كثير .

ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد :

وبعد وفاة القائم بعد حكم قصير جاء ابنه **المنصور أبو طاهر** ، وفى أيامه انفجرت ثورة أهل أفريقية والمغرب يقودها رجل من نكارية الإباضية يسمى **أبا يزيد مخلد بن كيداد** ويلقب « بصاحب الحمار » .

وكان أبو يزيد فى أول أمره معلم صبيان ، وفى هذه المهنة قضى معظم عمره ، فلما اشتد غليان أهل المغرب غضباً على الفاطميين ، تزعم هذا الرجل وقبيله الثورة ، وظهر الرجل فى أول أمره بمظهر الزهاد المتنسكين ، فكان يركب حماراً

هزيلاً يتنقل بـه بين الجبال والقبائل فُلقِّبَ بصاحب الحمار . وكـان الرجل مسناً عندمـا بدأ الثـورة إذ كانت سنـه تقارب السبعين . وقـد انضمت إليـه القبائل فى حماس شديد ، وأيده أهل أفريقية إذ أنـه لم يكشف عن نحلته الإباضية النكارية ، وإنما زعم أنه ثائر للعدالة والإسلام وكـراهة البدع ، التى أراد الفاطميون إدخالها على العقائد والعبادات ، وتمكن الرجل من اجتيـاح بلاد الفاطميين وألجأ المنصور الفاطمى إلى التخفى فى المهدية وحصره فيها .

ولكن حركة أبى يزيد كانت ثورة دون خطة ، فما أن بلغ هذا القدر من النصر حتى وقف حـائراً ماذا يصنع ، وأساء السـيرة مـع كثير من القبائل مما قلـل الثقة فيه ففـر الكثير من القبائل منه . وانتظـر المنصور فى حصنـه حتى إذا ما رأى أن ذلك الثـائر يتفـرق عنـه رجـالـه ويضعف ، أرسل إلى بلكين بن زيـرى بن منـاد الصنهاجى فأقبل برجـاله ، وتغلبوا على الثائر الذى انصرف عنـه الناس ، ففر إلى الأوعار ، ومـازال رجال الفاطميين يتعقبونـه حتى قبضوا عليه ، فقتلـوه وسلخوا جلده وحشوه فيما يقول الرواة قطناً وأركبوا جثته على حمار طاف بلاد أفريقية .

بهذا انتهت ثورة أبى يزيد ، وبنهايتها انتهت أيضـاً قوى الفاطميين فى المغرب، فقـد تـزعزعت دولتهـم إلى قواعـد بنيـانها ، وخـاف المنصور أن يسيطـر عليـه الصنهاجيـون أصحاب القـوة فى دولته . فارتـد إلى الكتاميين بعـد طول انصراف عنهم وأذى لهم . وعندما تـوفى وجاء ابنه المعز كان باب الخلاص الـوحيد الباقى أمامه هو غزو مصر والانتقال إليها .

وذلك كان هدف الخليفة الفاطمى الرابع فى المغرب وهو أبو تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله ، الذى تولى الملك شاباً فى ذى القعدة سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٣ م .

غزو مصر ثم الانتقال إليها :

ولا نزاع فى أن المعز كان أقدر الفاطميين وأبعدهم نظراً ، فقد رأى بوضوح أنه لن يستطيع الاستمرار فى المغرب ، فقد نفر الناس فى أفريقية من بيته ورموهم عن قـوس واحـدة ، ثم إن محـاولات السيطرة على المغـرب الأوسط لم تكن تـؤدى إلى نتيجة ، لأن آل بلكين بن زيرى الصنهاجيين كانوا أصحاب القوة فيه ، وهم خلفاء الفاطميين فـلا مطمع فيهم ، أما فى المغرب الأقصى فإن الأمويين الأنـدلسيين أيام

الحكم المستنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١م ، كانوا يرون أن الفاطميين خارجون عن الإسلام وحربهم جهاد ، فكدس الجانب الأكبر من قواه فى حربهم فى المغرب ورماهم بخيرة جنده وقواته ، وتمكن من طردهم من المغرب الأقصى والقضاء على أنصارهم واستألف الأدارسة .

ومن حسن حظ المعز أنه كان يخدمه شاب ذكى من خيرة صقالبة الفاطميين هو جوهر الذى يلقب « بالصقلى » . فقد كان قائداً ماهراً وجندياً مخلصاً ورجلاً صاحب سياسة ونظر وتدبير . وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط ، ودخل مرة أخرى مدينة فاس وغزا بلاد تافيلالت ، عاد ليبلغ سيده ألاّ أمل فى أفريقية أو المغرب ، وأن الأمل الوحيد الباقى هو فى الاستيلاء على مصر .

وكان كافور الإخشيدى قد توفى ومضى لسبيله وانتهى أمر الإخشيديين ، وفى تلك الأثناء كان المعز وقائده يعدان العدة لغزو مصر معتمدين فى ذلك على الكتاميين ، بعد أن صالحوهم ودخل فى خدمتهم رجل من أقدر رجالهم هو جعفر ابن فلاح وكان من قواد جوهر الصقلى .

ولم يكن من العسير على جوهر الاستيلاء على مصر ، فقد وضع المعز تحت تصرفه كل ماكان لدى الفاطميين والكتاميين من قوة ومال . وفى شعبان سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣ م دخل المعز الإسكندرية ، ولأول دخوله إياها أعلن فى بيان رسمى تخلّيه وتخلى دولته عن فرض المذهب الشيعى على أهل مصر ، وأحسن معاملة الناس ومناهم الخير الكثير والعدل الشامل ، فطاعوا له ، وبذلك بدأ فى تاريخ مصر عصر جديد هو العصر الفاطمى ، الذى يطيل نفر من المؤرخين الإطناب فى فضائله . وبدأ فى تاريخ الفاطميين أيضاً عصر جديد ، فقد تخلوا عن المذهبية فيما يتصل بعلاقتهم بالناس ، وقد اتعظوا فى ذلك بتاريخهم فى أفريقية .

وفى نفس الوقت وضع جوهر أساس مدينة القاهرة ، لتكون مدينة ملوكية وحصناً للفاطميين ، لكى ينتقلوا من قلعة المهدية إلى قلعة القاهرة . فلم يكن البيت الفاطمى على طول تاريخه وبُعْد صيته بيتاً من بيوت الحكم المحبب إلى الناس أو الوثيقة الصلة بهم . فكما كانوا غرباء فى المغرب سيكونون غرباء فى الشام ، وفى كل موضع وصل سلطانهم إليه .

تقدير الفترة الفاطمية فى تاريخ المغرب :

دامت خلافة الفاطميين فى المغرب نيفاً وستين سنة هجرية (من ٢٩٧ ــ ٣٦٢ هـ/ ٩٠٩ ــ ٩٧٣م) فهى نحو ستين سنة ميلادية ، وقد دانت لهم بلاد واسعة تمتد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط ، فلم تخرج عن سلطانهم منه إلا منطقة تلمسان ، ودخلت فى خدمتهم قبائل مغربية عفية غنية بالملكات والقدرات ، وكانت قاعدة ملكهم أفريقية ، وهى قاعدة حضارة وقوة ذات قدر عظيم . فإذا أضفنا إلى ذلك صقلية ، تبينا أن ملك الفاطميين فى المغرب كان واسعاً وعريضاً ، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا للبلاد وأهلها خيراً كثيراً .

ولكننا عندما نجىء للحساب الختامى لتلك الفترة نجد أن الفاطميين لم يقدموا للبلاد التى حكموها فى المغرب أى خدمة إيجابية ، فهم لم يعمروا من المدن إلا المهدية ، وتلك كانت قاعدة خاصة لهم ، أما القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمنستير وغيرها فلم يخلف الفاطميون فيها أثراً ، بل هم لم ينشئوا مسجداً واحداً يذكر لهم بالخير غير مسجد المهدية ، وكان مسجداً خاصاً .

وكانت سياستهم تقوم على جشع مالى بالغ ، فقد كانوا يجبون من المال مقادير طائلة كلها بالظلم والإيهام ، وكانوا يحتجزون الأموال ويستخدمونها فى المتاجرة أو فى شراء جند يقوم بغزوات تعود عليهم بغنائم ، ولم تكن لديهم أى نية فى زيادة عمران المغرب ، فلا هم شقوا طريقاً ولا أنشأوا سوقاً ولا نفعوا قبيلة من القبائل التى خدمتهم ، بل إن كتامة التى استنفدت قواها فى قضيتهم بادت أو كادت . وفى العصور التالية كان بقايا الكتاميين يتبرأون من تهمة القيام بالدعوة الفاطمية . وقد كانت أفريقية بالنسبة لهم مستقراً ومصدر ثروة وخطوة إلى وهم بعيد بخلافة تحل محل الخلافة العباسية . وعندما غادروا أفريقية إلى مصر ، صغر حجمهم فيها وابتلعتهم وصاغتهم على طرازها فَخَفَّ حماسهم لمذهبهم الشيعى ، ولم يستطيعوا استغلال البلاد على النحو السيىء الذى فعلوه فى المغرب ، لأن دافع الضرائب المصرى وهو الفلاح ، خبير بشئون الحكام

ومظالمهم ولديه أكثر من وسيلة للتخلص من ظلمهم ، ومع ذلك فقد قضى الجشع الفاطمى على معظم صناعات مصر التقليدية القديمة وخاصة صناعة النسيج فى شمال الدلتا ، ثم كان الصراع بينهم وبين زراع مصر مؤدياً فى النهاية إلى ما يعرف **بالشدة المستنصرية** ، وهى أعنف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها تاريخ الإسلام ، ومن السذاجة أن نعللها بتوقف الفيضان سبع سنوات متوالية ، وإنما هى نتيجة للسياسة المالية الفاطمية التى لم تعرف حوليات الإسلام أشد جشعاً منها .

وقد اتسمت سياستهم بالأنانية البالغة ، فهم مثلاً عندما انتقلوا إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية ، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا إنجادها ، فحرموها بذلك من عون بنى زيرى وهى امتداد طبيعى لأفريقية . ولولا أن المقادير تداركت صقلية ببنى الحسن الكلبيين ، ابتداء من سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م لضاع أمرها بعد انتقالهم إلى مصر بقليل .

وقد أجج الفاطميون نيران العصبيات القبلية فى المغرب إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل بعضها مع بعض فى حروب إبادة ، بل هرب بعض زعماء البربر إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من صراع القبلية فى المغرب . وعندما تركوا آل زيرى مكانهم عندما رحلوا إلى مصر ، تركوهم غارقين فى ثارات القبلية مما عجل بزوال ملك بنى زيرى . وخاصة بعد أن قذفهم الفاطميون ببنى هلال كما سنرى ، وماهو إلا قليل حتى انتهى أمر المغرب إلى سلطان قبيلتين من أعتى قبائل الزناتيين وأكثرها إفساداً وهما « مغراوة وبنو يفرن » . ولولا أن الله تدارك المغرب بالمرابطين فالموحدين فإننا يصعب أن نتصور اعتدال ميزان المغرب بعد العاصفة الفاطمية التى كانت أيضاً من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام فى الأندلس .

والشىء الوحيد الذى يمكن ذكره للفاطميين فى المغرب هو نشاطهم البحرى ، فقد كانت أساطيلهم تسيطر بالفعل على مياه الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، ولكن قوة الفاطميين البحرية لم تظهر بكامل قوتها إلا خلال الفترة المصرية من تاريخهم.

دولتا بنى زيرى الصنهاجيين فى المغرب الأوسط :

توقيت : [1]

أبو الفتوح (بلكين) بن زيرى	٣٦٢ ـ ٣٧٤ هـ/ ٩٧٣ ـ ٩٨٤ م
أبو الفتوح المنصور بن يوسف	٣٧٤ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٨٤ ـ ٩٩٦ م
نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور	٣٨٦ ـ ٤٠٦ هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠١٥م
المعز بن باديس بن أبى الفتح المنصور	٤٠٦ ـ ٤٥٣ هـ/ ١٠١٥ ـ ١٠٦٢ م
تميم بن المعز	٤٥٣ ـ ٥٠١ هـ/ ١٠٦٢ ـ ١١٠٧ م
يحيى بن تميم بن المعز	٥٠١ ـ ٥٠٩ هـ/ ١١٠٧ ـ ١١١٦م
على بن يحيى بن تميم	٥٠٩ ـ ٥١٥ هـ/ ١١١٦ ـ ١١٢١ م
الحسن بن علـى	٥١٥ ـ ٥٤٣ هـ/ ١١٢١ ـ ١١٤٨ م

أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيرى ٣٦٢ ـ ٣٧٤ هـ/ ٩٧٣ ـ ٩٨٤ م :

تقول الروايات التاريخية التي بين أيدينا : إن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر ، عرض على جعفر بن على بن حمدون الزناتى ، أن يتولى أمور أفريقية والمغرب تابعاً للفاطميين فى مصر ، فاشترط جعفر بن على بن حمدون أن يكون أميراً مستقلاً يتصرف بما يراه دون انتظار رأى المعز ، ويولى القضاة بنفسه ولا يرسل أى مال إلى مصر ، فرفض المعز ذلك ، لأن معناه انفصال ولاية أفريقية عن الفاطميين تماماً واستقلال هذه البلاد بنفسها .

وعقب ذلك استدعى المعز لدين الله بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان من أكابر رجال صنهاجة ، وعرض عليه الولاية فقبلها بشروط المعز وهى : البقاء

---

(١) ليس الغرض من إيراد هذه التواريخ حفظها بل الاكتفاء بأهمها والاستعانة بها فى ضبط سير الحوادث .

تابعاً للفاطميين تماماً ، والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في أفريقية والمغرب . ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز : « قتلتني يامولاي بغير سيف ولا رمح ! » ويريد بذلك أنه ينوء تحت حمل المسئولية التي عهد إليه المعز فيها .

وعند هذا أصدر المعز له عهداً بولاية أفريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . ويقول ابن عذارى[1] وابن خلدون[2] وابن الخطيب[3] أن المعز أوصاه وصية قال له فيها : «إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك وبني عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوص بالحضر خيراً » .

ونحن نستبعد هذه الحكايات لأن دولة الفاطميين في المغرب قامت على أكتاف الكتاميين الصنهاجيين ، فمن غير المعقول أولاً أن يفكر المعز في أن يعرض الولاية على زعيم زناتي ، مثل علي بن حمدون هو بطبعه عدو للصنهاجيين ، ومن غير المعقول كذلك أن يوصي المعز نائبه على المغرب بألا يرفع السيف عن البربر ، لأن ذلك النائب نفسه بربري .

أما أن يوصيه بألا يرفع الجباية عن أهل البادية فمفهوم إذا نحن قلنا إن المراد بأهل البادية هم البربر الزناتيون ، وكانت سياسة الدولة الفاطمية تقوم على محاربتهم وإثقالهم بالجبايات حتى يظلوا في فقر ولا يفكروا في الثورة عليها .

وكذلك يستبعد أن يكون المعز قد أوصى نائبه بالعناية بالحضر ، والحضر هم أهل المدن ، وأهل المدن لم يكونوا قط من أنصار الفاطميين ، لأنهم ظلوا سنة يناوئون المذهب الشيعي .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المعز أوصى نائبه أبا الفتوح يوسف بن زيرى ابن مناد الصنهاجي بأن يواصل حملاته على المغرب الأوسط لحسم دائه ،

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، جـ ٦ ص ٣١٨ .

(٣) ابن الخطيب ، أعلام الأعلام ص ٩٥ .

والقضـــاء على النفــوذ الأموى فيــه . وهــذا معقــول ، لأن الفاطميين ظلــوا طــوال تاريخهم أعداء الأمويين الأندلسيين ، خائفين من امتداد نفوذهم إلى المغرب .

وهكذا أصبح أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيرى بن مناد الصنهاجى والياً أو أميراً شبه مستقل ، لكل بـلاد أفـريقية بأقسامهـا الثلاثة : طرابلس وأفـريقية وبلاد الزاب ، وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط .

وللمـرة الأولى فى التـاريخ أصبح رجل مـن صميم أهل المغـرب رئيس دولـة إسـلامية فى بلاده ، وكان عليه بعـد ذلك أن يستكمل استقلال هذه الدولة ويهيىء لها أسس النظام والقوة ، وبذلك دخلت تجارب الحكم الإسلامى فى المغرب فى دور جـديـد : دور الاستقـلال ، فبعـد محاولات شتى لحكم البـلاد ، قـام بها العـرب البلديون ثم العرب من ولاة الدولة ، المؤيدون بالجند الرسمى للدولة (المهالبة) ثم من العـرب البلـديين الموالين للدولـة العبـاسيـة (الأغالبـة) ، ثم من العـرب المؤيَّـدين بقوة عسكـريـة بربـرية (الفـاطميـون) . دخلت البلاد الآن فى طـور الاستقلال ، فإن بنى زيـرى كانـوا بيتاً بربـرياً أصيـلاً استعرب ودخل فى غمار الجماعة الإسلاميـة العربية الكبرى . وسنرى أن بنى زيـرى لم يلبثوا أن استقلوا عن الفاطميين وحاولوا النهوض بمسئوليـات الحكم فى بلادهم قدر ما استطاعوا ، ولم يكن تـوفيقهم بالقليل ، ولكنهم على أى حـال كـانوا دور انتقـال من مرحلـة التبعيـة للمشرق إلى دور الـدول المغـربيـــة المستقلـة الكبرى التى تبـدأ بـــدولة المرابطين .

ويـرى ابن خـلدون فى ذلك انتقالاً للملك والسلطان فى المغـرب من العرب إلى « أعياص[1] البربـر » أى زعماء البربـر ورؤساء قبـائلهم ، الـذين استعصى على الدولة الإسلاميـة العامة (العباسية) حكمهم ، فعصوهـا وانفردوا بالسلطان فى بلادهم ، ومعنى هـذا بتعبيرنا اليـوم ، أن أفريقية والمغـرب استقلا عن المشرق ، وهذه حقيقة ولكن الذى ليس بحقيقة هو محاولة المؤرخين الفرنسيين ، من أمثال هنرى فورنل Henri Fournel فى كتابـه المسمى « البربر Les Berbéres » وجورج مارسيـه فى كتابه المسمى « بلاد المغـرب الشرقية » (أفريقيـة والمغرب الأوسط ،

---

(١) والأعياص: جمع عاص وهو الرجل المعتز بنفسه المتأبى على الخضوع لغيره .

والشرق الإسلامى[1]) القول بأن هذا الانتقال كـان تحقيقاً لأمل البربر القديم فى الاستقلال عن العرب ودولتهم .

والمهم لدينـا أننا الآن أمـام أسرة بربريـة مستعربة ، تتـولى شئون أفـريقية وتتطلع إلى سيادة المغرب الأوسط . معنى ذلك فى رأينـا أن أهل المغرب تدربوا على يد العرب ، وأخذوا فكرة بنـاء الدول والنظم السياسية عنهم ، وبدأوا تجربتهم فى الحكم الـوطنى المستقل دون أن يكـون ذلك مظهراً لنـزوع قـومى مغربى نحـو الاستقـلال عن العرب ، كـراهة فيهـم أو رغبة فى الانفصـال عن جماعة الإســلام الكبرى.

ولكن ذلك الحكم الذى وصل إليه بيت زيرى بن مناد الصنهاجى تؤيده قوات قبائل صنهاجيـة كبرى ، أثار فى المغرب كله نيران العـداوة والتنافس العنيف بين الصنهاجيين والزناتيين ، كأنما كان خروج العـرب من الميدان إيذاناً ببدء الصراع المرير بين زناتة وصنهاجة على السيادة فى المغرب .

وكان أول مظاهر هذا الصراع هو شعور **جعفر بن على بن حمدون الزناتى،** كبير زناتيـة أفريقيـة وشرق المغرب الأوسط ، بأنه لم يعـد آمناً فى بـلاده ، فبارح أفريقية لاجئاً إلى الحكم المستنصر فى الأنـدلس ودخل فى خدمته ، ورحب به الحكم المستنصر ، إذ إنه كـان عدواً للفـاطميين ، وعقب ذلك ثـار الزنـاتيون فى أفـريقية وانتفض الزنـاتيون فى تاهرت أيضـاً ، فسار نحوهم بلكين (يـوسف) بن زيرى لإخضـاعهم ، ودخل على تـاهـرت وخـربها ، ثم عـاد دون أن يسترسل إلى غـزو الزناتيين فى المغرب الأقصى ، لأن المعز كان قد نصحه بألا يوغل فى غزو المغرب .

وفى سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ ـ ٩٧٨م أضاف المعز إلى ولاية يوسف بـن زيرى ، طرابلس وصرت وأجدابية ، فولى عليها **يحيى بن خليفة الملياني** ، وهكذا نجد أن ولاية المعز اتسعت فى الشرق حتى صارت عند حدود برقة .

ولم يسكت الزناتيون على غزو المغرب الأوسط وتخريب تاهرت ، فسار زعيم زناتى وهو **خزرون بن فلفل بن خزر الزناتى** نحو سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ/

---

[1] (١) انظر فهرس المراجع فى نهاية الكتاب تحت : George Marçais .

٩٧٦ م وقتل أميرهـا محمد المعز بـالله من أولاد **الشاكر لله المدرارى** ، وكـان من أنصار بنى زيرى ، وأرسل الخبر إلى الخليفـة الحكم المستنصر الأموى فى قرطبة ، فشجعـه هـذا على غزو فـاس ، فـدخلهـا سنة ٣٦٨ هــ/ ٩٧٨ م وبهذا يكـون الأمويون القرطبيـون وحلفاؤهم الزناتيون ، قد تمكنـوا من إثارة المتاعب فى وجه بنى زيـرى التـابعين للفاطميين فى مصر . ويـلاحظ أن الخليفـة المستنصر بـالله الأمـوى كـان شـديـد العـداء للفـاطميين إذ أنـه كـان يـرى فى المذهب الشيعى الإسماعيلى الذى نادى به الفاطميـون نوعاً من الكفر والخروج على الإسلام ، أى أنه كان يعتبر حربه للفاطميين وأتبـاعهم جهاداً فى سبيل الله . وعندما استولى على السلطان فى الأندلس **المنصور بن أبى عامر** سار فى هذه السياسة ، بل اندفع فيها اندفاعاً شديداً .

وإزاء هذه السياسة الأنـدلسية الواضحة ، نجد أبا الفتـوح يوسف بن زيرى يسير لغزو المغـرب الأقصى ويدخـل فاس ، ويقتحم أصيـلا وشالة على سـاحل المحيط الأطلسى .

وتوفى أبو الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى وهو عائد إلى أفريقية سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٤ م .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطاً واسعـاً ، وقام بالمهمة التى عهد إليه الفاطميون فيها خير قيام ، ولكنـه لم يكن فى الحقيقة يخدم الخلافة الفاطمية فقط بل كان يُثبِّت أركان ملكه ويمهد الطريق لاستقـلاله بالمغرب الإسلامى ، وقد وقع فى أثنـاء ذلك فى خطأ كبير وهـو إثارة مخاوف الـزنـاتيين ودفعهم إلى الاستعانـة بالأمويين فى قرطبة .

أبو الفتوح المنصور بن يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى

٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م :

كان أبو الفتـوح المنصور بن أبى الفتوح يوسف بن زيرى قبل تـوليه الإمارة والياً على الزاب ونائبـاً عن أبيه فيه . وكان أول ما عمله بعـد تـوليته ، أن أقام معه

أبا البهار بن زيـرى بن مناد عامـلاً على المغرب الأوسـط وجعل مركزه تـاهرت ، وأقام فى نفس الوقت أخاه يطوفت بن يوسف بن زيرى والياً على أشير فى المغرب الأوسط ، وأوصـاهما بالتعـاون معاً على حمايـة المغرب الأوسط من أى عـدوان يحاوله الـزناتيون . وكـان المنصور بن أبى عـامر المستبد يحكم الأنـدلس باسم خليفتـه الشرعى هشام المؤيـد ابن الحكم المستنصر ، قـد أيد زعيماً زنـاتياً ، هـو زيـرى بن عطية المغـراوى الخزرى وأعـانـه على بسط سلطانـه على المغـرب الأقصى وجعل عاصمته فاس .

ووجد أبـو الفتوح المنصـور بن يوسـف أنه لابد مـن مواصلـة الحرب ضد الزناتيين سـادة المغرب الأقصى . فأرسل أخاه يطوفـت فى جيش كبير نحو فاس واحتلها ، ولكن زيرى بن عطيـة الخزرى المغراوى الملقب بالقرطـاس ، تصدى له وهزمه فى معركـة قتل فيها ألوف الصنهاجيين ، وكانت هـذه آخر محاولة قام بها بنو زيـرى الصنهاجيين للتدخل فى شئون المغـرب الأقصى ، فأصبح هذا الأخير تحت سيطرة الزناتيين يؤيدهم الأمويون فى الأندلس .

وعندما انشقت جماعة من الزناتيين على زيرى بن عطية المغراوى ، وانضمت إلى أبى الفتوح المنصـور وشجعته على غـزو المغرب الأقصى ، لم يستجب لهم بل اكتفى بإقامة كبير هؤلاء الزناتية على طبنة فى الزاب .

وثار عليه داع شيعى يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م ولكنه تمكن من التغلب عليه .

ونلاحظ أن دولة بنى زيرى فى أيام أبى الفتوح المنصور ثانى أمرائها ، فقدت الكثير من قوتها واقتصر أمـرها على بلاد أفريقية والـزاب ، حتى وادى شلف ، أما سيـادتها على المغـرب الأوسط فكانت اسميـة فقط ، وسنـلاحظ أن ولاة المغـرب الأوسط من بنى زيرى سيستقلون به بعد قليل .

ومن الواضح أن بنى زيـرى ما كانـوا ليستطيعوا سيادة بلاد أفـريقية ، من حـدود مصر إلى وادى شلف والمغـرب الأوسط حتى نهر الملـوية ، لأنهم كـانـوا رجـال دولة صغيرة محدودة القـوى ، الامكـانـات ، وكـانت تبعيتهم للفـاطميين

تضـــعف من جـانبهم ، لأنها كانت تفرض عليهم المذهب الشـــيعى ، وكان أهل المغرب ينفرون منه ، يؤيدهم فى ذلك الأمويون الأندلسيون .

نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور ٣٨٦ ـ ٤٠٦ هـ/ ٩٩٦ ـ ١٠١٥ م :

لم يطل حكم أبى الفتح المنصور ، إذ أن الموت عاجله وهو فى سن الشباب بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة هجريـة ، وخلفه ابنه باديس الـذى تلقب بنصير الدولة وكانت سنه ١٢ سنة ، فقام بالأمر أعمامه وأكبرهم **يطوفت بن زيرى** والى تاهرت **وحماد بن يوسف** الذى تولى أشير فى المغرب الأوسط أيضاً .

ورفض الزناتيون الطاعة لـلأمير الجديد ، وقامت حروب طويلة بينهم وبين الصنهاجيين أصحـاب أفريقية والمغـرب الأوسط ، وبعد نحـو خمس سنوات من الحروب الداميـة ، استقر الأمـر بعض الشـىء لباديس بن أبى الفتـح المنصور فى أفريقية سنـة ٣٩١هـ / ١٠٠١ م . أما المغرب الأوسط ، فقـد تولى أمره حماد بن يوسف بن زيـرى ، وهو عم باديس ، وخاض حـروباً طويلة مع زيـرى بن عطية المغراوى شيخ زناتية المغرب الأقصى ، وكان النصر فى النهاية لحماد بن يوسف ، على زيـرى بن عطية الـزنـاتى ثم ابنه مـاكسن بن زيـرى . وفى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م وجد الزنـاتيون أنهم لن يستطيعوا مقاومـة بنى حماد الصنهاجيين إلى مالا نهاية ، بعد أن قتل الصنهاجيون زعيمهم ، ماكسن بن زيرى بن عطية ، الذى خلف أباه زيـرى وولديه محسن وباديـس ، فى معركة دامية ، فـاضطر زاوى بن زيـرى (آخر أولاد مـاكسن) إلى الهجـرة إلى الأندلـس مع ابنـــيه حباســة وحبوس ابنى مـــاكسن ، ودخلوا فى خدمـة عبـــد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامـر ، وكان لهم ولمن هاجـر معهم دور غير حميد فى الفتنة الأنـدلسية التى وقعت بعد ذلك بقليل .

وكـان لانتصار حماد بن زيـرى على الـزناتيين فى المغـرب الأوسط وتأمينـه حدود الدولـة الصنهاجية من ناحية المغرب ، أكبر الأثـر فى تثبيت سلطان بيته فى

المغرب الأوسط . ومع أنه لم يعلن انفصاله عن بنى عمه أصحاب أفريقية ، إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بنى عمه فى أفريقية .

وتوفى نصير الدولة باديس سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م بعد حكم قصير غير مستقر ، انقضى فى حروب متصلة مع الزناتيين من ناحية ، ومع بنى عمه بنى حماد أصحاب القلعة من ناحية أخرى .

المعز بن باديس بن أبى الفتح المنصور بن يوسف بن زيرى ٤٠٦ ـ ٤٥٤ هـ/ ١٠١٥ ـ ١٠٦٢ م :

تولى المعز بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ ـ ١٠١٥ م وكانت سنه ثمانى سنوات ، فقام بالأمر من دونه أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد . وبدأ يحكم منفرداً حوالى سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م وقد أبدى مهارة كبيرة فى إدارة شئون الدولة وخاض حروباً طويلة مع خصومها ، وطال حكمه حتى قارب الخمسين سنة هجرية ، وكان رجلاً واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسى ناضج مستقل ، ولكن الظروف ألتى أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء حكمه الطويل ، حالت بينه وبين التوفيق الكامل الذى كان يرتجيه ، فتدهورت الدولة وتفككت وحدتها رغم ما بذل من جهود كبيرة فى سبيل الحفاظ عليها ، ولكنه كان ، كما يقول ابن خلدون : « أميراً هماماً حازماً سيىء الطالع فلم يوفق إلى كثير » . ورغم ما أصاب الدولة فى أيامه من تصدع ، وما انتهى إليه أمرها فى آخر أيامه من انهيار ، فهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وقد أثنى عليه معظم مؤرخينا القدامى وخاصة ابن خلدون .

بدأ المعز ورجاله بمحاولة لحل أكبر مشاكل الدولة إذ ذاك ، وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بنى حماد . وخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها رجال المعز . وعندما تأكد حماد وبنوه أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً أمام

المعز ورجـالـه تقدم حماد يطلب الصلح على أسـاس أن يكـون تـابعاً للقيروان ، وأن يتمتع بـاستقلال محلى فى المغـرب الأوسط . وتم الصلح فى صفر ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، ونستطيع اعتبـار ذلك الصلح بمثـابـة تاريخ لميـلاد دولـة بنى حماد المستقلة فى المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح كـانت تنص على ألا يتصرف بنـو حماد فى شأن من شئون بـلادهم السياسيـة والعسكرية إلا بـالاتفاق مع المعـز ورجالـه أصحاب السلطـان فى القيروان ، إلا أن المشـاغل الكثيرة التى أحـاطت بهؤلاء الأخيرين ، جعلتهم عـاجزين فى الواقـع عن القيام بأى محاولـة جدية لإجبـار بنى حماد على طاعتهم . ومن ثم فقـد اكتفوا بـالطاعة الاسميـة والتعاون فى أثنـاء الأخطار التى تهددهما معاً ، وفيما عدا ذلك فقد سارت كل من الدولتين فى طريقها .

وهناك من يرون أن قيام دولة بنى حماد أصحـاب القلعة ، يعتبر نقطة بداية تاريخ المغـرب الأوسط ككيان سياسى مستقل داخل الـدولة الإسلامية العـامة . وهذا صحيـح إلى حد ما ، وإن كـان لابد أن نعـود إلى الـوراء إلى دولـة بنى رستم الصنهاجيين . لكى نصل إلى البداية السياسية لتاريخ المغرب الأوسط الإسلامى ، وهو يقابل معظم بلاد الجزائر الحالية .

انفصال دولتى بنى زيرى عن الفاطميين :

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمى بـدولته وأهل بيته وكبـار قواده وجنوده وذخائره ، بل برفات أجداده إلى مصر ، لم يعد لأفريقية فى تفكيره السياسى مكان كبير رغم أنه لم يتنازل قط عن تبعية هذه البلاد له ، وظل يتمسك دائماً بأن يظهر بنو زيرى الولاء التام والكامل نحو الخلافة الفاطمية فى القاهرة ومذهبها الشيعى الإسماعيلى .

ولكن الظروف الجديـدة التى أحاطت بدولة الفـاطميين فى مصر كانت تحول بينهم وبين إحكام قبضتهم على أفريقيـة ، فقد غرقوا فى شئـون مصر ومشاكلها ، وفى خلال القـرن الرابع الهجـرى / العاشر الميـلادى ، كانت مصر تسير ــ رغم التقلبات السيـاسية الكبيرة التى مرت بها ــ فى الطريق الذى جعلهـا أواسط هذا القرن أضخم وأقوى وحدة سياسيـة فى الشرق الإسلامى كله ، فقد تمتعت البلاد

بأمـان كامل من الأخطـار الخارجية ، وعلى الـرغم من ضعف الدولـة العباسيـة وعجـزها عن القيـام بشئون دولتهـا ، إلا أن مصر سارت فى طـريقها التـاريخى الطويل بفضل الطولونيين أولاً ثم الإخشيديين بعد ذلك .

فظهـرت من جديـد على مسرح التـاريخ دولـة قائمـة بـذاتها داخل إطارهـا الجغـرافى الذى عـرفها النـاس فيه من آلاف السنين ، وانتظمت أمـورها الإداريـة الداخليـة دون هزات أو اضطرابـات عنيفة ، وصدق عليهـا قول ابن حـوقل الذى زارها فى العصر الفاطمى : « ولمصر قانون ونظام ودولة » .

وعندما دخل المعز ورجالـه مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وجدوا أنفسهم فى بلـد هو أضخم وأغنى بكثير ممـا تصوروا ، وذلك اقتضى منهم جهـداً ضخماً فى السيطرة على إدارة كبيرة مستقـرة الإطار مئـات السنين . ثم إن إسلام أهل مصر كان يجتاز مراحله الأخيرة ، وكانت الغـالبية العظمى من سكان البلاد تمتد حتى بلاد النـوبة ، قد دخلت فى الإسـلام ، وذلك بدوره اقتضى تغييراً شـاملاً فى إدارة الـدولة وسيـاسة حكمهـا . وبينما كانت مصر الطـولونيـة مثلاً دولـة يغلب على سكانها الـدين المسـيحى ، ومن ثم فلم تكن بـذات وزن كبير فى توجيـه شئون الدولة الإسلامية ، فإن مصر التى دخلها المعـز كانت دولة غالبية أهلها مسلمون مستعـربون أو عـرب ، ونتيجـة لـذلك بدأت مصر تقـوم بـدور متـزايد فى عـالم الإسلام. وكـان على المعز وخلفائه أن يتـولوا تـوجيه شئون مصر فى هـذا الدور ، ولكنه لم يحكم مصر إلا أربع سنوات .

وهذا كله جعل من المستحيل على الفاطميين أن يـوجهوا الاهتمام اللازم نحو شئون أفريقية والمغرب ، فتخلـوا مرغمين عن السلطان الحقيقى عليهما ، واكتفوا من ولاتها بالطاعة الرسمية ، وفى نفس الوقت أخذ استقلال بنى زيرى فى أفريقية والمغرب الأوسط يتحـول إلى حقيقة واقعة ، ولم يعـد من الممكن أن تعود أفـريقية والمغرب الأوسط إلى التبعية للمشرق من جديد .

ويذهب بعض المؤرخين الفـرنسيين ـ وخاصـة جورج مارسيـه ـ إلى أن ذلك كان نتيجة لنفور البربـر من العرب وعدائهم لهم واتجاههم إلى الاستقلال عنهم ،

وهذا غير صحيح لأنــه كان فى الواقع كما رأينا نتيجــة لتطور داخلى طبيعى داخل المغرب الإسلامى نفسه .

فكما استقلت مصر مثلاً عن الخلافـة العباسية دون عداء ـ كـان يكنه شعب مصر للدولة الإسلامية العامــة ، بل لأن هذا الاستقلال بطبيعته ، كان لابد أن يتم نتيجـة لتطور مصر الـداخلى ــ فكذلك حـدث فى أفـريقية والمغـرب ، لأن اكتمال الإســلام والاستعراب كـان فى كل مكان الخطـوة الحاسمة نحـو نضوج الـوعى المحلى وظهور الشخصية الإقليمية ثم الاستقلال الحقيقى .

ومثل هذا يقــال أيضًا عن انفصــال المغرب الأوسط عن أفـريقية وقيــام دولة مستقلـة فيه على يـد بنى حماد ، فلم يكن ذلك راجعاً فحسب إلى قـدرة بنى حماد وسيــاستهم ، بل كـان النتيجـــة الطبيعيــة للتطــور الـداخلى فى المغــرب الأوسط الإسلامى مـن أيام بنى رستم ، بل من أيـام الثـورة البربريـــة الكبرى . وفضل بنى حماد يتلخص فى أنهم قادوا هذا التطور فى مـراحله الأخيرة ، وأعطوا استقلال المغرب الأوسط عن أفريقية صورته السياسية المحددة .

أما المغرب الأقصى فقد بدأت عملية الاستقلال تتجلى فيه من أيام قيام الدولة الإدريسية كما رأينا ، ومع أن الأدارســة لم يستطيعوا السير بعملية الاستقلال إلى نهايتهــا فسقطـوا أخيراً تحت وطأة النــزاع الضخم بين الفــاطميين الشيعيين من المشرق والأمويين السنيين من الشمال ، إلا أن المغرب الأقصى لم يعد بعد ذلك قط إلى التبعيــة ، لا إلى المشرق ولا أفــريقيــة والمغــرب الأوسط . وكــان عليــه أن يشق طريقه فى عُسْــر خلال القــرن الرابع الهجرى ، حتى إذا أَهَلَّ القرن الخامس كان الكيان الداخلى للمغرب الأقصى الإسلامى الغــربى قد وصل إلى درجة النضوج ، فأخذت شخصيته المستقلـة تزداد وضوحاً شيئاً فشيئــاً ، حتى أخــذت صورتها الجلية على أيدى المرابطين كما سنرى .

وقد تمكن المعز لدين الله الفاطمى من المحافظة على تبعية بنى زيرى له ، لأنه اتبع معهم سياسة ماهرة تضمن له مظــاهر تلك التبعية ، ولا تتعارض مع ما كان بنو زيــرى يطمعون إليه من الاستقــلال فى الحقيقة ، ثم إنــه كما قلنا لم يحكم فى مصر إلا سنوات أربع .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥م رأى هذا الأخير أن بنى زيرى يتجهون نحو الاستقلال بصورة ظاهرة أيام **أبى الفتح المنصور ابن زيرى**، ففكر فى أن يضع العراقيل فى طريقهم ويعمل على إضعاف بنى زيرى حتى يظلوا دائماً فى حاجة إلى تأييد الفاطميين، فأرسل داعية شيعياً يسمى « **أبا الفهم** » لكى يثير قبائل كتامة على أبى الفتح المنصور وفعلاً انضمت إليه جموع منهم، ولكن المنصور انتصر عليهم وقتل أبا الفهم، مما اضطر العزيز إلى العدول عن سياسة التدبير السيىء من وراء ستار، فعاد إلى مصانعة المنصور ومهادنته، وكان ذلك سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م أى بعد انتقال الفاطميين من المغرب وقيام الدولة الزيرية بثلاثين سنة.

وعندما تولى **الحاكم بأمر الله**، ثالث خلفاء الفاطميين فى مصر، كان عرش بنى زيرى قد انتقل إلى نصير الدولة باديس، وهو أيضاً ثالث بنى زيرى على أفريقية. فأراد الحاكم بأمر الله أن يختبر قوة نصير الدولة، فأرسل إلى واليه على برقة (وكانت جزءاً من مصر) يامره بالاستيلاء على طرابلس (وكانت جزءا من ولاية أفريقية والمغرب) وبالفعل استولى والى برقة على طرابلس، ولكن نصير الدولة باديس هزمه وأخرجه من البلاد، وعاد الحاكم فحاول أن يعطى طرابلس للزناتيين أعداء الصنهاجيين، فعهد إلى **فلفل بن سعيد المغراوى الزناتى** فى دخول طرابلس وحكمها، ولكن نصير الدولة باديس تمكن من القضاء عليه وعلى أخيه من بعده، وهنا نجد الخليفة الحاكم يعود إلى مصانعة باديس واسترضائه بالهدوء.

ولكن الأمر تغير عندما تولى الأمير **المعز بن باديس** فى ذى الحجة ٤٠٦هـ/ مايو ١٠١٦م وكان المعز كما قلنا أميراً قوياً، اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه، ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين وإلغاء المذهب الشيعى فى المغرب جملة. وقد تم له ذلك، بعد تطورات كثيرة فى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، فأعلن المعز بن باديس فى القيروان عودته إلى المذهب السنى المالكى، ورحب شعب القيروان بذلك ترحيباً شديداً، حتى قامت ثورة على من كان فى القيروان من الشيعة. وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسى القائم

بأمر الله ، يطلب منه عهداً بتوليته على أفريقية والمغرب ، فأرسل إليه الخليفة رايات سوداً وخلعاً سوداً ، وعهداً بالولاية . وهكذا انفصلت دولة بنى زيرى وبلاد أفريقية والمغرب عن مصر والمشرق كما قلنا ، وسار ذلك الجناح الغربى لدولة الإسلام فى طريقه من ذلك الحين .

دخول العرب الهلالية بلاد المغرب :

ينحدر **بنو هلال بن عامر بن صعصعة** وأبناء عمومتهم بنو سليم بن منصور من قيس عيلان بن مضر ، ولكنهم كانوا يختلفون فى طبيعتهم وأخلاقهم عن أجدادهم هوازن بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأقواها وأبعدها أثراً فى الفتوح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ثم الأمويين .

وبنو هلال وبنو سليم الذين نتحدث عنهم يدخلون فيمن يسميهم ابن خلدون بعرب الجيل الرابع أو العرب المستعجمة ، الذين فقدوا خلق العرب الأول ، ولم يَعُدْ لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ، ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس كالبويهيين والترك والغز والسلاجقة ومن جاء بعدهم ، ولهذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها ، وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار دون أن يؤذن لهم فى دخولها وسكناها ، وقست عليهم الدول فانحصروا فى صحرائهم ، وهناك اشتد بهم الفقر ، واعتمدوا فى معاشهم على الغارات يشنونها على الحجاز وأطراف الشام والعراق . وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون قوافل الحج وينهبونها ، حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون . « خولاً وأتباعاً للدول وشراً وبلاء على الحضر » .

إلى جانب ذلك فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة . وفسدت لغتهم واستعجمت ألسنتهم إلى ما يشبه لهجات البدو فى بعض نواحى جزيرة العرب اليوم ، وشابت لغاتهم ألفاظ وعبارات أعجمية ، فاستعجمت ألسنتهم ، ولهذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة .

وعندما قامت حركة القرامطة انضم إليها بنو سليم مع نفر من بنى ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ودخلوا بجيوشهم فى عمان والبحرين ، واشتركوا فى الحرب ضد الفاطميين فى الشام ومصر والحجاز . وعندما تغلب المعز لدين الله على القرامطة وأرغمهم على الارتداد إلى البحرين انفصل بنو هلال وبنو سليم عنهم ومالوا إلى الفاطميين ، فنقلهم العزيز بالله الفاطمى إلى صعيد مصر ، وأسكنهم الضفة الشرقية من النيل واشترط عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية ، وكان هدفه من ذلك الحيلولة بينهم وبين الانضمام إلى أعداء الفاطميين فى المغرب . فأقام من انتقل من بنى هلال وبنى سليم فى الصعيد الأعلى ، وآذوا الفلاحين إيذاء شديداً . فأما بنو سليم فقد اندمج الكثيرون منهم فى كتلة السكان فى الصعيد ، وأما بنو هلال فقد ظلوا بدواً ، ومن أكبر قبائلهم « جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى والزواودة » .

وفى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها وبعض ، « وعَمَّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم » كما يقول ابن خلدون(١) وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمى فى مصر .

فى ذلك الحين كان المعز بن باديس قد أعلن استقلاله عن الفاطميين وعاد إلى المذهب السنى ودخل فى طاعة الخليفة العباسى ، وكانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أى إجراء ضده . وهنا خطرت ببال الوزير الفاطمى أبى محمد الحسن ابن على اليازورى فكرة إقطاع بنى هلال وبنى سليم بلاد أفريقية والمغرب ونقلهم إليها ، وكان رأيه أنه إذا تمكن الهلاليون من القضاء على دولة بنى زيرى ، كان ذلك خيراً للدولة الفاطمية ، فإن استقلال بنى زيرى وعودتهم إلى مذهب السنة كان يؤرق بال الخليفة الفاطمى ورجاله ، فإذا حدث العكس وقضى بنو زيرى على بنى هلال كان هذا خلاصاً من هؤلاء دون أن تخسر الدولة شيئاً . ولم يفكر هذا الوزير الفاطمى فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بأفريقية وأهلها .

---

(١) ابن خلدون ـ العبر جـ ٦ ص ٣٠ .

ومع أن العرب الذين دخلوا مصر واستقروا فيها كانت غالبيتهم من بنى سليم ، فإن اسم بنى هلال غلب عليهم جميعاً ، لأنهم كانوا أوغل فى البداوة وأعنف من بنى سليم فى معاملة الناس وإنزال الضرر بهم ، فأصبح الكل ينسبون إلى هلال بن عامر بن صعصعة وسموا هلاليين ، أو هلالية .

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء ، بجموعهم إلى الغرب واتجهوا نحو برقة ، وكان الخليفة الفاطمى قد أقطعهم أفريقية والمغرب وأعطاهم ما سماه « ملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الآبق فلا تفتقروا بعد ذلك » .

وصل بنو هلال إلى برقة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١م ووجدوها خالية من السكان تقريباً بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من زناتة وقوات بنى زيرى الصنهاجيين ، فاستقر فيها نفر من بنى سليم فى برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وأفريقية ، فاستقروا فيها دون أن يلقوا مقاومة ، وأرسلوا إلى بقية بنى عمومتهم فى الصعيد يستدعونهم ، فلحقت بهم جماعات كبيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرياحى شيخ بنى رياح ، أحد فروع بنى هلال ، وكان رئيساً بدوياً شجاعاً مغامراً ، وكان له سلطان كبير على رجاله . فلما استقر فى طرابلس أصبح سيد هذا الإقليم الواسع ، وانعقدت له رياسة بنى هلال وبنى سليم فى انتقالهم إلى أفريقية وتوغلهم فى أراضى بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين . ويصعب تقدير عدد بنى هلال وبنى سليم الذين دخلوا المغرب ، ولكن الأغلب أن الكتلة الأولى التى هاجرت منهم كانت حوالى ٥٠,٠٠٠ فرد ، ثم تلاحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل ، ويقدر مجموع الذين دخلوا المغرب منهم بمائة ألف ، بما فى ذلك النساء والصغار .

تغريبة بنى هلال ونشوء ملحمة أبى زيد الهلالى :

وقد سميت هجرة بنى هلال هؤلاء إلى المغرب بالغزوة الهلالية أو تغريبة بنى هلال أو « التغريبة » فقط ، وقد دارت بينهم وبين الزناتيين فى طرابلس أول الأمر ، معارك طويلة مليئة بالمغامرات والوقائع ، وكانت أخبار هذه الوقائع تصل إلى الباقين منهم فى مصر ، فينظمها شعراؤهم فى صورة قصص شعبى عربى مصرى ، عُرِفَ فيما بعد بقصة الهلالية ، وبطل القصة يسمى « أبو زيد الهلالى » ،

أما خصمه فيسمى خليفة الزناتى أو الزناتى خليفة . وهذه الملحمة تعتبر من أشهر آثار الأدب الشعبى العربى وإن لم تكن من أكثرها جمالا ، ولكنها تمتاز بطابع شعبى خالص يجعلها شيئاً فريداً فى الأدب العربى كله . ومن نماذج شعرها قول بدر الهلالى يخاطب بواب قصر شكر صاحب مكة وزوج الجازية بطلة القصة ، ويرجوه أن يفتح له باب مكة ليزور قبر النبى ﷺ :

انا اول كلامى	مَدَحْتُ التُّهامى	تظلله الغمامى	له الحج راح
يارب أزوره	واتملى بنوره	وأشاهد قبوره	وتلك النواح
واقول ياحبيبى	يامسكى وطيبى	مدحك من نصيبى	مسا ، مع صباح
لك يوم الهجيرى	غمامة تسيرى	وانت البشيرى	بكل الصلاح
يابواب افتح لى	الباب المصفح	من دخله يربح	وينال الفلاح

وقصة بنى هلال فى الأدب تختلف عن وقائع التاريخ اختلافاً بيناً . فهى أشبه بالصدى البعيد لحوادث التاريخ ، مثلها فى ذلك مثل كل الملاحم الشعبية مثل «أنشودة رولان » و« قصيدة السيد » . فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال عشقها فتى من أقاربها ،وأراد الزواج منها ، فلم يرض أهلها عن الزواج بعد تمامه ، واحتالوا على الفتاة واسمها الجازية، ومضوا بها إلى المغرب بعد أن خدعوا صاحبها . وفى المغرب زوجوها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقاً بزوجها الأول حتى ماتت ، ومات هو أيضاً هياماً بها بعد حرمانه منها . وتدور القصة بعد ذلك على محور الصراع بين قبائل بنى هلال بعضهم وبعض ، وما وقع لهم من الحروب فى المغرب ، وكلها تبدو للقارىء وكأنها أضغاث أحلام تضم بعض لمحات من الجمال الشعرى والقصصى .

استقر بنو هلال فى برقة وخرَّبوا مدنها مثل المدينة الحمراء (برقة) وأجدابية وامتد أذاهم إلى طرابلس وفزان ، وانتهى الأمر بأن سادوا معظم سكان هذه النواحى واختلطوا بهم .

وأما بنو هــلال فساروا فى جموعهم إلى أفريقيــة « كالجراد المنتشر لا يمرون على شىء إلا أتوا عليه » كما يقول ابن خلدون[1] .

ويسرف ابن خلــدون فى تفصيل ما أنــزله للهــلالية فى أفــريقية والمغــرب من خراب . والحق أن بنى هلال ومن دخل معهم من العــرب ، يختلفون كل الاختلاف عمن عرفنا من عرب الأجيال الأولى ، التى قامت بــالفتوح الإســلامية المجيــدة ، لأن بنى هــلال لم يكونــوا جيوشــاً نظــامية ، ذات هــدف دينى أو قومى معنــوى واضح ، كما رأينا فى فتــوح العرب الأولى ، وإنما كانــوا بدواً ظلوا طــوال تاريخهم بدواً ، ولم يغيروا طبعهم البــدوى أبداً ، لأن طول إقامتهم فى البــوادى وقوة الدول عليهم وإخراجها إياهم من كل نطــاق حضارى ، جعلتهم بدواً من قمة رأسهم إلى أخمص قدمهم ، فهم يتحركون ويتصرفــون جماعياً . ويطيعون رئيس القبيــلة ولا يعــرفون رئيســاً غيره ، ولا يــرون فى العمران إلا مجالاً للغــارة والنهب ، وهم يغيرون على المزارع والمنشآت دون أن يتنبهوا إلى أهميتهــا وقيمتها ، بل يسعدون بأن يصيبوا منهــا ما يقدرون عليه ويعيثــون فيها فساداً ، فهم يقتلعــون الأبواب ويستعملون أخشــابها وقوداً للنار ، ويطلقون قطـــعانهم فى المـــزارع تأكـــل الحاصـــلات دون تفكير ، ولا يعتـــزون إلا بشىء واحـــد : « العصبيـــة » فهم يتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لأى شىء آخر .

هذا كله غاب عن خاطر المعز بن باديس الذى تصور أنه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من صنهــاجة ، وتصور أنه يستطيع اتخاذهم جنداً ويستغنى بهم عن الكتــاميين وغيرهم ، ولهذا رحب بمؤنــس بن يحيى الريــاحى ، دعاه إلى الوفود عليه بقومــه ، فكان فى ذلك مستجيراً من الرمضاء بالنار . ذلك أن مؤنساً وقــومه عندما دخلــوا أفريقية أفزعــوا المعز فزعاً شــديداً إذ رآهم يخربون ويحرقون وينسفــون المزارع ، دون أدنى تفكير . فسارع إلى القبض على مــؤنس الرياحى ، وكان يقيم فى القيروان وطلب إليه أن يخرج قومه من بلاده ولكن الأوان كــان قد فــات ، لقد دخل بنــو هلال بــلاد أفريقيــة وأنشبوا أظــافرهم فيهــا ولن يستطيع هو أو قومه إنقاذها منهم .

---

(١) ابن خلدون ، العبر جـ ٤ ص ١٣١ .

واستنجد المعز بابن عمه حماد صاحب القلعة ، فاتجه بألف فارس واستصرخ زناتة فأقبل إليه المستنصر بن خزرون بألف فارس من زناتة . وجمع هو جنده وانضم إليه بقايا العرب البلديين وهم عرب الفتح ، ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا للهلالية عندما دارت المعركة .

دارت المعركة بين أهل أفريقية ، يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية ، عند مكان يسمى « حيدران » قرب قابس فى ذى الحجة ٤٤٣ هـ/ أبريل ١٠٥١م وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظراً لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وكانت غالبية الهلالية فى هذه المعركة من بنى رياح وعدى من بطون الهلالية ، ولكن انفصال العرب البلديين عن جيش المعز أضعف صفوفه وجَرَّ عليه الهزيمة ، فقضى الهلاليون على جيشه تماماً . فتراجع وتحصَّن فى القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها .

وعبثاً حاول المعز أن يصدهم عنها ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمرائهم دون جدوى ، وأخيراً اضطر إلى الانسحاب بجنده وذخائره إلى المهدية ، وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل ، فى طرف لسان بارز فى البحر إلى شمال سوسة . وفى رمضان سنة ٤٤٦ هـ/ ديسمبر ١٠٥٤م ، دخل الهلاليون القيروان وخربوها تماماً كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وأفريقية وجعلوها حطاماً ، وقتلوا من أهلها من قدروا عليه وتفرق الباقون فعَمَّ الخراب البلاد .

وقضى المعز السنوات الأخيرة من حكمه سجيناً فى المهدية وشريط من الأرض حولها ، حتى توفى سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٣ م بعد أن رأى بعينيه خراب بلاده . وخلفه ابنه تميم الذى اقتصرت دولته على المهدية وأجوازها وصفاقس وقابس وجزيرة جربة .

وتعتبر هذه نهاية بنى زيرى فى أفريقية ، رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالمساحة التى ذكرناها من أرض أفريقية ، أما الباقى فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة ، وانقسمت البلاد إلى إقطاعيات صغيرة وضاعت وحدتها.

وهذا هو الذى أطمع النـورمان فى سواحل أفريقية ، وكانـوا قد غزوا صقلية فى ذلك الحين ، ثم لم يلبثوا أن تطلعوا إلى سيادة أفريقية .

سقطت صقلية فى يـد روجر الأول النورمنـدى بعد حرب قصيرة بـدأت سنة ٤٤٤ هـــ/ ١٠٥٢م وانتهت فعلاً سنــة ٤٦٤ هـــ/ ١٠٧١ م بعـد أن خرج آخـر المدافعين عنها وهو **ابن الحواس** بأهله وماله إلى أفريقيــة . وقد ظلت « قصريانة » تـدافع عن نفسهـا ثـلاث سنوات بعـد ذلك ،ثم استسلمت وفى سنــة ٤٨٤ هـــ/ ١٠٩٢م سقطت بلرم ، فانتهى أمر المسلمين فى صقلية من الناحية السياسية .

وقــد طالت الحروب بين تميم بن المعـز والنـورمان فى البر والبحـر ، وتقلبت علاقاتــه معهم بين صلح وحرب ، وبعد وفاة تميم بن المعـز جاء ابنه على بن تميم ابن المعز ، وبـدا بوضوح أن النورمــــان سيتمكنون من الاستيلاء على المهـدية ، فاستنجد بـا لمرابطين ، وكانت دولتهم قد قامت فى المغـرب الأقصى . وبالفعل قام أسطول مرابطى بغزو صقلية والاستيلاء على مـدينة « نقوطرة » سنة ٥١٦ هــ/ ١١٢٢ م .

وبعد انصراف المرابطين جمع « روجـر » أو « رجار » أسطـولاً ضخماً وأعلن على المهدية حروباً صليبية . وعجـز الحسن بن على بن تميم بن المعـــز عن الدفاع عن بـلاده ، فسقطت المهديــة سنة ٥٤٣هــ/ ١١٤٨ م ، وكـذلك كل مدن ســاحل أفريقية وطرابلس فى يد النورمان .

وظل الحال كذلك حتى تمكن الموحدون من طردهم وتخليص البلاد منهم .

نهاية دولة بنى حماد أصحاب القلعة :

توقيـــت :

حماد بن يوسف (بلكين) بن زيرى	١٤٩ ـ ٤٤٦ هـ/ ١٠٢٨ ـ ١٠٥٤م
القائد بن حماد	٤٤٦ ـ ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٤ـ ١٠٥٥م
محسن بن القائد	٤٤٧ ـ ٤٥٤ هـ/ ١٠٥٥ـ ١٠٦٢م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٥٤ ـ ٤٨١ هـ/ ١٠٦٢ـ ١٠٨٨م

الناصر بن علناس	٤٨١ ـ ٤٩٨ هـ/ ١٠٨٨ ـ ١١٠٤م
المنصور بن الناصر	٤٩٨ ـ ٥٠٠ هـ/ ١١٠٤ ـ ١١٠٦م
باديس بن المنصور	٥٠٠ ـ ٥١٥ هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٢١م
العزيز بن المنصور	٥١٥ ـ ٥٤٧ هـ/ ١١٢١ ـ ١١٥٢م

ذكرنا كيف انقسمت دولة بنى زيرى إلى دولتين ، إحداهما فى أفريقية وعلى رأسها بنو زيرى بن مناد الصنهاجى الذين رأينا نهايتهم . والأخرى فى المغرب الأوسط يتولاها بنو حماد أبناء عمومة بنى زيرى . وقد اتخذ بنو حماد مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جنوبها قلعة ضخمة أشبه با لمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بنى حماد . وكانت هذه القلعة هى حصن أمراء بنى حماد ، الذى يلجئون إليه وقت الخطر ، كما كان الحال مع المهدية بالنسبة للفاطميين وبنى زيرى والقصر القديم بالنسبة للأغالبة والمنصورية بالنسبة للفاطميين فى أخريات أيامهم فى أفريقية ، وبلغ من ضخامة قلعة بنى حماد أن نسبوا إليها وأصبح اسمهم فى الكثير من كتب التاريخ بنى حماد أصحاب القلعة .

وقلعة بنى حماد تعتبر من أعاظم القلاع التى أنشأها المسلمون فى تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الأكراد فى الشام ، التى بناها الصليبيون فى الشام واستولى عليها صلاح الدين ، وقلعة صلاح الدين فى القاهرة ، فهى فى الحقيقة مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قصبة ، أى حصن منيع داخلى ، ومازالت بقاياها قائمة فى بلاد الجزائر إلى اليوم .

ومن الملاحظ أن ظروف القلق وعدم الاستقرار التى عرفتها أفريقية منذ قيام الثورة المغربية الكبرى فى النصف الأول من القرن الهجرى الثانى ، جعلت الدول التى قامت هناك لا تعتمد على القبائل أو سلطة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والجند المرتزق والسلاح .

وعندما ضاقت أشير عن أن تكون عاصمة دولة كبيرة بعض الشىء ، انتقل الأمير الناصر بن علناس بن حماد إلى مدينة بجاية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م بعد أن أعاد بناءها وجددها وجعلها عاصمة دولته .

كان **حماد بن يوسف بن بلكين بن زيرى** ، أول أمراء هذه الأسرة ، وقد نجح فى مَدِّ سلطانه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر المولوية . وكان المعز بن باديس قد اضطر قبل ذلك إلى الاعتراف بابن عمه حماد أميراً مستقلاً على المغرب الأوسط سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٥ م .

وفى سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م صار عرش دولة بنى حماد إلى **الناصر بن علناس بن حماد** وهو أعظم أمراء هذه الأسرة ، وقد اتخذ بجاية عاصمة له كما قلنا وانتقل إليها سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م وظل يحكم المغرب الأوسط حتى سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م .

وخلفه ابنه المنصور الذى بلغت الدولة أَوْجَها فى عصره ، وقد عنى **المنصور ابن الناصر بن علناس** بالمنشآت والقصور . وفى أيامه أصبحت بجاية أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمراناً .

وكان آخر أمراء هذه الدولة هو **يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر ابن علناس** . وكان العرب الهلاليون قد دخلوا المغرب الأوسط وقضوا على عمرانه ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة إلى ما كانت عليه . وأخيراً تمكن **عبد المؤمن بن على** ، أول خلفاء الموحدين ، من دخول بجاية سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م ، وهكذا انتهت دولة بنى حماد . وبعد ثمانى سنوات ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م دخل عبد المؤمن ابن على أفريقية واستعاد المهدية من النورمان ، وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا توحد المغرب كله من طرابلس إلى المحيط الأطلسى على يد الموحدين .

دولتا بنى زيرى فى الميزان :

تعتبر دولة بنى زيرى فى أفريقية وفرعها دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ، من صغار دول المغرب ، فقد ظلتا أمداً طويلاً تابعتين للفاطميين حتى قام المعز ابن باديس بالاستقلال عنهم .

ودولة بنى زيرى أول دولة مغربية خالصة يقيمها البربر الذين تم استعرابهم ، وأصبحوا عضواً أساسياً فى جماعة العروبة والإسلام . وقد رأينا أن

أمراء هذه الدولة بذلوا جهداً مشكوراً فى تنظيم البلاد وحكمها وإن شابت حكمهم قسوة وعنف ، سواء مع رعاياهم أو خصومهم . وكان فيهم ميل إلى الترف والبذخ ، ولكن ذلك كان على صورة بدوية ساذجة ، وقد أنفقوا فى ذلك الترف الساذج أموالاً طائلة ، ونفروا بجفوتهم وقسوتهم الكثير من القبائل ، وقد استنفدوا قواهم فى حروب عقيمة على مدى قصير ثم ظلت دولتاهما تحتضران بعد ذلك ، ومهما كان الأمر فلم يكن بنو زيرى وأبناء عمومتهم بنو حماد أسوأ بكثير من غيرهم من أصحاب الدول فى القرن الرابع الهجرى وما يليه ، فقد تقسم العالم الإسلامى ، فيما عدا الأندلس ، كله إلى دويلات صغيرة يحكمها مستبدون بالأمر يهجمون على السلطة وينتزعونها انتزاعاً دون حق ، ويحكمون بقوة جنود مرتزقين يشترونهم بالمال ويسلطونهم على الناس ، ووسط هؤلاء العتاة والمستبدين الذين تقاسموا عالم الإسلام فيما بينهم ، من حدود الصين إلى حدود الأندلس ، يعتبر بنو زيرى وبنو حماد من أفضل هؤلاء الحكام وأكثرهم حرصاً على راحة رعاياهم ومصالح بلادهم . ويلاحظ أنهم على الجملة كانوا حريصين على إقامة العدالة فى بلادهم ، ولم ينصرفوا إلى اللهو والعبث انصرافاً شائناً كما نرى عند الكثيرينِ من أمراء هذه العصور ، وإذا كانوا لم يوفقوا فى الوصول ببلادهم إلى أحسن مما استطاعوا ، فإن الذنب كله لم يكن ذنبهم ، وإنما يرجع ذلك إلى قلة نصيبهم من الحضارة والتثقيف فقد كانوا رؤساء قبليين فى ثياب أمراء ، ولكنهم كانوا ذوى بسالة وهمة . وقد بذلوا أقصى ما فى قدرتهم ، ثم إن بلادهم كانت فقيرة ، وكانت تحتاج إلى سنوات طويلة من الهدوء لتستعيد عمرانها بعد الفتن التى مرت بها . فلما وصلت الدولتان إلى الاستقرار المنشود ، أيام المعز ابن باديس وابنه تميم بن المعز فى أفريقية والناصر بن علناس فى المغرب الأوسط ، جاءت الغزوة الهلالية فكانت عاصفة قوضت دعائم الدولتين جميعاً .

بل إننا نلاحظ أن بنى زيرى وبنى حماد كانوا أحرص على التمسك بالدين واحترام رعاياهم أكثر مما فعلت دولة الفاطميين نفسها . وقد نهج بنو زيرى سياسة مغربية واضحة ، فلم يكن لهم اهتمام شديد بما كان يجرى فى المشرق ، بل انصرفوا إلى محاربة زناتة وحاولوا حماية بلادهم من الأمويين فى الأندلس .

وكانت الدولتان تجربتين موفقتين للحكم المحلى فى المغرب ، وهما خطوة بين أفريقية التابعة للمشرق وأفريقية والمغرب الأوسط القائمين بأمر بلادهما دون تبعية أو سند خارجى . ولا شك فى أن المعز بن باديس والناصر بن علناس يعتبران من عظام أمراء العالم الإسلامى فى عصرهما ، وقد ساعدت سياستهما على إظهار شخصية المغرب الإسلامى وإعطائها ملامحها المميزة وسط بلاد العالم الإسلامى .

وقد قامت دولة بنى زيرى بدور كبير فى تاريخ البحر المتوسط ، فقد وقفت فى وجه النورمان وحدها زمناً طويلاً ، وكان المعز بن باديس وتميم بن المعز موضع احترام ملوك النورمان ، وكذلك كان الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد أصحاب القلعة ، نِدًّا لـ « روجر » ملك صقلية النورمانية ، ولم يضعف أمر بنى زيرى أمام النورمان إلا بعد أن حطمت الغزوة الهلالية قواهم واستولى الأعراب على معظم بلادهم فأصبحت دولتاهما صغيرتين ضعيفتين . ومع ذلك فقد كان نشاطهما البحرى عظيماً .

وقد ضاعت صقلية من أيدى المسلمين أيام بنى زيرى ، ولكنهم لم يكونوا مسئولين عن ذلك ، بل تقع المسئولية على الفاطميين الذين احتفظوا بصقلية تابعة لهم بعد انتقالهم إلى مصر ، وكانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا من هناك القيام بما كانت حماية صقلية تتطلبه ، ولكن أنانيتهم أبَتْ إلا أن تفصل صقلية عن أفريقية ، التى كانت البلد الإسلامى الوحيد الذى يستطيع إنجاد صقلية ، وهكذا ضاع قطر إسلامى (هو صقلية) بسبب أنانية الفاطميين .

الرأى فى الغزوة الهلالية :

رأينا أن عرب بنى هلال وبنى سليم ، ومن انضم إليهم من عرب الجيل الرابع من قيس عيلان ، أنزلوا بأفريقية والمغرب الأوسط خراباً بالغاً كان له أبعد الأثر فى تاريخ البلاد ، وشرحنا أسباب الأعمال الهمجية التى قام بها أولئك الناس ، وجعلت مع دخولهم البلاد ، نكبة كبرى على تاريخها . بل يبلغ الأمر أننا فى تأريخنا للمغرب نقول :إن غزوة بنى هلال تعتبر الخراب الأكبر للمغرب ، فقد

قضت على عمرانه وعلى جهود الدول الماضية فى بناء حضارته ، فكـــان على أهله أن يعيدوا إنشاءها من جديد .

ولكن بنى هــلال أدوا مع ذلك خدمــة كبرى بالنسبــة لعروبــة المغرب ، فقـد أضعفت جموعهم قوى تلك القبـائل الزنـاتية ، التى كانت تحاول سيـادة المغرب بالقوة والعنف وتخريب أعمال الدول المستقرة بصورة مستمرة ، ثم إن الهلاليين انتشروا فى كل ناحية فى البلاد الممتدة إلى أحواز المغرب الأقصى ، وسكنوا السهول والجبال والســواحل وصاهـروا الناس فكـان عملهم هذا إكمالاً لتعـريب المغرب ، فتحولت بلاد الجريد فى تونـس وبلاد المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) إلى بلاد عربيــة إسلاميــة خالصــة تتكلم العربيــة وتحس بأنها جزء من العـالم العربى . ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربياً على الصورة التى نراها الآن .

لم تكن الغزوة الهلالية إذن شراً خالصــاً ، بل كانت شراً تأتّى عنه خير كثير . وإذا كنا نفخر اليــوم بالمغرب العربى ، فإن الفضل فى ذلك يــرجع إلى أولئك البدو الذين عــاشوا وانتهــوا بدواً مخربين ، ولم يتعلمــوا قط الانتظام فى دول أو احترام مظاهر العمـران . ومن الأسف أن ابن خلدون عندما تحدث عن العـرب فى مقدمته كان متأثـراً فى كلامــه وأحكامــه بما فعله الهلاليــون فى المغرب ، فجـاءت صورة العرب فى المقدمة قاتمة جداً .

لقـد غيَّر بنو هــلال التكوين البشرى لأفــريقيــة والمغرب الأوسط ثم المغــرب الأقصى فيما بعد ، فأصبحت العروبة أغلب عليهم من البربــرية . ولقد أباد أولئك الهلاليــون قبائل كثيرة ، ودفعــوا قبائل أخــرى إلى الهرب أمامهــا نحو المغــرب ، فخلت بلاد الجريد وقسطنطينة والزاب فى أفريقية من أهلها الأولين ونزلتها بطون الهلالية وتكاثرت فيها ، وشيئاً فشيئــاً ثاب إليها أهلها من البربر أو من بقى منهم واختلط الشعبان اختلاطــاً تاماً ، فأصبح المغرب من أكبر بلاد العــروبة وأعمقها إسلاماً .

وهكذا نــرى كيف كانت عوامــل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وإدمــاجه فى الكتلة العربيــة ، فبعد جهود العرب الأول وصراعهم مع البربــر وتحويلهم أفريقية

إلى بلاد عربيـة الحضارة واللسان داخلة فى عالم السنة والجماعـة ،جاء الأدارسة فنثروا فى أرض المغرب الأقصى بذور عروبة طيبة ، ثم أتى الهلاليون من المشرق فبذروا بذوراً أخـرى لم تلبث أن أثمرت ثم أينعت ، وإلى جانب ذلك كـان مهاجرة الأندلسيين يُقبلـون إلى المغرب ، حاملين علماً كثيراً بثـوه فى نواحى المغـرب كلها . وعندما تقوم دولة المرابطين تكون الأرض قد تمهدت لقيام الدولة العربية المغربية الكبرى .

***

دولــة المــرابطين

رغم ما انتهت إليه تجربة دولة الأدارســة من توفيق يقل كثيراً عما كان ينتظر لها ، ورغم ما بذلته القبائل المؤيـدة لها من جهود فى توحيد أكبر قسم من المغرب الأقصى تحت لواء دولة إســلامية قوية ، تقوم على مــذهب السنة والجماعة ، فإن توفيقهــا السياسى كان قصير العمــر ، نظراً لقلة الخبرة السيــاسية التى أتيحت للكثيرين من قادتها من ناحية ، ثم لأن الظروف التاريخية غير المواتية وضعتها فى مــوضع الصراع بين الفــاطميين الإسماعيليين والمروانيين الأنــدلسيين السنيين . ومع ذلك فقد رأينــا أن التوفيق الحضارى لــلأدارسة كان كبيراً جـداً ، فقد ضمن لهم نسبهم الشريف مكانــة عظيمة فى قلــوب الناس ، ثم إنهم داخلــوا أهل المغرب وصاهــروهم وأصبحوا منهــم وكان لهم أبعد الأثــر فى تعريب أهــل المغرب ونشر اللغــة العربيــة وعلوم الإســلام من منبر جامعــة القرويين . وعنــدما اضطــرتهم الظروف التى أحاطت بهم واضطرت بقاياهم إلى اللجوء إلى قلعة حجر النسر ، كان المغرب الأقصى قــد وجد نفســه فى العروبة والسنــة والجماعة وأخــذ يبنى نفسه قُدماً .

وكانت تجربة الأدارسة كذلك درساً سيــاسياً باقى الأثر فى المغرب ، فقد رأت قبائله كيف قامت فى بلادهم دولة إســلامية منظمة الإدارة ، يقوم على رأسها إمام مطاع مرهــوب الجانب من آل البيت وذؤابة العروبة ، عزت بــه السنة والجماعة ، ويستقيم الإسلام الصحيح بجاهه ، وجاه القبائل البربــرية المستعربة التى تؤيده وتتجلى فى ظله فضائل العــروبة . ويظهر بفضل ذلك كله فضل قبــائل مغربية لم تكن قبل ذلك بــذات شأن سياسى كبير فى المغرب الأقصــى مثل أوربة[1] وغمارة ودكالــة وسدراتة ونفــزة ومكناسة . وبعض هــذه القبائل مصموديــة ، وبعضها صنهاجية ، وبعضها الآخر زناتية .

---

(١) كان لأوربة قبل ذلك شأن كبير فى المغرب الأوسط كما رأينا آنفاً .

كان نجـــــاح هذه القبائل فى إقـامة دولة بنى إدريس ، حافـزاً لزعماء قبائل أخرى ، على محاولة إقامة دول مماثلة لحسابها ليعز بها أمرها . وجدير بالذكر أن تنافس القبائل المغربية على السلطان والسيـادة قوة محركة دائمة لتاريخ المغرب وأحـداثه فى كل عصوره .

وبعد نهاية الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، وخروجهم من حوض نهر سبو وخروج فـاس من أيديهم وانتقال بقايـاهم إلى قلعة حجر النسر فى شعـاب جبال الريف ، استبد بالأمـر موسى بن أبى العافية مؤيـداً بجاه الفاطميين . ولكن الأمر لم يستقر لموسى بن أبى العافية طويـلاً ، لأنه لم يستطع إقامة النظام ، فلم تلبث وحدة القبـائل التى أقامـت دولة الأدارسة أن انفـرطت .وخلال العقـود الأولى من القرن الـرابع الهجرى / العـاشر الميلادى ، عـاد المغرب الأقصى إلى الفـوضى ، وسيطرت عليه جماعـات زناتية معظمهم من مغراوة وبنى يفرن ، وأخـذت زندقة برغواطة تنشط من جديد .

وفى عصور سيادة الزناتيـة تسود الفوضى ويعانى الحضر من ثقل المغارم ، لأنهم لا يحميهم من عـــدوان البـــدو إلا دول الحضر أى البرانس التى تـأخــذ بناصرهم وتحمى المدن وأهلهـا وتعمرها بالمنشآت والمسـاجد ، وهى دور علم فى نفس الوقت .

حدث شىء من هذا بعد القضاء على آخـر الأدارسة على يد مصـالة بن حبوس الصنهاجى ، حـامل لواء الـدعوة الفـاطمية فى المغربين الأوسـط والأقصى ، سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ ـــ ٩٢٦م . وفشل موسى بن أبى العافية الذى أنابـه مصـالة بن حبوس عنه فى حـــكم منطقة فاس ، فعادت قبائل الزناتيـة إلى الاستبداد بالناس من جديـد ، فكانت جماعات المغـراويين واليفرنيين تروع أمن النـاس ، وتلزم من قدرت عليـــه بأداء المغـــرم فى نـواحى مكناسة ورباط تازا فى الشمال ، إلى وادى أم الربيـع فى الجنوب ، بما فى ذلك السهل السـاحلى المسمى ريف تامسنـا ، وامتد سلطـانها إلى سهل دكـالة فيما بين وادى أم الـربيع ومجرى نهر تـانسيفت ، بل

سيطرت بعض فروعهما على سهل السوس وبلاد تافيلالت وعاصمتها سجلماسة.

صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التخلص من سيادة الزناتيين ـ جدالة :

فى ذلك الحين، وبعد النصف الثانى من القرن الهجرى الرابع / العاشر الميلادى كانت تعيش فى أقصى جنوبى المغرب، فيما يلى نهر درعة جنوباً وفى الصحراء التى تليها جنوباً ويسميها البكرى صحراء « تنسر » التى تمتد إلى حوض السنغال، كانت تعيش مجموعة من القبائل الصنهاجية تسمى بصنهاجة الصحراء، أهمها جدالة ومسوفة ولمتونة وتارجا ولمطة وجزولة وبنو وارث. كانت تعيش حياة شظف وجهد فى الشريط الصحراوى الأطلسى بعد أن طردها الزناتيون إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من نواح مثل تافيلالت وأصبحت فى صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب، وكانت قبائل عفية كثيرة العدد، تعيش على الرعى وقليل من الزراعة، وكانت قد دخلت الإسلام، ولكن إسلامها كان سطحياً، فى حاجة إلى عمق وفهم، وكان زعماء بعضها مثل جدالة ومسوفة ولمتونة على جانب كبير من بُعْد الهمة والتطلع إلى كسر هذا الحصار المضروب حولها.

وطول هذه الصحراء التى سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالى ألف كيلو متر، تقطعها القوافل فى شهر لتصل إلى حوض نهر السنغال، وهو أول أنهار أفريقية المدارية الغربية شمالاً، وجدير بالذكر أن لفظ سنغال صورة برتغالية محرفة لاسم صنهاجة، فقد نطقها البرتغاليون لأول وصولهم إلى هذه السواحل سنهاجال Senhagal ثم سنجال Senegal .

وعند منابع نهر المولوية وحتى مجرى وادى درعة يمتد إقليم تافيلالت، وهو إقليم واحات ومنابع مياه كثيرة أكبرها سجلماسة، وكانت سجلماسة من أكبر المحطات التجارية على أبواب الصحراء، فإذا عبر التجار صحراء تنسر الواسعة التى أشرنا إليها، وصلوا إلى محطة قوافل أخرى فى الحوض الأعلى لنهر السنغال تسمى أودغشت، وكانت كل من سجلماسة وأودغشت، سوقاً تجارية عظيمة

يفد عليها التجار ، وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والأموال .

فى ذلك العصر ــ أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ــ كانت الرياسة بين القبائل الصنهاجية التى أشرنا إليها لقبيلة جدالة ، وكان يتزعمها **إبراهيم بن ترغوت** ، وخلفه فى الرياسة ابنه عمر ثم حفيده يحيى . وتقول مراجعنا أن **يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت الجدالى** هذا ، خرج للحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦م وأنه لقى فى طريق عودته الفقيه **أبا عمران الغفجومى الفاسى** ، وكان من أكبر فقهاء المالكية فى القيروان فى عصره . واستمع يحيى بن عمر الجدالى إلى دروسه ، فتاقت نفسه إلى أن يرى فى بلاده فقيهاً مثله ، يلقى دروسه فى منازل قبيلته ويعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم فى الدين ، فتحدث إلى أبى عمران الفاسى فى ذلك .

وكان يحيى بن عمر يفكر فى نفس الوقت فى أمر آخر إلى جانب اهتمامه بالعلم والفقه ، وهو إنقاذ المجموعة الصنهاجية التى ينتسب إليها من استبداد الزناتيين وطغيانهم ، الذى امتد حتى تافيلالت ، ففى هذه الناحية ساد فرع من مغراوة الزناتيين ، يسمى بنى وانودين ، وكان رئيس هذا الفرع يسمى **مسعود بن وانودين**، وكان على ثراء واسع وكان زعماء زناتيون آخرون يحكمون فى نواح أخرى ، فكان « خير بن خزر » ينشر سلطانه على مكناس ، ومعنصر بن مماد شيخ بنى يفرن يسود منطقة قلعة مهدى ، فى حين سيطر الفتوح بن دوناس على فاس ومنطقتها وهكذا .

وكانت القبائل الصنهاجية الكبرى تعانى كثيراً من تلك السيادة الزناتية ، وكان يسودها خوف على المصير ، لأن سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة ، تنتهى بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين ، وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها .

هذا الخوف ، كان بعض السبب الذى حفز يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالى إلى البحث عن شيخ يُعلِّم رجال قبيلته شرائع الإسلام ، ويجمع كلمتهم وينور أبصارهم ، لأن العلم نور للبصائر وتنبيه للأذهان وإخراج للناس من غفلة الجهالة إلى يقظة العلم . ولا شك فى أن يحيى بن عمر بن إبراهيم هذا ، لاحظ أن

كل من حركوا القبائل البربرية وهيأوها لإنشاء الدول ، كانوا جميعاً من المتحمسين من رجال الدين أو أصحاب الدعوات الدينية ، من أمثال أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، وأبى عبد الله الشيعى ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، حتى برغواطة تزعَّمها رجل من أهل العلم هو ميسرة الفقير ، وغمارة تزعمها صالح البرغواطى الذى زعم أنه « صالح المؤمنين » الذى ورد ذكره فى القرآن .

وكان يحيى بن عمر يرجو أيضاً أن يتنبه قومه من صنهاجة الصحراء ، إلى خطر الحصار الذى يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ، ويسجنونهم فى صحرائهم القاسية ، ويحولون بينهم وبين الانتشار فى الأراضى الخصيبة فى وديان أنهار السودان الغربى .

تحدث يحيى بن عمر إلى أبى عمران الفاسى فى إرسال أحد تلاميذه معه ، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يستجب للدعوة لبعد المسافة وخطورة المغامرة ، فكتب أبو عمران الفاسى له كتاباً إلى أحد تلاميذه من الفقهاء والعاملين فى سجلماسة واسمه **وجاج بن زلو اللمطى** ، إحدى قبائل صنهاجة الصحراء . وكان وجاج فقيهاً ذا مكانة كبيرة ، ولكنه لم يشأ القيام بهذه المهمة نظراً لعلمه بصعوبة قيادة الجداليين ، فندب لذلك تلميذاً شاباً من تلاميذه يسمى عبد الله ابن ياسين الجزولى .

عبد الله بن ياسين :

نهض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته ، وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وبدأ يعمل ، وتكشَّف عن رجل نشيط متحمس واسع المطامح . فلم يقتصر على تعليم الجداليين شعائر الدين ، بل أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حياة الخشونة والبدائية التى كانوا يعيشون فيها . ووضع لهم نظاماً للآداب العامة وأخذهم بالشدة . وكان الجداليون كثيرين وكانوا أهل فوضى وجفوة وقلة نظام ، فلم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم ، لأنهم لم يتحملوا عنفه وشدته .

ولجأ عبد الله بن ياسين إلى شيخه وجاج بن زلو ، فطلب إلى يحيى بن عمر

عقابهم على ما فعلوه ، فقام بذلك وجعلهم يطلبون عودة عبد الله بن ياسين إليهم ، ولكنه رفض ، فنصحه وجاج بأن يذهب إلى منازل قبيلة لمتونة ، وكانوا أميل إلى النظام والتماسك والعمل الجاد .

وإلى حين قريب لم نكن نعرف إلا شيئاً قليلاً عن عبد الله بن ياسين الجزولى ، ولكننا نعرف الآن أنه كان رجلاً واسع العلم بعيد الطموح شديد الذكاء ، ويحدثنا ابن عذارى أنه زار الأندلس ودرس فيه علوماً شتى ، وعندما عاد إلى المغرب قطعه من الشمال إلى الجنوب ، ومر فى طريقه بريف تامسنا ، ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك ترزح تحت وطأة الزناتيين وقدّر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأدرك أنه من الممكن التغلب عليهم وإقامة دولة لصنهاجة هناك . وبعد ذلك بسنوات ، عندما توجه إلى منازل لمتونة أحس أن فرصته قد حانت ليحقق ما كان يجول فى ذهنه ، وهنا تجلى عبد الله بن ياسين عن شخصية رجل سياسى مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة .

وعرف من أول الأمر كيف يكسب محبة يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالى ، وهو من جدالة كما يتجلى من نسبه ، ولكن جده إبراهيم كان قد صاهر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب إليهم ، وأصبح يعد نفسه من سلائل ترغوت بن ورتاسن ابن منصور بن مصالة بن أميت ، الذى عرب على « أمية بن وانمالى » ، الذى عرب على « وانمال بن لمتونة » التى تنطق أيضاً « تالميت » بن صنهاجة . وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لمتونة . ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان : عمر وتاشفين . فأما تاشفين فهو أبو يوسف الذى ستصير إليه زعامة المرابطين فيما بعد ، وأما عمر فقد أنجب أبا بكر ويحيى ، ويحيى هذا هو الذى تحدثنا عن رحلته إلى المشرق ومروره بالقيروان ولقائه مع أبى عمران الفاسى ثم مجيئه أخيراً بعبد الله بن ياسين .

كان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلاً نشيطاً ومغامراً سياسياً لا يهاب شيئاً ، وكان عظيم الإيمان بالإسلام . وكانت فيه شدة فى حمل الناس على إقامة شعائر الدين ، حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى فى أدائها ، وقد أفاد يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين ، لأن الشخصية المهيبة التى كان يتمتع بها هذا الأخير ، كانت ترغم الناس على الطاعة ليحيى ، وكان يحيى من

ناحيته لا يدخر وسعاً فى تقديم العون لعبد الله بن ياسين .

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كوَّن حوله جماعة من المخلصين خرج بهم إلى جزيرة فى المحيط ، قرب مصب وادى السنغال فى الغالب ، لكى يفرغوا لأمور العبادة . وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه ، فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعدادهم وحماسهم قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون ! » هذه رواية ابن عذارى الذى يقول بناء على ذلك أن هذا أصل تسمية المرابطين ، ولكن هناك من يقولون إن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم فى إحدى معاركهم .

وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الأشداء المخلصين ألفاً ، أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من معتصمهم هذا فى الجزيرة ، إلى البر والسير للجهاد ، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم . وكان ذلك فى سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م ، وكانت القوة والقيادة فى تلك الجماعة المرابطية الأولى للمتونة ، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التى تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

هنا تظهر صفة أخرى من صفات عبد الله بن ياسين الكثيرة : صورة القائد العسكرى الماهر الذى يحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك ، ويبدى فى ذلك الميدان مهارة لا بأس بها ، وكانت الخطوة الأولى أمامه القضاء على سلطان المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى .

عبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء متجهاً إلى الشمال ، فلما وصل إلى إقليم تافيلالت الذى كان يسوده مسعود بن وانودين ورجاله من المغراويين ، فانتصر عليهم واستخلص سجلماسة من أيديهم ، وفى المعارك قتل مسعود بن وانودين ، واسترسل إلى الشمال ونزل سهل مراكش الذى يجرى فيه نهر تانسيفت ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م .

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب ، فعبر الصحراء ، وهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال ، وانتصر عليهم ، وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب أفريقية المدارية ،أى أن ذلك الرجل كسر الحصار الذى

كان مضروباً على صنهاجة الصحراء ، وفتح أمامها أبواب التوسع شمالاً وجنوباً ، فأخذت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة أو كزولة تتوسع جنوباً ، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر النطاق الوقتى ووصل إلى شعوب أفريقية السوداء من هذه الناحية ، وذلك حادث تاريخى عظيم الأثر والمغزى .

وفى أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة التى جمعت متناقضات كثيرة ، من إيمان وحماس دينى شديد وميل مفرط إلى النساء والاستمتاع ، وزهد وميل إلى التصوف ، إلى جانب النزوع إلى السلطان والجاه ، ولكنه كان على الجملة رجلاً فذاً واسع النظر بعيد المطامح ، دقيق الإيمان بالإسلام شديد العصبية لقومه . وكان يزعم أنه فقيه واسع العلم ، ولكن الحقيقة أن علمه بالفقه كان قليلاً . وقد أحصى المؤرخون عليه أخطاء فقهية كثيرة وأحكاماً صدرت عنه مخالفة للشرع ، ولكنهم جميعاً يثنون عليه بالذكاء والصلاح والإيمان والإخلاص والشجاعة . وخلاصة القول فيه أنه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة ، أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ.

وقد قام عبد الله بن ياسين بعمله كله ، معتزاً بجاه يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالى أمير لمتونة ومن انضم إليها من قبائل المرابطين . وعندما مات يحيى بن عمر وخلفه فى الرياسة أخوه **أبو بكر بن عمر** ، حظى عبد الله بن ياسين بتأييده ، بل زادت مكانته عنده ، لأن عبد الله بن ياسين ، رغم اتساع جاهه لم يتخط حدوده قط ، واستمر يعطى الأمير حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة ، وإن جنح أحياناً إلى فرض هيبته الدينية عليه بذكاء .

وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبى بكر بن عمر وقبيلته لمتونة ، قد استقر وطاعت له كل قبائل لمتونة الصحراء ، أى أن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته ، ووحّد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد فى سبيل الله ، وقاد خطواتهم الأولى فى الانتصار على الزناتيين فى الشمال وقبائل أفريقية المدارية السوداء فى الجنوب ، وأخرجها من الفوضى والتفرق إلى الانتظام والوحدة ، وأشعرها بقوتها وأعطاها غايات وأهدافاً دينية وسياسية واضحة ، ورسم لها الطريق لتحقيق هذه الغايات والأهداف .

استمرار مسيرة الحركة المرابطية بقيادة أبى بكر بن عمر ، إنشاء مراكش :

وسار أبو بكر بن عمر بالحركة فى طريقها ، وكان يستعين فى عمله بالظاهرين من قرابته وأهل بيته ، وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان إذ ذاك شاباً واسع الطموح .

وحوالى ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ ـ ١٠٦٩ م كان سلطان المرابطين قد استقر فى حوض نهر تانسيفت الفسيح ، وظهرت الضرورة إلى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للحركة فى ذلك السهل الذى أصبح مركز الحركة كلها ، وكانت هناك قريتان بدائيتان ، على ضفة نهر صغير من نهيرات تانسيفت ، يجرى من الجنوب ويصب فى النهر ، وكانت كل منهما تسمى أغمات ، والأغمات هو اللفظ البربرى الذى يطلق على القرية البدائية التى تتألف من سور من الطين أو القصب وفروع الشجر ، وتتخذها القبيلة التى تنشئها معتصماً لنسائها وأطفالها ، وحمى لمواشيها بالليل وفى أوقات الخطر والحروب ومخزناً لسلاحها وأزوادها ، وتسمى مثل هذه القرية البدائية فى اللغات الأوروبية باسم كرال Kraal وتسمى فى العربية باسم المجمع . وكان واحد من الأغماتيين ملكاً لقبيلة هيلانة أو ايت إيلان والثانى كان ملكاً لقبيلة أوريكة ، وكلا القبيلتين مصموديتان ، ولكنهما طاعتا لصنهاجة الصحراء ، مثلهما فى ذلك مثل بقية القبائل المصمودية الضاربة هناك ، وقد انضمت هذه القبائل المصمودية إلى الحركة المرابطية ، واشتركت فى جيوشها وأعمالها العسكرية . وقد رحب بذلك أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده ، وقد أفادت الحركة المرابطية من ذلك فائدة كبرى ، إذ أصبحت جيوشها تتألف من صنهاجيين ومصامدة وإن ظلت الرياسة فى يد الصنهاجيين .

وتنافست القبيلتان كل منهما تريد أن تنشأ القاعدة فى أغماتها ، وانتهى الأمر بأن تنشأ فى الأغماتين معاً ، فكانت كتلتها فى أغمات هيلانة ، وتحولت أغمات أوريكة إلى ضاحية للمدينة الجديدة ، وظل يطلق عليها اسم أغمات فقط ، وتقع إلى جنوبى مدينة مراكش .

وشرع أبو بكر بن عمر فى بناء قاعدته سنة ٦٤١ هـ / ١٠٦٨ ـ ١٠٦٩م ،

وأطلق عليهـا اسم مراكش ، وهى بـالبربريـة مروكش ومعنـاه قصر الحجر ، لأن مبـانى المدينة أقيمت بـالحجـر ، وما لبثت المبـانى الـرئيسية فى المدينـة أن نمت ومضى الناس ينشئون البيوت والأسواق ، وهكـذا نرى كيف أن هذا الرجل الذى ولد فى حـوض نهر السنغال فى أفـريقية المدارية ، عـرف بفضل إيمانه بـالإسلام ودخوله فى حضارته ، أن يضيف إلى تاريـخ الحضارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام وأوفرها بركة وأشهرهـا فى الدنيا ، وهى مدينة مراكش الزاهرة إلى اليوم .

وبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمل فى بناء مدينته الجديدة بعد أن تزوج بزوجة جميلة تسمى زينب بنت إسحاق النفزاوية يبلغه خبر أزعجه ، خلاصته أن قبيلة جـدالة وثبت بقبيلة لمتـونة فى الصحراء وأنـزلت بها مذبحة ، فقـرر العودة مسرعاً إلى منـازل القبائل الصنهـاجية فى الصحراء لإنجـاد لمتونـة . وقبل رحيله جمع رؤساء قـومه وطلب منهم أن يختاروا من بينهم رئيساً لهم يقوم بأمرهم فى غيابـه ، فاختاروا ابن عمـه يوسف بن تاشفين ، وكـان تاشفين والد يـوسف أخاً ليحيى وأبى بكر ابنى عمر بن إبراهيم بن ترغوت .

وترك أبـو بكر بن عمـر ثلث القوة المرابطيـة مع يوسف بن تـاشفين ، وأخذ الثلثين ومضى إلى منازل لمتونة وجدالة وراء الصحراء سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م .

يوسف بن تاشفين ـ انقسام القوة المرابطية إلى قسمين :

واحد يعمل فى المغـرب ثم فى الأندلس ، وواحد يعمل فى أفريقيـة المدارية الغربية :

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين : واحد منهما شمالى ، مركزه سهل مراكش ، وميدان نشـاطه المغرب ثم الأندلس ويقـوده يوسف بن تاشفين ، والثانى يعمل فى أفريقيـة المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بـن عمر . ونظراً لبعد الشقة بين القسمين ، لأن الصحـراء تفصل بينهما ، فقد مضى كل من القسمين فى طريقه يعمل بنشـاط ، فأما القسم الشمالى الذى يقوده يـوسف بن تاشفين ، فهو الـذى سنتتبع تـاريخه الآن ، وأمـا القسم الثانـى الجنوبى فقـد تـابع مسيرتـه

ونشاطه فى فتح السبل لانتشار الإسلام فى أفريقية المدارية ، وكان له دور عظيم فى ذلك المجال .

قيام دولة المرابطين فى المغرب والأندلس :
٤٦٣ ــ ٥٠٠ هـ / ١٠٧١ ـ ١١٠٧ م :

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعاظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الإسلامى وكان لهم أبعد الأثر فى توجيه تاريخه ، وقد قام بدور أساسى فى إنشاء المغرب الأقصى وإعطائه حدوده الطبيعية التى ثبت عليها فى التاريخ ، فهو الذى وحّد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط ، ومد حدوده من ساحل المحيط إلى شرقى نهر الملوية ، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربى من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ، ولم تصبح تلمسان وذلك الجزء الغربى من المغرب الأوسط جزءاً من المغرب الأقصى ، ولكن يوسف بن تاشفين بعمله هذا قام بالمحاولة الأولى لتوحيد أكبر جزء من بلاد المغرب تحت لواء واحد ، وهى محاولة سيتابعها الموحدون فيما بعد ، وستظل دائماً نقطة البداية فى إنشاء ما يسمى بالمغرب العربى الكبير .

ثم إن يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس كما سنرى ، وقام بدور كبير فى إنقاذه من الضياع خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وكسب للإسلام فى صراعه مع النصرانية على مصير الأندلس ، انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة ، لها مكانها فى تاريخ أوروبا والمغرب كله ، وهو لهذا كله يعتبر من أفذاذ الرجال فى تاريخ الإسلام العام .

ويمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية ، التى تميز بها كبار بناة دولة الإسلام على مر العصور ، وأول هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته ، وشعوره بأنه ينبغى أن يخدم هذا الدين وينصره ويجاهد فى سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار ، وثانيتها النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامى على أنه عالم واحد مترابط ، فهذا الرجل الصحراوى لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسى يدخل فى طاعته ويستظل برايته ، لأن ذلك كان رمزاً على وحدة العالم الإسلامى ، وثالثة هذه الخصائص هى الشعور الكامل

بضرورة نصرة الإسلام وحماية داره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها ، وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكد يسمع صريخ المسلمين فى الأندلس حتى أسرع فلبَّى النداء ، ووضع إمكانياته كلها فى القيام بهذه الرسالة الكبرى ، والرابعة هى إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها . فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف العربية دون أن يجيدها ، ولكنه اجتهد فى إتقانها وشجع العلماء والفقهاء وحثهم على نشر العلوم العربية والإسلامية ، وقرب إليه كبار الكتاب والأدباء من أندلسيين ومغاربة وأدخلهم فى خدمته ، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها إلى المغرب للعمل فى الدولة الجديدة .

ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين فى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١ م ، كل النتائج السياسية التى حققها قبله فى المغرب عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر ، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير المسلمين ، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذه ، ولم نسمع كذلك بأن أى رئيس دولة إسلامية اتخذه ، وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته ، فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصادرين من الصحراء . واهتم كذلك بمراكش وسهلها ، فاتسع العمران فيها ، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة وكثرت فيها المساجد والمنشآت ، وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين ، الذين كانوا يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجبون من أهلها المغارم ، وشيئاً فشيئاً مد سلطانه إلى الشمال واحتل فاس ووادى سبو ، وكان قد سيطر على فاس قبل ذلك زعيم زناتى يسمى **معنصر بن المعز بن زيرى بن عطية** صاحب مكناس ، فتغلب يوسف عليه واستخلص فاس ، ثم هاجم بقواته معاقل غمارة وبرغواطة ، فى جبال الريف ، وقضى على زعماء مذاهب الزندقة والخروج عن الإسلام التى كانت تعشش هناك من زمن طويل ، وأخذ الفقهاء فى نشر مذهب السنة والجماعة، وقد اعتبر يوسف بن تاشفين حربه لبرغواطة وغمارة جهاداً دينياً .

وأصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إياها ، وجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين ، وأدار عليها سوراً حصيناً ، وأكثر من إنشاء المساجد فيها .

وأفلح يـوسـف بن تاشفين فى التغلب على مقـاومة كل القبـائل التى كانت قـد انفردت بنواحيها فى « بسيط الهبط أو هبط غمارة » ، ثم استولى على ممر تازا وهو الممر المؤدى من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط ، وعمـر مدينة تازا فى وسطه ، وابتنى بها مسجداً جميلاً مـا زال باقياً إلى اليوم ، ومن ممـار تازا ، مضى يوسف ابن تاشفين إلى إقليم تلمســان ، وبسط سلطانــه على وادى ملويـة الذى يصل إلى سجلماسة جنـوباً ، وواصـــلت قواتــه السير شرقاً فى منـازل صنهاجـة المغرب الأوسط ، ودخلت مـدينة الجزائر التى كـانت إذ ذاك تعرف بجـزائر بنى مزغنـا ، وابتنى فيها مسجداً جـامعاً ما زال باقياً إلى اليـوم . وكانت تلك المدينة هى أقصى مـا وصل إليه سلطـان المرابطين شرقاً ، إذ شغلتهم عن استكمال تـوحيد المغـرب أحوال الأندلس على ما سنراه .

ثم تجرد يـوسف بن تـاشفين للاستيـلاء على سبتـة وطنجة ، وكـانت هـذه الأخيرة عـاصمـة المغـرب الشمالى ، وكانـــت البلـدتـان فى ذلك الحين من تـوابع الأندلس ، وقد بدأت تبعيتهما للأندلس مـن أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحكم سبتة رئيس بربرى يسـمى « **ســقوط أو سكـوت البرغــواطى** » ، ولاَّه إياها بنو حمود أصحاب مالقة الذين ادعوا خلافة الأندلس فترة قصيرة من الزمان ، فى أعقاب انتثار أمر خلافة قرطبـة وبداية عصر الطوائف سنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٣٢ م ، وقد تحول « سقـوط » إلى أمير طوائف بدوره واتخذ من الألقاب السلطـانية لقب المنصور المعان سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١ م .

وفى سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٩ م أرسل يوسف بن تاشفين قائده صالح بن على ، فتمكن من اقتحام سبتـة وإنهاء إمارة سقوط البرغواطى ، ثم انتـزع طنجة من يد **ضياء الدولـة بن سقوط** ، وبـذلك يكون يـوسف بن تاشفين قـد وحد المغـرب الأقصى من حدود الصحراء جنوبى وادى درعـة إلى ساحل البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استـولى عليه يوسف بن تاشفين من بـلاد المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ومجرى نهر شلف ، تبيَّنـا ضخامة العمل السياسى الـذى قام به هذا الرجل القدير ، الذى نهض بقـومه ، من جماعة من المجاهدين المتحمسين ، إلى مستوى أصحاب الدول الكبرى فى ذلك العصر .

وقد ســـاس يوسف هذا الملك العريض الذى لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله ، بحكمــة وسياســة دلت على ملكات إداريــة وتنظيمية كبيرة ، وكــان أساس تنظيمه كله العدل ، أى أنه كان يتوخى بسط لواء العدل فى كل ما طاع له من البلاد والقبائل ، فكان يختـار للولايات والإمارات خيرة رجاله ، من أهل العـدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية ، ويضم إلى كـل وال فقيهاً أو أكثر لكى تكون أحكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية . ورفع عن أهل المدن والقبائل المغارم الثقيلة التى كان الزناتيون يجبونها ، وكان يوصى رجاله بالعدل والرفق بالناس. وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسهـا على رجال القبائل الصنهاجية ، وأهمها فى أيامه لمتونة وجدالة ومسوفــة وتليها فى الأهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وارث وتارجا . وقـد سرت روح الجهاد فى سبيل الدين فى نفوس أهل هــذه القبائل كلها ، فغادر معظم الرجال القادرين على الحرب منـازلهم فى الصحراء وما يليها جنوباً ، وانضموا إلى جيوش المرابطين ، إذ أن الجهاد كـان عصب هذه الحركة والقوة التى دفعتها إلى الأمام ، وكان يوسف بن تاشفين رائداً فى ذلك المضمار .

المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنصرة الإسلام :

فى حدود سنــة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢ م وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قـوته فى المغـرب ، أى أنه تمكـن من بناء هــذه الـدولة الكبيرة خـلال اثنتى عشرة سنـة فحسب من العمل الدؤوب ، وأقامها على أكتــاف رجال من صميم العترة المغربية ، وقيام هذه الدولة يمثل لنا ذروة التطور السياسى فى المغرب منذ الفتح الإسلامى، وقد عرضنا من قبل لكل المحاولات والدول السابقة ، ورأينا اختلاف حظوظها من التوفيق فى بناء الـدول . وهذه التجربة المرابطية أقواهـا وأنضجها جميعاً إلى ذلك الحين ، ممــا يدل على أن الإســلام عنـدمــا دخل أفريقيــة والمغـرب ، أيقظ أهلهما ووضعهم فى طـريـق التقـدم السيــاسى والاجتماعى ، حتــى وصل بهم إلى هــذا المستوى الذى وصل إليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية .

وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين إذ ذاك فى العالم الإسلامى كله ، بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد مخلص فى سبيل الله ، ولا غرابــة والحالة هذه أن نسمع بأن الإمام **أبا حامد الغزالى** كان يثنى على يوسف بن تاشفين .

وفى ذلك الحين كان أمر المسلمين فى الأندلس قد وصل إلى درجة من الاضمحلال جعلت مصير الإسلام فى شبه الجزيرة فى الميزان ، فقد تقاسمت بلاد الأندلس جماعة من الواثبين بالسلطان المستبدين بنواحيهم ، كانوا فى الأصل عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة نواحيهم ، فقدمهم الناس للولاية حتى تنجلى غمرة الحرب الأهلية التى دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط دولة العامريين[1] سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م . ولكن الغمرة لم تنجل ، بل ازدادت الأحوال سوءاً لأن أولئك المستبدين بالنواحى ، حولوا أنفسهم إلى سلاطين صغار لكل منهم بلاط وحشم وحاشية فى ناحيته ، وبعض هذه النواحى كان ولايات واسعة مثل طليطلة أو أشبيلية ، وبعضها الآخر كان لا يزيد على مدينة وحوزها مثل دانية Denia أو البونت أو سهلة بنى رزين .

وانتهز ملوك إسبانيا النصرانية هذه الفرصة ، للتوسع على حساب أولئك الأمراء الضعاف الذين كان أقواهم يعتمد على قوة من الجند المرتزق ، لا تزيد على بضع مئات من الفرسان ، وقد كانت بعض ممالك النصرانية أصغر وأفقر من جاراتها من إمارات الطوائف مثل أرجون التى كانت مملكة صغيرة فى أسفل جبال البرت أى البرانس ، تجاورها إمارة إسلامية واسعة هى الثغر الأعلى الأندلسى وقاعدته سرقسطة ، وكانت تحكمها أسرة بنى هود التجيبيين ، ولكن ملك أرجون الصغير كان يستطيع تجريد جيش من ألف فارس وأكثر ، يجمعهم إلى لوائه الإيمان بأنفسهم والطمع فى أراضى المسلمين الواسعة الغنية . ومن هنا فلا غرابة فى أن نجد أمراء سرقسطة يدفعون الإتاوة لأمير نصرانى أصغر منهم ولاية وثروة ، ولكن الصراع السياسى خلال التاريخ كله ، يعتمد أولاً وآخراً على إيمان الرجال بحقوقهم وعقائدهم واستعدادهم للبذل والتضحية . وقد كان المسلمون من أهل سرقسطة وطليطلة مستعدين للبذل والتضحية فى سبيل بلادهم ودينهم ، ولكن أمراءهم كانوا بعيدين جداً عن مثل هذا التفكير ، فضيّعوا

---

(١) العامريون يراد بهم محمد بن أبى عامر الملقب بالحاجب المنصور ، الذى استبد بأمور الخلافة الأموية ، وخلفه ابناه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول (انظر القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب) .

رعـاياهم وبـاعـوا أرض الإسلام فى سـوق البخس حفـاظـاً على عروش وهميـة وإرضاء لغرور أنانى خسيس .

وكـانت أضعف هذه الإمـارات الإسلاميـة الأندلسيـة إمارة بنى ذى النـون أصحاب طليطلـة ، وكانـت طليطلة ولاية واسعـة تمتد مـن حوض نهر تـاجه إلى مشارف حوض الوادى الكبير ، بل كانت هى وحـدها تمثل ربع الأندلس مساحة ، وكان يحكمها أمير من بنى ذى النون يلقب نفسه بـالمأمون ، وكان غاية فى الغباء وقصر النظـر وضعف الإيمان ، فكـان يبتنـى القصـور ويقيم الحفـلات الكبرى وليس لديه من القوة العسكرية ما يدفع به عدواً . وقد اشترى سلامته بأتاوة كان يدفعها لملك قشتالة وليون المجاور له من الشمال والغرب .

وكانت قشتـالة إذ ذاك كونتيـة أى إمارة صغيرة تـابعة لمملكة ليـون ، وكان يحكم ليون ملك يسمى سانشو الثانى ، اختلف مع أخيـه الفونسو فطرده خارج بلاده ، فلجأ إلى بلاط المأمون بن ذى النون ، ورحب به هذا وخلطه بنفسه وأطلعه على أسراره ، فعلم هذا الأمير المنفى أنه لو اقتدر على ألف فارس ، لاستولى بهم على طليطلة وأزال مُلْك بنى ذى النون .

وهذا هـو الذى حـدث ، فقد شـاءت الظروف أن يقتل الملك سـانشو الثـانى ويجتمع فرسـان مملكة ليون وكونتيـة قشتالة لاختيار خلف لـه ، واستقر رأيهم على استدعاء الفونسو من منفاه ، وتوجوه ملكـاً على قشتالة وليون بزعامة فارس جرىء يسمى **ردريجو دياث دى ببـيار** الملقب « بالسيد القمبيطور » .

وقد اكتسب الفـارس لقب السيد ممن كـان يعمل معه من مقـاتلة المسلمين ، وكان الكثيرون منهم قد تحولـوا إلى أهل حرابة أى قطاع طرق وفرسـان مرتزقين يخدمون من يـدفع لهم أعلى أجر ، وكـان هذا السيـد القمبيطور فارسـاً مرتـزقاً جريئاً ماهراً فى شئون الحرب ، وكان حامل لواء ملك قشتالة وليون .

وبعد استقرار الفونسـو السـادس على عرش بلاده ، بدأ يرمى ببصره إلى طليطلة ، وكان المأمـون بن ذى النون قد شاخ وركبتـه الأمراض ، ولم يكن له من وريث إلا حفيد قليل الذكاء يسمى يحيى ، فحسب المأمـون أن الفونسو السادس يرعى زمام طليطلة بما آواه مـن قبل عندما كان طريداً ، ولكنه عنـدما مات أوصى

رجـال دولته بحفيـده الذى أصبح أميراً وتلقب بـالقـادر ، وما هـو إلا قليل حتى دخلت قوات قشتالة وليون يقودهـا الفونسو السادس أراضى طليطلة واستولت عليها دون أن يرتفع للدفاع عنهـا سيف واحد ، لأن القادر بن ذى النون حسب أن الملك النصرانى إنما أتى لعـونـه على خصـومـه فى بلاده ، فإذا بـه يـرى أنـه أتى ليستولى منه على ولايته طليطلة بكل مدنها وحصـونها وحدودها ، ويعوضه عنها بولاية بلنسية وكـانت تابعة لطليطلة ، وهكذا استولى الفـونسو السادس على ربع الأندلس دون أن يستعمل سلاحاً ، وخرج التعيـس القادر من بلده ليتولى بلنسية فى حماية قلة من فـرسان قشتالة على رأسهم فارس يسمى (الفـار هانيث) الذى تكتبه مراجعنا ألبر هانس Alvar Hanez وكان ذلك سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م .

هنا أفاق ملوك الطـوائف من غفلتهم ، وأدركوا أن مصيرهم كلهم إلى بوار ، إذا هم ساروا فى طريق الضـلال الذين كانوا سائرين فيه خـاصة وقد تحولت مملكة قشتالـة وليون بعد استيلائهـا على طليطلة ، إلى أكبر دولة فى شبه الجزيـرة ، فقد أصبح حجمها ثلاث مرات حجمها الأول ، وانحـدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حـوض الواديـانة ، ودخلت قواتها قـورية والأشبـونة وشنترين ، وكان السيد القمبيطور قد انفرد ببلنسية وحـاصرها حصاراً مريراً حتى استولى عليها ، وتحركت مملكة أرغون وأخذت تتقـدم فى أراضى إمارة سرقسطة أى الثغر الأندلسى الأعلى ، وحـالفت كونتية قطلونيـة وعاصمتها برشلونـة واستولت على طركـونة ثم طولـوشة وأخذ ألفونسـو السادس يتأهب للاستيـلاء على بطليوس وأشبيلية ، ولم يعد يقنع بالإتاوات التى يؤديها إليه أمراؤها[1] .

هذه هى الظـروف التى اضطرت ملوك الطوائف إلى طلب النجـدة من يوسف ابن تاشفين ، والحق أنهم كانوا مترددين فى ذلك حتى اضطرتهم رعاياهم إلى ذلك، فتوجـه وفد من فقهـاء الأندلس ولقى يـوسف بن تاشفين ، وأطلعـه على خطورة الوضـع وشرح أحوال ملوك الطوائف ، وطلب إلى الأمير المرابطى أن يعجـل بنجدة الأندلس . وأدرك الـرجل خطورة الموقف ، ولبى داعى الجهاد لأنه بطبعـه وطبيعة حركته ، مجاهد فى سبيل الإسلام .

---

(١) عن هذه الأحداث بشىء من التفصيل ـ انظر القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وفى عـام ٤٧٨ هــ/ ١٠٨٥ م عبر يـوسف بن تـاشفين إلى الأنـدلس بجيش ضخم بعد أن نزل لـه المعتمد بن عباد عن مدينة الجزيـرة الخضراء ليؤمن لنفسه وقواتـه خطوط الاتصـال مع المغرب . وسارع المعتمـد بن عباد صـاحب أشبيلية للقائه ، وتم الاتفاق على أن يتجه الجيش المرابطى ومن يرافقه من مقاتلة الأندلس، نحو بطليوس فى غرب الأندلس ، لأن الفونسو السادس بعد أن استولى على قورية والأشبونة وشنترين ، كـان يستعد للاستيلاء على إمـارة بطليوس ، وكانت تشمل جانباً ضخماً من غرب الأندلس . وأقبل الفـونسو السـادس بحشوده ، وكان اللقاء فى سهل متسع جنـوب غربـى مدينـة بطليـوس يسمى الزلاقـة بـالعربيـة ، وفى الإسبانية Sacrajas ، وانجلى اليوم بعـد قتال بالغ العنف ، بنصر مـؤزر ليوسف ابن تاشفين ، فقـد أبيدت صفوف قشتالـة وليون ، وفر الفونسـو السادس فى لمة قليلة من فرسانه ، وهو لا يصدق بالنجاة .

هذا الانتصار كـان له أثر حاسم فى سير الحوادث فى الأنـدلس ، فقد تحطمت القوة الضاربة لملكة قشتالة وليون وتـوقف تقدمها نحو الجنوب ، وارتد رجالها شمالاً للدفاع عن طليطلـة ، واستعاد المسلمون الأشبونـة وشنترين وتوقف تقدم كـونتية البرتغـال فى غرب الأنـدلس ، وغـريب من الأمر أن المتـوكل بن الأفطس ، صاحب بطليوس ، أبدى بعد هذا النصر خوفاً وقلقاً من المرابطين ومال إلى الخيانة والتفاهم مع العـدو . وقد بلغت أخباره هـذه يوسف بن تـاشفين . ولاحظ يوسف كذلك أن المعتمد بن عبـاد تراخى من ناحيته وخـاف على إمارتـه ، أما الأمير أبو عبد الله الزيرى صاحب غرنـاطة ومالقة (وهو صنهاجى الأصل مثل يوسف ابن تاشفين) فقد بدا وكأن النصر لم يكن على هواه .

فى وسط هذه الظروف وجد يوسف بـن تاشفين أن يعجل بالعودة إلى المغرب لينظر فى أمـور دولته الـواسعة ، ولهذا لم يستطع الإفـادة من ذلك النصر العظيم الذى حازه ، ولـو أن أمراء الأندلس وقفوا إلى جواره وأمـدوه بكل قواتهم لتقدم إلى طليطلـة واستـولى عليهـا ، وأعـاد ميـزان الأمـور فى الأنـدلس إلى نصـابـه ، لأن الانتصارات العسكـرية مهما عظمت فإنها تظل غير ذات قيمـة عملية كبيرة إذا لم تستغل سياسيـاً وعسكرياً ، ولو أن صـلاح الدين الأيوبى لم يسارع بـاستعادة

القدس بعد نصر حطين لما كان لهذا النصر القيمة التاريخية الكبيرة التى يحتلها فى صحائف التاريخ .

عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب فتنفست مملكة قشتالة وليون الصعداء وأفرخ روعها ، وبدأ أمراء الطوائف يتصل بعضهم ببعض معبرين عن مخاوفهم على بلادهم من ذلك الأخ الذى خَفَّ لنجدتهم . أما يوسف فإنه كان يشعر أنه لابد أن يعود إلى الأندلس ليستكمل النصر ، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً ذا قيمة كبيرة إلا إذا كان له وضع قانونى فى الأندلس ، فهو إلى الآن مجرد ضيف لا يسيطر إلا على رأس معبر هو مدينة الجزيرة الخضراء وهو لا يستطيع أن يطلب إلى أمير أو أهل بلدة أن يوافوه بالمؤن والأزواد أو تقديم أى عون ، لأن لكل ناحية أميرها وصاحب السلطة العليا فيها .

وبعد أن مهد يوسف لنفسه فى الأندلس تمهيداً معقولاً استجاب لصريخ أهل الأندلس ، وعبر للمرة الثانية سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٨ م إلى الأندلس ، ووجهته هذه المرة شرق الأندلس ، لأن جماعة من فرسان قشتالة احتلت حصناً هاماً بين مرسية وبلنسية ، يسمى حصن لاييط Aledo وأخذوا يقطعون الطريق على المسلمين مما أشاع الفوضى فى الشرق كله ، هذا إلى أن السيد القمبيطور كان يعيث فى بلنسية وشرق الأندلس كله فساداً ، وكان يرأس فرسان ذلك الحصن الفارس القشتالى المشهور البر هانس .

وسار يوسف بقواته نحو لاييط ، وانتظر أن توافيه حشود الأندلسيين ، ولكن أحداً منهم لم يلب داعى الجهاد ، بل منعوا عنه الأزواد والمؤن ووقفوا منه ومن قواته موقف العداء ، وكانت نية يوسف أن يستولى على لاييط ثم يخرج السيد القمبيطور من بلنسية ومن هناك يتجه نحو طليطلة ، ولكن هذا الموقف من أمراء الطوائف جعله يغير رأيه ، إذ نفذت مؤنه وطال حصار الحصن دون جدوى ، فانصرف عنه على رغمه عائداً إلى المغرب وقد قرر العودة إلى الأندلس بعد أن يحكم الأمر ويتم عدته . ومع ذلك فإن يوسف لم يكد يرفع الحصار ويرتد جنوباً حتى سارع البر هانس وفرسانه فأخلوا حصن لاييط خوفاً على أنفسهم فاستولى عليه صاحب مرسية ، وأوجس السيد القمبيطور خوفاً من المرابطين .

وفى سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الثالث، الذى قام فيه بعزل ملوك الطوائف من إماراتهم فيما عدا أمير سرقسطة، الذى دخل فى طاعته، وتركه يوسف بن تاشفين ليسد الثغر الأعلى الأندلسى المهدد بالخطر، وفى هذه المناسبة عزل يوسف بن تاشفين، المعتمد بن عباد أمير أشبيلية وأخذه معه إلى المغرب حيث قضى بقية عمره فى أغمات جنوبى مراكش. وفى هذا المنفى أو الأسر كما يسميه المعتمد، قال هذا الأمير الشاعر أجمل أشعاره وأصدقها فى رثاء نفسه والتحسر على ما ضيع من فرص للعمل والجهاد.

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جعل منها دولة كبرى تمتد فى قارتين، حدودها الشمالية فيما بين نهر تاجة والواديانة فى إسبانيا والبرتغال فى أوروبا وحدودها الجنوبية فى أفريقية المدارية، وفى كلتا الجهتين كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً، يتطلب سيلاً لا ينقطع من المقاتلين وأموالاً لا تحصى. ولو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوه فى الجهاد لثبتت جبهة الإسلام هناك بصورة يمكن الدفاع عنها. ولكن بينما كان شعب الأندلس يتعطش للجهاد ويبدى كامل الاستعداد لمواجهة العدو، كان رؤساء بلاد الأندلس ينصرفون إلى إقامة الصعوبات والعقبات فى وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذهم. وبدلاً من السير إلى جانبهم نجد الكثيرين من أهل الفكر فى الأندلس يسخرون من المرابطين ويترفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً على البداوة لم تفسدهم الأنانية التى أضعفت حكام الأندلس وجعلتهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم.

وقد فرض الأندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمالى خط الواديانة، لأن الأندلس كانت دار جهاد، وقد دخلها المرابطون مجاهدين، وكان عليهم أن يستمروا فى هذا الصراع المجيد، ولم يجد المرابطون من الأندلس عوناً، فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم، فإذا أضفنا إلى ذلك مسئوليات المرابطين فى المغرب، تبينا أنهم حملوا فى الواقع من المسئوليات ماكانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى.

كسب المرابطون فى الأندلس مواقع كبرى أولها الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/

١٠٨٦م ، وفى سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م استرد بلنسية القائد المرابطى محمد بن مزدلى ، وكانت قد وقعت فى يد الفارس القشتالى رودريجو دى بيبار الملقب بالسيد القمبيطور El Cid Campeador واستعاد المرابطون بعد ذلك عدداً من المدن الأندلسية فى شرق الأندلس مثل مربيطر Murviedro والمنارة Almenara والسهلة Santa Maria de Albarracin وغيرها . وانتصرت قواتهم على قوات الفونسو السادس فى عدد آخر من المعارك عند قنسوجرة Consuegra وقونقة Cuenca وملجون Munzon فى سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م . وفى سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٨م انتصر القائد المرابطى تميم بن يوسف على قوات قشتالة فى معركة دامية عند أقليش Uclis شرقى طليطلة وقتل فى هذه المعركة عدد كبير من قواد النصارى منهم سبعة من الأكناد ، بل قتل الأمير شانجه بن الفونسو السادس . ولهذا سميت المعركة « بمعركة الأكناد السبعة La Batalla de los Siete Condes » .

وتوفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧م وخلفه ابنه على ، وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجلِّ شخصيات تاريخ الإسلام ، وقد سبق أن تحدثنا عن خلاله ومآثره وأعماله وقدرناه قدره ، ومن حسن الحظ أن ابنه علياً كان على شاكلته من ناحية صدق الإيمان والإخلاص لأمة الإسلام . وكان أميراً حسن التكوين والتدريب . ولد فى المغرب وتربى فى الأندلس وشب أميراً عالماً مجاهداً يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية ، وسار فى آثار أبيه فى كل ميادين العمل ، وكان أهم ما شغل باله واستنفد جهده ، الجهاد فى الأندلس .

وبينما كان **على بن يوسف** يواصل جهوده فى المغرب والأندلس بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدى الموحدين دعايته ضد المرابطين واجتهد فى تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك ، وقد نجحت دعايته لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البربر البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء

دولة لهم تضاهى ما وصلت إليه قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية الصحراوية المرابطية . ولهذا فإن نجاح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزى إلى صدقه فى الاتهامات التى وجهها إلى المرابطين ، بل إلى ذكائه فى معرفة اللغة التى يخاطب بها المصامدة ويجذبهم بها إلى صفه . وسنتحدث عن ذلك فى كلامنا عن الموحدين .

ويهمنا الآن أن نقول إن على بن يوسف خلف هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين ، وكان شاباً حسن الاستعداد ، ولكن الظروف التى تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذى تجربة أوسع ، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية فى العنف والقسوة والبعد عن المألوف فى محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم .

تاشفين بن على ٥٣٧ ـ ٥٣٩هـ/ ١١٤٢ - ١١٤٤ م ونهاية دولة المرابطين فى المغرب والأندلس :

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعاً عن كيانهم ، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه . ومن أغرب ماحدث فى تاريخ الإسلام قيام دولتين كبيرتين من دول الجهاد والذود عن دار الإسلام فى نفس الموضع ونفس العصر ، فقد كان القيام الحقيقى لدولة المرابطين سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦١م عند استقلال يوسف بن تاشفين بالقسم الشمالى من دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م بولاية عبد المؤمن بن على ، فتلاقت الدولتان فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وإحداهما فى أوج قوتها والثانية فى عنفوان شبابها ، فكان لقاؤهما بلاء على المسلمين ، ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان

لتعاقبتا على الجهاد ولكان تعاقبهما نعمــة على الإسلام وأهله ، ولكن هكذا شاءت المقادير وخسر المسلمــون فى هذا التعاصر شيئاً كثيراً ، ولكـن النتيجة على الجملة طيبــة فى النهايــة ، فقد خطــا المغــرب على أيدى الموحــدين بعد المرابطين خطــوات واسعة نحو الوعى بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية، وظهرت للمرة الأولى فكرة تــوحيد المغرب فى دولــة واحدة على يــد المرابطين أولاً ثم الموحدين من بعدهم . وهذه فى ذاتها معالم واضحة فى التاريخ القومى المغربى العام .

ونظراً لتداخل تاريخى المرابطين والموحــدين خلال الحقبة الأخيرة من تاريخ الأولين والأولى من تــاريخ الأخيرين ، فسنقف هنــا بتاريخ المرابطين لنستتمــه فى أطواء ما سنرى من تاريخ الموحدين .

***

دولـــة المـوحـــدين

محمد بن تومـــــرت :

كان النجاح الذى لقيه المرابطون فى إقامة دولتهم بفضل تفكير الفقيه **عبد الله ابن ياسين** محركـاً لهمم المصامـدة ، فى أن يقيمـوا هم الآخرون لأنفسهم دولـة تضاهى دولة المرابطين ، خاصة وهم أغنى بلاداً وأعـز نفراً . وقد ذكرنا فى كلامنا على **يوسف بن تاشفين** ، أنه أدخل المصـامدة فى طاعتـه وساد بلادهم وضـــم مقاتلة منهم إلى جيوشه ، فكان هذا باعثـاً آخر حرك فى نفوس المصامدة الرغبة فى إنشاء دولة لهم ، فهم معظم سكان المغـرب الأقصى ، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعـدد ، تمتـد من شمال المغـرب الأقصى إلى جنـوبه ، ولا ينقصهـا إلا تـوحيـد الصفوف والقيادة السليمة . وقد أتاحت الظروف لهم هذه القيادة فى شخص فقيه مصمودى من قبيلة هـرغة التى تسكن فى ناحية من نـواحى جبال الأطلس العليا على سهل السوس .

هذا الفقيه هو محمد بن **تومرت الهرغي** الذى ولد سنة ٤٨٥ هـــ/ ١٠٩٢ م على وجه التقـريب فى بيت يغلب عليه طلب العلم ، ولا نعـرف عن أصله إلا القليل ، ونسبه كما يســوقه تلميـذه أبو بكر الصنهـاجى الملقب « بالبيـدق » موضع شك كبير ، فإنه يجعلـه شريفاً حسنياً ، وهذا مستبعـد ، ولكننا نجـد أن جــده كان يلقب بلفظ « واجليد » وهـــى صيـــغة للفظ بـربرى هو « آجليد » ومعناه الزعيم أو القائد ، ومعنى ذلك أن ابن تومرت كان من أصل مرموق وإن كان رقيق الحال.

واتجه محمد بن تومرت إلى الدراسة والعلم من بداية الأمر ، فدرس فى بلده ثم فى مراكش . وحـوالى سنة ٥٠٦ هــ/ ١١١٢ ـ ١١١٣ م ، يشرع فى رحلـة دراسة طويلة إلى المشرق ، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك كبير ، فإن ابن تومرت يقول إنه وصل فيهـا إلى بغداد ، ولقى أبـا حامـد الغزالى ودرس عليـه ، ولكننا نستطيع القطع بأنه لم يلق حجة الإسلام أبا حامد الغزالى ولا درس عليه ، لأن الغزالى غادر

بغداد إلى غير رجعة سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م ، ثم توفى فى طوس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م . فإذا كان محمد بن تومرت قد غادر بلده متجهاً إلى المشرق سنة ٥٠٦هـ فهو قطعاً لم يلق الغزالى ، بل إننا نشك فى أنه بلغ بغداد . وغاية ما نستطيع القطع به هو أن ابن تومرت وصل إلى الإسكندرية فى مصر ودرس على بعض شيوخها .ثم عاد إلى المغرب ، فدرس فى القيروان وبجاية وحصّل جانباً لا بأس به من العلم بالفقه .

ولا شك فى أن محمد بن تومرت كان رجلاً غير عادى الذكاء ، ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية ، وكان العلم عنده نقطة بداية وطريقاً يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية ، وكانت هذه الغايات غير واضحة فى ذهنه أول الأمر ، كما يحدث للكثيرين من أهل المواهب السياسية ، فإنهم يحسون فى نفوسهم نزوعاً غامضاً إلى القوة والسلطان ، ويتجهون الوجهة التى توصلهم إلى تحقيق هذه النزعات غير الواضحة فى نفوسهم ، وكلما ساروا فى الطريق شوطاً اتضحت لهم ملكاتهم الحقيقية شيئاً فشيئاً .

وعندما ندرس حياة ابن تومرت نرى كيف أنه وضع كل ما حصّله من العلم فى خدمة غاياته السياسية ، وهذا الطموح السياسى عند ذلك الشاب الهرغى مشكلة من المشاكل فى دراسة حياته ، فهذا الشاب الذى تصدى لإنشاء كيان سياسى دينى فريد فى بابه فى تاريخ الإسلام ، وتمكن من إسقاط دولة كبرى هى دولة المرابطين وإقامة دولة أكبر هى دولة الموحدين ، هذا الرجل كان زاهداً متقشفاً لا يتمسك بأى مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان ، ولكنه وصل بالفعل إلى جاه دينى وسلطان سياسى بلا حدود ، ثم إنه كان حصوراً لا يأتى النساء ، ومن ثم فلا يمكن القول بأنه كان يسعى لإقامة دولة لبيته ، ثم إنه لم يتخذ وهو فى أوج سلطانه لقب الخلافة أو السلطنة أو الإمارة ، وإنما زعم أنه « المهدى » ، والمهدى فى تاريخ الفكر السياسى الدينى الإسلامى صورة صنعها تطلع المسلمين إلى العثور على الحاكم القوى العادل الذى يزيل المفاسد والمظالم ويقيم دولة العدل والدين والإيمان والمساواة ، أو الذى يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت

جوراً كما يقول المصطلح الذى يستعمل عـادة فى الكلام على المهديين . ومعظم من نقـرأ عنهم فى تـاريخنا من المهـديين هـو أنهم بـدأوا فقهاء ثم تحولـوا إلى دعـاة للمعروف ونهاة عن المنكر ، وهذه الدعـوة تنقلهم من الفقه إلى السياسة ، ومن ثم يندفعون فى الطريق السياسى متدثرين دائمًا بثياب العلم والفقه والدين .

ويستوقف النظر فى تاريخ محمد بن تومرت ، أنه منذ لقى عبد المؤمن بن على وضمه إلى زمرة تلاميذه وأتباعـه جعله على رأس أولئك الأتباع واستخلصه لنفسه ورشحه لخلافته ، وبالفعل مـات محمد بن تومرت وحركته فى بـدايات نجاحها ، فخلفـه عبد المؤمن بن على ، وقـد تلقب فعـلاً بخليفـة المهدى ثم خليفـة المسلمين واتخـــذ لقب أمير المؤمنين ، وأقـام دولة كبرى ذات نظـام وقوة وأصبح خليفـة جليلاً ، وورث أبناؤه ملكه ، وتمتع هـو وأولاده بالقوة والثروة والجاه ، فى حين أن محمـد بن تـومرت مـات فقيراً زاهـداً لا يملك من حطـام الدنيـا شيئـاً وإن تمتع بسلطان على أتباعه ، لم يصل إليه أعاظم السلاطين .

وإذن فشخصية محمد بن تومرت شخصية غريبة معقدة ، وكلما قرأنا سيرة حياته كما كتبهـا خادمه أبو بكـر الصنهاجى المعروف « بالبيـدق » ، ونقلها عنه مـؤرخو الموحـدين من أمثـال ابن القطان وعبـد الـواحد المراكشى ، تكشفت لنـا جوانب أخرى تزيد شخصية هذا الرجل تعقيداً وغموضاً .

وهـذا التعقيد يكتنف أيضـاً كتابـاتـه التى كانت أسـاساً للتفكير الـدينى فى الحركة الموحدية ، فإذا قرأنا كتابه المسمى « أعز ما يطلب » ـ وهو أحسن ما كتب، وعنوانه مشتق من أول عبارة فيه ، وتتلخص فى أن أعـز ما يطلب هو العلم بالدين وأصولـه وشريعته وأحكامـه ـ وجدنـا فى هذا الخطاب خليطـاً من آراء أهل السنة وأفكار غلاة الشيعة ، الـذين يقولون بعصمة الإمام وضرورة طاعته طـاعة كاملة وتنفيذ كل ما يأمر بـه دون مساءلة ، وفيه كذلك أفكار صوفيـة متطرفة لا يقبلها فقهاء أهـل السنة والجماعـة ، وكلامه كلـه بعد ذلك فيـه غموض متعمـد وتكلف لأساليب الكهان وأهل السحر ، مما لازال إلى الآن يحيرنا فى أمر عقيدة ابن تومرت ومذهبه فى الفقه وتفكيره الدينى .

تبدأ معلوماتنا الدقيقة بعض الشىء عن حيـاة محمد بن تومرت أثناء عودته

من المشرق ، ويرويها لنا خادمه أبو بكـر الصنهاجى الملقب بالبيدق وابن القطان فى كتـابه « نظم الجمان » وعبـد الواحـد المراكشـى فى كتابـه المسمى « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، وهـذه المعلومات فى مجموعها حكايـات تدور كلها حول أعمال الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر التى تصـدى للقيام بها ، ومـــع أننـا لانستطيع التسليم بمعظمها ، إلا أنها تعطينـا الصورة التى دخل بها هـذا الرجل التاريخ ، وهى صورة فقيه بسيط آمر بالمعـروف ناه عن المنكر ، وهى بداية تتفق تماماً مع خطته التى رسمهـا لنفسه ، وهى اجتذاب الأنظار نحـو نفسه والظهور بمظهر المصلح الدينى الثائر على ما يقع فى هذا المجتمع من مخالفات للدين .

عندما يصل محمد بن تومرت إلى تلمسان يلتقى بعبد المؤمن بن على من قبيلة كوميـة الصـغيرة التى يقـال إنها زناتية ، ولكنهـا تدخل التـاريخ على أنها قبيلة مصموديـة ، ومن ذلك الحين يرتبط الرجلان بـرباط صداقـــة وعمـــل فيصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ فقيه السوس ورئيـس جماعته ، وكان رجال هذه الجماعة قد أصبحوا نفراً غفيراً يسيرون حوله وينتقلون معه من مكان لمكان .

من تلمســان سار ركب الفقيـه من الســوس إلى وجدة ثم فــاس ، وهنا يأمـر تلاميـذه بتحطيم مايجدون من أدوات الموسيقى ، ففعلوا ذلك ، فأمر عـامل فاس بإخراجهم من البلد ، فذهبوا إلى مـراكش ، وقد كثر جمع محمد بن تومرت وانتشر صيته كـولى من أولياء الله وفقيه عـالم كبير ، لا يتصدى له فقيـه إلا أفحمه ، فيما يقول الـذين كتبوا عنه . وكان يهتم اهتمامـاً شديداً بإظهار علمـه الواسع وجهل الفقهاء الـذين يحاولون الاعتراض على مـا كان يتظـاهر بـه من الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر .

انتشر صيت ذلك الـرجل فى مـراكش وأصبح حـديثه على كل لســان ، وهنـا نسمع أنه هـاجم ما كـان يسميه بتجسيم المرابطين ، والتجسيم معنـاه إعطاء الله تعالى صـورة مادية أو ملمـوسة ، كالقـول بأن له سبحـانه وتعالى وجهـاً ويدين وعينين ، أو أن له صـوتاً يسمع ومـا إلى ذلك . وما كان المرابطـون يقولـون بذلك لأنهم كانـوا جماعة سنيـة مجاهدة تعمل ولا تتكلم أو تكتب ، فلم يكن لأفـرادها رأى خاص فى أى ركن من أركـان الإسلام ، ولكن كان فى الفقهـاء فى المغرب وغيره

عدد كبير من أهل الظاهـر الذين يقولون بأنه مـادام القرآن يقول ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى إن يد الله مع الجماعة فلابد من أن تكون لله سبحانه وتعالى يد دون تحديد صورة هذه اليد أو معناها ، فلا ينبغى أن نقول : إن يد الله سبحانه لابد أن تكون كأيـدينا ، فقـد يكون المراد بها شيئاً آخـر ، ولكننا لا يجوز لنـا أن نتناول تأويل كلام الله بحسب ما يتراءى لنا .

كان نقـد ابن تومـرت للمرابطين فى مجموعـه على غير حق ، ولكنه كـان رجلاً جريئاً لا يخاف السلطة أو رجالها . فمضى يقـول كلاماً يرمى من ورائه إلى إثارة غضب رجال الـدولة ، فيتعرضـون لـه بالحبس والطرد من المدن ، فيـزداد صيته ويكثر جمعه ، لأن الناس فى تلك العصـور يستهويهم مثل هذا الشخص ويسرهم أن يجدوا إنسانـاً يتحدى الحكومـة ورجالها ، سواء أكـان على حق أم باطل ، لأن الفكرة العامة كانت « أن رجال الدولـة دائماً على باطل » ومن ثم فكـل ناقد لهم يكون على صواب .

ابن تومرت ينشىء جماعة الموحدين فى تينملل :

وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة من الأتباع المخلصين ، انتقل بهم إلى مـوضـع فى قلب جبـال الأطلس قـريب من منـابع وادى نفيس ، الـذى يجرى جنـوبى نهر تـانسيفت ، هـذا الموضـع يسمى « تينملل أو تينمال » . قـرب هـذا الموضع أقام محمـد بن تومـرت سوراً حـول المكان الـذى أراد أن يجعله مـركز أعمالـه ، هذا السـور يسمى بالبربـريـة (أغمات) . وكان يقع عنـد سفح جبل ، وسفح الجبل يسمى بالبربـرية (ايجلـز أو ايجلس) . ومن هذا الموضع الحصين أخذ ابن تومرت يناوش النواحى القريبة منه من البلاد الخاضعة للمرابطين .

فى نفس الوقت أخـذ يرتب أنصاره طبقات بحسب إخـلاصهم له ، وما سماه سابقة انضمامهم إلى دعوته . هنا نجد محمد بن تومرت يحاول أن يسير فى خطى الرسول ﷺ ، فيقـول إن تينملل هى دار هجرته ، ثم يقسم أصحـابه إلى طائفتين كأنهم المهاجرون والأنصـار من الصحابة ، وصحابة محمد بن تـومرت يسمون أهل عشرة أو « أيت عشرة » والأنصـار يسمـون « أيت خمسين » . وتلى هـاتين

الطبقتين طبقة « المستدركين » بعد التمييز ، أى الذين عُــدِّلَتْ مراتبهم بعد الفحص والاختبار . وابن تومرت يظهر هنا ملكة تنظيمية كبرى ، ويقبض بيد من حديد على أنصاره فيعطى « أيت عشرة » سلطاناً كبيراً ويحكمهم فى الناس . ولما كان أفراد « أيت خمسين » كلهم من رؤساء القبائل ، فإنه يسيطر بواسطتهم على قبائلهم ، وهؤلاء جميعاً بالإضافة إلى المستدركين يعملون عيوناً له بعضهم على بعض ، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء ، مما يجعل هذا الرجل مطلعاً على كل شىء ، على ظواهر الأمور وبواطنها . وهذا بدوره يلقى له رهبة شديدة فى النفوس ، ولهذا نرى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت من الصعوبة أو القسوة خوفاً من العقاب . وهكذا نجد هذا الرجل يصبح سيداً مطاعاً ومرهوباً فى جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقاً ، وتخاف منه خوفاً شديداً . حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه أو أخاه أو أباه فيسارع إلى تنفيذ الأمر دون تردد .

وهذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها محمد بن تومرت جعلته يتخذ لقب الإمام المهدى المعصوم ، أى الرجل الذى اختاره الله لإصلاح حال الدنيا وإقامة ميزان العدل فى الأرض .

بعد ذلك نجد محمد بن تومرت يستخدم أحد أتباعه فى القيام بعملية تصفية جسدية بشعة ، يقضى فيها على كل من يشك فى ولائهم أو فى تصديقهم بأنه المهدى المعصوم حقاً ، فيرتب معه خدعة تسمى « بالتمييز » ، أى تمييز الصالحين من غير الصالحين ، ومصير غير الصالحين هو القتل الناجز على أيدى رجال قبائلهم ، فمات فى هذا التمييز المخيف ألوف من الأبرياء .. وأحس ابن تومرت بعد ذلك أن أمر جماعته قد صفا له تماماً ، وأنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة فى تحقيق حلمه السياسى الكبير .

ففى سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م قرر محمد بن تومرت أن يتحدى القوة المرابطية ، فأرسل نحو مراكش جيشاً عدته ٤٠,٠٠٠ من الموحدين ، على رأسه عبد المؤمن بن على . وقد أخطأ ابن تومرت التقدير ، لأن هذا الجيش الموحدى لقى هزيمة شديدة على يد المرابطين ، وهلك فى هذه المعركة نفر كبير من كبار الموحدين

وأيت عشرة ، وذلك فى معركة دامية تسمى « يوم البحيرة » ، وكان من بين الهالكين الشيخ أبو محمد البشير ، وهو الذى دبر معه ابن تومرت مذبحة التمييز ، ولم يأسف ابن تومرت على أحد ممن مات مادام عبد المؤمن بن على قد نجا ! وفى هذه المعركة جرح أبو حفص عمراينتى أو الهنتاتى وكان ثانى شخصية بين أتباع محمد بن تومرت بعد عبد المؤمن بن على . وقد مات أبو حفص عمراينتى بعد ذلك بسنوات ، ولكن رجال الحركة قالوا إنه مات من أثر الجرح الذى أصابه فى يوم البحيرة ولقبوه بالشهيد ، وقد ارتفعت مكانته بين جماعة الموحدين خاصة وقد وقف إلى جانب عبد المؤمن بن على .

وسيظل أبو حفص عمر الهنتاتى الشخص الثانى للدولة الموحدية ، خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاتة أقوى قبائل المصامدة إذ ذاك ، ويرث أولاده مكانته . وقد لقب أبو حفص « بالشيخ » ، وأهل بيته بالأشياخ ، وهم يلون فى طبقات الموحدين طبقة السادة والمفرد سيد ، وهم آل بيت عبد المؤمن بن على ، وتلى بيوت السادة والأشياخ بيوت بقية آل عشرة أى « أيت عشرة » ثم « الطلبة » ، وينطق اللفظ فى المصطلح المغربى « الطُلْبَةُ » بضم الطاءِ وسكون اللام . ويراد بهم الطلبة الذين يدرسون فقه ابن تومرت ، ويحفظون كتبه ويعلمونها للناس ، ومن بينهم كان يختار معظم موظفى الدولة ومساعدى العمال فى الولايات . وكان يوجد منهم نفر فى كل مدينة وكل قبيلة موحدية مهمتهم مراقبة أعمال الناس ، والمحافظة على عقيدتهم فى المهدى المعصوم ، على اعتبار أن ذلك كان الأساس العقيدى للدولة الموحدية كلها .

بعد هزيمة « البحيرة » بقليل يموت محمد بن تومرت فى ١٩ رمضان سنة ٥٢٤هـ/ ٢٦ أغسطس ١١٣٠م ، بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن على وقد مات فقيراً محروماً ووحيداً أيضاً ، لأن عبد المؤمن بن على وأبا حفص عمر وبقية قادة الحركة أخفوا خبر موته ثلاث سنوات ، فلم يعلنوه إلا سنة ٥٢٧ هـ بعد أن تأكدوا أن السلطة كلها قد انتقلت إليهم برياسة عبد المؤمن بن على وأبى حفص عمر اينتى .

نستطيع أن نقول : إن هذا الرجل لم يَجْنِ من جهوده ونشاطه غير المتاعب ،

وإذا صدقنا أن تاريخ ميلاده كان سنـة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م فإن عمره كان تسعاً وثلاثين سنة هجرية عند وفاتـه ، وهى سن باكرة جداً ، فإذا ذكرنا العمل الضخم الذى قام به هـذا الرجل منذ عودته من المشرق إلى وفاته ، تبينا أنـه كان رجلاً فذاً حقاً . وأنـه كان من صـناع التاريخ وقـادة الرجـال رغم كل ما نأخـذه عليه من أعمال العنف والقتل ، ولكنـه كما قلنـا كـان رجل سيـاسـة ، والسـياسة فى تلك العصـور كـانت لا تستنكـر أعمال العنف والقتل والحيلـة والكـذب والخداع والظلم. ولابد أن نشك فى تاريخ ميلاده رغم ذلك ، لأنـه عندما لقى عبد المؤمن بن على ، عند تلمسـان فى حدود ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م كان عبـد المؤمن شابـاً تخطى العشرين . أى أنه ولد حوالى ٤٩٧ هـ/ ١١٠٤ وكان محمد بن تومرت يكبره بنحو ٢٠ سنة على الأقل ، إذ أنه تبناه .

وقد ارتكب محمـد بن تومـرت كثيراً من الآثام ليصل إلى النتيجـة التى وصل إليها فى ذلك الوقت القصير نسبيـاً ، فقد كان لا يبالى أن يكـذب ويزيف الأحاديث النبويـة ويخدع الناس عن قصـد ، وكان قليـل الاكتراث للدماء فعـرَّض الكثيرين للقتل دون مبرر ، ولم يأسف بعد ذلك على مـوتهم ، وكان يستغل ثقة العـوام فيه وظنهم أنه ولى من أوليـاء الله أو إمام معصوم كما قـال ، فكلفهم تضحيات كثيرة دون أن تعود عليهم من ذلك أى فائدة .

ولا شك أن محمـد بن تـومرت كان يعـرف أن المرابطـين ليسـوا مُـجسِّمين ولا مقصرين فى حقوق الله والدين ، وكان يـرى جهادهم فى الأندلس واجتهادهم فى الدفاع عن حوزة الإسلام ، فما الـذى دفعه إلى القيام بهذه الحركة التى قضت على دولة مجاهدة وهى فى عنفوان كفاحها ضد أعداء الإسلام ؟ .

لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بصورة مؤكدة ، لأن معلوماتنا عن الرجل قليلة ، أو قل : إننا لا نثق كثيراً فى المعلومات التـى لدينا ، لأن معظمها كتب فى أيام الموحدين ، ولكنا نقول إن هذا الرجل كـان مصمودياً فى أعماق نفسه ، وأن حافزه إلى العمل والحركة كـان الرغبة فى تجميـع المصـامدة والانتفاع بقـوتهم لإنشاء دولة مصموديـة ، كما عمل عبد الله بن ياسين على إنشاء دولة مـرابطية من قبائل صنهاجة الصحراء ، وهذا هو السبب فى تحمس المصـامدة له ، فإننا نجد أنه منذ

أن استقر فى تينملل توافدت عليه وفود قبائل المصامدة .

وكان لقب الموحدين الذى أطلقه على أتباعه غير ذى معنى ، لأن كل المسلمين موحدون ولم يكن المرابطون أقل توحيداً من الموحدين وإنما هى تسمية أراد محمد بن تومرت بها أن يوهم الناس أن دعوته تتجه إلى إحياء عقيدة التوحيد الخالصة .

ونلاحظ كذلك أن الرجل كان يتمتع بالمزايا التى نجدها عند كبار الدعاة ومحركى الجماعات مثل كبار دعاة الشيعة ومهدى السودان والسنوسى وغيرهم ممن يوهبون قدرة غير عادية ، على إقناع الناس بأن الله اختارهم لأمر عظيم ، وتوجيههم الوجهة التى يريدون . وكان ابن تومرت دون شك خارق الذكاء واسع النشاط شديد المكر ، ولكننا لا نلحظ فى كتاباته ما يبرر القول بأنه كان على علم غزير . وعلى أى حال فقد شقى هذا الرجل وأرهق نفسه ليورث ثمرة جهده لصاحبه عبد المؤمن بن على . فقد عاش متقشفاً متقللاً من الدنيا ، وكان إلى جانب ذلك حصوراً ، فلم يتزوج أو ينجب .

عبد المؤمن بن على ، قيام الدولة الموحدية
٥٢٤ ــ ٥٥٨ هــ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م :

لم يوفق ابن تومرت إلى إنشاء مذهب دينى أو سياسى معين واضح المعالم ، لأن تفكيره الدينى كان مشوشاً متناقضاً لا يقوم على علم غزير ، وإنما هو علم سطحى غير متناسق ، احتطبه الرجل دون اهتمام كبير بأساسه العلمى ، ليستعمله كوسيلة من وسائل تحقيق مطامعه السياسية ، وينبغى أن ننظر إلى محمد بن تومرت دائماً على أنه رجل سياسة لا رجل دين ، فكل تفكير هذا الرجل سياسى وإن أخذ ظاهراً دينياً ، وحتى مبدأ التوحيد الذى يقال إن الحركة كلها قامت عليه ، لا نجد لابن تومرت فيه رأياً جديداً يجعل منه مذهباً محدد المعالم ، بل إن ادعاء المهدية وقوله إنه المهدى الذى يأتى آخر الزمان ،يتنافى آخر الامر مع التوحيد الحق ، فإن الذين يقولون بإمكانية مجىء « المهدى » ، يفترضون أن الله

سبحانه وتعالى يهبه من لدنه قوة لعمل المعجزات والكرامات ومعرفة الغيب ومعرفة ما فى الصدور ، وهذه كلها فى نظر أهل التوحيد الصحيح صفات لا يتصف بها غير الخالق سبحانه .

فالقول بالتوحيد وبالمهدية وبعصمة الإمام واتهام المرابطين بالتجسيم والمروق عن الدين وجواز قتالهم وتكوين هيئات أهل أيت عشرة وأيت خمسين والمستدركين بعد التمييز والطلبة ،كل هذه تكوينات سياسية أو حزبية إذا شئت ، الغرض منها بناء قوة سياسية تتركز فى يد المهدى ومن يرشحه للخلافة بعده .

الصورة النهائية التى أخذتها هذه الحركة الموحدية صورة دولة قبائلية مصمودية . وهذه الدولة هى دولة الموحدين التى قامت على أكتاف قبائل مصمودية .

أهم تلك القبائل المصمودية التى قامت على أكتافها قوة الموحدين « هنتاتة وهرغة وهزرجة وهزميرة وهسكورة وهيلانة » . ويلاحظ أن أسماء أكثرها تبدأ بحرف الهاء ؛ والسبب فى ذلك أن هذه الأسماء مُعرَّبة وهى فى الأصل تبدأ بهمزة يعقبها حرف ساكن مثل (أيت أرغان) التى عُرِّبت على (هرغة) (وايت الان أو ايلان) التى عُرِّبت على (هيلانة) ، وأيت اينتى التى عُرِّبت على هنتاتة .

وعبد المؤمن بن على الكومى ينتسب إلى قبيلة كومية ، وهى ليست من قبائل المصامدة الكبرى ، بل هى فرع زناتى فى الغالب كان يسكن غرب تلمسان ، وقد ولد فى قرية هناك تسمى « تاجرا » ، ولقى محمد بن تومرت أثناء عودة هذا الرجل من المشرق ، وقد تعلق ابن تومرت بعبد المؤمن من أول لقائه له ، ورأى فيه خليفته فعمل على دفعه إلى الأمام بصورة مستمرة ، وابن تومرت نفسه كان حصوراً فهو لم ينجب أولاداً ، ومعنى ذلك أنه كان يشعر أنه يمهد الأمر لصاحبه هذا ، وهذه ظاهرة فريدة فى بابها فى التاريخ ، لأن عبد المؤمن نفسه لا يعد من منشئى الدول ولا كانت له المواهب اللازمة لذلك ، وهو مدين فى كل شىء لصاحبه هذا ، فهو الذى أعده للرياسة وعلَّمه ودربه ، وأخذ أتباعه بطاعته مما مهد له الأمر ، وفضله يتجلى فى أنه عرف كيف ينتفع بالتعليم والتدريب ، فعرف كيف ينهض بعبء الخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الأمام .

وفى أواخر أيـام ابن تومـرت حاول الموحـدون بقيادة عبـد المؤمن بن على أن يستولـوا على مراكش ، ولكنهم ارتـدوا عنها بخســارة كبيرة ، وكان الـذى هزمهم **الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين .**

ويقال : إن اسم الموحدين أطلقه ابن تومرت على جماعته أثناء الاستعداد لهذه الغــارة ، إذ أنــه كان يحسـب أنهم سيستطيعون دخـول مـراكش والقضـاء على المرابطين بسهولة ، فسماهم الموحدين بصـورة رسمية زيادة فى حماسهم وكذلك سمى جيشهم بجيش المؤمنين ، وسمى عبد المؤمن بن على بأمير المؤمنين .

احتاج عبد المؤمن إلى وقت طويل ليُثبِّت سلطانــه ، فإن ابن تومرت توفى سنة ٥٢٤ هــ/ ١١٣٠م ، وأعلنت وفاتــه سنة ٥٢٧هــ/ ١١٣٣م ، وقد قضى هـذه السنوات الثلاث يجمع الصفوف وينظم الحركــة بعـد مــوت صاحبها ، ولكننا لا نسمع عن قيامه بعمل كبير إلا فى سنة ٥٣٣ هــ / ١١٣٩م عندما بدأ التصادم العسكرى مـرة أخرى بينـه وبين تاشفين بن على ، خليفـة على بن يوسـف ، وقد شغل عبد المؤمن نفسه خـلال هذه السنوات بالاستيلاء على حصـون مرابطية فى الطريق إلى مراكش .

بعد ذلك نجـد عبد المؤمن يتحـاشى مقابلـة المرابطين فى مراكـز سلطانهم فى سهل مراكش ومـا يليه شمالاً ، فيسير بجيوشه شرقى جبـال درن ويخترق ممر تازا ، ويصعد شمالاً إلى تلمســان ونواحيها ، وقد تمكن بـذلك من بسط سلطانه على مساحــة واسعة فى المغـرب الأوسط . وفى سنة ٥٣٧هــ/ ١١٤٢ ـ ١١٤٣ م تـوفى على بن يـوسف وخلفــه ابنــه تــاشفين ، فتشجع عبـد المؤمن ومن معــه من الموحـدين على مهاجمة المرابطين ، خـاصة وأن تــاشفين بن على كـان شابـاً قليل التجربـة وإن كان شـديد الحماس ، وقـد مات هـذا الشاب صريعـاً وهو يحارب الموحـدين ويدفعهـم عن وهران فى يـوم ١٧ رمضــان ٥٣٩هــ/ فبرايـر ١١٤٥م وبموته سقطت وهران وتلمسان ، وأخـذ بناء دولة المرابطين يتداعى تحت ضغط الموحدين المتوالى عليها .

وقـد أبدى المرابطـون بســالة كبيرة فى الـدفــاع عما بأيديهم من البـلاد رغم الظـروف العصيبة التى أحــاطت بهم ، فلم يستطع عبد المؤمن بن على الاستيـلاء

على فاس إلا بعد حرب طويلة وحصار شديد داما تسعة أشهر فى ذى القعدة ٥٤٠هـ/ أبريل ١١٤٦م . وفى محرم ٥٤١ هـ/ يونيو ١١٤٦م دخل مراكش وقتل إسحاق بن على بن تاشفين ونفراً من أمراء المرابطين ، وبذلك انتهت الدولة المرابطية وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط .

تقدير المرابطين :

مهما تصورنا دوافع ابن تومرت للقيام على المرابطين وشن هذه الحرب القاسية عليهم ، فإننا لابد أن نسلم بأنها حرب لم تكن لها ضرورة . فإن المرابطين لم يكونوا دولة مُلْك وسلطان واستمتاع وتدهور سياسى واجتماعى واقتصادى كما هو الحال مع الدول التى تقوم عليها الثورات ، بل كانت دولة جهاد وحرب وإنقاذ ، وعندما قام محمد بن تومرت بدعوته ضد المرابطين كان أميرهم على بن يوسف ، وهو من خيرة أمراء الإسلام ، فكان ذلك مزيداً من الضعف للإسلام والدولة .

لقد حكم المرابطون المغرب الأقصى وغربى المغرب الأوسط نحو قرن من الزمن فقد دخلوا أغمات سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧ م وسقطت مراكش فى يد الموحدين سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ويمكننا اعتبار هاتين السنتين بداية ونهاية دولة المرابطين فى المغرب ، أما الأندلس فقد دخلوه سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ، فكأنهم حكموا ما تيسر لهم منه ٦٠ سنة .

فأما فى المغرب فإن المرابطين هم الذين صنعوا وحدة المغرب الأقصى على النحو الذى ثبتت به فى التاريخ ، فقد ظل المغرب من ذلك الحين إلى الآن يشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادى درعة ، وامتد شرقاً من المحيط الأطلسى إلى شريط من الأرض شرقى نهر المولوية ، أما ما يلى هذه الحدود جنوباً وشرقاً ، فقد دخلت فى المغرب الأقصى حيناً وخرجت عن سلطانه حيناً آخر ، ففى العصر المرابطى مثلاً كان الجناح الجنوبى من المرابطين يعمل بنشاط فى أفريقية الغربية المدارية ، ولكنه كان قد انفصل عن كتلة المرابطين العاملة فى الشمال ، وأصبح دولة أخرى ذات طابع آخر واتجاه تاريخى آخر ، فقد كان هذا الجناح

أفريقياً فى طبيعته وروحه ، وإن كان إسلامياً مغربياً فى طراز حضارته ، ولم يعد المغرب إلى الامتداد جنوباً إلا أيام سلاطين الشرفاء السعديين ، ولكن ذلك كان اتساعاً سياسياً وليس تغييراً للحدود التاريخية للمغرب ، ونقصد بذلك بلاد السنغال وما يليها جنوباً .

وحَّد المرابطون هذا المغرب الأقصى سياسياً ثم دينياً ، فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة من برغواطية وغمارية وما إليها ، وقطعوا دابر المذهب الإباضى والشيعى فيما سادوه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة ، وإلى المرابطين يرجع الفضل فى الوحدة العقائدية السنية التى تميز المغرب الأقصى .

وأتم المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية أيضاً ، فقد كان رافع لواء حركة التصحيح الدينى فيه فقيه مغربى استعرب من زمن طويل هو عبد الله بن ياسين ، وقد قام بحركته الدينية بصفته فقيهاً عربياً مصلحاً يعمل على نشر الإسلام السنى والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة . وبعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية على يد يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت ظل الاتجاه الثقافى العربى للحركة كلها مستمراً ، ويتمثل هذا فيما يسمى بسيادة الفقهاء فى دولة المرابطين ، فقد كان لهم دائماً مكان ممتاز فى هذه الدولة ، وفى بعض الأحيان أخذ سلطان الفقهاء ، وهم دائماً عامل تعريب وثقافة عربية ، صورة سياسية . وقد وجه نقد كثير إلى المرابطين ، وخاصة إلى على بن يوسف بسبب سلطان الفقهاء فى الدولة ، ولكن هذا الاتهام مفتعل ومبالغ فيه ، فلم يكن للفقهاء فى دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم فى غيرها من الدول . ولكن الذى لاشك فيه هو أن أولئك الفقهاء قاموا بعمل تعريبى واسع المدى فى أنحاء دولة المرابطين ، فساروا خطوة واسعة بما بدأه الأدارسة فى هذا الاتجاه ، وقد كان لأمراء المرابطين اهتمام كبير باللغة والأدب والنثر خاصة . ويعتبر العصر المرابطى العصر الذهبى للنثر الفنى فى المغرب والأندلس . ففى ذلك العصر ظهر فطاحل الناثرين وكتاب الرسائل ، من أمثال أبى بكر بن الجد ، وأبى محمد بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان ، وأبى بكر ابن القبطورنة . وقد أكثر المرابطون من إنشاء المساجد فى بلادهم حتى قيل إن يوسف بن تاشفين خطب له على ٦٠٠ منبر ، والمساجد كما نعلم مراكز للعلم العربى الإسلامى .

أما فى الأندلس فقد سبق أن ذكرنا كيف أنهم أوقفوا التقدم النصرانى بانتصارهم فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وكسروا بذلك الموجة التوسعية التى كان يقودها الفونسو السادس، ملك قشتالة وأرغون، ثم كسروا كذلك الموجة التى كان يقودها الفونسو الأول الملقب « بالمحارب » ملك أرغون، بانتصارهم عليه فى معركة « أفراغة » بعد ذلك بثمانية وأربعين سنة (٥٢٨هـ/ ١١٣٤م) ولم يكن الفونسو الأول المحارب أقل خطراً من الفونسو السادس. فكان عمل المرابطين بذلك عملاً حاسماً امتد أثره قروناً بعد ذلك. أضف إلى ذلك أن انتصار المرابطين فى مواقع أخرى مثل أقليش وتهديدهم المستمر لطليطلة ثم استعادتهم بلنسية فى شرق الأندلس قد أعطى الحركة المرابطية قوة كبرى.

كل ذلك أدى إلى ثبات جبهة الإسلام فى الأندلس، بعد أن أوشكت على الانهيار قبيل دخولهم، وإذا كان عمر الإسلام فى الأندلس قد امتد بعد ذلك نحو أربعة قرون فإن الفضل الأكبر يرجع إلى هذه الجماعة الباسلة من المجاهدين.

وخلال هذه القرون التى أضافها المرابطون إلى عمر الإسلام الأندلسى، كتب أهل الأندلس صفحات زاهرة أخرى فى تاريخ الحضارة.

حكم عبد المؤمن بن على:

بعد هذه الوقفة القصيرة عند مكان المرابطين فى التاريخ نعود إلى استتمام ما استطردنا عنه من أعمال عبد المؤمن بن على أثناء حكمه.

بعد سقوط مراكش فى يد الموحدين وصل سلطانهم إلى ساحل البحر المتوسط وشمل المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادى درعة، إذ أن المدن والقبائل فى المغرب كله، حتى طنجة وسبتة فى الشمال، سارعت إلى الدخول فى طاعة الدولة الجديدة.

وكان نفر من رؤساء الأندلس قد انتهزوا فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين فى المغرب، فثاروا بهم وطردوا ولاتهم وأعلنوا أنفسهم حكاماً مستبدين فى نواحيهم، وعاد الأندلس مرة أخرى موزعاً بين أمراء محليين، ولهذا تسمى

فكرة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين « بعصر الطوائف الثانى » ويبدأ من سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م ، وهى السنة التى قتل فيها تاشفين بن على ثالث أمراء الموحدين عند وهران وتنتهى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م وهى السنة التى تمكن الموحدون فيها من استعادة المرية بعد سقوطها فى يد النصارى ، وباستعادة المرية توحد ما بقى من الأندلس مرة أخرى تحت راية الموحدين .

خلال هذه الفترة ظهر من طلاب السلطان فى الأندلس نفر كبير ، صفاتهم الأساسية الجشع وقلة الإيمان وقصر النظر ، وقد دخل بعضهم فى طاعة الموحدين دون حرب ،ولكن بعضهم الآخرلم يستسلم فى سهولة . وقد وجه الموحدون همهم ناحية غرب الأندلس لأول نزولهم الأندلس سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م وكان غرب الأندلس موضع اهتمامهم طوال مدة حكمهم فيه كلها . فقد كانت أشبيلية هى عاصمتهم هناك . وفى غرب الأندلس قاموا بمعاركهم الكبرى ولم يتسع أمامهم الوقت للاهتمام بشرق الأندلس ووسطه ، ولكن أعمالهم العسكرية الباهرة فى غرب الأندلس ثبّتت جبهة الإسلام فيما بقى لهم فى شبه الجزيرة كله نحو قرن من الزمان .

وكان أسوأ ما نجم عن أعمال أمراء طوائف فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هو سقوط المرية فى يد **الفونسو السابع بن ريموندو** ، المسمى عند مؤرخى المسلمين « بالسليطين » ، وقد سموه بالسليطين لأنه تولى العرش صغيراً بعد وفاة أمه الأميرة أراكة ابنة الفونسو السادس . وقد تولى العرش سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م وتوفى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م وكان استيلاؤه على المرية فى نفس السنة ، فصمد الموحدون لاسترجاعها . وقد حاول الفونسو السابع السليطين ، الدفاع عنها قدر ما استطاع . وكان يعاونه فى حرب الموحدين زعيم أندلسى ممن كان لهم أثر غير محمود فى أحداث هذه الفترة ، وهو **محمد بن سعد ابن مردنيش** ، وكان يقود الموحدين عند هجومهم على المرية السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذى ولاه أبوه أشبيلية . ولما رأى ابن مردنيش استبسال المسلمين فى استعادة المرية خجل من نفسه وانصرف عن حليفه النصرانى ، ووجد الفونسو السابع نفسه وحده أمام المسلمين فأسلم البلدة وولى هارباً ، ثم لم يلبث أن توفى من أثر ما لقى فى هذا القتال ، وهذا ثانى ملك من ملوك إسبانيا

النصرانية يقضى عليه المسلمون فى حربهم الطويلة للمد الصليبى النصرانى فى إسبانيا ، والأول هو الفونسو السادس جده ، هذا خلا الأمير سانشو ابن هذا الأخير الذى قتل فى معركة أُقْليش . وكانت استعادة الموحدين لألمرية فى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م ، ويعتبر ذلك بداية لحكم الموحدين فى الأندلس .

وباستعادة الموحدين المرية توحدت بقية الأندلس الإسلامى تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان والياً عليه كله . وفى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م أمر عبد المؤمن ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق الذى سمى « بجبل الفتح » ، وكان الذى بناه المهندس الحاج « يعيش » وأشرف على البناء السيد أبو سعيد عثمان ، ومازالت قطعة من هذا البناء باقية إلى اليوم فى جبل طارق وتعرف باسم الحصن العربى El Castillo Arabe ثم عبر عبد المؤمن بن على إلى الأندلس وكان له فى جبل الفتح استقبال مشهود ، وقد تمت له السيطرة على الأندلس سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١ م .

وقد تأخر وصول عبد المؤمن إلى الأندلس لأن أحوال أفريقية والمغرب الأوسط شغلته عقب دخوله مراكش ، فقد ترامى إلى سمعه أن النورمان قد استولوا على المهدية على ساحل أفريقية من أيدى أمراء بنى زيرى الصنهاجيين ، وكان أمرهم قد ضعف عقب دخول عرب بنى هلال إلى أفريقية ، وتخريبهم مدائنها خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، فسار عبد المؤمن بن على بجيش موحدى ضخم استولى على تلمسان وبقية المغرب الأوسط وكل مدائنه ، ثم دخل أفريقية واحتل بجاية ثم تونس والقيروان ، ثم قصد إلى المهدية ونازل النورمان ومازال بهم حتى استرجعها من أيديهم ، وكان ذلك سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م التى تعرف فى تاريخ المغرب « بسنة الأخماس » ، وهى سنة توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسى إلى قفصة تحت لواء واحد ، ولم تلبث طرابلس أن دخلت فى طاعتهم ، ومعنى ذلك أن الخلافة الموحدية شملت المغرب العربى كله ، وهو حدث حاسم يكفى وحده لتخليد ذكرى عبد المؤمن بن على ، فكيف لو عرفنا أنه فى نفس السنة عبر إلى الأندلس ، وضم ما بقى منه إلى دولته ، فجمع بذلك المغرب والأندلس تحت لوائه .

وفى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧ م تمرد الهلاليون فى تونس وانضموا إلى ثائر

يسمى عبد الله بن خراسان وهزموا السيد عبد الله بن عبد المؤمن ،فقرر عبد المؤمن أن يضع حداً لعصيان أولئك العرب ، فخرج فى سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م فى جيش جرار يقال إنه أكبر جيش موحدى قاده عبد المؤمن ، وتمكن من احتلال تونس ، ثم تقدم نحو المهدية وكانت قد سقطت فى أيدى النورمان فحاصرهم حتى سلمت المدينة فى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ، وكانت بعض بطون الهلالية مثل بنى كامل وبنى رياح وبنى الورد ، قد استبدوا ببعض بلاد تونس مثل قفصة وقابس وتصالحوا مع النورمان ، فأرسل عبد المؤمن ابنه عبد الله فى حملات إلى هذه النواحى فأدخلتها فى دولته ، وخرج هو فى حملات أخرى . ولم تحل سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م حتى كان عبد المؤمن قد مد رواق الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس ومكّن لسلطان الموحدين فيها ، وقد تم له ذلك فى نفس السنة ، وبذلك تكون هذه السنة تاريخاً فاصلاً فى التاريخ المغربى كله ، فهى السنة التى تحققت فيها وحدة المغرب السياسية ودخل كله من حدود طرابلس إلى المحيط فى دولة واحدة يحكمها خليفة واحد فى مراكش . وفى ذلك الحين كانت تلك الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الإسلامية وأوسعها سلطاناً ، فإن الدولة العباسية كانت قد هبطت إلى درك سحيق من الضعف ، ولم تكن الدولة الأيوبية قد قامت بعد ، وجدير بالذكر أن الاحتلال الصليبى لأراضى الشام كان إذ ذاك فى عنفوانه .

وفى أواخر أيام عبد المؤمن تمرد فى الأندلس ثائر يسمى إبراهيم بن همشك ، وعاونه فى ذلك صهره محمد بن سعد بن مردنيش ونفر من رؤساء الجند فى الأندلس ، فعبر عبد المؤمن إلى الأندلس وقضى على حركات التمرد وثبّت أقدام دولته هناك ، ثم عاد إلى المغرب ، وعندما وصل (سلا) نزل به المرض ، ولم تزل العلة تثقل به حتى قضى نحبه فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ/ يونية ١١٦٣م .

حكم عبد المؤمن بن على أربعاً وثلاثين سنة تعتبر فاتحة عصور الازدهار فى التاريخ المغربى . لقد ورث عبد المؤمن عن محمد بن تومرت قوة عسكرية وسياسية ضخمة ، فعرف كيف يستخدمها فى إنشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، فقد امتدت من خط الواديانة فى الأندلس إلى وادى

درعة فى جنوب المغرب ، وترامت من المحيط إلى أحواز طرابلس ، وقد أبدى الرجل نشاطاً واسعاً وذكاء كبيراً فى إنشاء هذه الدولة . حقاً إن الرجال الذين تولى قيادتهم كانوا من خيرة شعوب العالم الإسلامى وأقواها وأشدها إخلاصاً للدين فى ذلك الحين ، ولكنها كانت أيضاً تحتاج إلى يد قوية لضبطها والسيطرة عليها وتوجيهها التوجيه الصحيح . وقد تيسر ذلك لعبد المؤمن بمواهبه . وأهم هذه المواهب أنه عرف كيف يستفيد من مواهب زملائه من كبار أصحاب محمد بن تومرت ، من أمثال أبى حفص عمر أينتى المعروف بالهنتاتى ، وأبى يحيى أبى بكر بن ايجيت ، وأبى إبراهيم إسماعيل الهزرجى المعروف بابيج ، وعمر بن عبد الله المعروف بعمر أزناج وغيرهم وكانوا جميعاً رجالاً ذوى ملكات وإخلاص ، وقد اعتمد عليهم وعلى ابنائهم من بعدهم محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على وخلفائه ، وإليهم يرجع جانب كبير من الفضل فيما وصلت إليه دولة الموحدين من قوة واتساع . وهؤلاء كانوا كبار مشيخة الموحدين أى هيئة قيادتهم ، وقد تألفت المشيخة من رجال أيت عشرة وأيت خمسين وخلفائهم ، وكانت مشيخة الموحدين عصب قوة الدولة . وعندما ضعف أمر المشيخة بدأت الدولة كلها فى الضعف .

خلفاء عبد المؤمن بن على :

أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ/ ١١٦٣ - ١١٨٤ م :

لم يكن يوسف بأكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم بحسب ما رأى رجال مشيخة الموحدين ، وكان فى حدود الثلاثين عندما تولى الأمر ، وكان قد قضى سنوات طويلة فى الأندلس عاملاً على أشبيلية لأبيه ، فتدرب على قيادة الأمور ، وكان ذا ثقافة واسعة وإيمان متين مع أن ملكاته السياسية لم تكن بالمستوى الذى كانت تتطلبه ظروف دولة واسعة كدولة الموحدين ، إلا أنه بذل أقصى جهده فى القيام بأمرها وساس الأمور فى حزم واجتهاد ، فوفق فى المحافظة على التراث الضخم الذى صار إليه رغم أنه كان كثير العلل والأمراض .

فى دولة واسعة كدولة الموحدين ، تتكون من أقاليم شاسعة لم يسبق دخولها تحت لواء واحد من قبل مثل الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط

وأفريقية ، تكون مهمة الحاكم الأولى هـي المحافظة على الهدوء والنظام والعدل فى نواحى البـلاد ، ولكن ذلك كان أمراً عسيراً جداً فى ذلك العصر ، ومن هنـا لا تخلو سنة من سنوات التاريخ الموحدى من قيام ثائر فى ناحية من نواحى الدولة ، وكان لابد من الإسراع للقضاء على الفتنة وإلاّ اضطرب حبل الأمن فى الدولة كلها .

قامت على يوسف ثورات كثيرة فى أفريقية ، وكان قد وفد على طرابلس جماعة من الأيوبيين مع جنـدهم ، بقصد تمهيـد هذه الناحيـة لصلاح الـدين ، فتحالف معهم نفـر من عرب بنى هـلال ، وأصبح هـذا الطرف القصى لـدولة الموحـدين مصدراً للقلاقل والاضطرابات ، وقـد بذل يوسف جهداً كبيراً فى القضاء على الفتن التى قامت هناك .

وقامت كذلك فتن كثيرة فى الأندلس ، أثارها محمد بن سعد بن مردانيش كبير ثوار شرق الأندلس ، وقد تـولى حربه السـيدان أبو سـعيد وأبو جعـفر من أبناء عبد المؤمن ، أى من إخوة يوسف ، وقـد تمكنا من إيقاف خطر ابن مردانيش فى سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦ م.

وتبين ليوسف بن عبد المؤمن أن الأندلس فى حاجة إلى عمل حاسم يقضى على خطر ابن مردنيش ويـوقف تقدم النصـارى ، وكان يتولى عـرش ليون وقشتالة إذ ذاك ، الملك فرناندو الثانى ، وكان يتـوجس خيفة من إمارة البرتغال التى كانت تسير سيراً حثيثـاً نحو القـوة فى ذلك الحين بقيـادة أميرهـا « الفونسـو أنـريكى Alfonso Enrique » وهو الذى يكتبه مؤرخونا « ابن الرنق » ويحرفه بعضـهم إلى ابن الريق .

لهذا تحالف فـرنانـدو الثانى مع أبـى يعقوب يـوسف ووعد بمسـاعدتـه ، فتمكنت قـوات الموحدين من القضـاء على محمد بن سعـد بن مردنيش صـاحب مرسية وشرق الأندلس ، بعد حرب مضنية حافلة بالخسائر .

وبعد وفاة فرناندو الثانى تولى عـرش ليون وقشتالة الفونسو الثامن ، وكان رجلاً نشيطـاً طموحـاً شديـد الخوف من المسلمين ، فبـدأت العلاقـات تسوء بين الجانبين وخشى أبو يعقوب يوسف من التقارب بين مملكة ليون وقشتالة وإمارة

البرتغال ، فقرر القيام بحملة كبيرة على غرب الأندلس هدفها إيقاف الخطر البرتغالى خاصة .

سار الجيش الموحدى نحو شنترين Santaren أكبر قواعد غرب الأندلس إذ ذاك وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ، وأحس الفونسو أنريكى بقرب الخطر ، فحصن شنترين وشحنها بالمؤن والمعدات ، وأقبل الموحدون فحاصروها . هنا نلاحظ ظاهرة ستتكرر كثيراً فى التاريخ العسكرى للموحدين ، وهى أن جيوشهم على ضخامتها كان ينقصها النظام وتعوزها القيادة ، ولقد امتاز العصر المرابطى بعظماء القادة ، الذين عرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان ، ولكن الموحدين لم ينجبوا قادة من هذا الطراز ، والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى أن الموحدين كانوا يصرون على أن يتولى القيادات أفراد بينهم أو أفراد بيت أبى حفص عمر الهنتاتى ، ومن سوء الحظ أن أمراء البيت الموحدى ، وكانوا يلقبون بالأشياخ ، كانت مواهبهم محدودة فى جملتهم ، ولا يكاد يمتاز من بينهم إلا عبد المؤمن بن على نفسه ، وابنه أبو يعقوب يوسف ، وحفيده أبو يوسف يعقوب ، ولهذا قلَّتْ انتصارات الموحدين بعد عصر أبى يوسف يعقوب .

هنا فى حصار شنترين نجد هذه الظاهرة بوضوح ، فهذا الجيش الضخم الذى يقوده الخليفة بنفسه يعجز عن الاستيلاء على ذلك الحصن ، وفى وقت ما أثناء الحصار ، نجد غير الخليفة يصدر أمراً برفع الحصار والانتقال إلى مدينة أخرى . صدر هذا الأمر فجأة ودون إبلاغه إلى بقية الجنود بالطرق التى تقتضيها النظم العسكرية ، ففوجىء الجنود بفساطيط الخليفة ورجاله ترفع على عجل فظنوا أنها هزيمة وتبادروا إلى الفرار وانتهز العدو الفرصة فهجم على معسكر المسلمين ، وأصيب الخليفة بسهم يقال إنه كان مسموماً ، وهكذا وفى ساعات قليلة انفرط نظام هذا المعسكر الضخم ، ونزلت به خسائر فادحة ، وحُمِل الخليفة الجريح فى مَحفَّة ، وعاد الجيش أدراجه ، وبعد ليلتين من السير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ٧ رجب سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م .

وعلى أى حال فأبو يعقوب يوسف كان دائما رجلاً مريضاً ، وفى تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة

مريضاً طريح الفراش ، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار .

توفى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى السابعة والأربعين من عمره ، وكان رجلاً شهماً نشيطاً بذل أقصى جهده فى القيام بواجبه ، وقد سار بالدولة خطوات واسعة إلى الأمام ، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين فى تاريخ المغرب الإسلامى .

أبو يوسف يعقوب المنصور ، الدولة الموحدية فى ذروتها ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٩ م :

تعتبر السنوات الخمس عشرة التى حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثالث الخلفاء الموحدين ، العصر الذهبى للدولة الموحدية والذروة التى وصل إليها التطور السياسى فى المغرب نحو التواجد وإقامة الدول الكبرى فى العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك العصر الذهبى قصيراً ، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل الدولة الموحدية ، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهى ما حكمه العباسيون فى أوج قوتهم ، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوى القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول فى التاريخ الإسلامى كله ، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من خيرة أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً ، ثم من بقية الصنهاجيين ، بل الزناتيين أيضا ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها ، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة المظفرة ، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة ، لأنه إذا كان زعماء الأندلس قد انتابهم التدهور الخلقى والنفسى ، فإن شعب الأندلس نفسه ظل قوياً مؤمناً صامداً رغم الكوارث المتوالية .

بالإضافة إلى ذلك ، أنشأ الموحدون قوة من الحرس للخليفة من العبيد ، ممن

كانت الدولة تشتريهم من بلاد السودان ، ولهذا كانوا يسمون « عبيد المخزن »[1] أو « الدائرة » لأنهم كانوا يحيطون بفسطاط الخليفة أثناء الحروب كأنهم دائرة ، وقد كان عبيد المخزن هؤلاء أو عبيد الدائرة قوة عسكرية لها خطرها ، وقد حاربت دائماً فى قوة وحماس وإخلاص ودافعت عن الخلفاء فى استماتة .

رغم هذه القوات كلها كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة ، تنقصها القيادة الحازمة التى تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة ، كما نرى فى جيوش العرب الأولى ، وفى جيوش صلاح الدين والمماليك والأتراك العثمانيين . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة محكمة ، وكان الرجل فى نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً فى شئون الإدارة والقيادة العسكرية ، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين فى أيامه قوة ضاربة كبرى .

ثورة بنى غانيَّة المسوفيين :

ومن سوء الحظ أن دولة الموحدين ابتليت فى أيام أبى يوسف يعقوب هذا بمشكلة بدأت صغيرة فى حجمها وأهميتها أول الأمر ، ولكن عجز الإدارة الموحدية عن معالجتها بالصورة الناجعة جعل منها مشكلة ضخمة ، استنزفت من دماء الدولة وجندها جانباً كبيراً ، وأصبحت فى النهاية من أسباب سقوط الدولة كلها .

تلك هى مشكلة بنى غانية المسوفيين ، وينبغى أن نقرأ اسم بنى غانية بتشديد الياء ، لأن مؤسس بيتهم ، محمد المسوفى ينسب إلى أمه وكانت من غانة ، فهى غانية ، وكانت النسبة إلى الأمهات شائعة بين المرابطين ، فهناك أبو عبد الله ابن عائشة ، وأبو بكر بن الصحراوية ، ومحمد بن فنو (اسم امرأة) وهكذا لأن الرجال كانوا يتزوجون كثيراً ، فينتسب الأولاد إلى أمهاتهم تمييزاً لهم بعضهم عن بعض فى البيت الواحد .

أول من نسمع به من رجال ذلك البيت ، **أبو زكريا يحيى بن غانية** ، الذى أقامه على بن يوسف على بعض أعمال قرطبة ، وأثبت أنه قائد ماهر ، وقد توفى أبو زكريا يحيى سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م .

---

(١) المخزن : مصطلح مغربى يراد به الدولة ، فيقال : بلاد المخزن أى البلاد التابعة للدولة .

وقد تولى أخوه محمد بن غانية الجزائر الشرقية ، وهى البليار منذ سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م ، وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين نهائياً . وعندما عبر الموحدون إلى الأندلس وأدخلوه فى طاعتهم ، ظل محمد بن غانية مباعداً لهم ، ثم عمد إلى مداراتهم ، وكان آمناً منهم ، طالما عاش محمد بن سعد بن مردنيش ، الذى كان يسيطر على شرق الأندلس ، ولكن بعد موت هذا سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م ووصول الموحدين إلى بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى ، كان على بنى غانية أن يحددوا موقفهم من الدولة الجديدة ، وكان محمد بن غانية قد توفى سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥م وخلفه ابنه عبد الله ثم أخو هذا إسحق بن محمد ابن غانية ، ثم محمد بن إسحق بن محمد بن غانية ، وقد مال محمد إلى مصالحة الموحدين والدخول فى طاعتهم ، ولكن إخوته الكثيرين رفضوا ذلك وخلعوه وولوا مكانه أخاه عَلِىَّ بن غانية ، فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين ، وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة ، خاصة وقد لجأ إليه الكثيرون من بقايا المرابطين ممن امتلأت قلوبهم حقداً على الموحدين أو خافوهم على أنفسهم .

وكان على بن غانية رجلاً جريئاً مقداماً مغامراً ، ومن الغريب أن إقدام مسلمى عصور الانحطاط كان لا يظهر إلا إذا حاربوا إخوانهم العرب والمسلمين ، أما إذا حاربوا أعداء مِلَّتهم وجنسهم فهنا لا نرى إقداماً ولا بسالة .

فكر على بن غانية فى أن يخرج بأسطوله ويغير على أفريقية ، فيفتح بذلك جبهة جديدة أمام الموحدين . والحق أن تفكيره هذا كان شيطانياً ، لأن أفريقية كانت بعيدة جداً عن قلب الدولة الموحدية ، ثم إن نواحيها كانت عامرة بالعرب الهلالية ، المستعدين دائمًا للاشتراك فى أى عمل يفتح لهم أبواب السلب والنهب وإطلاق العنان ، لما جبلوا عليه وعرفوا به من الغارة أو الغزوة والسلب والنهب .

وربما كان أحسن ما يعمله الموحدون فى هذا الظرف ، وهم أمام عدو خطر هو دول إسبانيا النصرانية ، أن يدعوا جانباً موضوع الجزائر الشرقية وبنى غانية فيها ، وألا يشغلوا أنفسهم كثيراً بأمر أفريقية حتى يفرغوا من العدو النصرانى ، ولكن الذى حدث هو أنهم لم يتخذوا هذه السياسة ، بل اهتموا أشد الاهتمام ببنى غانية ، ومضوا يرسلون الحملات تلو الحملات على أفريقية ، ففقدوا الألوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين فى حرب عقيمة بلا نهاية ، لأن بنى غانية وأحلافهم

من العرب جعلوا الصحراء ملجأهم ، فكلما ضيق الموحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء ، ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد ، واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة استنزفت جانباً كبيراً من قوة الدولة وثروتها .

وقد تصدى أبو يوسف يعقوب المنصور لبنى غانية فى حزم وأنزل بهم هزيمة قاصمة فى شعبان سنة ٥٨٣هـ/ أكتوبر سنة ١١٨٧م ، وهرب على بن غانية وحلفاؤه من العرب والغز أو الأغزاز ، وهم المعروفون فى تاريخ مصر والشام بالمماليك أو الترك إلى الصحراء ، واستراح أبو يوسف يعقوب من شرهم إلى حين .

جهاد المنصور فى الأندلس

انتصار الأرك العظيم :

انتهز أبو يوسف يعقوب المنصور فرصة الفراغ مؤقتاً من أمر بنى غانية واتجه بقواه نحو الأندلس ، وكان الموقف قد عاد إلى التحرج فيه ، إذ أن الضغط النصرانى على الأندلس كان قد أصبح كسيل متدفق ، جرف السدود ولم يعد ينفع فيه إلا عمل حاسم من أعمال الإنقاذ الكبرى ، كتلك التى قام بها نور الدين ثم صلاح الدين فى المشرق ، وكان صلاح الدين معاصراً لأبى يوسف يعقوب المنصور .

توفى الفونسو أنريكى ملك البرتغال فى أواخر سنة ٥٨١هـ/ أواخر سنة ١١٨٥م وخلفه ابنه سانشو الثانى ملك البرتغال ، وقد عقد العزم على انتهاز فرصة انشغال الموحدين ببنى غانية ، ليستولى على بعض بلاد غرب الأندلس ، وقد اشتد ساعده بحشود صليبية كان بعضها فى طريقه من غرب أوروبا إلى بلاد الشام ، فكانت تنزل ببعض الموانى البرتغالية فى طريقها ، وتمكن سانشو من إقناع بعض رجال إحدى هذه الحملات بمعاونته فى الاستيلاء على « شلب » ، وكانت من أكبر موانى ما بقى من غرب الأندلس فى أيدى الموحدين . وبالفعل تمكن سانشو والصليبيون ومعظمهم من « الفلمنك » (أى من الهولنديين) والإنجليز فى هذه المناسبة من الاستيلاء على « شلب » فى رجب سنة ٥٨٥ هـ/ سبتمبر سنة ١١٨٩م بعد أن دافع أهلها عنها دفاع الأبطال .

حـرك سقوط شلب أبـا يوسـف يعقوب المنصـور إلى العمل ، فقرر أن يقـوم بغزوة كبرى على غرب الأندلس يعيد بها الأمور إلى نصابها .

احتفل المنصور الموحـدى احتفالاً فخماً بغزوته تلك ، فاستنفـر الناس فى كل نواحى بلاده ، وأعد أحسن فرق جنده ، ودعا العرب إلى الاشتراك معه فى الجهاد ، ولا شك أن أخبار انتصـار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين سنـة ٥٧٩هـ/ ١١٨٧م واسترجاعه القـدس قد زاد فى حماسه ، وأثار فى المسلمين موجـة متدفقة من الحماس ، فتقاطـر الناس على المعسكـرات ، واشرأبت النفوس إلى النصر ، وفى أواخـر المحرم سنـة ٥٨٦هـ/ أوائل سنـة ١١٩٠م ، تحرك المنصور من ربـاط الفتح نحو الأندلس بعد أن أصدر أمره إلى الحشـود بموافاته فى أشبيلية ، وأخذت الألـوف من المسلمين طريقهـا إلى الموعد المضروب ، وجـديـر بالـذكر أن أعـداد المتطوعة ، أى المسلمين الـذين ندبوا أنفسهم للجهاد حسبة لله تعـالى ، كانت تعدل قوات الجيـوش الرسميـة أو تزيد قليـلاً ، وقد تمكن المنصـور من استعادة شلب وعدد آخـر من الحصون سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م ، ثم شغلته شـواغل أخرى ، وألم به مرض طويل فتعطل إتمام غزوته الكبرى على الأندلس .

وفى أوائل سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤م ، اكتملت أهبـة المنصور لغـزوته الكبرى فعبر إلى الأندلس بحشود ضخمة ، وأخذت القوات الأخرى تتوافد إلى أشبيلية .

وعندمـا علم الفونسو الثـامن ملك قشتالـة بذلك ، أسرع فاستنفـر كل ملوك إسبانيـا النصرانية ، واستصرخ البابـوية ، فوافته حشـود كبيرة يقودها فـرسان ذوو خبرة وتجربة فى الحروب ، وتقـدمت هذه الحشـود فأخذت مكـانها فى سهل فسيح حـول حصن يسمى الارك ALRAK على ضـفة الوادى « آنـة » وإلى الغـرب من مدينـة « ثيوداد ريـال » الحالية ، ودارت رحى المعركة فى ٩ شعبان سنة ٥٩١هـ/ ١٨ يوليو سنة ١١٩٥م وانجلت عن انتصـار ساحق للمسلمين ، وأفلت الفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة ، وقد كان لهذه الحركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة .

وبعـد ذلـك النـصر الذى ثبت حدود الإسلام فى الأندلس على خط الوادى آنة » ، أرسـل المنصور فرقـاً من الجيش استعـادت الكثير من حصـون غرب الاندلس ،وتوجه هو نحو طليطلة عـاقداً العزم على الاستيلاء عليها ، ولكن الشتاء

كان قد حل ، فلم يزد المنصور على تخريب عـدد من الحصون وحرق الزروع وما إلى ذلك . وفى نفس الـوقت قـام الفـونسو التـاسـع ملك ليـون حليف المنصـور ، بمهاجمة أراضى قشتالة واجتياحها ، ومن الغريب أن المنصور لم يحاول ـ فى أى غزوة قادمة ـ الاستيلاء على طليطلة ، ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة ، ولا ندرى لماذا أحجم عن ذلك وكان إحجامه سبباً فى ضياع ثمرات نصر الأرك العظيم ، فقد أتاح الفرصة لألفونسو الثـامن ليستجمع قواه ويأخذ بثأره فى أيام محمد الناصر ابن أبى يوسف يعقوب المنصور .

وقد عاد المنصـور بعد ذلك مرة أخرى إلى الأنـدلس ، ولكنه لم يقم بأى عمل عسكـرى كبير ، واكتفى بأعمال التنظيم والإدارة ومحاسبة العمال ورجـال المال وما إلى ذلك .

وتوفى المنصور فى ٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ/ ٢ يناير سنة ١١٩٩م بعد أن أتم ٣٩ سنة ميلادية وبضعة أيام ، فقـد ولد فى أواخر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ/ يناير سنة ١١٦٠ م. وهذه الوفاة الباكرة تستـوقف نظرنا ، لأن الرجل كان منهكاً خائر القوى قبل ذلك بأربع سنوات ، أى أنه كـان ضعيف البنية مصاباً بأمراض لا نعـرفها ، فإذا أضفنـا إلى ذلك أن أبـاه أبـا يعقـوب يـوسف تـوفى فى السابعـة والأربعين من عمره (ولد فى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م وتولى فى ١٠ جمادى الثانية سنة ٥٥٨/ ١٦ مايو سنة ١١٦٣ وتوفى فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠/ ٢٩ يوليه سنة ١١٨٤) وأن ابنـه أبا محمـد عبد الله الناصر تـوفى فى الرابعـة والثلاثين من عمـره (ولـد فى أواخـر سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م وتـولى فى ١٢ ربيع الأول سنـة ٥٩٥/ ١٧ ينـاير سنـة ١١٩٩ ، وتـوفى فى ١٠ شعبان سنـة ٦١٠/ ٢٥ ديسمبر سنـة ١٢١٣) لكان لنـا أن نقرر أن ذلك الخط مـن البيت الموحدى كـان مصابـاً بشىء ، إذ ليس من الطبيعى أن يموت رجل وسنه ٤٧ سنـة وابنه وسنه ٣٧ سنة وحفيده وسنه ٣٤ سنة .

ولقد خلد أبو يوسف يعقوب المنصـور الموحدى اسمه بكسبه معركة الأرك ، وإذا كنا نأخذ عليه أنه لم يحاول اجتناء ثمرهـا ، فإننا ينبغى أن نذكر أنه مات فى زهرة العمر ، وأنـه لو عاش لكان حـرياً أن يقوم بأعظم مما قـام به فى الأرك ، فقد كان شابـاً ذكياً قادراً متحمساً قـوى الشخصية عارفاً بشئـون الملك وسـياسة

الدول ، ومن ثم فلا نستطيع الحكم عليه حكماً نهائيـاً ، لأن الذى لدينا هو نصف حياة فحسب ، فإن الخلفاء والسلاطين يبـدأون العمل فى السن التى توفى فيها هذا الشاب الذى غاله الموت وهو فى ريعان الشباب وإقبال العمر .

خلافـة أبى محمـد عبد الله النـاصر سنة ٥٩٥ ــ ٦١٠هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٣م :

خلف أبا يـوسف يعقوب المنصور ، ابنـه أبو محمد عبد الله الملقب بـالناصر ، وكان يوم ارتقى العرش فى الثامنة عشرة مـن عمره (ولد فى أواخر سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) وكان شاباً قليل الذكاء ، وقد تجلت قلة ذكائه فى صورة استبداد بالأمر ورفض لقبول النصيحـة من رجالـه ، وكان أبـوه قد نصحه بـألا يقطع رأياً دون مشـاورة أبـى حفص محمد بن أبى حفص وكـان رجلاً عـاقلاً عالى الســن بعيد النظر ، ولكـن الناصر لم يكن لـه هم بعد أن ثبَّت سلطـانه إلا مخالفة هـذا الشيخ العاقل الحكيم .

بدأ الناصر حكمـه بداية طيبة ، فقد رأى أن يفرغ أولاً من ثـورة بنى غانية فى الجزائر الشرقيـة وأفريقيـة ، وكـان إسحاق بن على بن غـانيـة قد تمكن فى سنـة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩ م من الاستيلاء على تـونس فزاد أمـر الثورة خطـورة . بـدأ أبو محمـد الناصر بتوجيه حملـة بحـرية كبرى على الجزائر الشرقية لـلاستيلاء عليهـا ، فتم له ذلك فى ربيع الأول سنـة ٦٠٠هـ/ ديسمبر سنـة ١٢٠٣ م، وأقيم عليها عبد الله بن طـاع الله الكومى والياً ، وبهذا يكون الموحدون قـد قطعوا جذور بنى غانيـة فى الجزائر الشرقية (البليار وهى ميـورقة ومنورقة ويـابسة) وبقى عليهم أن يقطعوا فروعهم فى أفريقيـة والمغرب الأوسط ،وبعد ذلك بسنتين ، (فى ٢ ربيع الأول ســنة ٦٠٢هـ/ ١٧ أكتـوبر سنـة ١٢٠٥م) أنزل الموحـدون ببنى غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن إسحاق الميورقى هـزيمة ساحقة فى تاجرا قرب قابس ، وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائياً على فتنة بنى غانية .

ميلاد الدولة الحفصية نهاية بنى غانية ـ الطوارق :

وقد قام أبو محمد عبد الله النـاصر بتأمين النتائج التى وصل إليها فى أفريقية

بقرار يعتبر أسلم وأحكم قرار اتخذه فى حكمه . اختار لولاية أفريقية أصلح رجال دولته وأكثرهم تجربة ، وهو **أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر الهنتاتى** . وقد عارض أبو محمد فى قبول هذا العرض أول الأمر ، لأنه ظن أن المراد إبعاده عن مسرح الحوادث ـ وربما كان هذا هو ما رمى إليه الناصر فى حقيقة الأمر ـ ثم قبل بشرط أن تطلق يده فى الولاية إطلاقاً كاملاً فلا يتدخل فى شئونها أحد ، وأن يختار من جنود الدولة قوة كافية تؤيده ، وأن يكون تعيينه لمدة ثلاث سنوات فقط فقبل الناصر هذه الشروط .

وقد أثبت أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص كفايته من أول الأمر ، فعندما حاول **يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقى** انتهاز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته ، أوقع به أبو محمد هزيمة قاصمة عند تبسة فى إقليم الزاب فى ٣٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤هـ/ ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧م ، وتعتبر هذه الواقعة النهاية الحقيقية لنشاط بنى غانية فى أفريقية ، وتعتبر كذلك بداية نجاح أبى محمد عبد الواحد فى عمله وتثبيت أقدامه فى ولايته الجديدة .

واتجه بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية وخاصة من رياح وزغبة وعوف ودياب والزواودة نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان ، فأسرع أبو محمد وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى فى جبل نفوسة ، وقد انجلت هذه المعركة عن وقوع معظم أموال بنى غانية وأزوادهم ومخزن أسلحتهم فى يد الموحدين ، وكان هذا هو السبب الرئيسى فى ضياع أمرهم بعد ذلك لأنهم افتقروا إلى المال والسلاح . وفى هذه الموقعة أيضاً قتل عدد كبير من رؤساء العرب الهلالية، مما هبط بقدرتهم بعد ذلك على الشغب والغارات والسلب والنهب .

وظل أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص يحكم أفريقية فى كفاية وحزم حتى وفاته سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م ، فخلفه ابنه أبو محمد عبد الله بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص حاكماً لأفريقية ، تحت إشراف أمير موحدى هو أبو العلا إدريس بن أبى يوسف يعقوب المنصور . ولكن السلطة كلها كانت فى يد أبى محمد الحفصى . وفى ربيع الثانى سنة ٦٢٣هـ/ أبريل ١٢٢٦م ، أصبح أبو محمد بن عبد الواحد والى أفريقية منفرداً بولايتها وحده ، وبعد ذلك بعشر سنوات أصدر الخليفة الموحدى أبو العلاء المأمون أمراً بتعيين أبى محمد حاكماً

لأفريقية بصفة دائمة ، فسار إليها مع أخويه أبو زكريا يحيى وابن عبد الله اللحيانى ، فدخلوها فى ذى القعدة سنة ٦٣٣هـ/ يولية ١٢٣٦م ، وقام أبو محمد بتوزيع ولايات أفريقية على أهل بيته ، ومن ذلك الحين بدأ استقرار بنى حفص فى حكومة أفريقية بصفة دائمة ، ويمكننا اعتبار هذا التاريخ بداية للدولة الحفصية فى تونس .

وقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الإغارة على أفريقية فلم يتيسر له الوصول إلى شىء ، وتحول هو ومن معه من شذاذ البدو إلى لصوص ، يغيرون على البلاد ثم يفرون إلى الصحراء ، وكانوا يعتصمون أحياناً فى تلمسان وأحياناً أخرى فى سجلماسة ، وفى سنة ٦٣١ أو سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٤ أو ١٢٣٦م توفى يحيى بن إسحاق بن غانية فى مدينة مليانة على نهر شلف فى الجزائر بعد أن أرسل بناته إلى أبى زكريا يحيى الحفصى ، وأوصاه بتعهدهن . وقد بر بهن أبو زكريا وأسكنهن فى بيت خاص وعرض عليهن أن يزوجهن فرفضن وبقين عانسات حتى الموت ، وتلك كانت نهاية ذلك البيت من ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم فى معارك طاحنة مع الموحدين ، لم يدفع إليها إلا الحقد والرغبة فى الانتقام . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين بما امتصت من دمائهم نحو نصف قرن كامل دون أن تعود على بنى غانية بطائل ، وهنا نجد مثلاً من مئات على ما فعل المسلمون بعضهم ببعض بدافع الحقد وقصر النظر . بينما العدو الأكبر ـ نصارى إسبانيا ـ يهددون عرب الأندلس جميعاً بالفناء .

أما بقايا جند بنى غانية فكان معظمهم من قبائل مرابطية مثل مسوفة وجدالة وتارجا ، وكانت تارجا من صغار قبائل المرابطين الصنهاجيين الصحراويين ، ولكن منازلها كانت فى قلب الصحراء ، ولهذا كانت ملجأ بنى غانية الأخير ، ونسبت بقاياهم وفلولهم ، التى تأبدت فى الفقر من ذلك الحين ، إلى هذه القبيلة التى عُرِّب اسمها إلى « طارقة » والنسبة إليها طارقى والجمع طوارق ، وهذا هو أصل الطوارق أصحاب اللثام الأزرق وأولاد الصحراء وسادتهم إلى اليوم ، فهم بقية المرابطين ، هذه العصبة المجيدة من حماة الإسلام .

موقعة العقاب وانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس :

اشتغل الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بأمور أفريقية منذ

بدأ خلافته سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م ولم تعد الجيوش الموحدية الكبيرة تعبر إلى الأندلس ، فتشجع الفونسو الثامن ملك قشتالة وأخذ يغير من جديد على أطراف الأندلس الإسلامى ، وقد بدأ فى ذلك بعد انتهاء هدنة كان قد عقدها مع المنصور الموحدى وكانت نهاية الهدنة سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م وأراد الناصر أن يقوم بغزوة تضاهى غزوة أبيه المنصور ، فقرر العبور إلى الأندلس والإيقاع بقوات النصارى ، فجمع حشوداً هائلة وعبر إلى الأندلس فى نهاية سنة ٦٠٧هـ/ يونية ١٢١٠ م، واستقر فى أشبيلية ، وهناك أخذت الجموع تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذى كسب موقعة الأرك ، ولكن بينما كان أبوه ذكياً حكيماً ، عرف كيف يستفيد من القوات التى كانت معه على خير وجه ، عجز هذا الشاب عن ذلك . النتيجة أن نفر منه الأندلسيون وخاصة بعد أن قتل أكبر قوادهم أبا محمد بن قادس قبيل المعركة ، قتله غدراً وظلماً نتيجة لوشاية وصلت إليه .

وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد عقد العزم على الأخذ بثأر هزيمته فى الأرك ، فعقد هدنة مع ملكى نافار وأرجون واستنجد بالبابوية ، وشيئاً فشيئاً توحدت الجبهة المسيحية الإسبانية ، وأتت أمداد كثيرة من بقية أوروبا ، أى أن الناصر الموحدى كان يواجه فى الحقيقة حملة صليبية كبرى .

وكانت خطة القتال التى رسمها الناصر لنفسه سليمة ، فقد قرر أن يسرع بالاستيلاء على خانق « دسبنيابيروس » ، وهو الباب المؤدى من قشتالة إلى حوض الوادى الكبير - ويسميه العرب « مطرد الكلب » - فإذا تم له الاستيلاء على ذلك الممر حال دون النصارى ودخول الأندلس بقوات كبيرة وتمكن من القضاء على من يدخل منهم .

وقد بدأت الحملة بداية طيبة فتحرك الناصر بجيش جرار فى أوائل سنة ٦٠٨ هـ/ أواخر يوليه سنة ١٢١١م ، ودخل جيان وحصنها ثم تركها إلى خانق مطرد الكلب ، وعسكر فى السهل الواقع أمام مخرج المضيق ، وهو سهل ملىء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب بكسر العين ، جمع عقبة بفتح العين والقاف وهى فى الإسبانية nava وجمعها navas وهى التل أو العقبة ، ولما كان ذلك الموقع قريباً من قرية صغيرة تسمى تولوسا فإن معركة العقاب تسمى فى النصوص الإسبانية Las Navas de Tolosa ، وتمكن الناصر من الاستيلاء

على حصن شلبطرة Salvasierra القريب من أبدة Ubeda وكان معقل فرسان الداوية ، ثم عاد الناصر إلى أشبيلية ليستكمل استعداده .

وفى محرم سنة ٦٠٩ هـ/ يونية سنة ١٢١٢م ، سار الناصر بجحافله نحو مطرد الكلب ، وفى نفس الوقت اتجهت قوات النصرانية كلها نحو هذا الموقع . ولم يسبق أن اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه ، فقد كان فيها ملوك قشتالة وليون ونافار وأرجون ومعظم كبار فرسان إسبانيا النصرانية وقوات ألمانية وفرنسية وبرتغالية ، وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على قلعة رباح التى كان يحميها القائد الأندلسى أبو الحجاج يوسف بن قادس . وعندما وصل الناصر وبلغه الخبر أمر بقتل ابن قادس ومن معه ، فنفر منه الأندلسيون وقرروا أن يغدروا به فى المعركة .

وبالفعل غدروا به فى المعركة الهائلة الفاصلة التى وقعت يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ/١٧ يولية سنة ١٢١٢م . وعرفت باسم معركة « العقاب » .

وكانت المعركة قد بدأت بمحاولة نصرانية لزحزحة جماعات المتطوعة المعسكرة فى الجانب الغربى من الميدان ، وفشل النصارى فى ذلك فحاولوا النفاذ من الناحية الشرقية التى كان يعسكر فيها الأندلسيون والعرب ، فهرب الأندلسيون وتبعهم العرب ، واخترقت القوات النصرانية صفوف الجيش الموحدى ، فاضطرب نظامه ووصلت بعض الفرق إلى فسطاط الناصر نفسه وبدأت مذبحة كبرى انتهت بتبدد ذلك الجيش الموحدى الضخم . وبتبدده تلاشى كذلك الأمل فى تمكن المسلمين من الثبات فى الأندلس . وقد هلك فى هذه المعركة ألوف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الألوف من أنجاد البربر .ولهذا تعتبر هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام فى الأندلس .

وقد توفى الناصر بعد ذلك بشهور قلائل فى ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ/ ٥ يناير سنة ١٢١٣م ، وموته يعتبر أيضاً نهاية عصر القوة للدولة الموحدية .

الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب :

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر الذى تلقب

بالمستنصر ، وقام عليه أقرباؤه فى الأندلس والمغرب ، وبدأت الحروب الأهلية والمنافسات التى انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مرين الزناتيون بدخول مراكش والقضاء على آخر الموحدين فى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م ، وكان على رأس بنى مرين ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى ينتسب إلى بنى مرين الزناتيين . وفى هذا التاريخ تنتهى أسرة الموحدين ويحل محلهم فى المغرب الأقصى بنو مرين .

أما فى الأندلس فكانت هزيمة الأرك إيذاناً بالنهاية ، فقد تشجع ملوك النصارى ومضوا يستولون على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريباً ، ولكن بدء التصفية المحزنة كان سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م عندما قام **أبو العلاء إدريس** عامل إشبيلية ، بالمناداة بنفسه خليفة للموحدين ، منافساً لأبى زكريا يحيى بن الناصر الذى بويع له فى مراكش فى ذلك الوقت ، وكذلك منافساً لأخيه أبى عبد الله محمد الذى كان والياً على مرسية فى شرق الأندلس ، فترك ولايته ومضى إلى مراكش حيث بايعته مشيخة الموحدين وقد لقب « بالعادل » . وقد أخذ أبو العلاء إدريس الذى تلقب « بالمأمون » كل ما استطاع من القوات الإسلامية فى الأندلس، وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر إلى مراكش ليطلب الخلافة ، فأخذت كبار العواصم تسقط وانهار خط الوادى الكبير وفيما بين سنة ٦٣٣ وسنة ٦٤١هـ/ سنة ١٢٣٦ ــ ١٢٤٣م سقطت قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية والجزائر الشرقية (البليار) فكانت تصفية محزنة . ويكفى أن نذكر أن قرطبة عاصمة الأندلس الزاهرة سقطت فى ٢٢ شوال سنة ٦٣٣ هـ/ ٢٩ يونية سنة ١٢٣٦ م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد .

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادى الكبير ، تجمعت بقايا المسلمين فى الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر ، الذى اعتصم فى جبال غرناطة واتخذها مقراً لمملكة صغيرة بدأ تاريخها فى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣ م ، واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبى من الأندلس ، وهو ثمن شبه الجزيرة تقريباً ، حتى سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢ م عندما سقطت غرناطة فى يد فرناندو وإيزابيلا وانتهت

دولة الإسلام فى الأندلس(١) .

ولا نزاع فى أن دولة الموحدين تعتبر من عظيمات الدول فى تاريخ الإسلام . لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل لفترة طويلة من طرابلس إلى المحيط ومن ساحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية المدارية ، هذا بالإضافة إلى ملكهم فى الأندلس .

وفى هذه المساحة الشاسعة بلغت الحضارة المغربية والأندلسية أوجاً جديداً ، فبلغت العمارة الإسلامية فى المغرب أرفع درجة وصلت إليها فى تاريخها . وعلى الرغم من تشدد جمهور الموحدين وبعدهم عن العلوم التى لا تتصل مباشرة بالدين ، يعتبر عصرهم العصر الذهبى للفلسفة الإسلامية فى المغرب والأندلس ، فهو عصر ابن طفيل وابن رشد وهما من أعاظم الفلاسفة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، وفى ذلك العصر أيضًا ظهر محيى الدين بن عربى أعظم الصوفية الفلاسفة المسلمين .

وترجع قدرة الدولة الموحدية إلى اعتمادها أساساً على فرع ضخم من فروع البربر اشتهر بصلابته وتماسكه وصحة إيمانه هو فرع المصامدة ، وهم معظم سكان المغرب الأقصى فى تلك العصور . وكان المصامدة مجموعاً كبيراً من القبائل التى عمرت المغرب كله من شماله إلى جنوبه ، وتركزت جموعها الأساسية فى جبال الأطلس بفرعيها : الأطلسى والصحراوى وما بينهما من هضاب وسهول مثل سهل السوس . فى هذه البيئة الطبيعية الغنية المتنوعة عاشت جماعات المصامدة منذ الأزل حرة فى جبالها ومراعيها ومزارعها لا يطرق وطنها طارق ، حتى دخل الإسلام بلادهم على يد عقبة بن نافع أولاً ، ثم على يد موسى بن نصير ورجاله . وقد احتاج المصامدة إلى قرون طويلة ليتمكن الإسلام فى قلوب رجالها وينشأ فيها وعى بكيانها وقوتها وما يمكن أن تقوم به . ولقد خضع الكثير من قبائل مصمودة للمرابطين ، وتعلموا الكثير منهم ، ثم جاء محمد بن تومرت ففتح لهم أبواب القوة بتوحيدهم وقيادتهم فى طريق القوة والعمل السياسى والدينى .

وكان محمد بن تومرت كما قلنا منظماً من الطراز الأول ، ومهما كانت المآخذ على تفكيره وأساليبه فى العمل السياسى ، فقد كان الرجل منظماً قديراً وإنشاؤه

---

(١) تفاصيل ذلك واردة فى القسم الأندلسى من هذا الكتاب .

للمؤسسات التى قامت عليها قوة الحركة الموحدية ــ أيت عشرة وأيت خمسين والطلبة بصفة خاصة ـ يدل على أن الرجل أدرك مالم يدركه غيره من منشئى الدول فى العصور الإسلامية الماضية ، وهو أن الدول تقوم على مؤسسات لا على أفراد من الرجال ، لأن أفراد الرجال من الممكن أن يقيموا بنياناً سياسياً ، ولكن استمرار هذا البنيان لا يتم إلا إذا كانت هناك مؤسسات ذات صبغة شرعية وقانونية ، تقوم عليها الدولة وتربط بين السلطة الحاكمة وجمهور الناس . وقد ظن معظم مؤسسى الدول الإسلامية أن « الأسر » هى المؤسسة تؤيدها قوة عسكرية من الجند المرتزق ، فلم يكتب لها البقاء طويلاً ، ولم يلبث الضعف أن دب إلى كيانها وانتقل السلطان من البيت الحاكم إلى سنده وهى القوة العسكرية ، لأنها المؤسسة التى قامت عليها قوة الدولة ، ولكنها كانت دائماً مؤسسة هشة غير متماسكة ، لأن الجند المرتزق لا يمكن أن يكون مؤسسة شرعية يكتب لها دوام أو تتحقق بها شرعية .

فهم محمد بن تومرت ذلك ، ولذلك فقد بنى المؤسسات الدستورية التى تقوم عليها قوة الحركة وتضمن استمرارها ، وهى مشيخة الموحدين ، وبالفعل عندما مات محمد بن تومرت استمرت المشيخة وأقامت الدولة ، وبفضلها تمكن عبد المؤمن بن على من إنشاء دولة الخلافة الموحدية .

ومن حسن الحظ أن الذى قاد المشيخة بعد محمد بن تومرت تلميذه وصفيه عبد المؤمن بن على ، يعاونه رجال ذوو إيمان وصلابة ، تؤيدهم قبائل قوية وأظهرهم أبو حفص عمرا ينتى ، الذى نفع الدولة بشخصه وأهل بيته وقبيلته هنتاتة ، أعظم النفع ، وبفضل التعاون والالتحام بين البيت الحاكم والمشيخة ، بين السلطة الحاكمة والمؤسسة الدستورية اشتد ساعد الدولة الموحدية وتمكنت من تحقيق حقيقة تاريخية كانت تبدو مستحيلة ، وهى توحيد المغرب كله ومواصلة عملية إنقاذ ما بقى من الأندلس .

ومن سوء الحظ أن عبد المؤمن قصر الولايات والقيادات على السادة وهم أهل بيته ، والأشياخ وهو بيت أبى حفص عمر . وكان البيت الموحدى فقيراً جداً فى الرجال ، فباستثناء ابنه أبى يعقوب يوسف وحفيده أبى يوسف يعقوب المنصور، لا نكاد نجد أبداً موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية ، وهؤلاء السادة مسئولون عن

ضياع الدولة وخاصة أبناء أبي يوسف يعقوب المنصور : أبي عبد الله محمد المعروف بالعادل ، وأبي العلاء إدريس المعروف بالمأمون ، وأبي محمد عبد الله المعروف بالبياسي ، فهؤلاء الثلاثة زلزلوا كيان البيت الموحدي وخاصة أبو العلاء إدريس المأمون ، وهو الروح الشريرة التي عصفت بذلك البيت المجيد وقصمت ظهره وكادت تقضي على الأندلس جملة .

وقد أوجزنا تاريخ الموحدين ، وبقي أن نقول : إن دولتهم تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذي بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية ، فقد حفل العصر الموحدي بالأدباء والشعراء والمفكرين والعرفاء أي المهندسين الذين أقاموا منشآت بديعة مثل مسجد « الكتيبة » ومسجد تينملل ومسجد أشبيلية الجامع وحدائقه التي فضل أمرها أبو مروان عبد الملك ابن صاحب الصلاة ، وكذلك جامع حسان وهو مسجد لم يتم ، وبقيت صومعته أي مئذنته المسماة اليوم بصومعة حسان - علماً باقياً على دولة مجيدة وحضارة زاهرة ، ورمزاً كذلك على أن تلك الدولة تدهورت قبل الأوان ، وأن تلك الحضارة الزاهرة لم ترزق من العمر ما يمكن لها من الوصول إلى غاياتها ، فإن ضعف الموحدين شجع بني مرين وبني وطاس وبني زيان الزناتيين ، على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم ، وتمكنت هذه الجماعات القبلية الزناتية من ذلك ، وعادت بالمغرب إلى عصور سيادة زناتة ، وهي عصور اتصفت بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية وانحراف مسيرة الحضارة عن طريقها السوي .

***

القسم
الثانى

الأنـــــدلـس

مدخل ببليوغرافى
لتاريخ الأندلس

كما فعلنا فى دراستنا للجزء المغربى من هذا الكتاب ، عندما قدمنا له بمقدمة ببليوغرافية ، تعرف بالموارد التاريخية التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخه ، فكذلك نبدأ تاريخ الأندلس بمقدمة ببليوغرافيةٍ وصفيةٍ ، نعرف فيها بموارده ما بين أصولٍ ومراجع .

فيما يتصل بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى عصورها الإسلامية ، لدينا روايتان أساسيتان: الرواية العربية ، والرواية غير العربية ما بين لاتينيةٍ وإسبانيةٍ وبرتغاليةٍ . ولا غنىً لمؤرخ الأندلس عن الرجوع إلى الرواية غير العربية بمختلف لغاتها وخاصةً ما كتب منها فى شبه جزيرة إيبرية باللاتينية أو الإسبانية أو البرتغالية ، لأن تاريخ الأندلس كما ذكرنا آنفاً إنما هو تاريخ صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة ، والكثيرون جداً من العرب الذين يكتبون تاريخ الأندلس يقتصرون على الروايات العربية على اعتبار أن الأندلس كان قطراً إسلامياً عربياً ، مثله فى ذلك مثل مصر والشام والعراق مثلاً ، ومن هنا فإن أهمية الرواية غير العربية أهمية ثانوية . ولكننا رأينا فيما روينا من تاريخ الأندلس أن الأمر على خلاف ذلك ، فإن العرب عندما دخلوا شبه الجزيرة ، دفعوا بمن بقى من سادتها القدماء ، وهم القوط ومن انضم إليهم ممن اختار مقاومة الإسلام ، إلى أقاصى الشمال وحصروهم عند سفوح جبال ألبرت من ناحية ، وخلف جبال الكنتبرية من ناحية أخرى فيما يعرف « بأشتريس وجليقية » . وفى هذه الأراضى القليلة الجبلية الوعرة انحصر أولئك النصارى وعاشوا آمنين ، خاصةً بعد أن أخرجوا من أشتريس الحامية العربية التى كان موسى بن نصير قد خلفها قريباً من الموضع الذى وقعت فيه موقعة « كوفادونجا » عند جبل شيبة ، وهى الصيغة العربية لاسمه بالإسبانية Auseba .

وسنرى أن المسلمين ـ بسبب قلتهم عددياً أول الأمر ، ثم بسبب الحروب التى نشبت بينهم وبعضهم البعض خلال عصر الولاة ، وما كان بينهم وبين البربر من

نزاعٍ طويلٍ ، وما أعقب ذلك من مجاعةٍ شملت الأندلس بعد ثلاثين سنة تقريباً من الفتح أى حوالى سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠م ـ تركوا الربع الشمالى الغربى لشبه الجزيرة خالياً من سكانه المسلمين ، فأصبح منطقةَ فراغ لا يعمرها أحد ، ابتداء من منتصف المسافة بين نهرى « الدويرو والمنيو » حتى ساحل بسكاى ، فكانت تلك فرصة لنصارى الإسبان المنحصرين فى الشمال لكى يمتدوا إلى الجنوب ويعمروا هذه النواحى وخاصةً ما كان فيها من مدنٍ ومراكزَ عسكريةٍ رومانيةٍ قديمةٍ من أمثال « ليون وأماية وأشترقة وسهاجون » وما إليها . وفى عصر الملك ألفونسو الثالث نقلوا عاصمتهم إلى ليون وسيطروا تماماً على حوض المنيو ، وامتدوا إلى حوض منديق ، بل وصلوا إلى حوض الدويرو أى أن مملكتهم التى أصبحت تسمى مملكة أشتريس وليون ، أصبحت دولةً قويةً ذات أراضٍ واسعةٍ ومواردَ وافرةٍ ومدنٍ عامرةٍ ونظمٍ سياسيةٍ قائمةٍ .

هذا عن الجانب الغربى من شمال شبه الجزيرة . أما الجانب الشرقى ويشمل حوض نهر الإبرو ، وما يليه من الأراضى شمالاً حتى « لاردة ووشقة وتُطيلة » ، أى ذلك القسم من الأندلس الذى عرف باسم « الثغر الأعلى » ، فإن سلطان العرب قد وقف عند سفوح جبال ألبرت المعروفة بالبرانس ، وانحصرت قواتٌ نصرانيةٌ فى إماراتٍ صغيرةٍ قامت فى جبال ألبرت ، وجزءٍ من السهول جنوبها ، وأهمها فى الغرب إلى الشرق نبرة وعاصمتها « بلبلونة » ثم ثلاث كونتينات جبليةٍ صغيرةٍ هى من الغرب إلى الشرق « أرغون وشبرب وريباجورثا » ، وتلك هى الكونتينات الثلاثة التى ستتألف منها فيما بعد مملكة أرغون ، أما فى أقصى الشرق أى فى المنطقة الواقعة شمالى مصب نهر إبرو والتى تمتد عبر السهل الساحلى المؤدى إلى غالة وهى فرنسا ، وتستمر حتى مصب نهر الرون فقد كانت تسمى « سبتمانية » وقد ملكها العرب أول الأمر ثم تركوها بعد انهزامهم فى موقعة بلاط الشهداء ١١٤هـ/ ٧٣٢م وتمكنت مملكة الفرنجة من احتلالها فى نفس الوقت الذى قامت فيه الإمارة الأموية الأندلسية ، وأنشأت فيه ما عرف بالثغر الإسبانى وتحول فيما بعد إلى كونتينةٍ قطلونيةَ ، ولم يحاول المسلمون إلا فى مناسباتٍ قليلةٍ استعادة قطلونية ، فظلت أرضاً نصرانيةً فرنجيةً أولاً ثم إسبانيةً بعد ذلك . وقد انضمت قطلونيةُ هذه فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ونشأت عن ذلك مملكة

أرغـون الكبيرة ، التى تضـاعف حجمها بعـد استيـلاء ملـوكها على الثغـر الأعلى الأندلســى وقاعـدته سرقسطـة سنة ٥١٢هــ/ ١١١٨ م على يد ألفـونسو الأول المعروف بـا لمحارب . وقد بلغت هذه المملكـة أوجها فى عهد ملكها « خـايمة » الأول المعروف بالكبير الذى تمكن من الاستيـلاء على شرق الأندلس حتى بلنسية وضم إلى بلاده الجزائر الشرقية المعروفة بالبليـار ، فأصبحت مملكة أرغون بذلك مملكةً واسعةً ثريةً ، تنافس فى سيادة شبه الجزيـرة مملكة قشتالة وليون التى توسعت على حساب المسلمين وأصبحت أقـوى دول الجزيرة بعد استيلاء ملكهـا ألفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥ م .

وعندما اتَّحَدَت مملكة قشتالة وليون مـع مملكة أرغون بزواج « إيزابلاّ » ملكة قشتـالة وليـون « بفيليب الثانـى » ملك أرغون ، أصبحت الممالك النصرانيـة هى القوة الرئيسيـة فى شبه الجزيرة ، خاصـة إذا ذكرنا قيام مملكـة البرتغال فى غرب شبه الجزيرة جنوب نهر الدويرو .

ومعنى ذلك أن تاريخ شبه الجزيرة فى العصور الإسلامية لا يقتصر على دول المسلمين بل يشمل دول المسلمين والنصـارى معا ، ولا يكتمل هذا التـاريخ إلا إذا درس المؤرخ الجانبين معا بنفس العناية والاهتمام ، لأن تاريخ شبه الجزيرة أيام الإسلام كان صراعاً متصـلاً على المصير ، والاقتصار على دراسـة الجانب العربى لا يعطى إلا نصف الصورة فقط . وإذا كنـا ندرس عُبَّاد الرحمن الثلاثـة : الداخل والأوسط والناصر لدين الله ، ونقفّى عليهم بتاريخ الحكم المستنصر وعصره الزاهر والمنصور محمـد بن أبى عامـر وما بلغـه الأندلس أيـامه من قـوة لا يكاد يقف فى وجهها أحد ، فإنننـا ينبغى أيضاً أن نذكر أنـه كان فى الناحية الأخـرى كذلك ملوكٌ عظامٌ لهم أكبر الأثر فى تشكيل صورة الجزيرة ، بل انتهت قصة الأندلس بالصورة التى صـاغوهـا فيها ، من أمثـال ألفونسـو الأول والثانى والثـالث ملوك ليـون ، وسـانشو الكبير ملـك نبرة وألفونسـو الأول المحـارب ملك أرغـون . وألفونسـو السادس ملك قشتالة وليون . وألفونسو الثـانى ملك قشتالة وليون أيضاً وخايمة الكبير ملك أرغون ، « وألفونسو ـ أنريكى » ملك البرتغال .

لهذا يتعين على دارس الأندلس لكى تكون دراستـه صحيحةً وعلى أساسٍ ، أن يدرس إسبـانيا النصرانية كما يدرس إسبـانيا الإسلامية ، حتى يخرج فى النهـاية

بصورةٍ معقـولةٍ تفسر له السبب فيما نسميه عـادة بضياع الأندلس وهـذه أيضاً تسميةٌ خاطئةٌ لأن بلاد شبه الجزيرة إذا كـانت قد ضـاعت من المسـلمين فقد كسـبها آخـرون وما نسميه نحن ضياعاً إنما هو كسـبٌ بالنسبة لهم . وميزان الحكم فى النهـاية هـو قاعـدة الحياة على وجـه الأرض ، وهى أنها صراعٌ بين البشر والغلبة للأقوى والأصلح والقادر على الصمود ومواصلة الكفاح .

لهذا قلنا إن مـوارد تاريخ الأندلس تتكـون من روايتين ، الرواية العـربية أى الأصـول والمراجع المكتوبـة بـالعربيـة ، والـرواية غير العـربيـة أى المؤلفـات والمـدونات والوثائق وما يجرى مجراها المكتوب بغير العربية .

الروايـــة العربيـــة :

كتب العرب فى الأندلس وعن الأندلس كثيراً جدًّا ولكن الجانب الأكبر مما كتب الأندلسيـون عن أنفسهم ضاع فى غمرة الصراع الطـويل بين المسلمين والنصارى على مصير شبه الجزيـرة ، فجزء منه فقـد كما يفقد الكثير من الكتب لقلـة نُسَخه ، وبعضها حملـه المهاجرون الأندلسيـون إلى مهاجرهم فتبدد معظمـه وبقى أقلّه ، وجزء آخر قضى عليه الإسبان والبرتغاليون بالإحراق والتدمير .

ولا غرابة والحالة هذه فى أننا لا نملك شيئاً كاملاً من مطوّلات تاريخ الأندلس ، وقد ألف الأندلسيون فى تاريخ بـلادهم مطولات كثيرة فلم يبق لنا منها إلا أطرافٌ نعثر عليها قطعاً فى المكتبات أو تفاريقَ فى كتبِ ألفت فى عصورٍ متأخرةٍ فى المشرق .

ورغم ذلك فإن ما لـدينا من أصول التاريخ الأنـدلسى كثيرٌ وافرٌ والحمد لله ، ولقد قـال « غرسيه غومس » فى كتـابه الصغير المسمى « الشعر الأنـدلسى » وقد ترجمنـاه للعربية ، إننا لا نملك من دواويـن الشعر الأندلسى إلا عدداً قليـلاً جداً ، وبقية ما لدينا من ذلك الشعر إنما هى نثـارٌ كالنثار الذى يتبقى من تحطم إناءٍ من البلّور ، ومع ذلك فعلى أساس هذا النثار نستطيع أن نكتب تاريخ الشعر الأندلسى لأنه كـان من الوفـرة بحيث أن القليل الباقى منه يمكننـا من كتابـة تاريخٍ متصلٍ وكامل تقريباً للشعر الأندلسى .

وأهـم أصـول التاريـخ الأندلسى هو ما بقـى لنا من كتـابات أحمد بن

محمدِ الرازىّ أبى التاريخ والجغرافية فى الأندلس ، وقد أشرنا إليها خلال كلامنا فى ببليوغرافية المغرب ، ومن ثم فلن نتحدث عنها هنا .

ومن حسن الحظ أن عميد مؤرخى الأندلس بعد محمد بن محمدِ الرازى وابنه عيسى بن أحمد ، وابن حيان ، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن صعب بن حيان ابن محمد بن حيان صاحب المقتبس ، المولود فى قرطبة سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م والمتوفى فيها سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م وقد وفاه حقه من الدراسة الدكتور محمود على مكى فى المقدمة الضافية التى كتبها للجزء الذى نشره من مقتبس ابن حيان ويتناول أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر ابنه الأمير محمد ونشره فى بيروت مع تعليقات وافية سنة ١٩٧٣ .

وقد نشر جزءًا من مقتبس ابن حيان ، « الأب ملشور أنتونيا » فى باريس سنة ١٩٣٧ ويتناول عصر الأمير عبد الله .

ثم نشر الدكتور عبد الرحمن على الحجّى فى بيروت سنة ١٩٦٥م جزءًا آخرَ من مقتبس ابن حيان يتناول خمس سنوات من عصر الحكم المستنصر .

وأخيراً نشر مستشرق إسبانى هو الدكتور « بدرو شالميتا سندرون » بالاشتراك مع الدكتور محمود صبح جزءًا كبيراً من المقتبس يتناول نحو عشرين سنةً من تاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله . وبهذا يكون بين أيدينا جانب لا بأس به من تاريخ ابن حيان للأندلس الذى يعتبر أحسن ما بقى لنا مما كتب فى ذلك التاريخ ، لأن ابن حيان استصفى فى كتابه هذا ، المقتبس ، ما كتبه مؤرخون كبار سابقون عليه من أمثال أحمد بن محمدِ الرازى وعيسى بن أحمد الرازى ومعاوية بن هشام الشبانسى صاحب كتاب « تاريخ بنى أمية فى الأندلس » وأبى بكرِ بن عبادة بن ماء السماء الذى ألف كتاب « تاريخ شعراء الأندلس » وأبو الوليد الفرضى وكان له كتاب كبير فى تاريخ الأندلس ، وسكن بن إبراهيم الكاتب وأبى عمر يوسف بن عبد البر وغيرهم .

ولابن حيان كتابٌ آخرُ يعتبر إلى الآن فى حكم المفقود وهو كتاب « المتين » ، وهو كتاب ألفه ابن حيان فى تاريخ عصره مطوّلاً وافراً بالتفاصيل ، وقد بدأه قبل كتابه المقتبس ثم قطعه عندما قامت الفتنة ثم أتمه بعد ذلك ، ودوّن فيه تراجم أهل عصره وأهم ما وقع فيه من أحداث ، وعصره هو عصر الطوائف أى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

وكما احتفظ لنا ابن حيان فى المقتبس ، بالكثير من قطع تاريخ الرازى وغيره ممن سبقه إلى كتابة تاريخ الأندلس ، كذلك احتفظ لنا مؤرخٌ أندلسىٌ آخر هو «ابن بسّام أبو الحسن على الشنترينى » المتوفى فى قرطبة سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ، بقطعٍ كبيرةٍ من كتاب المتين لابن حيان ، التى تتناول نفراً كثيراً من كبار الشخصيات الأندلسية فى عصر الطوائف . وكتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسّام كتاب فى تاريخ الأدب الأندلسى فى عصر ابن بسّام ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : أدباء الموسطة أى وسط الأندلس ما بين شعراء وناثرين ، وأدباء غرب الأندلس ، وأدباء شرق الأندلس . وقد عثرنا على الكتاب كاملاً ونشرت منه أجزاء تتناول الموسطة والغرب وبقى منه جزء الشرق ، وتراجمه وتراجم ابن بسام وافية مطولة ، تلقى ضوءاً على أحوال الأندلس فى عصره وقد استوعب فى كلامه جانباً كبيراً مما كتبه ابن حيان فى « المتين » الذى ضاع .

ومن أصول تاريخ الأندلس التى لا يستغنى إنسان عن قراءتها ، كتابان صغيران ولكنهما على أكبر جانب من الأهمية : الأول هو كتاب « الأخبار المجموعة » لمؤلف مجهول وقد نشره مع مقدمةٍ ضافيةٍ المستشرق الإسبانى « لافونتى الكنتارا» فى مدريد سنة ١٨٦٧م ودرسه دراسةً مستفيضةً « خوليان ريبيرا » وهو من أعاظم المستشرقين الإسبان أو شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان كما يسمى ، وخرج منه بأن ذلك الكتاب من تأليف عددٍ من الأندلسيين من أبناء البيوت الكبيرة الموالين للبيت الأموى ، تناوبوا على كتابته وسجلوا لنا أحداثاً موثوقاً فى صحتها على أكبر جانبٍ من الأهمية . ثم درس هذا الكتاب مستشرقٌ أسبانىٌ آخرُ هو «سانشيت البورونوث » Sanchez Alboronoth وألف فيه كتاباً ضخماً فيه فوائدُ كثيرةٌ وإن كان فيه كذلك لغوٌ كثيرٌ لأن الرجل لم يكن يحسِن العربية ، رغم أنه يعتبر من أكابر مؤرخى إسبانيا ، وقد اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية اقتحاماً .

والأصل الثانى هو كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبى بكر محمد بن القوطية ، المتوفى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م ، وهو كتابٌ عظيم القيمة لأن مؤلفه من حفدة « سارة » القوطية حفيدة غيطشة الذى غصبه لذريق عرش الأندلس وكان أبناؤه من أعوان المسلمين فى فتح تلك البلاد ، وقد قصدت « سارة » الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فى دمشق لتشكو إليه ظلامة أصابتها فأكرمها

وزوَّجهـــا أحدَ مواليه ، وأبــو بكرِ محمــد بن عمـرَ بن عبد العزيـز المعــروف «بابن القوطية » الذى نتحدث عنه ، هو أحد أحفاد ذلك المولى .

كان ابن القوطيـــة عالماً بالنحو حافظاً للغة متقدمـاً فيها على أهـــل عصره كما يقول ابن الفـرضى ، وكان شـاعراً سلس القـريض ، وهو تلميذ أبــى عمرَ بن لبابة الفقيه الأندلسى الكبير ، والكتاب لا يقتصر على تاريخ افتتاح الأندلس ، وإنّما هـو مجموعـةٌ من الأخبار عن أمـراء الأندلس وخلفـائه ، مرويـةٌ فى نسقٍ متصلٍ متناسقٍ ، والنسخة التى بقيت لنا هى سماعٌ من أحد تـلاميذه ، ومادة هذا الكتاب أصيلةٌ يوثق فيها ، لأن ابن القوطيـة مثله فى ذلك مثل معظم أهل الفكر فى الأندلس ، كان من المتحمسين لبنى أميـة الأندلسيين ، شـديد الصلة بهم وبـرجال دولتهم ، ولهذا فإن الأخبار التى يوردها على جـانبٍ كبيرٍ من الأهمية . وقد نشر ذلك الكتاب « بسكوال دى جايانجوس » Pascual de Gayangos وترجمه إلى الإسبانية ترجمةً بليغـةً تعتبر قطعة أدبيـةً « خوليـان ريبيرا » Julian Ribera الذى قلـــنا إنه شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان .

وتلا هـذه الأصول ذات القيمة التـــاريخية العظيمـة ، كتب ألفت فى عصورٍ متأخرةٍ ، حفظت لنا الكثير مما ضاع من أصول التاريخ الأندلسى وأهمها :

ـــ « نفح الطيب فى غصن الأندلس الـرطيب وذكـر وزيرهـا لسان الـدين بن الخطيب » ، ومـؤلفـه أبو العبـاس أحمد بن محمـدٍ التلمسانـى المقرىّ المتـوفى فى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م . وقد نشر هذا الكتاب أكثر من مرةٍ ، فنشر فى مطبعة بولاق ، ثم نشر القسم الأول منـه فى مجلدين كبيرين نفرٌ من المستشرقين فى هولندا على رأسهم المستشرق المشهـور « راين هارت دوزى » ، ثم أعاد نشره كاملاً « محيـى الدين عبد الحميد » فى القاهرة سنـة ١٩٥٠م وما بعدها بدون فهارسَ فى ثمانيـة مجلداتٍ ، ثم نشره أخيراً نشرةً كاملةً بفهـارسَ الدكتـــور «إحسان عبـاس » فى بـــيروت سنة ١٩٦٨م فى ثمانيـة مجلداتٍ بما فى ذلـك جزء الفهارس .

هذا الكتــاب فريدٌ فى بــابه لأن قصد مـؤلفه فى أول الأمر كــان الترجمة للسان الدين ابن الخطيب الـوزير الغـرناطى المعروف ، الـذى سنتحدث عنـه فيما بعد ، ولكن المقرىّ التلمسانى الذى وفـد على الشرق فى تلمسان فى عصرٍ كثر الحديث فيه

عن الأنـدلس ومحنتهـا ، رأى أن يقـدم لتـاريخ ابن الخطيب بمقـدمـةٍ وافيـةٍ عن الأندلس ، بلغت أكثر من نصف الكتاب ، وهى وحدها تقع فى أربعة مجلداتٍ كبارٍ ، وقد ألف الـرجل هـذا الكتـاب على طريقـة الجمع والتصنيف وتأليف المقتبسات بعضها مع بعض ، ومعظمه نقول تتراوح بين فقـراتٍ قصيرةٍ إلى كتبٍ كاملةٍ . وقد قسم الرجل القسم الأول من كتابه الذى يتناول تاريخ الأندلس إلى فصولٍ طوالٍ : الأول فى صفـة جزيـرة الأندلس ، وهـو وصفٌ أدبىٌّ تـاريخىٌّ يختلط فيه الشعـر بالنثر ، ولكنه يضم مادة جغرافية ذات قيمة كبرى ، والفصل الثانى يتناول افتتاح الأندلس بتطويـلٍ وجمعٍ حافلٍ بالفوائد ، ثم يخصص فصلين لما جـادت به قرائح الأندلسيين من بديع الشعر والنثر ، ثم يفـرد فصلاً لقرطبة ومحاسنها ، وفصلين الأول منهما لمن وفد على الأندلس من الشرق والثانى لمن انتقل من أهل الأندلس إلى المشرق ، والتراجم هنا مستفيضةٌ ممتعة ، وفى أثناء ذلـك يقصد الرجل جانباً كبيراً من تاريخ الأنـدلس السياسى والأدبى ثم يختم هـذه المقدمة الطـويلة بفصلٍ عن ضياع الأندلس يذكر فيه الأحداث الأسيفة التى انتهت بخروج ذلك القطر من عالم الإسلام .

أما الجزء الخاص بـابن الخطيب فيقع فى ثلاثـة أجزاءٍ ، ويتنـاول تاريخ ذلك الـوزير الأديب الشـاعـر المؤرخ بتفصيلٍ كبيرٍ ، ويتحـدث عن عصره ومعاصريـه وشيوخه وتلاميذه ، ويورد نماذجَ كثيرةً من كلام ابن الخطيب ومعاصريه .

والكتاب على هـذا النحو خليطٌ لا يستريـح الإنسان إليـه أحياناً ، لأن الـرجل يجرى فيه على طـريقة الاستطراد ، فقد يكـون فى سياق ترجمة رجل ثم يمـر ذكر رجلٍ آخرَ فيترجم له بعد أن يقطع الترجمة الأولى ، ثم يعـود إليها بعد نحو عشرين صفحـةً أحيانـاً ، ولكن الذى يستـوقف النظـر أن الكتاب طـريفٌ جدًّا ، لأن هـذا الاستطراد ينقـل الإنسان من جـوٍّ إلى جوٍّ ، ومن مـوضوعٍ إلى موضـوعٍ ، وينتهى القـارئ فى النهايـة بصـورةٍ واضحةٍ جـدًّا عن الأنـدلس ، تكونت من مقتبسـاتٍ وضعت حطباً بليلٍ فى بعض الأحيـان ولكنها تعطى فى النهاية صـورةً متكاملةً على الطريقة الفنية المعروفة باسم « الجشتالت » أى الصورة العامة .

ويشبه هذا الكتاب من كتب المقرىّ كتـاب « أزهار الرياض فى أخبار عياض »

وهو القـاضى « عياض بن موسى اليحصبى » المغـربى الأندلسى الذى نذكـر له كتاب « الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى » .

ويقع هذا الكتــاب فى ثلاثة مجلداتٍ ، وقد نشر فى القـاهرة بتحقيق « مصطفى السقـا وإبراهيم الإبيـارى وعبـد الحفيظ شلبى » (١٩٣٩ - ١٩٤٢م) وفى هـذا الكتاب أيضا الذى أداره المقرىّ على القاضى عياض يتبع نفس الطريقة ، الاقتباس والاستطراد والجمع والتوفيق ، ولكنه يعتبر كذلك من أوثق ما لدينا عن الأندلس فى عصوره المتأخرة ، لأن المقـرىّ عندما ذكر تـلاميذ عياض استرسل حتى وصل إلى قرب نهايـة الأندلس ، ومادة هذا الكتــاب مثلها مثل مادة نفح الطيب موثـوقٌ فيها لأن المقرىّ كان صدوقـاً قوىَّ الذاكرة يعتمد على أصولٍ حملهـا معه وإن كان هو نفسه يزعم أنه كتب كل ذلك من ذاكرته .

ومن المراجع الأســاسية التى نعتمـد عليهـا فى كتابـة تـاريخ الأندلس كتــاب «البيان المغـرب فى أخبار الأندلس والمغـرب » ، لابن عذارى المراكشى المتـوفى بعد سنة ١٧٢هــ/ ٧٨٨م ، وقد تحدثنــا عنه فى كـلامنا عن مـراجع تاريـخ المغرب ، ونضيف هنا أن ابن عذارى خصص للأندلس معظم كتـابه الذى يتكون كما ذكرنا من خمســة مجلـداتٍ : الأول عن تـاريخ المغـرب إلى آخر أيـام دولـة بنى زيـرى الصنهاجيين ، مع فصولٍ معترضةٍ ذات أهميـةٍ كبرى عن فتراتٍ من تاريخ المغرب ونواح نواحيه تتخطى ذلك التاريخ ، والجزء الثانى يتناول تاريخ الأندلس إلى موت المنصـــور محمـــد بن أبى عامـرٍ ، والجزء الثالث يتحـدث عن عصر الطوائف ، والجزء الرابـع صـــغيرٌ يجمـع ما عثرنـا عليه من تـاريخ المرابطين وهـو جزءٌ نـاقص سقط منه نحـو خمسين سنةً من تـاريخ هذه الـدولة تتعلق بمعظم أيـام يـوسف بن تـاشفين ، والجزء الخامس يتناول تـاريخ الموحـدين ، ومعنى ذلك أن معظم هذا الكتاب يـدور على تاريخ الأندلس ، ومن هنا كانت أهميته بـالنسبة لنا ، ويتميز الكتاب كما ذكرنا بأن صاحبه ينقل قطعاً كاملة من مؤلفات أصيلةٍ ضاعت الآن ، وإذا ذكر شيئاً من عنده فإننا نجده اختصاراً من مؤلفات ذات قيمةٍ أصيلةٍ ، والكتاب على هـذا فى جملتـه يعتبر من الأصول ، وإن كان قـد ألف فى زمنٍ متأخرٍ ولا يستغنى عنه أى دارسٍ لتـاريخ الأندلس ، وإن كنا فى حـاجة إلى طبعةٍ جـديدةٍ للجزء الخامس الخاص بالموحدين ، وفهارسَ ضافيةٍ لذلك الكتاب .

ثم تلا ذلك فى الأهميــة المكتبة الأندلسية ويراد بها مجمــوعةً من كتب التراجم التى ألفها علماء من أهــل الأندلس عن علماء بـــــلادهم ، وهذه المجمــوعة تترابط فيما بينها وتتكــامل على مثال ما تتكــامل كتب الوفيــات فى المشرق ، فمن المعروف عندنا أن هناك سلسلــة من كتب الوفيات أُلّفت فى المشرق ، تتناول التراجم من أول عصــور الإسـلام إلى العصر المملــوكى . فهناك « وفيــات الأعيان لابن خلكــان » ثم يكمله « فــوات الوفيــات لابن شـاكر الكتبــى » ثم يواصله ويستــدرك فواتــه كتاب «الوافى بالوفيات لابن أيبك الصفــدى » ، ثم نختتم السلسلة بكتاب « المنهل الصـافى والمستوفى بعد الوافى لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى » .

كذلك فى الأندلــس نجد سلسلةً من كتب التراجم ألفها علماء أنــدلسيون أجلاَّءٌ يكمل بعضهــا بعضاً ويســد بعضــها فــوات بعض ، وقد بــدأ ينشر هذه السلسلــة المستشرقون الإسبان الأوائل من أمثال « فرنسيسكو كوديرا » و « خوليان ريبيرا» ومن فى طبقتهما ، وهذه الكتب هى :

ـ « تاريخ علماء الأندلس » للحافظ أبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصرِ الأزدى بن الفــرضى (٣٥١ ــ ٤٠٣هـــ/ ٩٦٢ ــ ١٠١٣م) وقــد حققــه فرنسيس كــوديرا ونشره فى مدريد سنـــة ١٨٨٦ وأعيد تحقيقه وطبعه فى القــاهرة سنة ١٩٦٦م .

ويمتاز أبــو الوليــد بن الفرضى بأنــه من العلماء الأثبات ، فقــد كان مــؤرخاً وفقيهــاً وشيخــاً جليلاً صــدوقــاً ومن ثم فنحن نثق فى كــلامــه ، ولم يبق لنــا من مــؤلفــاته الكثيرة فى التــاريخ إلا ذلك الكتــاب القيم ، الــذى يتنــاول تــاريخ علماء الأندلس من أول الفتح إلى سنة ٤٠٠هــ/ ١٠٠٩ م .

ــ « بغيــة الملتمس فى تــاريخ رجــال الأنــدلس » لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبّى المتــوفى فى مــرسيــة فى ٢٥ ربيع الآخــر ٥٩٩هــــ/ ١٢٠٣م . وهــو يواصل تراجم ابن الفرضى ويهتم اهتمامــاً خاصاً بأهل العلم والأدب . وقد اعتمد هذا الرجل فى تــراجمه على كتاب « جذوة المقتبس للحميدى » الــذى سنتحدث عنه بعد قليل .

ـ « جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » لــلإمام الحافظ أبى عبـــد الله محمد

ابن أبى نصرٍ فتوح بن عبد الله الأزدى الحميدى وهو من أهل ميورقة . وقد توفى فى بغداد سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وقد نشر ذلك الكتاب بعناية محمد بن تاويت الطنجي فى القاهرة سنة ١٩٦٦م وكان الحميدى تلميذاً لابن حزم ، وقد ألف كتابه هذا فى المشرق ولهذا نلاحظ أن تراجمه تشوبها بعض الأخطاء ، لأنه كتب بعيداً عن وطنه ومراجعه ، ولكن الكتاب فى مجموعه عظيم القيمة ، وقد اعتمد عليه الضبى اعتماداً كاملاً حتى إننا نجد تراجم هذا الأخير نقلاً حرفياً عن جذوة الحميدى .

ـ كتاب « الصلة » لأبى القاسم خلف عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصارى (٤٩٤ ـ ٥٧٨هـ/ ١١٠١ ـ ١١٨٣م) وابن بشكوال من أعاظم علماء الأندلس وكان شيخ عصره حفظاً وصدقاً ورواية ، وكانت له مشاركةٌ فى التاريخ إلى جانب الفقه ، وكتابه هذا الذى يعتبر صلةً ، أى إكمالاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، لا يقل أصالةً أو صدقاً عن تراجم ابن الفرضى ، بل إن تراجمه تمتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلاً ، وقد نشر هذا الكتاب فى مدريد أولاً ثم أعيد نشره فى القاهرة سنة ١٩٦٦م على تحقيق مدريد .

ـ « صلة الصلة » لأبى جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (٦٢٨ ـ ٧٠٨هـ/ ١٢٣١ ـ ١٣٠٨م) وهذا الكتاب يواصل تراجم ابن بشكوال ويكمل فوائده وقد نشره ليفى بروفنسال فى الرباط سنة ١٩٣٧م .

ـ « التكملة لكتاب الصلة » لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار (٥٩٥ ـ ٦٥٨هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢٦٠م) .

وقد كان ابن الأبار من أعلم أهل الأندلس فى عصره وأكثرهم حفظاً وتدقيقاً وأصدقهم روايةً ، وقد كتب كتابه هذا التكملة ، ليكمل تراجم ابن الزبير فى كتاب الصلة ولكنه زاد عليه واستوسع بحيث أصبح كتاب التكملة من أوسع كتب التراجم الأندلسية التى لدينا ـ وقد نشر منه جزءان فى مدريد ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٨٨٧م ثم عثر « الاركون » المستشرق الإسبانى على قطعة أخرى منه نشرت ضمن مجلد يضم أصولاً عربيةً أندلسيةً مختلفة ، تحت عنوان Mice-lenea فى مدريد ، وبعد ذلك عثر « محمد بن أبى شنبٍ » العلامة الجزائرى على قطعةٍ كبيرةٍ فى أول الكتاب تضم فاتحته وحرف الألف والباء ونشرها فى الجزائر .

ولا بد من جمع هذا الكتاب كاملاً ، ونشره فى نسقٍ واحدٍ ، لأن تراجمه تمتاز

بما تمتاز به مؤلفات ابن الأبـار من علمٍ واسعٍ وحفظٍ دقيقٍ وتنبُّهٍ يستوقف النظر إلى حقائق الأمور .

ـ « الذيل والتكملـة لكتابى الموصول والصلة » لأبى عبـد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصارى الأزدى المراكشى المشهـور باسـم عبـد الملك المراكشى (٦٣٤ ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٣٦ ـ ١٣٠٤م) ويعتبر هـذا الكتـاب أوسع كتب التراجم الأنـدلسية والمغـربيـة ، فهذا الـرجل ألف كتـابـاً واسعاً فى التراجم تقع نسختـه المطبوعة فى خمسة مجلداتٍ (ولم تتم بعد) وقد قام على تحقيقها الدكتوران محمد ابن شريفـة وإحسان عبـاس ، وبـدأ صـدور المجلدات فى بيروت سنـة ١٩٦٤م . والميـزة الكبرى لهذا الكتاب أن معظـم تراجمه تتعلق بـرجـالٍ من أهل عصره ، أى القرن الســابع الهجرى / الثالث عشر الميـلادى ، وهو من العصور الغـامضة فى تاريخ الأندلس ، وتـراجمه مطولةٌ وتقدم لنا إشــارات ذات قيمةٍ اجتماعيةٍ كبيرةٍ ، وقد بلغ من حـرص الرجل على التطويل وإيـراد كل ما عنده ،إنـه فى أحيانٍ كثيرةٍ يورد نصوصَ كتبٍ كـاملةٍ وإن كانت صغيرةً ، ولكننا ونحن نقـرؤه نعيش فى جو أهل العلم فى الأنـدلس فى القرن السابع الهجـرى الذى تجلّت فيـه علامـاتُ نهايةِ الأندلسِ وضيـاعه ، وفى هذا العصر أيضـا قامت مملكة غـرناطة . وممـا يستوقف النظر أن أولئك العلماء الـذين يترجم لهم كانـوا ماضـين فى دراســاتهم ورواياتهم منفصلين تقريبـاً عن الحياة السيـاسية فى الأنـدلس ، ومن يقرأهـم لا يكاد يحس بالمأساة الدائرة حولهم .

ـ ويكمل هـذه المجموعـة من كتب التراجم كتاب « الحلّـة السيراء »لابن الأبار الذى ذكـرناه، وقـد نشر فى القاهرة فى جـزءين سنة ١٩٦٣م بتحقيق كـاتب هذه السطور ، وقـد جمع فيه ابن الأبار تـراجم الخلفاء والأمـراء والرؤساء الـذين أثر عنهم شعر يـروى ، وقد ألفه تقرُّباً لأبى زكـريا الحفصى بعد هجرتـه إلى تونس ، وتراجمه طويلةٌ مستفيضةٌ وأسلوبه جـزلٌ متدفقٌ والرجل حافظٌ واعيةٌ ، وقد تنبه إلى أهميـة ذلك الكتـاب الـذى يضم حشداً كبيراً مـن تراجم الـرؤســاء فى المغـرب والأنــدلس ، المستشرق راين هـارت دوزى . ونشر تـراجمه الأنـدلسيـة فى كتـابٍ مشهـورٍ بين أيـدى دارسى الأنـدلس ، ثم نشر جزءا كبيراً مـن تراجمه المغـربيـة المستشرق « ماركوس ملر » ، ثم نشر النشرة الكاملة التى ذكرناها آنفاً .

ونختم الكلام عن أصول التاريخ الأندلسي بوقفةٍ عند آخر الكبار من مؤرخي الأندلس وهو « لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني بن الخطيب » (رجب ٧١٣ ـ ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٧٤م) .

وابن الخطيب بلا شكٍّ من أعاظم مفكري الأندلس وكبار كتابه وشعرائه ، وقد عاش في العصر الغرناطي في أيام محمدٍ الغني بالله ووزر له وتولى أكبر المناصب ، وله حياةٌ حافلةٌ بالعمل العلمي والنشاط السياسي ، حتى ليصعب على الإنسان أن يفكر في أن هذا كله تم في حياة رجل واحد ، وقد ترجم له الأستاذ محمد عبد الله عنان ترجمةً وافيةً في كتابٍ خاصٍ به متداولٍ بين أيدي الناس .

وقد ألف ابن الخطيب كتباً كثيرةً في تاريخ الأندلس تعتبر عندنا من الأمهات ويهمنا هنا أن نذكر منها كتابين :

الأول : هو « إعلام الأعلام بأعمال الأعلام ممن بويع قبل الاحتلام » ، ويعرف عادةً باسم « أعمال الأعلام » ، وهو كتابٌ ضخمٌ يقع في أجزاءٍ كثيرةٍ ، يهمنا منها القسم الثاني الذي نشره ليفي بروفنسال في بيروت سنة ١٩٥٦م تحت عنوان «تاريخ إسبانيا الإسلامية » وهو من أحسن كتب تاريخ الأندلس عندنا ، فقد كتبه الرجل عن علمٍ ودرايةٍ ، واحتشد في تأليفه فجاء من أحسن ما لدينا من المؤلفات التي لا يستغنَى عنها دارس تاريخ الاندلس .

والقسم الثالث من ذلك التاريخ يتناول تاريخ المغرب الإسلامي وقد حققه ونشره د.أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد بن إبراهيم الكتاني ونشر في الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » وهذا الجزء لا يقارن ـ بحال ـ بالقسم الثاني الذي كتبه ابن الخطيب عن الأندلس ، فهو تاريخٌ ناقص مضطرب السياق ، يبدو أن ابن الخطيب كتبه على عجلٍ ؛ ولكنه على أي حالٍ لا يخلو من فوائدَ تاريخيةٍ بين الحين والحين .

أما القسم الأول من ذلك الكتاب فيدور حول تاريخ المشرق وهو لم ينشر بعد، وهو يخرج عن اختصاصنا هنا ، ولكننا اطّلعنا عليه على أية حالٍ ، وليس فيه ما يضيف كثيراً إلى تاريخ المشرق .

أما الكتاب الجليل الذي يُعدّ مفخرةً لابن الخطيب فهو « كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة » وهو كتابٌ ضخمٌ ، تقع نسخته المطبوعة في أكثر من ألفي صفحةٍ ،

تضم تاريخاً وافياً للأندلس وخاصةً إقليم غرناطة ، وهو يبدأ بمقدمةٍ ضافيةٍ عن مملكة غرناطة ووصفها الجغرافى الذى يجعل لابن الخطيب مكاناً صدراً بين الجغرافيين الأندلسيين ، ثم تلا ذلك التراجمُ الوافيةُ الضافيةُ لمئات من العلماءِ وكبار الشخصيات الأندلسية الغرناطية فى الغالب . وقد قام على تحقيقه بصبرٍ يدعو للإعجاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ونشره فى أربعة أجزاءٍ فى القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٧٤م وذلك بعد أن كان الموجود لدينا منه طبعةً هزيلةً صغيرةً نشرت فى القاهرة قبل ذلك .

تلك هى أهم أصول تاريخ الأندلس التى ينبغى أن يدرسها مؤرخ ذلك القطر ، وهناك كذلك كتبٌ أخرى تسمو إلى مراتب الأصول مثل مؤلفات ابن حزم التاريخية ، وكتاب عبد الواحد المراكشى فى تاريخ الموحدين ، ولكننا آثرنا أنْ نقتصر على هذه دون غيرها مكتفين بأن نذكر بقية الأصول الأندلسية ضمن بيانِ المراجع الذى سنورده فى آخر هذا الكتاب .

الأصول غير العربية :

قلنا إن مؤرخ الأندلس لابد أن يكون على علمٍ بالأصول والمراجع غير العربية التى كتبت فى تاريخ الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية بصفةٍ عامةٍ وخاصة ما كتب منها بالإسبانية ، وقد سبق أن بينا أسباب ذلك .

وقد كتب الإسبان فى تاريخهم كثيراً جداً وعندهم كما عندنا أصولٌ ومراجع . فأما الأصول فما كتب فى العصور الوسطى ومعظمه ألفه رهبان بدأوا فى كتابة تاريخ إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى وهم فى العادة يكتبون تواريخَ عامةً أى تواريخ للبشر جميعاً منذ الخلق ، كما كان يفعل بعض مؤرخى المسلمين . وهم فى العادة يكتبون من ناحيةٍ دينيةٍ ، أى أنهم معادون للمسلمين عداء شديداً لا على أساسٍ قومىٍّ بل على أساسٍ دينىٍّ ، وهم بطبيعة الحال لا يعرفون عن الإسلام شيئاً ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاولة هذه المعرفة ، مع أنهم كانوا يعيشون قريبين من المسلمين ، ولا نقول أنهم كانوا يعيشون بينهم ، لأن أولئك الرهبان المؤرخين الأوَل كانوا يكتبون وهم يعيشون فى بلاد إسبانيا النصرانية

مباعدين للإســلام منكرين إياه . وأقدم من كتب ووصلتنا كتــابته مؤلفٌ مجهولٌ كتب تاريخاً ينسب إلى« البلدة » وعنـوان هذا التاريخ Cronica Albeldinse وقد ألف سنــة ٨٨٣ م ، وهو مجرد جـدولٍ بـالحوادث وأسماء الملوك ، مع ذكـر قليلٍ لأخبار الصراع بين المسلمين والنصـارى . وهذه الأخبار القليلـة ذات فائدةٍ كبيرةٍ لأنـها تضبط لنا تواريخَ ومراحلَ ذلك الصراع وتسـد الفراغات التى يمكن أن تكون قد خانت المؤرخين المسلمين .

ومن تلك المؤلفات الإسبانيـة الأولى تلك المعروفة باســم تـاريخ العالم الذى كتبه « لوقا التودى » Lucas de Tuy : Historia Mundi وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٣٦م وهــو يعطينا بياناتٍ وافيــةً عن ملوك القوط وملوك ليـون ثم ملـوك قشتالة وليون إلى عصره .

وقـــد عاصره تقريباً مـؤرخٌ إسبانىٌ عظيم الأهمية بالنســـبة لنا يسمى Rodrigo Jimenez de Rada ، وكان أسقفــاً لطليطلة وقد كتب تـاريخاً مطولاً لإسبانيا حتى قـرب وفاته سنة ١٢٤٧م ، وهذا الرجل يعطى تفـاصيل مفيدةً جداً بالنسبـة لتاريخ قشتــالة وليـون والممالك النصرانية الأخـرى ، وكذلك بـالنسبة لتاريخ الأندلس واسمه Rerum in Hispania Gestorum Cronicon وقد نشر أول مرّة فى غـرناطة سنــة ١٩٤٥م وأعاد نشره A. Schott فى مجموعته المسماة Hispania Illustrata الجزء الثانى من ص ٢٥ إلى ١٩٤ .

وقد اعتمـد عليه الكثيرون جـداً من مؤرخــى إسبانيا النصرانيـة حتى قـرابة العصر الحديث ، ولا يستغنى مؤرخ الأندلس عـــن مراجعة ذلــك الكتاب فى كل ما يتعلق بالعلاقات بين إسبانيا النصرانيــة وإسبانيا الإسلامية . ومن هذا الطراز من الأصول الإسبانيــة كتب ألفها مستعربون ممن كــانوا يعيشـون بين المسلمين ويكتبون باللاتينيـة أو مستعربون هاجروا إلى إسبانيــا النصرانية ، وهناك كتبوا مدونات فى التاريخ . ومن هؤلاء مؤرخ يسمى « إيـزيدور الباجى » الذى كتب كتابا فى تاريخَ مملكـة أشتريس منذ بـدايتها ويسميـه الأب فلوريت بـالمدونة البــاجية Cronica Pacense وهو يعـرف أحيانــاً باسم La Cronica Mazarabe de 724 ويسمى هذا الكتاب أحياناً باســم Cronica del Anonimo de Cordoba لأن بعضـهم يظن أن المؤلف كتب كتابه فى قـرطبة ، ويسمى أحياناً : Continuatio

لأنهم كانوا يظنون أنه إكمالٌ لتاريخٍ كتب قبله لإسبانيا القوطية ، Hispana ويغطى هذا الكتاب الحوادث من سنة ٦١١ ـ ٧٥٤ ميلادية .

ومن الأصول الجديرة بالثقة مدونة ألفها قس أشتورى يسمى El Beato de Liebana وقد سجل هذا الكتاب الخصومة المذهبية التى وقعت أثناء العصور الإسلامية بين كنيسة طليطلة وكنيسة إشبيلية التى تزعمها قسٌّ مستعربٌ يسمى Elipando وقد ذكرنا مدونة « البلدة » التى تنسب إلى الموضع الذى عثر عليها فيها وهى قرية « البلدة » فى إقليم « ريوخا » وهذه المدونة تصل بتاريخ أشتريس وليون إلى سنة ٩٧٦م ، أى إلى عصر الحكم المستنصر ، والمؤلف معاصرٌ لألفونسو الثالث ملك أشتريس وليون المعروف بالكبير والمتوفى سنة ٩١٠م وقد أطلق عليه هذا الاسم « مومسن » وهو علاَّمَةٌ ألمانىٌّ تخصص فى الدراسات الرومانية وكتب فى تاريخ الرومان كثيراً ونشر الكثير من المخطوطات المتعلقة بتاريخ الرومان ، وله مجلدٌ ضخمٌ جمع فيه المخطوطات الإسبانية التى تناولت تاريخ الرومان والقوط ومن بينها مدونة « البلدة » هذه ، والمؤرخ الألمانى « تيودور مومسن » يسمى هذا الكتاب « الذيل الأبيض » Epitome Ovitense .

ومن هذا الطراز من المدونات مدونةٌ تخص تاريخ إسبانيا فى عصر الملك «ومبا » حتى موت أردنيو الأول (٦٧٢ ــ ٨٦٦ هـ/ ١٢٧٣ ــ ١٤٦١م) ملك أشتريس وهذه المدونة تنسب إلى الملك ألفونسو الثالث الملقب بالكبير ، وإن كان هناك شك فى تلك النسبة ، لأن الباحثين الإسبان عثروا منها على مخطوطتين ، إحداهما مكتوبةٌ بأسلوبٍ سيِّئٍ حافلٍ بالأخطاء ، ويظن أن تلك هى التى كتبها ألفونسو الثالث بنفسه ، ومخطوطة أخرى منمقة مهذبة يظن أن قسًّا يسمى سبستيان قام بعملها وهذه المخطوطة تقص بالتفصيل تاريخ إسبانيا النصرانية حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث وهى تنسب عادةً إلى الراهب سبستيان الذى أشرنا إليه .

وتشبه هذه المدونة ، مدونةٌ تنسب إلى راهبٍ يسمى « سام بيرو » ولهذا تسمى Cronica de Sampiro ، وقد عاش هذا الرجل فيما بين عامى ٩٧٠ ـ ١٠٤٢ م وقد عمل فى القصر فى أيام الملك برمودو الثانى وخلفه ألفونسو الخامس ثم أقيم قسًّا لمدينة أشترقة وكان الذى أقامه هو الملك سانشو الكبير Sancho el Mayor

ملك نبرة ، وهـذا التاريخ يبـدو وكأنـه إكمالٌ لمدونة ألفـونسـو الثالث ، ويتنـاول الأحداث فى عصر هذا الملك حتى بدايات حكـم ألفونسو الثالث ملك ليـون (٨٦٦ ـ ١٠٠٠م) .

ويجد القـارىء بيانـاً بهذه المدونـات الأساسيـة بالنسبـة لتـاريخ إسبانيـا والأندلس فى الفصل الأول مـن الجزء السادس من « تاريخ إسبـانيا العـام » الذى أشرف على كتابته الأستاذ « مننـدث بيـدال » الذى سنذكره فيما بعد . ولهذا نكتفى بهذا القـدر الذى ذكـرناه عن الأصـول ، ونضيف أن راهبـاً إسبانيًّـا يسمى الأب «فلـوريت » جمع هذه المدونـات كلها ونشرهـا فى سلسلة من نحـو ثلاثين مجلـداً تسـمى « إسبانيا المقدسة » El Padre Florez, Espana Sagrada ولا بد لأى باحثٍ فى تاريخ الأندلس من أن يرجـع إلى ذلك المجموع وإلى المجموع الذى نشـره « مومسن » وأشرنا إليه .

وننتقل الآن إلى المراجع أى إلى المؤلفـات الإسبـانيـة التى كتبهـا الإسبـان فى العصور الحديثـة فى تاريخ بلادهم ، وهى كثيرةٌ جدّاً ومعظمهـا جيدٌ وإن اختلفت فى القيمة ووجهة النظر ، ونشير منها إلى مايلى :

- Jeronimo Zurita, Anales de la Corona de Aragon

وقد عاش الأب ثوريتا فيما بين سنتى ١٥١٢ ـ ١٥٨٠م .

- Bernardo Brito, (1569 - 1671), Monarquia Lusitana Historia de Espana .

وهناك مجموعةٌ من الكتب يحمل كل منها اسم « تاريخ إسبانيا » مع مفارقاتٍ يسيرة فى هذا العنوان ، وأهم مؤلفيها :

Ambrosio de Morales - Esteban de Garibay -

P. Juán de Mariana - Juán de Ferreras -

Juan Francisco Masdeu - Alejandro Herculano -

Antonio Alcala Galiano - Modesto Lafuente y Rafael Alcantara .

ومن أهم التواريخ العـامة لإسبـانيا التى لا بد من الـرجوع إليهـا فى التاريخ الأنـدلسى مما كتب فى الخمسين سنـةً الماضية ، ولا زال يعـاد طبعها وتنقيحهـا

لتساير تطور الأبحاث التاريخية :

- Antonio Ballesteros Beretta, Historia de Espana y su Influencia en la Historia Universal (12 vols. Barcelona 1918 - 1941) .

- Luis Pericot, Historia de Espana. Gran Historia General de los Pueblos Hispanicos, (6 vols. Barcelona 1935 - 1962).

- Ramon Menendez Pidal, Historia de Espana. (Espasa - Calpe) 8 vols. Madrid 1935 - 1958 .

وهذان التأريخان اشترك فى كتابة فصولهما عددٌ كبيرٌ من المؤرخين تحت إشراف العالمين المذكورين ، وتختلف القيمة العلمية لفصولهما اختلافاً بَيِّناً . وجديرٌ بالذكر أن المجلدين الرابع والخامس من التاريخ الذى أشرف على تحريره « رامون مننذث بيدال » يتناولان تاريخ الأندلس وحضارته ، وهما ترجمة إسبانية لكتاب :

- Levi - Provincal, Histoire de l'Espagne Musulmane .

الطبعة الثانية ــ باريس سنة ١٩٥٥م وما بعدها . وقد قام بالترجمة الإسبانية المستشرق المعروف « إميليو غرسيه غومس » .

- Pedro Aguado Bleye, Historia de Espana. 3 vols. Madrid 1947 - 1958 .

ويعتبر هذا الكتاب من أحسن الكتب المتوسطة الحجم التى ألفت فى تاريخ إسبانيا ، والفصول الخاصة بالأندلس الإسلامى فيه جيدةٌ .

- Fernando Soldevila, Historia de Espana. 8 vols. Barcelona 1952 - 1959 .

ومؤلف هذا الكتاب قطلونىٌّ ، وهو لهذا ينظر لتاريخ إسبانيا من الزاوية القطلونية ، والفصول الخاصة بالأندلس فيه تُقرأ بحذرٍ شديدٍ .

- Luis Garcia de Valdeavellano, Historia de Espana (Madrid 1955) .

- Jaime Vicens Vives, Historia Social y Economica de Espana y America (Barcelona, 1957 - 1959) .

أمـا الكتب المؤلفـة فى عصـور بعينها أو مـوضـوعـات محددة من التـاريخ الإسبانى ـ بما فى ذلك الأندلس ـ فكثيرة جداً يجد القـارىء بياناً بها فى ببليوغرافية كل تاريخ عام ممـا ذكرناه ، وخاصة التاريخ الذى كتبـه « بايستروس » والتاريخ الذى أشرف عليه مننـدث بيدال ، فإن قوائمهما الببليوغرافية من أحفل مـاعرفنا . وكذلك نجد مادة ببليوغرافية فى كتاب ذى قيمـة كبيرة فى تاريخ أإسبانيا ألفه ثلاثة من أساتذة جامعة بلنسية وجعلوه مقدمة لتاريخ إسبانيا واسمه :

Antonio Ubieto, Juan Regalá, José Mariá Jover, Introduccion á la Historia de Espana, Barcelona (Teide 1963) .

والخلاصة أن دارس تـاريخ الأندلس لا ينبغي أن يغيب عن بـاله أنـه يدرس تـاريخ بلـدٍ إسـلامي أوربيٍّ ، فـالعنـاصر الأوروبية جـزءٌ من تكـوينـه البشرى والطبيعى ، والمراجع الأوربيـة جزءٌ من مـراجعه ، ولا يكفى قَطُّ أن يطّلع الإنســان على المراجع العربيـة سواءٌ أكانت قـديمةً أم حـديثةً ، لأنها فى مجموعهـا تنظر من وجهة النظر العربية وحدها ، وتعتمـد على الأصول العربية وهذا لا يعطى إلا جزءًا من الصورة ويبقى نصفهـا الثانى . وفى بعض الأحيان يكـون ذاك النصف الثانى أهم من المراجع العربية .

مثال ذلك أن دراسة عصر الطوائف من خلال المراجــع العربيـة ، لا يعطى إلا جانباً ضئيلاً من حقيقة الأوضاع فى شبـه الجزيرة الإيبيرية ، أما ملوك الطوائف فتتحـدث عنهم مراجعنـا بتطـويل فتجعل مثلاً صـورة المعتمـد بن عَبَّاد قـاضـى إشبيلية التى تولى أمرها ، صورة رجلٍ سياسىٍّ بعيد النظر يحسن سياسة الأمور ويوجه الأحداث ، بينما هو كان فى الحقيقة لا يمثل مـن الناحية السياسية أية قوةٍ لها أثرٌ فى سير الحوادث ، فهـذا رجلٌ لا يملك قوةً عسكـريةً تمكّن لـه من التأثير فى الحوادث ، بل هو يدفع إتاوةً للملك النصرانى ـ ملك قشتالة وليون ـ وهو أى الملك النصرانى هو القوة المحركة للحـوادث . وإذَنْ فنحن إذا أردنا أن نؤرخ لإشبيلية فى عصر الطوائف ، قد نأخذ بعض المعلومات عن بعض ما كان يجرى داخل إشبيلية ، ولكننا لا نعـرف مصير إمارة إشبيلية كلهـا ، لأن الذى كان يقـرر ذلك المصير هو

ملك قشتالـة ، وعندمـا صار أمـر إشبيلية فى كفـة الميزان ، كـان المرابطون ، وهم مغاربةٌ مسلمون وغير أندلسيين ، هم الذين تولوا مواجهة الخطر النصرانى . وإذن فالذى نفيده من دراسة المراجع العربية شئٌ قليلٌ ولا يعطى كما قلنا إلا جانباً من الصورة . ولا تكتمل هذه الصورة إلا بالدراســة المتعمقة ، للمراجع غير العربية ما بين إسبانية ولاتينيةٍ وبرتغاليةٍ وقطلونيةٍ .

وقـد آن الأوان أن ندرك هــذه الحقيقة وأن نعلم أن تـاريخ الأندلس جـزءٌ من التـاريخ الأوربى ، كما هــو جـزء من التـاريخ العـربى ودارســه ينبغى أن يحيط بالتاريخين وأن ينظر إلى المسائل من زاويتيها العربية والإسبانية .

ونختم هذه المقدمة الببليوغرافية بأن نسأل كيف يمكن أن يفسر مؤرخٌ عربىٌ لا يعرف غير اللغـة العربية والمراجع العربيـة ، اسم رجلٍ من أكبر علماء الأندلس وهو « ابن بشكوال » واسمه الكامل أبـو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصارى ، فكيف يكون أنصاريًّا واسم واحد من أجداده بشكوال ، وهو لفظ إسبانىٌّ صرفٌ ؟ وأبسط مـاتدل عليه هــذه الظاهرةً هى أن سلسلـة آباء ذلك الرجل ليست عربيةً أنصاريةً خالصـةً فقط بل عربيةٌ أنصاريةٌ إسبانيةٌ ، فلا بد أن جده مسعوداً تزوج من إسبانيـةٍ اسم عائلتها بشكوال Pascual وكان لا بد من قـراءة الاسم ونسب الـرجل هكـذا : أبو القـاسم خلف بن عبـد الملك بن مسعـود وبشكوال الأنصارى ، وهذه فى ذاتها ظاهرةٌ اجتماعيةٌ جديرةٌ بالدراسة .

* * *

الأنـــــدلس

يعتبر فتح شبه جزيرة إيبيريا من أروع حلقـات الفتوح الإسلامية الأولى . فقد جاء ذلك الفتح تتويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب ، الذى استغرق كما رأينا حوالى سبعين سنةً ، مـا بين نصر وهزيمةٍ ومدٍّ وجزرٍ وكان ذلك دليـلاً على حيوية الشعب العربى وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه ، بهذا الفتح الطويل وصل العرب إلى مضيق جبل طارق أو « بحـر الزقاق » كما يسمى ، ووصلـوا فى أوائل العقد الأخير من القـرن الهجرى الأول / العقـد الأول من القـرن الثـامن الميلادى إلى سـاحل المحيط الأطلسى ، من طنجةَ شمالاً إلى سهل السوس جنـوباً ، وبذلك أصبحوا على أبواب أوربا من هـذه الناحية . ومن دلائل حيوية الشعب العـربى أنه لم يقف عند ذلك الحد وإنما تخطَّى بحـر الزقـاق ونزل شبـه الجزيرة الإيبيرية وفتحهـا حتى وصل إلى أقصى شمالها ، ثم عبر جبـال البرت التـى تسمى البرانس خطأ ، وغـزا «غـالة » وهى فـرنســا اليـوم حتى وصل إلى سبعين كيلو متراً جنـوبىّ بـاريس . والمسافة ما بين قرطبة وما وصل إليـه العرب شمالا نحو ألف كيلو متر . والمسافة كذلك من أقصى موضعٍ وصلـت إليه جيوش العرب غربـاً إلى دمشق نحو ثمانية آلاف كيلـو مترٍ ، كلهـا قطعها العـرب محاربين منتصرين على أقـدامهم أو ظهـور الخيل والجمال . وذلك عملٌ لم يسبقهم إلى مثله أحـدٌ فى التاريخ . ومن الواضح أن شبه جزيرة إيبيرية ، وهى ما يسميه العرب بالأندلس وما يعرف اليــوم بإسبانيا والبرتغال ، كانـت شاسعةَ البعد عن مـركز الخلافة ، ويكفى أن نذكـر أن المسافة بين دمشق وقرطبة سبعة آلاف كيلو مترٍ ، وهـذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرسٍ جيِّدٍ أربعةَ أشهرٍ ، فكأنك لو أرسلت رسـالةً من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعةِ أشهر ، وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى . وذلك يصوِّر لنا بعد هذه الأقاليم من مركز الدولة الإسلامية ، ومع ذلك فقـد فرض العرب أنفســـهم على ذلك البلد البعيد ، وحكموه وعاشـوا فيه وحوّلوه إلى بلدٍ عربىٍّ إسـلامىٍّ ، واستمر سلطانهم هناك مـا بين مدٍّ وجزرٍ ثمانيـة قرونٍ ، وإذا كان الأندلس قـد ضاع منا فى النهـاية فذلك ليس بعجيبٍ وإنما العجيب أننا أقمنا فيه هذا العمر الطويل .

الأندلس هى الـدولة الأولى التى أقامها العـرب فى أوربا . وقد كانت لـلإسلام

خلافتان على الأرض الأوربية : الأولى دولة الإسلام فى الأندلس ، والثانية هى دولة الخلافة العثمانية فى الشرق .

وهذه هى الناحية الأولى التى تهمنا وهى الميزة التى تميز بها الأندلس عن غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، فنحن هنا فى بلدٍ أوربىٍّ ونحن مع ملك أقامه العرب فى قلب الغرب الأوربى بين فكّى الأسد كما يقولون ، ومع ذلك فقد تمكنوا من تحويل ذلك البلد إلى مركزٍ من مراكز الإسلام والعروبة . وذلك يشهد للجنس العربى بالتفوق والامتياز ، ويفسر لنا لماذا يعتبر العرب من كبار صنّاع تاريخ الإنسانية ، وقد قال المؤرخ الإنجليزى نيفيل بارير : إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار Overseas أى أنه كان بلاد المهجر البعيد الذى ينهض إليه كل رجلٍ جرىءٍ مغامرٍ يريد أن يفتح لنفسه باباً واسعاً من أبواب الرزق والرفاهية ، ومن البديهى أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والأصول البربرية التى أسلمت وأظهرت قدرةً على مجابهة الصعاب . ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحداً من أزهر بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولةً مجيدةً هى الدولة الأموية الأندلسية ودولاً أخرى غيرها ، وأقاموا صرح حضارة زاهرةٍ لا زلنا نفخر بها إلى اليوم ومَدُّوا جسراً حضارياً عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوروبى .

وتاريخ الأندلس على هذا قصة جهادٍ مجيدٍ وعملٍ متصلٍ مباركٍ ، وجهد شعبٍ قوىٍّ استطاع بالفعل أن ينشئ على أرضٍ أوروبيةٍ حضارةً عربيةً إسلاميةً، تتميز عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية بطوابعَ نعرفها بمجرد نظرةٍ على أى مظهرٍ من مظاهر تلك الحضارة كما سنرى .

اسم « الأندلس » :

وعندما نقول الأندلس فإننا نعنى ما ساده العرب من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) لأن العرب عندما فتحوا الأندلس فتحوه كلّه إلى جبال ألبرت كما قلنا ، وإلى خليج بسكاى الذى يسميه العرب « حائط إفرنجة » ، ثم أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً حتى إذا قامت الدولة الأموية سنة ١٣٨هـ/

٧٥٦م كان العرب قد فقدوا الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة ، واستمر سلطان العرب على بقية البلاد حتى سقوط الخلافة الأموية الأندلسية سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٣١ م . وبعد ذلك أخذوا ينحسرون ويفقدون أجزاءً أخرى من شبه الجزيرة ، ولكن لفظ الأندلس ظل يطلق على ما بيد المسلمين من شبه الجزيرة ، حتى اقتصر فى النهاية على مملكة غرناطة ، فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة وهو يمثل ١/٨ ثُمْنَ مساحتها . ومع ذلك ظل يسمى الأندلس ، وفى النهاية عندما لم يبق فى يد المسلمين إلا مدينة غرناطة كانت هى الأندلس وهكذا .

ولفظ الأندلس معرَّبٌ جاء من لفظ « الوندال » الذين يسمون فى اللغات الأوروبية « الفاندال أو الفاندالوس » . وهذا القبيل من المتبربرين غزا شبه الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى ، وانحدر إلى الجنوب تدفعه قبائل أخرى جرمانيةٌ ، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة ، وهناك أقام زمناً طويلاً وسُمِّى ذلك الطرف الجنوبى باسم « فاندا لوسيا أو واندا لوسيا » ، وبهذا الاسم عرفه البربر الذين يقيمون على بحر الزقاق . وعندما وصل العرب قيل لهم إن هذه أرض « وندلس » ، وحرف « الواو » هو أداة التعريف فى لهجة بربر طنجة ، فعُرِّب الاسمُ إلى « الأندلس » . وبهذا الاسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربى . ولا زال اللفظ فى صورةٍ إسبانيةٍ هى « إندلوثيا » يطلق إلى اليوم على ثمانية محافظاتٍ صغيرةٍ فى الثلث الجنوبى لشبه الجزيرة جنوبى نهر الوادي الكبير حتى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولبة وإشبيلية .

وشبه جزيرة إيبيريا - وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال - إقليم واسع تصل مساحته إلى ستمائة ألف كيلو متر مربع . وإسبانيا وحدها ، وهى تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة ، تعتبر ثالثة بلاد أوربا فى المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها ٥١٦,٠٠٠ كم٢ - خمسمائة وستة عشر ألف كيلو مترٍ مربعٍ .

وشبه الجزيرة فى مجموعه عبارةٌ عن هضبةٍ متوسطةٍ ، ارتفاعها ستمائة مترٍ عن سطح البحر ، وهى أعلى بلاد أوربا باستثناء سويسرا ، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ثمانمائة مترٍ ، وسلاسل الجبال التى يصل ارتفاعها إلى ألفٍ وستمائةِ مترٍ ، كثيرةٌ جدًا .

والحد الفاصل بين أوربا وشبه الجزيرة هى سلسلة الجبال التى تسمى باللغات الأوروبية « البرانس » ، وهى سلاسلُ من الجبال تقفل الطريق من شبه الجزيرة إلى جنوبى فرنسا ، فلا يعبر الناس إلا من ممرين فى الشرق والغرب ، ومن ممراتٍ خلال الجبال تسمى « بالأبواب » . ومن هنا جاء لفظ اسمها فى العربية وهو جبال ألبرت ومعناه جبال الباب أو جبال الأبواب . وبسبب هذا الحاجز الكبير، كان الفارق الحضارى بين مايقع جنوبىّ الجبال وشمالها ، فرقاً جسيماً يلاحظه الإنسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا .

وشبه الجزيرة مخمَّسٌ تشقه سلاسل الجبال تجرى مستعرضةً ، وبين كل سلسلة من الجبال والتى تليها يوجد وادٍ يجرى فيه نهْر مستعرضٌ أيضاً ، ولهذا فإن شبه جزيرة إيبيريا ينقسم بالفعل إلى مناطقَ مستعرضةٍ يلى بعضها البعض . ولكل منطقةٍ سلسلة جبالها ونهرها أو أنهارها . وهذه الأنهار معظمها يصب فى المحيط الأطلسى وتنبع كلها من وسط شبه الجزيرة ، فهناك الحد الفاصل لمجارى المياه ، ولا نجد الأنهار الكبيرة التى تحمل الماء الوفير إلا فى النصف الشمالى لشبه الجزيرة . وتلك الأنهار من الشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب ، هى المنيو ثم الدويرو ثم تاجة ثم الواديانة أو الوادى آنه ثم الوادى الكبير وعليه تقع قرطبة وإشبيلية وهى قلب الأندلس الإسلامى ، ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر شنيل ، وعلى فرعٍ من فروعه يسمى « حدارة » تقع غرناطة .

أما أنهار الغرب فليس فيها إلا نهرٌ واحدٌ كبيرٌ يطلق عليه اسم النهر وهو « إبرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة إقليم « قطلونية » الذى استقل الآن استقلالاً داخلياً ، وكان وادى إبرو فى أيام المسلمين يسمى بالثغر الأعلى للأندلس وعاصمته سرقسطة ، وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة فى شبه الجزيرة . أما بقية الأنهار التى تصب فى البحر المتوسط بعد نهر إبرو ، فصغيرةٌ نسبياً يسميها العرب بأسماء المدن التى تقع عليها ، فهناك نهر بلنسية الذى يسمى أيضا بالوادى الأبيض واسمه فى اللاتينية « توديا » ونهر مرسية وما إلى ذلك . وشبه الجزيرة فى مجموعه إقليمٌ جافٌ بصفةٍ عامةٍ ، فلا تكثر الأمطار إلا فى نصفه الشمالى أى إلى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه الجزيرة قبل الفتح العربى . وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة فى جملته وجدنا أن

النصف الأغنى هو الشمالى ،حيث الأنهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة ، وفيما بين نهر تاجه ونهر المنيو توجد أوسع مناطق القمح فى أوروبا بعد الأوكرانيا فى روسيا ، وهناك أيضا أى فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة أراضى المراعى الواسعة التى تتربى عليها الماشية الكبيرة والأغنام الوافرة الصوف وكذلك الخيول الكبيرة الحجم . وهناك أيضا مناجم الحديد والفحم ومعادن أخرى — ولا بد أن نلاحظ أن القسم الذى ساده العرب كان أوسع مساحةً بينما كان القسم الذى ساده النصارى أصغر حجماً ولكنه أكثر ثروةً ولكنه نتيجة لذلك كانت ثروته أوفر ولهذا كان الناس أيسر حالاً ، وغذاؤهم أحسن ، وكذلك كانت خيلهم أقوى ، وذلك يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين العرب وخصومهم معركةً عنيفةً دائماً ، برغم أن المسلمين كانوا يملكون القسم الأكبر ولكنه الأفقر ، فلم يكن فى النواحى الداخلة فى الأندلس من الأقاليم الغنية فعلاً إلى إقليم بلنسية فى الشرق ، وهى اليوم أعظم مناطق إنتاج البرتقال والأرز فى أوروبا ، ثم ناحية إشبيلية ، وفيما عدا ذلك فإن بقية البلاد الأندلسية التى نفخر بها كانت تقوم فى مناطق فقيرةٍ نسبياً ، حتى قرطبة ذات الصيت البعيد تقع فى إقليمٍ فقيرٍ فى جملته . ومن هنا نتبين حقيقةً كبرى ينبغى أن نضعها فى أذهاننا عندما ندرس تاريخ الأندلس وهى أن العرب أخطأوا خطأً شديداً عندما جعلوا عاصمتهم مدينة قرطبة على نهر الوادى الكبير ، فإن الوادى الكبير نفسه إقليمٌ فقيرٌ ، ثم إنك لا تستطيع أن تسيطر على شبه الجزيرة من بلدٍ يقع فى سدسها الجنوبى ، ولو أن العرب جعلوا عاصمتهم طليطلة لتغير وجه التاريخ ، لأن طليطلة تقع فى وسط شبه الجزيرة تقريباً . ومن الوسط تستطيع بطريقةٍ أسهلَ ، أن تسيطر على البلد ، ثم إن طليطلة ، وعلى مقربةٍ منها مدريد ، وهى منشأةٌ عربيةٌ تقع فى وسط الإقليم الغنى حيث الغذاء وافرٌ والمراعى غنيةٌ ومصادر المعادن متوفرةٌ ، وهى أسلحة الصراع الكبرى . ولكن العرب عندما فتحوا قرطبة كان لهم عذرهم فهم يريدون أن تكون قاعدتهم أقرب ما تكون إلى قلب دولتهم وبقية عشيرتهم فى بلاد المغرب . وعلى أى حالٍ فهذا هو الذى حدث وكانت له نتائجه المعروفة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .

فتح الأنــدلس

تمهيد فى أحوال شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامى :

كان شـــبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتــح الإسلامى خاضعاً لسلطــان القوط الغربيين ، وهُمْ واحــدٌ من شعوب الجرمان المعروفــة با لمتبربرين ، الـذين اقتحموا بلاد الدولة الرومانية وتقاسموها فيما بينهم من أواخر القرن الرابع الميلادى .

دخل القوط الغربيـون بلاد الدولة الرومانيــة أوائل القرن الخامس الميلادى وصاروا فى رفقة أبنــاء عمومتهم القوط الشرقيين ، واستقروا فى « غالــة » المعروفة حالياً بــاسم فرنسا ، وهناك انقســـــموا قسمين كبيرين ، فأمــا القوط الشرقيون فقد استقروا فى إيطاليا ، وكان على أيديهم زوال الدولة الرومانية فى الغرب ، إذْ أنهم دخلوا روما بقيادة زعيمهم أدواكر سنة ٤٧٦ م .

أما القوط الغــربيون فقد مدُّوا سلطانهم فى شبــه الجزيرة الإيبيرية ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين الفرنجة وهم أيضاً مــن شعوب المتبربرين ، وانتهى الأمر أوائل القرن الســادس الميلادى بانسحاب القــوط الغربيين إلى شبه الجزيــرة الإيبيرية وانفــرادهم بها وتغلبهم على من كان قــد سبقهم إليهــا من شعوب المتبربــرين من أمثال السويف والآلان وغيرهم .

ساد القوط الغــربيون شبه الجزيرة كله من أوائل القــرن السادس الميلادى ، واتخذوا طليطلة عاصمة لهم ، وأنشأوا مملكة يتولى أمورها القوط وحدهم ، فكانوا يحكمون رعايــاهم من أهل البلاد من الإيبيريين الرومان بالقــوة والعنف ، خاصةً وقــد كان القــوط مســـيحيين على المذهـــب « الأريوسى » الــذى يقول بطبيعةٍ واحدةٍ للسيــد المسيح ، فى حين أن رعايــاهم كانــوا على المذهب الكاثــوليكى الذى يقول بالطبيعتين . وبين المذهبين من الخلاف ما بين دينٍ ودينٍ ، ونتيجة لذلك كان هناك عداءٌ شديدٌ بين القوط ورعاياهم .

وفى عهــد ملكٍ من ملــوك القوط يسمى « ريكــاردو » تحول القــوط إلى المذهب الكاثوليكى ، فكان ذلك سبباً فى مصـــالحة بين القوط ورعاياهم وتحسنت الأحوال

نتيجـة لـذلك وتمكن القـوط من السير بدفـة الأمـور فترةً من الـزمن ، ولكنهم لم يختلطوا برعاياهم قَطّ وظلوا يعتبرون أنفسهم طبقةً متميزةً على بقية السكان .

وقبل الفتح العربى بنحـو عشرين سنةً صار العـرش إلى ملكٍ يسمى « ومبا » صلحت على يديـه الأمور ، وأعلن سيـاسة تسامح فى البـلاد ، فرضى عنـه الناس وكان له أبناءٌ كثيرون سيكون لهم دورٌ فى الفتح العربى للمغرب .

وقبـيل الفتح العربى ثـار على المـلك « ومبا » حاكم قرطبـة القوطى ، واسـمه « رودريك » ويعرّبه العرب على « لذريق » وخلعـه عن العرش وتولى مكانه ، واتبع سياسةً ظالمةً لأهل البلاد ، واضطهـد اليهود فتغيرت قلوب الناس عليه وفكروا فى القيام ضد حكمـه ، ووجدوا أن خير ما يعينهم على ذلك هو الاستعـانة بالمسلمين . وتولى الوسـاطـة بين السـاخطين على لذريق و« **طـارق بن زيـاد** » ـ قائد جيوش المسلمين المعسكـرة عنـد طنجة ـــ الكـــونت « **يـوليـان** » حـــاكم سبتة وهـو شـــخصية لا تعرف حقيقة أمرها ، فمن قائل إنه كان بربريًّا وزعيماً لقبيلة غمارة، ومن قائل إنه كان حـاكماً للإقليم باسم الدولة البيزنطية ، وهنـاك من يقولون إنه كان ممثلاً لملك القوط فى اقليم سبتة وطنجـة . على أى حال كانت العلاقة سيئةً بين لذريـق ويوليان . ويـذهب المؤرخون العـرب إلى أن سبب ذلك هو أن الملك لـذريق اعتدى على بنت يـوليان ، وكانت تتربى فى قصره . وعلى أى حال أقبلت الـوفود على طارق تدعوه لفتح شبه الجزيرة الإيبيريـة أو الأندلس ، وكانوا جميعاً يعتقدون أن العرب عنـدما استجابـوا لهذا الطلب ، لم يكونـوا يقصدون أكثر من إنـزال ضربةٍ قاضيةٍ بلذريـق ثم العودة إلى المغرب محمّلين بالغنائم ، وغاب عنهـــــم أن العرب لا يقومون بهذه المهام ، وأنهم قومٌ فاتحون يحملون رسالةً وديناً سماوياً .

فتـــح الأنـــــدلس :

ولقى الطلب أذناً صاغيـةً من طارق بن زيادٍ ، لأن قوته العسكـرية المقيمة فى طنجة كانت معطلـةً دون عمل وكانت نفوس أفرادها تتوق إلى الجهـاد ، وقد ذكرنا أنه كان مع طارق أعدادٌ كبيرةٌ من جند البربر والعرب .

أرسل طارقٌ إلى « **موسى بن نصيرٍ** » ـ وكان إذ ذاك والى المغرب للأمويين ـ

يستأذنه فى غـزو الأندلس فأذن له ، ولكنـه أمره بأن يختبرها قبل ذلك بـالسرايا ، لكى يعرف مـدى مقاومة القوط قبل القيـام بذلك العمل ، ثم إنه نصح طـارقاً بأن يستـوثق من ولاء يوليـان بتكليفه بـالقيام بغـارة على الأندلس ، حتى يضمن أنـه أصبح عدوًا للـذريق ففعل يوليـان ذلك وتعهد بنقل جنـد المسلمين إلى الأندلس فى سفنه .

وفى سنة ٩١هـ/ ٧١٠م أرســل طارق بعثاً استطلاعيًا يقـوده قائدٌ من قواد البربر يسمى **طريف بن زرعـة بن أبى مدرك** ، فقام بمهمته خير قيـام وأغار على الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة وعـاد بغنائم وافرةٍ دون أن يلقى مقاومةً ومن ذلك الحين أصبح اسم طريف يطلق على بلدةٍ صغيرةٍ جميلةٍ فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة .

تشجع طـارقٌ بهذه النتيجة ، فعبر إلى الأنـدلس فى شعبـان ٩٢هـ/ أبـريل ـ مـايـو ٧١١ م ونزل بصخـرة جبل طـارقٍ التى كـانت تسمى قبل ذلك بصخـرة «كالبى » فأصبحت تسمى بـاسمه ، وهناك أنشأ قاعدةً وحصنـاً ، عهد فى حمايته إلى يوليـان . ثم سار إلى الشمال حتى بلدةٍ تسمى قـرطاجة وترك بها حـاميةً ، ثم انحـدر إلى الجنـوب وعسكـر فى رأس بـارزٍ فى البحـر سماه العـرب « الجزيـرة الخضراء» وستنشأ هنا مـدينةٌ إسلاميـةٌ زاهرةٌ (لا زالت زاهـرةً إلى اليوم) تحمل اسم الجزيرة . ثم سـار إلى الجنوب حتى بلغ السـاحل الجنوبى لشبـه الجزيرة ، وسار بمحاذاة ذلك السـاحل وعبر نُـهيراً صغيراً يصب فى المحيط الأطلسى يسمى وادى « لكة » ، يصب فى بحيرةٍ ضحلـةٍ سماها العـرب « الخندق » ولا زالت تحمل ذلك الاسم إلى الآن « لاخـانـدا » ، وبعـد ذلك ضرب بمعسكره فى منطقـةٍ واسعـةٍ يحدّها من الشرق وادى «لكة» ومن الغـرب وادى « البرباط » ، وهو عبارة عن نهرٍ آخرَ . وهى منطقـةٌ سهليةٌ واسعـةٌ تكثر فيها المدن ، فهنـاك مدينـة « قادش » على البحر ومدينة « شريش » إلى جوارهـا فى الداخل ، وفى الشمال فى الطريق إلى قرطبة تقـوم مدينة « شذونة » واســمها الأصلى « سيدونيا » . وفى ذلك السهل الواسع أخذ طارقٌ ينظم قـواته انتظاراً للقوط .ووصل الخبر إلى لـذريق ، وكان مشغولاً إذ ذاك فى شمال شبه الجزيرة ، فجمع قواته وانحدر إلى الجنوب للقاء المسلمين ، لأنه يبدو أن الأخبار التى بلغته روعته روعاً شديداً ، ووصل إلى بلدة شذونة .

وهناك أخذ يستعد لخوض المعركة ، ثم سار للقاء المسلمين . ولم تلبث المعركة أن شبَّت ، وهى لم تقع فى موضعٍ محدَّد بحيث يمكن أن تسمى باسمه ، ودامت أكثر من أسبوعٍ فهى غير محددةٍ لا فى المكان و لا فى الزمان ، وإنما كانت معركةً من طرازٍ جديدٍ بين قوتين غير متعادلتين ، واستمرت حتى انهزمت قوة القوط . ولهذا فهى تحمل فى النصوص أسماءً كثيرةً فهى تسمى « معركة البرباط » أو « معركة شريش » أو « معركة الخندق » أو معركة « وادى لكة » ، وأحياناً تسمى معركة شذونة وما إلى ذلك . ويبدو أن طارقَ بن زيادٍ هو الذى رسم خطة المعركة على هذا النحو ، لأن الفرق فى القوة بين من كان معه ومن كان مع عدّوه ، كان فرقاً كبيراً جدّاً . ولم يكن من الممكن التغلب على العدو إلا على طريقة الحرب الصغيرة التى تسمى اليوم باسم « الجريلا » التى نسميها عادةً بحرب العصابات، وهذا مجرد تشبيهٍ للتوضيح فقط ، لأن جيش طارقٍ لم يكن جيش عصاباتٍ . على أى حال نجح طارق فى القضاء على قوة القوط ، وهرب لذريق فتتبعه المسلمون فى اتجاه الشرق حتى أدركوه عند نهرٍ يصب فى نهر « شقورة » التى تقع عليه الآن مرسية . وهذا النهر يسمى « وادى الطين » وهناك قتلوه عند بلدة تسمى « لورقة » ولا صحة لما يقال من أن لذريق قتل فى ميدان المعركة ، وكذلك لا صحة أيضاً لما تذكره بعض المراجع من أنه هرب إلى الشمال والتقى مع العرب فى معركة ثانيةٍ قرب « سلمنقة » وبعد ذلك مباشرةً نجد أن طارقاً يعطينا دليلاً ثانياً على قَدرته وموهبته العسكرية كفاتح عظيم ، فقد رأينا هذا الرجل يدخل بلداً غريباً شاسعاً وراء البحر ويرسم خطةً موفقةً للسير ، ثم عرف بعد ذلك كيف يختار مكان المعركة وطريقة المعركة ، وبعد ذلك مباشرةً سار إلى الشمال وقد امتلأت أيدى أصحابه بالغنائم وركب الخيل منهم من لم يكن عنده حصانٌ ، وإذا أردتم أن تقرأوا تفاصيلَ جميلةً عن ذلك الفتح ، فعندكم كتاب « نفح الطيب » للمقرى التلمسانى ، وستجدون فيه وصفاً مطولاً عن ذلك الفتح .

اتجه طارقٌ بمن معه إلى الشمال فعبر نهر الوادى الكبير ، وكانت وجهته أن يدخل طليطلة وهى عاصمة القوط ، وتبعد عن مكان المعركة بما يزيد على ستمائة كيلو مترٍ ، فى أرضٍ وعرةٍ كلها جبال ووديانٌ ومضايقُ عسيرةٌ . وإنه لمن عجائب التاريخ التى تدل على قوة الأجيال الإسلامية الأولى وعزيمتها وإيمانها ، أن تلك

القوة الإسلامية استطاعت ، بعد معركة طاحنة ، أن تعبر تلك المسافة الشاسعة وأن تصل إلى طليطلة وتدخلها بعد مقاومةٍ عنيفةٍ . وفى الطريق نجد طارقاً يرسل قائداً من قواده يسمى « مغيث » الرومى فاحتل قرطبة ، وكانت فى ذلك الحين معسكراً رومانياً قديماً على ضفة نهر الوادى الكبير ، وعندها تقوم قنطرةٌ حجريةٌ على النهر . وعندما نرى طارقاً يقوم بذلك العمل ، ندرك أن ذلك الرجل كان بالفعل قائداً عسكرياً ملمّاً بشئون الحرب ، لأن السيطرة على قنطرة الوادى تؤمن له طريق العودة ، وستصبح قنطرة الوادى هذه من أكبر معالم قرطبة الإسلامية ، وسيكون لها شأنٌ فى التاريخ الاجتماعى والأدبى للأندلس الإسلامى .

استقر طارقٌ فى طليطلة ، وهرب منها كبار القوط وكذلك كبار رجال الدين وعلى رأسهم أسقف طليطلة المسمى « سندريد » فى اتجاه شمالىٍّ شرقىٍّ ، فى الطريق الذى يسميه العرب « وادى الحجارة » والمراد بالحجارة هنا جمع حجرٍ وهو الحصن . وقد حمل القساوسة معهم ذخائر الكنيسة ومن بينها مذبح الكنيسة ، والمذبح منضدةٌ فاخرةٌ مزينةٌ بالجواهر تستعمل فى الكنيسة لأغراض الصلاة . وعند بلدة صغيرة تسمى « الكالا دى هنارس » ، ويسميها العرب « قلعة عبد السلام » وتسمى أيضاً « بمدينة المائدة » والمراد بذلك مائدة سليمان التى غنمها المسلمون فى ذلك البلد ، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بسليمان عليه السلام، وإنما هى المنضدة التى كانت توضع فى صدر الكنيسة وعليها أدوات الصلاة من صلبان وكؤوس وكتبٍ مقدسةٍ وأجراسٍ ، وتسمى فى العادة بمذبح الكنيسة ، وكان رجال الكنيسة يهتمون بصناعتها ـ أدرك العرب فيها الهاربين من طليطلة ، من رجال الدين وحصلوا منهم على ذخائرَ ذات قيمةٍ كبيرةٍ ومن بينها مذبح الكنيسة ، الذى سماه العرب « مائدة سليمان » وكانت من أكبر الذخائر التى حصل عليها العرب فى فتوحهم .

وعلى أى حال استولى طارقٌ فى تلك البلدة الصغيرة ، وهى مدينة المائدة على مائدة سليمان هذه وذخائرَ لا تحصى ، وكان الشتاء قد دخل فعاد إلى طليطلة واستقر فيها ومن هناك كتب إلى موسى بن نصيرٍ يبلغه الخبر العظيم .

دخول موسى بن نصيرٍ الأندلس واشتراكه فى الفتح:

ووصل خبر هذا النجاح الباهر إلى موسى بن نصيرٍ فى القيروان ، وهنا نجد نفراً من المؤرخين يذهبون إلى أن الغيرة استبدت بموسى فغضب على مولاه ، وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد ، وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه . ونجد كذلك نفراً آخر منهم يقولون إن موسى غضب على طارقٍ فعلاً ، ولكن ليس نتيجة الحسد بل خوفاً على جند المسلمين من الترامى إلى هذا البعد فى بلدٍ فسيحٍ دون نظر إلى العواقب ، وربما كان رأى هؤلاء الأخيرين هو الأصوب ، لأننا نعلم أن طارقاً بعد أن استقر فى طليطلة بعث إلى مولاه تفصيل ما دار فى الفتوح وطلب إليه مدداً .

ولم يتردد موسى فى السير إلى الأندلس فى قوةٍ كبيرةٍ ووصل فى أواخر شتاء ٧١١م وأوائل ٧١٢م إلى طنجة . وفى يونيو ٧١٢م (رمضان ٩٣ هـ) عبر إلى الأندلس فى قوة تقدر بثمانية عشرة ألف رجلٍ ، غالبيتهم العظمى من العرب هذه المرَّة ، وكان فيهمَ عددٌ كبيرٌ من كبار « القيسيين والكلبية » ، وكذلك عددٌ من أهل اليمن ، أشهرهم « على بن رباح » و « حنش بن عبد الله الصنعانى » ـ نزل موسى فى الجزيرة الخضراء ولم ير بناء على نصيحة رجاله وحلفاء المسلمين من أهل البلاد أن يسير فى نفس الطريق الذى سار فيه طارقُ بن زيادٍ ، بل يتبع طريقاً آخر فيفتح بلاداً أخرى ينسب إليه فخرها حتى يصل إلى طليطلة ، فبدأ بالاستيلاء على شذونة وعلى حصنين كبيرين إلى جوارها وهما « قرمونة وقلعة وادى إبرة » ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعد وقتٍ قصيرٍ وانسحبت حاميتها إلى الغرب إلى مدينة « لبلة » وهى اليوم من مدن البرتغال .

وتقدم موسى نحو « ماردة » وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية ، يحيط بها سورٌ حصينٌ ، وقد اعتصم فيها جانبٌ كبيرٌ من جيش لذريق المنهزم فحاصرها موسى واستعمل فى ذلك أدوات الحصار . ولقى المسلمون مقاومةً عنيفةً وتحملوا خسائر كبيرةً فى الأرواح ، ولكنهم استمروا فى الحصار حتى استسلم البلد فى أول شوال ١٤ / ٣٠ يونية ٧١٣ م ، وقد وجد المسلمون فى ذلك البلد ذخائرَ وافرةً ملأت أيديهم .

وفى شهر يولية التالى تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة ، وخرج طارقُ بن زيادٍ للقاء مولاه موسى حفيًّا به ، ويقال إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير

ذلك ، ولكن هذا كله غير صحيح وربما يكون الرجلان قد تعاتبا ، ولكننا نجدهما عقب ذلك يسيران معاً لمواصلة الفتوح . وفى أثناء ذلك انتفضت إشبيلية على المسلمين ، فَعَجَّل موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأطفأ الثورة ، واستولى على لبلة وباجة وأكشونبة وكانت أكبر مدائن الجنوب الغربى لشبه الجزيرة ، ومنها يتكون النصف الجنوبى للبرتغال اليوم ، وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسى فى هذه الناحية .

ويذهب المؤرخ الإسبانى « سافدرا » إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارقٍ فى «طلبيرة » تسامع بظهور لذريق ، ملك القوط فى غرب شبه الجزيرة فى ناحية « سلمنقة » ، فأسرع إلى هناك وتلاقى مع لذريق ، وبقايا القوط فى معركة قرب بلدةٍ صغيرة قرب قرية « تمامس » الحالية ، وهناك لقى لذريق مصرعه الأخير . ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيحٍ فليس هناك ما يؤيده .

ثم عاد موسى بن نصيرٍ إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس ، وهو دون شكٍّ أول عربيٍّ يحكم قطراً أوروبياً ، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضرب عملة إسلامية فى دار السكة بطليطلة . ولما كان عمال هذه الدار إسبانٌ يكتبون صيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعليها شهادة أن لا إله إلا الله باللاتينية على أحد وجهيها IN NOMINE DEL; NON DEUS NISI DEUS SOLUS; NON DEUS ALIUS. وتقرأ فى الوجه الثانى :

HIC SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714 .

وأراح موسى فى طليطلة شتاء ٧١٣ ـ ٧١٤م ، ومن هناك أرسل رسولين إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليحملوا إليه النبأ مع طرف من الذخائر ، ويقال إن الرسولين كانا « على بن رباح اللخمى ومغيث الرومى » مولى الوليد بن عبد الملك .

وعندما أقبل ربيع ٧١٤م خرج موسى بجيشه فى اتجاه شمالى شرقى ، قاصداً سرقسطة وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التى تعتبر مفتاح منطقة وادى إبرو كلها ، وقام التابعى « حنش بن عبد الله الصنعانى » باختطاط جامع سرقسطة الذى سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة .

وعقب ذلك سار نحو « لاردة » متبعاً الطريق الرومانى الكبير المبلط ، الذى يعرف بالطريق القيصرى ، ويسمى بالعربية الرصيف أو البلاط ، وقد استولى موسى على لاردة ، وبدأ يستعد للسير نحو برشلونة ، ويقال إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى « أرغون » ومنها إلى روما . ويورد المقرى فى نفح الطيب نصاً يقول : إن موسى كان يزمع الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب ، وهو إسرافٌ فى أحسن الظن كما هو واضحٌ ، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ كيلو متر ، كلها جبالٌ ومرتفعاتٌ ، يحتاج قطعها إلى أعدادٍ وعُددٍ يصعب تصورها .

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاردة ، فقد أقبل إلى معسكره مغيثٌ الرومىّ عائداً من دمشق بأمر من الوليد بن عبد الملك ، بأن يذهب موسى وطارقٌ معًا إلى دمشق ليقدما بنفسيهما بياناً عن الفتوح إلى الخليفة . ويبدو أن مغيثاً الرومى لم يكن بارًا بموسى فيما نقل إلى الوليد من أخبار ، وكان مغيثٌ رجلاً متآمراً قلقاً ، وقد انتهت حياته فى معركة « الأشراف » فى الغرب الأوسط ولكن أسرته « بنو مغيثٍ » ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بنى أمية المقربين .

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب ، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فتح الشمال الشرقى لشبه الجزيرة ، ثم يتجه بعد ذلك لفتح الشمال الغربى فأمر طارقاً بمواصلة السير مع الطريق الرومانى ، وسار هو فى اتجاه الشمال الغربى ، ثم انحرف غرباً بعد ذلك ، نحو جليقية ، فسار بحذاء الجبال الكنتبرية ، أما طارقٌ فقد تمكن من إخضاع منطقة أرغون ، وعاهد أميرها المسمى « فرتون » ، وقد أسلم فرتون هذا وأصبح جد بنى « قسى » الذين سيكون لهم دورٌ كبيرٌ فى تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى وهو حوض نهر الإبرو ، وبعد ذلك اتجه غرباً ليلحق بموسى فاستولى على حصن أماية ثم على مدينة أشترقة ، وكانت مركز الناحية التى تسمى فى النصوص العربية « ألبة والقلاع » ، وتسمى فى الجغرافية التقليدية الإسبانية بإقليم قشتالة القديمة ، وآخر ما استولى عليه طارقٌ كان بلدة ليون .

أما موسى فقد سار أول الأمر بحذاء نهر إبرو الأعلى ، فى اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشمال عابراً الجبال الكنتبرية ، ودخل إقليم « اشتريس » فاستولى على

«أبيط» Oviedo ووصل إلى ساحل خليج بسكاى عند « خيحون » ، وهرب أهل الناحيـة وبقايا القـوط شرقاً نحو البلـد المسمى حاليـاً « كينجاس دى أونيس » ، ووراءها تقـوم منطقةٌ جبليـةٌ وعرة ترتفع فيهـا ثلاث قممٍ عـاليةٍ تسمى بقمـــم أوروبا .

عندما وصل موسى إلى ساحل خليـج بسكاى ووصل قائده طارق إلى مداخل إقليم جليقية ، شعـر موسى أنه أتم فتـح شبه الجزيرة وأنـه يستطيع بعد ذلك أن يلبى أمر الخليفة الوليد .

وهكذا نرى هذيـــن الفاتحين العظيمين يأخذان طـريق العودة إلى الشرق فى ذى القعدة ٩٥هـ / سبتمبر ٧١٤م وقـد خلفا الأندلس وراءهما ، بعـد أن قاما بما يمكن اعتبـاره معجزةً من معجـزات الفتوح العـربية ، فى بحـر ثلاث سنـوات من الجهـد المتصل والحركـة الدائمـة . فقـد استطـاع هـذان الرجـلان مع حفنـةٍ من المسلمين ، مـا بين عربٍ وبـربـرٍ لا تزيـد على ٣٠,٠٠٠ مقـاتل ، أن يفتحوا قطـراً أوروبياً واسعاً يعتبر من أصعب الأقطار الأوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية . وقـد قام المسلمـون بهذا الفتح بشجاعـةٍ تعتبر مضرب المثل ، وساروا على خطـةٍ عسكريةٍ وسياسيةٍ واضحةٍ تدل على خبرةٍ جيدةٍ بمسائل الحروب وفتوح البلدان ، وقاد موسى وطارقٌ رجالهما بحزم ونظام وبعد نظرٍ تذكرنا بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاصٍ وعمرو بن العاص وأبى عبيدةَ بن الجراح .

وقد خلف موسى ابنـه عبد العزيز بن موسى والياً على الأنـدلس مكانه ، فإذا اعتبرنا طـارقَ بن زيادٍ أول ولاة الأنـدلس كان عبـد العزيز هـو الثانى ، وقـد بدأ ولايته فى سبتمبر سنة ٧١٤م .

وقد ذكرنا فيما سبق ما أصــاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك ويقال إن طارق بن زيـاد شكا لسليمان سوء معاملـة موسى إياه واختصاصـه نفسه بخير الأسـلاب والمغـانم وخاصـــةً مـائدة سليمان ، التى طـار صيتها فى الـروايـات الإسلامية .

وعلى أية حـالٍ فإن سليمان بن عبد الملك ، وكـان عدوًّا لكبار رجـال دولة بنى أمية الفاتحين ، لم يســـتطع تقدير طـارقٍ العظيمِ ، فانزوى هـو الآخر ومات فى خمولٍ .

وببداية حكومة عبد العزيز بن موسى ، بدأ فى تاريخ الأندلس عصر الولاة أى الولاة التابعين للحكومة المركزية فى دمشقَ ، وتستمر هذه الفترة حتى سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦م وهى السنة التى قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاويةَ الداخل.

وقد أنفق عبد العزيز معظم أيام ولايته فى استكمال فتح شبه الجزيرة ، لأن الفاتحين الكبيرين قَضَيَا على دولة القوط وَوَصَلاً إلى الحدود فى كل ناحيةٍ غير أنه بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة من شبه الجزيرة فى شرقها وغربها دون فتحٍ ، وكان لا بد من استكمال فتحها ، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى ، لذا فنحن نعتبره ثالث فاتحى الأندلس ، ونعتبر أن فترة الولاة تبدأ بانتهاء ولايته سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م.

***

عصـــر الـــولاة
٩٧ ـ ١٣٨ هـ / ٧١٦ ـ ٧٥٦ م

تــولى أمر الأنــدلس خــلال هــذه الفترة ٢٢ والياً ، حكم واحــدٌ منهم مــرتين . ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالى أقل من سنتين ، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الــذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة . وبعــد أن درسنا تاريخ المغرب خــلال هذه الفترة نتبين أن ذلك القلق كــان هو الأمــر المتوقع ، فلــدينا أولاً اضطراب السياســة العامة لبنى أمية بعد الــوليد بن عبد الملك ، ووقوعهــا فريسةً للعصبيات القبلية والشخصيــة ، وكان لا بد أن يكون لذلك كلــه أثره فى الأندلس ، كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب .

وهنــاك كذلك الخلاف الكبير بين العصبيــات العربيــة فى المغرب ، ثم خــلاف العرب البلديين مـــع العرب الشاميين ، ثم خــلافات هؤلاء جميعاً مع البربر ، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس .

وهناك أيضــاً التنازع على السلطان بين الطامعين فيــه ، وقد رأينا مــا كان من أمر حبيب بن أبى عبيدةَ بن عقبةَ بن نافعٍ وابنه عبـــد الرحمن ، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك .

يضــاف إلى هذا كله أن الأندلس بلدٌ قائمٌ بــذاته له ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلدٍ مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين ، وكان لا بد لأهلــه من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليــه من البلاد . ويستوقف نظرنا أن العرب رغم مشاغلهم الكثيرة فى الأنــدلس ، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى « غالة » أى فــرنسا ، نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس ، وكسبــوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرةً تضيــف صفحاتٍ مجيدةً إلى سجــل الفتوح الإســلامية . ولا يقلل من أهميةً الفتوح أنها وقعت بعد موقعــة بلاط الشهداء ، ولذلك سنرى أن المد العــربى لم يكن ليستمر إلى مــا لا نهاية ، كــان لا بد أن يقف عنــد نقطةٍ مــا ، ونقطة بلاط الشهداء نقطةٌ رائعةٌ بالنسبة لقومٍ عددهم قليلٌ نسبياً ، بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرةً .

وهناك أخيراً مشاكل الحكم فى الأندلس نفسه ، وهو بلدٌ فسيحٌ جداً دخله العرب فى وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها ، فكان على العرب أن يعالجوا مشاكلَ جمّةً . وإن الإنسان ليدهش إذ يراهم رغم صعوبة ظروفهم ، وقلة المدد الذى تلقوه من الحكومة المركزية ، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقاً ، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً ، بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك ، وعُنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الرى وأنشأوا مساجدَ فى كل نواحى الأندلس تقريباً .

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها فى الاضطراب ، صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاويةَ الداخل ، وهو من عباقرة الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام ، فأنقذ البلاد من الفوضى ، والعرب من نتائج الاستمرار فى الحرب الأهلية ، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود هباءً .

ولا يتسع المجال للكلام على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة ، ولكننا سنكتفى بتتبع ميادين العمل الرئيسية ، ثم المشاكل الكبرى التى واجهت الحكم العربى ، وما قام به الحكام حيالهم حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل .

خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر :

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى « أيوب بن حبيبٍ اللخمى » ابن أخت موسى ابن نصيرٍ فى منتصف سنة ٩٧هـ / مايو ٧١٦م تقريباً ، وأيوب بن حبيبٍ يمثّل العرب البلديين ، أى العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار فى البلاد ، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواطأ أيوبُ بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى ، مع الخليفة سليمان أملاً منهم فى أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم فى البلاد .

وقد ظل أيوب بن حبيبٍ حاكماً نحو أربعة أشهرٍ لم يفعل خلالها شيئاً ذا بالٍ ، ولكنه هو الذى نقل عاصمةَ الأندلس إشبيلية إلى قرطبة ، لأن موقعها أكثر توسطاً ، ثم إن أعداداً كبيرةً من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتزَّ بهم .

ولكن الأمـــور لم تسر على مـا قدره أيوب ومن معـــه ، فقد قـــام « يزيد بن أبى مسلم » والى سليمان بن عبد الملك على المغـرب ، بتعيين « الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفى » على الأنـدلس ، فكان الحُرّ ـــ على هذا ـــ يمثل الحكومـة المركزيـة ويعتز بالجنـد الشاميين ، مما أبعد عنـه البلديين . وقد بدأ « الحُرّ » ولايتـه فى ذى الحجة سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م ، واستمر سنتين وثمانيـة أشهر ، لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل ، ولكنه هو الذى أقام دار الإمارة فى قرطبـة ، وكانت هذه الدار فى مواجهة قنطرة الـوادى ، وكانت قبل ذلك مقرًا للحـاكم القوطى الذى انتـزع مغيثٌ الرومى البلد من يده ، وقد سكن مغيثٌ فى جانـب من القصر عرف ببلاط مغيثٍ ، ثم أخرجه منـه أيوب بن حبيبٍ وسكن فيـه ، فلما جـاء الحُرّ بن عبد الـرحمن الثقفى ، زادت عنايتـه بالقصر وجعله قصر إمارة فعـلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتـــدة قرية على ضفة النهر ، باسـم « بلاط الحُرّ » .

فلما صارت الأمـور إلى عمر بن عبـد العزيـز فى ١٠ صفر سنـة ٩٩هـ/ ٢٢ سبتمبر ٧١٧م ، نظـر فى أمـر المغرب والأنـدلس فأقـــام على الأول « إسماعيل بن عبيد الله » وعلى الثانى «عنبسة بن سحيم الكلبى » وكلاهما كانا من خيرة الحكام .

بدأ عنبسة فى رمضـــان سنة ١٠٠هـ/ أبريل ـ مـايو ٧١٩م ، وعلى الرغم من قصر المدة التى تولاهـا ، فإنه من الـولاة القلائل الـذين قامـوا بجهودٍ إصـلاحيةٍ عمرانيةٍ ، فهو أول من نظر فى حصر أرض الأندلس وتمييز ما فُتح منها صلحاً مما فتح عنـوةً . وبدأ استخـراج الخمس من الأراضى التى فتحت عنـوةً ليجعله ملكـاً للدولة ، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة والمفروض أنه فتح عنوةً . وقد دخلت فى الخمس أرض واسعـةٌ أنشأ الحُرّ فى بعضهـا مقبرةً للمسلمين ، ووزع البـاقى على الزراع على أســاس المزارعة ، أى المنـاصفة فى الغلّـة ، ثم أعـاد بناء قنطـرة الوادى وكانت قد تصدعت .

وفى سنـة ١٠٢ هـ/ ٧٢١م خـرج عنبســة غازيـــاً فى غالـــة فاستشهـد فى «طرسونة » فى يـوم عرفة من العام نفسه ، وبذلك يكون هذا الـرجل قد ختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الله وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر فى إخلاء الأندلس من المسلمين خوفا على مصيرهم فى ذلك الثغـر السحيق فى نظـره ، ولكنه عـدل عن هـذه الفكرة ، إذ كـان

المسلمون قد استقروا فى البلاد وكثروا وبدأ نفرٌ من أهلها يسلمون ، فلم تكن هناك وسيلةٌ لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك .

وكان عمر بن عبد العزيز قد ولّى على الأندلس رجلاً من خيرة الولاة هو **السمح بن مالك** فصلحت الأمور على يديه فترةً قصيرةً من الزمن ولكن بعدوفاة السمح بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز ، عاد الأمر فى المغرب والأندلس إلى الجند الشاميين وولاتهم ، فصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين ، وانضم البربر فى الأندلس إلى البلديين لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته فى الأندلس حتى سنة ١١١هـ/ ٧٣٠م ، وهى التى انتهت فيها إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابى » وكان من أشد الولاة تعصُّباً للشاميين ، الذين يسمون هنا أيضاً القيسيين . وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامةِ واحدٍ منهم عاملاً على الأندلس ، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية والٍ جديد ، وبعد عزل الهيثم ، أقام عرب الأندلس والياً منهم ثم اختارت الحكومة واحداً منهم، هو « **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى** » فبدأ ولايته فى صفر سنة ١١٢هـ/ مارس ـ أبريل ٧٣٠م .

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم فى الجهاد فى غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له هَمٌّ إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد ، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة ، ولسوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد فى بلاط الشهداء فى رمضان ١١٤ هـ/ أكتوبر ٧٣٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم ، هو عبد الملك بن قطنٍ الفهرى الذى سيكون له دورٌ كبيرٌ فى تاريخ الأندلس فيما بعد ، وكانت ثورة البربر فى المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس ، فبدأ أمر العرب فى ذلك البلد يتحرج .

ولا تذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس ، وكل ما نفهمه منها أنها كانت امتداداً طبيعياً لثورتهم فى أفريقية ، ولقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضى تاركين للبربر أسوأها ، أى المناطق الجبلية القاحلة ، وذلك غير صحيحٍ فإن أراضى

الأندلس الخصيبة من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وغير عربٍ ، ثم إن المسلمين ، لم يكونوا إذا دخلوا بلداً يقتسمون أراضى الناس فيما بينهم ، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها ، وأراضى البلاد المفتوحة كانت لها نظمها التى تحكمها ، ولم نسمع أبداً أن قبيلاً من العرب دخل بلداً فاستولى على مزارعَ وضياعٍ وطرد أصحابها منها . وإنما الفاتحون كانوا يستقرون فى النواحى جماعاتٍ عسكريةً تحت تصرف الدولة ، وفى قبائلَ ، مقابلَ ذلك كانوا ينالون حصّةً مقررةً من الخراج . أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة ، فقد زرعوا أراضىَ بالاتفاق مع أصحابها على أساس المزارعة ، وليس على أساسٍ آخرَ ، وفى هذا المجال نجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالاً بالزراعة. وقد انساحوا دون حرج فى الأراضى الغنية فى مشرق الأندلس وفى أحواض الوديان القريبة وخاصةً وادى تاجة ودويرو ، وتلك كانت نواحىَ غنيةً بالأرض والثمرات .

وإنما يمكن أن يقال إن بعض العربِ الذين استقروا فى نواحى الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظنًّا منهم أن الدولة دولتهم ، وكان معظم هؤلاء من الشامية أى من القيسية ، أى من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم ، أما العرب البلديون ، ومعظمهم من اليمنية فكانوا بعيدين عن هذه النزعة ، لأنهم كانوا أهل أرزاقٍ ومعاشٍ شأن غالبية الأمصار ، فى حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حربٍ وسياسةٍ وحكمٍ .

فى هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة بربر المغرب التى أنكرت سيادة العرب جملةً ، وجدت صدىً فى الأندلس . فقام البربر فى النواحى التى كانت لهم فيها أغلبيةٌ على العرب الذين معهم وأخرجوهم ، وخاصةً من جليقية وحوض الدويرو والأراضى فيما بين هذا النهر ونهر تاجة .

وكان أمير الأندلس إذ ذاك **عبد الملك بن قطنٍ الفهرى** كبير العرب البلديين ، وكان هو ومعظم من معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين ، فلما رآها موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاربين إليه ، من نواحى أشترقة وليون وسلمنقة وأبلة وشقوبية أنفسهم أن البربر يسيرون فى ثلاثة جيوشٍ وجهتها طليطلة وقرطبة ، والجزيرة الخضراء على الترتيب ، خاف الرجل سوءَ العاقبة .

وفى هذه الأثناء كان **بلج بن بشرٍ القشيرى** ومن معه محصورين فى سبتة بعد

هزيمة « الأشراف » التى أشرنـا إليها فى كلامنا عن الفتنـة المغربية الكبرى فى عصر الـولاة ، وكانـوا يستغيثـون بعبـد الملك بن قطنٍ دون جـدوى ، ولكنه اضطـر إلى السماح لهم بالعبور ليعـاونوه على القضاء على البربر . وبـدأوا بالفعل بقيادة بلج سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١م . ولم ينقضِ عامٌ على دخولهم الأنـدلس ، وكانوا حوالى ١٠ آلافٍ ، حتى كانـوا قد تمكنوا من القضاء على الثـائرين . وكانت المعركـة الحاسمة عند وادى سليط قـرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤هـ/ نوفمبر ٧٤١ م . وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشـاميون المتعصبون يطاردون البربـر وكانت نتيجة ذلك أن روع بربر الأندلس روعاً شديـداً ، فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصةً فى الوسط والشمال الغربى ويعودون إلى أفـريقية ، وكان لهذه الهجرة الجماعيـة أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام فى الأندلس ، فإن ألوفـاً كثيرةً من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظـر أن يعمروا بـالإسـلام كل نـواحى شبه الجزيـرة ، هـاجـروا وتركـوا كل الأراضى الواقعـة شمال نهر تاجـة خاليـةً تقريباً من المسلمين ، فـأصبحت هذه النواحى ابتـداءً من النصف الثانى للقرن الثـامن الميلادى أراضىَ خلاءً مفتـوحةً لنصارى الشمال ليمتـدوا فيها كيفما يشـاؤون ، وسيعمر النصـارى جزءا كبيراً منها خلال القـرن التاسع الميلادى ويصبح حوض الدويرو أرضـاً نصرانيةً ، لقد خسر المسلمـون نتيجةً لاختـلاف بعضـهم مع بعضٍ ربع شبه الجزيـرة ، خسروه دون أن يخرجهم منه عدوٌ ، وإنما أخرجهم منه كراهةُ بعضـهم لبعضٍ وقلّة نظرهم إلى العـواقب . وبعـد أن انتصر الشـاميون أصحـاب « بلج » رفضـوا العـودة إلى أفريقيـة ، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبـد الملك بن قطنٍ فوقـع النزاع الشـديد بين « بلجٍ » وعبـد الملك وانتهى بعزل هـذا الأخير ، وولاية **بلـج بـن بشرٍ** فى ذى القعـدة ١٢٤هـ/ سبتمبر ٧٤١م.

وقد أنكر أهل الأنـدلس جميعاً رياسةَ بلجٍ ومـن معه من الشـاميين القيسيين ، وقاموا عليهم وقتلوا بلجاً ، فخلفه شـامىٌّ شديدُ العصبيةِ مثله هو ثعلبة بن سلامةَ العاملى ، واشتـدت الحرب بين البلديين مـن عربٍ وبربـرٍ فى جانـب والشاميين فى الجانب الآخر .

أبو الخطـار وانشاء الكور المجندة :

وأسرع عامل أفـريقية حنظلة بن صفـوان الكلبى فأرسل واليـاً جديـداً إلى الأندلـس هو أبـو الخطـار الحسـام بن ضرارٍ الكلبى ، فبـدأ ولايتـــه فى رجب ١٢٥هـ/ مايو ٧٤٣ م . وبدأ الرجل بدايةً طيبةً ، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم ، وأراد أن يبعد عنهم أذى الشـاميين ، واجتهد كذلك فى إبعاد أذى هذه المنـازعات القبلية العربيـة عن أهل البلاد المسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها .

ثم نظر إلى الشـاميين فتبين أنهم جميعاً متجمعون فى قرطبـة وإقليمها ، وهذا التجمع هو الذى يفتح لهم طريق التدخل فى السيـاسة وشئون الدولة ، ففكر فى أن يوزعهم على نـواحٍ شتى فى الأندلس ، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحـدٌ . وقد أشـار عليه بـذلك أرطباسُ بن غيطشــةَ ، شيخ نصـارى الذمـة ، وكان شخصيـةً محترمة مقربة من الأمراء ، وكـان يسمى « بقومس الأندلس » ، وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريقٍ منهم إلى ناحيةٍ فيستقـروا فيها ، ويأخذوا ثلث الخراج الذى يؤديه نصـــارى الذمـــة والمزارعون ، على أن يقـدموا للحكومـــة عدداً معيناً من الجند كلّما طلبت ذلك .

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية :

جند مصر : كور[1] أوكشونية وباجة وتدمير .

جند حمص : كور إشبيلية .

جند فلسطين : كور « ريه » . Regio وهو كورة مالقة .

جند دمشق : كورة ألبيرة وهى غرناطة .

جند قنسرين : كورة جيـان .

وقد أصبحت هذه الكور الشمالية تسمى بـالكور المجندة ، وقد استقرت فيها

---

(١) الكورة فى مصطلح التقسيمات الإداريـة العربية هى ما يقـابل المحافظة أو المديريـة فى مصطلح اليوم ولكل كورةٍ زمـامها (أى مساحتها) المعـروف المحدد ، ولها قاعدةٌ أى عـاصمةٌ تتبعها مدنٌ أخرى أصغر تقابل المراكز فى التقسيم الحالى .

جماعـاتٌ كثيرةٌ من جند الشـام الذين ذكـرناهم واطمأنـوا فيها ، وكـان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذى ذكرناه ، ولهم الحق فى مقابل ذلك فى الاحتفاظ لأنفسهم بثلث خراج الأرض ، وقد أصبحـت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية فى التنظيم الحربى للأندلس .

ولم يستطع أبـو الخطـار الاستمـرار فى هذه السيـاسـة الحكيمـة ، فمال إلى اليمنية ، وثار النزاع من جديدٍ .

وفى السنـوات العشر الأخيرة من عهـد الـولاة فى الأنـدلس ، ظهـرت حكـومـة **الصميل بن حاتمٍ ويوسف الفهرى** ، والصميل شخصية فريـدة فى بابها تجمع معظم النـواحى الإيجابية والسلبيـة فى كثيرٍ من العـرب الجاهليين ، الذين دخلـوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم ، فهو شجاعٌ لا يهاب الموت كريمٌ يجود بكل ما فى يـده دون ترددٍ ، شهمٌ لا يرتكب مـا يمس المروءة ، وهو سيدٌ مهـذّبٌ يعرف كيف يعامل النـاس ، وهو أيضاً شـاعر يقـول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بـالشعر الجيد ، وهـو بعد ذلك كله أمىٌّ لا يعـرف من القرآن الكريم إلا نـزراً يسيراً ، وهو عنيف فى خصومتـه شديـدُ الحقد لا ينسى ثأره ، ومسرفٌ فى العطـاء لا يكاد يبقى شيئاً وكان لا يتـورع عن شرب الخمر ، وهو ذكىٌّ خبيثٌ لا يفـوته أمرٌ ولا يتردد فى القضاء على خصومه ، وهو كسول فى معظم أوقـاته ، فإذا قام على قدميه لم يهدأ ، وتحول إلى شيطانٍ متصل الحركة فيصيب الناس والبلاد منه أذىً شديدٌ .

هـذا الـرجل نظـر فى أمر الأنـدلس فتبين بسبب قيسيتـه ، أى شـاميتـه ، أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيـادة الحرب ، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفـريقان على أى صـورةٍ من الصور ، ولكنهم كـذلك لا يستطيعون سيادة البلديين لكثرة هؤلاء واستعـدادهم للدفاع عن أنفسهم فى كل حينٍ . فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لـواءٍ واحدٍ هو لواؤه ، ثم بحث فى المعسكـر الآخر أى البلديين فاختار زعيماً يؤيـده ويُسَيِّـر الأمر باسـمه ذلك الـوقت ، فوجـد **يوسف بن عبد الرحمن الفهرى** الذى أجمع البلديـون على رياسته ، وكان الشـاميون أيضاً مستعدين للخضـوع له بسبب مضريتهم . وأخيراً تم الاتفـاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهرى ويكـون الصميل مستشاره وصاحب رأيه واستقر

الأمر على ذلك فى ربيع الثانى ١٢٩هـ/ ديسمبر ٧٤٦م . ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع زعيم يمنى يسمى **يحيى بن حريث** ، بلغت عصبيته لليمنية مبلغاً جعله غير قادرٍ إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأى سبيلٍ ، ولكنه انهزم وقتل فى معركة شقندة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف الفهرى حتى جاء **عبد الرحمن بن معاوية الداخل** .

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات ، فيما عدا ما كان من مجاعةٍ شديدةٍ بلغت ذروتها سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٣م وكانت هذه المجاعة نتيجةً لما رأينا من حروبٍ شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبينهم وبين البربر ، فازدادت الهجرة إلى أفريقية وقل عدد المسلمين فى شبه الجزيرة عما كان ، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة وكان معظم أهله عرباً يمنيين فاستقروا فى الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .



قيام الدولة الأموية الأندلسية
١٣٨ هـ / ٧٥٦ م

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى، وهى ولايةٌ طويلةٌ ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عربٍ وغير عربٍ، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، فقد كان يحتاج إلى حكمٍ قوىٍّ نشيط، فإن البلد خضع للمسلمين، لكنه لم يتحول إلى بلدٍ إسلامىٍّ بعد، فقد كانت غالبية السكان نصرانية، ولو استمرت سياسة الأمور على هذا النحو القلق المضطرب فإن أمر المسلمين فى الأندلس كان لا بد أن يتلاشى فهو بعيدٌ بعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر ولو عادت الفتنة مرةً أخرى، ولو لفترةٍ قصيرةٍ لأصبح تلافى النتيجة المحتومة مستحيلاً.

وقد أمكن تلافى هذا المصير بحادثٍ هو من قبيل المصادفات، ولكنه كان من أسعد المصادفات فى تاريخ الإسلام، ذلك أن قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩م اقترن بمذابحَ واسعةِ النطاق، أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاماً لما فعلوا بآل البيت ـ فى الظاهر ـ وتخلصاً من بقايا الأمويين وأنصارهم فى المناطق، وقد حصد العباسيون الأمويين دون رحمةٍ ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشامِ بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكورٍ عدا البنات. وقد قُتل الابن الأول، فيمن قُتل من الأمويين فى دمشق عندما دخل العباسيون، أما الثانى فقد قتل فى مذبحة «دير الجماجم». وفر الثالث والرابع فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما ففرا معاً، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاويةَ بن هشامٍ وكان فى التاسعة عشرة، وأخٌ له صغيرٌ فى الثالثة عشرة، واختفيا فى مكانٍ من ضفة الفرات، ثم طلبا إلى نوتىٍّ أن يعينهما على العبور، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما، ففرا على وجهيهما وألقيا بنفسيهما فى الماء ليعبرا سباحةً، ووقف الجند على الشاطئ يدعونهما إلى العودة،

وبعد أن أعطياهما الأمان ارتد الأخ الأصغر ليعود وحذره أخوه فلم يسمع ، فلم يكد يصل إلى الشاطئ حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد فرّ إلى قرية فى الشام ، وكان قد اتفق مع أختيه « أم الوليد وأم الأصبع » على أن ترسلا له مولييهما « بدراً وسالماً » فيعود إلى هذه القرية ومضى الثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلوا إلى المغرب وكادوا يقعون فى يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهم نجوا إلى ساحل المحيط عند طنجة واختفوا فى قبيلة « نفزة » وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة .

وعلى بعد ٦,٠٠٠ كيلو متر من بغداد ، شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان . كانت سِنُّهُ إذ ذاك عشرين سنةً ، وكان حريًا أن يقضى بقية عمره فى خمولٍ ، ومن موضعه هذا أخذ يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلةً يخرج بها من ذلك الخمول .

وفى سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش فى قبيلة « نفزة » فى حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى الصميل ويوسف الفهرى وكان سالمٌ مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان فى جملة عساكر موسى بن نصيرٍ . ولكن سالماً لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق وبعث معه بدراً الذى سيكون له نصيبٌ كبيرٌ فى إقامة صرح الدولة الأموية فى الأندلس .

وكان فى الأندلس جماعةٌ كبيرةٌ من موالى بنى أمية ، ما بين موالى خلفاءٍ كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموى عامةً وموالى موسى بن نصير ومغيثٍ الرومىّ ومن إليهم من موالى بنى أمية ، وانضم إليها موالى القرشيين ، وقد عرفوا بموالى قريش ، فكثر عددهم وكانوا من خيرة مسلمى الأندلس ، لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة ، وكان يوسف الفهرى قد ادَّعَى ولاء أولئك الموالى جميعاً عند ذهاب أمر بنى أمية ، ووجدوا هم فى ذلك قوةً لهم ، فاندرجوا فى أنصار يوسف وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول إلى شيءٍ بفضل هؤلاء الموالى فى الأندلس .

لهذا أرسل مولاه بدراً برسالةٍ إلى زعمائهم وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالدٍ ويوسف بن بخت ـ يرجوهم فيها معاونته على الوفود إلى الأندلس للاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياةٍ مناسبةٍ لمثله .

ومن أول الأمر فهم الموالى أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس ، وكان ذلك يوافق أهواءهم فاهتموا للأمر ، وكلّموا فيه الصميل بن حاتم ، لأنهم كانوا يعرفون أن القوة فى يده . ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى ، والمفروض أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً .

وكان يوسف الفهرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورةٍ فى سرقسطة ، قام بها اليمنيون وكان يلح على الصميل وموالى بنى أمية فى الخروج ، وهؤلاء يُسَوِّفون ، ثم خرج الجيش آخر الأمر وفى أثناء الطريق تبين موالى بنى أمية أن الصميل يحتال عليهم وأنه لا يضمر لعبد الرحمن هذا خيراً . فانصرف زعماؤهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالى فى « ألبيرة وجيان » ، وفى الطريق قرروا أن ينفضوا أيديهم عن الصميل والقبائل المضرية وأن يعتمدوا على القبائل اليمنية الكلبية ، وكانوا موفقين فى هذه الخطوة لأن اليمنية كانوا يتوقون إلى الأخذ بثار هزيمتهم فى « شقندة » ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسفَ الفهرى .

لهذا استجاب اليمنيون فى إقليم غرناطة إلى هذا النداء وتحمسوا لعبد الرحمن، على أمل أن يدركوا الرياسة معه ، وقرروا مع موالى بنى أمية استقدامه إلى الجزيرة ، وهكذا عبر عبد الرحمن فى ربيع سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م إلى الأندلس ونزل فى « فرضة المنكب » فى كورة غرناطة ، ومنها انتقل إلى « طرش » ، وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنسرين وأحد كبار موالى بنى أمية ، وهناك توافد عليه الموالى وأتباعهم وذاع الأمر فى الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى فى سرقسطة ، وكانت ظروفهما سيئةً بسبب سوء تصرفهما مع الجند ، فلم يكن فى أحدٍ حماسٌ حقيقىٌّ للنهوض معهما ، وأقبل الشتاء وهما فى هذا الثغر القصِىَ ومضى الناس يهوّنون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين : إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش فى سلامٍ .

وفى هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن فى « طرش » يحفل بالناس ، وكان أكثر الوافدين عليه المنضمين إليه من اليمنيين ، وانضمت إليهم جماعاتٌ من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل فى ظل حكمٍ جديدٍ .

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضرٍ والقيسية تتوافد على الصميل ويوسف، وكانا قد انتقلا إلى قرطبَة ، وظهـر أن المضريين الشـاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرياسة التى وصلوا إليها مع الصميل بن حاتمٍ ، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمنيين لاستنهاضـهم ، فـانضـم إليه الكثيرون وتقدم من قرطبة وضرب معسكره على الضفـة الجنوبية للنهر ، فى حين تـزايد حجم جيش الصميل ويـوسف وتأهب الجانبـان للقاء حـاسم . ووقع ذلك اللقـاء يوم الجمعـة ١٠ ذى الحجة ١٣٨هـــ / ٧٥٦م عند « المصــارة » وهى طرف قـرطبة الغـربى ، وانتهى اليوم بنصرٍ حاسمٍ لعبد الرحمن ودخل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم ، ثم صـلى بالناس وخَطب على جنـد قرطبة ، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولـة الأموية فى الأندلس ، بل ميلاد عصرٍ جديدٍ فى تاريخ الغرب الإسلامى كله .

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبـد الرحمن فأمّنهما ثم نكثـا عليه ، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموتـه مخنوقاً فى سجنه ، أما يـوسف الفهرى فقد تشرّد فى نواحى الأندلس حتى قُتل فى قريةٍ قريبةٍ من طليطلة .

***

فتـــوح المســـلمين

شـــمالى جبـــال البـــرت

فـى غالـة (فرنســا)

فى مفهوم العرب إلى آخر الـدولة الأموية على الأقل كانت حركـة الفتوح حركةً متصلةً لا يمكن أن تتـوقف مادامت هناك بـلادٌ لم تصل إليها رسالة الإســــلام ، فإذا ما تم فتح قطـر فلا بد من الاسترســـال فيما يليه مباشرةً . هكذا رأينــا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بـالأندلس كـان هناك دافعٌ أكبر لكى يســــتمر العـرب فى الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهـو أن تلك الجبـال لم تكن حـد المملكة القـوطيـة من الشمال ، إنما كان القـوط يملكون إقليم سبتمانية وهـو يتكون من سبعـة أقسامٍ إداريـةٍ تمتد على سـاحل البحـر المتوسط مـن جبال البرانس إلى مصب الـرون ، وكانت عاصمـة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أمـا ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقيـــة « أقطـانية » وعاصمتها « بردال أو بردو » ، وكان يحكمهـا إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حـوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفى ناحية الشرق ، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقيـة « برغنـدية » وتشمل بقيـــة حـوض الرون ، وكـانت مستقلةً عن مملكـة الفرنجة .

أى أن العـرب فى محاولتهم لـلانـدفاع شمالاً كـان عليهم أن يـواجهـوا أربعَ جبهاتٍ للمقـاومة : بقايـا قوات القوط فى سبتمانيـة التى تسمى أحياناً « لا جـاليا جوتيكا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغندية ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم «قطلونية » ودخل المسلمون برشلونـة وطركونة وجرندة المعروفـة باسم « خيرونا » . وبذلك كان شبه الجزيرة كلـه فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العـزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦م .

ولما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى فى ذى الحجة سنة ٩٧هـ/ أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح فى غالة بدأت بصورة جدية على يد السمح بن مالك الخولانى ، الذى ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠ هـ/ ٧١٩م ، وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقاد جنده من « أرغون » إلى «طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولونة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة فى دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركةٌ عنيفةٌ بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك فى يوم عرفة ١٠٢هـ/ ٢١ يونية ٧٢٠م، ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائدٍ ممتازٍ من طراز السمح هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وهذه أول مرةٍ نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون ، وهناك انتخبه الجند العربى عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى التى لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالى الذى خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيم الكلبى ، فقد تولى من ١٠٥هـ/ ٧٢٣ م حتى شعبان ١٠٧هـ/ يناير ٧٢٥ م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية فى تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيشٍ قادرٍ على مواصلة الفتوح فى غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦ هـ/ ٧٢٥م / ، فرقب أمر حاميتى « برشلونة وأرغون » ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً فى الاستيلاء على مدنٍ . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون ـ أحد نهيرات اللوار الذى يلتقى بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وماكون وشالون » ، وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

حتى بلغت « صانص » على بُعْدِ ٧٠ كيلو متراً جنوبى « باريس » ، وهذه كانت أبعد نقطةٍ وصل إليهـا المسلمون شمالاً ، وهى تبعـد نحو ٨٠٠ كيلـو متر شمال جبال البرت ، وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد ، لدليلٌ قاطعٌ على ما امتازوا به من جـرأةٍ وقـوةٍ وإيمانٍ تصنع المستحيـلات ، ولا يقلل من هـذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد ، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العـامة التى تمت فتـوح المسلمين فى « غالـة » خلالها ، فإن عنبسـة كان يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراصّةً يلى بعضها بعضاً ، ثم إن الفرنجة أصحاب هذه المنطقـة كانوا يمرون فى فترة نهوضٍ سياسىٍّ تولّاه آل « كارل مـارتل » الذين عرفوا بـالكارولنجيين ليحلوا محل الميروفنجيين . وكان كارل مارتل وتسميه المراجع العربيـة « قارله » يجمع قوى أنصاره وينتظر الفرصـة التى تسمح له بإثبـات استحقاقه لتـاج الملك من دون ملك الميروفنجيين الضعيف .

وأخذ عنبسـة مع رجالـه طريق العـودة إلى الأندلس سنـة ١٠٧ هـ/ ٧٢٦م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله ، وتخطـوا اللوار ووصـلوا إلى السين . ولا نستطيع القول بأن عنبسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون ، لأنه فى الواقع لم يفعل شيئـاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البـلاد ، ولكنه على أى حالٍ الفاتح المسلم الوحيد الـذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه ، وربّما جاز تشبيه حملة عنبسةَ بحملة عقبة الكبرى ، مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لا بد من حملاتٍ ضخمـةٍ أكثر نظاماً ليتم فتح هـذه النواحى كما أتمت حملات زهير بن قيسٍ وحسان بن النعمان وموسى بن نصيرٍ عمل عقبةَ بن نافعٍ ، ولكن ظـروف العرب فى المغـرب والأنـدلس لم تكن تسمح لهم بمـواصلة الفتـوح بالقوة التى عهدنـاها فيهم ، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ، ثم بينهم وبين البربر ، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحمها العرب اقتحـاماً وأوغلـوا فى داخل بلادهـا ، دون أن يستطيع أحدٌ مقـاومتهم ولقد شعر القائم بـأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهـو شارل أو كارل بأنـه لا بد أن يقوم بعملٍ حاسمٍ إذا عاد العـرب مرّةً أخرى ، وبالفعل بدأ يستعد للقـاءٍ حاسمٍ ، فأخذ يجمع القـوات والسلاح والأزواد ، وصـالح أمـراء « بـرغنديـة » واتفق مع رجـال «سبتمانية » ومع الدوق « أودو » ليقوموا معا بعملٍ حاسمٍ ضد المسلمين .

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاقٌ فى صفوف المسلمين المقيمين فى الثغر الأعلى الأندلسى أى حوض الإبرو وكان له أثرٌ سيِّئٌ على سير الفتوح فيما بعد ، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين ، بل صاهر قائداً بربريًّا من قوادهم يسمى «موقوسة » كان مركزه فى الناحية الغربية من جبال ألبرت ، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر ، لأن موقوسة بدأ يأخذ جانب أودو ورجال أقطانية ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال . وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الغافقى الذى كان يحكم أرغون وينظم أعمال الجهاد اختلف مع موقوسةَ اختلافاً شديداً ، وكان عبد الرحمن رجلاً عنيفاً بالغ الاستقامة من طراز عقبةَ بن نافعٍ ، فاشتد مع موقوسةَ فزاده نفوراً وانضمت إليه جماعاتٌ كثيرةٌ من البربر .

وكان عنبسة قد استشهد فى طريق عودته إذ دهمتهم قواتٌ نصرانيةٌ كبيرةٌ فى خوانقَ جبالِ ألبرت ، وقد قُتل عنبسة فى اللقاء فى شعبان سنة ١٠٧ هـ/ ديسمبر ٧٢٥م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ/ يونية ـ يولية ٧٢٨ م .

وقد قام عذرة بعمليات عسكريةٍ قليلةٍ فى غالة ولكن يبدو أن الجند الإسلامى الذى كان مركزا فى أرغون كان يقوم بضرباتٍ سريعةٍ وغاراتٍ عنيفةٍ فى كل جهةٍ ومثل هذه الغارات والضربات تؤتى غنائمَ وافرةً للمحاربين أنفسهم ، ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهى من ناحيةٍ ترعب الناس من المسلمين ، وتلقى فى روعهم أنهم أهل غارةٍ وسلب ونهب لا غير ، ومن ناحية أخرى فهى تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية ، ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله ، فذاع اسمه فى جنوبى فرنسا كلها كرجلٍ سفّاكٍ نهّابٍ ، وتطلّع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبةَ الناهبة ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارل مارتل . بينما تعاقب على ولاية الأندلس بعد عزل عبد الرحمن الغافقى وذلك خلال الأعوام (١٠٥ ـ ١١٢ هـ / ٧٢٣ ـ ٧٣٠ م) سبعة ولاةٍ ، لم يقض أحدهم فيها أكثر من شهرين مما يدل على اضطراب الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الولاية وقيادة الفتوح صارت فى صفر ١١٢هـ/ أبريل

٧٣٠ إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فقد استطاع بحزمه وروحه العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد ، حقًا إنه لم يستطع استعادة موقوسةَ إلى صفوفه، ولكنه على أى حالٍ أوقف تيار تدهور الفتوح إلى غاراتٍ ، ولو أن عبد الرحمن الغافقى كان أقلّ عنفاً عما كان فى الواقع ، لاستطاع أن يصل إلى نتائج أحسن ، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلّل فرص النصر الكبير أمامه .

خرج عبد الرحمن الغافقى بحملته الكبيرة فى أوائل ١١٤هـ/ ربيع ٧٣٢م وكان معه ٧٠ ألف جندى تقريباً غالبهم من البربر ، فى حين أن الروايات النصرانية تقول إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتلٍ .

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقى أن يكسب صداقة الدوق « أود » ، بل إنه لم يعمل على إيقافه على الحياد ، وأتى عبر جبال ألبرت فى ١١٤ هـ / صيف ٧٣٢م من الممرات رأساً إلى قلب بلاد أودو ، فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة ، واستولى عبد الرحمن على « طولوشة » مَرّةً أخرى ، ثم ارتد شرقاً إلى حوض الرون فأجهز على ثورةٍ قامت فى مدينة « آرل » ، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو « بردو » عاصمة أقطانية وتصدى له الدوق « أودو » فهزمه عبد الرحمن هزيمةً كبرى على ضفاف نهر الدوردونى ثم دخل المسلمون بوردو واحتلوها وأسرع « أودو » نحو شارل مارتل ، وتقدم عبد الرحمن فاحتل بواتييه بعد صراعٍ عنيفٍ وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذى تسميه مراجعنا « قارله » فحشد كل ما استطاع من قوةٍ للقاء المسلمين ، واستنفر الناس استنفاراً فتضخم جيشه ، وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه فرصته الكبرى لكى يثبت جدارته بالملك من دون الميروفنجيين .

وكان الجيش الإسلامى كبيراً ولكن ليس بالضخامة التى يصفه بها المؤرخون النصارى . وينبغى قبل أن نقصّ تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ :

أولاً : أن الجيش الإسلامى رغم شجاعته وارتفاع قواه المعنوية ، كان قد بعد جدًا عن بلاد الإسلام ، وأصبح الآن على بعد ٤٠٠ ك.م تقريباً شمال جبال ألبرت،

وجبال ألبرت تبعد ٩٠٠ ك.م عن قرطبة ، وهذه مسافاتٌ واسعةٌ جدًا تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمداد أمراً عسيراً ، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقى رسالة استنجادٍ إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل فى أقل من شهرين ، فى حين أن «قارله» كان يحارب فى بلاده وبين أهله وعشيرته .

ثانيا : كانت الغالبية العظمى من المسلمين من البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القيادة على ما ينبغى فى هذه الظروف ، ولم تكن لدى عبد الرحمن الغافقى من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف فى الجيش ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته .

ثالثاً : كان الوقت خريفاً وهو موسم الأمطار الثقيلة فى هذه النواحى والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها غابات ، والفارس العربى لم يكن يحسِن الحرب فى الغابات ، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شكٍّ بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التى تعمل بها فى الجو الدافئ الجاف .

رابعاً: يبدو أن عبد الرحمن الغافقى كان جنديًّا عظيماً ، ولكن كانت تنقصه القدرة على وضع خطةٍ محكمةٍ للقتال كما رأينا مثلاً عند حسانَ بن النعمانِ وطارقِ بن زيادٍ ، فقد استمر عبد الرحمن فى سيره حتى لقيه الفرنجة .

وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التى كان الجيش الإسلامى يسحبها وراءه ، ويفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة .

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو متراً شمال « بواتييه » فى الطريق إلى « تور » وجنوبى مجرى اللّوار ، فى موضعٍ قريب من طريقٍ رومانىٍّ قديم هو المسمى « بالبلاط » ، وفى هذا الموضع قرية تسمى الآن مواسيه لا باتاى Moissias la Bataille وربما كان موقعها يحدد مكان المعركة .

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت فى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م/ أواخر شعبان ١١٤هـ ، واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن أكثر من أسبوعٍ مما يدل على أنها كانت معركةً حامية ، والحقّ أن كلا من الجانبين بذل أقصى وسعه فى القتال ، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حتى تجمعت عليهم قواتٌ نصرانيةٌ من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على الفرنجة بل كان هناك كثيرون من أجناسٍ جرمانيةٍ أخرى ، وآخر مراحل المعركة كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامى ، فانتهبت الغنائم وتزعزع نظام الجيش ودقت ثغراتٌ نفذ منها الأعداء ، وفى أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن الغافقى بسهم أصابه ، وكان هذا نذير الهزيمة . وقد استمر القتال مع ذلك حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان ، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا ذخائرَ عظيمةً فانتهبوها ولم يفكروا فى تتبع المسلمين ، فسلمت البقية الباقية منهم وعادت إلى أرغون .

وعندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، عامل أفريقية ولّى عبد الملك بن قطنٍ الفهرى من قبله على الأندلس ، فأسرع هذا إلى أرغون ، وفى الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين فى جبال ألبرت وجنوب فرنسا ، وثبّت سلطان المسلمين فى سبتمانية وعقد معاهداتٍ مع نفرٍ من الرؤساء خلفوا الدوق أودو فى حكم نواحى أقطانية وتمكن فى وقتٍ قصيرٍ من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التى تخلفت عن هزيمة البلاط ، ومن حسن الحظ أن « كارل » شغل عن المسلمين بأعداءٍ كثيرين من أبناء جنسه فى شمال مملكته ، فأتيحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديدٍ .

وقد تمكن عبد الملك بن قطنٍ من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائدٍ من قواده ، تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهرى . وقد فتح يوسف هذا مدن « آرل وأبنيون وفالانس وليون » وثبت حدود أملاك المسلمين هناك ، ثم أخضع إقليم « دوفينيه » الذى يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءاً كبيراً مما يعرف اليوم بالرافييرا الإيطالية . واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان المسلمين على نواحى جبال ألبرت . ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسةً جديدةً لحكم ما بيدهم من فرنسا وهى إقامة حامياتٍ قويةٍ فى المدن وتحصين قلاعها

واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب . هكـذا كان الحال فى ليون وأبنيون التى يسميها المسلمون صخرة أبنيون وآرل وغيرها .

ثم تولى بعـد ذلك عقبةُ بن الحجـاج السلولى فأتم إخضاع نـواحى برغنـدية ، وكان عقبة مجاهـــداً عظيماً ، فتجـــددت همّة المسلمين للقتال ، وأحس كارل أنه لا مفرّ لـه من مواجهـــة المســـلمين مرّةً أخـــرى . وتقــدم بالفـــعل بجيشٍ كبـــيرٍ يقــوده هــو وأخــوه « شلدبــرانـد » ، وســار نحـو المسلمين أيضــاً ملك اللومبارديين ، فاضطر المسلمون إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى أرغون وتحصنوا فيها ، وهناك ثبتـوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا فى سنــة ١٤١ هــ/ ٧٥٩م وكان ذلك فى أيام عبد الـرحمن الداخل . وقد وجد عبد الرحمن أنــه لن يستطيع المحافظة على أملاك إسلاميةٍ شمال جبال ألبرت ، فأخـــلى هذه الأراضى واقتصر على شبه الجزيـرة الإيبيرية ، وكـان ذلك خطأ منــه ، لأن جبال ألبرت هى مفتـاح إسبانيـا ، وكانت نتيجة تخليه تماماً عما يقع شمالها أن استعـــاد الفرنجة فيما بعـد منطقة قطلونية ، فأنشـــأ شرلـمان فيها ولاية الثـــغر الإسبانى « لاماركـا هيسبانيكا » ، ومعنى ذلك أن شبــه الجزيرة انتقص أيضــاً من الشرق بعد أن انتقص من الغــرب كما رأينا .

وقـد بقيت للمسلمين جماعـاتٌ محاربـةٌ فى نـــواحى سبتمانيـة ودوفينيــه ، وانسحب معظمها إلى نـواحى جبال الألب الحصينـة حيث اتخذوا لأنفسـهم مواقع يقومـون منها بأعمالٍ عسكريـةٍ فيما يجاورها ، وقــد وصلت أعمالهم الحربية إلى قلب سويسرا ، ولكن هذه لم تكن فتوحاً ولا أعمالاً إسلاميةً ، إنما هى غاراتٌ معظمُ هدفها الدفاعُ عن النفسِ والسلبُ ، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً ، تاركةً أسماءها على بعض النواحى وبعض وديان جبـال الألب الجنوبية أو الشرقية ، من أمثال « أمرو » وهو عمرو « واشمه » وهو هرثمة « وسارازان » وهو اسمٌ عامٌ يراد به المسلمين عامةً فى هذه النواحى .

* * *

عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ١٣٨-١٧٢ هـ/ ٧٥٦-٧٨٨ م
هشام الأول الرضى بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢ -١٨٠ هـ/ ٧٨٨ -٧٩٦ م
الحكم الأول ابن هشامِ (الرضى) ١٨٠ -٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ -٨٢٢ م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميراً على الأندلس ، وهو لا يعرف عنه إلا القليل ، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينةً ، يستطيع الاطمئنان إليها ، ولكنه كان رجلاً موهوباً جمع صفاتٍ كثيرةً : السيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمّة وحسن التدبير رغم أن سِنّه كانت صغيرةً إذ ذاك ، ولكنه ورث من جده هشام بن عبد الملك خِصالاً أهّلته للرياسة ، فقد كان هشام بن عبد الملك من خيرة رجال العصر الأموى، وكان عصره حافلاً بالأحداث حتى يمكن أن نعتبره مدرسةً تكون فيها نفرٌ من خيرة المتأخرين من بنى أمية ، منهم : مروان بن محمد الجعدى وعبد الرحمن ابن معاوية بن هشامٍ هذا ، فبدأ يرقب أموره بهدوء ويتلقى الثورات التى قامت عليه ، فى حزمٍ وثبات ، ومضى قدماً فى تثبيت أركان إمارته التى وضع أول أحجارها وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذوراً ويقويها بدعائم .

ومن أول الأمر نجد عبد الرحمن يسير فى العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما ينبغى لها من قواعد ، فنجده يرتب الإدارة المركزية ، معتمداً على رجال من موالى بنى أمية ، اختارهم اختياراً حسناً مثل « تمّام بن علقمةَ ويوسفَ ابن بختٍ وبدرٍ مولى عبد الرحمن نفسه وعبد الواحد بن مغيثٍ الرومى وعبد الحميد بن غانمٍ وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعى وعبد السلام ابن عبد الله جد بنى عبد الرؤوف وعبد الله بن وانسوس المكناسى » مولى سليمان ابن عبد الملك . وسيصبح أولئك الرجال وأبناؤهم من عهد القوة والنظام الأموى والأندلسى على طول تاريخه ، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأصّلت فى بيوتهم . وأهم بيوت أهل

الحكم هـذه التى تميـزت على غيرها ، وكثـر ظهـور النابهين مـن بين أفرادهـا فى ميادين الإدارة والقيادة وشئون المال وتـولى العمالات والوصول إلى مراتب الإدارة مرّةً بعد مـرّةٍ ، بيوت : « تمّامِ بن علقمةَ وعبد الواحـد بن مغيث وشهيد بن عيسى ابن شهيد وأبـو الغمر حسان بن أبى عبـــدة » ، وستنضم إليها وتتفـرع منها فى الطريـق بيوتٌ أخرى ، ولكنهـا بيوت مـوالٍ أيضاً . ومن يـدرس تاريخ بنـى أمية الأندلسية لا بد أن يدرس تاريخ هذه البيوت الموازية لها ، وأهمها : « بنو أبى عبدة وبنو عبد الرءوف وبنو شهيـدٍ » ، وأبناء هذه البيوت لهم فضلٌ عظيمٌ على بنى أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح .

كان عبـد الرحمن الداخل هـو الذى وضع ذلك الأسـاس ، لأنه كان فى حـاجة بـالفعل إلى رجالٍ يعتمـد عليهم فهو غـريبٌ عن البلاد ، لا يعـرف عن أهـــلها إلا القليل ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموالى جميعاً تصاهروا مع أهل البلاد ، فنشأت بيوتهم أندلسية فى طبيعتهـا ، ونشأ أولادهم أندلسيين فى مزاجهم وعواطفهم ، وإن كانـوا عرباً فى روحهم وثقافـاتهم ، مسلمين أمناء فى ديانتهم . وسيسير بنـو أمية أنفسهم فى ذلك الطـريق ، سيتزوجون مـن أهل البلاد ، وينبض فى عـروقهم الدم الأندلسى ، وابتداءً من أيام هشام بن عبد الرحمن ، لا نتعجب عندما نعرف أن لغة الحديث فى القصر والشارع وشئـون الأسر والأسواق ، كانـت مزاجاً من العـربية والإسبانيـة ، بينما كانت العربية لغـة الدولة والدين والأدب والعلم والـرسميات . وقد صاحبت هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسى على طول تاريخه .

قامت دولة عبد الرحمن ، على عـونٍ كبيرٍ من العرب اليمنيين والبربر البلديين ، وقد تصور اليمنيون البلـديون أن انتصـار عبد الرحمن ، معناه أن الـدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعـون الآن أن يتصرفـوا كيـف يشـاؤون ، ويستمـرون على أسلوب الفوضى والاستخفـاف بالناس والأموال والإغـراق فى العصبيات القبلية ، التى وصلت بالأنـدلس إلى الحالة السيئة التى رأينـاهـا خلال عصر الولاة . ولكنهم فـوجئوا بـأن العهد الجديـد لن يعترف بقيسيـةٍ أو يمنيـةٍ ولا يفرق بين شـاميين وبلـديين أو بـربرٍ أو أهـل البلاد ، إنهم جميعـاً أهل وطنٍ واحـدٍ ، ولا بـد لهم من الخضـوع لقـرطبـة ، وقـد أنكر اليمنيـون ذلك إنكـاراً شديـداً واعتبروه جحـداً لفضــــلهم ، فتــــوالت ثـوراتهم على عبد الرحمن فى كل ناحيـةٍ ، وقد اعتمد فى

حربهم على مقاتلى بنى أمية ، وعلى جند الكور المجندة وعلى حشود البربر وأهل البلاد ، وكانت خطته معاجلة الثائرين قبل أن يجمعوا أمرهم ، وقد عادت هذه المبادرة على عبد الرحمن بنفعٍ كبيرٍ ، فقضى دونَ كبيرِ مشكلةٍ على ثورات اليمنيين فى الجزيرة الخضراء وإشبيليةوطليطلة وباجة .

وكانت بعض هذه الثورات خطرةً حقًّا مثل ثورة «العلاء بن مغيثٍ اليحصبى» فى باجة ، لأن هذا الرجل جمع جمعاً عظيماً من اليمنيين والفهريين وجند مصر ، ودعا لبنى العباس وكتب إليهم يطلب سِجِلاً بالحكم ورحّبوا هم بذلك ، ولكن عبد الرحمن قضى على الثائرين فى حزم وقوة سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤م ، وقد حاول زعيمٌ يمنىٌّ آخرُ هو « سعيد اليحصبى » المعروف « بالمطرى » ، أن يثأر لقتلى ثورة العلاء بن مغيثٍ ، واستنفر اليمنيون للثورة على عبدالرحمن فى « لبلة » جنوب غرب الأندلس فقضى عليها هى الأخرى وعلى محاولةٍ مماثلةٍ فى إشبيلية .

وكانت آخر ثورةٍ خطيرةٍ واجهها عبد الرحمن هى ثورة رجلٍ بربرىٍّ يسمى « شقيًا » أو شعيًا بن عبد الواحد » ، زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء ، وقد قامت فى منطقة وعرةٍ هى « شنتمرية » ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الدعى الفاطمى إلا بعد جهدٍ شديدٍ سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦م .

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولة قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطةفى الثغر الأعلى . ولو وفق شارلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس . ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعا تحت راية عبد الرحمن فى ذلك الحين ، فتمكن من النجاة من الخطر المحيق به ، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه ووعدوه المعاونة ، كانوا عرباً يتزعمهم «سليمان بن يقظان الكلبى» المعروف بالاعرابى ، والى برشلونة ، « والحسين بن يحيى الأنصارى » والى سرقسطة ، وقد بلغ عطشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرِّضوا الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر ، فى سبيل أحقاد شخصية . وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقاء شارلمان فى « بادربورن » فى ولايةَ وستفاليا فى غرب ألمانيا الاتحادية الحالية ، واتفقوا معه على أن يعاونوه على الاستيلاء على سرقسطة .

وفى شوال ١٦١هـ/ربيع ٧٧٨م سار شارلمان نحو إسبانيا فى جيشٍ ضخمٍ ،

فعبر جبال ألبرت من الشرق أى من ناحية « نربونة » ودخلت بعض الفرق الفرنجية فى ممرٍ فى الجزء الغربى من الجبال يسمى « رنشفالة » أو « باب الشزرى » ، وكان الاتفاق أن يعاونه البشكونس من حلفاء المسلمين فى ذلك العمل ، وأن يقوم « الحسين بن يحيى الأنصارى » بتسلم سرقسطة إذا وصل إليها ، ولكن بعد أن استولى شرلمان على بنبلونة ، ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابى قد خدعهم ، وأن الأمر سينتهى بغزوٍ نصرانىٍّ أجنبىٍّ لبلادٍ إسلاميةٍ ، غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكونس على أولئك الغزاة ، ورفض الحسين بن يحيى الأنصارى أن يفتح أبواب سرقسطة ، فطال حصار شارلمان لها حتى أحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء ، فقرر العودة ، وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابى ، واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب ، وانقلب راجعاً فى سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م .

وكان أسر سليمان بن يقظان ومن معه إيذاناً بانقلاب جميع مسلمى الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكونس على شارلمان ، فقرروا الهجوم عليه عندما تتوسط قواته خوانق ممر رنشفالة الضيقة ويقول ابن الأثير(١) إن «شارلمان لما بعد عن بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون أبناء سليمان بن يقظان الأعرابى فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة» . وهذه هى الإشارة العربية الوحيدة لواقعةٍ خطيرةٍ سيكون لها صدىً بعيدٌ فى الأدب الشعبى الفرنسى ، ذلك أن مؤخرة جيش شارلمان كان يقودها فارسٌ من إقليم بريطانيا ، يسمى «هر دولاند» ويعرف عادة « برولاند Roland »فانقض عليها المسلمون والبشكونس ومزقوها وقتلوا رولاند ، رغم ما أبدى هو ومن معه من بسالةٍ ، ثم وقع قتالٌ عنيفٌ انتهى بالقضاء على معظم قوات شارلمان . والتاريخ التقليدى لهذه الواقعة ، « ملحمة رولاند المشهورة » ، ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخى ، لكنها ترينا تصوُّر الناس فى جنوب فرنسا للمسلمين وعقيدتهم ، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة فى تكوين اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، فقضى على بقايا الثائرين

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ جـ ٦ صفحة ٥ .

ومَهَّـد أمورَ إقليمِهـا ونظمه ودخل بنبلـونة عـاصمة البشكـونس وعاهـدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية ، وكان ذلك سنة ١٦٣هـ ، ١٦٤ هـ/ ٧٨١ م .

نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه فى هدوءٍ نسبىٍّ ، وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته . ومن الطريف أنه عندما استقـر أمره بعث يستدعى بقايا بنى أمية ، ليستعين بهم فى أمـره فأقبل إليه الكثيرون منهم ، فعهـد إليهم بمسئوليـاتٍ كبرى ولكنـه فـوجىء بحسـد الكثيرين منهم لـه ورغبتهم فى القضـاء عليـه فيئس من ناحيتهم ، وهكذا تبين أن هذا الرجل العظيم يلاقى نكران الجميل وانقلاب الرجال، مما جعلـه بعد ذلك يقتصر على المخلصين من مـوالى بنى أمية ومن انضم إليـه من أهل البلاد ورجال الكور المجندة وهم من العرب ، وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قـوةً جديـدةً من الصقالبـة ، وكان أمـراء المسلمين والأوربيين فى ذلك العصر يشترون أبناء الصقالبـة صغاراً من بلاد نصرانية ، ويُرَبُّون فى البـلاد الإسلامية تربيةً إسـلاميةً عربية ، وينشأون جنـداً خالصاً للإمـارة ورجالها ، وقد أصبحت هـذه القوة مع الـزمن عنصراً أسـاسياً من عنـاصر القـوة السياسيـة العسكريـة للأندلس .

وقد توفى عبد الرحمن فى ١٠ جمادى الآخرة ١٧٢هـ/ ٢ أكتوبر ٧٨٨ م وهو فى الثـامنـة والخمسين من عمـره ، بعـد أن حكم الأنـدلس ٣٣ سنـةً ، كلهـا عملٌ متـواصلٌ ومصاعبُ وأهـوالٌ . فهذا الـرجل الذى شـاد بنفسه ملكـاً ، وأنقذ بلـداً ووضع أساسَ تاريخِ شعبٍ وحضارةِ أمةٍ ، لم يسترح يـوماً منذ تولى أمر الأندلس فى ذى الحجة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦م ، فقد كان البلد الذى تولى أمره ضخماً .

وقد دخل عبد الرحمن الأنـدلس غريباً وحيداً تقريباً ، فتمكن بـذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل ، من أن يقيم صرح دولةٍ ، تعد من أمجد دول الإسلام ، أقامها على أسسٍ إداريـةٍ وسياسيةٍ وماليةٍ متينةٍ أثبتت الأيام صـلابتها . وهو من هذه الناحيـة يفوق معظم مُنشِئى الدول فى تاريخ الإسلام . ويزيـد من قيمة عمله أن الناس الذين قُدِّر له أن يعتمد عليهم ويحكمهم قد درجوا على الفوضى والأنانية والقسوة وقصر النظـر وكان الكثيرون من زعمائهـم ، لا يُبالـون بمصير الإسلام

والعروبة ، فى سبيل مصلحةٍ يسيرةٍ يحققونها ، أو ثأرٍ يدركونه ، أو كبرياء يرضونها . فلم يكن عبد الرحمن ليستطيع معاملة أولئك الناس باللين والمحبة والأخلاق ، فكان لا يبالى فى سبيل الدولة بأىّ شىءٍ . وقد وصفه « دوزى » بالمكيافيلية والقسوة والخبث ، ولكن دوزى ينسى أن هذه كانت أساليب كل أصحاب الأمر فى الغرب الأوربى فى ذلك العصر الذى كان الناس فيه يرفضون الخضوع للدول ونظمها . ولهذا فقد اشتد فى نقد عبد الرحمن . والحقيقة أن هذه الخلال التى لا نرضاها فى هذا الرجل ، لم يكن عنها غنىً لرجلٍ مثله فى مثل ظروفه ، وكان لا بد على أى حالٍ من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام . وقد نجح عبد الرحمن فى ذلك ولكننا لا مندوحة لنا من أن نقرر أنه كان دائما يختار الوسيلة الأقسى والأشد ، رغبةً منه فى الخلاص من المشكلة بسرعة ، وبعد أن توالى نجاحه ، أصبح شديد الاستبداد ، لا يقبل مناقشة أحدٍ ، وقد غضب على بدرٍ مولاه بعد طول خدمته إياه وأقصاه عنه فى شبه نفيٍ بسببٍ صغيرٍ لا يستحق ، وعامل رجاله بعنفٍ وحزمٍ بالغين .

وكان عبد الرحمن يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ جَدَّه هشام بن عبد الملك ، ولكنه كان أحسنَ حظاً منه ، لأن هشامَ بن عبد الملك تولى أمر دولةٍ كانت فى سياق الموت ، أما عبد الرحمن فقد تولى دولةً ناشئةً يضم كيانها مواردَ متدفقةً بالقوة والحيوية فأقبل ينتفع بها على أحسن وجهٍ مستطاعٍ .

ومن هذه الناحية كان عبد الرحمن أُموياً صرفاً يشبه فى كثير من خلاله مروان ابنَ الحكمِ وعبدَ الملكِ وابنَه ، وفى بعض الأحيان نلاحظ عنده مشابهةَ من الوليد ابن عبد الملك (فى موضوع المنشآت والعمائر) وملامح من هشام بن عبد الملك (فى ناحية السياسة المالية وتدبير مصروفات الدولة) أى أنه نقل إلى الأندلس خيرة صفات بنى أمية المشارقة ، ووضع لنفسه ولمن جاء من بعده سياسةً حكيمةً لدولة سليمةِ البناء ، تقوم على أسسٍ سياسيةٍ وإداريةٍ وماليةٍ تمكّنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور .

وإلى جانب ذلك كان عبد الرحمن رجلاً شهماً نشيطاً ذا همّةٍ ، وعاملاً لا يتعب ، فخلال إمارته التى امتدت ثلاثاً وثلاثين سنةً ميلادية ، لم تقعد له همّةٌ

ولم يركن إلى الراحة إلا فى فتراتٍ قصيرةٍ جداً سجلها المؤرخون . ومن ذلك أن « ابن عذارى » ، يكتب فى بعض سنوات خلافة عبد الرحمن العبارة التقليدية التى تقول : « وفى هذه السنة لم تكن للأمير حركةٌ » ، وكان أحسن ما فيه عقلُه المرتَّب وطريقته المنظمة فى العمل ، فكان يدرس مشاكله فى هدوءٍ ويتلقى أخبار الثورات التى تقوم عليه بجَنانٍ ساكنٍ ، ثم يرسم خطته للقضاء على الخصم ، ثم إنه كان على الجملة حسن المعاملة لرجاله ، مكرماً لهم حافظاً لعهودهم ، وإنْ أخذ عليه سرعته إلى الغضب وميله إلى العنف مع أعدائه والبطش بهم ، ولكننا لا نقرأ فى أخباره ما تعوَّدنا أن نقرأه فى أخبار أمثاله من الغدر بالوزراء ونكبة الكتاب ومصادرة أموالهم ، وهذا لا يمنع من القول أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الحيلة والتدبير والغدر ، كما فعل مع الصميل بن حاتم ، إذ أنه أمر بخنقه فى سجنه ، ولكن الغدر والقسوة كانت من أسس الحكم فى العصور الوسطى ، وكانت السياسة تفرض على أصحابها أخلاقاً وأفعالاً لا نرضى عنها ، وهذا يخفف من مسئولية عبد الرحمن عما يُتَّهم به من أعمال القسوة والعنف والغدر فى كتب التاريخ .

وعندما تُوفى عبد الرحمن مخلفاً العرش لابنه هشامٍ ، ترك دولةً ثابتةَ الأركان ، فلم يكن على ابنه هشامٍ إلا أن يسير فى خطوات أبيه .

وقبل أن ننتقل إلى هشام ، لا بد أن نشير إلى عناية عبد الرحمن بالإنشاء والتعمير ، ففى أيامه بدأ عمرانُ قرطبةَ ، وهو الذى أنشأ الجزء الأول من مسجدها الجامع قبالةَ قصرِ الإمارة ، وبدأ بذلك تاريخ أكبر أثرٍ معماريٍ فى تاريخ الغرب الإسلامى كُلِّيَّةً .

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة ، وكان يقوم على مساحةٍ فسيحةٍ واسعةٍ قبالة المسجد ، وقد رأى عبد الرحمن أن تستعمل هذه المساحة كلها لتكون قصوراً للأمير وأهله وإدارة دولته فأنشأ قصراً خاصاً لنفسه وعدداً من القصور الصغيرة إلى جواره لنسائه وأهل بيته وأحاط هذه القصور كلها بالحدائق الجميلة وأدار عليها سوراً .

وكانت تلك المساحة تمتد حتى تقترب من ضفة نهر الوادى الكبير ، فعمد عبد الرحمن إلى إنشاء قصور الإدارة ناحية النهر ، وفتح باباً فى السور فى الشارع

بين النهـر والسور ، وسمّى هـذا الباب « ببـاب السَّدَّة » ، لأنـه كان يـواجه سـدَّةً جعلوها فى مجرى النهـر لكى يرتفع مستوى الماء ليحرك ناعـورةً أو ساقيةً كبيرةً أقيمت قرب الشـاطئ لرفع الماء من النهـر وإيصاله إلى داخل المدينـة ، وقد سمى الحى الصغير الذى أحاط بتلك الناعورة « بِمُنية الناعورة » .

وباب السَّدَّة هذا كان مفتوحاً للجمهـور ، إذ أنه كان يُفضى إلى مكاتب الدولة التى كانت تزداد عدداً وموظفين مع الزمن ، وكلما مضى عددٌ من السنوات أُنشئت دواوين أخرى حتى أصبحت الجهة القبلية من قصور الإمـارة مركزاً إداريًا للدولة فى قرطبـة ، وإلى جانب بـاب السدة جلس من نسميهم بـالكتاب العمـوميين الذين يكتبون للناس الشكاوى والرقاع التى يتقدمون بها إلى مكاتب الدولة .

وكان أولئك الكتاب من صغار طلبة العلم الذين يرتزقون من وراء هذا العمل ، وكانـوا يقيمون فى ضاحية جنـوبى قرطبة تسمى ضاحيـةَ أو « ربضَ شقندة » ، وكان هـذا الربض مسكنَ العمالِ من كل صنفٍ ، وكـان بينه وبين مـدينة قـرطبة قنطرةٌ حجـريةٌ تعـرف بقنطرة الـوادى وأصلها من بنـاء الرومـان ، ولكن العرب جَدَّدوها مـرّةً بعد مرّةٍ ، وكانت من نزهات الأنـدلسيين المشهورة لأن تلك القنطرة القائمـة على النهر كانت واسعـةً قائمـةً على أرجل أى أعمدةٍ فى ماء النهـر ، وكانت عامرةً بـالحركة لأنها كانت تؤدى من ربض شقنـدة إلى « المحجة العظمى » وهى الشـارع الرئيسى الـذى يقطع قـرطبـة من جنوبها إلى شمالها بـادئاً من قنطـرة الوادى ومُنْتَهِياً إلى الباب الشمالى الأقصى الذى عُـرف بباب « عبد الجبار » ، وكان من أشهرِ أبوابِ سورِ قرطبةَ .

وإلى الشـــمال من قرطبـــة وعلى بعد نحـو أربعـــة كيلو مترات منها أنشأ عبد الـرحمن لنفسه قصراً ريفيًا على مثال البـوادى أى قصور الباديـة ، التى كان خلفاء بنى أمية فى المشرق ينشئـونها فى البادية ليقضوا فيها أوقـات سمرهم بعيداً عن زحمة المدن وأعين الناس .

وكـان هذا القصر الـذى بناه عبـد الـرحمن يقوم على تلٍّ مـرتفعٍ يسمى « تل الرصافـة » ولذلك كان القصر يسمى بقصر الرصافـة ، وهو يطل من الجنوب على الحقول التى تفصل بينـه وبين قرطبـة ، ومن الشمال كان يطل على « فحص » أى

أرضٍ فضــاءٍ واسعـــةٍ سُميت « بفحص السرادق » ، وفى ذلك الفحــص أو الميـدان الـواسع اتخذ عبد الـرحمن المنازل لجنـده وقـواده ، وكان يحرص على تـربيتهم وتدريبهم تـدريباً منظماً مستمـراً ، وفى نهاية شتاء كل سنـةٍ كان ينـادى بالنفير فتأتى إلى قـرطبـة حشـود العـرب من أهل الكـور المجنـدة ومن ينضم إليهم من «المطـوعة» أى الـراغبين فى الجهاد فى سبيل الله دون أجـرٍ ، مكتفين بنصيبهم من الغنـائم وما يكتب لهم من ثـواب الجهاد . وإلى هـذه القوات كـانت تضاف قـوات الصقالبة الذين كان عبد الرحمن يشتريهم صغـاراً ويربيهم تربيةً عسكريةً دينيةً إسلاميةً ليكـونوا جنداً للإمـارة وخدماً لها فى شتى شئون القصر والحكـم وكانوا يسمـون بتسميةٍ عـامـةٍ هى « الصقالبـة » ومعنـاها « السُّـلاَف » أى من الأصل السُّلاَفى ، وهـو أصل الروس ، ولكنهم فى الحقيقة كـانوا يتكونـون من كل أجناس أوربا ، وكان هناك تجارٌ مخصوصون بهذا العمل ، فكانوا يشترون أولئك الغلمان من الدول القريبـة التى كانت تأسرهم وتعرضهم للبيع فى أسـواقٍ معروفةٍ لأولئك التجار ، وقد استمـر عبد الرحمن يشترى من أولئك الصقالبـة حتى صار له منهم جيشٌ عـدَّته أربعـون ألفاً ، كـان من بينهم حَرَسُـهُ الخاص وخيرة جنده . وكـان العاملون فى القصر من أولئـــك الصقالبـة يُسَـمون بالفتـــيان وينقسمون قسـمين « الفحـول » و « الخصيان » ، فأما الفحـول فكانوا يُستخدمـون للحرب وأعمال الـدولـة وأما الخصيـان فكـانـوا يخدمون داخل القصـور ، وكـان تجار المسلمين يشترونهم من تجار اليهود الـذين تخصّصوا فى إجـراء عمليات الخصى لأولئك الشبان الأسرى المساكين قبل بيعهم لمن يريد .

***

هشامُ الأوَّلُ بنُ عبدِ الرَّحمٰنِ المعروفُ بالرِّضىٰ

وخَلَّفَ عبد الـرحمن ابنَه هشاماً ، ولم يكن أكبر أولاده ، ولكنـه كان محبَّباً إلى أهل الـدولة والفقهـاء ورجال القصر لـدمـاثةٍ كـانت فى خلقه ، ولهذا تخطَّى أخـاه سليمان ، وكان جندياً لا يهتم إلا بالجيش وأهله .

بدأ هشـامٌ حكمه فى جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٧٨٨م وأمه أم ولـد جليقية ، وكان يُبـدى ليناً وورعاً ، ولكنـه كان فى الحقيقة سيـاسيًا يجتذب النـاس بمظهر التقىَ ، ولم يفعل شيئًا ذا بالٍ أثناء حكمـه القصير ، ولكن الناس ارتاحوا له ، لأنـهم كانـوا قد تعبـوا من عنف أبيه وسرعتـه فى البطش واستمراره فى الحركـة والعمل ، ونستطيع أن نعتبر إمارة هشامٍ إكمالاً لإمارة عبد الرحمن .

ولم يعكر صَفـو إمارةِ هشام إلا ثـوراتٌ قام بها بعض اليمنيين ، وخـاصةً فى إقليمَى قطلونية وسرقسطة ، ومحاولاتٌ قام بها نصـارى الشمال للاتساع جنوباً ، ولكنّ قوادَ هشامٍ عرفوا كيف يوقفون ذلك التيار .

دخول مذهب مالك الأندلس :

وأهم مـا حدث فى عصر هشـامٍ هو دخـول مذهب مـالكٍ إلى الأندلس ، وكـان الأنـدلسيون قبل ذلك على مـذهب « الأوزاعى » إمـام أهل الشـام ، ويمتاز فقهـه بـالناحيـة العمليـة ، فهو يـرى أن كل مـا هو نـافعٌ للمسلمين ويتفق مع صـالح الجمهور فهـو من الإسلام مـا دام لا يتعارض مع أوامره ونـواهيه . وهـو مذهب أخذت منـه المذاهب الكبرى بأطراف ، ولكنّ مالكاً يعمِّـمه ويجعلـه قاعـدةً . ومن ســوءِ حظِ « الأوزاعى والليثِ بن سعـدٍ وطاووس » وأمثـالهم من أصحـاب المذاهب الفقهيـة الأولى التى دثرت ، أنهم لم يـرزقـوا تلاميـذَ يُـدونون مـذاهبهم وينشرونها فى الآفاق ، أمـا مالكُ بن أنسٍ فقد كـان أحسن حظاً ، فقد رُزق تـلاميذَ نبهـاء أمثال « عبـد الرحمن بن القـاسم وأشهب بن عبـد العزيـز » ومن إليهم من منشئى المدرسـة المالكية المصرية ، ثـم « أسد بن الفـرات وعبد السلام بـن سعيد المعروف بسحنون » اللـذين أدخلا مذهب مالك إلى المغـرب ، وعَملاَ على نشره مع طائفةٍ من أجِلّاء الفقهاء .

وفى الأندلس أيضاً كان مذهب مالكٍ حسن الحظ ، فقد كان مالكٌ معاصراً لهشام بن عبد الرحمن ، معجباً به لا يكفّ عن الثناء عليه ، وكان ذلك يبلغ هشاماً فيستريح إليه ، فلما وفد على الأندلس أوائل تلاميذ مالكٍ الذين درسوا عليه ، من أمثال « الغازى بن قيسٍ وزيادِ بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وعيسى بن دينارٍ وسعيدِ بن أبى هند » ، رحّب بهم هشامٌ وجالسهم وأذن لهم فى تدريس مذهبِ مالك فى المسلمين وأخذ القضاة بالحكم به ، ثم اتخذ كبار المالكية قضاةً وفقهاء مشاورين ، أى أهل شورى يستفتيهم الأمير فيما يجريه من أمرٍ ، وشيئاً فشيئاً أصبح المذهب المالكى المذهب الرسمى فى الأندلس .

التقليد الشامى :

ومذهب مالكٍ هو العنصر الحضارى الوحيد الذى قبلته الإمارة الأموية الأندلسية خارجاً عن نظم الأمويين فى الشرق . وأهم هذه النظم العروبة المطلقة فى لغة الدواوين وأوساط الدرس ، فبينما كان العباسيون فى الشرق يقبلون صوراً حضاريةً إيرانيةً وهنديةً ، كان الأمويون فى الأندلس لا يقبلون إلا ما هو عربىٌّ . وهم لم يفعلوا ذلك بقانونٍ سنّوه ، وإنما كان اتجاهاً عاماً فى الحياة ساروا فيه وتبعهم الناس ، فعلى الرغم من أن مسلكهم قام فى أوروبا ، إلا أن الحياة فى قصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل ، فكانت قصورٌ باديةٌ ، تذكّرنا ببوادى خلفاء بنى أمية الشرقيين فى الشام . ومن ذلك أن عبد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه قصر الرصافة الذى أشرنا إليه . ولم يخرج حكام بنى أمية الأندلسيين حتى أيام الناصر عن الثرائد والعصائد ، واعتمدوا على رجالٍ ذوى همّةٍ وبسالةٍ وروحٍ عربى، وإن لم يكونوا من أرومةٍ عربيةٍ خالصةٍ ، فقد كان منهم بربر ونفر من أهل البلاد ، ولكنهم جميعاً استعربوا لساناً وفكراً وأسلوبَ حياةٍ ، وصاروا يعدون أنفسهم عرباً . وقد بلغ من اهتمام هشام باللغة العربية أن جعلها لغة الكنيسة لنصارى الأندلس ، فترجموا إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات ، وقد كان ذلك من أكبر العوامل التى أسرعت بتعرُّب أهل الأندلس ، وتحويل هذا البلد إلى مركز من مراكز الحضارة العربية ، ويعرف ذلك كُلُّه « بالتقليد الشامى » الذى التزمه أمراء بنى أمية الأندلسيون وخلفاؤهم حتى نهاية عصر الخلافة .

وكان معظم الموالى الأندلسيين يعدّون أنفسهم بين الشاميين ، لأنهم كانوا

موالى بنى أمية . وبنـو أمية ظلوا حتى فى الأندلس يعتـزون بأنهم شاميون ، ولهذا فقـد كانـوا يفضلـون أهل الشام على غيرهم ، وكـانـوا يتخذون فى حيـاتهم ونظم حكمهم مـا كان سـائداً فى بلاد الشـام ، وهـذا هو الـذى أعطى هذا التقليـد اسم الشـامى .

وقد تُوفى هشامٌ بعد سبع سنواتٍ من حكمه ، فكانت سنُّهُ عندما مات فى صفر ١٨١هـ/ أبـريل ٧٩٦م لا تزيد عن أربعـــين سنةً ، وهى سنٌّ صـــغيرةٌ جدّاً ، ولكن بنى أمية عامةً كانوا قصار الأعمار ، وطوال الأعمار منهم فى الشرق قليلون ، أمّا فى الأنـدلس فلا نعـرف منهـم من تخطى الخامســة والستــين ، إلا الأمير عبـد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويُثنِى معظم المؤرخـــين على هشــامٍ بسبب رضا الفقهـاء عليـه وقيـامهم بالدعوة له ، وتصويره فى صورة الأمير التقىّ الورع الرحيم . ولم يكن الرجل كذلك فى الحقيقة وإنما كـانت فيه قسوةٌ على أعدائه لا نجدهـا عند أمثاله ممن يوصفون بأنهم حكامٌ أتقياء ، فقد سمل عينى شاعـرٍ يُسمَّى « أبا المخشىّ عاصمَ بن زيدٍ » ، لأنه أثنى على أخيه ومنافســه سليمان ، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلماً لريبــةٍ فى نفسه ، وقـد اعتذر عن ذلك وبـذل شيئاً من العِـوض ،ولكن ذلك لا ينفى الجناية . وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة ، وزعموا أن هشاماً كان يخرج فى الليل ويطوف فى المســاجد فإذا وجـد فيها نـاساً عـاكفين على قيام الليل أعطـاهم مالاً . وربما كان يفعل ذلك فعلاً ، ولكن ذلك كان سياسةً منه وخُبثاً .

ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول بن هشام المعروف بالحكم الربضى ، نقول كلمةً يسيرةً عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة .

ذكرنا كيف وصلت جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo وخيجون ، وكيف اعتصمت فلول القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتبرية ، فى الناحية المسماة باسم أشتريس .

تذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحيـة القاصيةفارسٌ يسمى « بـلاجيوس » ويسمى عادةً « بيلايـو » ، ويُسمِّيه

العرب « بلاى » وكان من أعوان غيطشة وأنصار لذريق ، فلما اعتصمت بقايا القوط فى ناحية أشتريس ، أصبح بلاى رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم .

وقد انتشرت هذه الفلول أول الأمر فى النواحى المطلة على خليج بسكاى من جليقية إلى أشتريس ، ولكنها انكمشت إزاء حملات المسلمين المتوالية فى ناحية جبلية شرقىّ أُوفييدو الحالية عند البلد المسمى « كانجاس » واتخذت حصناً لها موضعاً جبليّاً تصل فيه الجبال الكنتبرية إلى أعلاها عند قمم أوروبا ، وفى هذه الناحية موضع مغارة تسمى « كوفا دونجا » ويسميها العرب صخرة بلاى ، وقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها أيام الحرب مع عبد الرحمن الثقفى سنة ٩٨ هـ/ ٧١٨م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأساً من إمكان الاستيلاء عليها، ولم تكن ذات أهمية فى ذلك الوقت على أىّ حالٍ .

وفى سنة ١١٢ هـ/ ٧٣٠ م أثناء إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابى » بعث حاكم الثغر الأعلى « عثمان بن أبى نسعة » جيشًا إلى أشتريس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية هناك ، وقد بذل رجال هذا الجيش جهداً كبيراً ولكنهم لم ينالوا شيئاً من بلاى وأنصاره . وتنسب الروايات النصرانية إلى بلاى انتصاراً كبيراً على المسلمين عند « كوفادونجا » ، وتَعْتَبِر هذا النصر نقطةَ البدايةِ لتاريخ إسبانيا النصرانية ، ولكن ليس لدينا مايؤيد ذلك .

وكانت هناك إمارةٌ نصرانيةٌ أخرى صغيرةٌ فى الجزء الشرقى من بلاد كنتبرية أنشأها زعيمٌ يسمى « بتروس » . ثم خلفه أميرٌ يسمى « ألفونسو » واتخذ لقب الدوق ، ثم تزوج ألفونسو ابنة بلاى وتوحدت مملكة أشتريس التى يسميها العرب مملكة الجلالقة .

وكان سكان هذا الجانب الشرقى مما يقع شمالى الجبال الكنتبرية حتى بلاد البشكونس يُعرفون باسم الكنتبريين ومن هؤلاء الكنتبريين وبقايا القوط ومن انضم إليهم من أهل شمال إسبانيا تكونت نواة مملكة الجلالقة .

وألفونسو هذا هو منشئ المملكة النصرانية التى ستستمر فى النمو والاتساع حتى تستولى على الأندلس من المسلمين ، وقد عاونه الحظ باشتغال المسلمين بالحرب الأهلية فيما بينهم على ما فصّلناه قبل قدوم عبد الرحمن الداخل .

وحوالى منتصف القرن الثـامن الميلادى كانت إمارة أشتريس تلك قـد امتدت نحو الجنـوب وعمـرت حـوض نهر المنيو واقتربت مـن حوض الـدويـرو ، واستـولى ألفونسو الأول على أشترقة منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التى نزلت بالأندلس نتيجة الفتنة بين العرب والبربر .

وفى أثناء حكم يـوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، امتدت المملكـة النصرانية على مهلٍ ، وكـذلك عندما شغـل عبد الرحمن الـداخل بحرب الثـائرين ، سقطت فى أيدى النصـارى مدن هامة مثل « لكه Lugo وبرتقال Portucallies » .

وعندمـا استقر الـوضع لعبد الـرحمن ، استرجع أهم هذه المدن ، وكـان ملك أشتريس إذ ذاك يسمى « فـرويلا Froila » ، وهو الـذى خَـلَف ألفـونسو الأول ، وكان قاسياً عنيفـاً سفَاكاً فكرهه الناس ومـالوا إلى محالفة المسلمين ، يتزعمهم فى ذلك ملك يسمى « مورجـات أو مورقات » ، يقـال إن أُمهُ عربيةٌ . وعلى هـذا استمر الأمر حتى تولى العرش ألفونسو الأول .

وفى الشمال الغربى كـذلك نشأت إمارةٌ نصرانيةٌ مستقلةٌ فى بـلاد البشكونس عُرفت بـاسم نبرة Navarra وقاعـدتها بنبلونة وإلى غـربيها قامت ثـلاثُ إماراتٍ صغيرة فى جبال ألبرت هى على التـوالى : أرغون وشبرب ورِيباجورثا وقـام الزعيم البشكونسى « اينيجواريستا Inigo Arista » بتوطيد قواعد إمارة نبرة Navarra فى الغرب . وفيما بين مملكـة الجلالقة التى تعرف أيضا بمملكـة أشتريس وبين بلاد المسلمين امتـدت منطقـة خـلاءٌ حتى حـوض نهر الدويـرو ، وكان النصـارى يحاولون الامتـداد فيها إذا غفـل المسلمون عنهم ويـرتدون عنهـا إذا تنبهوا لهم ، وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادى .

إمارة الحكم الربضى ١٨٠ ـــ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م :

تعتبر إمـارة الحكم بن هشام ، أو الحكم الأول المعـروف بـالربضى ، نهايـة عصر القـلاقل التى قـام بها العـرب للقضـاء على الإمـارة الـوحيـدة التى بسطت سلطانها على البلاد ، وكان الكثير من زعماء عرب البلاد وبربرها لا يسلمون بقيام هذه الدولـة ، ولا تزال نفوسهم تطمع إلى العودة إلى الفوضى السـابقة ، ولهذا فقد كثرت الثـورات فى عصر الحكم واختلفت أنواعها ، ولكنهـا كانت فى الغـالب ثورات

اجتماعية أو إقليميةً لا فِتَناً عشائريةً أو قبائليةً يقوم بها هذا الفريق من العرب أو البربر إذ ذاك بغية خلع طاعة الإمارة والتخلص من النظام ، وقد ثبت الحكم ثباتاً يدعو إلى الإعجاب ، وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب والمتناقضات وسياسته حافلة بالأخطاء . ذلك أن الحكم تولى أمر الأندلس شاباً فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان إلى جانبه عَمَّاه سليمان وعبد الله وغيرهم ، ممن كانوا يرون أنفسهم أحقَّ با لملك منه ، ولا يعرفون من يؤيدهم من أهل البلاد وجماعات العرب ، فأقبلوا يدبِّرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به .

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتع والراحات ، وقد حسب أن أباه وجده قد مهَّدا له الملك ، وما عليه إلا أن يستمتع . ونبض فيه عرق التعالى الأموى ، ونظر إلى من سواه من الناس فى غير اكتراث ، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهان الكثيرين منهم ، وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى فى أيام أبيه هشام ، واكتفى بخدمه وحواشيه وندمائه ، وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر ، حتى أيقظته الحوادث يقظةً هزَّت كيانه وبدلت فى حياته وأظهرت طبيعته الصلبة الجادة فتمرس بالخطوب ، وترك اللعب ونظر فى أمر نفسه ، ولم يعد له هَمٌّ إلا تثبيت ملكه وحماية مملكته . وقد اقترف فى سبيل ذلك جرائمَ كثيرةً ، فكان له بعد ذلك الندم ، فقضى أواخر سنواته فى عزلة وحسرةٍ واستغفار ، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرِف بخبر وفاته إلا نفرٌ قليلٌ من رعيته ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيامٍ .

وكان أول ما عاناه الحكمُ حرب عَمَّيْهِ سليمان وعبد الله ، وقد شقى هو بهما ، وشقيت البلاد بهما شقاء كبيراً ، لأنهما ربطا نفسيهما بنفر من الثائرين من الثغر الأعلى ، بل سعى أحدهما وهو عبد الله إلى تأليب شارلمان على الإسلام والمسلمين ، وذهب لمقابلته فى « اكس لاشابل » ، وبالفعل أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس ، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابه سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٧م . وبعد ذلك بقليل استسلم عمه سليمان أبو عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه .

ولكن محاولة عبد الله وسليمان فى الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية ، وحفّزه أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على القيام بحملةٍ أكثر جديةً ، وبالفعل سارت قواتٌ فرنجيةٌ فى سنة ١٩٠ هـ/

٨٠٦ م نحو الأندلس ، فعبرت الجبال وحاصرت برشلونة ، وثبت القائد العربى « سعدون الرعينى » مدافعاً عن ذلك الثغر فى رباطة جأش ، وانتظر أن يصله المدد فلم يصله شىءٌ ، لأن الحكم كان مشغولاً بعمّيه فى جنوب الأندلس . وأخيراً سقطت برشلونة فى يد الفرنجة ، وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى الثغر الإسبانى « لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica » ، أصبحت من ذلك الحين شوكة فى جنب المسلمين ، لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت كونتينة قطلونية التى ستتحد مع مملكة أرغون ، وتستطيع غزو الجانب الشرقى لمملكة الإسلام فى الأندلس فيما بعد .

ويذهب نَفَرٌ من المؤرخين بهذه المناسبة ، إلى أن الدولة العباسية حالفت الدولة الفرنجية ضد إمارة الأندلس . وهناك أخبارٌ غير موثوق فى صحتها عن مراسلات بين شارلمان وهارون الرشيد فى هذا المعنى ، ولدينا أخبار سفارات وهدايا متبادلة بينهما ، ولو أن مؤرّخينا المشارقة لا يذكرون مرّةً واحدة ، وصول سفارة فرنجية إلى بلاط الرشيد . وليس لدينا شىءٌ يثبت ما تزعمه الروايات النصرانية ، من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مفاتيح بيت المقدس .

ولكن مؤرخى شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه ، وبعضها يذكر هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان ، منها خَيْلٌ ومنها الساعة الدقّاقة المشهورة . وقد درس الموضوع دراسة جيدة د. عبد العزيز الدورى وخرج منها أن هذه السفارات لم تكن رسمية ، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة فى الغالب ، حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان ، وزعموا أنها من خليفة المسلمين لكى يحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية ، وهذا لا يسمح لنا بأن نقول إن الرشيد حالف ملكاً نصرانيًّا على أمير الأندلس المسلم . لأنه ليس لدينا عليه أدنى دليل . ثم هو يتعارض معارضة تامة مع ما نعرف من خلق الرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية ، وهو اتجاه إسلامى لا شكّ فيه .

التطور الاجتماعى فى الأندلس :

ومنذ أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهرة لا نعرفها فى الكثير من بلاد الإسلام فى العصور الوسطى ، وهى أن طوائف الشعب فى العاصمة وكبار المدن غير راضية

عن الحالة ، وغير مقتنعة بنصيبها الذى قدره لها أهل الحكم . ففى العراق والشام ومصر مثلاً ، نجد أن الناس ــ ما بين مياسيرَ وأوساط وفقراء ــ منصرفون عن السياسة وأهلها ، لا يفكرون فى القيام عليهم ، إلا إذا بلغ الإجحاف حدًّا يجاوز الاحتمال ، وفيما عدا ذلك فأهل الحكم فى سلطانهم ، وأهل المتاجر فى متاجرهم ، وأهل الزرع فى حقولهم . وهؤلاء جميعا ـ تُجَّاراً وزُرَّاعاً وصناعاً ــ يتقاسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان ، دون أن يفكروا فى التجمع لاتخاذ إجراءٍ عامٍّ ضد الحكومة المركزية ، وإن كانت قلوبهم مثقلة بالغضب على الحاكمين أما فى الأندلس فنجد الناس على خلاف ذلك ، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتاً طويلاً . وكانت العادة فى العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكام فى صبر ، على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتماله حتى يرفعه الله عن عباده . ولهذا السبب ندر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم ، ولكن أهل المدن فى الأندلس كانوا لا يكفّون عن الثورة على أهل الحكم إذا زاد ظلمهم وفى كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتحداه ، وفى كل هيئة أو جماعة حرفية ، نجد رؤساء يتحدثون وينتقدون ، ومن هنا كان التحدى للحكم مستمرًّا ، وكان نقد أعمال الحكام وتتبعها والتشهير بهم يتردّد فى كل مكان .

وعلى الرغم من ذكاء بنى أمية وإدراكهم السياسى ، نلاحظ أن فهمهم لهذه الناحية فى شعبهم كان بطيئاً وجزئيًّا على العموم ، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب الشرق وهى القهر والعنف ، فطال النزاع بينهم وبين رعاياهم ، وخسر الجانبان كثيراً ، وفى النهاية كانت خسارة الأندلس الإسلامى عظيمة .

وقد كان الشعب الأندلسى فى طريقه إلى التكوُّن فى ذلك الحين ، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت ، وكانت لا بد أن تلاقى صعوبات ، وتتغلب على عوائق . وقد مرت الشعوب الأوربية كلها فى مثل هذه الأدوار ، ولكن مؤرّخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبداً ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه .

وكان الشعب مُكَوَّناً من أقلية عربية ، أو تعد نفسها عربية ، متمثلة فى البيت الحاكم ، وعَدَدٍ من الأسر فى العاصمة والمدن والأرياف . وجماعات منتسبة إليها وتتمسك بأصولها العربية كثيرة وقوية ، لأنها ترى فى ذلك شارة شرف وامتياز .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب كانوا فى الحقيقة مولَّدين ، فكلّ أمهاتهم إسبانيات من جليقية ، أو من بلاد البشكونس أو صقلبياتٌ ، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربىٍّ من الأندلس ، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية ، أى أنها كانت فى الحقيقة مولّدة ، وهذا لا يقدح فى عروبة هذه البيوت ، لأن أفرادها كانوا يحسون أنهم عربٌ ، ويتصرفون على أنهم عربٌ خلصاء ، ويجيدون الفصحى ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية ، وهذا هو المهم ، لأن الفيصل فى هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذى يحدد موقفه ويملى عليه تصرفاته ، فما دام الرجل يحس أنه عربى ويجد ذلك شرفاً ويربط نفسه بنسب عربى ، ويفخر بأمجاد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربىٌّ ، وإن كانت أمه غير عربيةٍ.

جماعة موالى بنى أمية :

ويدخل فى هذه الطائفة جماعات الموالى ، فهؤلاء جميعاً كانوا يحسبون أنفسهم عرباً ، ويدعون أروماتٍ عربيةً يقتبسونها من أصول سادتهم .فهذا من لخم وذاك من جذام أو من أسد أو مضر ، وحتى الذين كانوا من أصول إسبانيةٍ منهم ، ادّعوا أصولاً عربيةً مع الزمن وهذا مهم جدًّا ، فما داموا يفخرون بأنهم عرب ، فهم عرب ، وإن كانت أمهاتهم إسبانيات .

وسواء صدقت هذه الأنساب أم لم تصدق ، فإنها كانت عاملاً أساسياً وفعالاً فى حياة أولئك الموالى ، فهم جميعاً يدينون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم .

وكان هؤلاء المولَّدون ، وهم أبناء الإسبان الذين أسلموا كذلك وأبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس ، وكانت أعدادُ من دخلَ الأندلسَ من عامّةِ العربِ كبيرةً ، وخاصةً من اليمنيين وأبناء القبائل المعدودة يمنيةً ، مثل « كلب وخولان ومذحج ومدلج وخثعم » ، وهؤلاء كانوا فى العادة يندرجون فى غمار الناس فى المدن والأرياف ، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويتزوجون إسبانياتٍ ويخرج أولادهم أندلسيين من أصولٍ عربيةٍ ، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم . فهم أندلسيون وحسب . كذلك نشأ أولاد العرب بالشام شاميين وفى مصر مصريين وفى خراسان خراسانيين وهكذا .

ويدخل ـ فى هـؤلاء الموالى ـ القضاعيون الذين هاجـروا إلى الأندلس ، وكانت أعدادهم غفيرةً ، وقضــاعة ليست فى الشام أو اليمن ، وإنما هى شعبٌ عـربىٌ قائمٌ بذاته ، كما يقول ابن حزم .

بقية تكوين شعب الأندلس :

وانضم إلى هـؤلاء مع الزمن البربـر الذين دخلـوا الأندلس فى جماعـاتٍ كبيرةٍ واستعربـوا واتخذوا أنساباً عـربيةً ليرتفع شأنهم بين الناس ، فهـؤلاء أيضاً نشأ أولادهم مولَّدين أندلسيين .

ومن هـذه الجماعات كلهـا نشأت جماعات الشعب الأنـدلسى العربى الـذى نعرفه ، وكان الإسبـانى النصرانى إذا أسلم اتخذ اسماً عربيّاً وسمى « بالأسلمى » أو « المسلمى » ، ثم ينشأ أولادهم أنـدلسيين مستعربين ، ثم يصبحون مــع الزمن أندلسيين عرباً ويندرجون فى غمار كتلة الشعب الأندلسى العربى الذى كان يكوِّن الغالبية العظمى من السكان .

وكان هناك المستعربون وهم الإسبـان الذين ظلوا نصارى على دينهم ولكنهم استعـربوا لســاناً وأسلـوب حياة ، وكـانوا غـالبية السكـان أول الأمر ثم أخـذت أعدادهم تتناقص مع الزمن .

هذه الأجناس كانت تتجاور وتتعايش وتتكامل ، فأما العرب ومن انضم إليهم من الموالى فقد احتفظوا لأنفسهم بمكانٍ اجتماعــىٍّ رفيعٍ واختصوا أنفسهم بمراكز الريــاسة والصدارة، فأبغضتهم الطوائف الأخـرى وأنكروا عليهم ما يدعـونه من امتيـازٍ ، وفى نفس الـوقت كان المولـدون المســتعربون يتقاربـون بـدافع اتحاد المصالح .

ولم يعطِّل اتحاد المولَّدين والمستعربين إلا رجالُ الـدين فى الناحيتين ، فقد كان القســاوســة يـؤلِّبـون النصــــــارى على المسلمين ، ويحضـونهم على التمسّك بنصرانيتهم ، فى حين كـان فقهاء المسلمين شـديدى العصبيــة لـدينهم ، يبذلـون نشـاطاً عظيماً فى دعوة الناس إلى الإسـلام وحثّهم على التمسّك بعقيدتهم .

وكانت غالبية الفقهاء فقراء ، فكانـوا يقيمون فى قرطبة فى حىّ شقندة جنوبىّ نهر الـوادى الكبير حيث يسكن العمال وصغـار التجـار والطلاب ، وكـانـوا لهذا

منبثين بين النــاس ، وكان لهم عليهم سلطــانٌ بحكم عملهم ، ومن نــاحية أخــرى كانوا قريبين من باب « السدة » حيث مكاتب الدولة وكان تردُّدهم عليها كثيراً .

وكانت هنــاك أقليةٌ من الفقهاء ممن حَصَّلُـوا علماً غزيراً ، ووصلوا إلى مــراكز الصدارة فى الدولة والمجتمع ، وهؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربيةِ صحيحة كانت أم زائفةً ، وكـانوا يدخلون فى زمــرة أهل الحكم والغنى والجاه . وكان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذى يحكمونه ، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعتــه وقدراته ، فلم يبالــوا به ولم يقدروه حَقّ قــدره ، وكان ذلك منهم خطأ جسيماً . وعندمــا شرع الحكم بن هشام يحكم ، أقبل على الحكم كأنــه خليفةٌ شاب من خلفاء بنى أمية فى أواخر أيامهم فى المشرق ،فمضى يلهو ويتمتع بأطايب العيش ، ومن حوله حاشيةٌ متكبرةٌ متعــاليةٌ ، وجندٌ خاصٌ قاسٍ عنيفٌ على الناس ، معظمه من الصقــالبة وهم مماليك البيت الأنــدلسى الحاكم ، فلم تمض من ولاية الحكم شهــورٌ ، حتى بدأ أهل بيتــه وكبار دولتــه يدبــرون عليه ، لأنهم رأوا شــاباً خليعاً مــاجناً مستخفًا ، وانضم إليهم نَفَــرٌ من الفقهاء . وفى ذاتِ مــرّةٍ كان الحكم عائداً من صيــدٍ له ، فتعرض لــه الجمهور وسبَّــه وأهانه ، فلما عــاد إلى القصر بدأ ينظر فيما آل إليه أمره ، ثم اكتشف مؤامرةً دَبَّــرها عليه أهل بيته ، فأوقع بأفرادها فى قسوة سنــة ١٨٩ هــ/ ٨٠٥ م . وقــد ضجَّ الناس من قسوتــه وقسوة رجــائه ، وبــدأ الخوف يسود بيت الحاكم والــرعية . فــاستكثر الحكم من الجنــد المرتزقــة الصقــالبة . وكــانت فى أفــراده قســــوةٌ وشــدةٌ ، وكانــــوا لا يحسنون الكــلام بــالعربيــة، فسماهم الناس « بــالخرس » ، وسخط ميــاسير قرطبــة وكبار أهلهــا وفقهــائها على الحكم سخطــاً شديــداً ، وتــوتّر الجوّ وبــدا بوضــوح أن « الحكم » يَتَعَرَّضُ لمحنة قاسية .

فتنة طليطلة ويوم الخندق :

ولم يقتصر خــوف النــاس من الحكم على قرطبــة ، بل امتــد إلى طليطلــة حيث كانت غالبية السكان مولّــدين ونصارى ، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيامَ كان بلــدهم عاصمة إسبانيا ، فكــان لهم زعماءٌ كثيرون يتمســكون بحقوقهم القديمــة ، وبدلاً من أن ينظــر الحكم فى هذه القضــايا فى هــدوء وتعقُّل ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظــروف التى تؤدّى بهم إلى القلق ، نجده يلجأ إلى العنف

والحيلة ، وينـزل بأهل طليطلة مذبحة كبيرة ، قضت على الثورة مؤقتاً ، ولكنها أساءت إلى سمعة البيت الحاكم ، وأوجدت هُوّةً سحيقة بين الحاكم والمحكومين ، وتسمى هذه المذبحة باسم « يوم الحفرة » لأن المقتولين فيها وضعوا فى حفرة كبيرة خلف قصر الحكم وأهيل عليهم التراب ، والجدير بالذكر أن الذى دَبَّر هذه المذبحة البشعة كان أندلسياً من أصلٍ إسبانىٍّ يسمى « عمروس » وكان يتولى حكم طليطلة .

هيج الربض الأول سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م والثانى سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧ م :

وعندما بلغت قرطبة أنباء يوم الحفرة ومذبحته ، أصاب أهلها هلع شديد ، تحوّل إلى غضب شديد ، فبدأت نذر الثورة تظهر فى العاصمة ، وكثر الاحتكاك بين جند الأمير وجمهور الناس . ويبدو أن الحكم لم يفطن إلى خطورة ما حدث ، فمضى فى طريقه مستخفًا بالناس ، غير عابئٍ بمشاعرهم ،فتحدوه تحدياً ظاهراً ، وشتموه على الطريق وصفّقوا عليه بالأيدى ، فقبض على طائفة من زعمائهم وصلبهم سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٦ م . وسكتت الحال إلى حين . فلما كان الثالث عشر فى رمضان ٢٠٢ هـ/ ٢٥ مارس ٨١٨م ، انفجرت مراجل الغضب الشعبى فى الناحية الجنوبية لقرطبة وهى شقندة على الضفة الجنوبية من النهر وكانت فيها أحياء العمال والصناع والطلاب وصغار الفقهاء ، وقد انضم كبار الفقهاء إلى الناس فى هذه الثورة فى صورة ظاهرة من أمثال « يحيى بن يحيى الليثى وطالوت ابن عبد الجبار وعيسى بن دينار » ، وفوجئَ الحكم فى ذلك اليوم بجموع الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه .

ويعجب مؤرّخونا بما أبدى الحكم من ثبات فى ذلك اليوم ، ولكننا نرى أن ذلك كان جمودَ قلب وبلادةَ إحساس فيه . فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين فى ملكه ، بل كانوا يطلبون العدالة . وقد تصرّف الحكم معهم تصرُّفاً خسيساً إذ أطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران ، وعَرَّضوا أولادهم وحريمهم للموت . فارتدّ الناس لإنقاذ أبنائهم فحصدهم الجند حصدا ، وانتهى اليوم بانتصار الحكم ، ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جدًّا على مصير الأندلس ، فإن الحكم

أصدر أمره بطرد أهل الربض الجنوبى من الأندلس وكانوا ألوفاً من أفضل الناس وأكثرهم شهامة ، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم فى كل ناحية وصلوا إليها بعد طردهم وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا فى أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس ، وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا « عدوة » الأندلسيين فى فاس ،وتوزعت جماعاتٌ منهم فى بلاد المغرب الأقصى الأخرى . واتجهت كتلةٌ منهم إلى الإسكندرية بالبحر فاحتلتها وطردت عاملها ، ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة فذهبوا إلى كريت وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م .

انتهت ثورة الربض بنصر الحكم ، ولكنها كانت درساً بليغاً له ولمن جاء بعده ، فقد رأى بعينيه قوة هذا الشعب الأندلسى واستعداده لإيقاف الحكام عند حدهم ، ومن هنا فسنرى أن الأمراء والخلفاء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لمشاعر الناس وأحرص على ولائهم .

ولم يسعد الحكم بحياته بعد أن قضى على هيج الربض ، فقد مرض وتطاولت به العلة وحلّ به الندم ، وجعل يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو ، وتوفى فى قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن إلا فى ٢٦ ذى الحجة ٢٠٦ هـ/ ٢٢ ديسمبر ٨٢٢م ، بعد أن تَقَرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط .

بداية الاستقرار :

عصر عبد الرحمن (الثانى) الأوسط : ٢٧ ذى الحجة ٢٠٦ ـ ٣ ربيع الآخر ٢٣٨هـ/٨٢٢ ـ ٨٥٢م .

الأمير محمد (الأول) : ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ ـ ٢٨ صفر ٢٧٣هـ/٨٥٢ ـ ٨٨٦ .

المنذر : صفر ٢٧٣ ـ منتصف صفر ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م .

عبد الله بن محمد : ٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م .

عبد الرحمن (الثالث) : الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١م .

عبد الرحمن الأوسط : كان عبد الرحمن بن الحكم مؤهلاً بطبعه لإزالة الآثار المحزنة التى خلفتها إمارة أبيه ، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب ، وكان ألوفاً حسن العشرة يحبه الناس ويجدون متعة فى الجلوس معه والحديث والتبسط معه فى منادمته ، وكان محبًّا للحياة متقرباً إلى الناس ، كما أنه لم يقل ذكاءً عن سَلَفَيه ، فقد كان يدرك كل شيء على حقيقته ، ولكنه كثيراً ما كان يتصنّع عدم المعرفَة ويُغضى عن أخطاء الآخرين ، فزاد ذلك فى معرفته بالناس وقربه إلى قلوبهم فأحبوه وسعدوا به وأمنوا إليه . ولم يكن فيه غدرٌ ولا قسوةٌ ، ولكن كان فيه حزمٌ وقدرةٌ على اتخاذ القرار المناسب ، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجرى وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل ، ويبدو أن ذلك كان راجعاً إلى ميل منه إلى الدعة وإيثار للراحة ما تيسر له ذلك . وقد تولى فى الحادية والثلاثين من عمره ، وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنتين وستين سنة ، وأمه جاريةٌ جليقيةٌ اسمها « حلاوة » .

ولم تكن الفتن الداخلية لِتهمه كثيراً ، فكان ينتظر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقلّ مجهود ، كما فعل مع فتنة المضريين واليمنيين التى استمرت سبعَ سنوات فى كورة تدمير ، وهى التى سميت فيما بعد مرسية فى شرق الأندلس ، وكانت تدمير من الكور المجندة ، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن ، ولكن المضريين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمنية - ومن هنا كانت الفتنة — وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين ، فلما تفاقم أمرهم ، أرسل إليهم قائده « يحيى بن خلف » فى جيش كبير أوقع بهم قرب « لورقة » ، فأخذت فتنتهم فى الخمود وانتهت سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م . وكذلك كان موقفه من أهل ألبيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف والى النصارى هناك ، فقد انتظر أن يهدأوا ، فلما لم يسمعوا لنصحه سلط عليهم الجند .

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية ، إذ أن نشاط العدوان على أراضى المسلمين تزايد على إثر ولاية « لويس التقىّ » عرش الفرنجة ، وهو من كبار ملوك فرنسا ، وكانت له أطماعٌ واسعةٌ فى إقليم قطلونية ، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكونس ضد الفرنجة ، فوقفوا إلى جانبه ، واستطاع أن يردّ غزوةً فرنجيةً على ذلك الإقليم فى سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م .

كـذلك نشط ألفونسـو الثـانى ملك جليقية وأشتريس فى الغـارة على أراضى المسلمين ، واستولى حينـا على مدينـة سالم قاعـدة الثغر الأوسـط ، فـرده عنها القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بـن مغيث » ، وألزم ألفونسو بدفع الجزية ، بعد معركة حامية فى سهل يسمّى « فج جرنيق » فى إقليم ألبة ، وقد قتل فى هذه المعركة عددٌ كبيرٌ من جند العـدو ، ونهبت ذخائره الكثيرة وعم التخريب . وكـانت هذه آخر غزوة قـام بها هذا القـائد المظفر الـذى يعـد من أكبر القـادة العسكريين الـذين ظهروا فى الأندلس ، فقد استمر فى ميادين القتال مدافعا عن الأندلس فوق الثلاثين سنة ، أبـدى خلالها من القدرة العسكريـة والإخلاص للأندلس ، مـا وضع تقليدا جليلا سيتبعه قُوّادٌ أندلسيون كثيرون من بعده ، وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموى ، وهو « أميـة بن معاوية بن هشام » ، وقـد استطاع أمية أن يـواجه ثـورات كثيرة فى نواح شَتَّى من نـواحى الأندلس ، من بينهـا حملة لـه على اليمنية فى إقليم تـدمير ، وكان رئيس من رؤسـائهم قد عاد إلى التمـرد ، ودعا لبنى العباس ، وأخيرا تمكّن أميـة بن معاوية بن هشـام من الإيقاع به فى وقعة حـاسمة بالقرب من لورقة بعد ذلك بسنتين .

ولكنّ هِمّة عبد الـرحمن تجلّت فى ذِيادِهِ عن حدود بلاده ومـوالاة الغزوات فى البة والقلاع وأراضـى البشكونس وإقليم قطلونية ، وكان هو يقود بنفسه الغزوات فى معظم الأحيان . وفى عـام ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م أنزل هـزيمة قاصمة بقـوات إمارة نبرة ، وفى نفس السنة أيضا تـوفى ألفونسو الثانى الملقب « بـالكاستو » أى النقى ، ملك جليقية وأشتريس بعـد ٥١ سـنة من الحكـم ومناجـزة المسلمين ، وخلفه ابنه « راميرو الأول » أو « ردمير » .

غزوات النورمان :

وفى أيام عبـد الرحمن الأوسط ظهر خطر « الأردمـانيين » وهى صيغة الجمع من لفظ أردمانىّ أى نـورمانىّ ، وهـم أهل الشمال والمراد بهم سكان اسكنـديناوة ودانيماركة ، وكانوا يمرون إذ ذاك فى عصر بطـولتهم ، وكانوا يغيرون على شواطئ أوربـا الغربيـة بأسـاطيل من سفن صغـار ذات أشرعـة سوداء ، وكـانت تـدخل مصبات الأنهار وترسـو داخـل البلاد وتُغِـير على المدن وتنهب ما تعثـر عليه ،

وتوقد النيران لتثير الخوف ، ثم تهرب بسرعة وقد اشتهروا باسم « الفايكنجز Vikings » ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس .

وفى أيام شارلمان احتل النورمان الساحل الشمالى الغربى لفرنسا ، وكان يسمّى باسم « فريزيا » ، وأقاموا فيه ، وأنشأوا فيما بعد دولة فيه وسمى الإقليم باسمهم « نورمانديا » أو « نورماندى » ، وأبناء هؤلاء النورمان ، هم الذين فتحوا انجلترا بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ م .

بدأت سفن النورمان تجوس بحار الأندلس الغربية ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وكان أول ظهورها قرب شاطئ الأشبونة فى ذلك العام . فكتب بأمرهم واليها « وهب الله بن حزم » إلى الأمير عبد الرحمن يقول: إن أربعًا من سفنهم الكبيرة ذات الأشرعة السود ظهرت فى البحر ، ومع كلّ سفينة منها مركبٌ صغيرٌ ، فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتحفظ والاستعداد واليقظة . وسارت سفنهم إلى الجنوب ، فأغارت على قادش وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شذونة ونهبت كل ما فى طريقها ، ثم عاد النورمان إلى سفنهم ، وساروا بحذاء الساحل حتى مصبّ الوادى الكبير فاستولوا على جزيرة « قبطيل » فى مدخله ، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت إشبيلية ونهبها النورمان ، وأحرقوا الكثير من ديارها ، بل أحرقوا المسجد الجامع . وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله ، فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وواجه النورمان فى شجاعة وحزم وتولى حربهم من قواد الإمارة « عبد الله بن كليب وعبد الرحمن بن رستم » فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليطلة شمال إشبيلية سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارًا ، ولكنها كانت ترد على أعقابها بخسائر فادحة فى كل مرّةٍ . وكانت أطول غاراتهم فى الأندلس ، هى غارة إشبيلية ٤٢ يوما ، ثم أغاروا على لبلة ثم على الأشبونة وعادوا فيما بقى من مراكبهم .

نشأة الأسطول :

كان من نتيجة الغزو النورمانى أن تنبه عبد الرحمن إلى أهمية الأسطول فبدأ فى إنشائه إنشاءً محكماً واتخذ له دور الصناعة والقواعد فى الأشبونة وإشبيلية

وولبة والمرية وبلنسية ومالقة ، ولم تنقض سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان أحدهما فى المحيط الأطلسى ومركزه الأشبونة ، والثانى فى البحر المتوسط وقاعدته مالقة ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادى يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ أهمية البحرية الأندلسية كعماد لقوة إمارة قرطبة .

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول ، فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وضمها إلى الأندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث « ميورقة ومنورقة ويابسة » من ولايات الإمارة الأندلسية . وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م .

بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية فى الأندلس :

ظهرت فى أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصُّب نصرانية ، أثارها نفر من الرهبان ، إذ كانوا يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لن تلبث حتى تزول ، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوماً بعد يوم ، وإمارته تزدهر، ومجتمعه يزداد رخاءً وثباتاً، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم ، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها بينما ينفقون جهداً كبيراً فى دراسة العربية ومطالعة آدابها ، بل برع الكثيرون منهم فى كتابة العربية ، وقد شكا ذلك قسٌّ متعصبٌ يسمى «البارو القرطبى» فى رسالة مشهورة، فلما وجد أولئك الأحبار المتعصبون أبناء دينهم لا يأبهون لأمرهم ، بل يزدادون عنهم انصرافاً ويدخل الكثيرون منهم فى خدمة الإمارة القرطبية ويسلمون ويؤاخون المسلمين ويصلون إلى الرتب العالية فى المجتمع والإدارة ، انفجرت مراجل حقدهم ، فإذا بهم يجاهرون بالعدوان للإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس ،وكان رجال الشرطة يقتادونهم إلى القضاء ، فيحاول هؤلاء استتابتهم دون جدوى ، فيحكمون عليهم بالإعدام ، وكان هذا هو غرضهم : أن يموتوا فى صورة الشهداء حتى يستثيروا عواطف الناس . وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م ، وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين فى سجل الكنيسة ، من أمثال « يولوج والبارو وفلورا » وكلهم من

قرطبة ، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصبر على هذه الأزمة ، وطلب إلى زعماء النصارى أن يعقدوا مجمعاً دينياً فى قرطبة لينظر فى أمر هذه المحنة بالعقل والحكمة . وبالفعل انعقد مؤتمر برئاسة « ريكا فريدو » مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه « غومس بن أنطنيان » أحد كُتّابه . وقد أصدر المجمع قراراً يستنكر فيه هذه الحركة الحمقاء ، وشيئاً فشيئاً هدأت هذه الفتنة وعاد الوئام بين النصارى والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظرته إلى الأمور . وقد أسلم غومس ابن أنطنيان بعد ذلك وحسن إسلامه ، وأقبل على الاعتكاف فى المسجد الجامع فى قرطبة حيث لُقِّب بحمامة المسجد .

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمراً ومتزايداً على الحدود الشمالية للإمارة فيما يلى طليطلة شمالاً . ومما يدل على أن قوة الإمارات النصرانية كانت تتزايد أن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة ، استنجدوا بنصارى الشمال فأنجدوهم . وكان معظم استنجادهم بملوك ليون . ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويُرسل قُوَّادَهُ كلَّ صيفٍ . وكانت الغارات تتجه أحياناً إلى نبرة وعاصمتها بنبلونة ، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم ألبة والقلاع وأحياناً إلى بلاد مملكة ليون .

وفاة عبد الرحمن الأوسط :

تُوُفى عبد الرحمن الأوسط فى ٣ ربيع الآخر ٢٣٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة ، تعتبر من أزهى فترات التاريخ الأندلسى بسبب ما ساد قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت به البلاد من رخاء ورفاهية ، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أذكياء رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام .

ويرجع جانب كبير من رخاء الأندلس فى أيام عبد الرحمن إلى الفائدة الكبرى التى عادت على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموازية التى أشرنا إليها وهم الموالى ، وقد ظهر فى أيام عبد الرحمن عدد كبير من أبناء هذه البيوت أمثال القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » الذى أشرنا إليه والقائد « عيسى بن شهيد » ، « ويوسف بن يوسف بن بخت » ، و « حسان بن أبى عبدة »

« ومحمد بن عبد السلام بن بسيل » ، « وعبد الرحمن بن رستم » ، وكانوا من كبار المخلصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء ، فكان له نحو عشرة وزراء فى وقت واحد ، وقرر لهم أن يجتمعوا فى بيت من بيوت قصر السدة عرف ببيت الوزارة ليتناقشوا فى المهم من شئون الدولة ويرفعوا ما يرون من أمور الدولة إلى الأمير من كبار المسائل وكان الذى يعرض على الأمير هو الحاجب أى كبير الوزراء ، وأشهر من نعرف من رؤساء الوزراء هؤلاء عبد الرحمن بن رستم .

الوزارة فى الأندلس :

ونظام الوزارة فى الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى فى التنظيم السياسى الأندلسى . لأن البيت الأموى كان غنيّاً بالشخصيات ذات الكفاية التى قدمتها باستمرار البيوت الموازية التى ذكرناها .

ومنذ أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموى إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التى نعرفها عند العباسيين فى المشرق ، وإنما اعتمد الأمراء الأندلسيون على أفراد من هذه البيوت فى تسيير شئون الدولة دون اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة ، حتى قيادة الجيوش تولاّها الأمراء وأنابوا عنهم فى أحيان كثيرة رجالاً حملوا لقب القائد ، ولكن لفترة الحملات فقط ، ولكن ظهور شخصياتٍ ممتازةٍ حقّاً من أمثال عبد الكريم بن عبدالواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضرورى أن يختص أولئك الرجال بأعمال محددة وألقاب معينة ، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائداً أيضاً ، ثم نجد لقباً آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب ، وترتبط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التى كانت للوزير فى المشرق ، وبالفعل تصبح الحجابة فى الأندلس هى الوزارة فى المشرق ، ويصبح الحاجب ثانى شخصية فى الدولة بعد الأمير ولكن الحاجب فى الأندلس كان رئيس وزراء فعلاً ، يرأس نحو عشرة وزراء ، ويعرض أعمالهم على الأمير ..

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد هذه البيوت ، فهذا

للمال ويسمى « الخازن » وذلك للأمن ويسمى « صاحب الشرطة » ، وذلك للمنشآت ويسمى « صاحب الأشغال » ، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفة فى أول الأمر ، ثم نجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاص معيَّن ،فنجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى « بالوزير القائد » ويوسف بن يوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى « بالوزير الخازن » ، ومحمد بن السليم يتولى المواريث ويسمى « بالوزير صاحب المواريث » وهكذا .. ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير فى الأندلس له معنى الوزير فى أيامنا واختصاصاته ومسئولياته ، ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء ، فهو الوزير الكبير ، وهو الذى يلقى الأمير كل يوم ويناقشه فى شتَّى المسائل ، ويجتمع كل يوم مع أصحابه الوزراء فى دار خاصة عرفت باسم « بيت الوزارة » ، وفى هذا البيت يجلس الوزراء على ترتيب معين فى هيئة دائرة ، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها ، ووسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد ، ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتابه (أى سكرتاريُّوه) ، والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه ، فما يوافق عليه يدخل ديوان الأمير لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية الملائمة ثم يقدمها إلى الأمير ، الوزير صاحب العرض لتختم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة وتصدر على النحو الذى تصدر به المراسيم اليوم وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

وقد تعددت وظائف الوزارة ، فنسمع مثلاً « بوزير الخيل » ، وهو الوزير المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيوش الدولة والعناية بها وبما تحتاج إليه من سرج ولجم ومراع وما إلى ذلك . وهناك « وزير الأعنة » ، ومهمته تقديم الخيل اللازمة لكل حملة مع فرسانها ، وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم ، وهناك وزراء بلا تخصُّصٍ معيَّنٍ ، وهم أشبه بوزراء الدولة ومكاتبهم فى القصر ، ليكلف الأمير منهم من يشاء بما يشاء .

وهؤلاء الوزراء جميعهم لهم الحقُّ فى لقاء الأمير والحديث معه ، وهم حاشية الأمير ومنهم أيضا ندماؤه . وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم ، فإذا مات الوزير أو تعطل عن العمل ، حل محلَّه ابنهُ ، وفى أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله للوظيفة فيعيّن له الأمير من يعاونه فى العمل حتى يتقنه ، وذلك حرصاً من الأمراء

على أن تكون الأمـور دائما فى أيدى هذه البيـوت المخلصة التى تشبـه أسر النبلاء التى كانت تحيط بملوك الغرب .

وكان أهل هـذه البيوت أوّلاً مقصوراً على موالى بنى أمية وأولادهـم وما تفرع عنهم ، ثم دخلت عليهـم أسر قـربها الأمـــراء ، وكـــان منهم العـرب والمولّـــدون والمستعـربون أحيـانـاً ، وكـان الكثيرون منهم من البربر ، وجـديـر بـالذكـر أن الأندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يَقِلُّون كفايةً عن الأندلسيين من الأصول العربية أو أهل البلاد .

وكان الأمـراء يُقيلون الوزراء ، وعنـدما يقال الـوزير ترفع وسـادته من بيت الـوزارة ، وليس من الضرورى أن يحل محله وزيـر آخر ، وقـد ينقل الوزيـر من وزارة إلى أخـرى ، وقـد يعطى لقبُ الـوزيـر لموظفٍ كبيرٍ مثل حـاجب المدينـة أى محافظ العاصمة فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضـع له وسادة فى بيت الوزارة والوسادة هى المقعد وقد يراد بها ما يسمى بالفوتى .

وفى بعض الأحيان لا نجد حاجباً ، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض ، وهذا الأخير كان يعتبر من خاصة الأمير ، أى من أهل القصر ، أى من الحاشية .

الخـــــطط :

وكانت الـوظيفة الكبيرة تسمى فى الأندلـس « بالخطة » مثل خطـة الوزارة أو خطة الخيل ، أو خطـة الأعنة ، أو خطة الكتـابة وهـى تعادل ديـوان دار الإنشاء فى المشرق ، وخطة المظـالم ويراد بها النظر فى الشكـاوى المقدمـة ضد رجال الـدولة وتطبيق الأحكام على طبقـات أهل المملكة ، وخطـة القيادة ، وخطة الأشغـال وخطة البحر .

خطة القضـــاء :

ومن الخطط الكبرى فى الأنـدلس كـانت خطـة القضــاء ، ويـراد بـه « قضــاء الجماعة » أو قضاء قرطبة ، وصاحبها كان يشبه وزير العدل ، فهو لا يتولى قضاء قرطبة فقط بل يختار قضاة المدن الأخرى والأقاليم ، وهو ينظر فى شئون القضاة ويراقب أعمالهم وله أن يعزل منهم من يريد ويقترح تولية القضاء من يريد ، وكان قضاة العواصم الكبرى يعتبرون نواباً له يرجعــون إليـــه فى أحكـــامهم . وكان

« قاضى الجماعة » ثالث شخصية فى الأندلس بعد الأمير والحاجب ، ولهذا كان الأمراء يختارون قضاة الجماعة بعناية شديدة وتدقيق بالغ ، وكان أدنى خطأ ظاهر من القاضى يؤدى إلى عزله ، وكان لقاضى الجماعة سلطة على الأمير نفسه فى مسائل العدالة ، وكان من واجباته أن يحول دون ارتكاب رجال القصر وكبار الموظفين للمخالفات ، ولهذا كان القاضى رجلاً مرهوب الجانب ، وكان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفاً من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقوياء أو تحرُّجاً من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم .

الفقهاء المشاورون :

وكان هناك إلى جانب الأمير دائماً عدد كبير من الشيوخ ذوى العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم يسمون بالفقهاء المشاورين ، أى الذين يستشيرهم الأمير فى كبار شئونه ، وخاصة الدينية منها . وقد ابتدع فقهاء المالكية هذه الخطة لأنهم فى محاولتهم اتّباع آثار مالك بن أنس كانوا يرفضون تولى القضاء أو الوظائف العامة مكتفين بالانصراف إلى العلم والتدريس وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل . وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم فى أعين الناس . ولم يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولى الوظائف تعبيراً عن عدم الرضا عن البيت الأموى لأنهم فى الحقيقة كانوا يؤيدونه كما رأينا ، ولكنهم كانوا يسيرون فى هذا فى آثار مالك الذى لم يتول وظيفة ما وعاش للعلم والتعليم ، وقد أراد الأمراء أن يفيدوا من مكانة أولئك الفقهاء الكبار فى نفوس الناس فقربوهم إليهم ، واختاروا من بينهم عدداً من أوسعهم علماً وجعلوهم فقهاء مشاورين وكانوا يعتبرونهم أهل شورى لهم ، وكانت مراكزهم تعدل مراكز الوزراء .

يحيى بن يحيى الليثى :

وأول من نسمع عنه فى هذه الخطة يحيى بن يحيى الليثى ، وهو فقيه جليل درس دراسة واسعة فى المشرق ، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة جليلة فى الدولة ورفض أن يتولى القضاء . وفى أيام الحكم الربضى نجده يشترك فى ثورة أهل قرطبة على الأمير ويهرب بعد القضاء على هذه الثورة ثم يعفو عنه الأمير

ويعود إلى مكانته . وفى أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة ، ويصبح بالفعل وزيراً للعدل يولى القضاة ويعزلهم ، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره ، فظهرت هذه الجماعة فى كامل صورتها . ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معا ، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى فقد يستدعيهم وقد يرسل القضايا إلى بيوتهم ليبدوا آراءهم فيها ، وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان الأمير لا يقرر شيئاً فى شئون القضاة إلا برأيه ، وقد استبد بأمر القضاة حتى ثقل عليهم فلما مات قال ابن عذارى : « فى هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثى واستراح القضاة مِن همّهِ » .

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء فى تاريخ الأندلس كله هم : عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار ، وقد قيل فيهم إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيهها ويحيى بن يحيى عاقلها .

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ القضاة أو « شيخ المسلمين » أو « رئيس البلد » وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التى كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون فى ذلك العصر ، ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، أنهم كانوا فقهاء ولم يكونوا أصوليين ، أى كانوا يعرضون فقه مالك فقط ولكن لا علم لهم بالحديث أو بأصول الفقه ، وإنما هم كانوا فى الأغلب فروعيين عمليين أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية ، وحتى فى هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس . وسيظل مستوى العلم بالفقه فى الأندلس على هذا المستوى الرفيع حتى عصر الأمير « محمد بن عبد الرحمن » عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصوليان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج استخراج الأحكام من الأصول وهما : « بقىّ بن مخلد ومحمد بن وضّاح » ، وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهروا فى المشرق فى القرن الثالث الهجرى ويمثلهم هناك « يحيى بن معين وأحمد بن حنبل » ، وعلى أيدى فقهاء من مستواهم وهذا الجيل سيدخل الفقه فى الشرق والغرب على السواء فى عصر جديد من عصوره وستبدأ سلسلة أجلاء الفقهاء المتقين المعروفين بالحُفّاظ .

الشخصيات الحضارية ـ زرياب :

يعدّ زرياب من الشخصيات التى نستطيع أن نسميها شخصيات حضارية . ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأفذاذ الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية أو فنية يكون لها أثر فى تطوير الحضارة ومستواها فى عصورهم وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور ، ثم إنه كان عالماً وشاعراً ، وذا ذوق فى كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن ومأكل وملبس . وأول الشخصيات الحضارية التى سنتحدث عنها هنا ، هى شخصية على بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب .

وكان زرياب فى أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلى موسيقىٍّ هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد ، فشعر إسحاق الموصلى بالغيرة من تلميذه النابه فهدده بالقضاء عليه ، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان ، وهناك اكتسب لقب زرياب ، وهو طائرٌ أسود ، وهناك ظهر أمره كموسيقىٍّ ممتازٍ ، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس ، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط ، فوفد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالاً حفيّاً ورتب له راتباً كبيراً وهيَّأ له الوسائل ليظهر فنه .

من أول الأمر أظهر على بن نافع أنه موسيقىٌّ فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والشابات ، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مداه ، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدريبات عسيرة لكى يخرج الصوت من القفص الصدرى كله ، لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين . والغرض من ذلك أن تستخدم إمكانيات المغنى الصوتية استخدامًا كاملاً ، فتتسع قدرته للتعبير الغنائى عن المعانى والأحاسيس .

وقد ابتكر زرياب طريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أننا لم نعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسية فى ذلك العصر ، فأضاف إليه وتراً خامساً وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها ، واخترع الفرق الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن القطعة الموسيقية تلحيناً كاملاً يجمع به الإنشاد الجماعى

والفـردى والعزف . وهـو أول من أنشأ فى الأندلس المسرح الصغير الـذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة .

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غنـاءً عربيّاً بسيطاً هو الحداء ، فأدخل زرياب مـوسيقى عالية عرفت بـاسم « الزريابيـة » ، وأصبح الحداء أو الحدو هو الغنـاء الشعبى فى حين أن الموسيقى الزريـابيـة أصبحت الموسيقى الكلاسيكيـة الراقية فى الأندلس .

وكان زريـاب يعمل بنظام تـام وهيئة جليلـة ، فكان يخصِّص صـدر النهار للدرس والتـدريس ، وبعـد الظهر للقراءة والاطـلاع وفى الليل يتـوجه إلى القصر ، وكان سراة الناس يرسلون إليه بجـواريهم ليعلمهن ، وقد أخرج جيلاً من المغنيات الممتازات ، اشتهر أمرهن فى العـالم الإسلامى كله مثل « قلم وعلم وشفاء » . وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمـر ذات مرة بأن يدفعوا له ٣٠,٠٠٠ دينار مكافأة لـه على لحن ، فرفض خزنة الأمير إعطـاءه المبلغ على اعتبار أن ذلك تضييع لأموال المسلمين ، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع ! .

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقى بل إنـه كان رغم سواد لونـه يتولى كبار الوظائف والمسؤوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره ، وهو الذى علم أهل الأنـدلس كيف يرتـدون الصـوف شتاء والقطن أو الكتـان صيفاً ، وعـدل فى هيئات الثياب فقصرهـا وضـيق الأكمام وأعطاها هيئـة جميلة ، وعلم الأندلسيين كيف يقصون شعـورهم . وهو الذى علم الأنـدلسيين تقصير الشعر فى الجانبين ، وإرساله وراء الأذن . وابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه مثل تصفيفة الجبهة وهى إنـزال الشعر على الجبين مع قصـه فى موازاة الحواجب ، وتفنّن فى العطـور ، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والأدهان ومال إلى عطور الزهور .

كـذلك أدخل زرياب تعـديلاً على المطبخ الأنـدلسى ، فأدخل كثيراً من الخضر كالهندباء والكمأة ، وأضاف أصنافاً كثيرة عرفت باسمه ، وعلّم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بـدل الأصابع ، وخـرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد والثرائد ، أى الألوان التى عرفها أهل المشرق .

وعلى الجملـة كـان زريـاب شخصية حضـاريـة ممتـازة ، فقـد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسى كله ، وسـاعد فى نقله من البداوة الى الحضـارة ومن

الفوضى الى التنظيم المتحضر ، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سمتٍ ووقارٍ ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحامىَ الشراب ولا يتعاطاه .

وفى تاريخ الموسيقى العربية يحتل ذلك « الطائر الأسود » مكاناً جليلاً ، فقد كان من القلائل الذين أخلصوا للفن الموسيقى وجددوا فيه وحافظوا على السمة المحترمة للفنان ، ولم يسمحوا لأنفسهم أبداً بأن يهبطوا إلى مستوى عامة المُسَلِّين والندماء ، فكان قليل التردّد على القصر ، لا يحضر إلا لحفل موسيقى ، وكان لا يذهب بموسيقاه إلى بيوت الأغنياء ، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنه ، وقد جمع مالاً عريضاً من تدريس الموسيقى وتخريج الشبان والشابات ، وكان الكثيرون ممن تخرجوا على يديه أعلاماً للفن لهم فى المجتمع مكانة كبيرة . وقد توفى على بن نافع فى ربيع الأول ٢٣٨ هـ / أغسطس ٨٥٢م قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بأسابيع قلائل .

ولم يكن على بن نافع (زرياب) الشخصية الطريفة الوحيدة التى ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد ظهرت فى أيامه جماعة من أجلِّ الشخصيات فى تاريخ الإسلام العام ، ويعد ظهور هذه الشخصيات الفريدة ، ثمرة من ثمار غراس بنى أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفى عبد الرحمن الأوسط .

عباس بن فرناس :

من هذه الشخصيات عباس بن فرناس ، وهو فى الحقيقة من رجال عصر الحكم الربضى ويكنى أبا القاسم ، وكان فيلسوفاً ورياضيّاً وشاعراً ، وهو من أهل « تاكرنا » فى جنوب الأندلس من أصلٍ بربرىٍّ ، وكان ذا براعةٍ فى الكيمياء وإليه تُعْزىَ طريقة خاصة فى صناعة الزجاج من طحين الأحجار ، وقد صنع آلة تعرف « بالميقاته » لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، وأكبر مخترعاته محاولته الطيران ، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذى جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه ، وقد قفز بذلك الرداء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية « منت أجود » وهو تعريب لاسم إسبانى Monte Agudo وطار بضعة أمتار ثم اختل توازنه وسقط ، ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يفطن لأهمية الذيل فى طيران الطائر ، وكان من آثار

سقوطه أن انكسرت إحدى فقرات ظهره السفلى فلازم الفراش شهوراً متطاولة وسخر منه أهل عصره بشعر كثير .

وقد أقلع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك ، ولكن محاولته تعتبر صفحة جميلة فى تاريخ الحضارة العربية ، فهى أول محاولة عملية لإنسان فى الطيران ، وقد حكى اليونان أن رجلاً منهم يسمى « إيكاروس » حاول الطيران ولم يوفق ، ومحاولة عباس بن فرناس هى الثانية من نوعها فى تاريخ البشر قبل العصور الحديثة .

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل بلنسية زمناً طويلاً وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحولت محاولته إلى أسطورة ، بل إن شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزاً على الفن والابتكار فى نواحى بلنسية وباسم التل الذى حاول الطيران منه ، يصدر أدباء بلنسية مجلة للشعر تسمى مونت أجودو Monte Agudo ولكنه لم يقلع عن الاشتغال بالكيمياء ، وهى فرع غير علمى من الكيمياء ، يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات طويلة . وقد اخترع عباس شيئاً شبيهاً بقلم الحبر وأراد أن يوفر على الكتاب مئونة حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا .

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقيًا صانع ألحان مجيداً للضرب بالعود ، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريبة فى قلوب الفقهاء والعامة فاتهم بالزندقة ولكن أحداً لم يأخذ عليه شيئاً ، فعاش حتى توفى فى سن عالية فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .

يحيى بن حكم الجيانى (الغزال) :

ومن طرائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن ، الشاعر الفيلسوف يحيى الغزال الجيانى ، وهو عربى من بكر بن وائل ، ولد فى جيان وقد سمى بالغزال لجمال هيئته وأناقته ، وكان شخصية بوهيمية يخلط الجد بالهزل ويأخذ الدنيا ساخراً لا يكاد يحفل لشىء ، وكان شاعراً مبدعاً وعقلاً جريئاً ، لا يكف عن مهاجمة الفقهاء والتندر بنفاقهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع غناهم وحرصهم على المال والحياة ، وقد تعقبوه فى إصرار لكى يجدوا وسيلة

لاتهامه بالزندقة والقضاء عليه ، ولكنه كان أمهر منهم ، فهرب إلى المشرق وغاب عنهم زمناً ، ولقى أبا نواس وأنشده شعره فأعجب بـه أبو نواس ، وفى هذه الرحلة قال كلاماً كثيراً كان من الممكن أن يؤذيه ولكن أحداً لم يتلبس عليه بشىء ثابت ، فلما عاد إلى الأندلس لقى قبولاً من عبد الرحمن الأوسط وأصبح من ندمائه وأصحابه ، وقد أعجب عبد الرحمن بأدبه وظرفه وهيأته فجعله سفيراً له لدى الملوك ، فأرسله فى سفارة إلى الامبراطور « تيوفيلوس » امبراطور بيزنطة ، فذهب فى رفقته صديق له يسمى « يحيى صاحب المنقلة » وكان رياضياً ، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيزنطى ، وأعجبت به سيدات القصر رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره ، وأنشد فى بعضهن أشعاراً قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية فلقيت إعجاب أهل القصر . وقد قضى هذا السفير فى سفارته ثلاث سنوات عاد بعدها محملاً بالهدايا والذكريات . وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الامبراطور .

وقد كان نجاح الغزال فى هذه السفارة حافزاً لعبد الرحمن على إرساله إلى ملك النورمان فى الدانمارك لكى يتباحث معه فى أمر أولئك الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس ، فذهب مع صاحبه يحيى بالبحر أيضاً . وكانت رحلة شاقة اضطرته الأمواج خلالها إلى الرُّسُوِّ فى إيرلندة ثم فى انجلترا ، وأخيراً دخل مضايق بحر البلطيق ، ووصل إلى بلاط ملك النورمان بعد أن كابد أهوالاً أحسن تصويرها فى شعره . وفى بلاط الملك أبدع الغزال أيماً إبداع واستظرفه الملك ، وكان يحب أن يستقدمه ويستمع إليه فى حديثه وفكاهاته بواسطة مترجم ، ولكن إعجاب الملكة به كان أعظم وكان اسمها « تود » ، وقال فيها شعراً كثيراً ، وطال مكوث الغزال فى بلاط النورمان لأن الناس أحبوه واستمسكوا به ولكنه كان لا بد أن يعود ، فعاد إلى قرطبة ليقص على الناس قصصاً طريفاً وليحدثهم بما كان بينه وبين الملكة تود ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد الخالص ، وكان هذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذىً شديدٌ على أيدى الفقهاء .

وقد عمر يحيى الغزال بعد ذلك عشرين سنة أخرى فمات وقد تجاوز الثمانين سنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م .

التحول الحضارى فى الأنـــدلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبـد الرحمن بن الحكم انتقل الأنـدلس من بساطتـه الأولى إلى ترف الحضارة ، فـأنشأ الناس القصـور الجميلة وأثثـوها بـالأثاث الفـاخر والـرياش المستجلبـة من الشرق ، ووفـد النـاس على الأنـدلس بطـرائف الجواهـر والآنيـة والرياش ، واستجلب الناس الجوارى المعلمات مـن المشرق ، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف ، وأخذت قرطبـة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق ، ومـن أبرز ما ابتـدعه النـاس إذ ذاك « المُنَى » بضم الميم وهى جمع منية ، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حـديقة ، أى ما نسميه نحن الآن بالفيلاّ ، وكان الرومان يسمونه بهذا الاسم وعنهم أخذناه . وقد انتشرت المنى شمال قرطبة وغربها ، وسكنها سراة الناس فى حى خاص يشبـه الأحياء الأرستقراطية فى عصرنا هذا ، وكان بعض الأغنياء يتوسعـون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضاً ويسمى الروض « بالحَوْر » وقد امتدت الأحوار إلى الشمال والغرب امتداداً كبيراً .

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى وقام على خدمتهم خدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى ، وحرص أولئك الموسرون على أن تكون لكل منهم ستارته ، تغنى فيها مغنيـات قادرات ، ولكن ذلك لا ينبغى أن ينسينا أن هذه كانت حيـاة الأقلية ، أما الأكثرية فى الأندلس فكانـوا يعيشون فى رخاء نسبى لأن البلد كـان غنياً وكان النـاس مقبلين على العمل لأن أعداد الناس كـانت قليلة ، وكانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم ، وكان مخصصاً بـالنظر فى شكاوى الناس مـن أعمال رجال الدولة وتصرفـاتهم ، وكان يتولاّه دائماً رجل من كبار أهل الـدولة ، له السلطة الكافية لمحـاسبة كبار الحكام . ومن الطريف أن يحيى الغـزال كان ممن طلبهم صاحب المظالم وكـانت تهمته أنه فرَّق فى الناس القمـح المخزون فى أهراء الدولـة فى الأشبونة ، وكان قـد عُيّن عاملاً عليها ، وكان المفروض أن هـذا القمح مخصَّص للجنود ، ولكن « الحكم » وجد أن النـاس أولى به ، إذ نـزلت بهم مجاعة ، وقـد عُـزل يحيى الغزال من وظيفتـه لهذا السبب وانصرف إلى حياة الشعر واللهو فى قرطبة بعد ذلك .

زيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت والمباني ، وأهم منشآته زيادة المسجد الجامع ، فأضاف إليه سبع بلاطات[1] من ناحية الجنوب ، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجزء الجديد .

وقد لاحظ المعماري الذي قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسباً لاتساعه ، ففكر في طريقة يرفع بها هذا السقف ، وهداه فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواساً أخرى ، فكان من نتيجة ذلك تلك الأقواس المزدوجة التي تعدّ من بدائع العمارة الإسلامية . وقد زاد المعماري في جمال هذه الأقواس بأن بناها مدماك من الآجر وآخر من الحجارة فأصبح ازدواج لون العقود طابعاً يميز عمارة مسجد قرطبة على ما عندنا من مساجد الإسلام . وقد رفعت هذه الأقواس المقامة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر متراً ، مما زاد في بهاء المسجد ورحابة داخله ، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذي يعرف « ببيت الصلاة » يكون جزءاً صغيراً من الصحن العام لأن بقية الصحن كانت مكشوفة يدور عليها السور ، وقد زرعت فيها أشجار النارنج ، فسمي ذلك الجزء من الصحن « بهو النارنج » ، وقد تناقش فقهاء قرطبة وقتاً طويلاً فيما إذا كان من الجائز أن تغرس الأشجار في بهو الجامع ، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأي مالك بن أنس .

في بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد قام على عمارة هذا الجزء « نصر » فتى الأمير عبد الرحمن أي مولاه المقرب إلى نفسه ، وكان نصر رجلاً كفؤاً ولكنه كبقية صقالبة القصور كان جامد القلب ، أنانياً قليل الإحساس بالحب الحقيقي ، وكان يتآمر مع طروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه ، وكانت طروب جارية بشكنسية شديدة الطموح ، وكانت ترجو أن يصبح ولدها عبد الله أميراً بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمّداً

---

(١) البلاطة في مصطلح العمارة الإسلامية هي المسافة الواقعة بين أربعة أعمدة ، فإذا قلنا إن عبد الرحمن الأوسط زاد في المسجد سبع بلاطات ، فمعنى ذلك أنه وسع المسجد ناحية الجنوب بقدر سبعة صفوف من الأعمدة .

كبير أبناء الأمير وولى عهده ، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالسُّمّ وقام نصر بإعداده ، ولكن بعضهم نبّه الأمير إلى الخطر فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم فلم يسعه إلا أن يفعل وأسرع نصر والسم فى بطنه إلى سكنه وأرسل بطلب لبن الماعز ، إذ قيل له إنه يضيع أثر السم ، فلم يوجد حتى هلك . وقد فرح فيه الكثيرون ممن كان لا يكفّ عن أذاهم ، وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن .

الشعر والموشح والزجل :

وما دمنا قد تحدثنا عن يحيى بن الحكم الغزال ، فلنقف وقفة قصيرة عند الفكر الأندلسى الذى بدأ يستقل عن الفكر المشرقى ، ويظهر فى صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستمر فى تطوره فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام عبد الرحمن الناصر .

لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسى إلا فى الشعر ، ولم يكن المجال قد انفسح أمام النثر الفنى ليظهر ، ولم تر الأندلس ناثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب . وقد نشأ الشعر الأندلسى محاكياً للشعر المشرقى ، وعندما ثبتت أقدام الإسلام فى الأندلس كان عصر الشعر العربى الإسلامى الخالص قد انقضى بذهاب بنى أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبى نواس وبشار بن برد . وأبى تمام وابن الرومى وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جدًّا فى تكوين مدرسة مماثلة فى فن الشعر الأندلسى ، فنجد عند كبار الشعراء فى عصر الأمراء ، من أمثال « ابن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزال ومحمد بن يحيى القلفاظ » صوراً شعرية مقتبسة من شعر أولئك الفحول ، وأبو تمّام بالذات كان له أثر عميق جدّاً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة معانيه وديباجته العربية الخالصة ، ويلى أبا تمام فى ذلك ابن الرومى وابن المعتز ، فأما الأول فقد فتن الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التى يأتى بها ، وأما الثانى فأعجبتهم فيه الصنعة والرقة والحديث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة .

وفى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبى الأندلسى وهو شعر يصاغ فى عامية أهل الأندلس ، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربى وخاصة السهل الجارى منها كالرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل . والزجل الذى يقال فى كل بلاد العروبة ولد فى الأندلس فى الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع فى تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإيبيرية الرومانية ، فإن الأندلسى كان يقول : كِيْروكاس دَلما » (أريد كأس ماء) ، « مِى ألما حزين دا اليوم » (نفسى حزينة اليوم) ، « اشتريت من السوكو سبانية بلانكا » (اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض) ، « ازداد فولانو ولد سمرلو وبنت شقريلا » ، (ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء) وهكذا .

وهذه اللغة هى التى كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها فى الأندلس ، وهى كذلك كانت لغة الزجل الذى سيبلغ أوج ازدهاره فى عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم ابن قزمان .

بعد ذلك ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسى ، فكانوا يأخذون « مركز »[1] احدى الأغانى الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة ، وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهى بذلك المركز الذى يسمى «خرجة » ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهى بنفس الخرجة ، وهكذا :

السحر حق

وأنا به أشهد

أضل العشق

مهجتى ولا ينفد

وأين صدقو

من غريدة تنشد

---

(١) المركز هو بيت الشعر الذى يتكرر فى الزجل والموشح بعد نهاية كل فقرة شعرية ويسمى عندنا بالمذهب .

وإليك نموذجاً من الموشحات التى كانت تنشد فى الأندلس منظومة على أساس غير عربى ونكتبها بإسبانية اليوم لكى تزداد وضوحاً :

Alba qérta Kon Bel Fogore

Cuando Viene lide Fugor

Una alba que Tiene Tan hermoso fulgor

Cuando viene pide amor .

وترجمته بالعربية :

فجر ضياء بالغ الجمال

عندما يطلع يبعث الحب

فجر له ضوء ساطع جميل

عندما يأتى طالباً للوصال

وهذه الخرجة الإسبانية التى تسمى المركز أيضاً تتكرر بلفظها فى نهاية كل مقطع عربى مكون من ستة أشعار صغيرة كهذه ، وكانت العادة أن ينشد الأشعار الدينية منشد مفرد ، أما الخرجات أو المراكز فكانت تغنيها الجماعة مع المنشد أو المنشدة .

وقد انتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعاً جارياً من الشعر ، يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد « مقدم ابن معافى القبرى » الضرير الذى نشأ فى أيام عبد الرحمن الأوسط .

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكبر شعراء العصر الذى نتحدث عنه هم أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦ ـ ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠ ـ ٣ مارس ٩٤٠م) صاحب كتاب « العقد الفريد» وهو كتاب جامع شامل فى الأدب العربى الجاهلى والإسلامى ، وهو يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شىء بطرف ، أى ما نسميه اليوم بالثقافة العامة .

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعراً أشبه بالرسمى للأمراء ، فهو يقول شعراً كثيراً ،ولكنه شعر مقصور معظمه على المديح والتهانى والفخر والمراثى وما إلى ذلك ، ولكن الرجل كان عاقلاً متعاوناً عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز فى المجتمع الأندلسى ، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر عن سن عالية .

ومن أهم ما يذكر له من الشعر أرجوزة فى تاريخ أمراء الأندلس أدرجها فى كتاب العقد الفريد ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظراً لأهميتها التاريخية .

وعلى العكس من ذلك كان معاصره « مؤمن بن سعيد » ، فقد كان رجلاً متداخلاً كثير الوقوع فى الناس ، دائم الدعابة ، فنال الناس من أذاه شىء كثير ، وآذوه هم الآخرون كثيراً ، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها ، بحلوها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس فى الأندلس .

أما ثالث شعراء الأندلس الذى تُحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسى فى ذلك العصر ، فهو أبو بكر بن هذيل ، وكان شاعراً مجيداً يحسن أشعار الموشحات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فآلى على نفسه أن يبلغ شأوه ووصل إلى ما أراد بحسن دأبه وكان ضريراً .

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم الغزال يصورون لنا آخر ما وصل إليه الشعر فى ذلك العصر ، وهم ليسوا أعاظم شعراء الأندلس على أى حال ، لأن أعاظم الشعراء هؤلاء سيظهرون فى أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده أى عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى أقصى ما وصلت إليه من نضج فى عصر الطوائف ، وما تلاه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس .

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القرطبية قامت على رجال ذوى ملكات وقدرات لكل منهم ناحية اختصاصه وشخصيته الواضحة ، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتفسح له المجال ليفيد بملكاته وليستفيد منها ، وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة فى الدول ، لأن الدول تبنى على الرجال ، أما القول بأن « الدول تبنى على المال وبالمال يصطنع الرجال »

فمذهب خاطئ يدل على ضعف ، وقد أخذ بمبدأ الرجال بنو أمية الشرقيون فى صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هؤلاء ، وأخذ بمبدأ المال العباسيون ، وكان هذا من أهم أسباب ضعف دولتهم .

وناحية الضعف فى سياسة الرجال التى اتبعها الأمويون الأندلسيون أن هؤلاء كانوا بطبعهم قوماً ذوى خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم ، فأسرفوا فى الاعتداد بأنفسهم ، فما من رجل تغضبه الدولة فى شىء إلا ويثور فى ناحيته ويسبب المتاعب كما سنرى فى نهاية عصر الاستقرار هذا .

يضاف إلى ذلك أن الكثير من نواحى الأندلس كان لها شخصيتها المستقلة التى تعترف بها الدولة ، وتمنح أصحاب الأمر فيها درجة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلى ، ومثال ذلك منطقة الثغر الأعلى ، وهى حوض نهر الإبرو وما يليه شمالاً إلى جبال ألبرت (البرانس) ، فهذه منطقة متاخمة للممالك والإمارات المسيحية فى الشمال والشمال الغربى والشرقى ، وكانت تتولى أمورها أسر محلية ، تتمتع بامتيازات إقطاعية سلم بها الأمراء ، ومن هذه الأسر ما يرجع إلى أصول إسبانية محلية مثل « بنى قَسِىٍّ » المنحدرين من « فُرتونيو » حكام تلك المنطقة أيام الفتح العربى ، « وبنى هاشم » وهم عرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة ، وكانت لهم قواتهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية فى نواحيهم . وكانت العلاقات بين هذه الأسر والبيت الأموى فى تغير دائم بين الطاعة والعصيان ، ولكن رجالها كانوا على الجملة من أهل الطاعة ، وخاصة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها فى عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده .

كذلك منطقة طليطلة ، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلالها المحلى ، فكانت لطليطلة مشيختها التى تدير أمورها بالاشتراك مع عمال الإمارة .

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كثيرة ، ولكن الأمير محمّدًا ، انتهج ـ كما سنرى ـ سياسة جديدة فى تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٢٤ سبتمبر ٨٥٢ م - ٢٩ صفر ٢٧٣هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م) :

لم يكن الأمير محمد أكبر أبناء عبد الرحمن الأوسط ، ولكنه كان أصلحهم للأمر برأى أبيه ورجال مملكته ، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد ، وأخذ رجال الدولة بالالتفاف حوله . فلما توفى عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة .

وكان قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش ، وكان شابًّا عاقلاً جدًّا بعيد النظر هادئ الأعصاب ، حتى لنلاحظ عنده جموداً عاطفيًّا يذكرنا بما كان عليه جده الأمير عبد الرحمن الداخل .

تولى محمد وحاجب الدولة « عيسى بن شهيد » فأقره على عمله ، وكان لعيسى فضل كبير عليه ، وكان كذلك آخر وزراء أبيه ، وقد زاد فى تنظيم الوزراء وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم فى اختصاص كل وزير بفرع من فروع الإدارة . وبعد أن توفى عيسى بن شهيد ، تولى الحجابة « عيسى بن الحسن بن أبى عبده » وكان وزيراً جليلاً رغم رثاثة هيئته ، ثم خلفه « هاشم بن عبد العزيز » وكان رجلاً أرعن طائشاً شديد الأنانية ، وقد كان له أسوء الأثر على الدولة وعلى الأمير ، بل إن رعونته كانت سببًا فى قيام كثير من الثورات والاضطرابات التى انتهت إلى عصر الفتنة الأولى الذى سنتحدث عنه .

ولقد واجهت الأمير محمداً لأوّلِ ولايته مشاكل محلية كثيرة فى مختلف النواحى فثار أهل طليطلة ، واتجه بنو قسى أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بناحيتهم ، وتحركت جماعات ثائرة فى الغرب فى إقليم « ماردة » . وإن من يقرأ حوليات الأندلس أيام الأمير محمد ، ليتصور أن معظم النواحى خرجت على الإدارة المركزية . ولكننا ينبغى أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضاً فى معظم ممالك أوروبا النصرانية ،لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أرادها ، ثم إن الناس الذين نشأوا فى هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام للحكومات المركزية ، وخاصة رؤساء الناس فى تلك النواحى وهم أمراء الإقطاع ، ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية دائمة فى هذه البلاد كما كانت دائمة فى الأندلس . المهم لدينا أن الأمير محمداً كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً دائماً لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج فى الحملات أو إرسال القواد بالجيوش.

وقد لقى من أهل طليطلة عناءً شديداً ، لأن ما فعله معهم جده الحكم ، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموى ، لذلك كانت الحرب سجالاً بين أهل طليطلة وجيش قرطبة ، واستطاعت قوات الإمارة أن تحرز نصرًا كبيرًا عند وادى « سليط » فى الجزء الجنوبى من كورة طليطلة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ووقع نفر من زعماء الثورة والمحرضين عليها فى يد الأمير ، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م خارج طليطلة نفسها ، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير .

وأقام محمد فى طليطلة ينظر فى أمور أهلها ، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بحذاء جبل « الشارات » حتى يصل إلى وادى « إبرو » ، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أى تقدم للنصارى جنوباً ، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم . وبالفعل أنشأ خط الحصون هذا ، وكانت أول مراكزه مجريط (مدريد اليوم) فى شمال شرقى طليطلة ، ثم « طلمنكة » ، وقلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم سرقسطة » . وقد سمى هذا الخط كله بوادى الحجارة أى وادى الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ، وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغرى الأوسط الذى عرف بالثغر الأوسط . أما الثغر الشرقى فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادى إبرو وعاصمته سرقسطة . وكان هناك ثغر أدنى فى الغرب ، وهو استمرار للثغرين الأعلى والأوسط ، وأهم مراكزه « قورية وشنترين » ثم « الأشبونة » ، وهى قاعدته فى المحيط . وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاثة مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكور ، وكانت لها معاملة مالية خاصة ، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التى كانت تجبى بها فى بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحى ينفقون أموالاً كثيرةً فى الدفاع عن أراضيهم ، ثم إنهم كانوا فى الغالب قومًا مسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة فى بلاد الإسلام ، وفى الأندلس خاصة ، بأن يفد إلى هذه الأقاليمِ المطوعةُ والعُبَّاد والزُّهَّادُ والمرابِطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإَسلام ، حسبةً لله والتماساً للثواب .

وعاد خطر الأردمانيين (النورمـان) يهدد شواطئ الأندلس ، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بـالأساطيل ، فلم يستطيعوا هذه المـــرة أن يصيبوا من المسلمين ما كـانوا يصيبـونه فيما مضى ، فلم يجرؤوا على اقتحـام الأشبونـة أو إشبيلية ، فانقضـوا على بلدة صغيرة هى « باجـة » فى البرتغال الحاليـة ، وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة ، وبعد ذلك تحولت غزوات النورمان إلى ضربات سريعة على السـواحل ، وامتدت حتى وصلت السـاحل الشرقى لشبه الجزيـرة ، ويئست تمامًا من القدرة على القيام بعمل كبير فى الأندلـس الإسلامى ، فاتجهت إلى إسبانيا النصرانيـة وتمكنت من الدخـول بسفنها فى نهر الإبـرو ، ووصلت إلى « بنبلونـة » عاصمة نبره (نافـار) ونهبتها نهباً ذريعاً وأســرت ملكهـا « غرسيه » ولم يردوه إلا لقاء فدية كبيرة .

وتلك كـانت آخر محاولـة قام بها الأردمـانيون ضـد الأندلس ، إذ تبينـوا أن شواطئـه محروسة وأساطيلـه معدة ورجالـه متنبهون ، ولم يعـد أحد يسمع عن خطر المجوس على الأندلس بعد ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

كذلك قـامت حروب كثيرة بين الأندلـس ومملكة « نافـار وليون » وقد كـانتا لخوفهما من المسلمين قـد اتحدتا وانضم إليهما أحيـانـاً « موسى بن مـوسى بن قسى » ، صـــاحب الثغـر الأعلى أى سرقسطـــة . وكـــان آل قسى فى الأصل أسرة إسبانية نصرانية ، اعتنقت الإسلام ودخلـت فى طاعة المسلمين ، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلى فى كل منطقـة الثغر الأعلى ، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلى كان أمراً تحتمه الضرورات الجغـرافية والتاريخية . وقد قدر أمـراء قرطبة هذه الظـروف ، فكانـوا يكتفون من أمـراء الثغر الأعلى بطـاعة اسميـة وفى أحيان أخـرى كانـوا يحاولـون كسر شوكتهم . وعلى أى حـال فلم يكن من الممكن اتبـاع سياسة أخـرى حيال أمراء ثغر بعيد كهـذا ، يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب . وقـد كان بنو قسى التجيبيـون ثم بنو هـاشـم الطـويل ، من أكبر أسباب استقرار الأحوال فى الثغر الأعلى ، فقد قـام على رأس هذين البيتين رجال محـاربون أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصرانى ومصـانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمـر ذلك . وقد أدى ذلـك إلى خلافـات كثيرة بينهم وبين أمـراء قرطبـة ، ولكنهم تمكنوا من حمايـة ثغرهم وأهله ، وتأمينـه حتى أيام عبد الـرحمن الناصر

عندما تغيرت العـلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التى تحولت إلى خـلافة . ويرجع إلى رجال هذه البيوت الإقطاعية الفضل فى تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية فى ذلك الإقليم ، فإنــه ظل بعيداً عن الثورات الكبرى على قـرطبة ورجـالها ، وكان من أكثر نواحى الأندلس عروبةً وإسلاماً .

وقد انتصر الأمير محمدٌ على مملكتى « نبرة وأشتريـس » فى كل حروبه معهما بفضل قادته من أمثال « عيسى بن الحســن بن أبى عبده » و« عباس القرشى » ثم أبناء الأمير محمـدٍ : عبد الـرحمن والحكم والمنذر وكـانوا قـادة موهـوبين .وقـد تمكنت الإمـارة القـرطبية مـن القضاء على أطماع « أردونيو الأول » ملك أشتريس وليون حتى تـوفى سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م وخلفـه أخوه « ألفونسو الثالث » الملقب بالكبير ، وهو من أعاظم ملوك إسبانيـا النصرانية . وفى أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ، ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافسًا خطراً للإمارة القرطبية .

ولم يمنع الأمير محمّدًا مـن إيقاف مملكة ليـون عند حـدّها إلا كثـرة الثورات عليـه فى بـلاده . ولم تكن هـذه الثورات نـاتجة عن ضعف الحكـومـة أو إهمالها لواجبها بل سببها اتساع دولة بنى أميـة ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين . وكان الظـاهرون من رجال كل ناحية لا يكفـون عـن معـاداة الحكـومـــة والاتجاه إلى الاستقـلال ، وربما كـــان أسلم السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذى كانت تسير عليه ممالِك أوربـا النصرانية فى ذلك العصر ، وهـو الاعتراف بأمـراء الإقطاع فى نـواحيهم ، فى مقـابل خضوعهم الـرسمى للدولـة وأداء مال معين وتقـديم قوات محاربـة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عنـد بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل هذا الوضـع ، ثم إن وجـود جماعات كثيرة من العـرب فى الشرق والجنـوب والغـرب ، كان عقبـة فى سبيل إقرار نظـام كهـذا ، فقد كان للعرب ــ فى الكور المجندة خاصــة ـ امتيازات كثيرة . فاذا قبلت الـدولة نظام الإقطاع ، فقـد كان أولئك العرب الذين سيكـونون أصحاب الإقطـاعات الأمـوال التى كانوا يجبـونها من الناس بحسب نظـام الكور المجنـدة . ولم يكن هذا من صـالحهم لأنهم كانـوا ميالين للفـوضى أوّلاً ، ثم إنهم كانوا بعيدين جدًّا عن إدراك فكرة الـدولة وفضـائل الخضوع للنظام . ومن الغريب

أن أولئك العرب الذين استقروا فى نواحى « تدمير » وهى « مرسية » العربية ، وكذلك نواحى غرناطة وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين فى مراكزهم يعيشون حياتهم العربية فى مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم فى مجال الفروسية وقول الشعر والحرب فيما بين بعضهم وبعض ، مما كان يخرب الأرياف ويؤذى الزراعات وكان معظمهم من المولدين والمستعربين . وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يعنيهم مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقى وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة .

وقد تعرضت الإمارة فى النواحى الغربية فى بلادها من « كور ماردة وبطليوس والأشبونة » وبقية ما يعرف اليوم بالبرتغال ، لخطر من نوع آخر ، فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم بأصولهم الإسبانية . وأرض الغرب هذه كانت مفازات (أى أرض قاحلة) وأراضى جبلية يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تامة ، وكانت الدولة تلجأ إلى العنف ، والعنف يولد العنف . ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسى كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم مسلمٌ مُوَلَّد من أصلٍ جليقىٍّ يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » ، وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشىء من الاستقلال فى ناحيتهم ، وبدلاً من الموافقة ، نجد الأمير محمداً يخرج جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم فى قرطبة ليطمئن إلى ولائهم .

ولكن الوزير « هاشم بن عبد العزيز » أساء التصرف مع « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » وأهانه ، فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس ، وعبثاً حاولت الإمارة إخضاعه دون جدوى ، فتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، وأرسل محمدٌ لحربه سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٦م ابنَه « المنذر » ومعه الوزير « هاشم ابن عبد العزيز » . وكان هاشم رجلاً طائشاً عاجزاً عن مواجهة عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحليفه « سعدون السرنباقى » ، وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش الإمارة فى شوال ٢٦٢ هـ/ يونيه ٨٧٦ م ووقوع هاشم بن عبد العزيز فى أسر السرنباقى فأسلمه لعبد الرحمن الجليقى . وقد افتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار ، وبعد حروب طويلة انتهى الأمير إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقى على إقراره على بطليوس ونواحيها ويكون فى رجال الإمارة وحلفائها .

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التى نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحى ، ورفضها السماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحى ، نراه فى ثورة « عمر بن حفصون » فى ولاية « رَيَةْ » الجنوبية وهى ما يسمى الآن بمحافظة « مالقة » .

ويذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإسبان إلى التخلص من سلطان العرب ، وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسبانى العام . وذلك خطأ من كل ناحية ، فعمر بن حفصون أندلسىٌّ مولداً ونشأة وعاش معظم حياته مسلماً ، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموى ، ووجود جماعات كبيرة من العرب فى كور « تدمير والمرية وغرناطة » ، وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى فى تلك النواحى ، ومعظمهم مولدون ومستعربون . وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأى طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً فى أيام عمر بن حفصون ، ولكنه كان مفيداً فيما بعد ، لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن الكثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلافيها .

والسبب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل « رَيَّةْ » فى جباية الأموال المتأخرة . أما السبب الحقيقى فهو أن أهل هذه النواحى الجبلية لم يظفروا قَطّ بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية ، فامتلأت نفوسهم بأسباب الغضب والشكوى وأصبحوا حطباً يابساً لنيران أية ثورة تقوم .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم فى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطفئ نيرانها بالقوة فلم يفلح ، وهنا ظهر عمر بن حفصون ، وأخذ يتزعم مطالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية . وهو من أصل إسبانى مسيحى . إذ أن جده « ألفونس القسى » ، وجده الرابع هو الذى اعتنق الإسلام ، فنشأ هو فى « ريه » رجلاً عنيفاً متمرداً ، فجمع طائفة من الأشرار ونزل فى مكان منيع بجبل « ببشتر » شمال شرقى جبال « رنده » ، واعتصم فى ذلك الجبل وأخذ يناوىء قوات الإمارة . وهنا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أخلى سبيله من الأسر ،

فاستطاع استنزال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ، وفعلاً اشترك فى حملات قامت بها فى الشمال . ولكن ابن حفصون كان متمرداً بطبعه ، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى العصيان سنة ٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م .

وسار « المنذر بن محمد » لمقاتلته وضيق عليه ، فلما كان على وشك الاستيلاء على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ، فارتد المنذر إلى قرطبة فى ٢٩ صفر ٢٧٣ هـ/ أوائل أغسطس ٨٨٦ م فتنفس مخنق عمر بن حفصون بعد أن كاد أمره يتبدد .

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول إن الأمير المنذر خلف أباه محمداً ، وكان فارساً نجدا وقائداً قادراً ، فسار لمحاربة ابن حفصون ، وكان هذا قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة « رَيَّهْ » بأكملها ، وأخذ يتكلم فى ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم . ويذهب فئة من المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم العربى . والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان كل رجاله ، وكان رجلاً تربى فى ظلال الإسلام ، فهو ثائر على سوء الإدارة وطامح إلى السلطان ولكنه لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية ، فهو فى ثورته لم يحاول الاتصال بنصارى الشمال ، بل كتب إلى الخليفة العباسى يطلب منه أن يوليه حكم البلاد التى دخلت فى طاعته ، وكاتب « بنى رستم » أهل « تاهرت » ، وكذلك كتب إلى « بنى الأغلب » يطلب مساعدتهم ولو أنه لقى من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

وقد صمم المنذر على القضاء على الثائر ، فسار إليه وحاصره فى الجبل الذى اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين فى صفر ٢٧٥هـ/ يونية ٨٨٨ م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد ، فقد كان بارعاً فى حبك المؤامرات ، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد التصور ، ولكن فضيلته الكبرى

كانت الثبات ، فإن هــذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبـداً رغماً عن تواتر الثورات عليه .

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابـن حفصون ، فامتد أذاه إلى كل نواحـى جنوب الأندلـس ، وخاف العرب على أنفسهـم ، فتصدوا لحربه وتـزعمهم رجال من أمثــال « سوار بن حمدون القيسى المحاربى وسعيد بن جـودى ومحمد ابن أضحى الهمدانى » فى كورة غرناطة . وكذلك ثار عرب إشبيلية ، بقيادة « كريب ابن خلدون وإبـراهيم بن حجاج » ، وطال النزاع بين أفـراد هذين البيتين ، ولم يبق فى طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

ولم تَنْجُ الإمارة القـرطبية من الزوال إلا بفضــل قائد عظيم هو « أبـو العباس أحمد بن أبى عبـده » فإن هذا العسكـرى الموهوب ، استمـر نحو ثـلاثين سنة فى ميادين الحروب مدافعاً عن الجماعة ووحدة الأندلس . وبفضل هذا القائد وابن أخ له هو « عبيد الله محمد بن أبى عبده » ، استطاع الأمير عبد الله إيقاع هزيمة قاصمة بعمر بن حفصون فى ٢ صفـر ٢٧٨هـ/ ١٦ مايو ٨٩١م . واســـتولى بعدها على حصن « بلى » من أحصن معاقل ابن حفصون قرب مدينة « نبرة » ، وقد كانت هذه المعركـة هى الخطوة الأولى نحو القضاء على عمـر بن حفصون ، فقد طـارده جند الإمارة وحـاصروه فى معقله الأكبر وهو « ببشتر » ، ولكنهم لم يستطيعـوا القضاء عليـه لتعدد الثـورات . وعندمـا تـوفى الأمير عبد الله فى أول ربيع الأول ٣٠٠هــ/ أكتوبر ٩١٢ م كـانت ثورة عمر بن حفصون ومعظم الثـائرين قد وهنت ، وتمهد الطـريق لتسليمهم لـلإدارة القرطبيـة ، والفضل فى ذلك راجع لهذا الأمير عبـد الله الذى استطـاع رغم وجود النقص الكثير فى أخـلاقه ، أن يجتاز بـالإمارة القـرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله فى حـرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا فى كل ناحية وازدادت جرأتهـم على الإمارة ، وتســمى هذه الفتــرة كلها « بفترة الفتنـــة الأولى » ، وتمتــد من أواخر أيـــام الأمير محـمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن النـاصر ، وتعددت مراحلها وأدوارها ، ففى دورهـا الأول كانت ثورة من بعض أهل النـواحى على ما سمَّوه ظلم الإدارة القـرطبية وإجحـافها فى جبـاية

الأمــوال ، وليس ذلك بصحيح . وتــرتبط هذه الـدعــوة بأسماء « عبد الـرحمن بن مروان الجليقى » فى الغرب « وعمر بن حفصـون » فى الجنوب .

وعندمــا طالــت الحرب وأحس العرب فى نــواحى تدمير وغـرناطــة وإشبيلية بضعف الإمارة ، بادروا هم الآخرون إلى الثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها ، وقال شعــراؤهم شعراً يطــالبون فيــه الإمارة بأن تترك الأنــدلس لهم ، واستطالــوا على المزارعين وأهل القــرى وظلمــوهم فنجم من بين هــؤلاء ثوار انضمــوا إلى عمــر بن حفصــون ، ودارت الحرب بين ابن حفصــون والعـرب ، وكــان النصر عليهم لابن حفصــون حتى وقع فى أسره قــائدهم « سوار بن حمدون المحــاربى » . واشتــدت الفتنة بين بنى حجــاج وبنى خلدون فى إشبيلية واشتعلت الأندلس كلهــا ناراً كما يقــول ابن عذارى : وهــذا هو الــدور الثــانى للفتنة . وقــد واجهها الأمير عبــد الله بشجاعــة ومعه قواده ، وقد ذكــرنا اثنين منهما ، ونضيف إليهما هنا « جعـــد بن عبد الغافــر » الذى استشهد فى حربه مع بنى حجاج ، ولكنــه حطم قواهم واستمر الأمير على ذلك حتى استــولى رجــال الأمير عبــد الله على حصن « بُلى » ، فــانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقــد هيبته وتخلى الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين فى ببشتر حتى توفى الأمير عبد الله سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢ م .

ومن حسن الحظ أن الذى خلفــه كان « عبد الرحمن بن محمــد بن عبد الله » ، وكان الأمير عبـــــد الله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامـــــرة ، وذلك قبل مولد عبــد الرحمن بأســابيع قليلــة ، وقد تحول نــدم الأمير على قتله ابنــه إلى عطف على حفيــده ، ولذا فقــد أحب عبد الــرحمن وأسكنه معــه فى القصر وأشرف على تربيتــه وقدمه على سائر أبنائه ، ولم يكن أحــد من الباقين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتــوا عنه ، وكان هو من جانبه شــابًا ذكياً بعيد النظر فكــان يقوم بــالوساطــة بين الأمراء ورجــال الدولــة وجده العنيف البخيل ، فأحبه الناس ووسطوه فى حاجاتهم فنشأ محبوباً من الجميع مقرباً إلى جده . فلما تــوفى الجد ، أجمع أهل القصر على مبــايعته ، ولم يختلــف عليه أحــد ، لأن أحــوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعــروف بالثالث أو النــاصر أمير قرطبة دون صعوبــة ، فى ٣٠٠ هــ/ ٩١٢م ، وبدأ فى تاريخ الأندلس العصر الذهبى وهو عصر الازدهار الأكبر .

عبد الرحمن الناصر
وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية
والعصر الذهبى لبنى أمية فى الأندلس

بدأ عبد الرحمن الناصر حكمه فى ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م ، وكان كما قلنا فى الثانيـة والعشرين من عمره ، وقد اتفق الجميع على البيعـة له بنفس راضية مع صغر سنه ومـع وجود الكثيرين من أعمامه الذين كان مـن الممكن أن ينافسوه ويسببوا لـه المتاعب ـ ولكـن عبد الـرحمن عرف كما ذكرنـا ، كيف يكسب محبة الناس جميعًا بفضل أخلاقـه الجميلة ، وما كان يقوم به من الوسـاطة للناس عند جده عبد الله الذى اشتهر بالعنف والبخل حتى نفـر منه الناس ولم يبق قريباً منه إلا حفيـده عبد الـرحمن هذا، فهـو الذى يتـوسط بينه وبين أهل الـدولة والأمـراء فيكسب بذلك محبتهم وولاءهم .

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمـد بـن عبد الله الذى سـيشتهر باسم عبد الـرحمن الناصر أميراً لـلأندلس فى أكتـوبر ٩١٢م ، وكان الـواجب الملقى على عاتقـه عسيرا ثقيلا ، فقد رأينـا ما تعرضت لـه الإمارة القرطبيـة من ثورات فى كل ناحية حتى أصبح منصب الأمير منصبـاً لا يُحْسَد عليه صاحبـه ، ويقال إن الذى جعل أعمام عبـد الرحمن ينصرفـون عن منـاوأته ومنـافستـه هو شعـورهم بأن منصب الأمير كان منصباً مثقلاً بالمتاعب والأخطار والمسئوليات ـ وأنه لا خير فيه ولهذا فقد تركوه دون صعوبة لهذا الشـاب .

ولكن هذا الشـاب أثبت أن الانسان يستطيع بالذكـاء وحسن الخلق والتدبير السليم أن يعيد بناء دولةٍ وَهَىَ أمرهـا ويصعد بها إلى الأوج معتمداً على شجاعته وخصالـه ، وهنا ينبغى علينـا أن لا ننسى فضل الأمير عبد اللـه فيما سيصل إليه حفيده ، فهو صاحب الفضل فى تحطيم قوى الثائرين وخاصة عمر بن حفصون ، ولـولا ثبات الأمير عبـد الله وإصراره على التمسك بحقـوق الإمـارة ومطالبتـه كل

حكام النواحى بما فى ذلك الثائرين بالطاعة وكـذلك تدبيره أمور الدولة بالقليل من الـــمال الذى كان يصـــل إليه ، لولا ذلـــك مـــا استطاع عبد الـرحمن أن يعيد الوحدة إلى البلاد ويجمع قواها ويسير بها فى طريق القوة والازدهار .

كذلك علينا أن نذكر فضل المخلصين من رجال البيوت الموازية الذين وقفوا إلى جانب الإمـارة يشدون أزرها بالرأى السـديد والتعاون المثمر والإخـلاص الثابت فمكنوا لها من الثبـات وسط العواصف ولا ننســى هنا فضل القائد «أبـى العباس أحمد بن أبى عبده » الـذى قضـى أكثر من ثلاثين سنــة فى ميادين الكفاح منـافحاً عن الإمارة وإليه يرجع الفضل فى كسب نصر يولية على «عمر بن حفصون » الذى كسر ظهره ومهَّد الطريق للقضاء عليه .

الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصـــر :

رأينا كيف نشبت ثـورة عمر بن حفصون وكيـف تفاقم أمرهـا حتى أشاعت الفوضى فى جنوب الأندلس كله ، فخرجت معظم نـواحيه عن طاعة قرطبة ، وكيف تمكن الأمير عبد الله بفضل ثباته من الصمود لذلك الرجل وإلحاق الهزيمة الكبيرة به عند « بُلى » ، ولكن ذلك النصر كـان لا بد أن تتبعه سياسة صـارمة مع عمر بن حفصون حتى لا يستعيد قوته وينشر أذاه كما كان الحال قبله .

وقد كان عمـر بن حفصون قد انتهـز فرصة موت الأمير عبـد الله وحاول أن يعيد صلاته بأمثاله من الثائرين ، ولكـــن عبد الرحمن تنبه لأمره وعرف أن أول ما ينبغى عليـه هو مـواصلة الكفاح مع هـذا الثائر وأحـلافه ومن جـروا فى طريق الفتنة مثله .

وقـــد بدأ عبد الرحمن بإرســـال جيـــش إلى قلعة كركى Caracuel فى جبال المعدن Sierra Morena شمالى قرطبة لمواجهة ثائر آخر كان قد أراد أن يحذو حذو ابن حفصون وهو «الفتح بن زنون » وهــو جد أسرة « بنى زنون » التى سيشتهر أمرهـا فى عـــصر الـــطوائف ، وكان قـد ثار بـنواحى « شنتمـرية Santaver » وكان يقود الجيش القائد عباس بن عبد العـزيز القرشى وعند « كركى » لقى الفتح ابن زنون وأنزل به هزيمة قاصمة واضطره إلى اللجوء إلى قلعة أقليش وكذلك هزم

فى تلك الحملة أحد رؤساء الثائرين وهو « محمد بن أردبولش » فكان لهذا النصر الذى لقيته جيوش عبد الرحمن فى صدر حكمه أثر بعيد فى إخافة الثائرين عليه .

وفى جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ/ يناير ٩١٣م - سَيَّر عبد الرحمن جيشاً قويًّا يقوده القائد بدر بن أحمد ، فاسترجع مدينة « أستجة » التى كان عمر بن حفصون قد ضمها اليه ، وبعد دخول بدر بن أحمد ذلك البلد هدم أسوارها حتى سواها بالأرض ، وهدم القنطرة التى كانت تؤدى إليها على نهر « شنيل » - فانقطع رجاء أهلها فى الثورة .

وبعد ذلك بقليل دل عبد الرحمن على شخصيته وطريقته فى العمل ، فأعد بعناية فائقة جيشاً ضخماً لكى يسيرَ به نحو عمر بن حفصون ، وقد ظل يعد ذلك الجيش شهورا طويلة ، فلم يدع شيئاً مما يلزم للجيوش إلا اهتم به وتخير فرسانه واحداً واحداً وخرج من قرطبة فى شعبان ٣٠٠ هـ/ مارس ٩١٣م وتوجه الجيش وعلى رأسه عبد الرحمن نحو « أُبَّدة » حيث انضم إليه أحد القواد المخلصين للإمارة ، واتجه الجيش إلى«مرطش » ثم قصر «مالقة » وعسكر فى قلب المنطقة التى ظن ابن حفصون أنها معقله ، وهنا رغب أنصاره من أمثال « سعيد بن هذيل المولد » صاحب حصن « مونتلون » فى الاستسلام للناصر فأجيب إلى ما طلب ووفى له بأمانه ، ثم لحق به ثائر آخر آمن كان يعتز به ابن حفصون وهو «عبد الله بن الشاليه » فحصل على الأمان وكذلك فعل ابن عطاف «الأزدى » الثائر بحصن « فتيشه » على نهير يسمى وادى « بنى عبد الله Guadalén » فدعاه عبد الرحمن إلى الدخول فى طاعته ففعل ومنحه عبد الرحمن الأمان ، ثم استولى عبد الرحمن على وادى « آش Guadix » ووقع فى يده فى ذلك البلد نفر من حلفاء عمر بن حفصون ممن كانوا ثائرين فى ولاية غرناطة ، ومن هناك وصل عبد الرحمن بجيوشه إلى ساحل البحر عند « شلوبينية » وعاد بعد ذلك إلى قرطبة ، وفى طريقه إليها استولى على بلدين ثائرين هما شنت إشتين San Esteban وبنه فراطة Pena - Forata وعاد إلى عاصمته فى عيد الأضحى سنة ٣٠٠هـ - يوليو ٩١٣م بعد أن ألقى الرعب فى نفوس الثائرين واستولى - فيما يقول المؤرخون - على سبعين حصناً من حصونهم .

وفى العام التالى ٣٠١ هـ / ٩١٤ م سار عبد الرحمن إلى جبال « رندة » وفيها

المعقل الرئيسى لابن حفصون فى « ببشتر Bobastro » وفى طريقه استولى على عدد من الحصون المؤدية إلى ذلك الحصن ، ووصل عبد الرحمن إلى مدينة الجزيرة الخضراء وأعاد إلى الطاعة فى الطريق « شذونة ومورور » ثم اتجه نحو «قرمونة » .

وكانت نية عبد الرحمن هذه المرة معقودة على كسر شوكة بنى الحجاج وبنى خلدون الذين كانوا قد استبدوا بأمر إشبيلية وإقليمها ، وكانوا يعاونون ابن حفصون على تماديه فى الفساد ، وكان عبد الرحمن يرمى إلى حرمان ابن حفصون من حلفائه حتى يستسلم من نفسه دون حرب شديدة ، وأرسل عبد الرحمن قائده « القاسم بن الوليد » نحو إشبيلية فخاف « أحمد بن مسلمة » زعيم بنى الحجاج من مغبة التمادى فى الضلال فأبدى رغبته فى الاستسلام، وأرسل عبد الرحمن قائده « بدر بن أحمد » فدخل البلاد فى جمادى الأولى سنة ٣٠١هـ / ديسمبر ٩١٤م . وحاول « محمد بن إبراهيم بن الحجاج »زعيم بنى حجاج أن يحصل لبيته على شروط قبل أن يوادع عبد الرحمن ، ولكن هذا أفهمه أنه لا يقبل إلا الاستسلام دون شروط . وبالفعل تم ذلك ونزل زعيم بنى الحجاج على عهد عبد الرحمن فوفى له بما وعده به . وهكذا عاد غرب الأندلس الى الطاعة بعد طول خروج .

وفى طريق عودة عبد الرحمن ورجاله حاصروا قلعة « قرمونة » وكان فيها ثائر من أنصار عمر بن حفصون يسمى « حبيب بن عمر بن سوارة » ، وترك رجاله يحاصرون البلد وعاد إلى قرطبة ولم يلبث حبيب أن استسلم وأخذ إلى قرطبة، على الأمان .

وكان عبد الرحمن يفعل ذلك وفى ذهنه القضاء على رأس الفتنة كلها ، وهو عمر بن حفصون فأرسل جيوشه فاحتلت « جيان » التى كان أصحابها يدفعون الإتاوة لابن حفصون وكذلك أرسل قوة إلى « ألبيرة » فأعادتها إلى الطاعة ، وكان الخناق يضيق حول ابن حفصون شيئاً فشيئاً ، وظن فى أخريات أيامه أنه إذا ارتد إلى النصرانية كسب ولاء المستعربين فى الأندلس ، وكانوا كثيرين جدًّا ، وكانوا غير راضين عن الإمارة التى تركتهم فريسة لعدوان ابن حفصون ومن شابهه من الثائرين من العرب فى إقليم « ألبيرة » وهى غرناطة ، ولكن هذا الارتداد أضرَّ بابن

حفصـون ولم ينفعـه فى شىء ، فقـد انصرف عنـه الكثيرون من رجـال المسلمين والنصارى ، بـل إن ابناً واحداً من أبنـائه وبنتاً فَعَـلاً فعل أبيهما فى التنصر ، وظل الابنان الآخران على الإسـلام . وفى هذه الظروف واليأس الذى يحيط بـذلك الثائر العنيـد ـ نـزل به الموت فى قلعـة « ببشتر » ودفن فى كنيستها فى ربيع الأول سنـة ٣٠٥ هـ / سبتمبر ٩١٧م ، بعد أن قـاد أخطر ثـورة تعرضت لها إمـارة قرطبـة ودامت نحو ٣٠ سنة ، وفى أثنـائها تقلّب الرجل من ناحية لأخـرى حتى يقال إنه خطب لبنى الأغـلب أصحاب القيروان ، وحـاول الاتصـال « ببنى رستم » أصحـاب تاهرت ، فلم يوفق معهم إلى شىء .

وكان لخبر مـوت ابن حفصون رجّـة كبرى فى الأندلـس كله ، فقد أيقـن بقية الثائرين أنه لا مفـر لهم من العودة إلى طاعة قـرطبة خاصة وأن عبـد الرحمن كان يتلقى من يطلبـون الأمان بـالإكرام ويستنـزلهم فى حصونهم ويفى لهم بـوعده ، فأخذ الكثيرون من الثائرين يعودون إلى الطاعة على هذه الشروط .

وبعد أن تـــوفى عمر بن حفصون خلفـه ابنه « جعفر » وكــــان قد تنصّر مثله هـو وأختـه « أرجنتيا » فى حين أنَّ أبنـاءه الثلاثـــة الباقين وهم « سليمان وعبد الـرحمن وحفص » ظلـوا على الإسلام ، وتـولى جعفر مقـاومة عبـد الرحمن الثالث ، فلم يمهلـه هذا وسـار نحوه فى ذى الحجة ٣٠٦هـ / مايـو ٩١٩ م، وقد احتفل فى إعداد هذه الحملة واحتشـد على طريقته التـى ســار عليها ، واحتـل عبد الرحمن بلدة شذونة ومنهـا اتجه إلى جبال رندة ليحاصر جعفر بن حفصون ، واستولى فى الطـريق على حصن منيع قـرب بلدة « البلـدة » وكان جعفر قـد وضع هناك حاميـة تنـبهه للخطر . وفى أواخر ذى الحجة ٣٠٦ هـ / أوائل يونيو ٩١٩م استولى عبـد الرحمن على كل الحصـون الصغيرة المحيطـة ببشتر ، ثم ترك حـامية تشدد الحصـار على الجبل وعاد إلى قـرطبة ، وطلب حفص بن عمـر بن حفصون هدنـة وأرسل رهائن ضماناً لوفـائه ، وبعد قليل استسلم حفص وأخذ إلى قـرطبة وحـاول أخـوه جعفـر أن يواصل المقـاومـة ولكن جعفـر قتل فى جمادى الآخـرة ٣٠٨هـ / أكتوبر ٩٢٠م ، وحاول أخوه سليمان قيـادة الثورة ولكن أمرها كان قد وهن ، وتمكن رجـال عبد الـرحمن من الاستيـلاء على معظم الحصون الثـائرة فى كـورتى «رندة والبيرة » وأخيراً وفى سنـة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م سـار عبد الـرحمن بنفسه واسـتولى على ببشتر وحول كنيستهـا إلى مسجد ، وبـذلك انتهى أمـر هذا الثائر العنيف الذى ظل هو وأنصاره يقلقون بال الإمارة سنوات طويلة كما رأينا .

وقد فاتتنا أن نذكر فى سياق هذا الصراع المرير بين عبد الرحمن الثالث وخصوم الإمارة ، أن قائده الكبير « أبا العباس أحمد بن أبى عبده » كان قد لقى الشهادة فى صراع مع الثائرين فى قلعة تسمى « مونت روبيو » فيما بين المرية وغرناطة، وهكذا انتهت حياة ذلك القائد المجيد الذى يرجع إليه الفضل فى إنقاذ الإمارة الأندلسية من الانهيار بفضل ثباته وبسالته وإخلاصه لقضية وَحْدَة الأندلس .

وقد أنفق عبد الرحمن بعد ذلك سنوات فى تهدئة جنوبى الأندلس والقضاء على الثائرين فيه ، حتى عادت البلاد كلها فى حوض الوادى الكبير وجنوبيه إلى طاعة الإمارة ، وقد اجتهد عبد الرحمن فى إصلاح ما أفسده الثائرون، فأعاد تنظيم البلاد وأكثر من بناء المساجد ، وفى سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م أى بعد أربع عشرة سنة من الحرب المستمرة عاد السلام فأظل جنوبى بلاد الأندلس بفضل هذا الجهد المتواصل والدقة فى العمل ومتانة الخلق التى دَلَّ عليها عبد الرحمن خلال ما انقضى فى حكمه إلى الآن .

عبد الرحمن والثائرون فى غرب الأندلس وبطليوس والثغر الأعلى الأندلسى :

وقد قضى عبد الرحمن بعد ذلك أربع سنوات أخرى فى صراع مرير مع الثائرين على الإمارة فى غرب الأندلس وفى إقليم طليطلة ، ذلك أن غرب الأندلس وخاصة فى نواحى «ماردة وبطليوس » ، كان قد قام فيه عدد كبير من الثوار أكبرهم رجل من المستعربين يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » وكان فى أول أمره من ضباط جيش الإمارة ثم خلع طاعتها وتحصن في ماردة ، واجتمع إليه عدد من الذعار والخارجين على القانون ، وقوي أمره ومد يده وحالف ملوك قشتالة واستولى على بطليوس وأفسد الغرب الأندلسى كله ، وكان لا بد للقضاء على ذلك الثائر ومن انضم إليه من جهد يعادل ما بذله عبد الرحمن فى القضاء على ثورة عمر بن حفصون وبنى الحجاج وبنى خلدون فى إشبيلية ، بل إن عبد الرحمن بن مروان الجليقى كان أمره أصعب ، لأنه كان على صلة بأهل طليطلة ولم تكن طاعتهم خالصة للإمارة ، وكذلك كان يستعين بملوك قشتالة .

ولنضف إلى ذلك أن الثغر الأعلى الأندلسى وهو حوض نهر الإبرو وقواعده

الكبرى مثل « سرقسطة وطليطلة ووشقة » ظلت فى طاعة الإمارة القرطبية ، ولكن زعماءها كانوا يتصرفون بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم فهم تارةً مع الإمارة وتارةً عليها .

وقد وجه عبد الرحمن قواه كلها أول الأمر نحو بطليوس للقضاء على ثورة عبدالرحمن بن مروان الجليقى وظل يتابع الحملات عليه ، وفى أثناء ذلك استولت قوات عبد الرحمن على معظم حصون الثائرين الموالين للجليقى حتى طاع كل الغرب الأندلسى حتى « شلب وأكشونية وشنتبرية الغرب » لعبد الرحمن ثم اتجه بعد ذلك نحو عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحاصره حصاراً طويلاً حتى ألقى بيد الطاعة . وما كاد عبد الرحمن يعود إلى قرطبة سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م حتى استسلمت بطليوس وكل ما كان تابعاً لعبد الرحمن بن مروان الجليقى وأهل بيته وكبار أنصاره لقرطبة ، على أمان وتوسعة وتكرمة . وهناك اندرجوا فى جملة السكان وانتهى أمر ثورة الغرب ، وبقى أمر طليطلة التى طال العهد بخروجها على الطاعة وتحالفها مع ملوك قشتالة واستنادها الى تأييد « بنى قَسِىّ » الثائرين فى « لاردة » وبعض نواحي الثغر الأعلى ، وكان بنو قسى أسرة بشكنسية الأصل جدها يسمى « فرتون » فدخل فى الإسلام وتركهم المسلمون على ضياعهم وإقطاعاتهم فى الشمال ، وصارت رياستهم فى آخر الأمر لبيت بنى قسى ، وهم أحفاد فرتون وقد تولى رياستهم فى عهد عبد الرحمن زعيمان قويان ، هما « المطرف بن لب بن موسى القسوى » وابن عمه «محمد بن إسماعيل بن موسى » أما طليطلة فقد تزعمها رجل من رجالها يسمى « لب بن طريشة » وكان حليفاً لملوك قشتالة .

وفى سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م شرع عبد الرحمن فى معالجة أمر الشمال الثائر ، فقاد الحملة الكبيرة التى تسمى فى النصوص باسم « غزوة مويش »واتجه أول الأمر إلى قرطبة ، فسارع « لب بن طريشة » وبذل الطاعة لعبد الرحمن ولكنها كانت طاعة على دخن ، وبعد وفاة لب بن طريشة تولى قيادة طليطلة « ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث » .

وكان ثعلبة قائداً خبيثاً واسع الحيلة ، فبدأ عبد الرحمن يحاول إقناعه بالدخول فى الطاعة ، فردَّ ردًا خشناً ، ولم يجد عبد الرحمن إلا اللجوء إلى القوة

فأرسل فى سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م جيشاً يقوده الـوزير « سعيد بن منذر » حاصر طليطلة ولحق به عبد الرحمن نفسـه فعسكر قرب حصن «مورة » على بعد ٣٠ كم من طليطلة . ومـــن هنـاك أنـــذر ثائراً من أنصـار ثعلبـة يسمى « مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب » ثم استولى على قلعة حصينة كانت تحرس الطريق المؤدى إلى طليطلـة ، وهناك تـرك حاميـة وعـاد إلى قرطبـة بعـد أن استسلم له أصحـاب حصنى « الأمين وقنـالش » وبـدأ حصار طليطلـة ، فـاستعان أهلهـا بملك ليـون «راميرو الثانى » الذى تسميه مراجعنا « رذمير » وحاول ذلك الملك معاونة طليطلة فلم يستطع واشتـد الحصار حـولها حتى عاد عبـد الرحمن مـرة أخرى على رأس جيش كبير فى رجـب ٣٢٠هـــ / يوليـو ٩٣٢م ، وعندمـا ضرب فَسَاطِيْطَـهُ حولها أرسل إليه أهلهـا يطلبون المؤن إذ كانت مـؤنـهم قد نَفِدَتْ وعـرضوا التسليم ، وفى شـــعبان ٣٢٠ هـ/ أغسطس ٩٣٢م دخـــل عبـد الرحمن العاصمة القـوطية ، وخضـعت لـه كل بـلاد طليطلـة . وبهذه المناسبـة أقيم إعـذار عـام احتفـالاً بتلك المناسبة ، والإعـذار هو أن يختن كل من فى سن الختان من صبيـان البلد على نفقة الأمير وتقام الاحتفـــالات بذلك شكراً لله .

وهكذا نرى كيف استطاع هذا الرجل الفـذ ، عبد الرحمن بن محمد الناصر بعد اثنتين وثلاثين سنة من الجهد والكفاح ، إعـادة الوحدة إلى بلاده ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها بل عن طريق الأخلاق القـويمة ، كذلك فإن الناس ما كانوا ليستسلمـوا لـه إلا لأنهم كـانوا يعلمـون أنهم يستسلمـون لـرجلٍ وَفِىٍّ ، يعـرف حقوقهم ويحترم كلمته معهم ، ويعرفون أنـه لا سبيل إلى الحياة معه إلا بالدخول فى طاعته والاستئمان له .

بقى بعد ذلـك الثغر الأعـلى الأنـدلسى ، وقد أشـــرنا إلى حـــال بنى قســى فى«طليطلة » ونـواحيها ، ونضيف إلى ذلك أن « سرقسطة » كان قـد استبد بها بيت التجيبيين ، وهم أسرة التجيبيين طال بهـــا العهـــد فى الاســـتبداد بذلك الثغر ، أما « وشقـة » فقد استبد بها « بنـو محمد الطويل » وكـانوا جميعاً عصبـة واحدة يتحـدون على الإمـارة وإن كـان الخلاف بينهم شديـداً ، ثم إنهم كـانـوا جميعـاً يستعينون بملوك النصارى المجاورين لهم إذا دعـت الضرورة إلى ذلك .

فأما بنو قسى أصحاب طليطلة فكان آخـر الثائرين منهم عَلَـىٰ عبد الرحمن ،

هو « محمد بن لــب بن قسى » وقد قُتل ذلك الرجل فى أول إمارة عبــد الرحمن سنة ٣٠٣ هــ / ٩١٦ م وتولى بعده أخوه «المطرف » وكانت لهما أخت تسمى « أراكة » تزوجت من ابن ألفــونسو الثالث ملــك «أشتريس» وهو يسمى « فرويــلا الثانى» الذى سيتولى العرش فى ليون بعد « اردنيــو ـ الثانى » الذى سنتحدث عنه ، وإنما ذكرنا ذلك لِنَـدُلَّ على علاقات القرابة والمصــاهرة بين أولئك الزعماء المسلمين ومن جاورهم من ملوك النصارى . وبعد موت محمــد بن لب اضطرب أمر طليطلة زمناً طويلاً ، حتى استسلم أصحابها للأمير عبد الرحمن سنة ٣١٢ هــ/ ٩٢٤ م .

وكــذلك دخلت « وشقــة » وأصحــابها من بنى محمــد الطــويل فى ولاء الأمير ، وبقى أمر سرقسطة ، ولكن قبل أن يقصد إليها عبد الرحمن ، وجد الفرصة مناسبة للقضاء على « الفتح بن زنون » الثائر فى حصــن « أقليش » والذى كان يسيطر على كورة « شنتبرية » وقد توفى هذا الرجل فى سنة ٣٠٢ هــ / ٩١٥ ـ ٩١٦ م . وحاول ابنه يحيى أن يسير فى طريق الثورة حتى إذا كانت سنة ٣٢١ هــ /٩٣٣ م . أرسل عبد الرحمن جيشــا بقيادة الوزير « عبد الحميــد بن بسيل » لكى يستنزل « يحيى ابن الفتح بن زنــون » فعرض التنازل وانضم إلى جيش الإمــارة وصــــار فى قواد عبد الرحمن ، أمــا أخوه مطرف الذى كــان قد استبد بناحية « أُبَّــدة » فلحق بأخيه ودخل فى طاعة الأمير . وقد حدث بعد ذلــك أن وقع أسيراً فى يد « سانشو غرسيه » صاحب بنبلــونة ، وعــاد إلى صفوف الأمير حتى استشهــد فى موقعــة « الخندق » التى سنتكلم عنها ، سنة ٣٣٣ هــــ / ٩٤٥ م . وكان عبد الرحمن قد أقــامه حاكماً على كورة وادى الحجارة .

و فى سرقسطة حاول صــاحبها « أبو يحيى محمد الملقب بالأنقــر عبد الرحمن التجيبى » الخــروج علـــى طاعــة النــاصر ثم عــاد فــدخل ، وخلفه ابنــه « هاشم التجيبى » فأقامه عبد الرحمن عــاملاً على سرقسطة نظراً لما لمس فيه من الإخلاص والكفاية ، وقد طال حكم بيته فى سرقسطــة حتى عرفوا باسم بنى هاشم ، وفى سنة ٣١٨ هــ / ٩٣٠ م . توفى « أبو يحيى محمد الأنقــر » وتولى أمر سرقسطة « محــمد ابن هــاشم » الــذى التــوى عـــلى الأمير وانضم إلى « راميرو الثــانى » ملك ليــون وسنرى ما يكون من أمره بعد ذلك .

عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة وبنبلونة :

لكى نفهم علاقات عبد الرحمن الناصرمع ملوك « أشتريس » وليون ونبرة وعاصمتها بنبلونة ، ينبغى أن نعود إلى الوراء قليلاً ـ إلى أيام الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ـ فقد عاصر هؤلاء الأمراء الثلاثة ملكاً من ملوك أشتريس يسمى « ألفونسو الثالث» وكان ملكاً نشيطاً بعيد الطموح ، تمكن بفضل نشاطه المتصل واتجاهه إلى توسيع رقعة مملكته ، فى أشتريس والأغوار منها إلى البسائط التى تقع جنوبى سلسلة الجبال الكنتبرية ، والتى تقوم فيها بلاد كبيرة مثل « ليون وأشترقة وسمورة وسلمنقة » وغيرها من البلاد والحصون الواقعة بين حوضى« المنيو والدويرو » ، وكذلك ما يقع منها على نهيرات هذا الأخير، وأهمها نهر « تورمِس » وعليه تقع سلمنقة ، وقد تمكن ذلك الملك منتهزاً فرصة الحروب الأهلية التى شغلت أمراء قرطبة وخاصة فى منتصف إمارة الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، تمكن من أن يستولى على الأراضى الواقعة جنوب المنيو. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن ألفونسو الثالث ملك اشتريس الذى أشرنا إليه والذى كان يلقب بألفونسو الكبير Alfonso El Magno نظراً لنشاطه الكبير فى توسيع نطاق مملكة اشتريس وتمكنه من نقل عاصمتها إلى ليون جنوب الجبال الكنتبرية وتمكن كذلك من الامتداد فيما يعرف اليوم بشمال البرتغال ، فاستولى على« أوبورتو » التى ضمها إلى أملاكه الكُونت « فيمارا نوربرت » وهو أحد أتباع ألفونسو الثالث ، وكذلك جعل ألفونسو الثالث يشجع الخارجين على الإمارات القرطبية ، من أمثال ابن مروان الجليقى . وعندما طاردته قوات الإمارة القرطبية بقيادة « هاشم بن عبد العزيز » لجأ الى ملك اشتريس . وهكذا نجد أن الحدود الشمالية لإمارة قرطبة كانت مهددة فعلا بأخطار جسيمة قبل أن يتولى عبد الرحمن الثالث العرش ، ويكفى أن نذكر أنه فى أيام الأمير محمد وابنه المنذر استولى الفونسو الثالث على بلدة أنيشة Afienza لكى يقوى مركزه فى مدينة ليون التى اتخذها عاصمة له ، وتحالف فى ذلك مع أمراء الثغر الأعلى من المسلمين. وفى أوائل أيام عبد الرحمن الثالث وبينما كان هذا الأمير مشغولاً بجنوب الأندلس ، تمكن ألفونسو الثالث من الاستيلاء على « قلمرية » فى البرتغال الحالية ، وحصن « ليون وأشترقة وأماية وسمورة » ، وأسكن هذه البلاد أعداداً

كبيرة من المستعربين ، وهم نصارى الأندلس الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا فى بلاد النصارى ، وعقب موت ألفونسو الثالث المعروف بالكبير استولى ملوك ليون على حصن « غرماج San Esteban de Gormaz » سيكون له ذكر طويل فى الصراع بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر . ومعنى ذلك أنه عندما تولى عبدالرحمن الثالث وفى السنوات الأولى من حكمه . كانت مملكة أشتريس التى أصبحت تسمى مملكة ليون ، قد امتدت جنوباً حتى وصلت إلى منتصف المسافة ما بين نهرى المنيو والدويرو ، وفى بعض الأحيان جرؤ قواد ألفونسو الثالث على الوصول إلى ضفاف نهر الدويرو .

وقد انتهز أمراء « بنبلونة وشبرب وبليارش » وغيرهم من أصحاب الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوب جبال ألبرت ، انتهزوا الفرصة هم الآخرون ، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسى الذين ذكرناهم . من الانبساط نحو الجنوب وتهديد المعاقل الإسلامية فى « تُطيلة وجرندة » وما إليها . وقد توفى ألفونسو الثالث سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م ، أى قبل ولاية عبد الرحمن بسنتين ، وخلفه ابنه « أردنيو الأول » ولم يكن من طراز أبيه ولكنه تمكن من تثبيت حدود دولته بالامتداد فيما يعرف بأراضى « قشتالة الجديدة » فى أحواز « شقوبية وآبِلةَ » وكانت فى ذلك الحين بلاداً إسلاميةً ، وإن كانت أعداد المسلمين فيها قليلة فى ذلك الحين . فإذا التفتنا إلى كونتينة قطلونية التى كان ملوك الفرنجة قد تمكنوا من إنشائها فى أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وجدنا أن أجنادها تمكنوا هم الآخرون من الامتداد على حساب المسلمين فى البلاد الواقعة قرب « جَرُندة Jerond» وبذلك نرى أنه عندما تولى عبد الرحمن كان عليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسى .

راميرو الثانى ملك ليون (٩١٢ - ٩٣٢ م) :

وفى نفس السنة التى صعد فيها عبد الرحمن الداخل على العرش تولى عرش ليون ملك من أنشط ملوكها هو « راميرو الثانى » الذى يسميه العرب « رذمير » وكان هذا الرجل واسع النشاط ، كبير الطموح ، وقد بدأ فى السنة الثانية من حكمه بالاستعداد للهجوم على أراضى المسلمين وبالفعل هاجم « يابره » فى البرتغال

الحالية بجيش قوامه ثلاثون ألفًا ، وتصدى له عاملها « مروان بن عبد الملك » ، ولكنه انهزم وتمكنت قوات « راميرو الثانى » من دخول البلد وأنزل مذبحة بأهلها ، وأخذ معه عند عودته أربعة آلاف أسير من المسلمين ما بين نساء وأطفال ، وبلغ من خوف عمال البلاد فى هذه الناحية أن عامل بطليوس وهو « عبد الله بن محمد » وهو ابن أخى « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » سارع الى تحصين بلده وبناء سورها بالحجارة ، وبعد ذلك بقليل فى سنة ٩١٤ ـ ٩١٥م . هاجم راميرو الثانى مدينة « ماردة » ونهب الأراضى حولها وتمكن من دخول حصن « الحنش » وقتل فيه ألوف المسلمين ، وبلغ من جرأته أنه أنشأ فى ذلك الحصن كنيسة سميت بكنيسة القديسة مارية الليونية Santa Maria de Leon .

وكل ذلك نبه عبد الرحمن الناصر إلى ضرورة مواجهة الموقف فى الشمال بالحزم الذى نعرفه فيه وابتداء من سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦م . نجد عبد الرحمن يرسل قائده الكبير أبا العباس أحمد بن أبى عبده بجيش قوى لكى يهاجم المواقع النصرانية فى وادى نهر « الدويرو » ، واستعد له راميرو الثانى بأحسن ما لديه من فرسان ، فى حين أن القائد أبا العباس أحمد بن أبى عبده كان يقود جنوداً غير نظاميين ، لأن أحسن قوات عبد الرحمن الناصر كانت معه فى الجنوب ، ولذلك عندما التقى هذا القائد الباسل بقوات الأعداء فى ١٤ ربيع الأول ٣٠٥ / ٤ ديسمبر ٩١٧ م قرب بلدة « غرماج » ، التى تسمى أيضا بقلعة المسلمين أى « قشترو موروش » انهزم ذلك القائد وقُتل وتتبع النصارى فلول المسلمين حتى « أنيشة » ، وهكذا كانت نهاية ذلك القائد الباسل الذى يرجع اليه الفضل فى الحفاظ على الإمارة القرطبية طوال حكم الأمير عبدالله ، ومن المؤسف أن راميرو الثانى علق رأس هذا القائد على أسوار غرماج وإلى جانبها رأس خنزير برى .

هنا أدرك عبد الرحمن الثالث أن الأمر أخطر مما تصور ، وزاد فى خوفه على ثغوره الشمالية أن راميرو الثانى ازداد طلبه وطمعه فى بلاد المسلمين فتحالف مع الملك « سانشو غرسيه » ملك نبرة وسارت قواتهما للاستيلاء على مدينة « طلبيرة » غربى « طليطلة » على نهر تاجة ، وفى نفس الوقت نجد أن صاحب بنبلونة يتجه فى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨ م .لمهاجمة أراضى بنى قسى أصحاب طليطلة وعاث فى

أراضيها وأحرق الزروع حول ناجرة وطليطلة وهاجم « فلتيرة » وأحرق جامعها ، وهنا نجد عبد الرحمن ينهض فى المحرم سنة ٣٠٦هـ / ٩١٩م ، ويرسل قائده الحاجب «بدر بن أحمد » لملاقاة أردنيو الثانى فأنزل به هزيمة قاصمة عند موضع يسمى « ميتونيا أو مودونيا » ولا نعرف موضعه بالضبط . وفى العام التالى يسير القائد « إسحق بن محمد القرشى » وكان من أعاظم قواد عبد الرحمن الناصر على رأس جيش كبير فاستعاد قلعة غرماج .

وفى العام التالى ينهض عبد الرحمن الثالث ويعيد « الواديانا » ويتقدم إلى الشمال ليلاقى النصارى قرب بلدة « القليعة » عند وادى الحجارة ، وينزل بهم هزيمة كبيرة ثم يتقدم نحو مدينة سالم ، وكان هدفه هذه المرة أراضى مملكة نبرة . وبعد أن عاث فى أرضها اتجه إلى منطقة «ألبة » والقلاع فهادنه صاحب مدينة « أوسمه » التى يسميها المسلمون « وخشمة » واحتلها المسلمون . ثم اتجه عبد الرحمن نحو غرماج وأنزل بالنصارى هزيمة انتقم فيها لما أصاب قائده أبا العباس أحمد بن أبى عبدة الذى مات قربها ووصلت غارات المسلمين إلى بلدة كلونيا التى تسمى الآن . Corana del Conde وعاث المسلمون فى نواحيها ، وبذلك يكون عبد الرحمن قد لقن ملكى ليون ونبرة درساً لن ينسياه بعد ذلك . وبعد ذلك اتجه عبد الرحمن نحو « بنبلونة » وفى نيته أن يلقن الدرس لملكها سانشو غرسيه ، وانضم إليه فى هذه الحملة « محمد بن عبد الله بن لب » ، وهو من آخر الكبار من بنى قسى . وبأمر عبد الرحمن استولى ابن لب على قلعة « كركى » غير بعيد من ملتقى نهر الأبرو بنهر « أيكا » واحتل عبد الرحمن بلدة «قلهرة » على الضفة الشمالية لنهر الأبرو واضطر سانشو غرسيه إلى التحصن فى قلعة أرنيط .Arnedo وسار سانشو غرسيه لملاقاة المسلمين وانضمت إليه قوات أردنيو الثانى وحاول سكان الناحية أن يعترضوا جيش المسلمين ولكن عبدالرحمن الثالث تقدم نحو الشمال وتغلب على كل خصومه ووصل إلى وادى بلدة « خونكيرة » وقربها أنزل بجيش ليون ونبرة هزيمة كبرى قتل فيها ألوف النصارى ووقع بيده أسرى عددٌ من كبارهم من بينهم « دولثيديو » أسقف سلمنقة « وأرمو جيو» صاحب تودة التى توجد فى البرتغال الحالية . وعاد عبد الرحمن مُظَفَّراً إلى قرطبة وكان نصر « خونكيرة » فى ٦ ربيع الأول ٣٠٨ هـ /

٢٦ يوليو ٩٢٠ م . وهو تاريخ فاصل ، لأن ملوك النصارى رهبوا عبد الرحمن وجيوشه ، خاصة وأن القواد الذين تركهم عبد الرحمن على الحدود توغلوا فى أراضى نبرة وهاجموا بنبلونة ، ولم ينصرفوا عنها إلا بعد أن طلب ملك نبرة الصلح وعرض أن يكون تابعاً لعبد الرحمن الثالث . وهذه الحملة الكبيرة التى قادها عبد الرحمن ورجاله فى كل بلاد الشمال هى التى تسمى بحملة « مويش » وقد توفى أردنيو الثانى بعد ذلك بقليل ، وتوقفت بذلك أعمال العدوان على بلاد المسلمين ،لأن الذى خلفه كان الملك « فرويلا الثانى » ، وكان فيما تقول المدونات النصرانية ملكاً ضعيفاً .

ومع ذلك فقد وجد عبد الرحمن أنه لا بد من أن يواصل الحملات على الممالك النصرانية فى الشمال ، وتلك كانت خطته ، وهى العمل الدائم حتى يصل إلى نتيجة حاسمة فى كل ما يقوم به ، ولهذا نجده يخرج بجيش كبير فى المحرم ٣١٢ هـ/ أبريل ٩٢٤ م . فيمر بكورة تدمير وهى مرسية ثم بكورة بلنسية ، وهناك يستسلم له كل من كانت نفسه تحدثه بالثورة ، ويستنزلهم عبد الرحمن ويستولى على قلاعهم ويتجه إلى طليطلة ، وهناك حاول سانشو غرسيه التعرض له ، ولكن عبدالرحمن يدخل قلعة كركر ويحتل بلدتى « بيرلت وفالكس » ويتقدم فيستولى على « تفية . Tafalla » وقرقشونة ثم يدخل الجيش الإسلامى أراضى مملكة أرغون ويتوغل فيها ويلتقى بجيوش سانشو غرسيه قرب بنبلونة وينتصر المسلمون . ثم يعقب عبد الرحمن ذلك باحتلال بنبلونة عاصمة مملكة نبرة ويبيحها لرجاله . وواصل عبد الرحمن مسيره إلى الشمال فى أراضى أركون واستعاد للمسلمين بلدة كانت تابعة لطليطلة تسمى « صخرة قيس » وهدم كنيستها وحولها إلى مسجد وعاد عبد الرحمن إلى « قلهرة » ثم مر بحصن « فالتيرا » ووصل إلى طليطلة فى ربيع الآخر ٣١٢ هـ/ أغسطس ٩٢٤ م . وطلب منه غرسيه الصلح فمنحه إياه وفى عودته احتل بلدة شنتبرية حيث قدم له « يحيى بن موسى وابن عمه يحيى بن الفتح » ابني « زنون » فروض الولاء .

وقد واصل عبد الرحمن ضرباته وغزواته فى بلاد الشمال حتى خافه ملك ليون « راميرو الثانى » واضطر جميع ملوك النصارى الى طلب الصلح من عبد الرحمن وأصبحوا جميعاً من أتباعه ، وقد تأكد ذلك فى أيام ألفونسو الرابع

ملك ليون و« سانشو غرسيه » ملك نبرة ، وبعد موت «سانشو » ملك نبرة تولى العرش « خيمينيث غرسيه » وكان قاصراً فتولت الوصاية عليه الملكة « طوطة » التى سارعت بمهادنة عبد الرحمن الثالث ، بل نجد أنها تأخذ ابنها الذى أصيب بالسمنة المفرطة وتفد على قرطبة لكى يتولى أطباء قرطبة علاجه . وعندما تخلى ألفونسو الرابع عن العرش وترهب فى دير « اسهجون » خلفه ابنه « رذمير الثالث » فحالف الأوصياء عليه عبد الرحمن الثالث ودخلوا فى طاعته ، ثم وقعت حرب بين الطامعين فى العرش استراح فيها عبد الرحمن مؤقّتاً من متاعب الأخطار التى كانت تهدد ثغوره الشمالية .

وقبل أن نختم هذه الفقرة عن علاقات عبد الرحمن مع ممالك النصارى فى الشمال نضيف فقرة قصيرة عن الصراع الذى دار بين عبد الرحمن الثالث وملك نشيط من ملوك ليون هو « راميرو الثانى » الذى عز عليه أن يشهد ما أصاب البلاد النصرانية على يد خليفة قرطبة ، فاستجاش ملوك الممالك النصرانية وجمع جيشاً كبيراً ليغاور بلاد المسلمين ، فاستعد له عبد الرحمن الثالث استعداداً كبيراً ، خاصة وأن راميرو استولى على حصن مجريط وهدّد طليطلة سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢م. وقد جمع عبد الرحمن جيشاً ضخماً احتفل فى إعداده حتى سماه بجيش القدرة وسار إلى الشمال وحاصر راميرو الثانى فى بلدة « أسمه » وخاف راميرو الثانى اللقاء ، فانطلق عبد الرحمن فى البلاد حولها ، ويقال إنهم نهبوا ديراً يسمى دير شنت بطره San Pedro de Cardena . وقتلوا فيه عدداً من الرهبان . ويقع ذلك الدير شرقى مدينة « برغش » ثم تقدم عبد الرحمن واحتل سرقسطة ، ثم توغل فى أراضى نبرة وأرسل قائده « مطرف بن منذر التجيبى » الذى دخل فى طاعته ، فاسترجع قلعة أيوب ولكنه قتل فى المعارك حولها ، واستولى عبد الرحمن على نحو ثلاثين حصناً وأرسل قائده « أحمد بن إسحق القرشى » فعاث فى أراضى نبرة ، وبعد ذلك وفى سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩م . تقدم عبد الرحمن بجيوشه من مدينة « سلمنقة » والتقى بجيوش ليون ونبرة عند أسوار بلدة « شنت مانقش Simancas » .

وحدث فى هذه المعركة أن عبد الرحمن أقام على رياسة الجيش قائداً فى مواليه من الصقالبة يسمى « نجدة الحيرى » فغضب القواد الأندلسيون ورجالهم

وتخلوا عن عبد الرحمن فلحقت بـه الهزيمة فى ١١ شوال ٣٢٧ هـ/ أول أغسطس ٩٣٩ م ، وتـراجع المسلمون فتسـاقط الكثير منهم فى خنـدق كـان النصارى قـد حفروه ، ولذلك تسمى هذه المعركة « بمعركة الخندق » وقد بالغ مؤرخو النصارى فى تهويل أهمية ذلك النصر مع أنه لم يؤثـر كثيرًا فى قوى عبد الرحمن ولكنه كسب منه درسا ، وهـو ألا يولى على جيوشه قـادة من الصقالبة ، وقد كـف عبد الرحمن بعد ذلك عن قيادة الحملات وكانت السن قد علت به ، إذ أنه فى ذلك التاريخ كان قد بلغ الخمسين من العمـر ، وقد استعاد روذمير الثـانى معظم الحصون التـى كان عبد الرحمن الثالث قـد اسـتولى عليها فى وادى نهـر « تـورمس » وقـد اجتهد عبد الرحمن فى فك أسر من وقع بيد النصـارى من قواده مثل أبى يحيى محمد بن هاشم ، صـاحب سرقسطة الذى سيصبـح بعد ذلك من أكبر رجال عبـد الرحمن . وبعـد ذلك بقليل عقـد الصلح بين راميرو الثـانى وعبـد الرحمن الثـالث وسـارع «فرنان كـونثالث » الذى يعتبر أول أكناد كونتينـة قشتالة الناشئـة ، وحالف عبد الرحمن الذى حصن ثغوره واختار أحسن قواده لتولى الأمور فى الشمال ، فسكنت الأمور ومال راميروالثانى الى عقد صلح دائم مـع عبد الرحمن مع أنه كان فى نفس الوقت حليفاً لأردنيو الثالث ملك قشتـالة ، وقد ولى عبدالرحمن على الثغر الأوسط قائده « أحمد بن يعلى » ووجهه للإغـارة على بلاد ليون وفى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٤م قاد القـائد « أحمد بن محمد بن إلياس » حملـة على جليقية ، وعقب ذلك نجـد عبد الرحمن ينقل قـاعدة الثغر الأعلى إلى مدينة سـالم ، بعد أن كانت فى مـدينة طليطلة وولى عليها قائده « غالب الناصرى » الذى سيكون له دور عظيم فى تاريخ الأندلس فى أيام عبد الرحمن وخليفته الحكم المستنصر .

وقد حصن عبد الرحمن مدينة سالم وجعلهـا قاعدة متينة للأعمال العسكرية فى الشمال ، واستعـاد غالب كل المواقـع الإسلاميـة التى كـان راميرو الثانى قـد استولى عليهـا ، وفى سنة ٣٣٧هـــ / ٩٤٩م . تمكن « غالب النـاصرى » من قيادة حملة عاثت فى أراضى سلمنقة ووصلت إلى بلـدة « لك » عاصمة جليقية وفى صيف ٣٣٩هـ / ٩٥٠م . قام أحمد بن يعلى بغارة جريئة وصل فيها الى ساحل المحيط فى جليقية ، وهنا أدرك راميرو الثـانى أنه لا قبل لـه بعبد الرحمن فسار إلى مصالحته ثم توفى فى ينايـر ٩٥٠ ـــ ٩٥١م . وبذلك انتهى عصر ذلك الملـك الحافل بالغارات

على بلاد المسلمين ، واستراح عبد الرحمن من هذه الناحية وأصبحت مملكة ليون مثلها فى ذلك مثل مملكة نبرة من توابع قرطبة . وكان عبد الرحمن الثالث فى ذلك الحين قد وصل إلى أوج قوته داخل بلاده وخارجها ، ومد نفوذه على بلاد المغرب وجعل من قرطبة مركز خلافة إسلامية تزيد فى القوة والبهاء عن خلافة العباسيين التى كانت قد دخلت فى دور الضعف والانهيار .

وكان الذى قد خلف راميرو الثانى هو أردنيو الثالث ولم يكن من طراز أبيه ، فحاول أن يثبت مركزه با لمصاهرات مع ملوك إسبانيا النصرانية الآخرين مثل غرسيه سانشو الأول « وفرناندو نثالث » كونت قشتالة ، التى اشتد عودها فى ذلك الحين، وقامت فيما يسمى بقشتالة الجديدة فى الحوض الأوسط لنهر دويرو، ومن سوء حظ ملك ليون ، أن اختلف عليه زملاؤه من ملوك إسبانيا النصرانية ودخل فى حروب معهم ، وانتهز قواد عبد الرحمن الثالث الفرصة لكى يغيروا على بلاد مملكة ليون ، ففى سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٣م . نجد قواد الناصر من أمثال أحمد ابن يعلى وغالب الناصرى يقومون بحملات يوغلون فيها فى أراضى ليون حتى يصلوا إلى جليقية بل تمكنوا فى ربيع الاول ٣٤٤هـ / يوليو ٩٥٥م . من إنزال هزيمة قاصمة بقوات أردنيو الثالث ، هلك فيها من رجاله نحو عشرة آلاف . وقد حاول أردنيو أن يعوض تلك الخسارة بالإغارة على الأشبونة واتجه صهره « فرناندو نثالث » إلى مهاجمة حصن غرماج ، إلا أنه اضطر آخر الأمر إلى طلب الهدنة من عبد الرحمن الثالث بعد هزيمة ربيع الأول ٣٤٤هـ التى ذكرناها ، ولم يمنحه عبد الرحمن هذه الهدنة بل أرسل سفيرين من لدنه هما « محمد بن الحسين واليهودى أبو يوسف حسداى بن إسحق بن شبروت » وكان من كبار يهود الأندلس ، فقد ولد فى جنيان سنة ٩١٥م وتثقف ثقافة عالية فى اللغة العربية وآدابها ، وإلى جانب ذلك كان طبيباً ماهراً وتمكن السفيران من إقناع أردنيو الثالث بضرورة التفاهم مع عبد الرحمن الناصر الثالث فتنازل عن عدد من الحصون وتعهد بعدم العدوان على بلاد المسلمين . وعلى هذا الأساس فقط منحه الناصر الهدنة وأسرع الكونت« فرناندو نثالث » بدوره يطلب مهادنة خليفة قرطبة وحصل على تلك الهدنة واعترف للناصر بالسيادة عليه .

ثم اتجه عبد الرحمن إلى نبرة . وكان الملك أردنيو الثالث قد توفى

عند « سمورة » وخَلَفَه على عرش ليون سانشو الأول ، فسارع إلى طلب الصلح والوفاق مع عبد الرحمن الناصر ، بعد أن هاجم أراضيه القائد أحمد بن يعلى ، ولكن رجال مملكة ليون لم يكونوا راضين عن ملكهم هذا بسبب إفراطه فى السمنة وعدم قدرته على ركوب الخيل ، فاجتمع رأيهم على عزله وعزل بالفعل ،وخلفه أردنيو الرابع الملقب « بالسيِّئ أو المالو » وهو ابن ألفونسو الرابع الذى ذكرنا أنه ترهب . وحاول هذا الأخير أن يثبت لقرطبة ولكن الملكة طوطة أم أردنيو الثالث أخذت ابنها السَّمين هذا وذهبت به إلى قرطبة تطلب علاجه على أيدى أطبائها ، وكذلك أرادت أن يعينها عبد الرحمن الناصر على عودة العرش لابنها ، ورافقها فى هذه الرحلة سانشو الاول وهو حفيد طوطة ، واستقبلهم الناصر استقبالاً حفيًّا وإن لم يعد بتقديم المعاونة السياسية لهم ، ولكن أطباءه فى الحقيقة عالجوا ابنها . وقد عقد عبد الرحمن الناصر الحلف مع مملكة نبرة واضطر بذلك ملك ليون إلى الدخول فى مفاوضات مع عبد الرحمن ، واعترف هو الآخر بسيادته وتعهد بأن لا يهاجم ثغور المسلمين ، وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر وبفضل هذه الجهود المتصلة سنوات طويلة أن يصل إلى ما كان يصبو إليه من توحيد بلاده وإقرار سلطة الدولة فى كل نواحيها وإعادة الهيبة لقرطبة وجعل من خليفتها القوة الكبرى فى شبه الجزيرة والحكم بين ملوكها النصارى فيما يشجر بينهم من خلافات .

عبد الرحمن الثالث والمغرب :

عندما تولى عبد الرحمن بن محمد عرش قرطبة كانت الدولة الفاطمية فى أفريقية قد قامت منذ أربع سنوات (٢٩٦هـ / ٩٠٩م) وكانت للدولة الفاطمية مطامع واسعة فى المغربين الأوسط والأقصى ، وخاصة بعد أن تمكن عبد الله المهدى من إزالة الدولة الرستمية التى كانت تحكم فى جزء كبير من المغرب الأوسط، وكانت دولة الأدارسة فى فاس قد دخلت فى دور الضعف واحتاجت إلى سند ، وتطلع أمراؤها إلى قرطبة ، فى حين بدأ الخليفة الفاطمى من القيروان بشن الحملات الواسعة البعيدة المدى على المغربين الأوسط والأقصى ، مستعيناً فى ذلك بزعماء من البربر الصنهاجيين من أمثال « زيرى بن مناد الصنهاجى » وقريبه «حبوس بن مكسن » وابنه « مصالة بن حبوس » وقد استطاع مصالة هذا أن

يدخل فاس ويجعلها من توابع القيروان ، وأقام عليها رجُلاً من أوليائه يسمى «موسى بن أبى العافية » فقام هذا بإخراج بقية الأدارسة من فاس ونفاهم إلى حصن صغير جنوبى تطوان يسمى « حجر النسر » فى قلب بلاد الريف . وهنا ينتهى الدور الأول فى تاريخ دولة الأدارسة ويبدأ الدور الثانى . وكان لا بد لعبد الرحمن الناصر من أن يعمل شيئاً لحماية حدوده الجنوبية من عدوان الفاطميين وكان عبد الرحمن الناصروبقية خلفاء بنى أمية الأندلسيين ، يرون أن العبيديين الذين أقاموا خلافة القيروان كانوا مدّعين للنسب الشريف ، غير جديرين بولاية الأمر وأن مذهبهم الشيعى الإسماعيلى خارج عن الإسلام الصحيح .

وقد اتبع عبد الرحمن الثالث سياسة ذكية فى مواجهة الخطر الفاطمى ، فقد كان يعرف أنه إذا دخل فى صراع طويل مع الفاطميين فى المغرب الأقصى أضعف فى ذلك جبهته الشمالية أمام النصارى . وكان لا بد له مع ذلك من أن يقوم بأمر يوقف الخطر الفاطمى ، فاتجه إلى أن يرسل المعاونات المالية الكبيرة والعتاد والسلاح إلى « يحيى بن إدريس بن عمر » الذى تزعم الأدارسة ومكن لهم من أن يتغلبوا على موسى بن أبى العافية ومصالة بن حبوس ، وبعد صراع طويل نجد أن عبد الرحمن الثالث يكتفى باحتلال طنجة وسبتة سنة ٩٣١م . ومن هذين الحصنين الكبيرين استطاع أن يمد أعوانه فى المغرب بما هم فى حاجة اليه من العتاد والأموال ليثبتوا أمام الضغط الشيعى ، ولم يفعل عبد الرحمن الناصر أكثر من ذلك فى سياسته المغربية ، وربما لجأ إلى معاونة الخارجين على الفاطميين من غير الأدارسة ، من أمثال بنى خزر اليفرنيين، ولم يقع عبد الرحمن فى الخطأ الذى سيقع فيه ابنه الحكم المستنصر ، عندما ألقى بخيرة قواده وجنده فى الصراع مع المغرب ، فأضعف بذلك جبهته الشمالية ولم يخرج فى نهاية الأمر بنتيجة حاسمة .

الخلافة الأموية القرطبية :

استطردنا فى الكلام عن أعمال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله فى إعادة الوحدة إلى بلاده ومواجهة الخطر النصرانى فى الشمال ، ورأينا كيف أنه وفق فى ذلك تمام التوفيق وأصبح بالفعل أكبر ملوك شبه الجزيرة ، وأعاد إلى دولته وحدتها وتمكن إلى جانب ذلك من إقرار هيبة الخلافة القرطبية فى المغرب الأقصى ،

ونعود بعد ذلك إلى دراسة أعمال عبد الرحمن الثالث الداخلية وما قام به من إصلاحات وتغييرات جعلت خلافة قرطبة بالفعل من أقوى دول العالم فى ذلك الحين.

وفى أواخر سنة ٣١٦ هـ/ أوائل ٩٢٩م. وجد عبد الرحمن أنه أولى بأن يتخذ لقب الخليفة من عبد الله المهدى صاحب القيروان، فأصدر بياناً أعلن فيه نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين، واتخذ لقب الناصر لدين الله. والمقصود بذلك نصر مذهب السنة والجماعة على نصارى الشمال وعلى العبيديين الشيعيين، وقد احتفظت لنا النصوص بذلك الإعلان الذى بعث به عبد الرحمن إلى كافة نواحى الأندلس، وقرئ على المنابر فى كل بلادها وأرسلت منه نسخ إلى أفريقية والمغرب، وبذلك يكون عبد الرحمن قد أدخل تغييراً حاسماً على طبيعة الدولة الأموية الأندلسية، فقد أصبحت الآن خلافة إسلامية عامة مساوية لخلافة بنى العباس ومتولية شئون الإسلام فى الجناح الغربى لدولة الإسلام من دون الفاطميين.

وقد استتبع ذلك إدخال تغيير كبير فى شكل خلافة قرطبة ونظامها، فوضع عبد الرحمن نظماً إداريةً جديدةً تعطى دولته الهيبة والمكانة التى أصبحت لها على أيامه، فازداد البلاط القرطبى ضخامة ووجاهة، وكثر القواد فى جيش الخليفة وتعددت مراتبهم وكثر الوزراء كذلك وازدادوا هيبة، وإن كنا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان كثير التنقيل لوزرائه، ففى أول كل عام تقريباً كان يجرى تنقلات بين الوزراء والعمال والقواد، وكان هدفه فى ذلك ألاّ تطول ولاية رجل فى وظيفة أو ناحية فيستبد بالسلطة، دون الخليفة، ولكن هذه السياسة أدت فى نهاية الأمر إلى إضعاف مكانة القواد والوزراء وإضعاف المركز الممتاز الذى كان يتمتع به أبناء البيوت الموالية الذين قدموا للإمارة كما رأينا أجيالاً متوالية من كبار الرجال فى شَتَّى نواحى الحكم والإدارة والحرب.

وبهذه المناسبة نقول إن عبد الرحمن الناصر كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة، ولا يرى أن يدع الرأى لكبار رجال الدولة ولا يسمح بشىء من الاستقلال المحلى لولاة الأقاليم، وكان هدفه الأخير كما قال فى بعض رسائله التى كانت تذاع على المنابر: إن الأمة ينبغى أن تحول كلها إلى رعية مستأمنة أى مطيعة تأتمر بأمر الخليفة الذى لا يشاركه فى أمره أحد.

وقـد نـاقش عبـد الرحمن النـاصر آراءه تلك مع سفير من سفـراء امبراطـور التيوتون ، وفد إلى بلاطــــه ، يســــمى « يوحنا الجوورزينسى » فقـــد قال له عبد الرحمن ما معناه : إنه معجب بالامبراطـور التيوتونى « أوتو » ولا يأخذ عليه إلا أنه يترك جانبـاً من سلطانه لوزرائه وأمـراء الإقطاع ، وذلك فى رأيه لا يتفق مع سلامة الـدولة وهيبة السلطان . وبـالفعل نرى أن عبد الرحمن كـان حاكماً مطلقاً بالمعنى الصحيح ، وخاصة بعد أن وفـق إلى الانتصارات الباهرة التى حققها داخل بلاده وخـارجها ، فقـد تحول إلى سلطان عظيم ذى بـلاط فخم وجاه واسع وأبَّهة بالغة ، وبينما رأينا أن جده عبـد الرحمن الأوسط كان يتبسط مع وزرائه وشعرائه وندمـائه ، حتى تجرى بينه وبينهم الـدعابـات ، نجد عبـد الرحمن النـاصر سيداً رفيعاً عاليـاً يجلس لوزرائه فى مجلس فخم وبنظام تام ولا يأذن لأحـد من الرعية والأصاغر فى الدخول عليه والحديث معه .

ولم يكن السبب فى ذلك أن عبد الرحمن كان بطبعه طاغيةورجلاً خشن الطبع، بل على العكس من ذلك كان إنسـاناً شديد الحسـاسية بالغ الحياء ، وقـد رأينا أن أدبه الجم كان من أسباب وصوله إلى الإمارة ، ولكنه قبل أن يلى الأمر رأى من جرأة الوزراء والقواد والعمال ما هبط بجلال الإمارة ، وما جعل جده وسلفه « عبد الله بن محمد » أقرب إلى رئيس منه إلى أمير أو خليفة . وعندما تولى عبد الرحمن ظن أن من واجبه أن يضع حدًّا لهذا التبسّط وأن يرفع مكانـة الخلافة ، لأنه كان يرى أن ذلك من ضرورات السلطان القوى المستقر ، ثم إننا رأينا كيف أن رجال النواحى عندما تمتعوا بسلطات محلية فى أقاليمهم أيام عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد بن عبـد الـرحمن ، أدى ذلك إلى طمعهم فى السلطان فـأخذوا يستبـدون بنـواحيهم ، وانتهى الأمر كما رأينا إلى الفتنة الكبرى التي اجتاحت الإمارة القرطبية ثلاثين سنة من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر .

لذلك نجد عبـد الرحمن الناصر لا يسمح بأى وجه مـن وجوه الاستقلال لأهل النواحى ، ويصر على أن يـرسل لهم العمال من عنده ، ولا يـزال ينقل أولئك العمال من مكـان إلى مكـان . وقد أدى ذلك بـالفعل إلى استتبـاب الأمـور وارتفاع هيبـة الخلافة ، ولكنه أدى إلى غضب أفراد بيوت الحكم أو البيـوت الموازية التى ذكرناها وقد رأينا أنه عندما عهد عبد الرحمن الناصر فى كبار الولايات إلى مواليه ، من أمثال

« بدر بن أحمد ونجـدة الحيرى وغالب النـاصرى » تآمـر كبار القـواد الأندلسيين عليه مما أدى إلى كارثة معركة الخندق أو « سيمنقس » التى ذكرناها .

وقد اتعظ عبد الرحمن بما حدث لـه فى ذلك اليوم ، فعاد مرة أخرى يسترضى رجال بيوت الحكم وجعل لهم الرياسـة على مواليه ، واهتم بأن يعيد إلى رجال تلك البيوت ما كان لهم من سلطان وهيبة . ولكن سياسته الأولى كانت قد أضعفت هذه البيوت ورجالها ، وكـذلك كانت سياسـة عبد الرحمن حيال رؤساء أجناد العرب فى نواحى مـرسية وإشبيليـة وفى الكور الجنـوبية ، قاضيـة على ما كـان أصحاب الكور المجندة يرسلونه من جند عـربى باسل قادر على خوض غمار المعارك . وقد كان ذلك خسـارة لا شك فيها ، لأن عرب الكور المجنـدة ، رغم ميلهم إلى الفوضى واستخفـافهم بالحكـومة المركـزيـة وعدوانهم على من كـان يعيش معهم من أهل البلاد ، كانـوا جنوداً بواسل فيهم تلك العصبيـة العربية التى نعرفها . فـأفقد هذا الجندى العربى مكانته بل أعفى أصحـاب الكور المجندة من إرسال الحشود وأداء ضريبة بدلاً منها تسمى ضريبة الحشد ، نلاحظ أن الجيش الأموى الأندلسى فقد عنصراً هاماً من عناصر قوته .

ولكننا لا بد أن نضيف إلى أن عبد الرحمن رغم ميله هذا إلى الاستبداد ، لم يكن ظالماً ولا غاشماً ، فلم يـؤثر عنه أثناء خلافته الطويلـة أنه قتل وزيراً أو استصفى مال إنسان ، أو عدا على حقوق الرعيـة أو بالغ فى عقاب موظف مسىء ، بل كان فى ذلك كله رجلاً كريماً سمحاً لا يتدنى إلى العدوان على الأموال أو الدماء ، ولا يرضى بأن ينزل عقـاباً شـديداً بأحد من خصـومه . ويكاد عبـد الرحمن النـاصر يكون الوحيد من بين كبار خلفاء الإسلام الـذين تصرفوا فى الخلافة تصرفاً سليماً كريماً يتفق مع أخلاقيات الإسلام ومكارم الأخلاق والأصول الأخلاقية العربية .

إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع :

وعندما بلغ سلطان عبد الرحمن النـاصر ذلك المبلغ وجد أن قصوره فى قرطبة لم تعد لائقة بالمركز العظيم الذى وصل إليه ، وكان سكان قرطبة قد كثروا فى أيامه وتقاطر إليها النـاس حتى وصلت المبانى إلى « تل الرصافة » الـذى كان يقوم عليه قصر الرصافة . ثم إن أسواق البلـد ضاقت بمن فيها ، ولم يعد من الممكن لجيوش

عبد الـرحمن ومواكب السفـراء التى تفد على قرطبـة باستمـرار السير فى شوارع المدينة دون مضايقة الناس .

لهذا فكر عبد الـرحمن فى أن ينشئ لنفسه عاصمة ملوكية إلى جـانب قرطبة ، يتخذ فيها القصور لنفســه وأهل بيته وحشمه وخدمه وحرســه ، فقصد مهندسوه إلى جبل « العروس » المطل على قرطبة من الناحية الجنـوبية الغربية على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة ، وقدموا إليه مشروعـاً بإنشاء مدينته الملوكية على سفح الجبل ، خاصة وأن مياه الأمطـار تتجمع فى هضبة بأعلى ذلك الجبل وتتسايل على السفح . فلو أنشئت قنوات مهندســة بنظام خاص لإمكان إجراء الماء فى أعلى الجبل إلى السفح بنظام خاص يمكن من إقامة مدينة ملوكية على طبقات أو مستويات من ذلك السفح ، وتلك هى الفكرة التى قامت عليها مدينة الزهراء التى بدأ عبد الرحمن الثالث فى إنشائها . ويقال إنها منسوبـة إلى واحـدةمن نسـاء عبد الرحمن تسمى « الزهـراء » ، ماتت عن مال كثير ، وأوصت الخليفة النـاصر بأن ينفق هذا المال فى افتكاك أسرى المسلمين فلم يجد عبد الرحمن أسرى يفديهم بهذا المال ، فقرر إنشاء تلك المدينة وأطلق عليها لقب الزهراء ، وتلك فى الغالب حكـاية من طرف ما يسوقه الرواة فى كتب التاريخ ، ولكنها حكاية لها مغزاها ومعناها .

وقد بـدأ عبد الـرحمن الناصر فى بناء الـزهراء فى أول المحـرم ٣٢٥ هـ/ ١٩ نـوفمبر ٩٣٦م ، وعهـد فى الإشراف على بنائهـا إلى ابنـه الحكم بن عبـد الـرحمن ، ووضعت خطتها على أن تكـون مدينة ملكيـة قائمـة بذاتها، على بعد خمسـة كيلو مترات شمال غـربى قـرطبة على سطح جبـل العروس ، وقـد بنيت على درجـات ، بحيث يرقى داخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفى كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة . ويـدخل الإنسـان إليهـا أسفل الجبل بمدخل كبير يسمى « بـاب الأقباء » جمع « قبو » ويـراد به هنـا القبة ، ومعنى ذلك أن هـذا المدخل كـانت تقوم فـوقه وتحيط به قباب ، ويسير الإنسـان مسافة طـويلة على طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتـى يصل إلى باب السدة ويراد بـه باب القصر ، ويصعد درجات وإلى جانب المصعد للدرج ، مصعد آخر للخيل بلا درج فيصل الإنسان إلى المستـوى الثانى من مستـويات مـدينة الـزهراء ، وهنـا مساكن الجنـد والحرس وأصحاب الحرف الـذين تحتـاج إليهم المدينة ، وهنـا أيضا وجـدنا آثـار المسجد الجامع لمدينة الزهراء ، وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة .

فإذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط وسوق لتبنى عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه ولتقيم فيه جماعات الحرس الخاص بالخليفة ، وما يلزم لهؤلاء جميعاً من الحمامات والمساجد.

وبعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى الأعلى لمدينة الزهراء ، ويواجهه لأول صعوده البهو الكبير ، الذى أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب . وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس من طراز عصر الخلافة ، ويفضى الإنسان من المدخل إلى قاعة فسيحة مقسمة طوليًّا إلى ثلاثة أبهاء ، فأما البهو الأوسط فينتهى فى الصدر بمجلس الناصر ، وهناك يجلس الخليفة على عرشه تحيط به مقاعد أفراد الأسرة المالكة بحسب مراتبهم ، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف ، مرتبة ترتيباً محكماً ، بحيث يكون لكل رجل من رجال الدولة مقعده الذى لا يتغير ، حتى إذا نظر الناصر وتبين خلو المقاعد عرف من المتغيب ، أما البهوان الداخليان فيستعملان لموظفى القصر وكتاب الخليفة . وهذا المجلس الجميل يبدو للرائى من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء ، ومن الواضح أن عبد الرحمن الناصر أراده على هذه الصورة لكى يستطيع فى مجلسه فيه أن يرى السفراء والملوك وهم مقبلون من بعيد ثم صاعدون إلى القصر . وقد كشف عن آثار هذه المدينة الملكية وبدأ فى إعادة إقامة بعض منشآتها وخاصة بهو الاستقبال ، الباحث الأثرى الإسبانى « بلاسكث بوسكو Velasquez Bosco » وقد سميت الرحبة التى أقيم فيها البهو الرئيسى ، باسم « السطح الممرد » وقد جلبت مادة البناء من شتى نواحى الأندلس وأوربا وأفريقيا . ويذكر المؤرخ ابن عذارى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ٦ آلاف صخرة ، سوى التبليط فى الأسوس (أى الأسس)، وجلب إليها الرخام من قرطاجنة أفريقية ومن تونس ، وكان الأمناء الذين جلبوه « عبد الله بن يونس وحسن القرطبى وعلى بن جعفر الإسكندرانى » ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية ، وكان فيها من السوارى ٤٣١٣ سارية منها ١٠١٣ سارية من أفريقية ، وأهدى إليه امبراطور بيزنطة ١٤٠ سارية والباقى من الأندلس .

وأمام بهو الاستقبال وضع حوض للسباحة من الرخام ، حفر له فى الأرض وهو منقوش ومزين بالتماثيل ، وقد جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية ، وكان عليه كما يقول ابن عذارى ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس الغالى مما صنع بدار الصنعة بقرطبة ، وإنما أطلنا الكلام بعض الشىء على إنشاء تلك المدينة لنعطى عن رخاء الأندلس وارتقاء الفنون فيها فكرة واضحة . وكان الناصر فيما يقول المؤرخون قد قسم الجباية الى ثلاثة أثلاث : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث للمدخر . وكانت جباية الأندلس يومئذ ٥مليون و ٤٨٠ ألف دينار من الكور والقرى ، ومن المستخلص والأسواق ٧٦٥ ألف دينار .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغ ازدهار قرطبة أقصى درجاته ، فقيل إن عدد دورها بلغ ١١٣ ألف دار ، فإذا قدرنا لكل دار عشرة سكان على الأقل ، كان المجموع مليوناً ومائة وثلاثين ألفاً . وهذا الرقم مستبعد لأن الأحوال فى العصور الوسطى لم تكن تسمح بقيام مدينة بهذا الحجم ، ولكننا نستنتج منه بصورة عامة فكرة عن اتساع المدينة وازدهارها ، ومما يدل على كثرة سكانها ما يقال فى أن عدد الحمامات بها بلغ ٣٠٠ حمام وهو رقم يدل على ضخامة تلك المدينة .

ولا نستطيع أن نُجارِىَ المؤرخين فيما يذكرونه من أرقام عن اتساع مساحة قرطبة فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، مثل قولهم إن عدد مساجدها بلغ ٣٠٠٠ مسجد، وهو رقم لا يمكن تصديقه إلا إذا افترضنا أن معظم هذه المساجد كانت مساجد خاصة ، أى أن كل صاحب بيت كان ينشئ فى بيته مسجدا له ولأهله، وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل الرحال .

وبهذه المناسبة لا بد أن نشير إلى الزيادة الثالثة التى أمر بها عبد الرحمن الناصر بإضافتها إلى مسجد قرطبة الجامع ، وهى زيادة ضاعفت حجم المسجد وكانت فى اتجاه النهر أى نحو الجنوب ، فأزيل جدار القبلة ونقل إلى قرب ضفة النهر ، وهناك بنى سوراً يحجز المسجد عن الشارع المبلط بين النهر وسور المسجد ويسمى بالرصيف ، وكان متنزه أهل قرطبة .

أما زيادة الناصر فى المسجد الجامع فقد بلغ بها المسجد إلى أعلى ما وصل إليه من رقى وجمال ، وقد بنيت على نفس طراز بقية المسجد . أى أن أقواسه بها مزدوجة ومداميك الأقواس من الحجر الأبيض والطوب الأحمر وأجمل ما فى هذه

الـزيادة هى البـلاطة المؤديـة إلى بلاطـة المحـراب ، وقد قـامت على عمدٍ وقـوائمَ مزدوجةٍ تـرتفع فوقها قبة تقـوم على عصبات من الحجر ، وعند دراسـة بناء هذه القبـة تيقن المعماريـون أن المعمـاريين الذين أنشأوها، وعلى رأسهم العريف أو المهندس « أحمد بن بـدر » قد وضعوا الأسـاس للطراز الذى شاع فى أوربـا بعد ذلك وعرف بالطـراز القوطى ، وأكبر خصائص الأعمدة والعقـود المدببة التى تقوم عليها القباب .

ومحراب هذه الزيـادة آية من آيات الفن الأندلسى ، لأنـه ليس مجرد حنية فى جدار المحراب ، وإنما هو غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة من الرخام فى هيئة محارة وكان فى وسط هذا المحراب الصغير كرسى يوضع عليه المصحف العثمانى ومنه يقرأ القارئ قبل الصلوات الجامعة .

وقـد أنشأ عبد الـرحمن الناصر صـومعة المسجـد الجامع أى مئذنتـه ، وهى مئـذنة فى غـاية الضخـامـة والجمال ، لأنها بناء ضخم يقع فى النهـاية الشماليـة لصحن المسجـد المكشوف ، وكـانت تـرتفع فى الجو ثمانين متراً ، ولهـا موقفـان للأذان ، ويزيِّن أعلاها شبه سقف صغير مزيَّن بتفافيح أى كرات ، اثنتان منها من الذهب وواحدة من الفضة .

كذلك أقـام الناصر ما يعـرف بالظُّلَّـة فى صحن المسجد الجامع ، وهى سقف متحـرك يقـام من أعمدة الخشـب والحصر ليستظل بها الناس أثنـاء الصـلاة فى الصيف ، ثم تـرفع بعد الصـلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مـزيّناً بأشجـار النارنج ، وهى ظاهرة تنفرد بها صحون مسـاجد الأندلس عن غيرها من صحون المساجـد فى عالم الإسلام ، وكذلك أكثـر الناصر من إنشاء المساجـد وتعميرها فى شَتَّى نواحى الأندلس . ويعتبر الناصر من أكثر حكام المسلمين منشآت فى مختلف نواحى بـلاده ، فإليه يرجع الفضل فى تجديـد أو إنشاء عدد كبير فى مساجـد مدن الأندلس من شمالـه إلى جنوبه ، ولا نزاع فى أن ذلك الرجـل يعتبر من كبار البنَّائين فى تاريخ الإسـلام . ولم تقتصر منشآتـه على القصور والمسـاجد ، بل إليـه يرجع الفضل فى إنشاء دار السكة فى قـرطبة وتجديد قنطرة الـوادى فى « أودية » وتجديد قنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة .

تقدير عبد الرحمن الناصر :

وبعد هـذا العرض الموجـز لحياة ذلك الخليفـة العظيم الذى يعتبر من أعـاظم الخلفاء المسلمين فى كل العصور نقول : إن ذلك الـرجل تميَّز بخصائص وصفات تؤهله إلى الأوج العظيم الذى بلغه ،فقد ذكرنـا تعففه عن الدماء وبعده عن المساس بأحد من رجالـه أو مصادرة أمواله ، وقد كان يكتفى فى ذلك المجـال بأن يقدم إليه الحُجَّاب هدايا ذات قيمة كبيرة تضم الأمـوال والخيل والسلاح فى المناسبات ، وقد اشتهر أمـر هديـة عظيمة قـدمها للنـاصر حاجبـه « عيسى بن شهيـد» فى إحدى المناسبـات ، وقد أورد تفصيل أمـرها المؤرخـون ، ومن وصفها نتبين أنها كـانت تقـدر بما يقـارب المليـون من الـدنـانير وكـان المفـروض أن هـذه الهدايـا تعتبر مساهمات من أولئك الرجال لمعاونة الناصر على القيام بنفقات دولته ، فقد رأينا أنه كان عظيم النفقة فى الحروب والجهاد والمنشآت والعناية بالمرافق .

ولكنه لم يلجأ قط إلى الحصول على مال من أحـد بالقوة أو العنف ، بل يحكى المؤرخون حكاية تدل على عظيم شعوره بمسئوليته عن أرواح وأموال رعاياه . وقد حكى الحكـاية « حيـان بن خلف» مـؤرخ الأندلس ونقلهـا ابن عذارى والمقـرى، وخلاصتها أن رجلاً كان يتصرف فى كبـار الولايات ويتولى تموين الجيش اكتسب مالاً عظيماً من خدمـة الناصر ، وكان الناصريتوقع أن يقـدِّم ذلك الرجل إليه بعض ذلك المال ، يستعين به على أمره فلمح الناصر له بذلك مراراً وهو فى مجلسه . وهذا الرجل يسمى « محمد بن سعيد » المعروف « بابن السليم » .

وفى ذات مرة أشـار الناصر مرة أخـرى إلى مال ذلك الـرجل فطار عقل ابن السليم ، ولم يختلجـه الشك في أنـه المعنيّ بـه فقـام بين يـديـه وقـال : يـا أمير المؤمنين،طالما عـرضت لى فسكت ، بلى والله عنـدى مال كثير وهـو دون ظنك فيه حُطْتُه بالتقتير وأعـددتُه للدهر العَثُور ، ولست والله أعطيك منـه درهماً فما فوقه ، ورأيك فى جميل إلا أن تستحلَ ، وأعوذ بالله أن تمد يدك إليه بغير جناية منى عليك، فإن الأنفس محضرة الشح . قال فخجل الناصر وأطرق يتلو قول الله تعالى : ﴿ إن يَسْئَلْكُموهَـا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُـخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ (سورة محمـد آية ٣٧) وبعـد قليل بلغ الـرعب بالـرجل أن تهوع فقـذف ، وابتـدره الوصفـاء بـالطست

والمناديل، فأقبل الناصر وأخذ برأسه يمسكه ويقول له: « استفرغ ما فى معدتك وتأنَّ بنفسك » ، فأنكر ابن السليم كلامه بين الخدم ، وصرف إليه رأسه ، وإذا به الناصر ، فما تمالك أن خر إلى رجليه يقبلهما ويقول : « يا ابن الخلائف إلى هناك انتهيت فى برى ! » وجعل يدعو له ويعظم شكره ، فقال له الناصر : « ليتنى أخرج كفافاً فى شأني معك الليلة » . تأنيساً بإخافة ، وإلطافاً بجفوة ، ثم أمر له بكسوة و انقلب إلى أهله(١).

وهذا المثال يكفى للدلالة على ما كان يتمتع به عبد الرحمن الناصر من سعة قلب ورفق بالناس وتقدير لمسئوليته وعفته عن الأموال والدماء ، ولا غرابة والحالة هذه أن يصل هذا الرجل إلى هذه المكانة التى وصل إليها فى تاريخ الإسلام ، فهذا رجل تولى الأمر فى الثانية والعشرين من عمره ، والبلاد مشتعلة نارا ونواحيها خارجة على الحكومة المركزية ، وقد أفسد أمرها الثوار وخاصة عمر بن حفصون وأمثاله من « ابن الشالية والسرمباقى وعبد الرحمن بن مروان الجليقى» وغيرهم من كبار ثوار المولدين ، بالإضافة إلى ثورات العرب على حكومة قرطبة وخاصة فى ناحية المرية وكورة إشبيلية ، فما زال ذلك الرجل يعمل بجد ودأب مستعيناً فى عمله بالسرعة والحزم ، وكذلك بالخلق الكريم . فقد ضرب للثائرين المثل فى حسن الخلق واحترام الكلمة ، فما كان يستنزل ثائراً إلا وفًّى له بعهده ، وصدقه ما وعده إياه ، فأحسّ الثوار بأنهم أمام حاكم من طراز فريد فاطمأنوا إليه ودخلوا فى طاعته ، وبعد نحو عشر سنوات من ولاية الناصر نجده قد استطاع أن يعيد الهدوء والنظام والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة ، وخاصة فى الجنوب والشرق والغرب ، ثم تمكن من استئلاف رجال الثغر الأعلى من أمثال بنى قسى وبنى هاشم الطويل ، فاستأمنوا إليه هم الآخرون ودخلوا فى طاعته . وهكذا تمكن هذا الرجل من الاستفادة من ملكات أهل الثغر الأعلى ، وكانوا فرساناً أشداء ويكفى أن نذكر أن هاشماً الطويلَ بلغ من إخلاصه للناصر ، بعد أن استأمن إليه ، أنه استشهد فى سبيله فى موقعة الخندق .

وعندما تولى الناصر كان ملوك الممالك النصرانية قد طمعوا فى ثغور الأندلس الشمالية ، فما زال يقاتلهم كما رأينا ويوالى الحملات عليهم حتى انتهت أيام

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : ٢/٢٢٦ .

أردنيو الثـانى ، ودخل خلفه فى حلف النـاصر وأطاعـوه .وقد رأينـا كيف أن ملوك إسبانيا النصرانيـة جميعاً قد أصبحوا إمّـا من أتباعه أو أحلافـه ،وبذلك استطاع ذلك الرجل أن ينشر على شبه الجزيرة كله أمانًا واستقراراً لم يعرفه من قبل .

وفى أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من ازدهار بلاده وتألق أضواء قرطبة ، أن وفـد السفـراء عليه من شَتَّى بـلاد أوربـا . ومن ملـوك أوربـا ـ الـذين أرسلـوا السفارات إلى ـــ الناصر الملك «أوتو » امبراطور الامبراطـورية الجرمانية المقـدسة ويسميـه المؤرخون «هـوتو» ملك الصقـالبـة ، فقد أرسل إليـه سفارة استقبلهـا الناصر فى البهو الكبير فى مدينة الزهراء ، وبعث إليـه « هيو كابيه » ملك الفرنجة فى فرنسا ويسميه مـؤرخونا « هوقو » ملك الفرنجـة وكذلك أرسل إليه « قلدو » ملك الفرنجة فى أقصى شرق أوربا والمراد به Hugo de Arles وهو مركيز «بروفنسا » فى جنـوب فرنسـا، وقد صـار هذا الـرجل ملكاً على إيطـاليا فى سنـة٩٢٦م . ومن السفارات التى وفـدت على الناصر سفارة قلـدو . ويراد به « جـريدو بن أدلبرت» مركيـز توسكانيا ، وكـذلك أرسل إليه سفارة كونت بـرشلونة وطركـونة ويسمى «المغيرة بن سونير » Mugira Luijo De Sunier بل أرسل إليه صاحب روما وهو البابا سفـارة تخطب وده، وقد أشرنا إلى السفارة أو إلى البعثـة التى قام بها راهب مسيحى من ألمانيـا يسمى « يوحنـا الكرزى » Yohannes Von Gotze ، وقد دونها لنا ونقل لنا نصهـا أسقف يسمى « يوحنا » كان فى ديـر « سان أرتو » ، وفى تفاصيل هذه الـزيارة الباقية إلى يومنـا هذا ، ما يدل على مـا وصل إليه الناصر من عظمة وجـلال فى أنظار ملوك الغرب ، وقـد وصفت راهبة ألمانية ، لم تزر قـرطبة ، ولكن صيتها بلغها ، وصفتها بأنها درّة أوربا.

ولا شك فى أن طول عمر عبـد الرحمن الناصر أعانـه على تحقيق هذه العظائم التى قام بها ، فإن طول العمر يبلّغ الآمال، فلقد عاش هذا الرجل حتى هلك أعداؤه، وانفسح أمامه السبيل لكى ينهض بأعماله كلها فى إعادة الأمن والنظام ، إلى تثبيت الحدود ، و تنظيم الإدارة، وإنشاء المنشآت . وكل ذلك قام بـه عبد الرحمن الناصر فى هدوء وثقة نفس ، وبلغ بذلك أقصى مـا بلغه حاكم مسلم فى العصور الوسطى . ولقد قدر المؤرخون المحدثـــون عبــــــد الرحمن الناصر أعظم تقدير ، فقال فيه « دوزى » المستشرق أنه أقـرب إلى حكام العصر الحديـث منه إلى ملـوك العصور

الوسطى ، وقــال ليفى بروفنســـال : إن « عبد الــرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوربا كلها فى كل العصور » . وأشار إليه أرنولد توينبى المؤرخ واتخذه مثالاً للحــاكم المستنير ، الــذى يتخطى عصره بملكاتــه ومواهبــه وأخلاقــه وفـهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئولياته جميعاً .

وتوفى عبد الرحمن الناصر فى الثانى من رمضان ٣٥٠هـ / ١٥أكتوبر ٩٦١م بعـد أن قام بـالعمل العظيم الذى أشرنـا إليـه ، ووصل بالأنـدلس إلى أوج قوتـه وازدهاره ، ودفـن فى رياض قصر قرطبـة حيث كانت مـدافن أمراء البيـت الأموى الأنـدلسى وخلفـائه ، وقـام من بعـده ابنـه الحكم بن عبـد الـرحمن الـذى تلقَّب بالمستنصر .

* * *

خِلافَة الحكَم المستَنصِر

٣ رمضان ٣٥٠ ـ ٢ صفر ٣٦٦هـ

١٦ أكتوبر ٩٦١ ـ ٣٠ سبتمبر ٩٧٦م

نهوض العلم فى أيامه :

من حسن الطالع أن الـذى خلف عبد الرحمن النـاصر ، كان كبير أولاده وولى عهـده الحكم الـذى اتخذ لقب المستنصر بـالله ، وكـان خير خلف لخير سلف ، ونستطيع أن نقول إن حكمـه كان مكمِّلاً لحكم أبيه ، فإذا كـان الناصر رجل حكم وسياسة وحروب ، فقد كان الحكم المستنصر رجل علم وحضارة ، ولم يكن الحكم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هـو نفسه عالماً مشاركاً فى علوم عصره ، فقـد كان متقناً للعلـوم الإسلامية حتى سمع الحديث منـه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجازوه مرويـاتهم ، وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم ولا يرد منهم أحداً . وأنشأ فى القصر مكتبة لا نبالـغ إذا قلنا إنها أعظم مكتبة أنشأتها دولة إسلامية فى العصور الوسطى ، فقد بنى لها بناءً خاصًا ، وأقيم فيها رجال المكتبات من مفهرسين ومسجلين ومنظمين ، وكانت فهارسهـا تقع فى ٤٤ كراسـة لا تضم إلا العناوين ، وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف المليون مجلد، وأُنشئ لها مصنع خاص بالتجليد، وعمل فيهـا عشرات النساخين ، وكان للحكم مراسلوه الذين يوافونه بالكتب الجديـدة لأول ظهورها ، وكان يجيز على ذلك بالمال الكثير ، وهناك كتب شرقيـة كثيرة كان الحكم أول من قرأهـا ، لأنه عندمـا كان يسمع بأن مؤلفاً مجيداً يكتب كتاباً كان يـرسل إليه مالاً لتكون له النسخة الأولى ، ومن أمثلة ذلك كتاب « الأغـانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، فقد أرسل إليـه الحكم ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل .

وقـد انتقد الحكم المستنصر بسبب هـذا الإسراف فى الانصراف إلى العلم ، فإن ذلك صرفـه عن القيام بمطـالب الحكم كما ينبغى ، وهنـاك وجه من الحق فى هـذا

النقد ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد أمثال ابن أبى عامر سبيلاً إلى السلطان .

والطريف فى الأمر أن الحكم كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ويعلّق حواشيها ويستدرك على مؤلفيها بخط يده ، وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم وملاحظاته ، وكان العلماء بعد الحكم يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تُعْتَمَد ، ولم يقتصر الحكم على علوم العرب بل عنى بكل العلوم ، وتحت إشرافه ترجم « قاسم ابن أصبغ البيانى » و « حفص بن ألبر » كتاب التاريخ « لهيروشيوش » من اللاتينية ، وترجموا له كتاب « ديو سقوريدس » في الطب من اليونانية ، وكان يرسل الناس إلى شَتَّى البلاد ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الأقطار ويحتفظ بهذه الدراسات فى مكتبه ، ومن أمثلة ذلك رحلة « إبراهيم الطرطوشى » الإسرائيلى فى بلاد أوربا ورحلات محمد بن يوسف الوراق فى أفريقية وقد كثرت المكتبات فى الأندلس فى أيام الحكم ، وأصبحت صناعة النسخ من الصناعات الزاهرة ، وقد اشتغل فيها النساء فى البيوت بصفة خاصة ، واشتهرت الكثيرات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوخاتهن بالاسم ، وكانت نسخ القرآن التى تكتبها الأندلسيات مضرب المثل فى الدقة والجمال ، وتنافس الناس فى اقتناء الكتب حتى أصبحت تُشترى لاستكمال مظهر الرقى والترف ، فكانت المكتبة جزءًا من مركز الرجل الاجتماعى .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق نهضة كبرى ، واشتهرت بلاد أندلسية بورقها الجيد مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة ، وكان الورق الشاطبى مشهوراً فى العالم الإسلامى كله ، وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، وإلى جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه ، وقد عرف عرب الأندلس صنفى الورق اللذين عرفا فى العصور الوسطى وهما الكاغد ، وهو ورق عادى ، والرقاق وهو ما يعرف بالبارشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب القماش فى متانته مع الاحتفاظ بصلابة الورق ، وقد وصلت الرقاق الشاطبية إلى كافة نواحى أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الأناجيل ووثائق الكنيسةعليها ، ثم قلّد الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تنفرد صناعة الورق وحدها بـالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقـلام وشمع للأختـام وسكـاكين لقطع الأقـلام وما إلى ذلك . وقـد نبغ الأندلسيون فى صنـاعة الأحبار وعرفوا المعدنى والنبـاتى والمطبوخ وغير المطبوخ والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغـاب ، ويسمونه الأنبوب وريش الطيور ، بل صنع بعضهم أقلام حبر ، أى أقلاماً تُـملأ بالحبر وتصنع بهيئة محكمة بحيث يحملها صـاحبها معه ويكتب بها متى شاء .وتفننـوا فى صنع المحابر من الـزجاج والبلّور والرخام ، وكانوا يزخرفون المحـابر ويكتبون عليها اسم صـاحبها بالحفر مع بعض الشعـر أحيـانـاً ، واشتهروا بمحـابـر محكمـة الصنع تُعمل على هيئـة الخنجر فى قرابه ، لتوضـع فى حزام الثوب مع أقلامها وأنواع غيار التجفيف .

ونشأت فى قرطبة وغيرها من بلاد الأندلـس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق الـوراقين ، فأما الـوراق فهو تـاجر الكتب أى المخطـوطات فى ذلك العصر ، وكـان المفروض فى الـوراق أن يكون عـالماً بالكتب وأقـدارها وخطوطهـا بحيث يستطيع تلبية حاجـات عملائه ، وفى العادة تجد الوراق من أهل الأدب لكثرة مـزاولته النظر فى الكتب .

وأمـا الـرقـاق فهـو تـاجر الأدوات الكتـابيـة أو مـا يسمى بالإنجلـــــيزية Stationary

و في بعض البلاد العربية يسمى الدكان بـالقرطاسية أى التى تبيع القراطيس والاقلام والأحبار والكراسات . .

سياسة الحكم المستنصر :

وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السـديد فى أمور ملكه، وقـد حاول ملوك النصرانية أن ينتهزوا فرصة اشتغاله بالعلـوم فبدأوا بالإغارة على أطراف الدولة ، فنهض الحكم بـالغزو ابتداء مـن سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣م. وأوغـل فى أرض ليون ، فلم تجئ سنـة ٣٥٢هـ / ٩٦٤م . حتى كـانت قوات قـرطبة قـد أوغلت فى أراضـى ليون ونبرة واستولت على قلاع كثيرة من قلاعها وأرغمت هـاتين الملكتين وغيرهما من الإمارات النصرانيـة على العودة إلى التسليم بسيـادة قرطبة . وابتـداء من سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م . بدأت سفـارات هذه الممالك تتوافد على قرطبـة . وقد وصف لنا

ابن حيان مؤرخ الأندلس استقبال هذه السفـارات فى الزهراء والمراسم التى كانت تتبع فى هذه الاستقبالات ، وكلها تنطق بما وصلت إليـه قرطبة من السيادة فى شبه الجزيرة كلها ، بل أرسـل يوحنا الشميشق Tsimiskes امبراطور بيزنطة ،سفارة إلى قرطبة سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م . وكذلك أرسل أوتو الثانى امبراطور ألمانيا ـ الذى خلف أوتو الأول ـ سفارة لتجدد المودّة والصداقة مع قرطبة .

حروب الحكم فى المغرب :

وظهـر فى أيام الحكم أمـر قائده الكبير غـالب النـاصرى الذى يلقب بفـارس الأنـدلس ، وهو أول نمـوذج من الجنـد الصقلبى الـذى وصل إلى مراتب القيـادة العليا، التى كانت قبل ذلك وقفاً على أبناءالبيوت الموازية التى ذكرناها. وكان غالب فى شبابـه قائداً ماهراً مـرهوب الجانب لا تجرؤ إمارة نصرانية على تحدى قـواته . وكان مقامه الدائم فى مدينة سـالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور ، أى الجيش المرابط على الحدود الشماليـة ، وكـان فى العـادة جيشـاً ضخماً مُعَـدًّا أحسن إعداد ومُـدرَّباً أكمل تدريب ، وكـانت كتلة الجيش الرئيسى تقيم فى مـدينة سالم قاعـدة الثغر الأوسط ، وكانت هناك فرق إضـافية فى الحصـون الكثيرة التى أنشأها الأمـراء على الحـدود الشماليـة وأهمها مجريط (وهى مدريـد الحالية) وقلعة هنـارس أو قلعة عبد الـــسلام .Alcala de Henares ووادى الحجارة Guadala ajara وسغونشة Siguenza وأنيشه Atienza والمنـار Almenar وقلعة النسور Calatanazor وسوريا Soria وأوسما Osma وغرماج .Gormaz وناجرة Najiara وكلها فى حوضى الدويرو والأبرو الأعليين وقرب منابعهما ، وهى تقع على ثغـور جبال الشـارات أو جبال وادى الـرمل Guadarrama التى كانت تعتبر الحد الطبيعى لبلاد الأنـدلس ، ومن هذه الحصـون عمل قواد المسلمين على سيادة كل حـوض الدويـرو . وكانت هذه المنـاطق خلاءً تقـريباً ، ولهذا سهل على قـوات مملكة ليـون من ناحيـة ونبرة من نـاحية أخـرى التقدم فيهـا وغزو بـلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم .

وإلى آخر أيـام الحكم المستنصر ظلت سيطـرة القوات العسكـرية الإسـلامية قائمـة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانـت القوات الإسلامية تتمتع بـه من قوة وحسن استعداد .

وكـان الحكم حـريصـاً أشـد الحرص على أن تكـون تلك الحصـون فى أحسن حالات المنعـة والاستعداد . وكان يشحنهـا دائماً بالمؤن والأسلحـة . وبعض هذه الحصون مثل غرمـاج كان أشبه بمدينة كاملة فيهـا مخازن الطعام وأهوار القمح وصهاريج المياه ومرابط الخيل ، ولا زال الكثير من بقايا تلك الحصون قائماً حتى اليوم.

وكان للخلافة إلى جـانب ذلك الجيش جيش آخر يقيم فى الزهراء يسمى جيش الحضرة ، وكانت قيادة جيش الحضرة للخليفة نفسه ، وهو ينيب عنه من يريد من قواده ، فإذا خرج الخليفة للغزو جمع قيادتى جيش الثغور وجيش الحضرة .

وإذا جاء وقت النفير أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالاستعداد فبدأ عملية واسعة النطاق تسمى « البروز » فتتوافد قـوات الكور المجندة وتنزل بسهل واسع شمال قرطبـة وقصر الرصـافة يسمى « فحص السرادق » ، ثـم يخرجون سرادق الأمير ويجعلـونـه وسـط الفحص وتضرب فرق الجنـود خيـامهـا وتقبل قـوات المتطوعـة ، وكانت فى العـادة ألوف من النـاس الذين يخرجون للجهاد حسبـةً لله تعـالى . وتستمر مـدة البروز شهراً ثم يخرج الخليفـة بجنـده الصقلبى وحرسـه وفـرق الكـور المجنـدة والمتطـوعـة وينتقل مـن حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له جيـش الثغور ، وهنا تبـدأ « الصائفـة » أى العملية العسكـرية الصيفية ومدتها شهران من الغزو فى أرض العدو .

ولكن الموضوع الذى شغل الحكم أكثر من غيره كان أمر الفاطميين فى المغرب، وقد بالغ الحكم فى الاهتمام بـذلك ، إما لأنه رأى فى محاربـة الفاطميين جهاداً ، أو لأن نصحاءه صوروا له الخطر الفاطمى على صورة أكبر مما ينبغى ، والحقيقة أن شعور الحكم المستنصر الدينى وتضلعه فى الفقه السُّنِّى وحماسه لمذهب مالك ، كل هذا جعلـه ينظر إلى الفـاطميين ودعوتهم الإسماعيلية ، على أنهم زنـادقة يحل حربهم ويتعين على إمام الجماعـة أمر محاربتهم أينما كانـوا ، فكان لهذا ميالا إلى مدافعتهم عن المغرب الأقصى خشيـة أن ينتقل مذهبهم إلى الأندلس . ورأى بعض وزرائه فى ذلك فرصة للكسب دون حساب ، فزينوا له أمر محاربة الخطر الفاطمى فى المغـرب خاصـة ، وقد نهض الأدارسـة من جـديد على يـد **الحسن بن كنـون** ودخلت دولتهم فى دورها الثانى ،لأن بقية منهم كانت قد اعتصمت فى قلعة « حجر

النسر» جنوبى تطوان ، وتولى أمرهم - أيام الحَكَم - **القاسمُ بن محمد بن القاسم ابن إدريس** المعروف بالحسن بن كنون ، وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات من الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة ، وكان الحسن بن كنون يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هذا ليرضى الحكم المستنصر ، إذ كان يريد الإخلاص لبيته ولا شىء غير ذلك . وقد طال الأمر بالحكم وهو يرسل القوات وينفق الأموال، حتى لقد استدعى قائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بفارس الأندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب ، وأنفق الحكم فى ذلك مالاً جسيماً ولم يؤد الأمر بعد ذلك إلى نتيجة تذكر ، وقد أسف الحكم فى أخريات أيامه على ما أنفق من مال وما ضحى به من رجال فى هذا المقصد ، مما أدى إلى ضعف ثغوره الشمالية ، وكانت أولى بعنايته وأحق با لمراقبة الدائمة .

وهنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لدين الله فى سياسته الأفريقية ، فقد كان الناصر لدين الله يعرف دائماً الحد الذى يقف عنده فى كل ميدان ، ففيما يتصل با لمغرب ، اكتفى بالاستيلاء على سبتة وطنجة ومليلة واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية ، وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تناوئ الحكم الفاطمى .وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ، ويستقبل من يفد منهم على الأندلس استقبالاً فخماً ، ويفتح أبواب العمل فى جيشه للمرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يفدون عليه فى جماعات كبيرة ، وكان هذا كافياً ليضمن له السيادة على ساحل المغرب ، أما الحكم المستنصر فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالى وأنفق فى ذلك جهداً ضخماً ولم يجن من وراء ذلك إلا إضعاف ثغوره الشمالية .

وقد قضى الحكم سنواته الأخيرة فى العناية بالعلوم والآداب ، فنظّم التدريس فى المسجد الجامع حتى أصبح هذا وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها ضروب العلوم ، واحتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد ، وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف ، وخصّص أموالاً جزيلةً للطلاب فأعطيت المكافآت والمعاونات للمحتاجين منهم ، وعمد الحكم فى إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز ، وكلّف أخاه المنذر بالإشراف على شئون جامعة قرطبة ، ورفع نفراً من العلماء إلى مراتب تشبه الأستاذية اليوم ، من أمثال

« أبى بكر بن معاوية القرشى » أستاذ الحديث « وأبى بكر بن القوطية » أستاذ الأدب والنحو ، « وأبى بكر الزبيدى » أستاذ اللغة « ومحمد بن أحمد بن مفرج » أستاذ علوم القرآن . وقد أسبغ الحكم رعايته على غير المسلمين من العلماء مثل « ريثيموندو » الألبيرى أسقف النصارى المسمى « بربيع بن زيد » ، وكان متمكّناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان يقوم بوظيفة المترجم الرسمى أو كبير المترجمين للحكم .

وفى أوائل سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٦م . شعر الحكم بالشيخوخة تدب فى أوصاله ، ومع أن سنه كانت فى الرابعة والستين إلا أن علائم الضعف تزايدت عليه ، فدعا الناس إلى بيعة ابنه هشام وكان لا يزال طفلا ، وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها للشرع . ولكن الحكم كان شديد التعلق بولده عظيم الرغبة فى أن يستمر الملك فى نسله ، وقد انتقده الناس بسبب ذلك وحمل عليه « ابن حيان » المؤرخ ، لأن البيعة تمت بسعى صبح البشكنسية أم هشام وزوجة الحكم الأثيرة على نفسه . وكانت جارية بشكنسية رائعة الجمال شديدة الذكاء والطموح ، وكانت تخشى أن يصير العرش بعد الحكم إلى أحد إخوته لأن ابنها كان طفلاً ، ولهذا فقد اتصلت سِرًّا بنفر من كبار رجال الدولة مثل جعفر المصحفى الحاجب ومساعده محمد بن أبى عامرٍ لكى تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم ، وكان محمد بن أبى عامر إذ ذاك شاباً متطلعاً شديد الذكاء ، وقد وصل فى أواخر أيام الحكم أن أصبح صاحب السكة والمواريث ، أى المشرف على دارِ سكِّ العملة وعلى الأوقاف ، وتهيأت له بذلك أموال كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير .

وتوفى الحكم المستنصر فى ٢ صفر ٣٦٦ هـ / ٣٠ سبتمبر ٩٧٦م ، وبموته اختفى آخر العظماء من بنى أمية الأندلسيين ، وقد كان الحكم إلى جانب علمه وخبرته بشئون الدولة ، رجلاً كريماً طيب القلب لا يكاد يغضب على الرجل حتى يسارع بالعفو عنه ، وكان خيِّرًا جدًّا كثير الصدقات دائم البر بالفقراء ، فكان لايترك مناسبة إلا فرق الأموال الجليلة ، وقد نعم الناس فى عصره بأمان واطمئنان لم يعرفوهما فيما بعد .

ومن أعظم أعمال الحكم توسيعه المسجد الجامع ، وقد بدأ به فى أيام أبيه الناصر ولكنه تم فى أيامه ، وتعتبر تلك الزيادة الثانية تتويجًا لأعمال الناصر وابنه الحكم المستنصر فى الناحية الحضارية .

هشـــــام المؤيَّــــــــد

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ

أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩ م

عندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة تُنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفـوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بـالعرش لابنه وكـان عند مـوته غـلامـاً فى الثـانيـة عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطـان سيقع فى يـد من يقـومـون بالوصـاية على ذلك الطفل . وقد تنبه إلى ذلك صقالبة القصر وكـان عددهم يقارب الألف ، وكان لهم فى القصر نفـوذ عظيم ، ولكن هذا النفـوذ كان متوقفـاً على وجود خليفة قوى يستفيد من خدماتهم ويثبتهم فى سلطـانهم ، أما الوصـاية فتفتح الباب للوزراء والطامعين .

مصـير الأندلـس تحت رحمة الأوصياء على الخـليفة القاصر :

بادر الفتيان « فائق وجوذر » كبيرا الصقالبة بكتمان خبر وفاة الحكم ، وقَرَّرَا استدعاء « المغيرة بن عبد الرحمن » وعَمّ ولىّ العهد هشام لكى يسندا إليه الخلافة ، ولكن سـوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا فى الأمـر « جعفـر بن عثمان المصحفى » حاجب الحكم أى رئيس وزرائه ، وكـان أبوه فى أول أمره مؤدِّبـاً للحكم ، ونشأ هو صديقا للخليفة ثم وصل الى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم، ولكنه كان سياسيًـا سيئاً أنانيًا عهد فى الكثير من وظائف الدولـة لأبنائه وأقاربه . وكان كذلك غير أمين على الأمـوال ، فصور له خياله أنه إذا دافع عن خـلافة هشام أصبح هو الوصىّ وأصبحت الدولة فى يده .

ولهذا فبـدلاً من أن يكتم الأمر تظـاهر بـالاقتناع بـرأى الصقالبـة ، ثم ذهب فاستدعى أنصاره وأولهم محمد بن أبى عامر صـاحب الشرطة والمواريث ، وأفضـى إليهم بما يُدبِّر الصقـالبة ودعاهم إلى تأييد هشـام واتفقوا على قتل المغيرة ، وتولى قتلـه محمد بن أبى عـامر ،فكـانت تلك الجنـاية الشنعـاء نذيـر شؤم على جعفـر المصحفى وأصحابه وعلى الأندلس كله .

وعلى أثـر ذلك بويع الصبى هشـام يـوم الاثنين ٣ صفر ٣٦٦ هــ/ أول أكتوبـر ٩٧٦م وأقبل الناس يبايعـون ، ويقال إنه لم يعترض على هذه البيعـة أحدٌ

وإن كنّا نـؤمن أن المصحفى وصاحبـه محمد بن أبى عـامر قـاما بعمليـة تدليس وإرهاب لكـى يخلص السلطان لهما .وقد سعـدت بهذا التوفيق « صبـح » الملقبة بالبشكنسية ، وكانت فى الحقيقة شابة طمـوحة نافارية وهى « أم هشام » وكانت أقرب الناس إلى قلب الحكم ، وكـانت كما قلنا امرأة طموحهـا إلى السلطان ، تتدخل فى كل شىء وكـان جعفر المصحفـى ومحمد بن أبى عـامـر يخدمانها ويمكنـان لأنفسهما فى السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الـرجلين لا محالة ، وبدأ النزاع فعلاً ، فاستعـان محمد بن أبى عـامر بصبح على غـريمه ، فلم يلبث أن رقى وزيـراً ، ثم أصبح حاجباً أى رئيساً للوزراء .

ومـا إن وصل إلى هذه الـوظيفـة حتى غدر بصـاحبـه القديم ، فأسقطـه من الوزارة وألـزمه داره ، ثم بدأ تحقيقـاً معه فيما ضيع هـو وآله من أموال وأمـر به فسجن سجناً طـويلاً ، ثم أمر بقتلـه . وهكذا دفع المصحفى ثمن جـريمته فى قتل أمير برىء دون أى جريرة تستحق ذلك .

محمد بن أبى عامر يصبح السلطان الأعلى فى الدولة :

وعقب ذلك انقلب ابن أبى عـامر على الصقـالبة ، فعـزل رؤساءهم ثم أخـرج معظمهم من القصر ، وتـواطأ مع القادة وصـاحب المدينة وقـائد الجند وصـاحب الأعنّة على القبـض على ناصية السلطـان ، وبالفعل لم تمر سنـة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان فى الدولة ثم حجر على هشام الصبى ، فلم يسمح لأحد برؤياه، وأقنع أمـه بأنـه يفعل ذلك محافظة على سـلامـة الخليفة الصغير مـن المتآمـرين والراغبين فى القضاء عليه .

والحقيقة أن الخطر العظيم على العـرش كان ابن أبى عامر نفســه ، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانيًا ، وأسرته ترجع إلى أصلٍ يمنىٍّ ويقال إنه من شلب فى البرتغـال الحالية ، وكـان أبوه فقيهـا ذا مكانـة ، ودرس هو فى بلـده ثم فى قرطبـة ليصبح فقيهاً مثل أبيه ولكنه كان طموحـاً إلى المناصب مؤهّلاً للعمل فى السياسة ، وقـد حكيت أساطير عن أصلـه وأوليـاتـه وطريقـة وصـوله إلى السلطـان ، ولكن الحقيقة أن خالاً له كان من كبـار رجال الإدارة والقصر ، فسعى له حتى أقامه على

خطـة المواريث فى إشبيلية ، وبفضل خـاله أيضـاً - وكان صهـره - نُقل إلى نفس الوظيفة فى قرطبة ، ثم رُشّح للنظـر فى أملاك الأمير هشام قبل أن يلى الحكم ، وهنا كانت مهارة ابن أبى عامر الذى توصـل عن طريق الولد إلى الاتصال بالأم وجعلها ترى أنـه يستطيع تأييد حق ابنها فى وراثـة العرش ، وعن هذا الطـريق تمكّن أمره وانفتح أمامه باب السلطان .

المهم أن محمـد بن أبى عـامـر سـار فى طـريقٍ سيئٍ لا ينظـر إلا لصـالحه ويضحّى فى سبيل ذلك بكل شىء ، فهـو لا يكاد يصلُ إلى هـدف مستعينا بحلفـاء وأنصـار حتى يتخلّـى عن حلفـائه بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير ، وقـد لمس ميل « الحكم » الشديـد إلى أن يَـخْـلُفَه ابنه فتقـرّب منه وكسب ثقته ، ثم نـدبه فى بعض المهام العسكـرية فى المغـرب ، وهناك بـدأ ابن أبى عامـر يكسب ولاء القادة والفرسـان ، وأغدق عليهم من أموال الـدولة دون حساب ، لأن هذه الأمـوال كان المفـروض أن تعطى لـرؤساء البربـر فـاستخـدمهـا ابن أبى عامـر فى مصـالحه الشـخصية .

وعندما وصل ابن أبى عامر إلى هـذه الدرجة من السلطان اتجه اهتمامه إلى أن يمسك بيـده زمام الجيش ، وكـان يتولاه القـائد غالب بن عبـد الرحمن النـاصرى صاحب الانتصارات العظيمة فى المغـرب وفى الثغر الشمالى . فخطب ابن أبى عامر ابنة غالب وتزوجها ، وأوسع لنفسه بذلك طريقاً إلى قلب هذا القائد الكبير .

ولا شك فى أن زواج ابن أبى عامـر من ابنة غالب قد أوجـد قلقاً فى نفس صبح البشكنسية ، فأصبحت تـرى بوضوح أن هـذا الرجل سـائر فى طريق يختلف عن الطريق الـذى كانت تريـده هى أن يسير فيه ، وبدأ صراع خفى بين ابن أبى عـامر وهذه السيدة التى كانت سبب وصـــوله إلى الســلطان ، ولكن « صبحاً » لم تكن تستطيع شيئاً وحدها ، خاصةً وقـد ذهب أمر صقالبة القصر ، وكانت تستطيع أن تستعين بهم لو أنها لم تُعِن محمدَ بن أبى عامرٍ عليهم .

وفى هـذه الأثناء كـان ابن أبى عامـر قـد تمكّن من قلب غالب ، خـاصةً وقـد استصدر له مرسوماً يعطيـه لقب ذى الوزارتين ، ولم ينس ابن أبى عامر نفسه فى أثناء ذلك فجعل نفسه قـائد جيش الحضرة ، فى حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر .

وبجيش الحضرة هذا بدأ ابن أبى عامر يقوم بغزوات فى الشمال فقام بغزوة موفقة فى غرب أراضى ليون سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م. وتنحّى له غالب حاسِباً أنه خليفة فعلاً ، وفى العام التالى قام بحملة أخرى عاد بعدها محمّلاً بالغنائم والسبى فازداد صيته وأحبه الجند وتحدث باسمه الناس . ولابد أن نذكر هنا أن غالبًا كان قد أسن ومال إلى القعود والراحة .

محمد بن أبى عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة :

واهتم ابن أبى عامر بإنشاء جيش خاص به وكان ذلك أسوأ أعماله ، فاستقدم الألوف من البربر وأدخلهم فى خدمته ، ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يُخشَى بأسه ، وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربرى الغريب عن البلاد نفوراً شديداً ، وكرههم أهل قرطبة بسبب دالتهم العظيمة على صاحب السلطان ، ولكن ذلك كله كان لا يهم ابن أبى عامر ، بل ظن أنه يستفيد منه ، فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربر يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم ضده ، ويجعل البربر يشعِرون بأن مستقبلهم معتمد عليه ، أما نفور الناس من البربر فكان كفيلاً بأن يجعل البربر أكثر تمسُّكاً به وتأييدا لسلطانه .

وفى أثناء ذلك أخذ ابن أبى عامر يطارد كل الظاهرين من بنى أمية الذين يخشى منافستهم ، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل الكثيرين من رجاله ، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصرى وقد تنبّه هذا الرجل إلى خديعة ابن أبى عامر إياه ، وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب وبذلك خلا الجو لابن أبى عامر ، فأصبح بهذه الأساليب الشريرة سيد الأندلس دون منازع ، يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة ، مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد .

ومن غريب أمر هذا الرجل ودلائل مكره الشرير ، أنه كان يحرص دائماً على الوقيعة بين جيشه البربرى الجديد والجيش الأندلسي القديم غير مبالٍ بما قد يؤدى إليه ذلك من نتائج ، فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد

عسكرية جليلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عبده ، وكان هذا الجيش مرتّباً على نحو منظّم يضمن لرجاله التدريب والخبرة ، وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمفرد عريف ، وكان العريف يدرب تدريباً طويلاً أثناء الخدمة العسكرية ، وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش ، فقد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد أبنائه فى وظيفته ، فكان للجيش الأندلسى بذلك نظام وترتيب ، وكان يعتبر درع الأندلس .

وقد حرص ابن أبى عامر على أن يحطّ من أمر أولئك الجنود البواسل وأن يظهر فى كل مناسبة أن جنده الجديد أمهر وأقدر منهم ، فامتلأت قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزق ، وهكذا أصبح العداء شديداً بين جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن أبى عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين .

وقد نشأت عن ذلك كراهة عميقة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد ، وسنرى أن تلك الكراهة كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية وتفرق أمر الأندلس .

غزوات محمد بن أبى عامر دوى عظيم ونتيجة قليلة :

وكان محمد بن أبى عامر يحس أن الناس جميعاً يرون فيه الغاصب المتآمر الماكر ، الذى وصل إلى السلطان بالخداع والمكر والأساليب السيئة مثل علاقته بصبح البشكنسية ، وكانت هذه العلاقة موضع تعليق وسخرية كثير من جانب الأندلسيين ، ولهذا فقد اتجه إلى تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس ، وفى تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات ، فبدأ سلسلة طويلة من الغزوات الموفقة فى كل بلاد إسبانيا النصرانية ، وقد تناسى الشعب الأندلسى فِعلاً أعمال ابن أبى عامر السيئة إلى جانب هذا النشاط العسكرى ، ولكنه لم يثر فيهم ذلك الحماس الذى كانت تثيره غزوات أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أوّلاً لأن الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال لم يكونوا

جند الأندلس كما كان الحال قَبْلاً ، بل جند محمد بن أبى عامر ، ولم يكن الأندلسيون يحبونهم ، وثانياً لأن هذه الغزوات على كثرتها لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، ولقد قام محمد بن أبى عامر باثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة ، ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما كانت عليه ، ولو أن محمد بن أبى عامر استطاع بهذه الجهود أن يرفع حدود الإسلام فى الشمال الغربى إلى شمال خط الدويرو بصفة نهائية لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التى أضعفت بلاد النصارى ولكنها لم تغيّر من أحوالها .

ولو أن خليفة محمد بن أبى عامر كان رجلاً قادراً مثله فربما كان يمكن أن تكون لهذه الغزوات نتيجة عظيمة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه « عبد الملك » وكان شابًا جريئاً باسلاً ولكنه كان طائشاً جاهلاً كثير المفاسد فلم يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك .

محمد بن أبى عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور ويخاطب بلقبِ الملك :

ولقد كسب ابن أبى عامر فى أواسط سنة ٣٧١هـ / ٩٨١م . نصرا عظيما على قوات مملكتى ليون ونبرة وكونتينة قشتالة ، وعندما عاد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ هيأة الملوك وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقبيل يده عند المثول بين يديه ، أى أنه صار فى الحقيقة ملكاً للأندلس يحكم باسم خليفة محجور عليه فى قصور الزهراء وقد وضع عليه محمد بن أبى عامر الأرصاد والعيون ، بل أحاط الزهراء بسور وخندق حتى لا يدخل إليها أحدٌ إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبى عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختار مكاناً شرقى قرطبة وبنى فيه قصوراً سماها « الزاهرة أو العامرية » وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون القصور حول داره ، وخمل أمر الزهراء ، وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً ، خاصة وأن محمد بن أبى عامر كان لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة فى سبيل الوصول إلى غاياته ، ومن ذلك أنه كان قد

استقدم « جعفر بن على » الزعيم الزناتى مع رجاله إلى الأندلس ليضرب غالباً الناصرى ، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة ، فلما انتصر على غالب جعل رجاله يغتالون جعفر بن على ، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م .

ومن أكبر غزوات المنصور وأدلها على طبيعة أعماله العسكرية قيامه فى صيف ٣٧٤هـ / ٩٨٥م . بحملة واسعة على إقليم قطلونية ودخوله برشلونة التى كانت قد سقطت فى أيدى قوات الفرنجة سنة ١٨٥هـ / ٨٠١ م. ثم تحولت بعد ذلك إلى كونتينة قطلونية ، فافتتحها المنصور فى صيف ذلك العام ودمرتها جنوده، وبدلا من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجند نراه ينصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ، فكأنه لم يقصد إلا التدمير وإنزال الضربات العنيفة التى تحدث دوياً ، ولكنها لا تصل إلى تحقيق هدف واضح دائم بعد ذلك .

ونظر المنصور بعد ذلك فى أمر المغرب ، وكان الحسن بن كنون قد صالح الفاطميين ودخل فى طاعتهم ودعا لهم فى قلعة حجر النسر شمال المغرب الأقصى واعتز بتأييد « بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى » عدو الزناتيين وهم أنصار المنصور ، فسارع بإرسال جيش قوى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٥م . وأردفه بجيش آخر ، فحاط قلعة النسر واستنزل الحسن بن كنون على الأمان ، وطلب الرجل أن يذهب إلى قرطبة مستأمناً.

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر لأجيب إلى الأمان ، ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ، ثم أمر بقتله وهو فى الطريق إلى قرطبة فى جمادى الأولى ٣٧٥هـ . أواخر ٩٨٥م . وبذلك ارتكب المنصور غدراً جديداً شنيعاً وقد تطيّر الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة إن المنصور لن ينجو من عقاب الله جزاءً له على هذه الجريمة الشنيعة التى ارتكبها فى حق حفيد النبى ﷺ . وقد استمر نشاط رجال المنصور فى المغرب ، ولكن مقتل الحسن بن كنون وتشرد الباقين من أفراد بنيه يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثانى لدولة الأدارسة ، فلم نعد نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور فى حكم المغرب الأقصى إلى «زيرى ابن عطية الزناتى » وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد ، فلم يلبث هذا الزعيم الزناتى أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى ، ولما كان صديقاً للمنصور حليفاً للبيت الأموى فقد تركه المنصور على ذلك مطمئناً إلى أن الخطر

الفاطمى على الأندلس قد زال نهائيًا ، وكان ذلك سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون ، واحتل العاصمة نفسها وخربها ، فهرب ملكها « برمودو الثانى » إلى « سمورة » فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها ، وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون فى طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال والشمال الغربى لإسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدى الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالى الغربى من جليقية .

وكان من أشد ما غيّر قلوب الأندلسيين على المنصور غدره « بعبد الرحمن بن مطرف التجيبى » صاحب سرقسطة وممثل بنى هاشم التجيبيين ، وكانوا من أعرق أهل البيوتات الأندلسية التى اشتهرت بالشجاعة وبعد الهمة ، وقد قتل هذا الرجل غدراً فى نهاية صفر ٣٧٩هـ / ٩٨٩م . وعلى أثر ذلك قتل المنصور ابنه عبد الملك إذ اتهمه بالتدبير عليه ، وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التجيبى « وبغرسيه فرناندت » كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضّل عليه أخاه الأصغر عبد الملك ، وقد عاقب المنصور بعد ذلك غرسيه فرناندت ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيرًا إلى قرطبة ، ولكنه مات متأثراً بجراحه فى الطريق وخلفه ابنه « سانشو غرسيه » فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفى سنة٣٨٦هـ / ٩٩٦م . اتخذ المنصور لنفسه لقب الملك وأصدر أمره بأن يخاطب بالملك الكريم المنصور ، ومن الواضح أن المنصور كان يتجه إلى أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بنى أمية ، ولكن الظروف كلها كانت لا تعينه على إدراك هذا المطلب، لأن الناس جميعاً فى الأندلس لم يكونوا مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التى وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا ليوقروه ، لأنه فى نظرهم لم يكن ليخرج عن طامح ذكى ، استطاع الوصول إلى ما يريد بمواتاة حظ لا يصدق ، وكان هو يشعر بذلك ويتحامى الأندلسيين وألسنتهم الطويلة ، والحقيقة أن المنصور كان رجلًا فى غاية الذكاء والقوة ، وكانت مواهبه للحكم عظيمة ، ولكنه كان لايتورع عن الجريمة فى

سبيل الوصول إلى ما يريد ، والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شىء قدر نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير ، نعم إن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ، ولكن الذين كانوا قبله ارتكبوا أبشع منها ، فكان هو فى نظرالناس مخلِّصاً لهم من شر الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ، ثم إن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك كان رجلاً مأمونًا وشريفاً ، أما المنصور فلم يكن للشرف عنده قيمة ، وكان أهل الأندلس كلهم يتحدثون عن سوء أفاعيله.

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ، ولا ننسى أننا فى العصور الوسطى ، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب ، ولها الحق فى أن تصل إلى الملك ، أما بقية الناس فلا حق لهم فى الوصول إلى العرش ، وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الداخل على إقامة دولة ، أنه كان سليل بنى أمية وحفيد خليفة هو هشام بن عبد الملك ، ثم إنه قرشى، من ذلك القبيل العربى العريق الذى يمثل الصدارة فى عالم الشرف والسؤدد ، أما المنصور محمد بن أبى عامر فكان رجلاً عاديًّا من سلائل اليمنيين ، ولم يكن المسلمون فى أى قطر مستعدين للتسليم بسيادة يَمنىٍّ أيًّا كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول : « لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بنى قحطان ويسوق الناس بعصاه » ، وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوىً ، وكان المنصور من معافر وهى من صغريات قبائل اليمن ، ثم إن أباه كان فقيهاً عاديًّا معروفاً للكثيرين من أهل قرطبة وشيوخها ، ومثل هذا الصلب لا يخرج فى رأيهم بيتاً ملكيًّا .

ولكن أكثر ما أضر بالمنصور ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر أجنبى عن البلاد ، وكان جند المنصور معتزين بتأييده يتعالون على الناس ويثيرون سخطهم ، وقد وقفت كل البيوت الأندلسية العريقة موقف تحفظ من المنصور ، حتى الذين دخلوا منهم فى خدمة المنصور فعلوا ذلك خوفاً على حياتهم ، فإن غدرات هذا الرجل ما كانت لتؤمن أبداً .

الحزب العامرى :

ولكى يسد هذا الضعف لجأ المنصور إلى اصطناع بيوت جديدة فى العاصمة والأقاليم ، وكان رجاله هؤلاء يتكونون من زعانف أبناء الأسر الكريمة وضعاف رجالها ، ثم من الطامحين من صغار الفقهاء ، فرفعهم ابن أبى عامر إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحى ، ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحى وتكونت حولهم حواش من أمثالهم، ومن أمثلة هؤلاء « بنو عباد » فى إشبيلية « وبنو يعيش » فى طليطلة ، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمثالهم « أبو مروان عبد الملك بن شهيد » سليل أسرة بنى شهيد ، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقريةً فكريةً ، ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بنى شهيد العظماء ، وقد جعله المنصور نديمه وشاعره وصاحبه ، وكذلك يحيى الملقب « بسماجة بن عبد الرحمن بن مطرف التجيبى » سيد الثغر الأعلى الذى قتله المنصور ، وقد كان يحيى سماجة هذا من سخفاء الولاة ، وعلى يده تحول بيت بنى هاشم التجيبيين من بيتٍ جليلٍ من بيوت الحكم إلى بيت طامعين فى السلطان والجاه بأى طريق .

واستعان ابن أبى عامر كذلك بِنَفَرٍ من زعماء البربر النازلين فى بعض النواحى مثل بنى « الأفطس » الذين كانوا يقيمون فى بطليوس ، وبنى « ذى النون » وكان موطنهم فى شنتبرية فى جنوب غربى طليطلة .

وكذلك اصطنع ابن أبى عامر صقالبة جددا اشتراهم لحسابه لكى يصيروا من جنده وحراسه ورجاله .

ومن هؤلاء جميعاً تكون ما يعرف بالحزب العامرى ، ومعظم رجاله من طراز محمد بن أبى عامر خُلُقاً ، أى أنهم أنانيّون ماديّون لا يفكرون فى جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة ، بل هَمُّ الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً فى ناحية أو فى حدود سلطته .

وهؤلاء الناس الذين تَرَبَّوا فى مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان فى نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأى ثمن ، أولئك هم الذين سيعرفهم التاريخ بالاسم المشئوم : ملوك الطوائف .

والأمر الثاني : هو انعدام المفهوم الأخلاقي عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبّونه ، وَيحذرونه ولا يقبلون منه شيئا ، لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم ، ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه فى نفوسهم ، لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ، فإنه كان مستعداً لأن يطيح برأس أى واحد منهم لأقل شك فى تصرفاته أو نواياه .

وكان المنصور كثير التجسّس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد لكى يصبحوا عيوناً له عليهم فى بيوتهم ، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة وما يجرى مجراها ، وعلى مثل هذا الأساس لا يستطيع رجل أن ينشئ دولة .

والأمر الثالث : هو أن المنصور لم يرزق ولداً قادراً على النهوض بالعبء من بعده ، فقد كان له من الأولاد ثلاثة : واحد قتله بنفسه ، أما الاثنان الباقيان فَهُما عبد الملك الذى جاء من بعده وقد أشرنا إليه ، ثم عبد الرحمن وكان شابًّا سيّئ الخلق طائش العقل قاسى القلب ، وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه هشام عهداً بتعيينه ولىّ عهده فى الخلافة ، وكانت نيته أن يتخلص منه بالقتل بعد ذلك ، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ١٠٠٣ م . وانتهى أمر بنى عامر فى يوم وليلة .

وقد أبدى المنصور فى أواخر أيامه نشاطاً واسعاً فى الغزو ، ويبدو أنه كان يرى أن الوقت قد آن لكى يخطو خطوته الكبرى فى اتخاذ لقب الخلافة ، فأراد أن يمهِّد لذلك بانتصارات كبرى فى ميادين الجهاد ، فقام فى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م بأكبر غزواته وهى المعروفة باسم غزوة « شنت ياقب » ، وشنت ياقب أو القديس يعقوب الحوارى وهو بالفرنسية « سام جاك » كان من حوارى المسيح ، وقد وصل إلى إسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمالِ غربىّ الأندلس وهناك مات ودفن وخَفِىَ قبرُه ، ثم ظهر نجمٌ دَلَّ راهبين على مكانه ، فكشفوا عنه وتأكدوا من وجوده فى المكان المسمى « كومبو ستيلا » وعلى الفور أقيمت كنيسة كبرى عرفت باسم « سنتياجو » أى القديس يعقوب ، أصبحت من أعظم المزارات النصرانية لا فى إسبانيا فحسب بل فى أوربا كلها .

أراد المنصور أن يغزو شنت ياقب فقام بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأثقال الجيش بالبحر حتى مصبّ نهر « المنيو » وهناك أرست

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور فى أوربا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف فى كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور فى ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونتية قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث فى أراضى مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى فى جسده ، وشعر الرجل به وهو فى الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحُمِل فى محفَّةٍ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تمامًا ، وتقول المراجع النصرانية إن النصارى هاجموا جيشه وهزموه فى معركة قرب حصن يسمى قلعة النسور ، وعقب ذلك بقليل توفى المنصور ودفن فى مدينة سالم ، وكان يحمل كفنه معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذى يعلق بملابسه أثناء الغزو ، فدفنوه وذروا عليه غبار الجهاد وواروه التراب فى تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

آثارهُ تنبيكَ عن أخبارِهِ ... حتَّى كأنَّك بالعَيَانِ تَرَاه
تاللهِ لا يأتى الزمانُ بمثلِهِ ... أبداً ، ولا يحَمِى الثغورَ سِوَاه

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبى عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد فى تاريخ الإسلام : استولى على أزمة السلطان فى دولة كبرى فى أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له فى السلطان ، وقد استغل فى الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالأندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغا فى السلطان ، ومهارته فى أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكّن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر فى آخر أيامه ورغبته الشديدة فى أن يصير الملك من بعده الى ابنه هشام ،

وكان هشـــام صغيراً جدًّا لا يـزال بينه وبين سن الـرشد ثمانيـة أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطـان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم فى تعيين أوصياء ، بل ترك الأمـر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصـاحب الحجابة – والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصـى– رجـلا فاسداً أنانيًّا قاسىَ القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفـر المصحفى »، وقد افتضح أمـره بقتل أمير برىء ومن نـاحية أخـرى نرى أن أبنـاء عبد الـرحمن النـاصر وهم أعمام ولى العهد . كـان ينقصـهم الذكـاء وبعد النظر ، وقد فـوجئ واحد منهم وقُتل ، واستسلم الثانى للمقـادير ثم اختفى ، وربما كان عبـد الرحمن الناصر مسئولاً عن تلك الحالـة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشَلَّ نشاطهم وقضـى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المنصور وجـد هذه الظروف واستغلهـا لصالحه ، ولا شكَّ أنـه كان مـؤهّـلاً للسيـاسة بطبعـه ، حـائزاً للكثير من الصفـات التى يحتـاج إليهـا رجل السلطان، فهو شديد الذكـاء دائم اليقظة يرى الأمور فى وضوح ويتبين خط العمل ويعمل فى سرعة يعجـز معها خصومـه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يـريد قبل أن يستجمع أحدٌ ممـن حوله أفكـاره ، إذ كان يخطـو من مشكلة إلى مشكلـة فى سرعة وثقة فى النفس دون أن يدرى أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة فى وصولـه إلى السلطان كانت السيطرة على « صبـح البشكنسية» وتولى الأمر باسم هشـام مشتركاً فى ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو فى الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء.

وأهـم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائدًا له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرها ، وقد تصورت «صبح» أنه يعمل فى خدمة ابنها ففتحت له خـزانة المال ، وبا لمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكريًّا ، وهنا لم تبق أمامـه عقبة ، فهذا قائد عسكرى يحكم بقوة السلاح .ومثل هذا فى التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقيه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكرى .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟.

إن أمـامنـا أمثلة كثيرة من المستبـدين بـالعـروش ومـا فعلوا ، هنـاك مَثَـلاً

«ريشيليو» ذلك الكاردينال الفرنسى الذي جعل نفسه وصيًّا على الملك الصغير لويس الثالث عشر. لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم، أعظم بكثير من سلطان المنصور، ولكنه عمل دائماً لرفعة التاج ولخدمة فرنسا، وعندما توفي ريشيليو ولويس الثالث عشر وجاءت أيام لويس الرابع عشر وصلت فرنسا الى أوج القوة والسيادة فى أوروبا، وكان ذلك نتيجة لعمل ريشيليو الذى اجتهد فى خدمة فرنسا وتاجها ووحد أمرها وحارب خصومها فى الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوروبا.

ولكن المنصور لم يستطع أن يفعل شيئاً مثل ذلك. لقد حقّر حكّام الخلافة وحقّر أمرها وحمل عليها وحرض رجاله وأبناءه عليها واتجه رأساً إلى القضاء عليها، وكانت الخلافة القرطبية هى عماد قوة الإسلام والعروبة فى الأندلس، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار، ولكن المنصور لم ينظر إلى شىء من ذلك، واتجه إلى تخريب ذلك النظام القيم لكي يجعل نفسه سلطاناً.

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره فى الأندلس، كان سلطانه أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر، لأن الناصر رغم نزعته إلى الاستبداد كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها، فهو لا يسرف فى الحروب مع الممالك النصرانية، لعلمه بأن من المستحيل عليه القضاء عليها، ولهذا كان يكتفي بإضعافها وردعها عن الإغارة على بلاده وإخضاعها لقرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب، وهو فى ضرباته لم يحاول أن يقتطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائيًّا إلى أرض الخلافة. لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصارى جنوب «دويرو» وإسكان المسلمين فى الأراضى التى يفتحها ليحول هذه البلاد الى أرض إسلامية، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال إنه فعل شيئاً حاسماً، ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم، فيعود النصارى إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية، فكأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً. كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدى إلى نتيجة اذا واصلها الناس بعده لمدة قرن مثلاً، فإن ذلك كان حريًّا بأن يضعف القوى النصرانية إلى حَدٍّ لا تستطيع معه أن تفعل شيئاً بعد ذلك، ولكن المنصور لم يفعل هذا ولم يخلفه من يواصل عمله، فكانت النتيجة أن النصارى استطاعوا خلال السنوات التى أعقبت موته تجديد قواهم واستقووا بعد ذلك على المسلمين.

ولم ينشئ المنصور فى الأنـدلس شـيئاً جديداً : فلا هو أوجد نظاماً جديداً ولا أصلح شيئا من عيوب النظام القائم . وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية ، وقد أضحى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٣٠٠ متر مربع ، أى ما يزيد على ستة فدادين ، وليس فى الدنيا مسجد ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساى . ولم ينفرد الجامع بالحجم فقط ، بل كان طرازه رائعاً حقًّا وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموى تحطيماً لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتتبع كل من يُرجى خيرٌ من أفراده بالقتل والأذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بأبناء البيوت الموازية ، نعم لقد خدمه الكثير من رجالها ، ولكنه جعلهم أتباعاً وندماء وحواشىَ ، والحواشى لا تنفع أحداً ولا تقيم مُعْوَجًّا .

وقد أحاط المنصور نفسه بسياجات كلها ضرر وخطر على المجتمع : أنشأ الجيش البربرى الجديد فكان بلاءً على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعاديين ، وفى حالة أى اضطراب فى النظام لم يكن هناك مفرٌّ من الحرب الأهلية ، وأنشأ الحزب العامرى من رجال على غراره ، كلهم طامعون أنانيّون لا يعمر قلوبهم إيمانٌ ، وهؤلاء هم الذين سيرثون الأندلس من بعده ويتقاسمونه فيما بينهم . لقد حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً هجريةً انتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٢م ، ولا نستطيع القول أنها كانت خيرا على الأندلس . لقد أحدث دويًّا كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالطبل الأجوف : صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمآثر المنصور دون أن تخفى جرائمه ، ومعظمها يصفه بالتقىّ ويقول إن الجهاد كان قرة عينه ، والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم فى سبيل سلطانهم ، أما خارج السلطان وبعيداً عن منافساته فلا مانع من أن يكونوا ذوى عاطفة دينية واهتمام بشئون العبادة والإحسان وما إلى ذلك . هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا ، وعلى هذا الأساس من الممكن

أن نتصــور كيف كانــوا يجمعون بين الإجــرام والتقى ، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون فى ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور

رمضان ٣٩٢ ـ صفر ٣٩٩هـ

أغسطس ١٠٠٢ ـ أكتوبر ١٠٠٨م

وقد خَلَف المنصور فى سلطانه ابنُه عبـدُ الملك المظفّر الذى تلقب بسيف الدولة وكانت سنُّــه ٢٨ سنة ، وقد ورث عن أبيه ملكـاً واسعاً مستقراً فى الظاهــر ، ولكنه كان فى الحقيقة مهددًا بالأخطار ، لأنه رغم استصــداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه فى الحكم ، كان يشعر أنه كان غــاصِباً ، وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً فى قرطبة ونواحى الأندلس يتربصــون به ـ وبآل عامر جميعاً ـ الدوائر .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مـؤهَّلاً للوقوف فى وجه العقبات التى كان لا بد له من تخطيها ، كان ينقصــه العمق الإنســـانى والتكوين الفكرى ، فعلى الــرغم من اجتهاد أبيــه فى تكوينــه إلا أنه لم يكن غير جنــدىٍّ جاهلٍ ، تــربَّى وسط الجنود دون أن يكــون لديه موهبــة القيادة ، فكان طوال حكمــه القصير نهبا بين رجاله وأهمهم صقلبى من مــوالى أبيه يسمى « طرفة » ووزير قــوى مداور مناور يسمى « عيسى بن سعيـد بن القطــاع » ، وكــان الشاب إلى جــانب ذلك مسرفــاً فى الشراب ، لا يكاد يهبط الليل حتى يعقـد مجلس الشراب مع رجالــه ، وكلهم ثعالب يجتهدون فى الفــوز منه بأى شىء ، وفى ســاعات الشراب كــان يستمع لوشــايات الوشــاة ويصدر أحكامًــا عنيفة ، ففتك بمولاه طــرفة ثم قتل سعيـد بن القطاع فى مجلس شرابــه على أسوأ صــورة ، وقد خــافــه الناس ، وشيئــاً فشيئاً تحول هــذا الشاب ، الــذى تولى الملك فى الثامنة والعشرين شــابًّا تحيط به الآمال ويمــلأ قلوب الناس من نــاحية الاستبشــار ، إلى طاغية ظلــوم غادر ، وقد كان أبــوه يعرف كيف يَلين حيناً ويشتدّ حيناً ويقسو ويأسو ، أمــا هو فلم يكن لديه من ذلك شىء، وإنه لمن المحــزن أن نــرى كيف أخــذ الفــراغ يحيط بهذا الشــاب ، إلا من عتــاة الجنـد والمرتزقين الذين كانوا لا يشيرون عليه بخيرٍ أبداً .

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غـزوات أبيه ، أى أنها كانت ضربـات قصيرة الأمد والمدى . غزا قطلـونية وبرشلـونة سـنة ٣٩٣هـــ / ١٠٠٣م وأرغم أميرها « رامون بـوريل الثالث » على طــلب الصلح ، وفى صيف ٣٩٥هـــ / ١٠٠٥م غـزا أراضى ليـــون ، وفى صيف ٣٩٦هـــ / ١٠٠٦م . غـزا مملكة نبرة واحتل بنبلونـة وفى ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غزا كونتينة قشتـالة ، ثم غزاهـا مرة أخرى فى العام التـالى ، وفيه أيضاً أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة ، ولكنه مـرض واشتدت به العلّة ، وتوفى ربما من التهاب رئوى فى ١٦ صفر ٣٩٩ هـ/ ٢١ أكتوبر ١٠٠٨م وهو فى الـرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنـوات فحسب ، كـانت سنـوات رخـاء ونصر ، ولكن النـاس كـانـوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانــوا يتمنون زوال العامريين . ومن الواضح أن الذى قضى على عبد الملك كـان انهماكه فى ملذاته ، لأن مـا أصابه كان نتيجـة استهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه فى السهر حتى أُعيى جسدُه .

عبد الرحمن بن المنصور :

وخَلَفَه أخوه عبد الرحمن الذى تلقب بالمأمــون ويقال إنه هو الذى قتله ، وكان شابًـا طائشاً قاسيـاً مجرّداً من الصفات الإيجابية المؤهلـة للحكم السليم ، وكان الناس قد ضـاقوا ذرعاً باستبداد العـامريين وكانت أم عبد الرحمن حفيدة لسانشو غرسيـه ملك نبرة ، وكان أبـوها سانشـو أباركة ذلك الكنـد الأرغونى أحـد الأمراء المطالبين بـالعرش والذى أسره المنصور ثم أطلـق سراحه وتزوّج ابنته ، وكـان قد انضم إلى المنصـور أمـلاً فى أن يعينـه على الـوصول إلى عـرش نبرة ، أمـا أم عبـد الرحمن فقد أسلمت وتسمّت بـاسم « عبده » وكان الأندلسيون يعـرفون ذلك عنه ولا يستريحون إليـه ، أى : لا يستريحون لأن أمـه نصرانية فلقبـوه بشنجـول أو سانشويلو .Sanchuelo أو سانشو الصغير نسبة لأمه بنـت سانشو أباركة كما قدمنا ، وكان الناس يكرهونه ويحتقـرونه ولم يحتملوا أن يروه قائماً بالأمر مكان أبيه المنصور . وزاد سخطهم عندما سمعـوا أن عبد الرحمن شنجول ، يسعى لكى يستصدر مرسوماً بتعيينه وليًا لعهد الخلافـة . وقد أنكر الناس ذلك إنكارًا شديدًا وقـامت قيامتهم لأن الـرجل كـان من الناحيـة الأخـلاقية أبعـد ما يكـون عن أن يستحق الخلافة . ولكن عبـد الرحمن فعل ذلك وأصبح ولى عهـد الخليفة . وبقيت

أمامه خطـوة القضـاء على الخليفة نفسه لكى يصبح هو صـاحب الأمر ، ومن سوء الحظ أن رجالاً مثل القاضى « أبى العباس بن ذكوان » والكاتب « أبى حفص أحمد ابن برد » أيّدوه فى ذلك .

مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين :

وبـدأ الصراع بين هذا الـرجل المتسلّق والأرستقـراطيـة القرطبيـة التى طـال سكوتها دون أن ترفع صـوتها ، وقد أخذ احتجاجها صـورة انصراف أفرادها عن التوافد على قصر الـزاهرة ، لأن قادة البربر كانـوا يتقدمـون عليهم هناك ،فأصدر عبد الرحمن أمراً يلزمهم بلبس العمائم ، وكـانت لباس زعماء البربر والتخلّـى عن أغطية الرأس الأندلسية ، فبدأت الاتصـالات بين كبار الأندلسيين وبقايا الأمويين ، وتحدث الناس بأن هنـاك مؤامرة تدار لإعـادة بنى أمية إلى السـلطان . وأراد عبد الرحمن أن يقوى مركزه بغزوات يقـوم بها ، فأعلن أنه خارج لغزو قشتالة فى يناير ١٠٠٩ م جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ولم تكن العادة أن يخرج الناس للغزو فى هـذا الـوقت ، ونصح الناس شنجـول بألاّ يخرج ، ولكنـه أصرّ ، وقـد وصل إلى جليقية ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً نظـراً لخلوّ الأراضى من المزروعات وشدة البرد وهرب النصـارى إلى فنن الجبال فقفل راجعاً ، ولم يكد يـدخل طليطلة حتى بلغه أن ثورة قامت فى قرطبة وأن الناس هاجموا مدينة الزاهرة ونهبوا ذخائرها .

ثورة قرطبة وبداية الفتنـــة الكـبـرى
١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ /١٥ فبراير ١٠٠٩م:

وكـان ذلك حقًّا فإن نفـراً من البـاقين المشردين من بنى أميـة قرروا انتهـاز فرصـة ابتعاد عبـد الرحمن شنجـول والجيش للقيام بـالثورة مستعينين فى ذلك «بالـذلفاء » أم عبد الملك المظفـر ، وكانت لا تشكّ فى أن عبد الـرحمن شنجول قتل أخاه ـ ابنها ـ بالسم . فـاتصلت بنفرٍ من شُبَّان بنى أمية الساعين فى سقوط بنى عامر ، وكان زعيمهم شـابًّا مغامراً يسمى **محمد بن هشام بـن عبد الجبار** وهو من أمناء عبد الرحمن الناصر . فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل عبـد الرحمن شنجول أرض النصارى لكى يقـوموا بضربتهم ، لأن الجيش

يحتاج إلى شهر لكى يعود من هنـاك . وبالفعل نفذوا المؤامرة فى ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ/ ١٥ فبراير ١٠٠٩م بـادئين بالهجوم على قصر قرطبـة واقتحموه وقتلوا صـــاحب المدينـــة عبد الله بن أبى عامر ، ثم بايع محمـد بن عبد الجبار لنفسه وبايعـه أصحابـه واتخذ لقب المهدى واختار قـريباً لـه يسمى سليمان بن هشام وجعله ولى عهده وأرغم هشاماً (الثانى) المؤيَّد على التنازل فتنازل بعد أن مكث فى منصب الخلافة ٣٣ سنة . كان ذلـك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ/ ١٦ فبراير ١٠٠٩م ثم تهدّمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها فى أيام.

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تخلَّى معظـم رجاله عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصحه مولاه « واضح » حاكم طليطلة أن يظل مكانه، ولكن شنجول كـان يحسب أنه إذا ما اقترب من قـرطبة خرج الناس مـرحِّبين به ، فسار نحوها ورفض زعماء البربر وخاصـة « محمد بن يعلى الزناتى » زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبـة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأُسَرَهم فيهـا ، وتخلّى البربـر جميعاً عنـه وتركـوه عائدين إلى قـرطبة لحمايـة أسرهم ، أما عبـد الرحمن ، فمازال يسير حتى وجـد نفسه وحيـداً وقد تخلّى عنـه كل الناس وانتهى أمره إلى أن قبض عليـه رجـالُ محمـدِ بـن عبد الجبار فى ديـر على نهر « أرملاط » قرب قرطبة وقتلوه فى ٣ رجب ٣٩٩هـــ/ ٣ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك هى النهاية المحزنة التى انتهى إليها أمر بنى عامر .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامرىَّ المستبدِّ كُلِّهِ ، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذى لم يخـــدم إلا مصـــالح آل عامر ، ثم جاء عبد الرحمن شنجـول بطيشه وفساده وقلة تدبّـره ، فلم يلبث فى المنصب أكثر من ثلاثة أشـهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام بمصرعه ، كما ذكرنا .

الفتنة الكـــبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبـار كان من أسوأ طراز عرفناه فى شباب بنى أميـة الأندلسيين ، فقـد كان طائشـاً قليل التفكير سوقىّ النـزعات ، لطول مـا عاش فى الأحيـاء الفقيرة متنكّرًا بين رعـاع قرطبـة ، ولذلك أحـاط نفسه

بطائفة ممن كانوا على شاكلتـه ، لا يحسنون غير النهب والسرقة فآذوا الناس أذىً شـديداً ، وبَـدَا بوضـوح أن الأمل الـذى علّقه النـاس على هذا الـرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أية فكرة عن الدولة وشئونها ، واتخذ لقب المهدى .

وقـد أجمع الناس عليـه أول الأمر مـؤمِّلين أنـه يستطيع القبض على ناصيـة الأمور وتسييرهـا فى الطريق الذى سـارت عليه إلى الآن ، ولكن ابن عبـد الجبار لم يقم إلا بشىء واحد هـو الانتقام من العامريين والاستمتاع بما ظـن أنه من حقوق الخلفاء .

ولم يكن الرجل الذى يستدعيه الموقف .فقد كان الوقت وقتَ انقلاب وفوضى، ومست الحاجـة إلى رجل حاسم حـازم يمسك بزمـام الأمور ويقـرّها فى نصـابها ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والنهب .

وكـان لابد كـذلك من النظـر فى العـودة إلى قـواعد النظـام التى قضى عليهـا المنصور بقسوته واستبداده ، ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة ، كان سفاكاً قاسياً منحط النـزعات ولم يهده ذكاؤه إلى شىء غير الاستبداد بالبربر وأذاهم وإهانتهم عقاباً لهم على تأييد بنى عامر ، ثم الانتقام من العامريين .

وقد أسـاء ابن عبد الجبـار التصرف لأنه نـاصب البربر العـداء ، وكان أولئك البربر قـد أتى بهم ابن أبى عامر إلى هـذه البلاد مرتزقين فى أعـداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المغربَيْن الأوسط والأقصى ، وكانوا قد كسبوا مالاً عريقاً واتخذوا الأندلس وطنـاً لهم ، فأراد هذا الرجـل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبـار أن يؤمّن البربر على مـراكزهم ومكـانهم ، فقد أتوا إلى هـذه البلاد للاشتراك فى الجهـاد وأبلوا بلاءً حسنـاً ، وليس ذنبهم أن ابن أبى عامـر استقوى بهم على بنى أمية .

وكان ذلك خطأً جسيماً منه ، لأن أولئك البربر كانـــوا قوة كبيرة ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفســـهم رجـــال العامـريين ، بل إنهم بادروا عقب مقتل عبـد الـرحمن شنجول بإعـلان الطاعـة للخليفـة الجديد ، ولـو أنه كـان على شىء من

السياسة لقبل ولاءهم ، كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستألف الناس حتى استقر له الأمر، وبدلاً من ذلك نجد محمد بن عبد الجبار يحاول استذلال البربر بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم « زاوى بن زيرى الصنهاجى » فمنع من دخول القصر وأُهين ، وكانت النتيجة أن تخوَّف منه البربر ووقفوا منه موقف العداء ، فقرر فى أواخر مارس ١٠٠٩م/ رجب ٣٩٩ إخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة ، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين فى عاصمة الخلافة .

وكان هذا الانشقاق فى الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس لأن الجيش كان درع المملكة ، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وحرم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها .

وعقب ذلك مباشرة أعلن محمد بن عبد الجبار المهدى موت هشام المؤيَّد الخليفة الذى حكم تحت ظل العامريين ، وكان ذلك فى ٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ/ ٢٦ أبريل ١٠٠٩م ودفن هذا الرجل فى مشهد فى نفر كبير من الناس من بينهم القاضى أبى العباس بن ذكوان ، ولكن الحقيقة أن هشاماً المؤيَّدَ لم يمت ولم يُقْبَر ولكن ابن عبد الجبار فعل ذلك ليخلو له الطريق ، وقد سخر الناس فى قرطبة من ذلك العمل لأنهم كانوا يعرفون أن هشاماً لم يمت .

وخاف البربر من نوايا محمد بن عبد الجبار ، فتجمعوا خارج قرطبة فى «فحص السرادق » ، وقرّروا اقتحام قرطبة بالقوة واختاروا لأنفسهم خليفة من أحفاد الناصر أيضاً ، يسمى سليمان بن هشام ولقّبوه « با لمستعين » وبذلك أصبح فى البلاد خليفتان : واحد فى قرطبة والآخر على رأس البربر .

معركة قنتيش ، نهاية الجيش الأندلسى التقليدى :

وأحسَّ محمد بن عبد الجبار المهدى أنه لن يستطيع الثبات أمام البربر ، فأرسل يستنجد بالنصارى وخرج ليلقى البربر وكان اللقاء يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ/ ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩م فى « قنتيش » إلى الشمال الشرقى قليلاً من بلدة « القليعة » عند ملتقى وادى « أرملاط » بالوادى الكبير ، وفى هذه المعركة

حصدت صفوف الأندلسيين حصداً ، وانتصر البربر ، وفَرّ نفرٌ من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقىّ الأندلس وعلى رأسهم « واضح العامرى » واستقروا فى دانية ، وكانت تلك هى نهاية القوات الأندلسية التقليدية الأصيلة التى كان محمد بن أبى عامر قد أضعفها وشل حركتها ورفع البربر فوق رجالها فساء حالهم . تلك القوة العسكرية المجيدة التى طالما كسبت للإسلام فى الأندلس نَصْراً بعد نصرٍ ، وبعد القضاء عليها لم يستطع أحد ممن تولوا الأمر أن ينشئ قوة عسكرية لها قيمة فى الأندلس.

ودخل البربر قرطبة وعاثوا فيها فساداً وقتلوا الكثير من أهلها ومن بينهم العالم المشهور « أبو الوليد الفرضى » وفرّ من قرطبة محمد بن عبد الجبار المهدى إلى الثغور وأصبح زاوى بن زيرى سيّد الموقف ، فأخرج هشاماً المؤيَّد من سجنه وتبين بذلك - بوضوح - أنه لم يمت ولم يدفن ، وفى ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ /٨ نوفمبر ١٠٠٩م دخل زاوى القصر وهناك بايع البربر سليمان المستعين واتخذوه خليفة .

وقد أثبت سليمان المستعين فى المدة القصيرة التى تولاّها أنه ليس بكفءٍ للمنصب الذى تولاه واضطرب أمره ولم يحسن زاوى بن زيرى رؤية الأمور لأن القرطبيين نفروا من البربر نفورًا شديداً ، وفى نفس الوقت كان واضح العامرى قد ذهب إلى « أورخل» ولقى رامون بوريل الثالث كند برشلونة وطلب منهم عوناً عسكريًّا فأعطوه فرقة عاد بها ليحارب البربر وعند « عقبة البقر » وهى بليدة صغيرة إلى الشمال من قرطبة التقى جيش البربر ، وعلى رأسهم سليمان المستعين بجيش محمد بن عبد الجبار المهدى وأحلافه من النصارى وفى هذه المعركة انهزم البربر وفر سليمان المستعين وعاد زاوى بن زيرى إلى قرطبة ولم يطل مقامه فيها بل أخذ أهله وفعل البربر فعله وانسحبوا إلى الجنوب .

النزاع بين محمد بن عبد الجبار المهدى وسليمان المستعين :

عاد محمد بن عبد الجبار المهدى إلى قرطبة وأراد أن يقضى على البربر فسار نحوهم مستعيناً هو الآخر بقوة من النصارى ، وأعانه بها الكونت «أرمنجول »

أمير أورخل ، واستطاع أن ينتصر على سليمان المستعين والبربر فى منتصف شوال ٤٠٠هـ/ أواخر مايو ١٠١٠ م فعوَّل البربر على الانصراف إلى أفريقية وجمعوا أمتعتهم وأهلهم وساروا نحو الجنوب وتتبعهم ابن عبد الجبار ومن معه من النصارى .

وكان اللقاء الثانى بينه وبينهم عند نهر وادى « أيره » فى ٦ ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ/ ٢١ يونيو ١٠١٠م وهناك انهزم محمد بن عبد الجبار المهدى ومن معه من الأندلسيين والقطلانيين ، وقتل البربرُ منهم مقتلة عظيمة حتى هلك فى المعركة ثلاثة آلاف من النصارى . وعلى أثر ذلك انسحب النصارى إلى بلادهم ، وكان « واضح » قد انضم إليه وعندما وقعت الهزيمة تجمّع الصقالبة العامريون وعلى رأسهم « واضح وخيران وعنبر » وانسحبوا إلى شاطبة وشرقى الأندلس ، ودخل سليمان المستعين مع البربر قرطبة بعد مقتل محمد بن عبد الجبار المهدى فى ٢٣ يوليو ١٠٠١م/٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠هـ وأعلنت خلافة هشام المؤيد للمرة الثالثة .

ولم تطل مدة خلافته هذه المرة لأن البربر دخلوا قرطبة وقتلوا الكثيرين من أهلها ولم يبق فى طاعة هشام المؤيد إلا قرطبة وما حولها .

هكذا بدأت الفتنة وتدهورت الأمور ، وقد اجتهد زعماء قرطبة فى مصالحة البربر أملاً فى عودة الأمور إلى نصابها ، ولكن البربر تمسكوا بدعوة سليمان المستعين فأجيبوا إلى ذلك فى شوال ٤٠٣هـ/ مايو ١٠١٣م على يد القاضى« أبى العباس بن ذكوان » ودخل سليمان المستعين قرطبة وحاول أن يحكم معتمداً على البربر ولكنه فشل هذه المرة أيضاً ، خاصة وقد أقدم على قتل هشام المؤيد فى ١٥ذى القعدة ٤٠٣هـ/ ١٦ مايو ١٠١٣ م وبذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذى لم يهنأ بخلافته يوماً واحداً .

لم يستقر الأمر لسليمان المستعين قَطّ خلال السنوات الثلاث التى قضاها فى الخلافة ، ولكن الحقيقة أن جَوًّا من الفوضى والرهبة ساد البلاد ، فلم يعد أحد يطمئن إلى أحد ، ولم يظهر رجل ذو كفاية وخلق يستطيع ضبط الأمور ، فتوالت الفتن وكانت المشكلة الرئيسية هى مشكلة ذلك الجند المرتزق الذى أتى به

المنصور وهم الصقالبة من ناحية، والبربر من ناحية أخرى ، فأما الصقالبة فقد تركوا الميدان وفروا إلى السواحل الشرقية وحاولوا الاستقرار فى أمان فى المرية ومرسية ، يقودهم زعيم صقلبى يسمى « خيران » وحاول نفر آخر منهم الاستقرار فى دانية والجزائر الشرقية ، وخاصة « بنو برزال وبنو يفرن» ، ومع أن سليمان المستعين وافق على تثبيت المنذر بن يحيى التجيبى فى ولاية سرقسطة والثغر الأعلى لكى يستعين به ، إلا أن أمره لم يستتب .

ولو أن البربر أخلصوا لسليمان المستعين فربما كان قد صلح أمره ولكن الكثيرين من زعمائهم كانوا يخادعونه وخاصة « زاوى بن زيرى وحبوس بن ماكسن » زعيم البربر الصنهاجيين ، الذين كانوا قد وفدوا على المنصور وانضموا إلى جيوشه ، ثم استقروا بعد الفتنة فى غرناطة .

وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بنى حمود ، ينتسبون إلى الأدارسة ولكنهم كانوا قد اندرجوا فى جملة البربر بعد نهاية الأدارسة ، ثم دخلوا فى خدمة المنصور وأولاده ، فلما انقضى أمرهم واشتعلت الفتنة تطلعوا إلى الخلافة ، وكان سليمان المستعين قد ولّى علىّ بن حمود منهم سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء ، فطمع علىٌّ فى الخلافة وتحالف مع « خيران الصقلبى » واقتحم قرطبة وقتل سليمان المستعين ، وزعم أن هشاماً المؤيّد كان قد ولاه عهده ، وبدأ يحكم على أنه خليفة الأندلس ، معتمداً على رجاله من الصنهاجيين والزناتيين ، وبدأت فى تاريخ الخلافة القرطبية فترة قصيرة من الفوضى هى فترة الحموديين.

ومن الطبيعى ألاّ يستطيع هذا الدعىُّ شيئاً كثيراً فلم يلبث أن قتله غلمانه فى ٢ ذى القعدة ٤٠٨ هـ/ ٢٣ مارس ١٠١٨ م وخَلَفَه أخوه القاسم بتأييد الزناتيين .



عـصر الطوائـف

كيف بدأ عصر الطوائف :

خلال هذه الحوادث كلهـا وقف بقية أهل الأندلس ينظرون إلى مـا تسفر عنه الأمور ، وكان يتولّى معظم ولايات الأندلس نفـر من رجال بنى عامر أو من أعضاء الحزب العامـرى إذا استقام هذا التعبير ، وفى هـذه الظروف قد انعـدمت السلطة المركزية تقـريباً ، اضطر أولئك الولاة إلى الانفراد بـولاياتهم ريثما تنجلى الأمور فى قرطبـة ، ولكن الأمور لم تنجلِ عن نتيجـة واضحة ، وتعاقب على عـرش بني أمية عدد من الأمـويين الصغار لم يحكم معظمهم إلا فترات قصيرة ، وكان القـرطبيون يحاولون أن يؤيدوا أولئك الخلفاء بـزعامة رئيسهم أبى الحزم بن جهور ، وأخيراً ، وعنـدمـا يئس القرطبيّـون من العثـور على شخصيـة أمويـة تستطيع النهـوض بالمسؤولية اجتمع كبار قرطبة فى ذى القعدة ٤٢٢هـ/نوفمبر ١٠٣١م وتشاوروا فى الأمر ثم استقـر رأيهم على إلغاء الخلافة القرطبيـة وعزلوا آخر بنى أميـة وهو هشـام الثـالث الملقب بـالمعتـد ، وقرروا إخـراجـه من بلـدهم فى ١٢ ذى القعـدة ٤٢٢هـ/ ٣٠ نوفمبر ١٠٣١م وبـذلك انتهت خلافة بنى أمية الأنـدلسية ، وذهب الخليفة المعتد معزولاً إلى نواحى سرقسطة حيث انتهت حياته فى خمول .

هذا القرار الذى اتخذه زعماء قرطبـة برئاسة أبى الحزم بن جهـور لا يوصف الا بأنه كارثة ، لأن إلغاء الخلافة كان معنـاه إلغاء رمز الوحدة ، لأن عمال النواحى والأطراف وجـدوا أنفسهم فجأة بدون خليفـة ومضطرين إلى أن يتـولوا بأنفسهم شؤون ولايتهم ، وهكذا تحول كل منهم إلى أمـــير في ناحيته ، وتلك هى النقطة التى لا يـلاحظهـا الكثيرون وهى أن عمال النـواحى فى الأنـدلس لم يخرجـوا على الطاعـة ، ولم يستبد كل منهم بناحيتـه ، ولكن الذى حدث هو أن القـرطبيين ألغوا الخلافة ، فلم يكن للعمال مفرٌّ من أن يتحولـوا إلى أمراءِ نَوَاحٍ ، وبهذا العمل الذى يخلو من كل شعـور بالمسؤوليـة قضى أبو الحزم بن جهور وأنصـاره على رمز الوحدة فى البلاد وهو أمر لم يحـدث قط فى التاريخ ، لأن خلافة بني العباس مثلاً ـ رغماً عن ضعفهـا ـ ظلت قائمـة رمزاً لوحـدة المسلمين فى المشرق ، وكان ذلك ذا

فـائدة عظيمة ، لأن الأمـر لم يَـخْلُ مـن زعماء ذوى حمية وإخـلاص يدخلـون فى طـاعة الخلافـة ويشدون أزرهـا وتنتعش الخلافـة من جديـد كما حدث فى عهـد السلاجقة .

هكذا ظهـر أمراء النـواحى الذين نسميهم بملـوك الطوائف ، وهم لم يكـونوا ملوكًا ولا ملوك طوائف ، وإنما هم كانـوا عمالاً على النواحى استبدوا بالأمر كل فى ناحيتـه ، على النحو الذى وصفنـاه ، وهم لم يتخذوا ألقـاباً ملكية ولا سلطـانية ، وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضـد والمعتمد والمستعين ، ولم يكـونوا يتـزعمون طوائف من سكان الأندلس كما يظن البعض ، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمهـا بنـو عبَّاد ، أو طـائفة بـربريـة يتزعمهـا رجل مثل المأمون بـن ذنّون فى طليطلة ، ولا طائفة صقلبية فى شرق الأندلس يتـزعمها الصقالبة العامريون ، إنما هم كانوا رؤساء النواحى استبـد كل منهم بناحيته وأراد أن يظهر بمظهر الأمير أو السلطـــان ، ولم يـوفق واحـــد منهم فى ذلك وجـــرت الحروب بينهم وطمع فيهم النصارى فـأخذوا يفرضـون عليهم الإتاوات لأن أحـداً منهم لم يكن لديـه جيش يستطيع به دفع النصارى عن بلاده .

وينقسم عصر الطوائف تاريخيًّا إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى : هى فترة الانتظـار والترقب فيما بين سقـوط العامـريين سنـة ١٠٠٩م وإلغاء الخلافة القرطبية سنـة ١٠٣١م وخلال هذه الفترة جرت الحروب التى ذكرناها بين الأندلسيين وجند العـامريين من البربر ، و تعاقب الخلفاء واحداً فى إثر واحـد وتخرّبت قرطبة ومـدينة الزهـراء وكذلك مدينـة الزاهرة التى بنـاها المنصور محمد بن أبى عامر ، ووقف عمال النواحى يرقبون الأمور وينتظرون أن يستقر الأمر عند واحد تعترف به الأندلس كلها لتسير الأمور فى مجراها من جديد ، وخلال هـذه الفترة القصيرة تدهورت أمور الأنـدلس كله وتداعت القواعـد المتينة التى وضعها أمراء بنى أميـة وخلفاؤهم وخاصة عبد الـرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وتنفس مخنق ممـالك النصارى فى الشمال وطمعـوا فى بلاد المسلمين وقد تحدَّثنا عن هذه الفترة .

والفترة الثانية : وتمتد من سنة ١٠٣١ -١٠٨٥م وهى سنـة سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون .

وذلك أن أمراء الطوائف دخلوا فى حروب طويلة بعضهم مع بعض ، وكل منهم يريد أن يوسع ناحيته على حساب الآخرين مستعيناً فى ذلك بقوات من النصارى يدفع لهم إتاوةً حاسبًا أنه يقيم بذلك ملكاً لنفسه على حساب إخوانه المسلمين ، وتلك هى فترة الطوائف حقًا التى انقسم الأندلس فيها إلى وحدات سياسية كثيرة كلها صغيرة وكلها عاجزة عن القيام بأمور نفسها ، وتدهورت الأمور فى الأندلس كلها خلال هذه الفترة ، وأهم أمراء الطوائف الذين ظهروا فى هذه الفترة هم :

بنو عبّاد أصحاب إشبيلية : ومؤسس دولتهم محمد بن إسماعيل بن عباد الذى ينتسب إلى لخم ، وكان من رجال الحزب العامرى ، فابن أبى عامر هو الذى ولّاه القضاء على إشبيلية ، ومنحه سلطات واسعة ، وعند قيام الفتنة كان أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد قاضياً على إشبيلية ، فقدمه أهلها للرياسة ، وعندما توفى إسماعيل قام بالأمر بعده ابنه محمد بن اسماعيل بن عباد واصطنعه القاسم ابن حمود وأقامه والياً على إشبيلية ، فشرهت نفسه إلى السلطان ، وكان رجلاً واسع الحيلة بعيد الطموح وإن كان مستواه الأخلاقى بعيداً جدًا عما ينبغى للقضاة . وما كادت دولة الحموديين تنتهى حتى استبد بالأمر وتلقب با لمعتضد وأعلن لفترة قصيرة الولاء لهشام المؤيد ، وفى النهاية استبد بالأمر ، وخلفه ابنه إسماعيل بن محمد بن عبّاد الذى غدر بيحيى بن على بن حمود مولى نعمته سنة ٤٢٧هـ . وإسماعيل هذا هو الذى انتقل بالبيت العبّادى الى مظاهر الأمراء ، فاتخذ القصور والجند ، وحاول أن يضم إلى إمارته كل ما استطاع من البلاد الصغيرة إلى جواره وخاصة إمارات البربر الصغيرة مثل قرمونة وأسكنه قرب إشبيلية ، ووقعت الحرب بين أبى القاسم إسماعيل بن عبّاد وجيرانه وخاصة بنى الأفطس أصحاب بطليوس . وقد استعان كل من ابن الأفطس وابن عباد بالنصارى واستقر الأمر فى النهاية إلى شبه هدنة بينهما ، وفى سنة ٤٣٣هـ صار الأمر فى إشبيلية إلى أبى عمر عبّاد بن إسماعيل بن عباد ، وهو الذي تلقب بالمعتضد ووسع إمارته حتى شملت معظم حوض الوادى الكبير وما يليه جنوباً وهادنه أهل قرطبة ، وقد اتخذ هذا الرجل الجند الكثير ، ولكنه لم يستطع أن يحقق وحدة الأندلس كما كان يقول ، خاصة وقد اشتدت الحروب بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، وقد استمرت الحروب بين بنى الأفطس وبين بنى

عبّـاد ، وطمع ألفونسـو السـادس ملك قشتالـة وليـون فى بلاد المسلمين . وهـذا المعتضد بن عبّاد هو الذى اشتهر أمره فى بلاد الأندلس فجعل لنفسه بلاطًا وأحاط نفسه بـالشعراء وكـان هو نفسـه شاعـراً ، وهو والـد المعتمد بـن عباد الشـاعر المشهور . وسنتحدث عنه . وقد حاول سنة ٤٥٠هـ أن يستولى على قرطبة ولكنه لم يستطع إلا بعد نهاية بنى جهور حوالى سنة ٤٥٨هـ .

ثم خلفـه ابنه المعتمـد بن عبَّـاد بن محمد بـن إسماعيل بن عباد الـذى تلقَّب بالمعتمـد واشتهر أمره بـالشعر والشعراء ، وفى أيـامه بلـغـت دولـة بنى عبّاد ذروتها فى القوة والشهـرة ، فقد تمكن المعتمد من ضم قـرطبة ومالقة ومـرسية ، واستصفى كل إمـارات البربر الصغيرة جنوبـى الوادى الكبير ، وضـم إلى إمـارته جزءاً كبيراً من غرب الأندلس ، ولكنه لم يستطـع أن يحقق أمل الوحدة لأنه كان إلى جانب اشتهـاره بالشعـر رجلاً فاسـدًا ينفق معظم وقته فى الشراب محيطـاً نفسه بالشعراء وأكبرهم أبو بكر بن عمار ، وسنتحدث عن ذلك فى نهاية كلامنا عن عصر الطوائف ، وقد انتهت إمارة بنى عباد على يد المرابطين فقد عزله يوسف بن تاشفين عند عبـوره الثالث إلى الأنـدلس ، ونفاه إلى أغمات حيث قضـى بقيـة أيامـه فى قول الشعر، وشعره الذى قاله فى هذه الفترة هو أجمل شعر قاله فى حياته .

دولة بنى ذى النون فى طليطلة :

بنو ذى النون أسرة بربرية الأصل قديمـة فى الأندلس ،وترجع أخبارها عندنا إلى أيام الإمارة ، فقـد تجمعت أعداد من بربر الهواريين عند بلـدة تسمى شنتمرية قرب طليطلـة ، وهناك قامت لهم عـزوة وقام لهم عدد ، وتحولـوا إلى أندلسيين من أصل مغربى وتزاوجوا إلى الناس وأصهروا إليهم ونشأت أجيالهم أندلسية .

وكان الأمراء وخـاصـة فى عهد الأمير عبد الله ، إذا وجـدوا أسرة من هذا الطراز ذات قـوة وعـدد ، فى نـاحيـة من النـواحى تتطلع إلى السلطـان استجـابـوا لطلب رؤسائها فى الإسجال لهم على بلدهم أى إعطائهم سِجِلاً يخوّل لهم حكم منطقتهم، إلى جـانب العامل المولًى من قبل أمير قـرطبـة وجبايـة المال والاحتفاظ ببعضـه فى مقابل تقديم خـدمة عسكرية للإمارة فى الصوائف ، أو عنـدما تطلب الإمارة ذلك . وكان ذلك نـوعاً من الإقطاع شبيهاً بـالإقطاع الغربى الذى سـاد أوربا فى العصور

الوسطى مع فارق ظاهر ، وهو أن الإقطاع الغربى كان يُعْطِى المُـقْطَعَ السلطانَ على الأرض والناس ، أى أن المُقْطَعَ ويسمى فى المصطلح الغربى بالفصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما فى الإقطاع الإسلامى ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهر يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم ، أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام فى قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمًى فى الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقصّ من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر الذى أرغمهم على القتال فى جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاواتٍ ماليةٍ منتظمةٍ لمعاونته فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النَّصَارَى . وقد دخل بنو زنون ـ الذين عَرَّبوا اسمهم إلى ذى النُّون ـ فى جملة الحزب العامرى وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستبد بأمره.

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم فى الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى الوادى الكبير فى أحواز بلد يسمى « قبذة » . أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « فونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خُمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩م كان يتولى أمر شنتمرية رجل فى بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكى يستقووا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١ م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه ظاهر الملكية الذى اتخذه أمراء الطوائف فى ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتذود عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم فى سلام . وفى الحق كان ذلك يبدو ممكناً فى ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الصغر والضعف بحيث لا يخشى خطرها، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبى عامر ، فكانت تقوم إلى غربىّ طليطلة إمارة

صغيرة هى كونتينة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها أكناد ضعاف تابعون لملوك ليون ، وقد حدث فى أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفى وخلفه أبناؤه فتحاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيفاً على المأمون ذى النّون سنوات طويلة عرف فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة ، وهى أن طليطلة كلها لا تملك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك .

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه النبلاءُ وولّوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهد للاستيلاء على طليطلة ، وفى سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م توفى المأمون ذو النون ، وخلفه حفيد له فى غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمَّى يحيى الذى تلقّب بالقادر ، وفى أيامه استقلّت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من توابعها ، ونشط ألفونسو السادس فى تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، فعرض على المأمون ذى النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصرانى ، وقد انتهز هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطلة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة أسرة بنى الحديدى من الوزراء ودخل البلد بقوته سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيها فى مملكة ليون وقشتالة ، وعوضاً عن ذلك عين ألفونسو السادس يحيى القادر بن ذى النّون صاحب طليطلة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم فارس يسمى ألبْرهانس فدخل يحيى بن ذى النون بلنسية فى حماية النصارى .

المهمّ لدينا ، وهذه هى الحقيقة التى نريد أن ننصّ عليها هنا ، أن مملكة ليون التى كانت إلى الآن مملكة صغيرة فقيرة ، تتكون من أراضٍ زراعيةٍ ، تشمل أقاليم ليون وأشتريس وجليقية ، ليس فيها مدينة جديرة بالذكر إلا أبيط وليون وربما أشترقة ، أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من عظام المدن مثل طليطلة وشنتبرية ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة ، هذا بالإضافة إلى ماكان منضماً إليها قبلاً من أراضى كونتينة قشتالة ، أى أن ألفونسو السادس انتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة ،

وأصبح بقواتــه وأراضيه وأمواله الكثيرة صاحــب الكلمة العليا فى شبه الجزيـرة ، فهو يملك أَوَّلاً مملكة ليون (تضم أشتريس وليون وجليقية) وكونتينة قشتالة ثم كل بلاد إمارة طليطلة ، وأصبحَ بهذا الـوضـع يستطيع أن يملى إرادته على كل بلاد الأندلس فهو يجاورهــا جميعاً وفرسانــه يغيرون على معظم إمارات الطوائف من أمثــال إشبيليــة وبطليـوس وسهلة بنى رزيـــــن التى تسمى بشنتبريــة الغــرب وبلنسية .

وتلك هى الحقيقــة الـرئيسيــة التى تهم المعنــىَّ بـدراســة تــاريخ الأنـدلس الإسلامى فإن مصيبة عصر الطـوائف ، لم تقتصر على تقسيم أراضـى الأندلس إلى ولايات صـغيرة مستضعفة ، بل إن هذه الأقســام المستضعفة كانت تجاور إمارات نصرانية عــاشت دائماً تحت تهديد خــلافة قــرطبة ، وكانــت حياتها فى ذلك الحين شظفاً ، فما كــادت ترى أراضــى المسلمين إلى جــوارها بــدون حماية حتى انقضت عليها ووسّعت أراضيهــا على حسابها وتحوّلت من إمارات تكافح للبقــاء إلى ممالك تعمل على توسيع رقعتها وتطمع فى الاستيــلاء على بقية شبه الجزيرة ، ولهذا فإن الفكــرة الكبيرة التى يديـر عليهــا الكثير من مؤرخى الإسبــان تــاريخ إسبانيــا فى العـــصور الـوسطى وهى فـــكرة الاسترداد .La Reconquista ترجع بالذات إلى ذلك العصر ، أما قبل ذلك فقـــد كان هَمّ الممالك النصرانية هــو العيش فى سلام من غزوات المسلمين .

أمــا القول بأن شرَّ مــا كان فى عصر الطـوائف هو انقســام البلاد إلى إمــارات صـغيرة فذلك فى ذاتــه ليس بخطر كبير ، ففى بلاد الإسـلام فى الشرق كــانت البلاد وخاصة فى الشـام والعــراق مقسَّمةً فى كثير من الأحيان إلى دويلات صـغيرة ، ولكن لم يكن يهددها خطر سياسى دينى كبير كهذا ، ولهذا لم يكن للانقسام فى ذاته تلك الخطورة به .

ولكى نــوضـح الأمــر نقــول إن خلفاء قــرطبــة فى أيــام عبد الـرحمن النــاصر والمستنصر والمنصــور أى خلال العصر العــاشر الميــلادى الذهبــى كانــوا بفضل قوتهم ونشاطهم هم الذين يتصرفــون فى عروش الممالك النصرانية ، ففى أيام عبد الــرحمن الناصر تــدخل هذا الخليفــة لكى يعين غــرسيه ســانشو الأول ملكــاً على بنبلونــة سنة ٩٣٤م وكذلك تـدخل عبد الرحمن لكى يصبح ســانجو الأول الملقب بالجلف (الكراسو) ملكــاً على ليون سنة ٩٥٦م وفى أية مناسبة أبــدى فيها ملوك

النصارى أية محاولة للخروج على طاعة قرطبة ، كان الخلفاء ورجالهم يبادرون بالقيام بحملات التأديب ، بل إن عبد الرحمن الناصر دخل بقواته بنبلونة ليؤدِّب ملكها ، ودخل المنصور بقواته مدينة ليون عاصمة مملكة ليون ووصل بغاراته إلى جليقية ودخل « شنت ياقب » فى وسط جليقية ، وقام ابنه عبد الملك المظفّر بدخول برشلونة وكان ينوى إسكانها المسلمين وبالفعل نقل إليها الآلاف منهم وذلك قبل أن تقع كارثة طليطلة بأقل من نصف قرن ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن مدى التحول الكبير الذى أصاب الأندلس فى عصر الطوائف .

إمـارة بلنسـية :

أشرنا فيما مضى إلى أن بلنسية كانت من توابع طليطلة ، وحقيقة الأمر فى بلنسية التى تقع فى شرق الأندلس وتعتبر إلى اليوم من أغنى أقاليمه ، صارت بعد سقوط الخلافة إلى نفر من صقالبة العامريين ، ثم بايع الصقالبة فى حكمها حفيداً للمنصور بن أبى عامر يسمى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور سنة ٤١١هـ / ١٠٢١م وتلقّب بالمنصور وتوفى هذا سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١م فخلفه ابنه عبد الملك الملقّب بالمظفر ، الذى تزوج ابنةً ليحيى المأمون بن ذى النون ، وانتهى الأمر بأن اتحدت الإمارتان وعَهِد المأمون فى حكمها إلى أبى بكر محمد بن عبد العزيز الملقب بابن روبش ، حتى إذا استولى ألفونسو السادس على طليطلة أخرج ابن روبش هذا وصار الأمر إلى يحيى القادر بن ذى النون فى حماية فرسانه من النصارى الذين كان يرأسهم ألْبَرهانس الذى ذكرناه ،وهو ابن أخى فارس نصرانى آخر سيكون له دور سَيِّئ فى تاريخ المسلمين فى الأندلس فى ذلك العصر وهو رودريجو دبيبار الملقب بالسيد القمبيطور Rodrigo de Vivar El Cid Campeador ويسميه العرب بصاحب الفحص .

كان هذا الرجل وأصله قشتالى يخدم ملوك ليون ، وكان يؤيد الملك سانشو أخا ألفونسو الذى ذكرناه ، فلما صار الأمر إلى ألفونسو الذى تلقَّب بالسادس ، وأصبح يسمى ملك قشتالة وليون ، اختلف معه السيّد فنفى إلى بلاط سرقسطة وعاش فى وسط المسلمين وتكلم العربية واستخدمه بنو هود فى أعمالهم العسكرية ومن هنا كسب لقب السيّد وهو لقبٌ عربىٌّ ثم صالح الملك ألفونسو السادس بعد

استيلائه على طليطلة ثم انفصل عنه وكون جماعة من أهل الحرابة ، وهم المصطلح الإسلامى المقاتلون الذين يقطعون الطريق ، وتجمعت إليه أعداد منهم . ووجد أن بلنسية مملكة ضعيفة فى حماية ألفونسو السادس ملك ليون ، وأخذ يُغير على أرضها وهى عاجزة عن الدفاع .

وشيئا فشيئا اشتد كَلَبُهُ عليها وطمعه فيها وحاصرها ، وازْدَادَتْ أعداد الذعار والسُّراق فى جيشه ، وكان أمر بلنسية فى يد ذلك الضعيف المسمى يحيى القادر ، يعاونه قاضى البلد وهو أبو جعفر أحمد بن جحاف . وأخذ السيد يحاصرها كى يستولى عليها ويجعلها إمارة خاصة به ، وأخيراً تمكن بعد حصار طويل وحشى يصفه لنا مؤرخ عربى يسمى ابن علقمة فى كتاب له يسمى « البيان الواضح عن الملم الفادح » حتى بلغ الجهد بالناس أن أكلوا كل ما لديهم وصار السيد يحرم عليهم الخروج من البلد .وازداد الأمر سوءاً حتى اضطر البلد إلى أن يفتح أبوابه للسيد القمبيطور سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فحكمها سنتين ، حكم فيها بالموت حرقاً على قاضيها أبى جعفر أحمد بن جحاف ونفر من كبار أهلها وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤٨٨، فارتكب بذلك جريمة من أشنع ما ارتكب فى ذلك العصر ، وفى ذلك الحين كان المرابطون قد دخلوا الأندلس وتمكنوا فى النهاية من استعادة بلنسية على يد القائد عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين ، فخرج إليها من جزيرة شكر ولم يستطع الدخول ، فتولى الأمر من بعده القائد أبو محمد بن مزدلى وهو ابن عم ليوسف بن تاشفين وعلى يده دخل المرابطون بلنسية سنة ٤٩٥هـ / ١٠٠٢م وأعادوها للإسلام بعد أن ذاق أهلها الويلات ، كما رأينا .

وإنما وقفنا عند كارثة بلنسية ومصيبة طليطلة لكى نوضِّح الحالة السيئة التى انتهى إليها أمر المسلمين فى الأندلس بعد أن تفرقت وحدتهم ، وأصبح الأندلس الإسلامى فريسة سائغة أمام ملوك النصارى ، وقد تعودنا أن نلوم ملوك النصارى على ما أخذوا من أرض المسلمين ، ونعتقد أن هذا العرض الذى نقدمه يدعو إلى إعادة التفكير فى ذلك الموضوع لأن الحياة على هذه الأرض صراع ، والدنيا كما يقول ابن جبير ـ لمن غلب .

إمارة سرقسطة :

قامت إمارة سرقسطة عند انتشار عقد الخلافة فيما كان يعرف بالثغر الأعلى

الأندلسى ، وهو الحوض الأدنى لنهر الأبرو وعاصمته سرقسطة وتتبعها بلاد كثيرة فى تلك الناحية الجبلية الوعرة ، وتجاور فى الشمال مملكة أرغون وفى الشمال الغربى مملكة نبرة ، وفى الشرق كونتينة برشلونة . وبعد سقوط طليطلة أصبحت تجاور مملكة ليون وقشتالة من الغرب والجنوب ، ومعنى ذلك أن هذه الإمارة أصبحت محاطة بملوك النصارى ، ولا طريق لها إلى بلاد المسلمين إلا عن طريق إمارة السهلة أو شنتمرية فى الشرق وطرطونة قرب مصب نهر الأبرو.

وكان يحكم هذه الإمارة الواسعة أول الأمر التجيبيون وأصلهم من القوط ، ثم أسلموا واستعربوا وظلوا يحكمون هذه الإمارة ، وكان لهم فيها تاريخ طويل ، ثم صارت إلى نفر من رجالهم وهم بنو هود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى (٤٣١ ـ ٤٣٨هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٤٦م) وكان هذا الرجل كغيره من رجال الثغر الأعلى رجلًا محارباً عفيًّا يحيط به نفرٌ كبيرٌ من المقاتلين والفرسان ، وكان يسيطر على عواصم الثغر الأعلى الأربعة ، وهى سرقسطة وطليطلة ووشقة ولاردة ، ولم يكن على هذه الإمارة خوف حتى سقطت طليطلة ، فازداد الخطر عليها.

ذلك أن المستعين بن هود عندما توفى كان قد قسَّم أملاكه بين أبنائه الخمسة وقام الصراع بينهم ، وكان الظاهر بينهم هو أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر ، وفى أيامه دبّر ألفونسو السادس ، الذى كان يتولى ملك أرغون ويلقب بالمحارب حملة أراد بها أن يستولى على سرقسطة ففشل ، فمضى يحاول أن يستعين بملوك النصارى على النيل من بلاد المسلمين ، فجمع أعداداً كبيرةً من النصارى من شمال إسبانيا وأوربا ولجأ إلى البابوية ، وتمكن الصليبيون الغربيون من مفاجأة بلد إسلامى صغير يسمى « بربشتر » على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة ، وكان متطرفاً على حدود إمارة بريطانيا النصرانية ، وتمكن المهاجمون من التغلب عليها وكان يحكمها واحد من أولاد المستعين ، وهو حسام الدولة الملقب بالمظفر ، وكان نزولهم عليها فى شعبان٤٥٦هـ / ١٠٦٤م حيث أنزلوا بأهلها مذبحة بشعة بقيادة فارس نورماندى يسمى « دى مونتروى » ، وقد بارك البابا إسكندر الثالث كل ما عمله النصارى فى ذلك البلد من أفاعيل شنيعة استنكرها حتى مؤرخو أوربا. وقد بلغ عدد من أُسِر من بنات المسلمين فيها وبيع فى الأسواق خمسة آلاف

وكانت هذه الكارثة مما أثـار الرعب فى قلوب أهل الأندلس ، فأحسوا بأنهم لم يعودوا يعيشــون فى أمان أو حماية ، وإلى مثل هذه الكـارثة وكارثـة بلنسية التى ذكرناهـا يرجع يأس جمهور الأندلس فى بلادهم وبدء هجـرتهم وفقدانهم الثبات والبسالة ، وفى مثل هذه العصور عندمـا تفقد الأمة ثقتها فى نفسها لا يثبت رجالها للقتال ويملكهم الرعب فتتوالى الهزائم .

ولم تُسترجَع بـربشترو إلا في جمادى الأولى ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م على يـد أحمد ابن هود الذى تلقب با لمقتدر .

وقد ظل بنو هود يحكمون سرقسطة وثغرها أو ما بقى من ثغرها حتى حاول ألفونســو السادس الاستيـلاء عليها ولكنـه ارتد عنهـا سنة ٤٧٩هــ عندمـا علم بنزول المرابطين الأندلس ، فتصدى لحرب أرغون أميرها أحمد المستعين واستطاع أن يرد ألفونسو المحارب قرب طليطلة عند بلدة بلتيرة فى رجب ٥٠٣هـ/ ١١١٠م ، وفيها استشهد أبو جعفر أحمد المستعين وخلفـــه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة .

وبعد دخــول المرابطين الأندلس دخل أمراء سرقسطـة فى طاعتهم ، ولكنهم لم يخلصوا لهم بل آثـروا الدخول فى طاعـة ملوك أرغون ، وفى أواخر سنـة ٥٠٣هـ نجد أبا مروان عبـد الملك عماد الدولة يتنازل عن بلدة طليطلـة لألفونسو المحارب سنة ٥٠٣هــ ويقطعه هذا بـدلا منها أراضـى فى بـلاد قشتالة ، وبعـد وفاة عماد الدولـة هذا فى شعبان ٥٢٠هـ خلفـه أبناؤه وآخرهم المستعين باللـه الذى دخل فى طاعـة الملك النصرانى ، وفى سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م دخل ألفونســو المحارب ملك أرغون سرقسطـة ، وبذلك تضـاعف حجم مملكته وانتقلت من طـور إلى طور كما حدث بـالنسبة لقشتالة وليـون ، إذ أن مملكة أرغون صنعت نفسهـا على حساب إمارة سرقسطـة التى كانت أول الأمـر مملكة صغيرة فى جبـال البرانس فأصبحت الآن تمتـد حتى تشمل وادى الأبـرو الأدنى والأوســط وأصبحت بـذلك من كبـار الممالك النصرانية .

وبهذه المناسبة نقول إن أول الممالك النصرانية انتعاشاً وظهوراً نتيجة لانتثار عقـد خلافـة الأندلس كـانت مملكة نبرة ، التى كـانت تسمى إلى ذلك الحين مملكة بنبلونـة ، وكانـت مملكة صغيرة يسميها المسلمـون أرض البشكونـس ، وفى سنة

١٠٠٤م أى بعد موت المنصور بن أبى عامر بسنتين تولى أمر بنبلونة ملك هُمَام يسمى سانشو الكبير (١٠٠٤ ـ ١٠٣٥ م)وقد تمكن هذا الرجل الذى تعلم فى فرنسا من أن ينظم مملكته الصغيرة ويضاهى بها مملكة الفرنجة فى فرنسا ، واتصل بالبابوية وأخذ من البابا تفويضًا بمغازاة المسلمين ، وصار يفكر فى الاستيلاء على أراضٍ منهم ، وبدأ بتوحيد بعض الإمارات النصرانية القائمة فى جبال ألبُرت ، مبتدئاً بإمارة « ريبا جورثا » (١٠١٨ ـــ ١٠٢٥م) ثم أدخل فى طاعته كونت ـ قشتالة .وفى سنة ١٠٣٠م دخل فى طاعته برمودو الثالث ملك ليون وكذلك كوند برشلونة بيرنجير رامون الأول الملقب بالمنحنى (الكوربو) .

ومعنى ذلك أن إمارة بنبلونة التى رأينا عبد الرحمن الناصر يدخلها ويقيم عليها قائده حاكما أصبحت الآن وبعد زوال خلافة قرطبة مملكة يحسب لها حساب ، ولكن سيادة نبرة أو بنبلونة لم تستمر لأن ذلك الملك عندما توفى سنة ١٠٣٥ م كان قد قسَّم أملاكه بين أولاده تحت وصاية ابنه الأكبر نمرسيه دنياخرة ١٠٣٥ ـ ١٠٥٤ م ولكن فرناندو الأول ملك ليون تمكّن من التخلص من سلطان نبرة وثار عليها بقية ملوك النصارى من أمثال فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة وراميرو الأول ملك أرغون فتقاسما أملاكها . وتوزعت أراضيها بين هاتين المملكتين . وقد رأينا كيف قامت على أكتاف المسلمين قوة مملكتى ليون وقشتالة فى ناحية ، ومملكة أرغون من ناحية أخرى .

أى أننا الآن أمام مملكتين نصرانيتين قويتين تهدد أمن أراضى المسلمين الأولى ليون وقشتالة والثانية أرغون .

إمارة إشبيلية :

تعتبر دولة بنى عبّادٍ أصحاب إشبيلية أشهر دول الطوائف وإن لم تكن أقواها ، لأن أقواها بالفعل دولة بنى هود فى الثغر الأعلى ، وأصل بنى عبّادٍ عربٌ ، وقد استقروا أول الأمر فى شلب فى غرب الأندلس ، وترجع شهرتهم إلى جدهم إسماعيل بن عبّادٍ الذى عيّنه المنصور بن أبى عامر قاضياً على إشبيلية فبدأ تاريخهم فى ذلك البلد ، لأنهم عند إلغاء الخلافة وجد إسماعيل بن عباد الفرصة

سانحة للاستبداد بأمر إشبيلية ، لأن أهلها قدموه للرياسة حتى تنجلى الفتنة ، وبعد وفاته خلفه ابنه أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وفى أيامه خلا الجو لبنى عباد للرياسة بزوال الخلافة نهائيًا ، ثم جاء بعده ابنه أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل وهو الذى تلقب بالمعتضد .

وترجع قوة بنى عباد إلى ما تميز به جدهم إسماعيل بن عباد من مهارة سياسية وقدرة على جمع المال ، وذكائه الذى جعله يسود أهل إشبيلية جميعاً ، وقد بايع أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد للقاسم بن حمود عندما ادعى الخلافة ، ولكن عندما طرد هذا الرجل من قرطبة وأراد اللجوء إلى إشبيلية ، أقفل المعتضد أبوابها وتنكّر له واجتمع مع اثنين من كبار البلد هما أبو عبد الله الزبيدى والوزير أبو محمد عبد الله بن باريم ، ومضى الثلاثة يدبّرون أمر البلد ، ابتداء من سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م ثم انفرد المعتضد بالأمر .

وقد دخل أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد فى حروب طويلة مع جيرانه لكى يمد رقعة كورة إشبيلية ويجعلها تشمل غرب الأندلس كله وجنوبه ، واقترف فى هذا السبيل جنايات أخلاقية كبيرة ، وضرب لمعاصريه أسوأ المثل ، وهو المسئول إلى حد كبير عن ذلك النوع من الأخلاقيات غير الإسلامية أو غير العربية الذى ساد ذلك العصر فى الأندلس وأدّى إلى ضياع أمر الإسلام والعروبة فى الجزيرة .

ذلك أن أبا عمرَ عبَّاد بن محمد الملقب بالمعتضد ، لم يكن يقيم للأخلاقيات أى وزن ، وكان همه منصرفاً إلى جمع المال بأى طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه والعدوان عليهم وخاصة من استضعفهم من أمثال البكريين أصحاب ولبة وشنتيش وبعض أمراء الطوائف من البربر فى قرمونة وإستكة وتاكرنة وما إليه ، أما فى مواجهة ملوك قشتالة فنجد أن ذلك الرجل يتهافت ويؤدى الجزية ويعرض الطاعة دون أن يفكر فى أن يدعو إخوانه من ملوك الطوائف المجاورين للوقوف صفًا واحداً أمام العدو وقتئذٍ ، فقد دفع الجزية لفرناندو الأول ملك ليون ثم أدّاها لألفونسو السادس ملك قشتالة وليون ورَهِبَهُ رهبةً شديدةً ، وخاصة بعد أن استولى هذا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥م ، وقد اشتهر أمر هذا الرجل بأشياء بشعة مثل حديقة الرؤوس ، وأُصُصها هى جماجم أعدائه ، بعد أن يقتلهم ،فيستعملها أصصاً للزهور وكان يتفاخر بذلك ، وقد تمكّن من توسيع رقعة بلاده على حساب المسلمين وتوفى سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م .

وبمناسبـة الإتاوات أو الجزى التى كان ملـوك الطوائف هؤلاء يـدفعونها إلى ملوك النصارى ليسترضـوهم ويأمنوا جانبهم نقول : إن ملـوك النصارى أولئك كانـوا فى الحقيقة أضعف من ملـوك الطوائف ، وبـلادهم فى الغالب كـانت أصغر، فمملكة أرغـون التى استولـت فيما بعد على الثغر الأعلى مـن أصحابه بنـى هود ، كانت مســاحتها لا تزيد على ثلث إمــارة الثغر الأعلى الأندلسية وكـانت ثروتها أقل بكثير ، فلم يكن فيها من المدن ما يضاهـى مـدن الثغر الأعلى مثل سرقسطة وتُطيلة ووشقة ولاردة ، ومع ذلك فإننـا نجد بن يهود يتخاذلون تخاذلاً مخجـلا ويؤدون الجزية إلى جارهـم الأرغونى ، ولم تتحول أرغون إلى مملكـــة يحسب لها حساب إلا بعـد أن استولت على الثغـر الأعلى ، فزادت مســاحتها ثـلاث مرات وتضــاعفت ثروتها عشرات المرات ، وكذلك الأمر مع مملكة ليـون التى أصبحت مملكة قشتالة وليون ، لم تصبح مملكة لها قدر وقوة إلا بعد استيلائها على طليطلة .

ويستوقف النظر أن ملوك الطوائف هـؤلاء ، كانوا يؤدون إلى ملوك النصارى مبالغ من الذهب لا تصدق ، فقد اتفق ـ مثـلاً ـ المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مع ســانشو دبينان . Sancho de Penalen كان عليهـم بمقتضاه أن يدفع كل شهر ١٠٦٩ قطعـة من الذهب ، وكان يدفع فى نفس الـوقت إتاوة أخرى إلى كونت أورخل غير محددة القدر ، فإذا قدرنا وزن القطعـة الذهبية الإسلامية فى ذلك العصر بنحو جرامين ، فإن مجموع ما كان يدفعه صاحب سرقسطة ملك نبرة يزن عشرين كيلـو جرامـاً من الذهب فى العـام ، ولا بدّ أن نضيف إلى ذلك مـا كان يدفعـه إلى الكونت أورخيل ، وكان أصحـاب إشبيلية يدفعـون أكثر من ذلك المبلغ لملك قشتالة وليـون ، ولا بد أن ملوك الطوائف الآخـرين كانوا يدفعـون ما يقارب هذه المقادير من الذهب ، ومعنى ذلك أن أمراء الطـوائف كانوا ينهبون بلادهم نهباً ليدفعـوا لملوك النصـارى ، فكأنهم لم يكتفوا بإعطـائهم الأراضى ، بل قـدموا لهم أيضاً الأموال الـلازمة للتعمير ، فالملك سانشـو الكبير (١٠٠٤ ـ ١٠٣٥م) وكونت برشلونة «رامون بيرنجير» الأول (١٠٣٥ ــ ١٠٧٦م) تقاضَيًا من أمراء المسلمين مقـادير لا تُصـدَّق من الذهـب ، والملك فرنانـدو الأول ملـــك قشتالـة (١٠٣٧ ـ ١٠٦٥م) كان يتقـاضـى من طليطلة قبل أن تسقط ضعف ما كان يـدفع أصحاب سرقسطة لملـوك نبرة ، ومعنى ذلك أن بلاد النصارى كـانت تحصل دون عناء على

ذهب كثير ، مكّن لهم من إنشـــاء المدن وتكـوين الجيـوش وتسليحهـا وتعمير الأراضـى.

وكان ملـوك إسبانيـا النصرانية يتقـاسمون هذه الأمـوال مع أشراف دولتهم ورجال الـدين ، وكان هؤلاء يشترون الأراضـى والعقارات بهذه الأمـوال ، وإلى هذا تـرجع الثـروات الضخمـة التى تجمعت فى أيـدى القلـة الممتـازة من أهل البـلاد النصرانية ، وكان نتيجة ذلك أيضًا غنى البـلاد النصرانية وفقر بلاد الإسلام ، وقد ذكرنا فيما سبق أن عبد الـرحمن الناصر كان يدّخر كل عامٍ ثلث الجبـاية ، وعندما توفى عن خمسين سنة من الحكم ، خلّف بيوتَ مالٍ مفعمة ، وكذلك خلفها المنصور ابن أبى عامر ، فأنفق ذلك كله هؤلاء السفهـاء أمراء الطوائف بتصرُّفهم الذى يندر أن نجد له شبيهًا فى حَوليّات الإسلام .

ويزيـدُ الأمرَ غرابـةً غرورُ أولئكَ الأمراءِ ومحاولتهم الظهـور بمظهر الملك مع بعدهم عن كل شـارةٍ من شاراته ، فـالمظفّر بن الأفطس صاحب بطليوس عنـدما حدثوه فى أمر توحيـد بلاد المسلمين ، قال كلمةً كبيرةً استعظمها أهل العصر، وهى أنه لو جاءنى أبو بكر وعمرُ ونـازعانى هذا الملكَ لقرعتُهما بالسيف ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يؤدّى الجزيةَ صاغراً لملك قشتالة .

والمعتمـد بن عبّاد الـذى خَلَفَ أباه المعتضـد سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م يُعتبر نموذجاً لذلك التناقض الغريب فى أخلاق أولئك الناس ، فهو يؤدى الجزية إلى الملك النصرانى ، ويستولى الملك النصرانى منـه على الحصون فلا يجرؤ على الاعتراض ، ولكنـه يأبى أن ينافسـه صاحب بطليـوس على حصنٍ صغيرٍ ويتحدّث كأنـه ملكٌ عظيمٌ ، وينفق بسخـاءٍ كأنه يملك مـال قارون ويحيط نفسـه بهالةٍ من الشعـراء يقولون فيه من الشعر ما لم يقله أحدٌ فى هارون الرشيد ، ويزعم أنه عربىٌّ أصيلٌ ، ومع ذلك فهو يقتل وزيـره ابن عمار بيده ، فـلا زال يضربه بالطـربزين (الفأس) حتى مات ، وابن عمّار هذا اسمه أبو بكـر ، وهو من كبار شعراء عصر الطوائف ، رجلٌ لا خلاقَ له ، بل لا يلمس الإنسانُ فى تصرُّفه أثـارةً من أخلاقٍ أو كرامةٍ ، فهو غادرٌ كـاذبٌ ، ماجـنٌ مسرفٌ فى الخمر ، وهـو لم يتردّد فى خيانـة سيِّده وصـاحبه المعتمـد بن عبّاد ، لكى يصبح هـو الآخر أميراً على بلـده وهو مـرسية ، ولم يـزل يجرى فى غلوائه حتى قبض عليه عَبْدَاهُ وباعاهُ بيعَ الرقيق للمعتمد بن عبّاد ، فقتله

كما ذكرنـا ، ومن غريب الأمر أن ذلك الـرجل أبا بكـر محمد بن عمّـار كـان يقول الشعر فى سهـولة يصعب تصـوُّرها ، وإنه لـو كان على شيئ من الخلق لكـان له شأن غير هذا الشأن .

وقد تمكّن بنو عبّاد من ضم قرطبة إلى إمارة إشبيلية ، وقضوا بذلك على دولة بنى جهور فزال أمرهم جزاءً وفاقاً على ما اقترفوا فى حق الأندلس من إلغاء الخلافة طمعاً فى الرياسة .

ويطول الأمر لو مضينا نتحـدث عن بقية ملوك الطوائف فهم كثيرون ، وكلهم على هذه الشاكلة خُلُقـاً وتصرُّفاً ، ففى غرناطة مثلاً انفرد بالسـلطان بنو زيري ابن زاوى ، وأنشـأ مـاكسن بن زيرى إمـارة بربريـة وخَلَفَهُ عليها حفيدُه الأميرُ أبو عبداللـه الزيرى وكان أميراً مستضعفـاً لا شخصيةً له حتى عزلـه يوسف بن تاشفين ونفـاه إلى المغرب ، وفي منفاه كتب مـذكّراتـه وهى من الوثائق التـاريخية النادرة ، فهى مذكرات صريحة بسيطة تكشف لنـا عن حقائق الحياة فى داخل هذه الإمارة البربريـة ، ومنها نتبيّـن سوء الحال وإسراف الجد وهـو ماكسن بن زيرى فى الشراب ، حتى كان لا يفيق كما يقـول حفيده ، ومن خلال هذه المذكـرات أيضا نرى سلطات نساء القصر واستبدادهن بالأمور .

ونذكـر إلى جانب هـذه الإمارة إمارة بنى صمادح أصحـاب المرية وكـانوا من نفس طراز بنى عبـاد أنانيـة وتخاذلاً ، وبنى الأفطس أصحاب بطليـوس وآخرهم المتوكل عمـر بن محمد بن الأفطس ، وكان هـذا الرجل من أكثر النـاس تهافتاً على ملوك النصـارى ، فاشتد طمعهم فيه وأخذ ألفـونسو السادس يدبر للاستيلاء على بطليوس ، كما استـولى على طليطلة ، وهنـا فقط فكر بنـو الأفطس فى أن يستعينوا بالمرابطين على رغمهم .

تدخل المرابطين :

ولو أن الأمـور تُرِكَت على هذا النحو لضـاع الأندلس كلُّـه قبل نهايـة القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، فقد شرهت نفوس ملوك النصـارى إلى بـلاد المسلمين ، ومضـى كـل منهم يقتطع من أراضيهم مـا يستطيـع حتى كبـار فرسـان النصـارى من أمثال ألبرهـانس والسيد القمبيطور تسلّطـوا على نواحٍ من

بـلاد الإسلام وسـادوها وأذاقـوا أهلهـا الويـلات ، ومهما يقال فى اهتمام ملـوك الطوائف بالعلوم أو بالشعر ، فإن ذلـك لا يغفر لهم ، وما الذى يستفيده الإسلام من عناية رجل مثل المعتمـد بن عباد بالشِّعر ورعايته لشعـراء أمجـاد من أمثال ابن عمار وابن عبدون وابن خفـاجة إذا كانتَ النتيجـة أن بلاد الإسلام والعـروبة نفسها ستضيع ، ولا يبقى فيها من يقرأ هذا الشعر؟!

كان عصراً أليماً حزيناً تصرّف فيه أولو الأمر فى الأندلس تصرفاً لا يتفق بحالٍ على ما عُـرفَ من عزة الأندلس أيـام بنى أمية . ولقد كـان تسلّط أولئك الأمراء على رعاياهم وإلحاحهم عليْهم با لمظالم والمغـارم من أسباب فقر البلاد ونزوح الناس عن المزارع ، لأن أهل القـرى لم يعـودوا يجدون من يحميهم فتركـوا قـراهم وتحصّنوا داخل أسـوار المدن ، ومعنى ذلك أنه عندما انتهى عصر ملـوك الطوائف وأقبل المرابطون كان أمراء الطوائف قد أفقروا البـلاد وأضعفوها وذهبوا برخائها وضيعـوا معظم أراضيهـا . ولم يكن تدخل المرابطين مصـادفـة ، فقـد ذكرنـا أن المتوكل بن الأفطس وجد نفسه مضطراً إلى الاستعـانة با لمرابطين وكان أمرهم قد استقر في المغرب الأقصى كله ، واتجه يـوسف بن تاشفين إلى ضم المغرب الأوسط وهنا وصِل وفـد من فقهاء الأندلس مـرسلاً من الأمراء يستغيث بـه ، وكانت نفس يـوسف بن تاشفين مشرئبـةً إلى الجهـاد ، فعبر يوسـف بن تاشفين إلى الأنـدلس عبـوره الأول في ربيع الأول ٤٧٩هـ/ يوليـو ١٠٨٦م وانضمت إليـه قـواتٌ من إشبيلية ومن غـرناطـة ، أما بنـو الأفطس أصحاب بطليـوس - وهم الذين كـانوا مهددين رأساً - فلم يرسلوا معاونة كأنهم خافوا أن ينتزع المرابطون منهم البلاد، وربما كان أحسنهم نفساً الأمير عبدالله الزيرى صاحب غرناطة ، فقال فى مذكراته المسماة بالتبيان : «ولقينـا أمير المسلمين فى طريقه إلى بطليوس فى جـريشة ولقينا من كرمه وتحفّيه بنا ما زادنا به رغبة ، ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً عن أموالنا لفعلنا » .

وكانت وجهة يـوسف بن تاشفين بطليوس ، وفى مروره بـإشبيلية انضم إليه المعتمدُ بن عبَّـاد بقواته ، ثم اضطّـر المتوكل بن الأفطس إلى اللحـاق بهم وتكاملت أعداد المسلمين وصدقت نيتهم على الجهاد بفضل قيادة يوسف بن تاشفين .

وعندمـا سمع ألفونسـو السادس بأنبـاء نزول المُرابطين رفع الحصـار عن

سرقسطـة ، وكَاتَبَ ملكَ أرغـون ، وهـو سانشــو بن راميروت وطلب نجـدات من فرنسا وإيطاليا وسار فى أعدادٍ ضخمةٍ وعلى مقدمته الفارس « ألبرهانس » .

وكان اللقـاء فى فحص الزلاقـة قرب مدينـة بطليوس ، فى صبـاح الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـــ/ ٢٣ أكتوبـر ١٠٨٦م وكانت طـلائع المسلمين بقيادة المعتمـد بن عباد ، وقد أبلى هذا الرجل بلاءً جميلاً فى تلك المعـركة كفَّر به عن بعض ذنوبه ، ثم انقضت جموع المرابطين على قوات النصارى فأبـادت معظمها ، وانتهى ذلك اليوم بنصرٍ حـاسمٍ للمسلمين ، كـانت نتيجتـه تـوقّف تقدّم النصـارى وثبـات حـدود الإسلام على ما وجدها عليه يوسف بن تاشفين .

وقد عبر يوسف بن تاشفين مرّةً ثانيـةً بعد ذلك ، وكانت وجهته حصناً يسمى لاييط Aledo وهنا تبين تخاذل أمراء الطوائف فاستقـر رأيه على عزلهم وذلك هو الذى حدث عندما عبر يـوسف بن تاشفين إلى الأندلس فى رجب ٤٨٣ هـ/ سبتمبر ١٠٩٠م فقد عزلهم يوسف بن تاشفين جميعـاً ووحَّد بلاد الأندلس فيما عدا إمارة سرقسطـة التى وجـد يوسف بـن تاشفين ألّا يـزعج أصحـابها لأنهم محاصرون بـالنصـارى من كل ناحيـة ، وقـد خـاف أنـه إذا فعل شيئا أن يسلمـوا بـلادهم للنصارى فتركهم على حالهم ، وبذلـك انتهى عهد الطوائف وبدأ عصر المرابطين فى الأندلس .

جهاد المرابطين فى الأندلس :

منذ أن كســب المرابطون مـوقعة الـزلاقة سنـة ٤٧٩ هـ /١٠٨٧م إلى زوال دولتهم الذى يُؤَرَّخ له عادة بسنـة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م وهى السنة التى توفى فيها تاشفين بن على ثـالث أمراء المرابطين عند وهـران ، ظل المرابطون قائمين بالـدفاع عن الإســلام فى الجزيرة الأنـدلسية ، وعلى الـرغم من مسئـولياتهم الجسيمـة فى المغـربين الأقصى والأوسط ، فإن الـدفاع عـن الإسلام فى الأنـدلس كـان عملهم الـرئيسى ، ففيه أنفقـوا معظم أموالهم وفيـه جاهـد واستشهد خيرةُ رجـالهم من أمثال أبى عبـد الله محمـد بن يوسف بن تاشفين أخـى أميرِ المسلمين يوسف بن

تاشفين الذى يعرف « بابن عائشة » أو ابن « تعيشت » ومعناه ابن عائشة ، لأن المرابطين كما ذكرنا ، كانوا ينسبون الرجال فى أحيان كثيرة إلى أمهاتهم نظراً لأنهم كانوا يعدّدون الزوجات وكل زوجة تريد أن تسمّى ابنها محمداً أو عبد الله ، فكانوا يميّزون الابنَ عن أخيه بنسبته إلى أمه ، وأبو عبد الله هذا هو الذى تولّى الجهاد فى شرق الأندلس واشترك فى معركة أقليش سنة ٥٠١هـ ، وقد أصيب هذا الرجل فى عينيه عقب وقعة عنيفة مع جيوش أرغون فى موضع يسمى « البرد » Congost de Martorell سنة ٥٠٨هـ ، وأبو محمد عبد الله بن فاطمة ، وهو الذى استنقذ بلنسية من يد النصارى بعد وفاة السيد القمبيطور بمعاونة قائد المرابطين مزدلى ابن سلنكان فى سنة ٤٩٥هـ ، ثم غزا طليطلة وطلبيرة ، وتولى بلنسية وشرق الأندلس ، واشترك كذلك فى معركة أقليش ، وختم حياته عاملاً على إشبيلية حيث توفى سنة ٥١١هـ وخَلَفَهُ فى الجهاد ابنُه محمد بن مزدلى بن سلنكان الذى تولى الجهاد فى الأندلس زمناً طويلاً وفيه استشهد ، وكذلك تميم بن يوسف بن تاشفين أخو أمير المسلمين على بن يوسف ، وغيرهم كثيرون ممن دفعوا حياتهم دفاعاً فى سبيل الإسلام الأندلسى .

ومن سيِّئ المصادفات أن القرن الهجرى الخامس / الحادى عشر الميلادى حفل بالكبار من ملوك إسبانيا النصرانية ، الذين كرسوا أنفسهم لحرب المسلمين مستغلين فرصة ضعف ملوك الطوائف ، وما كسبوه من المسلمين نتيجة لسوء تصرف أولئك الأمراء من أمثال ألفونسو السادس ملك أرغون وهو الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥م ثم انتصر عليه يوسف بن تاشفين فى معركة الزلاقة . وقد توفى هذا الملك بعد وقعة أقليش التى سنذكرها فيما بعد بقليل ، وألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمحارب (١١٠٤ - ١١٣٤م) وهو الذى تغلب على سرقسطة وانتزعها من أيدى بنى هود سنة ١١١٨م ، وقد سبق أن ذكرنا أن المرابطين تركوا سرقسطة لبنى هود ظناً منهم أنهم يحسنون الدفاع عنها . وكذلك رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية وهو الذى استولى فيما بين سنتى ١١٤٨ - ١١٤٩م على طرطوشة ولاردة، وضمّهما إلى بلاده ، ومع أن أولئك الملوك النصارى قد تضاعفت ثرواتهم وقواهم العسكرية واستعانوا بالبابوية وببلاد غرب أوروبا المسيحى ، إلا أن المرابطين عرفوا كيف يثبتون لهم ، ويوقفون التقدم

النصرانى ، ولولاهم لضاع الأندلس قبل نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما ذكرنا.

وقد كسب المرابطون انتصارات كبرى فى الأندلس إلى جانب معركة الزلاقة ، نذكر من بينها معركة أقليش فى شوال ٥٠١ هـ/ مايو ١١٠٨م وقد استولوا فيها على شنتبرية القريبة من طليطلة ، ثم حاصروا حصن أقليش شرقى طليطلة وأرسل إليهم ألفونسو السادس جيشاً جعل فيه خيرة قواده حتى سميت المعركة بمعركة الأكناد السبعة ، وجعل فى الجيش ابنه الوحيد شانجو ولى العهد ، وقد انتصر الموحدون فى تلك المعركة وقتل فيها ولى العهد ، ولم يلبث ألفونسو السادس أن توفى متأثراً بفقد ولده فى أواخر سنة ٥٠٢ هـ/ يونيه ١١٠٩م .

وفى سنة ٥٠٣ هـ نجد جيشاً مرابطاً كبيراً يغزو أراضى طليطلة للمرة الثانية ويستولى مرة أخرى على طلبيرة .

وفى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م يتمكن المرابطون من استعادة الجزائر الشرقية وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ، وهى المعروفة بالبليار ، من رجال الجمهوريات الإيطالية وهى بيشة وجنوة الذين انضم إليهم رجال من كونتينة برشلونة ، وكان الذى تولى استرجاع هذه الجزر هو صاحب البحر أى أمير البحر المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميمون الذى يعتبر من أبطال الجهاد الإسلاميين فى البحر فى عصرى المرابطين والموحدين . وكان استرجاع هذه الجزر ذا أثر بعيد فى مستقبل الأندلس كلها ، لأنها لو بقيت فى أيدى النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله .

ولا يمنع ذلك من القول بأنه دارت على المسلمين خلال ذلك العصر بعض الهزائم الأسيفة من أمثال وقيعة « كتندة » (ربيع الأول ٥١٤هـ/ يونيه ١١٢٠ م) وقد كان يقود المسلمين فيها أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخو على ابن يوسف . وكتندة تقع فى حيز مدينة « داروقة » من أعمال سرقسطة ، وقد استشهد فيها من المسلمين ألوف ، لأن الأندلسيين الذين خرجوا للجهاد مع المرابطين لم ينتظموا فى الصفوف وتسارعوا فى الهجوم على العدو فاختلّ مصافُّ الجيش فكانت الهزيمة ، وقد مات فيها نفرٌ من كبار علماء الأندلس ، نذكر منهم أبا على الصدفى المعروف بابن سُكَّرَه (٤٥٢/ ٥١٤ هـ) وكان من أكبر علماء

الأندلس وقد ألف عنه ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاعى) كتاباً من أحسن الكتب وهو المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى .

ومن الأحداث الجديرة بالذكر فى الأندلس خلال العصر المرابطى ما وقع من خيانة نفر من المعاهدين من نصارى الأندلس للمسلمين واستدعائهم للملك ألفونسو الأول الملقّب بالمحارب ملك أرغون ، ومعاونته على اختراق بلاد المسلمين من الشمال إلى الجنوب والعيش فى نواحيها خلال سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م وكانت نتيجة ذلك أن طلب الفقيه أبو الوليد بن رشد الفيلسوف إلى على بن يوسف بضرورة اتخاذ قرار بشأن أولئك المعاهدين الذين كانوا سبباً فى تلك الكارثة ، فنفى على بن يوسف الكثيرين منهم إلى بلاد المغرب ، وقد بالغ بعض مؤرخى إسبانيا فى الحملة على المرابطين لهذا السبب ولكن الحقيقة أن الذين نفوا كانوا عدداً قليلاً .

ونختم هذا الكلام عن جهاد المرابطين فى الأندلس بالكلام عن وقعة أفراغة جنوب غربى لاردة فى الثغر الأعلى الأندلسى سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م ، وقد قاد المسلمين فيها أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية ، والذى يعتبر من أكبر قادة المرابطين وهو جد بنى غانية الذين قادوا فتنة كبيرة على الموحدين فى الجزائر الشرقية وبلاد أفريقية ، وقد انتصر يحيى بن غانية فى تلك المعركة على ألفونسو المحارب نصراً كبيراً خلّد ذكره وقفز به إلى الصفوف الأولى من صفوف قادة المرابطين .

نهاية المرابطين فى الأندلس :

وبينما كان المرابطون ماضين فى جهادهم ضد النصارى فى الأندلس وعاملين على بناء المغرب الإسلامى ، قامت عليهم ثورة المصامدة يقودهم فيها محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين . وقد سبق أن ذكرنا فى كلامنا على المرابطين فيما أوردنا فى تاريخ المغرب ، أن محمد بن تومرت قاد ضد المرابطين ثورة ظالمة ، وحال بينهم وبين إكمال رسالتهم ، لأن هذه الفئة المجاهدة من المسلمين لم تكن تستحق هذا الانقلاب العنيف الذى قام به ابن تومرت عليهم ، فقصف عُمْرَ دولتهم وهى فى عنفوان عملها وجهادها ، وأسوأ نتائج قيام محمد بن تومرت بهذه

الحملة على المرابطين هـو أن الجهاد توقف فى الأنـدلس ، وبعد أن كـان المرابطون يكسبون النصر تلـو النصر ويستعيدون ما ضاع من بـلاد المسلمين مثل بلنسية ، بدأت الهزائم تتوالى عليهم لأنهم اضطـروا إلى سحب قواتهم من الأندلس فسقطت سرقسطـة فى أيدى ألفـونسو المحـارب ملك أرغـون سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، ثم سقطت المرية فى يد رجـال جنوة وبيشة سنة ٥٤٢هـ (وقد استعـادها الموحدون بعد ذلك) ، وفى شـوال سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م سقطت طرطـوشة فى يـد رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية ، وفى العـام التالى سقطت لاردة بخيانة أندلسىٍّ من الـذين قامـوا على المرابطين ، وهـو محمد بن سعـد بن مـردنيش وكان ذلك سنـة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م وكـان يعاونـه فى ذلك صهـره إبـراهيم بن هـامشك وهـذان الرجلان: ابن مردانيش وابن همشك مسئـولان إلى حدٍّ بعيدٍ عما أصاب الإسلام فى شرق الأنـدلس فى أواخـر العصر المرابطى وخـلال العصر الموحدى . وبعـد وفـاة تـاشفين بن على بن يـوسف بن تـاشفين ثـالث أمـراء المرابطين فى ٢٧ رمضـان ٥٣٧هـ/ ١١٤٥م توالى سقـوط العواصم الأنـدلسية فى يـد النصارى بـسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن أنفسهم فى الأندلس .

وزاد مـركز المرابطين تحرّجـاً فى الأندلس قيـام نفـر من رؤساء النـواحى فى الأندلس بالثورة عليهم منتهزين فـرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين . ومن أكبر الثائرين عليهم الذين كان لهم أسـوأ الأثر فى مصير الأندلس هو القاضى ابن « حمدين » الذى قاد ثورة على المرابطين وطاردهم فى قرطبة ، وابن قسى الذى فعل مثل ذلك الفعل فى بطليـوس . والخلاصـة أن المرابطين لقـوا من أهل الأنـدلس شر الجزاء على ما فعلوا فى سبيل إنقاذ الإسـلام الأندلسى . وإن الإنسان ليتعجب من أمر أولئـك الأندلسيين الذيـن لم يحسنوا الانتفاع بـالفرصـة التى أتيحت لهم من تكريس المرابطين أنفسهم للدفاع عن الأنـدلس ، بل أخذوا يتندرون بهم ويتعالون عليهم حاسبين أنفسهم أعلى حضارةً وأرقَـى جنسـاً من أولئك الأفارقة ، فكانت النتيجة أن أضاعـوا أنفسهم وبلادهم ، لأن الموحـدين عندمـا يخَلفُون المرابطين وَيحلُّون محلَّهم فى الجهاد فى الأندلس لم يسـدُّوا مسدَّهم قط ، وفى أيامهم انهارت خطوط الدفاع الأندلسى فلم يبـق للمسلمين فى الأنـدلس فى نهاية عصر الموحدين إلا مملكة غرناطة .

الموحدون فى الأندلس :

بعد أن تم للموحدين القضاء على المرابطين فى شوال ٥٤١هـ بمقتل أبى إسحق إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، اتجهت هِمّةُ عبدِ المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين إلى ضم ما بقى للمسلمين فى الأندلس إلى دولته ، وقد بدأ بذلك فى وقت مبكر ، لأن الكثيرين من زعماء نواحى الأندلس عندما بلغهم خبر قيام الموحدين على المرابطين قاموا على المرابطين فى نواحيهم كما ذكرنا . فكان ذلك دافعاً لعبد المؤمن للعبور إلى الأندلس بعد أن تم له بسط سلطانه على نواحى المغرب الأقصى ، وبعد أن استطاع توحيد المغرب كله إلى قفصة وطرابلس سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م التى تسمى فى المغرب بسنة الأخماس ، ففى نهاية تلك السنة عبر عبد المؤمن بن على إلى الأندلس واستقر فى إشبيلية وضم إلى ملكه ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة ، وكانت حدوده تمر شمال نهر الوادى الكبير وتبدأ فى الغرب عند الأشبونة ، وتنتهى فى الشرق عند مرسية .

وقد وضع عبد المؤمن بن على نظاماً لا بأس به للدفاع عن الأندلس فجعل عاصمته قرطبة بعد أن كانت إشبيلية فى أيام المرابطين ، وقد عاد الموحدون إلى إشبيلية بعد ذلك ، ولكن قرطبة اعتبرت المركز العسكرى ، وأقام عبد المؤمن على قواعد الأندلس ولاة من رجال بيته الملقبين بالسادة والفرد سيد وهذا هو اللقب الذى كان يطلق على أفراد البيت الموحدى .

وقد تمكن عبد المؤمن بن على قبل موته من توحيد معظم ما بقى من الأندلس تحت رايته ، و لم يخرج عن طاعته الا بنو غانية الذين تولوا أمر « دانية » أوّلاً ، ولم يستطع الموحدون الاتفاق معهم فعبروا إلى الجزائر الشرقية وهناك قامت ثورتهم التى سيطول أمرها .

كذلك رفض الطاعة للموحدين محمد بن سعد بن مردانيش رئيس مرسية وصهر ابراهيم بن همشك وكانا يستعينان بالنصارى على المسلمين ولكن الموحدين تمكنوا من الانتصار على محمد بن سعد بن مردنيش فى موقعة فحص الجلاب مما أدى إلى انضمام بنى مردانيش إلى الموحدين أيام أبى يعقوب يوسف ثانى خلفاء الموحدين .

وفى أواخـــر أيـــــام عبد المؤمــن بن عـــلى انتـــهز ألفونسو أنريكى Alfonso Enrique ملك البرتغال الذى تسميـه مراجعنا بابن الـرنق الفرصة لكى يوسع ملكه على حســاب المسلمين فى غرب الأندلس ، وكانت إمارة البرتغـال حديثة الانفصال عن قشتـالة ، وكان أمراؤهـا يحاولون أن يوسعوا ملكهـم ، وكان غرب الأندلس مجال توسعهم ، ولهذا فبينما كان شرق الأندلس هو ميدان النشاط الكبير للمجاهدين المرابطين ، كان غرب الأندلس مجال نشــاط الموحدين فى الأندلس، ففى سنــة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م حــاول ألفونســو أنريكى الاستيــلاء على الأشبونــة فلم يستطع ، ولكنه استعــان بنفر من الصليبيين الانجليز والألمان والهولنـديين الذين كانوا ذاهبين للحرب فى المشرق وأغراهم بمعاونته فى الاستيلاء على قصر أبى دانس وشلب ، وقد تمكن الموحـدون من استعادة شلب ، أمــا قصر أبى دانس وكانت من أكبر حصون الإســلام فى الأندلس فلم تعد إلى الإسلام بعـد ذلك ، وبعد ذلك بقليل اســتولى البرتغاليون على شنترين .

هنا تنبَّه الموحـدون إلى ضرورة القيام بعمل حاسم فى الأندلـس ، فاستقر رأى أبى يعقوب يوسف ثانى خلفاء الموحدين على أن يقوم بعمل حاسم غرب الأندلس ، وبالفعل حاول سنــة ٥٨٠ هـ أن يســتعيد شنترين شمال شرقى لشبـونة ،وكاد يستولى عليها لـولا أنه أصيب بمرض مفاجئ فـرفع الحصار ولم يلبث أن توفى فى ربيع الآخر سنــة ٥٨٠ هـ/ يوليو ١١٨٤م وخلفــه أكبر أبنائه أبو يـوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، والذى يعتبر أكبر شخصيــة فى تاريخ الموحدين بعد محمد ابن تومرت وعبد المؤمن بن على .

وقد قرر هذا الخليفة الموحـدى أن يقوم بحملة كبرى على الأندلس ، فعبر سنة ٥٨٦ هـ واستعــاد شلب ، وحاول استعــادة قصر أبى دانس ثم عــاد إلى إشبيلية . وفى سنة ١١٥٧ م توفى ألفونسو السابع ملك قشتالة وبعد حرب أهلية على العرش تولى أمر مملكة قشتالة وليون الفونســوالثامن الذى بدأ فعقد صلحا مع الموحدين سنة ٥٨٦ هـ وعندما انتهت مدة هــذا الصـــلح ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م بدأ بمهاجمة أراضى المسلمين فعبر أبو يوسف يعقـوب إلى الأندلس فى جيش ضخم سنة ٥٩١م وكانت وجهته الحقيقية طليطلة ، ولكن ألفونسو الثامن عجَّل بالمسير نحوه ، وكان أبو يوسف يعقوب قد احتشد احتشــاداً عظيماً لتلك الحملة ، فأخذ معه خير مقاتلى

الموحدين وضم إليهم أحسن مقاتلى الأندلس ، وبعث فى نفوس رجاله حماساً دينيًا عظيماً ، وخافه ألفونسو الثامن ،فاستعان بالبابوية وبملوك إسبانيا النصرانية وسار فى جيش ضخم من قلعة رباح ، وعسكر عند حصن يسمى الأرك فى نهاية الطريق المؤدِّى من طليطلة إلى قرطبة ، وبدأت المعركة الحاسمة فى التاسع من شعبان ٥٩١ هـ / يوليو ١١٩٥م وقد انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين حُصرت فيه صفوف الإسبان ، وتمكن المسلمون من كسر حدة الموجة النصرانية ، وتعتبر هذه المعركة أُختًا لمعركة الزلاقة ، وكان لها أبعد الأثر فى تثبيت جبهة الإسلام الأندلسى لمدة قرن كامل من الزمان على الأقل .

وبعد معركة الأرك عاد المنصور إلى إشبيلية وأخذ ينظم أمور الأندلس وشرع فى إكمال مسجدها الجامع الذى اشتهر بمئذنته الباقية إلى اليوم وهى المعروفة بالدوارة أو الخيرالدة .

وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين الموحدين والنصارى سنة ٥٩٤ هـ /١١٩٨م ولكن ألفونسو الثامن ما كان ليسكت على تلك الهزيمة ، فأخذ يعد العدة للقاء ثانٍ مع الموحدين ، وبدأ فى ذلك سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م أى قبل انتهاء أجل الهدنة ، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور قد توفى فى ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ وخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله ولم تكن له كفاءة أبيه ، وعرف ذلك ألفونسوالثامن فقرر أن يستفيد من تلك الفرصة ، وجمع جيشاً ضخماً وسار قاصداً بلاد المسلمين . وعبر أبو عبد الله محمد الناصر خليفة الموحدين فى ذى الحجة سنة ٥٠٧ هـ/ ١٢١١م واتجه نحو بلدة « شلبطرة » فاستولى عليها سنة ٦٠٨ هـ وكانت تقع جنوب قلعة رباح إلى الشمال الشرقى من قرطبة .

وقد خاف ألفونسوالثامن من أن يُمنى بهزيمة ثانية ، فاستجاش بالبابوية وبملوك غرب أوربا واستنصر أهل أسبانيا النصرانية فجمع جيشاً ضخماً سار للقاء المسلمين به ، وعجّل محمد الناصر فجمع جيشاً حافلاً وسار به إلى الأندلس فنزل إشبيلية ، ومن هناك اتجه إلى جيانى ثم صعد شمال الوادى الكبير وعسكر فى سهل كثير التلال الصغيرة التى تسمى بالعقاب (جمع عقبة) وأقبل النصارى فعسكروا على هضبة عالية تعرف بهضبة الملك مشرفة على معسكر المسلمين .

وقبيل اللقـــاء استولى النصـارى على قلعة ربـاح من يد قائدها الأندلســى « أبو محمد بن قادس » وعندما وصل هـذا القائد إلى معسكر محمد الناصر سارع النـاصرُ بقتلـه دون تحقيق ، فثـارت نفوس الأنـدلسيين وأزمعـوا الانخـذال عن الجيش الإسلامى أثناء المعركة .

وحـدث ذلك بـالفعل ، ففى الخامـس عشر من صفـر ٦٠٩هـ / ١٦ يـوليـو ١٢١٢م وقع اللقاء الحاسم ، وبعـد قليل من الصراع انخذل الأندلسيـون والعرب تاركين الجناح الشرقى من الجيش الإسلامى مكشـوفاً ، فانقض عليهم النصارى وأنزلوا بـالمسلمين هزيمة قاصمـة قتل فيها عشرات الألوف من المسلمين معظمهم من المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس ، وكذلك حصدت فى المعركة زهرة مقاتلى المغرب وبلغ من ثقل الخسارة أن ابن عذارى المراكشى المؤرخ يحدثنا أن الإنسان كان يجول فى المغرب بعد تلك المعركة فلا يصادف شابًّا قادراً على القتال .

المهم لدينا أن تلك المعركة كانت قـاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس فقد تضعضعت جبهـة الوادى الكبير وسقطت مدن كبرى مثـل بياسة وأبـدة وأصبح النصارى يشرفون مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم خط الوادى الكبير ، وفى ظـلال هذه الهزيمة توفى محمـد النـاصـر فى شـعبان سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م وبعـد وفاتـه بـدأ الخلاف المؤسف يـدب فى صفـوف البيت الموحدى وانعكـس ذلك على الأندلس ، فبـدأت تصفية ما بقـى للمسلمين فى خلال بقية العصر الموحدى ولم تبق إلا مملكة غرناطة.

وفى كلامنا عن الموحدين فى القسم الخاص بالمغرب من هذا الكتاب تكلمنا على بقية تـاريخ هذه الـدولة فى المغـرب والأندلس ، ولهذا فإننـا ننتقل الآن للكلام على دولة بنى نصرٍ المعروفين ببنى الأحمر فى غرناطة .

* * *

دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة
٦٢٦ ـ ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ ـ ١٤٩٢ م

بعد انصراف أبى العلاء إدريس المأمون من الأنـدلس مصطحباً معه من بقى من كبار جند الموحـدين فى شبه الجزيرة ، بقيت الأندلـس بدون حماية يحسب لها حساب ، وبـرز فى صفوف المسلمين نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن يتزعـــم مـا بقى من المقـاتلين فى الأنـدلس لكـى يقيم لنفســه دولـة فى هـذا الجزء البـاقى للمسلمين فى الأندلس ، وكان قد اقتصر على نهر الوادى الكبير وما يقع جنوبه.

وأهم أولئك الزعماء بنـو مردنيش أصحاب بلنسية ، وسيف الـدولة محمد بن يوسف بـن هود الجذامى الملقب بالمتـوكل ، ومحمد بن يـوسف بن أحمد بن نصر الملقب بالشيخ .

فأما بنـو مردنيش فكان يمثلهم عـدد من أحفاد محمد بن سعـد بن مردنيش أكبرهم أبـو جميل زيان بن مـدافع بن يوسف بن محمـد بن سعد بن مـردانيش، الذى بـدأ أمره كاتباً وقـائداً لأمير الموحدين ، وكان يتولى أمـر بلنسية ، ثم انصرف هذا الأمير وصار الأمـر إلى أبى جميل ولم يستطع أبو جميل الثبات أمـام « خايمة الأول » ملك أرغون الذى استولى على بلنسية فى صفر ٦٣٦ هـ/ سبتمبر ١٢٣٨م وأمـا مرسيـة التى كانت قـد تحولت إلى وحـدة سياسيـة قائمـة بذاتها وسماهـا النصارى بمملكة مرسية ، فقد تولى أمرها رجل يسمى أبا بكر عزيز بن أبى مروان ابن خطـاب الذى تلقّب بضيـاء الـدولة ، ولم تكـن لدى هـذا الـرجل من القوة مـا يستطيع به الدفاع عن مملكة مرسية وانتهى الأمـر بسقوطها فى يد فرنـاندو الثالث المعروف بالقديس .

وبقى فى الميدان محمد بن يوسف بن نصر الجذامـى بن هود الملقب بالمتوكل ، فحاول أن يجمع حوله كل من وجد فى جنوبى شبه الجزيرة من فرسان المسلمين ، وتمكن لفترة قصيرة من أن يصمـد للضغط النصرانى ، وأيـده الناس فى الأنـدلس وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ ودخلت فى طاعته مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقـة والمرية وعدد آخر من صغـار المدن والحصون ، ولو كان هـذا الرجل على

شيء من الخبرة السياسية والقدرة على تدبير الأمور لثبت أمره ولاستطاع أن يثبت ولو بعض الوقت للضغط النصرانى ، لأن الاتفاق الذى كان قد تم بين مملكتى قشتالة وليون من ناحية ومملكة أرغون من ناحية أخرى فى موضع يسمى بالمرسى كان يقضى بأن ميدان توسع أرغون فى بلاد المسلمين ينبغى أن لا يتعدى مملكة بلنسية فى شرق الأندلس ، وبقية شرق الأندلس من مرسية إلى بحر الزقاق كان ميدان توسع مملكة قشتالة وليون ، أما بلاد الغرب مما يلى قلمرية والأشبونة جنوباً ، فقد ترك للبرتغال تتوسع فيه .

وهذا الاتفاق ـ اتفاق بالمرسى ـ يدل على أن ملوك النصارى فى شبه الجزيرة كانوا يرون أن قوة الإسلام فى الأندلس قد تلاشت، وأن ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة أصبح لقمةسائغة لملوك النصارى يتقاسمونه فيما بينهم ، ولم يكونوا مخطئين فى هذا التصور ، لأن المسلمين فى الأندلس فى نهاية العصر المرابطى أثبتوا بالفعل أنهم غير جديرين بتلك البلاد التى كان عليهم أن يدافعوا عنها لتظل بلادهم بلادَ عروبةٍ وإسلامٍ ، فأما وقد تراخوا وتدابروا على الوجه الذى رأيناه ، فقد كان من المؤكد أن البلاد ستضيع من أيديهم لأن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها ، والجدير بالأرض هو الذى يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان .

نقول إن سيف الدولة بن هود تصدى لزعامة بلاد الأندلس ، وكان فى يده كما رأينا قدر صالح منها ، ولم يكن الرجل بالجبان ولا قليل الحماس ، ولكنه كان أرعن طائشًا ضعيف الخلق سريعاً إلى الحركة ، وقد بايعه الناس فى رجب ٦٢٥ هـ فى موضع قريب من مرسية يسمى الصخور أو الصخيرات ، ولم يكد خبر بيعته ينتشر فى الأندلس حتى تقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمى ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة ، لأن خصمه الذى كان يهدد بلاده ، كان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، ولم يكن بالملك القوى أو المؤيد تأييداً كاملاً من جانب أهل بلده ، ولكنه ـ كما قلنا ـ كان قليل التدبير ضعيف الخلق أسرع بجيشه إلى ماردة ليدفع عنها غارة البرتغاليين ، وعند موضع يسمى الحنش ، وقعت بينه وبينهم معركة تدل على شجاعته وقلة تدبّره فى آن معًا ، فقد هاجم الأعداء واخترق صفوفهم ونفذ إلى خلف الجيش دون أن يرسم إلى ذلك خطة ، ثم

كر راجعاً ليجد أن بقية جنده قد حسبوا أنه انهزم وولّوا على وجوههم ، وبذلك تحول النصر إلى هزيمة ، وأسرع ابن هود بمن معه من أنجاد المقاتلين إلى بلدة مرسية حيث جمع جيشاً كبيراً بلغت عدته ثلاثين ألف مقاتل ، وتمكن من تملك إشبيلية سنة ٦٢٩ هـ ، وولى عليها أخاه « أبا النجاة سالماً » الملقب بعماد الدولة . وفى سنة ٦٣١ هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥ هـ ودخل فى طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء ، وولى الولاة على هذه البلاد ولكنه لم يستطع السيطرة على ما بيده فقام عليه ولاته ، وفى تلك الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة يريد الاستيلاء عليها ، وكانت قرطبة قد ضعف أمرها واعتمد أهلها على حماية أنفسهم ، وكانت تنقسم قسمين : الشرقية والمدينة ، وكانت المدينة محصنة تماماً ، أما الشرقية فكان فى حصونها ضعف وثغرات ، وقد دام حصار قرطبة أشهراً حتى نفدت أقوات المدافعين عن البلد ، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة من دخول الشرقية ، وفى تلك الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجذامى بن هود يستنجدون به ، فأقبل فى جيش عدته ثلاثون ألفاً ووقف عند أستجة وهابه فرناندو الثالث ، فلم يجرؤ على اقتحام البلد واستبشر أهلها خيرا ، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود إنجاد عاصمة الأندلس الخالدة لفعل ، ولكن الذى حدث أنه خمل عن اللقاء ، وبعد انتظار أسابيع انسحب بقواته من المرية زاعماً أن صاحبها أبا جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد استنجد به ، وتلك خيانة لا يغفرها له التاريخ ، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون أن لا أمل يرجى فى الدفاع بعد أن هلكت قواتهم ودخل الجيش القشتالى قرطبة فى ٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ يونيو ١٢٣٦م ومن غريب الأمر أن هذا الرجل الذى ضنّ بنفسه عن الموت دفاعاً عن الإسلام والعروبة وتوجه إلى شرق الأندلس لجأ إلى المرية عند عامل من عماله يسمى عبد الله الرميمى ، وكان قد استودع هذا الرجل جارية نصرانية لكى يلم بها عندما يريد ، فأخذها ابن الرميمى لنفسه ، وعندما دخل ابن هود قصره قتله الرميمى خنقاً ، وهكذا هلك ذلك الرجل على النحو الذى يستحقه جزاءً وِفاقاً على ما تخلى من أمر الدفاع عن قرطبة عاصمة الخلافة .

قيام دولة غرناطة :

وخلا الأمر بعد ذلك من زعيم يتولى أمر الدفاع ، ولكن رئيساً جديداً يسمى

محمد بن يـوسف بن محمد بـن أحمد بن نصر وينسب نفسه إلى سعـد بن عبادة رئيس الأنصار ، نادى بنفسه رئيساً فى قريتـه أرجونة على بعد ثلاثين كيلومتراً من جيان ، وتـوافد عليه جنـود الأندلس من كل نـاحية ،فانتقل إلى بلـدة جيان وأعلن نفسه أميراً على الأندلس واتّسع مُلكه ، فدخلت فى طـاعته بلاد الجنوب كلها ، وكان بطبعـه رجلاً جـادًّا مخلصاً حكيماً حسن التـدبير ، فاجتمع حـوله نفـرٌ من خيرة الـرجال أهمهم بيت من كبـار الفرسـان ، وهم بيت أبى الحسن على بن أشقيلولـة أصحاب جيـان ومالقة ، وقد عـاونوه معاونة كبيرة . وأحس محمـد بن يوسف بن نصر بأنه فى حاجـة إلى معقل يعتصم به لأن جيان مدينة مكشوفـة ، فوقع اختياره على غرنـاطة وتقع عند سفح جبل الثلج أو سيرانيفادا ، وفى أعلى الجبل كـان يقوم حصن منيع عمَّـره وسكنه باديـس بن حبوس فى أول عصر الطوائف ،فـاتجه ابن نصر إلى ذلك الحصن ونـزل فى أخريات رمضـان سنة ٦٣٥هـ أسفل الجبل ، ثم دخل الحصن واستقـر به وأخذ يـرمّم أسواره ويـوسّع سلطانـه ، وتقاطـر عليه الناس من كل ناحية ، فأصبح زعيم مـا بقى للمسلمين من الأندلس ، وشيئاً فشيئاً يتمكن ذلك الرجل من توسيع نطاق سلطانـه ، فدخلت في طاعته بسطة ووادى آش ومالقة والمرية ثم اضطر إلى التخلى عن جيان ، وبعد سقوط قرطبة وجد هذا الرجل أنه لا مفـر من أن يدخل فى ولاء ملك قشتالة فـرناندو الثالث ، فأصبح من أتبـاعه خلال الفترة الأولى من قيام دولتـه وأصبح ملزما بأن يقدم لملك قشتالـة مساعدة عسكرية عندما يطلب منه ذلك ، وأن يحضر مجالس الملك فى المدن التى يرى عقدها فيها ، وبـالفعل نجد أن محمد بن يـوسف بن نصر يضطر بناء على المعـاهدة التى وقعها مع ملك قشتالـة فى سنة ١٢٤٦ م إلى إرسال معاونـة عسكرية اشتركت فى استيـلاء القشتـاليين على إشبيليـة سنـة ١٢٤٨ م وقـد عَـوَّضَ ابنُ الأحمرِ ذلك بالاستيـلاء على طريقِ الجزيـرةِ الخضراءِ وجبل طـارقٍ ، ولم تحل سنة ١٢٥٥م حتى كان ملكه فى مملكـة غرناطة قد استقر وثبت وازدادَ قوةً بمـن توافدَ على بلاد غرناطة من المسلمين من البلاد التى سقطت فى أيدى النصـارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطـة فى أيام محمد بن يوسف بن نصر ازدهاراً عظيماً نظـراً إلى ما امتـاز به من عقلٍ وحكمـة وحسن تـدبيرٍ، وما لقى من تأييـدِ زعماءِ المسلمين وخاصـة بنى أشقيلولـة الذيـن انفردوا بالسلطـان فى وادى آش وبعض النواحى الشمالية من بلاد مملكة غرناطة .

أمـا بقيـة بلاد المملكـة من أمثـال شريش وأركش وشـذونة ونيريشـة ولبلـة والجزيرة الخضراء وجبل طارق ،فقد كانت كلها فى طاعة ذلك الرجل الذى استطاع بحكمته وبعـد نظره أن تعمر تلك المملكـة الصغيرة التى قامت سنـة ١٢٣٢م بعد ذلك فوق القرنين ونصف ، فلم تسقط إلا فى ينايـر سنة ١٤٩٢م . وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان « آيـة من آيات الله فى السذاجة والسـلام والجمهورية (أى حب الناس له) ، جنديـاً ثغريًا شهماً أبداً ، عظيم التجلّد ، رافضًا للدعة والـراحة مؤثراً للتقشف والاكتفاء بـاليسير متبلّغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنّع ، مبـاشراً للحروب بنفسـه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة » ، وتلك صفـات جديرة بأن تصل بصاحبها إلى ما وصل إليه محمد بن نصر من النجاح فى إقامة دولته.

حكم أبـو عبد الله محمـد بن نصر الذى تلقـب بـ (الغـالب باللـه) فى ٦٢٩ ـ ٦٧١هــ / ١٢٣٢ ـ ١٢٧٣ م وتلك فترة طـويلـة مكنت لـه من أن يؤسِّس ملكـه ويضع له الأسـس التى مكنت له من القيـام والثبات وسط العواصـف التى أشرنا إليها ، وجدير بـالذكر أن الذين طال عمرهم من ملوك غرنـاطة لم يزد عددهم على ثـلاثة أولهم محمـد بن نصر هذا ، وابنـه محمـد بن محمد الملقب بـالفقيه ، وأبـو الحجاج يوسف بن إسماعيل الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد قضى محمـد بن نصر أيامـه فى تثبيت ملكه فأضاف إليـه مالقـة والمرية ولـورقـة ، وبعـد وفـاة فـرنانـدو الأول سنـة ١٢٥٢م جـدَّد العهـد مع خليفتـه ألفونسوالعاشر ملك قشتالة وليون الملقب بألفونسو العالم .

وبعد وفاة محمد بن نصر خَلَفَه ابنُه محمدُ بن محمدِ بن نصرِ المعروف بمحمد الثانى الفقيـه (٦٧١ ـ ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ ـ ١٣٠٢ م)وقـد كان هذا الرجل قـريباً من أبيه فى الصفات ولكن ظروفه كانت أسوأ ، لأن ألفونسو العاشر الذى تولى سنة ١٢٥٢م كان رجلاً شديد الحماس الـدينى ، يريد أن يقضى على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة، وقد تمكّن محمد بن نصر الغالـب بالله من تأكيد عهد الولاء معه ، فترك له السلطان على جبـال رندة وجبال ألبيرة أى على مملكة غرناطـة بحدودها ، ولكن الخلاف وقع فى عهد محمـد الثانى بينه وبين بنى أشقيلـولة أصحاب مـالقة ووادى آش ، وقد انتصر عليهم بمعـاونة فارس قشتالى يسمى فيليب دينـونيو دى لارا ، كان بينـه وبين ألفونسـو العاشر خـلاف، وأحس محمد الثـانى أنـه لم يعد

يستطيع الاعتماد على قواه وحدهـا ، فراسل أبا يوسف يعقـوب بن عبد الحق أمير بنى مـرين وطلب إليـه أن يعاونـه بقـوة عسكريـة ، فعبر أبـو يوسف بنفسـه إلى الأندلس لكى يشترك فى الجهـاد ، وبالفعل أعان محمد الفقيـه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن تقيم فى مملكـة غرنـاطة قوة من المقـاتلين الزنـاتيين من بنى مرين وغيرهم يرأسهم قـائد يسمى شيخ الغزاة ، ومن ذلك الحين سيصبـح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات فى مملكة غرنـاطة، وسيقع الخلاف بين بعض شيوخ الغزاة وبعض ملـوك غرناطـة ، لأن بنى مرين أصبحـت لهم مصالح فى شبـه الجزيرة الإيبيرية ، أى أنهم دخلوا فى منطقة النزاع على مصير الأندلس .

وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد اتفق مع ألفـونسو العاشر على أن يساعده فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغـرب ، وبالفعل قام الأسطول القشتالى بمهـاجمة أصيلا على الســاحل المغربى ثم احتل ســـبتة بمعـاونة قـوة من ملك غرناطة ، وقد أحفظ بذلك ملـوك بنى مرين وأحسّوا بأنه لا بد لهم من أن يتحرروا من ملوك غرنــاطة فأصبح من شروطهم للاشتراك فى القتـال فى الأندلس أن تكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ، وكـانت معقلاً لبنى أشقيلولة أعداء بنى الأحمر .

وفى أيام محمـد الفقيه هذا بـدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طـارق تأخذ شكلها الحازم ، لأن كُلًّا من مملكـة غرناطة ومملكة قشتالة وســـلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات البحرية الإيطالية وخاصة بيشة وجنوة تنبهت إلى أهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحـر المتوسط ، والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحـرية عظمى ، فينفذ إلى المحيط الأطلسـى والسأحل الغربى لشبـه الجزيرة الإيبيرية .وكانت الأنظـار قد بدأت تتطلع إلى ما وراء ميـاه بحر الظلمات ، وبالفعل نسمع أنـه فى ذلك العصر المتقـدم حـاول نفر من الملاّحين البنـدقيين يسمـون آل فيفلدى التـوغل فى ذلك المحيط ، ويبدو أن سفنهم غرقت ولكن الفكـرة استقرت فى الأذهـان على أى حال ، واشتـد النزاع بين القـوات التى ذكرنـاها على مصير بحـر الزقاق.

وعلى الرغم مـن كفاية محمـد الفقيه واجتهـاده فى المحافظـة على بلاده ، رغم صعوبة ظروفه ، إلا أنه فقد مدينة طريف التى هاجمها واستولى عليها ودافع عنها

دفاعَ المستميت فـارسٌ قشتالٌّ يسمى الـونسو بيريث دى قـزمان الملقب بقـزمان الطيب . وقد أضعف قوى محمد الفقيه نزاعـه مع بنى أشقيلولة الذين انضموا إلى ملك قشتــالـة على حليفهم وصهـرهم وابـن دينهم محمـد بن محمـد بن نصر بن الأحمر ، وكان لهذا الخلاف أثـر سيِّئ على مصير مملكة غرناطـة ، وسنرى أن داء الخلاف هـذا سيكـون من آكد الأسبـاب فى ضيـاع مملكـة غـرناطـة ، فبعـد بنى أشقيلولـة سيقوم بنـو سراج بنفس الدور المحزن وسيكـون لذلك أثـره فى ضياع المملكة .

وقبل وفاة محمد الغـالب بالله سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢م عاد ألفـونسو العاشر ملك ليون يهاجم أراضى المسلمين طمعـاً فى الاستيلاء على مزيد منهـا ، فاستنجد محمد بن نصر الغَـالب بالله بأبى يـوسف عبد الحق المرينى المعروف بـا لمنصور سلطان بنى مرين ، فأرسل المنصـور قوة من الزناتــيين إلى جزيـرة طريـــف فى ذى الحجة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م أى بعد وفاة محمد الغـالب بالله وولاية ابنه محمد ابن محمد بن نصر الملقب بـالفقيه ، وبعد قليل لحق به السلطـان بنفسه فى السنة التالية ، والتقت قـوات المسلمين التى تكونت من قوات غرناطة والمدد الـذى جاءها من المرينيين ، ووقع اللقـاء بينها وبين قـوات مملكة قشتــالة وليـون فى ١٥ ربيع الأول ٦٧٤هـــ / سبتمبر ١٢٧٥م عنـــد أسـتجة جنـوبى قرطبـة ، وكان يقـود النصارى القائد « دينونيو دى لارا » الذى تسميـه النصوص العربية باسم « دننه أو ذونونه » وقـد استعد المسلمون للمعركة استعداداً عظيماً وقـاد مقدمة الجيش الإسلامى ولىُّ عهـد بنى مرين الأمير يـوسـف بن أبى يوسـف عبد الحق المرينى ، وتحمّس المسلمـون حماسًـا عظيماً وخطبهم السلطان المرينى ليـزيـد حماسهم ، فـانقضـوا على القوات النصرانيـة فى حماس بـالغ أعـاد إلى الأذهـان حماسهم فى موقعتـى الزلاقة والأرك على اختـلاف فى حجم القوات الإسـلامية فى كل مـن هذه المعـارك ، وانتصر المسلمون انتصـاراً كبيراً ومـزقوا قـوات قشتـالة شرّ ممـزّق وتقدمـوا يحاصرون إشبيلية على أمل استعـادتها ، وأسرع الملك ألفونســو العاشر يطلب الصلح فأجيب إليه ، وهذا يدل على أن قوة الإسلام فى الأندلس كانت لا تزال قادرة على الـدفاع عـن نفسها ، وأنه لـو أتيحت للمسلمين فـرص اتحاد الصفوف والوعى إلى أهمية المعركة الدائرة على أرض الأنـدلس لاستطاعوا أن يَثْبُتُوا لأعدائهم وأن يُـحافظوا على ما بقى لهم من أرض فيها .

وقبل أن نستطرد مع ذكر الحوادث لا بد أن نضيف كلمة نُقدِّر بها محمد بن نصر بن الأحمر الغالب بالله الذى أنشأ هذه المملكة ، واستطاع بما رزقه الله من خِلال الشجاعة والذكاء وحسن التدبير وبعد النظر ، أن يؤسّس هذه المملكة فيما بقى للإسلام من أرض قليلة فى شبه الجزيرة ، ويضع لها من الأسس التى مكنت لها من الصمود للضغط النصرانى المتزايد نحو قرنين ونصف من الزمن .

وقد رأينا ما كان فى بلاء أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر الفقيه الذى كسب موقعة أستجة بالتعاون مع القوات المرينية ، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه ، فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التى حكمها (٦٧١ ــ ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها ، وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سيلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين ، وهو التخوف من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم ، مما أدّى فى النهاية إلى وقوع النفور بين المرينيين وبنى نصر ، وكان فى النهاية وبالاً على مصير الإسلام فى الأندلس ، ونشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ ، وهى أن أكثر ما آذى الإسلام فى الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد كان ذلك أشد وطأةً عليهم من أىِّ خطرٍ آخرَ.

وعندما توفى محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ /١٣٠٢م ترك لابنه وخليفته أبى عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع مملكةً قويةً زاهرةً ، وإن أحاط بها الأعداءُ من كلِّ جانب، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع .

ولن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثيرين ، ولكننا نكتفى بالوقوف عند اثنين منهم ، يعتبران أقدر مَنْ تولًى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وابنه محمد الفقيه .

فأما الأول فهو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبو سعيد فرج بن أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن نصر مؤسس الدولة الذى حكم فيها بين سنتى ٧١٣ ـ ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ ـ ١٣٢٥م فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر مدركاً لحقائق الوضع فى مملكته الصغيرة ، وقد تمكن بسياسته من الحفاظ على أراضى بلاده ، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة ، واستقل بنفسه معتمداً على معاونة

قوات بنى مرين التى كانت قد حصلت على حق الإقامة بصورة مستمرة فى بلاد غرناطة للاشتراك فى الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التى سنتحدث عنها بعد قليل .

وفى أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة قشتالة وقوات الإسلام فى شبه الجزيرة ، وذلك أن ألفونسو العاشر طمع فى بلاد المسلمين من جديد وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له ، ولكنه لم يستطع لأن ابنه شانجو الرابع ثار عليه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م ، واستنجد ألفونسو العاشر بالسلطان المرينى على ابنه ، وعبر أبو يوسف عبد الحق المنصور المرينى إلى الأندلس، والتقى مع ألفونسو العاشر بأحواز الصخرة فى كورة تاكورونيا قرب رندة ، ورهن تَاجَهُ لديه ، بل قبَّلَ يدَه رجاءَ معاونته ، وقد أدّى عمله هذا إلى نفور زعماء قشتالة من ملكهم هذا ، فانضموا إلى ابنه شانجو الرابع فعزلوا ألفونسو العاشر سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م فانصرف بقية أيامِهِ إلى الدراسة والبحث والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية ، مما استحق به أن يسمَّى با لملك ألفونسو العالم . ومن المؤرخين من يقولون إن الذى لجأ إلى السلطان المرينى كان الابن وهو شانجو الرابع الذى تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخلعِهِ والانفراد بالعرش .

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر فى غزو أراضى المسلمين ، ووقع ذلك فى أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذى نتحدث عنه ، فتقدمت قوات نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون بترو ، ودون خوان الوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو ألفونسو الحادى عشر الذى خَلَفَ أباه شانجو الرابع وانضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة وإنجليز وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفى مرجها فى ٢٠ ربيع الثانى ٧١٨هـ/ مايو ١٣١٨ م وكان شيخ الغزاة هو أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، وقد انتصر المسلمون فى هذه المعركة نصراً يعدل انتصارهم الأول عند صخرة «عبّاد » ، وهكذا أثبت المسلمون أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم اجتمعت صفوفهم وصدقوا النية فى الجهاد ،وكان لهذه المعركة الثانية أثر بعيد فى تثبيت

أركان مملكة غـرناطة التى استطاع رجالها أن يستعيـدوا بعض البلاد والحصون التى كانوا قد فقدوها من قبل .

وبعـد هذا النصر بقليل أُغْتِيل سلطـان غـرنـاطة أبـو الـوليد إسماعيل سنـة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ويعتبر هذا الـرجل من أكفأ من تولى عـرش غرنـاطة ، وإليـه يرجع الفضل فى إقامة الكثير من منشآت الحمراء .

***

أبو الحجاج يوسف الأول ابن أبى الوليد إسماعيل
٧٢٥ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٢٥ ـ ١٣٥٤ م

يعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده فى المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، وعلى الرغم من ملكاته الكثيرة وطول حكمه الذى مكّن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصرانى متزايد ، وقد جاءت العلة الكبرى فى اختلاف أفراد البيت النصرى بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم إن العلاقات لم تكن طيبةً دائماً بين سلاطين غرناطة ومشيخة الغزاة .

مشيخة الغزاة :

عقب انتصار المسلمين على النصارى فى موقعة الصخرة ، استقر الاتفاق بين سلطان بنى نصر وسلطان المرينيين على أن تقام فى أراضى غرناطة قوةٌ دائمةٌ من المقاتلين المرينيين للاشتراك فى الجهاد ، وفى سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين المرينيين الذين سموا بالغزاة وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة ، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكى تكون معابر ومراكز لهم فى الأندلس لكى يستطيعوا مواصلة عملهم الدينى الكبير ، وكان أول شيخ للغزاة ، هو عبد الله أبو العلاء المرينى، وعندما توفى ذلك الرجل خَلَفَهُ أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، وفى أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها فى مملكة غرناطة ، وتدخل شيخ الغزاة فى الأمور الداخلية للمملكة و أَيَّدَ بعض منافسى السلطان ، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النصرى يحاول من جهته التدبير على مشيخة الغزاة ، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم ، والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم ، كما ذكرنا ، مصالح خاصة فى الأندلس ودخلوا فى التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة ، ومع مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون والجمهوريات الإيطالية ، وكان هذا الاختلاف فى المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التى تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها.

وقعة طريف :

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة فى لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية فى أيام أبى الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل الذى نتحدث عنه ، فقد كان هذا الرجل - كما قلنا - واسعَ المطامع جَمَّ النشاط ، وكان قد تولّى أمر بنى مرين السلطان أبو الحسن بن عثمان بن أبى يعقوب المرينى المشهور باسم أبى الحسن، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع فى المغرب والأندلس حتى يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال .

ففى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ/أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين ، وانضمَّت إليهم قوات أخرى من الأرغونيين والبرتغاليين ، وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب ، وقد اتَّخَذَ فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المرينى إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة ، ولكن النصر لم يحالف المسلمين فى ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة فى تاريخ الأندلس ، هى هزيمة طريف فى ٧ جمادى الأولى ٧٤١هـ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائى بين الأندلس والمغرب .

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس ، وذلك بدوره قطع الأمل فى أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمداً طويلاً ، وبعد المعركة بقليل اتجه ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة لحصار جبل طارق وكاد يستولى عليه لولا أن الفونسو الحادى عشر توفى أثناء الحصار ، وقد أبدى المسلمون شهامة فى تلك المناسبة ، فقد كانوا يُحاصرون القوات القشتالية المُحَاصِرَة ، فلَما بلغهم موتُ الملك أفرجوا للقوات النصرانية لتنسحب حاملةً تابوتَ الملكِ الميتِ وحيّوه تحيةً عسكريةً .

وفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢م سقطت قلعة جبل طارق بيد القشتاليين وبذلك أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماماً بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاونتها ، وكان ذلك فى أيام أبى عبد الله محمد بن أبى الوليد إسماعيل الملقب بالغنى بالله ، وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم إلى ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م وكان من أقدر

ملوك غرناطة ، وفى أيامـه ظهر وعمل ابن الخطيب آخر العظماء من كتاب الأندلس ومفكّـريه ،وقـد دارت على ذلك الرجل ووزيـره ابن الخطيب محن طـويلة ، وكثـر الثـائرون عليـه من أهل بيتـه حتى اضطـر إلى الهرب إلى المغـرب لـلاستنجـاد بالسلطان المرينى ، ثـم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عـرشه ، ولكن الأمور لم تَصفُ له قَطُ . فقـد دخل فى صراع مرير وخطر مع بنى سراج ، وكـانوا من أكبر الأسر فى مملكة غرنـاطة ، وقد توفى ذلك الرجل قتيلاً على يـد رجلٍ قيل إنه مخبول فى يوم عيـد الفطر سنة ٧٥٥ هـ / ١٩ أكتـوبر ١٣٥٩ م. وإلى هذا الـرجل محمد الغنى بالله يُعزَى الجانب الأكبر من منشآت قصـورالحمراء ،فهو الذى أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحدائق جنة العريف .

ومن أكبر الرجال الـذين ظهروا فى غرناطـة فى ذلك العصر: الحاجب أبو النعيم رضوان وأصلـه من أسرى القشتاليين من أسرة نبيلـة شريفة ، ولكن ذلـك الغلام شَبَّ مسلماً مجاهداً فى سبيل الإسلام ، وكان من أعاظم رجـال الدولة ،وقد عاصره ابن الخطيب ، وهـو يثنى عليه ثنـــــاء طـويلاً ، وأمثـــال أبى النعيم رضـوان كثيرون فى تاريخ مملكـة غرناطـة ،وقد قتل هذا الـرجل فى فراشه إذ اغتـاله بعض أعداء السلطان .

تدهور مملكة غرنـاطـــة :

وبعد محمد الغنىّ باللـه لم تعد غرناطة إلى سابق قـوتها أبداً إذ تعاقب الملوك على العـرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب ، وكـان كل منهم يستعين بملـوك قشتالة على إخوانـه ، وفى كل معركة كان المسلمون يفقـدون حصونًا وبلاداً ذات أهمية حتى انتهى أمر المملكـة فى النهاية إلى الاقتصار على مـدينة غرناطـة ومدينة وادى آش وما حولهما .

وتجلى ضـعف مملكـة غرنـاطة وقرب سقـوطها فى أيـام أبى الحجاج يـوسـف الثانـى المتوفى سنـة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م ، فقد اشتـد العداء بينـه وبين بنى سراج وانتهز ملك قشتـالة الفرصة فـاستولى على بلدة الزهـراء المجاورة لغرناطـة سنة ٨٠٩هـ / ١٤١٧م .

وبعـد سقـوط جبل طـارق سنة ١٤٦٢م على يـد القـائد رودريجو بـونسى

ديليون الملقب بدوق مدينة سالم ، لم يعد هناك أملٌ فى أن تظل مملكة غرناطة وقتاً طويلاً، وقد تجلّت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م وهى السنة التى تم فيها الاتحاد بين الملك فرناندو الرابع ملك أرغون والملكة إيزابيلاّ الثانية ملكة قشتالة ، وكانا قد تزوّجا قبل ذلك بعشر سنوات ، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت كتلتين تعملان على القضاء على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة : الأولى مملكة قشتالة وأرغون وكانت تقوم بالنصيب الأكبر فى القضاء على مملكة غرناطة ، ثم مملكة البرتغال التى أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس ، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو فى أراضى المسلمين ، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت فى أيدى الإسبان إلى اليوم .

نهاية مملكة غرناطة :

فى أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبى الحسن على ، الذى يعرف باسم أبى عبد الله أو « بو أبديل » فى النصوص النصرانية ، وكان والده أبو الحسن على قد تزوج على زوجته الحرة عائشة، زوجة نصرانية سمّيت «ثريا» وأبو عبد الله هذا هو ابنها ،وكان أبو الحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب ، تنافست النساء فى عصره على حيازة العرش لأبنائهن ، وطال النزاع بين أبى عبد الله الذى ذكرناه ، وعمه أبى عبد الله محمد بن سعد ، الملقب بالزغل أى الباسل أو الشجاع .

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلاّ القضاء نهائيًّا على مملكة غرناطة ، فسارا لحصارها بقوات ضخمة ، وفى النهاية عقد أبو عبد الله الزغل معاهدة التسليم مع مَلِكَى قشتالة وليون فى ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧هـ/ نوفمبر ١٤٩١ مـ أما دخول الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيّلا مدينة غرناطة فكان فى ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢يناير ١٤٩٢ وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الإسلام والغرب الأوربى ، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية أن تقرع كنائس أوربا كلها احتفالاً بتلك المناسبة ، ومع الأسف إننا لا نملك نصوصاً عربيةً تصف أواخر مملكة غرناطة ، لأن التواريخ المعتمدة تنتهى بوفاة ابن الخطيب ،

ولكننا وجدنا كتاباً مجهول المؤلف يسمى « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » يقص علينا أطرافا من أخبـار مأساة غرناطة فى أيامهـا الأخيرة ، وكذلك عثرنا على نص كتـاب « جنة الرضـا فى التسليم بما قدر اللـه تعالى وقضى » لابن عـاصم ، وكـانت لدينـا قبل ذلك أجزاء منـه ، احتفظ بها المقرى فى « نفح الطيب» و« أزهـار الرياض » .

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين فى غرناطة بكل حقوقهم، وأن تظل لهم مساجـدهم وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصـاف ويهاجر منهم من أراد ، ولكن النصارى ما كـادوا يستولون على غرناطة حتى نسـوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه ، وكان أول ما فعلـوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ثم بدأت سيـاسة الاضطهـاد لمسلمى غرناطـة الذين دخلـوا فى جملة المدجنين أى المسلمين الذين دُجِّنُـوا فى مواطنهم تحت حكم النصارى وقَبِلوا حكمهم ، وقـد ثار المسلمون على تلك المعـاملة مرَّةً بعد أخـرى . ولكن الأمر انتهى بطرد بقـاياهم من الأندلس سنـة ١٦٠٩م ، أيام الملك فيليب الرابع ، وبذلك انتهت قصـة الإسلام فى شبه الجزيرة ، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلةً إلى اليوم.

ولا يتّسع المجـال لـدراسة تـاريخ المسلمين فى شبـه الجزيـرة الإيبيرية بعـد سقوط غرنـاطة ،فذلك تاريخ طـويل تبدّلت فيه الأحوال بـالنسبة لمن بقى فى شبه الجزيرة على إسـلامه وخضع للنصارى ، وهـؤلاء هم المُدَجَّنُون ومن تَنَصَّرَ منهم تَنَصُّراً ظاهريًا أو حقيقيا ، وهؤلاء هم المورسكيـون ، وكلا الفريقين عوملوا معاملة الأسرى وهبطوا بهم إلى مستـوى الرقيق والأقنان وأصـابهم الاضطهاد والإذلال ، وثاروا مـرة بعد أخـرى حتى صدر قرار إخـراج بقايـاهم من شبه الجزيـرة سنة ١٦٠٩م كما قلنـا ، وقد استـوفى أخبارهـم الأسـتاذ محمـد عبـد الله عنـان فى كتـابه المسمى « نهايـة الأنـدلس » ، « وتـاريخ العرب المتنصِّرين » وهـو الجزء الأخير من تاريخه الحافل المطول لـلأندلس وتاريخ المسلمين فيه ، وقـد اعتمد فيه أساسـاً على مراجع كثيرة بعضها إسبانـى وبعضها برتغالى ، ولكن مُعَـوَّلَهُ الأكبرَ على التـاريخ الـذى كتبـه المؤرخ الإنجليـزى « لى » عن تـاريخ محاكم التفتيش فى الأندلس.

مـوارد مختـــارة

(أ) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس :

(عنـد البحث عن اسم يبـدأ بلفظى ابن أو أبى أو أداة التعـريف « ال » اتـرك هـذه الثـلاثة وابحث عن الاسـم فى أول الحروف بعد ذلك ، فـابن أبى الخصـال يوجـد تحت حرف الخاء وهكذا) .

*** ابن الأبار ، أبو عبد الله القضاعى :**

ـ « المعجم فى أصحـاب القاضى الإمــام أبى على الصـدفى » ، القاهـرة (١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م) .

ـ « الحلة السيراء » : تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة (١٩٦٣م) .

*** ابن الأثير الجـزرى (مجـد الدين) :**

ـ « جـامع الأصول فى أحـاديث الرسول » ، تحقيق (عبد القـادر الأرناؤوط) ، طبعة دمشق (١٣٨٩ ـ ١٣٩٢ هـ ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢).

*** الإدريسى :** « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، (روما ١٥٩٢م) .

*** أديب مغول (قيصر) :** « الإسلام فى الشرق الأقصى » ، ترجمة (د. نبيل صبحى) ، بيروت (١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) .

*** الأزدى الحميـدى** (الحافظ أبو عبد الله محمـــد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله) : «جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٦م) .

*** الأندلسى (علىّ بن سعيد) :** « المغرب فى حلى المغرب » تحقيق (د. شوقى ضيف) ، القاهرة (١٩٦٤م) .

*** الأوسى المراكشى** (أبو عبـــد الله محمـــد بن محمد بن عبـد الملك الأنصارى) : «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » :

ـ السفر الأول (القسم الأول والثانى) تحقيق د. محمد بن شريفة ، بيروت .

ـ بقية السفر الرابع : تحقيق (د. إحسان عباس)، بيروت (١٩٦٤ م).

ـ السفر الخامس (القسم الأول والثانى) بيروت ، ١٩٦٥ م .

ـ السفر السادس ، : بيروت ،(١٩٧٣ م).

* **الباجى (سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبى الوليد)** : « نص أندلسى » ، ترجمة ودراسة بالإنجليزية (د . دنلوب) .

* **الباجى (أبو مروان عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم)**: « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » تحقيق « د . عبد الهادى التازى » ، بيروت (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤ م).

* **بالنثيا (آنخل جنثالث)** : « تاريخ الفكر الأندلسى » ، ترجمه عن الإسبانية (د. حسين مؤنس) ، القاهرة (١٩٥٥).

* **بروفنسال (ليفى)** : « الإسلام فى المغرب والأندلس » ، ترجمة د. السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ـ القاهرة (١٩٥٦م) .

* **البكرى ، أبو عبيد** : « وصف أفريقية والمغرب ».

* **البلنسى** ، الحافظ مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن محمد بن حية الكلبى الأندلسى : « المطرب من أشعار أهل المغرب » ، تحقيق (إبراهيم الإبيارى و د. حامد عبد المجيد و د.أحمد أحمد بدوى) القاهرة فى (١٩٥٤م).

* **توينبى ، أرنولد**: « الإسلام والغرب والمستقبل » ، ترجمة (د. نبيل صبحى) ، بيروت (١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م).

* **الجربى ، محمد أبو راس** : « مؤنس الأحبة فى أخبار جربة » ، تحقيق (محمد المرزوقى) ، تونس (١٩٦٠ م) .

* **ابن حزم الأندلسى** ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد : « التلخيص لوجوه التخليص» ، تحقيق (د. إحسان عباس) ، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

ـ « **نقط العروس لابن حزم** » ، تحقيق (د. شوقى ضيف) ، **جامعة القاهرة** (١٩٥١م).

ـ « طـــوق الحمامـــة فى الألفة والآلاف لابـن حزم » ، تحقيق (حسن كامل الصيرفى) القاهرة (١٩٥٩م) .

* د. حسين مؤنس : « رحلة الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٣م).

« السيد القمبيطور وعلاقته با لمسلمين » القاهرة (١٩٥٠ م).

« المسلمـون فى حـوض البحـــر الأبيض المتـوسط إلى الحروب الصليبيـة »، القـــاهـرة (١٩٥١م).

* ابن حيان ، أبـو مروان حيـان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمـد : « المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ».

ـ الجزء الثانى ، تحقيق (د. محمودعلى مكي) ، بيروت ، (١٣٩٣هـ /١٩٧٣م).

ـ قطعة من الجزء الثانى نشرها (ليفى بروفنسال) ، سنة (١٩٥٠ م).

ـ الجزء (السفر) الخامس ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم ٨٧ .

ـ جـزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر ، تحقيق(عبـد الرحمن على الحجى) ، بيروت : (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) .

* ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن على بن أحمد السلمانى : « الإحاطـة فى أخبار غرناطة » ، تحقيـق (محمد عبد الله عنـان) القاهرة (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م).

ـ « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادى) القاهرة .

ـ « كناسة الدكان بعد انتقال السكان »، تحقيق (د. محمد كمال شبانة) ، القاهرة .

ـ « روضة التعريف بالحب الشريف »، تحقيق (محمد الكناني) ، بيروت .

ـ « أعمال الأعلام » ، ثلاثة أجزاء :

الأول: لا يزال مخطوطا .

الثاني: نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية ».

الثالث : نشر بعنوان « تاريخ المغرب العربى في العصر الوسيط»، تحقيق(د. أحمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتانى) المغرب (١٩٦٤م) .

* **ابن خاقان الفتح** ، « قلائد العقيان من محاسن الأعيان » تونس (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م).

* **ابن خلدون** : « العبر » بيروت (١٩٥٨ - ١٩٦٠م).

* **ابن خلكان** ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر : «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان »، تحقيق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٨م)

* **الدباغ** ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى الأسيدى : « معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان »، تحقيق إبراهيم شبوح ، القاهرة (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م).

* **ابن الدلائى** ، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى : « نصوص عن الأندلس » تحقيق (د. عبد العزيز الأهوانى) ، مدريد (١٩٦٥م) .

* **ابن أبى دينار** ، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى : « المؤنس فى أخبار افريقية وتونس » ، تحقيق (محمد شمام) ، تونس (١٩٦٧ م) .

* **ابن الزبير** ، أبو جعفر أحمد بن ابراهيم : « صلة الصلة » تحقيق (ليفى بروفنسال) ، الرباط (١٩٣٧م) .

* **ابن زيرى** ، عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس : « التبيان » ، تحقيق (ليفي بروفنسال) ، القاهرة (١٩٥٥م).

* **سالم ، السيد عبد العزيز** : « قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس » بيروت (١٩٧١ م).

* **السلمى** ، أبو مروان عبد الملك بن حبيب : نص ، نشر ودراسة بالاسبانية ، د. محمود على مكى ، مدريد (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧ م) .

* **شبانة ، محمد كمال** : « يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة » القاهرة (١٩٦٩م) .

* **ابن صاعد** ، أبو القاسم الأندلسى الطليطلى بن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد : « طبقات الأمم » ، القاهرة.

* طرخان ، إبراهيم على : « المسـلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى » ، القاهرة (١٩٦٦م) .

*ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف : « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » تحقيق على محمد البجاوى »، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م) .

* ابن عميرة الضبى ، أحمد بن يحيى بن أحمد : « بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٧م) .

* عنان ، محمد عبد الله : « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين » ، القاهرة (١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م) .

ـ « الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال » ، القاهرة (١٩٨١هـ / ١٩٦١ م) .

ـ «لسان الدين بن الخطيب » ، القاهرة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

* ابن عياض ، القاضى عياض بن موسى : « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ، تحقيق (د. أحمد بكير محمود) ، بيروت. (١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م).

* الغبرينى ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله : « عنوان الدراية في من عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » ، تحقيق (عادل نويهض) بيروت (١٩٦٩م) .

* الغرناطى ، محمد أيوب بن غالب : «فرحة الأنفس فى أخبار الأندلس » ، تحقيق (د. لطفى عبد البديع) ، القاهرة (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م) .

* الغسانى ، محمد بن عبد الوهاب : « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » ، المغرب (١٩٤١م) .

* الفاسى ، على بن أبى زرع : « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية»، الرباط (١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م).

* ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد : « الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب »، القاهرة (١٣٢٩ هـ).

* **ابن الفرضي**، الحافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي: «تاريخ علماء الأندلس»، القاهرة (١٩٦٦ م) .

* **ابن القاضي**، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي : «درة الحجال في أسماء الرجال» تحقيق (محمد الأحمدي أبو النور)، القاهرة - تونس (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م).

* **ابن القطان**، أبو علي حسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى : «نظم الجما ن »، تحقيق (د. محمود علي مكي)، الرباط .

* **القزويني، زكريا** : « آثار البلاد وأخبار العباد »، بيروت (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠م) .

* **ابن القوطية، أبو بكر محمد** : « تاريخ افتتاح الأندلس »، تحقيق (د. عبد الله أنيس الطباع)، بيروت (١٩٥٧م).

* **القيرواني**، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم « طبقات علماء أفريقية وتونس » تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الباقي، تونس ١٩٦٨ .

* **القيرواني الخشني**، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد : « قضاة قرطبة »، القاهرة (١٩٦٦م) .

* **ابن الكردبوس التوزري**، أبو مروان عبد الملك :« الاكتفاء في أخبار الخلفاء »، نشر تحت عنوان : « تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط »، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي)، مدريد (١٩٧١م) .

* **الكناني**، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر : « كتاب أحكام السوق »، تحقيق (د. محمود علي مكي)، مدريد (١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م) .

* **كنون، عبد الله** : « أبو البقاء الرندي »، طبعة مدريد (١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م) .

* **المالكي : أبو بكر عبد الله** : « رياض النفوس »، تحقيق(د. حسين مؤنس)، القاهرة (١٩٥٤م)، الجزء الأول .

* **المدني، أحمد توفيق** : « المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا »، تونس (١٣٦٥هـ) .

* **المراكشي بن عذاري**، أبو عبد الله محمد : « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » .

الأجـــزاء :

الأول والثاني : تحقيق (كولان وليفى بروفنسـال) ، باريس (١٩٤٨ م) .

الثالث : تحقيق (ليفى بروفنسال) ، باريس (١٩٢٩م) .

الرابع : جمع وتعليق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٧م) .

القسم الثالث : نشر (امبرسى هويثى ميراندا ومسـاهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتانى) : تطوان (١٩٦٠ م) .

***المراكشي** ، محيى الـدين عبد الواحـد بن على : « المعجب فى تلخيص أخبـار المغرب » ، تحقيق (محمد سعيد العريان) ، القاهرة (١٣٨٧ هـ /١٩٦٧م) .

* **المقرى التلمساني** ، شهاب الدين أحمد بن محمد : « أزهار الرياض فى أخبار عياض» تحقيق (مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى) ، القاهرة (١٣٣٩ - ١٣٤١ هـ / ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م).

« نفح الطيب من غصن الأنـدلس الرطيب وذكـر وزيرهـا لسان الـدين بن الخطيب » تحقيق(د. احسان عباس) ، بيروت (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .

***مكي ، محمود على** : « وثائق تاريخية جديدة » ، مدريد (١٩٥٩ - ١٩٦٠م) .

- « مدريد العربية » ، القاهرة .

* المنذرى ، الحافظ: « مختصر صحيح مسلم » ، تحقيق (محمد ناصر الدين الألبانى) ، طبعة الكويت (١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م) .

* مؤلف مجهول : « أخبار مجموعة » مدريد (١٨٦٧) .

« نبذة العـــصر فى أخبـار ملوك بنى نصــر » ، تحقيق (الفريـد البســتانى) ، المغرب (١٩٤٠م).

نشره (ليفى بروفنسال وغرسيه غومس) مدريد (١٩٥٠م) .

* الناصرى السـلاوى ، الشيخ أبو العباس أحمد بـن خالد : « الاستقصـا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، تحقيق ولدى المؤلف(جعفر ومحمد) ، الدار البيضاء (١٩٥٤م) .

* النباهى ، أبو الحسن على بن عبد الله بـن محمد بن محمد بن الحسن : « المرتبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا » نشر (ليفى بروفنسال)، القاهرة (١٩٤٨م) .

- وثائق عـربية غـرناطيـة ، تحقيق(لويس سيكـودى لوثينـا) ، مدريـد (١٣٨٠هـ / ١٩٦١ م) .

(ب) مراجع غير عربية

Amador de los Réos y Villalto ,

Inscripciones Arabes de Cordoba,La Mezquita Aljama,Madrid 1879 - 1880 .

Asin Palacios, Miguel,

La Escatologia Musulmana en La Divina Comedia, 2a ed. 1962.

A. Bell,

La Religion Musulmana en Berbérie, Vol. 1, 1938.

C. H. Bouquet, Alger , 2éme édition , 1946

M. Caudel, L'Afrique du Nord, Les Byzantins et les Berbers avant les invasions, 1900.

E. Fagnan ,

Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger, 1924.

Brett, Michael,

Problems in the interpretation of the History of the Maghreb in the light of some recent publications. Journal of African History, Xlll,3 (1972) .

Conde, Antonio José,

Historia de Espána Musulmana, Madrid 1848.

b. Coni Gastambide,

La Historia de la Bula de Cruzada, Vitoria 1958.

Dozy, Reinhardt Peter -Ann,

Histoire des Musulmans d'Espagne. Nouvelle Edition par Levi Provencal Leyde , 1931 .

Recherches sur l' Histore de la Litterature des Arabes d'Espagne pendant le Moyen - Age, 3éme ed.1881.

H. Fournel.

Les Berbers, 2 vol . Paris 1875 -1880.

E.C. Gautier,

Les Siécles Obscurs de l'Histoire du Maghreb, 2éme ed. Paris 1938.

Hady Roger ldris,

Initiation á la Tunésie; Paris 1950.

Huici Miranda, Ambrosio,

-Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid 1956.

- Historia Politica del Imperio Almohade, 3 vols. Valencia 1956.

José Antonio Maravall,

El Concepto de Espana en la Edad- Media, Madrid 1954.

Julien, Charles- André,

Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquete Arabe a 1830,

2éme Edition par Roger Le Tourneau, Paris 1966.

Justo Perez de Urbel,

Historia del Condado de Castilla, Madrid 1945.

Lacarra, José Maria,

Historia de la Edad Media, Barcelona 1960.

Levi Provencal.

- L'Espagne Musulmane au xé Siécle, Paris 1932.

-Histoire de I'Espagne Musulmane ;3 volumes, 2a ed. Paris 1948.

-Les Historiens de Chorfa, Paris -Larose 1922.

F. Lot, Ch.Pfister et F.L. Ganshof,

Les Destinées de l'Empire d'Occident, de 395 á 888. (Histoire du Moyen-Age de Glotz) tome I, Paris 1940, p. 233-253.

Luis Gonzales de Azevedo

Histoire de Portugal, Lisboa, 1942-1944 .

Marcais, George,

L' Architecture Musulmane d' Occident, Paris 1954.

أبو زكريا ، كتاب للسير وأخبار الأئمة « الإباضية فى المغرب » نشر قطعة منه مع ترجمة فرنسية (ماسكراى) بعنوان :

Masqueray, Chronique d' Abou Zakaria (Livre de Beni Mzab)

Alger, 1878.

Mercier, Ernest,

Histoire de l' Afrique Septentrionale, Paris 1981 .

J. E. Martinez Fernando.

Jaime II de Aragon - Su Vida Familiar, Barcelona 1949.

Menendez Pidal, Ramon.

La Espana del Cid, 2 vols. Madrid 1940.

Moreno, Manuel Gomez,

- Arte Arabe Espanol hasta los Almohades.

- Arte Mozarabe. Volumenes III y IV de Historia Universal del Arte Hispanico, Madrid 1951 -1954.

Pellegrin A, Histoire de la Tunisie, Tunis 1948.

W. Piskorski,

Las Cortes de Castilla en el Periodo de tránsito de la Edad Media á la Moderna (1188 - 1520) Barcelona 1933.

E. Saavedra,

Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1892.

C. Sanchez Alboronoz,

Espana un enigma historica, Buenos Aires, 1926.

Torres Balbas, Leopoldo,

Arte Califal (Historia de Espana dirigida por R. Menendez Pidal) tomo V , 2a ed. 1956.

Fr. Simonet,

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1904.

M. Torres, El Estado Visigotico.

Algunos datos sobre su formacion y principios fundamentales de su organizacion en Anuario Hist. Der. Espanol III, 1926 y p. 307-457.

Wansbrough, John,

On recomposing the islamic History of North Africa.

Journal of the Royal Asiatic Society.

أما التـواريخ العامـة لإسبانيـا فكثيرة ، أشرنا إليهـا فى المدخل الببليوغـرافى لتاريخ الأنـدلس (ص ٢٤١ وما بعدها من ذلك الكتاب) ومعظم هذه الكتب تحمل عنوان :

Historia de Espana

Historia General de Espana

وأهمها ما ألفه

Ambrosio de Morales, Esteban de Garibay, F Juan de Mariana,

Alejandro Herculano, Antonio Alcala Galiano, Modesto Lafuente,

Rafael Altamira,Ramon Menendez Pidal.

Antonio Ubiezto, Juan Regla, José Maria Jover,

Introduccion a La Historia de Espana, Barcelona 1963.

الفهـارس العامـة

* فهرس الأعلام .
* فهرس الأماكن والبلدان والجبال .
* فهرس القبائل والطوائف والآل .
* فهرس الكتب والمجلات .
* الخرائط .
* فهرس موضوعات الكتاب .

فهرس الأعلام

ب

ت

ش

غ

ف

ن

هـ

و

ى



فهرس الأماكن والبلدان والجبال

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

ص



ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

و

★★★

فهرس القبائل والطوائف والآل

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ن

هـ

و

ى

فهرس الكتب والمجلات



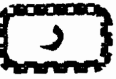
ب



ج



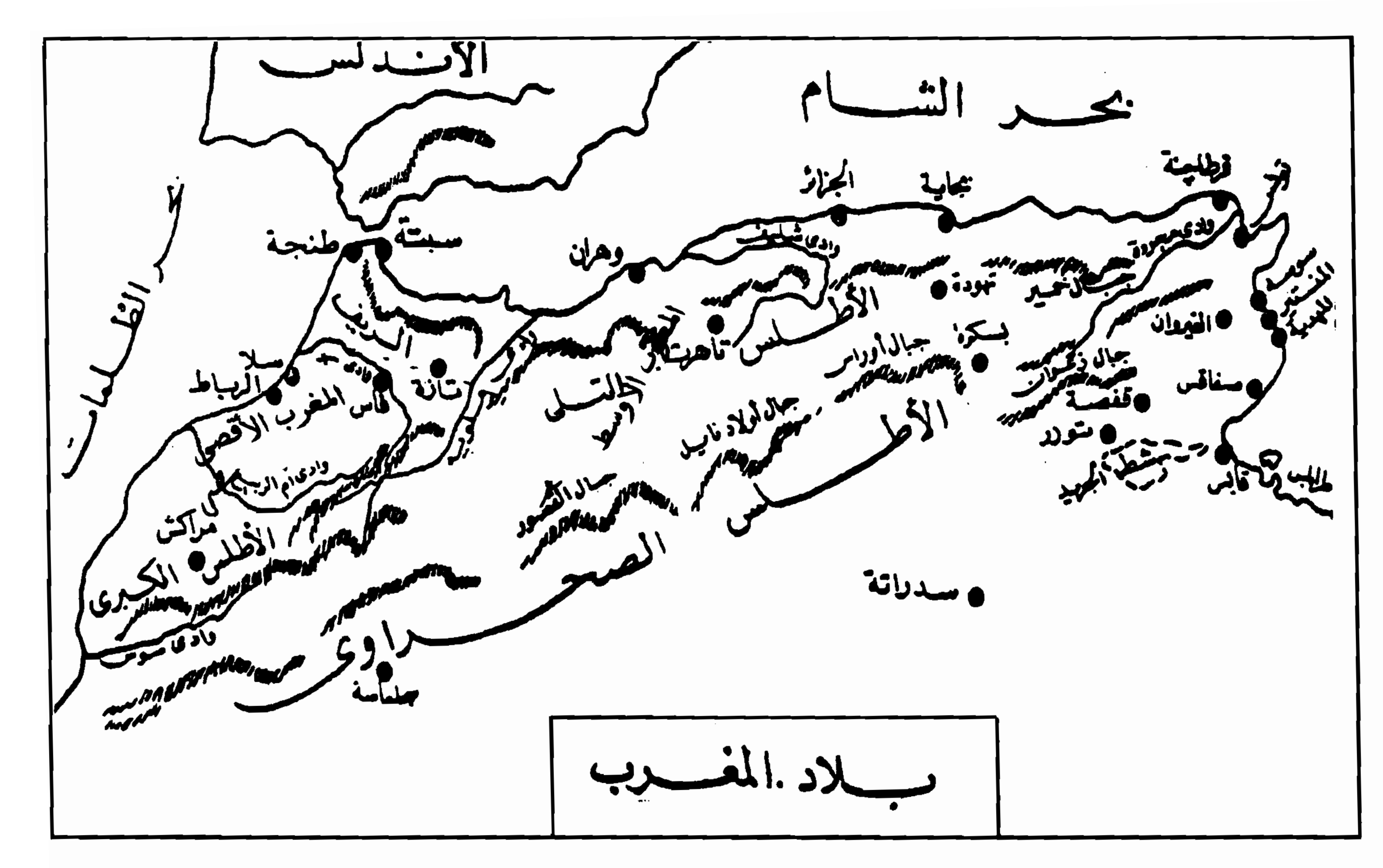
د



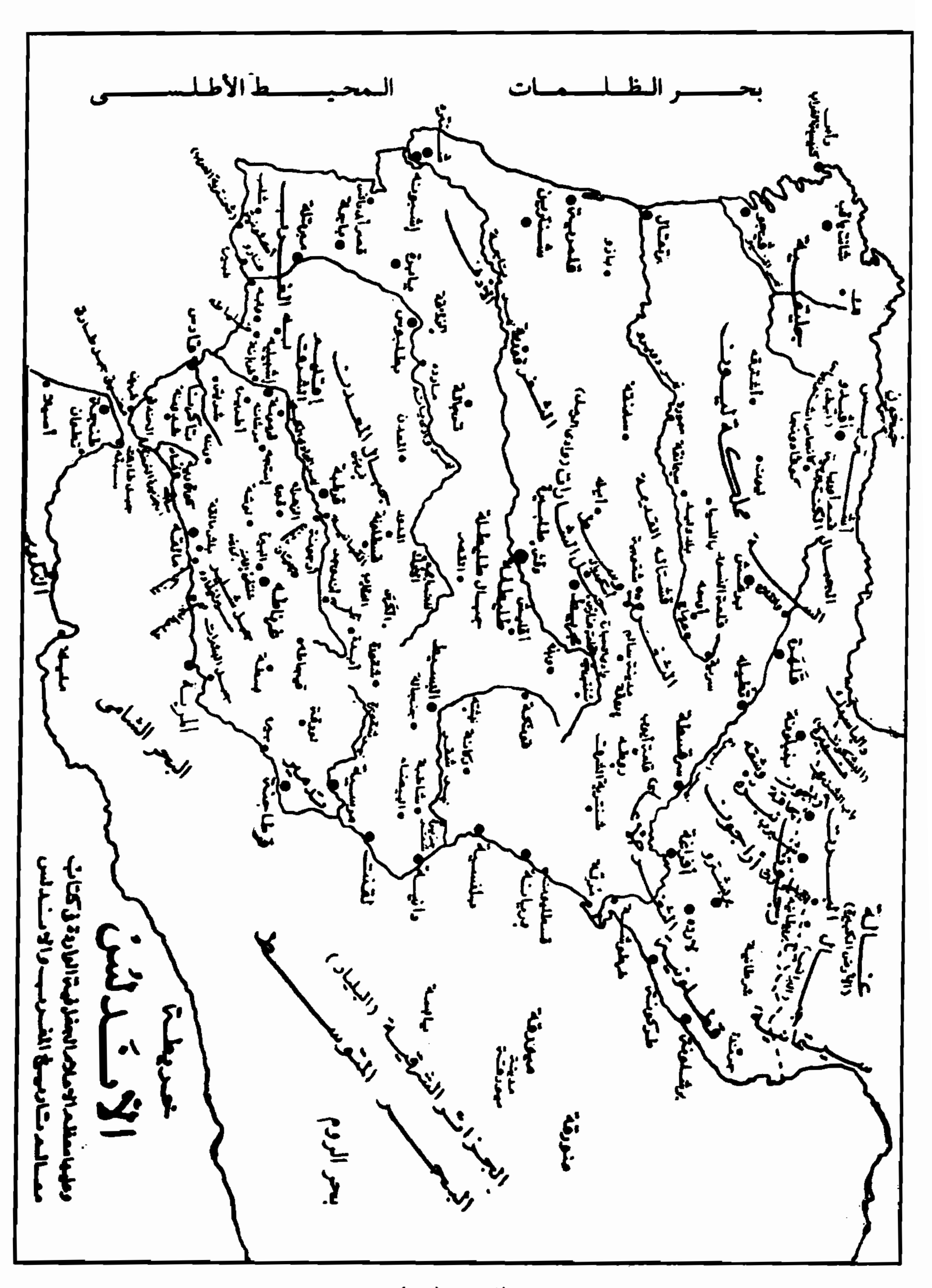


ش

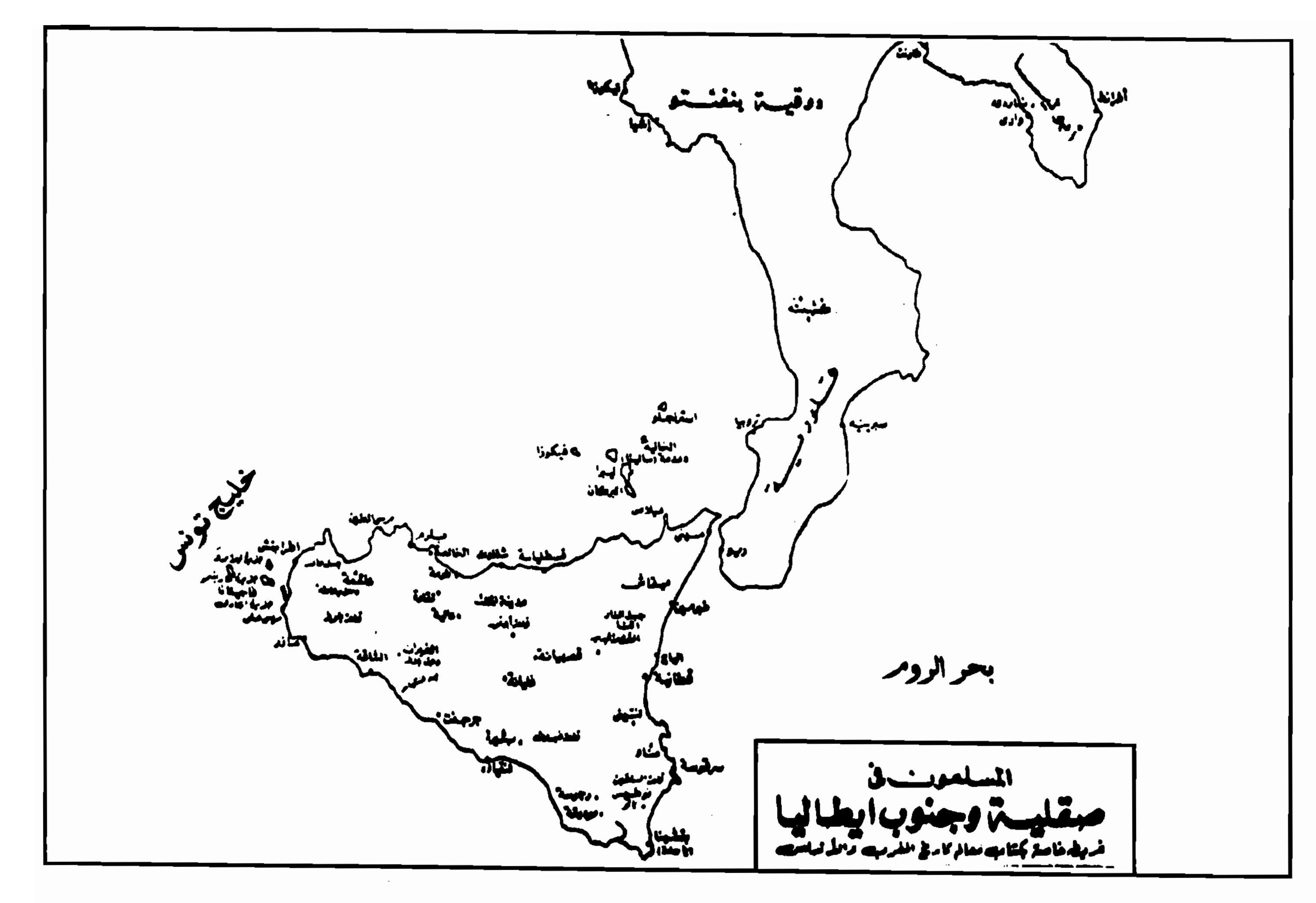
★★★


الأندلس
بحر الشام
بحر الظلمات
طنجة
سبتة
وهران
الجزائر
بجاية
قرطاجنة
تونس
تيهودة
بسكرة
جبال أوراس
القيروان
سفاقس
قفصة
توزر
قابس
سلا
الرباط
فاس
المغرب الأقصى
تازة
مراكش
الأطلس الكبرى
الأطلس
الصحراوي
سجلماسة
سدراتة
جبال أولاد نايل
تاهرت
بلاد المغرب

خريطة رقم (١)


بحر الظلمات
المحيط الأطلسي
البحر الشامي
بحر الروم
الجزائر الشرقية (البليار)
خريطة الأندلس

خريطة رقم (٢)



المسلمون في
صقلية وجنوب ايطاليا
خليج تونس
بحر الروم
دوقية بنفنتو
قلورية

خريطة رقم (٣)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

